صبرى أبو المجد

مذكراتى فى السجن

٩ مارس ١٩١٩ - ٢٤ فبراير ١٩٤٥

الجزء الأول



صبرى أبو المجد

مذكراتى فى السجن

صفحات مطوية من تاريخنا الوطنى

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الى شعب مصر العظيم ، النبيل ، أهدى هذا الكتاب :

الى شعب مصر ، العظيم النبيل ، الذى يسعدني ويشرفنى الانتماء اليه ، الارتباط به والاعتزاز بماضيه وحاضره ومستقبله .

الى كل أبنائه ، وبناته : شيبه وشبابه : صبيانه ، وأطفاله ، الى كل فرد فيه : أهدى هذا الكتاب الذي ولد وتربي وترعرع في السجن ، السجن الصغير ، الذى كان يحتوينا دون أن نحتويه ، طوال الأربعينات ، ثم لفترة قصيرة ـ ولكنها مريرة ـ في أواسط الخمسينيات

واذا كنت أهدى كتابى هذا ـ وهو أحب أبنائى الى ، ولا أقول من أحب أبنائى الى ـ الى شعب مصر العظيم ، الذى أحببته ، بل عشقته وتيمت به ، ووقفت عليه حياتي كلها : عشت له ، وبه ، فاننى أخص من بين جماهير ذلك الشعب ثلاثة من الأبناء كان لهم على فى السجن أثر كبير وخطير ، بل آثار كبيرة وخطيرة لا أقول خففت عنى غلواء ما كنت الاقيه وأقاسيه فى ذلك السجن وحسب وانما أنقذت حياتى من موت مؤكد :

أول هؤلاء الثلاثة عم سيد : عم سيد العشرى .

وعم سيد هذا كان أشهر سجين فى مصر فى الفترة من عام ١٩٠٨ حتى ١٩٤٥ .

كانوا يسمونه « اللومان » لكثرة ما قضى من سنوات فى سجون مصر .

لقيت عم سيد هذا فى « الحبسخانة » بقسم روض الفرج فى فبراير ١٩٤٥ ، وكنت معتقلا ، وسجينا فى قضية مقتل أحمد ماهر ، يرحمه الله ٠

وهناك فرق بين السجن والمعتقل ٠

أن تكون مسجونا فذلك يتم بأمر النيابة أو بحكم من القضاء ٠

وان تكون معتقلا فذلك يتم عادة بأمر الحاكم العسكرى العام ٠

وقد كنت سجينا فى قضية مقتل أحمد ماهر ، لمدة ستة عشر يوما ٠

وبعد أن أطلق سراحى عبد الرحمن الطوير باشا النائب العام ، وغادرت مكتبه فى سراى محكمة الاستئناف بباب الخلق ، تلقانى البوليس السياسى بقرار اعتقال صادر من الحاكم العسكرى العام ، أبقانى فى السجن أكثر من عام ٠

فى منتصف الأيام الستة عشر الأولى وصل الى « الحبسخانة » عم سيد العشرى ٠

وكانت « الحبسخانة » تستضيف ثمانية أفراد : أربعة من المساجين السياسيين ، كنت واحدا منهم ، وأصغرهم سنا فى نفس الوقت ٠

والأربعة الآخرون كانوا من عتاة المجرمين الذين اعتقلهم الحاكم العسكرى العام لخطورتهم على الأمن العام ٠

من بينهم « ملك الخزن » « أقدر » واحد على سرقة خزائن البنوك ومحلات المجوهرات ٠

ومن بينهم ملك الكاوتش ، الذى تخصص فى سرقة السيارات ونزع الكاوتشوك منها فى دقائق قليلة فى عملية قياسية ٠

ومنهم اثنان ممن يستأجرون فى عمليات القتل ٠

ولم يستطع البوليس ، أن يضبطهما متلبسين فكان يفرج عنهما بحكم القضاء وكانا يعتقلان ـ باستمرار ـ بأمر الحاكم العسكرى العام ٠

★★★

كان هؤلاء الأربعة قد فرضوا الأحكام العرفية فى « الحبسخانة » واستولوا على ما كان معنا من نقود وملابس ، بل كانوا يتناولون ما يأتينا من الخارج من مأكولات قبل أن تمر علينا بحجة « أن المية لا تفوت على عطشان » ٠

وكنا في الحبسخانة - لظروف القضية - نأكل من بعض المطاعم التي تثق بها الحكومة ، حتى لا تهرب الينا عن طريق المأكولات بعض الممنوعات ، على أن ندفع نحن ثمن تلك المأكولات مضاعفا بطبيعة الحال ٠

عندما وصل عم سيد تحول الأربعة « العمالقة » الكبار الى أقزام ، فما يجوز لهم أبدا أن يرفعوا اصواتهم في حضرة « اللومان » ٠

عم سيد هذا دخل السجن لأول مرة عام ١٩٠٨ ، لأنه وهو « صبي جزمجي » في طنطا ، ضرب زميلا له بسكين كانت في يده فقطع يده ، وقضى عليه بالسجن ثلاث سنوات مع الأشغال الشاقة ٠

وفي سجن طرة - حيث جرى تنفيذ الحكم في عم سيد - رأى عم سيد أحد « الشاويشية » يقدم لأحد زملائه المساجين الخبز على حذائه، بعد أن يلطخه بالأوساخ مبالغة في اذلاله ، فقام عم سيد « بقلع » عين الشاويش بأصبعه ، ثم وضعه في المجاري ٠

وكان نصيب عم سيد « سنوات خمس سجنا » أضيفت الى الثلاثة الأولى ٠

وتصادف أن كان رئيس عم سيد في ورشة الأحذية ، « جزمجي »، اسمه محمد نجيب لا يتعامل الا بالرشوة : من يعطيه نقودا أو سجائر ، يخفف عنه عبء العمل ، ومن لا يعطيه يضاعف له العمل ٠

تضايق عم سيد من محمد نجيب هذا « وخبطه » بالشاكوش وأخذ فيه - كما قال لي - خمس سنين ٠

★★★

وكان في السجن - كما قال لي عم سيد - « واحد يوزباشي قنزوح » قوي « محدش عاجبه في الدنيا أبدا » ٠

وكان يعاملنا كأننا مواشي بل أفظع مما تعامل به المواشي من غلاظ الأكباد الذين لم تعرف الرحمة قلوبهم ٠

وكان لا يدعنا - في الجبل - نأخذ « نفسنا » ٠

أنذرته مرة ، ومرة أخرى ، ومرة ثالثة ٠

وعندما لم يستجب لانذاري هويت على راسه « بالعتلة » ولم اتركه حتى فارق الحياة ٠

وأخذت فيه أيضا خمس سنين ٠

ويأبى عم سيد الا أن يشتغل — فى السجن — سياسة ، وكان الانجليز قد قبضوا على أحد الوطنيين المصريين متهمين اياه بأنه يعمل جاسوسا لتركيا ، قبضوا عليه قرب مريوط ، وحاكموه ، وقضوا عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة ٠

وأعدت فى خارج السجن مؤامرة من بعض العاملين فى الحقل الوطنى لتهريب زكى شكرى ، وهذا اسمه ٠

وكان زكى شكرى قد أفضى بالسر الى أحد زملائه المساجين الذى قام بالابلاغ عنه قبل أن يكتمل تنفيذ المؤامرة ٠

وحكم على زكى شكرى بالجلد : « غضبت » « واتغظت » من السجين ده وتألمت لحال الرجل الطيب ، الذى كان يصرخ من عملية الجلد ، وامسكت السجين وذبحته ، وأخذت فيه عشر سنين » ٠

★★★

قضى عم سيد كل هذه السنوات فى السجن ، وأصبح أكبر مجرم فى سجون مصر ، ثم أفرج عنه بعد أن جاوز الستين من عمره ٠

ثم عادوا فقبضوا عليه من جديد ، عندما وجدوه يتردد على كثير من المسجونين السياسيين الذين تعرف عليهم فى السجن ، وتعرفوا عليه ، وكانت تربطه بهم صلات وثيقة ٠

ووضعوه فى قسم عابدين وأحس الرجل بالظلم ٠

وكان الملك فاروق يمر بشارع ابراهيم باشا الذى يطل عليه قسم عابدين مرتين كل يوم على الأقل ٠

فكان عم سيد يقف فى نافذة السجن ، عند مرور الموكب الملكى ، هاتفا ضد « الظلم ، والظلمة » ٠

وتقرر نقله بعيدا عن طريق الموكب الملكى ، الى قسم روض الفرج حيث « الحبسخانة » أعتى سجن فى أقسام مصر ٠

عاملنى عم سيد من أول وهلة وكأننى ابنه ٠

ولم يكن قد أنجب لأنه لم يكن قد تزوج ٠

وأعلن حمايته لى ٠

ثم راح يخفف عنى غلواء السجن ومتاعبه ..

لم يكونوا يسمحون لنا بأغطية كافية فاصر على تنفيذ لوائح السجون علينا ولم تكن تنفذ من قبل فجاءنا الغطاء .

ولم تكن نخرج لدقيقة واحدة خارج السجن ففرض على مأمور السجن — طبقا للوائح السجون — فسحة فى فناء السجن لمدة ربع ساعة فى اليوم .

وعندما أفرج عنى النائب العام وأصبحت معتقلا — لا سجينا — مثله راح يطلب لى وله كافة حقوق المعتقلين .

المهم عم سيد هذا حمانى من بقية الذئاب التى كانت معنا فى السجن .

وأعطانى معلومات عن كل المساجين السياسيين الذين دخلوا السجون المصرية بدءا من عام ١٩٠٨ حتى عام ١٩٤٥ .

***

وكان عم سيد يحتفظ معه بأوراق كثيرة لم تكن تفارقه حول قضاياه كلها بالاضافة الى أجندة عتيقة أختى عليها الدهر ، كتب فيها كبار المسجونين السياسيين تحياتهم وأمنياتهم وشكرهم ، واعترافهم بأفضال عم سيد شعبان العشرى ، عليهم داخل السجن .

بقى أن تعلم أنه عندما تولى عبد الحميد عبد الحق باشا وزارة الشئون الاجتماعية وكانت تتبعها السجون اختار عم سيد عضوا فى « لجنة اصلاح السجون » بوصفه خبيرا .

خلال الثلاثة عشر شهرا التى قضيتها سجينا ومعتقلا فى قضية مقتل احمد ماهر ، كان عم سيد العشرى الوحيد الذى خفف عنى عذاب السجن والاعتقال .

ولولاه لكنت قد انفجرت من الداخل ، فقد كان ما لاقيته فى « الحبسخانة » — وكما سيجىء فى هذا الكتاب — لا يمكن لبشر احتماله وتحمله فما بالك بشاب صغير السن .

***

أما الآخران : عم عبده ، والشاويش متولى فهما سجانان .

كان أولهما فى سجن مصر « قرة ميدان » .

والثانى كان شاويشا فى سجن البوليس الحربى بعابدين ، أعتى وأقسى وأعنف سجون مصر جميعها بل سجون العالم .

وأنا ـ بدون مبالغة ـ مدين للاثنين ـ عم عبده ، والشاويش متولى ـ بحياتى : كنت قد اتهمت فى عام ١٩٤٧ فى قضية قنابل ٦ مايو ، وكنت بريئا مما اتهمونى به ٠

وليس هناك ما هو أقسى من أن يلقى بانسان فى السجن ، ويعذب تعذيبا شديدا ، وهو برىء ٠

برىء بل انه لا يعرف شيئا من قريب أو من بعيد عما يتهمونه به ٠

★ ★ ★

كانوا قد وضعونى فى زنزانة رهيبة فى دور ٢ بسجن مصر ٠

امتلأت بكل الهوام والحشرات ٠

ولم يكونوا يسمحون لى الا بجردلين أحدهما به مـــاء للشرب ، والآخر خال من أى شىء ٠

ولابد من أحمل معى هذين الجردلين فى الساعة السابعة من صباح كل يوم حيث يسمح لى بعشر دقائق أو ربع ساعة اذا ما كان الشاويش رجلا طيبا فى دورة المياه ٠

وكانوا قد علقوا على باب الزنزانة اسمى وكانت التهمة الموجهة الى « قتل آخرين » ٠

وكانت الحرب النفسية الشديدة معلنة بكل قوة وعنف ٠

وكانت الزنازين التى حولى خالية حتى لا أستطيع التحدث الى أحد عن طريق الاتصال الشبابيكى ـ نسبة الى شبابيك الزنازين ـ ٠

وكان العدس الذى يفرض على تناوله ليس عدسا حقيقا ، وانمـا هو ديدان بها ملعقة عدس ٠

وغاظنى أكثر من ذلك كله أن « المجرمين » الحقيقيين كانوا ينعمون بكل شىء ، زنازينهم مفتوحة باستمرار ٠

طعامم يأتيهم من الحاتى ، وجزوبى وسميراميس ٠

اشهى أنواع الفاكهة التى لم تكن متواجدة فى الاسواق تمتلىء بها زنازينهم ٠

بل أكثر من ذلك كان بعض ضباط البوليس السياسى يذهبون بهم

كل ليلة الى السينما والى بعض الملاهي حتى يعترفوا ، بما يريد البوليس السياسى أن يعترفوا به ٠

قررت الاضراب عن الطعام ، ونفذت القرار ٠

كان أطباء السجن يترددون على فى الأيام الأولى للاضراب صباحا ، ومساء ثم رابط بعضهم فى زنزانتى ٠ بعد أن تدهورت حالتى ٠

ورفضت الانتقال الى مستشفى السجن : تلقيت رسائل مكتوبة من أساتذتي : حافظ رمضان ، عبد الرحمن الرافعى ، عبد المقصود متولى، فكرى أباظة لاثنائى عن الاضراب عن الطعام ٠

ألح على زملائى وأصدقائى داخل السجن وخارجه وكانوا قد سمحوا لبعض هؤلاء الزملاء والأصدقاء بزيارتى بعد أن اقترب شـــبح الموت منى فى أن أقلع عن الاضراب ٠٠ فشلوا فشلا ذريعا ٠

ساءت حالتي للغاية وكان جسمى فى الأصل ، ضعيفا فأنا لم أكن منذ السابعة من عمرى أتناول اللحوم ٠

راح الأطباء يتوقعون وفاتي بين لحظة وأخرى اذ كنت أرفض حتى المياه ٠

كانت قد تملكتني فكرة لم يســتطع أحد زحزحتهــا عن فكرى ووجدانى ٠٠

لماذا لا أموت ، ويكون موتي بمثابة ناقوس يدق معلنـــا للمسئولين ضرورة الالتزام بالحق والعدل ؟

يجوز أن يكون موتى محركا لضمائر هؤلاء المسئولين !! الى آخر تلك الفكرة الرومانسية ٠

★★★

وكان عم عبده حارس الليل ، وكنت أرى وأحس فى كلامه الصدق والأمانة والأخلاص والانسانية والطيبة الزائدة ٠

وكانوا رغم اضرابى عن الطعام يقفلون على الزنزانة ولا يفتحونها الا للطبيب ٠

وكان عم عبده يتحدث الى من خلال فتحة ضيقة فى باب الزنزانة، تماما كما كان أبى يتحدث الى :

« يا ابنى حرام عليك ، ليه تعذب أمك وأبوك ؟ اذا كنت أنت مش هامك نفسك وحياتك ، اهتم بحياة الأب ، والأم » ٠

أنت مش متصور حالتهم حتكون أيه بعد ما تموت ؟

دول حيحصلوك في نفس الاسبوع » .

وذات ليلة دخل عم عبده فى « الغويط » كما قال : أنت ابنى ، وابنى مات واخشى أنك أنت تموت .

صدقنى ، حتموت فطيس ، أنت فاكر ان موتك هيهز ضمايرهم، نبقى واهم ، غلطان ، جتروح فى شربة ميه ، ولا من شاف ولا من درى .

ايه اللى حيحصل بعد ما تموت : سطرين ثلاثة من دكاترة السجن يقولوا فيها انك انتحرت .

ويمكن يقولوا كمان انك انتحرت لأن حبيبتك اتخلت عنك لما دخلت السجن » .

وظل عم عبده ، يطرق على هذه النغمة الى أن نجح فى هز فكرة الاضراب عندى فما كان منى الا أن استجبت لندائه .

وأنا الذى رفضت نداء الآخرين .

وقررت انهاء الاضراب على يدى عم عبده .

ولا زال صوته ، ولا تزال صورته يمثلان امام النفس والعقل والقلب والوجدان حتى هذه اللحظة بوصفه منقذى من الموت .

الموت ، الذى لم يكن هنـــاك من مبرر على الاطـلاق له فاقتل نفسى بنفسى .

لولا عم عبده لكنت من عام ١٩٤٧ فى عداد الراحلين « فطيس » كما قال . !!

★★★

أما الشخص الثالث ، الذى يسعدنى ويشرفنى أن أهدى اليـــه كتابى هذا فهو الشاويش متولى : شاب فى الخامسة والعشرين من عمره، ساقته ظروف العمل أن يقف على بوابة ما يسمى « بالجب » : ســجن البوليس الحربى بعابدين ـ محافظة القاهرة الآن أو جزء من محافظة القاهرة بمعنى أدق ـ كنت قد اعتقلت فى نهاية يونيو ١٩٥٥ بسبب ما عرف بحادث اســتفتاء المصــور الذى أجمع به ٩١٪ من عشرة آلاف مصرى ومصرية استفتيتهم على نظام الحكم بعد فترة الانتقال ، اجمعوا على ضرورة عودة الديمقراطية وانشاء أحزاب جديدة .

وكانت تلك الدعوة وقتئذ شبيئة ادا .

وكنت قد قضيت ليلة ليلاء في وزارة الداخلية محاطا بعشرات من الضباط والجنود وكأنني سفاح قبض عليه ويداه ملطختان بدماء العشرات ٠

وكان الأستاذ علي نور الدين وكيل النائب العام قد وصل في ساعة مبكرة من الصباح للتحقيق معي ٠

وقد أصدر قراره بالافراج عني لأنه لا جريمة فيما نشرته بالمصور من المطالبة بعودة الاحزاب ٠

ولكنهم نقلوني الى « الجب » : سجن البوليس الحربي ٠

وكان منظري يدعو حقا الى الرثاء ، الليلة السابقة قضيتها على كرسي خشبي لا أتحرك منه الا الى دورات المياه ٠

لا غذاء على الاطلاق ، بل ان المياه كانت تقدم في كوز صفيح نأباه المواشي ٠

ولسبب لست أدريه الا أنها عناية الله ، التي تلازمني باستمرار ، ودعاء الوالدين كما يقولون ، تحركت عاطفة الشاويش متولى لمجرد رؤيته لي : « صعبت عليه » ، أحس بأنني مظلوم ٠

سألني وكان رادارا نفسيا يحرك قلبه : أنت منين ؟ وظهر أنه بلدياتي ٠

***

واستدعى الشاويش متولى زملاءه الذين يعملون داخل « الجب » قائلا لهم في حزم واصرار : الراجل ده بلدياتي واللي حيمد ايده عليه أنا حافرغ الطبنجة دي في كرشه » ٠

ونزلت مائتي درجة تحت الأرض ، كانوا يربون الهوام والحشرات الضارة في ذلك الجب في كل زنزانة ويقسمونها بالعدل والقسطاس على المسجونين ٠

وفي كل ركن كانت أكوام من تلك الحشرات أشبه ما تكون بأكوام القمح في الجرن ٠

***

وكان هناك العسكري الأسود الذي كان يتبختر بين الزنازين عاريا كما ولدته أمه ، بقامته الرهيبة والمخيفة ٠

أنجانى الشاويش متولى من كل ذلك كما أنجانى من احدث وسائل التعذيب التى اشتهر بها ذلك السجن ، الذى يعتبر السجن الحربى بالنسبة اليه هيلتون وشيراتون وانتركونتننتال ·

الساعات التى قضيتها فى ذلك الجب كانت أصعب ساعات فى حياتى كلها : كنت أسمع بين حين وآخر صيحات زملائى المساجين كما كنت أسمع قهقهة العسكرى الأسود أشبه ما تكون بصهيل الخيل الجامح ·

وكانت مهمتى فى تلك الساعات أن أحمى نفسى من الهوام التى تزحف الى جسمى وهى بالآلاف ·

وفى تلك اللحظات حقيقة تمنيت الموت بل لو كنت أستطيع الوصول اليه بأية طريقة ما تأخرت ·

ويأبى الشاويش متولى الا أن يبعث الى بساندويتشات بيض وطعمية ، وفول ، اشتراها من ماله الخاص : صحيح اننى لم أكن استطيع الاقتراب منها لأنه سرعان ما تجمعت بداخلها وحولها الحشرات ، ولكننى شعرت بمجرد وجودها الى جانبى بأن الدنيا لا تزال بخير ·

***

الصورة التى تناقض صورة الشاويش متولى تماما والتى لا زالت ماثلة فى ذهنى وقلبى وأنا أكتب هذه الكلمات : صورة أخ وزميل وصديق ، « ودفعة واحدة » فى كلية الحقوق جامعة فؤاد (القاهرة) : ابن باشا ، واخوته كلهم باشوات ، وهو بك من الدرجة الأولى وكان يملك ألوف الأفدنة قبل تطبيق قانون الاصلاح الزراعى ، استنجدت به فى موقفى الضعيف هذا ، طلبت منه الشهادة فأنكرها ، ذلك أننى فى المساء استدعيت لمقابلة أحمد أنور بك قائد البوليس الحربى وقتذاك ·

وتم اجراء تحقيق آخر معى بمعرفة البوليس الحربى ، بعد تحقيق البوليس وتحقيق النيابة العامة ·

ولقينى احمد أنور بك بعد انتهاء التحقيق الذى أجرى بمعرفة البوليس الحربى وقلت له : أنتم تتصورون أن وراء الاستفتاء هذا حزب الوفد المنحل ، وأنا لست وفديا ، ولم أكن فى يوم من الأيام وفديا بل اننى كنت فى الجامعة أختلف مع الوفديين وخاصة عندما يكونون فى الحكم ، وان كنت فى شك مما أقوله فتستطيع ان تسأل المستشار

عبد الخالق فريد ابن الزعيم الوطني محمد فريد ٠٠ أنا حزب وطني »٠

وقد ذكرت اسم عبد الخالق فريد بالذات لأنني أعرف أن أحمد أنور يعرفه ، بل هو نسيبه ، صهره يعني !!

في تلك الاثناء دخل رميل ، صديق ، « دفعتي » ، كانت بدلته الشركسكين البيضاء تلمع ، وكرافتته السولكا ، تكاد تنطق على ما يتميز به صاحبها من ثراء فاحش ٠

وطلبت النجدة : قل يا فلان ، قل لأحمد بك انا مين ؟ ،قل له انني حزب وطني ولست وفديا ، اذكر له بعض المعارك التي كانت تقع بيننا في كلية الحقوق بصفة خاصة وفي الجامعة بصفة عامة » ٠

ثم توقفت عن الكلام بعد ان كادت تخنقني الدموع ، فقد كان ما أخشاه أن أعود من جديد الى الجب اياه ٠ وفوجئت بالأخ الصديق « الدفعة » ، ابن الباشا ، حفيد الباشا والذى في اسرته خمس أو ست باشوات سابقين ٠

★★★

فوجئت به يقول لى وهو يكاد يخفي وجهه عني : يا عم أنا مالى ، أنا طلقت السياسة من زمان ، انا ماليش دعوة ، أنا جاى بس عشان آخذ أنور بك الى « برتيتة » الليلة دى في بيت واحدة صاحبتنا ٠٠

وقارنت بين موقف الأخ والصديق والزميل ، والدفعة ، ابن الباشا وحفيد الباشا ، الحاصل على ليسانس الحقوق ، المحامي ، الصحفى ابن الاصول » وبين موقف الشاويش متولى الأمى ، الفقير ، الجاهل ، الذى لم يدخل مدرسة بل ولا كتاب ، والذى لم أعرفه من قبل ولم التق به يوما ما ٠

وكادت تقفز من عيني دمعة حزنا على موقف الصديق والزميل والدفعة ، ولكنني « استخسرتها » فيه !! ٠

★★★

ولقد ظللت باستمرار ابحث عن « عم سيد العشرى » و « عم عبده » والشاويش متولى بل أكثر من ذلك أعلنت في بعض الصحف عن رغبتي في لقائهم دون جدوى ٠

اختفوا جميعا ٠

كنت آمل أن أرد لهم بعض أفضالهم على ولكنهم ضنوا على بأن يعطونى تلك الفرصة لتظل أفضالهم دائما وأبدا فى عنقى الى أن القى ربى ·

ولعلى باهداء هذا الكتاب اليهم ، باعتبارهم ممثلين أصدق تمثيل لشعب مصر العظيم فى نبله وشهامته وأصالته ووطنيته ، وانسانيته ، آكون قد وفيتهم بعض حقهم على ، لقد أسدى كل واحد منهم الى أكثر من جميل ·

وعجزت طيلة حياتى عن أن أرد اليهم بعض ما قدموه الى فلا أقل من أن أهدى اليهم هذا الذى كتبته فى السجن : « حبسخانة » روض الفرج : « قرة ميدان » : سجن البوليس الحربى والذى يسعدنى اليوم أن أقدمه الى أبناء وطنى الذين أحببتهم ووقفت كل حياتى على الدفاع عن قضاياهم ·

ولينس فى هذا الكتاب الذى أتعبنى ، أكثر مما أتعبنى اى كتاب آخر لى والذى كتبته أكثر من مرة لأنهم فى السجن كانوا يستولون على الأوراق التى نكتبها ولا يردونها أبدا الينا ·

ليس فى هذا الكتاب سوى ذكريات ومذكرات لواحد من جيل المعاناة عاش طيلة حياته مدافعا عن وطنه ·

ولم يلق يوما السلاح حتى بعد أن تكسرت النصال على النصال ·

ظل حتى بعد أن كبر ولا أقول شاخ فجنود الوطنية لا يشيخون ، ظل رافعا رأسه باستمرار ·

وسيظل كذلك الى أن يلقى وجه ربه الكريم ·
والله ولى التوفيق ·

صبرى أبو المجد

الباب الأول

الفصــل الأول

مجتمعنا الأول كان مثاليا للغاية
زرع فينا بذور الحب والود والتعاون
فى أيامنا الأولى

الحرية أثمن ما فى الوجود وأغلى ما فى الحياة بل انه لا وجــــود للوجود بدونها ، ولا حياة للحياة الا معها ٠

ولذلك فان كثيرين يفضلون الحرية على الصحة والمال ، فما فائدة الصحة اذا لم تكن حرا فى التمتع بها ٠

وما قيمة المال اذا حيل بينك وبين الاستفادة منه كمـــا تهـــوى وتريد ٠

وليس هناك ابدا ما هو أشد ايلاما للنفس وللجسد معا من الحرمان من الحرية ٠

وليس هناك أبدا أقسى على الانسان ــ أى انسان ــ من أن تقيد حريته أو جزءا من حريته لفترة تقصر أم تطول ٠

* * *

قد يصبر المرء على المرض أو على الجوع أو على الحرمان من أية متعة من متع الحياة ، ولكنه لا يصبر على الحرمان من الحرية ٠

ومن نعم الله على الذين حيل بينهم وبين حريتهم أن أبقى لهم حرية التفكير وحرية التصور ، أو التخيل ٠ وهم سجناء أو معتقلون ٠

فقد يحال بين المرء وبين أن يأكل ما يريد أو يلبس ما يرغب فيه أو ينام كما يهوى الا وفق اشتراطات معينة ، ولكن لا يمكن لهؤلاء الظلمة المقيدين لحرية الآخرين مهمـــا اشـــتطوا أن يحرموا هؤلاء المعتقلين أو المسجونين من أن يفكروا فى أنفسهم لأنفسهم ، أو يعيشـــوا داخـل تصوراتهم وتخيلاتهم الخاصة ·

★★★

وأقسى أنواع الظلم أن يحرم المرء من حريته بدون وجه حق فيضاف الى مرارة الحرمان من الحرية مرارة الظـلم الواقع عليه لحرمانه من تلك الحرية ·

وقد يحتمل المرء أن تقيد حريته أو أن ينزل به الظلم ، ولكنـــه لا يحتمل ابدا أن تقيد حرية وطنه أو أن ينزل الظلم بشعبه : حينئذ تكون قسوة الحرمان أو الظلم مضاعفة للغاية ، ولا سبيل لاحتمالها الا بشق الأنفس ·

★★★

وللناس فى الحرية مذاهب شتى ، وآراء مختلفة ، فالحرية المطلقة — مثلا — لا وجود لها ، لا فى الماضى ، ولا فى الحاضر ، ولا فى المستقبل الا فى اذهان الفوضويين ·

والقول الصحيح ، أن حـــرية المـــرء تنتهى حيث تبدأ حـــرية غيره ·

وأنه لابد للمرء من أن يتنازل عن جزء مما يعتقد أنه حريته لصالح المجتمع ·

وكما يطيب لى التمسك بحريتى والدفاع عنها ازاء اعتداءات الآخرين فانه يجب أن يطيب لى أيضا أن يتمســك الآخرون بحرياتهم وأن أتولى أنا الدفاع عن حريات الآخرين كما أتولى الدفاع عن حريتى الخاصة ·

وللجميع ، الحق فى الحرية ، كحقهم فى الماء وفى الهواء ، وفى الغذاء ·

لا يمكن أبدا القول بأن الحرية للأغنياء دون الفقراء ، أو للمتعلمين دون الجهال أو للشعوب الكبيرة دون الشعوب الصغيرة : انها للجميع بدون استثناء ، وأى اعتداء على حرية الفرد ، انما هو بمثابة اعتداء على حرية الشعب ، بل اعتداء على حريات الأفراد والشعوب عامة ·

★★★

يذكر عن ابراهام لنكولن ـ الرئيس السادس عشر لدولة الولايات الأمريكية المتحدة ـ قوله : اننى لا أطمع فى أن أكون سيدا ، لأننى لا أرضى أن أكون عبدا ٠

★★★

ويذكر أيضا،عن ويندل ويلكى،أحد المحامين والسياسيين الأمريكيين البارزين ـ قوله : الحرية كاملة لا تقبل التجزئة واذا أردنا ان نسعد بها وأن نكافح من أجلها وجب أن نتيح للجميع أن يتمتعوا بها أغنياء كانوا أم فقراء ، اتفقت أراؤهم معنا أم اختلفت ٠

وايا كان جنسهم ولون بشرتهم ٠

★★★

ومما يذكرونه للكاتب الروائى الفرنسى ، بول ايلوار قوله :

على صفحات كراساتى حين كنت تلميذا ٠

وفوق مكتبى المدرسى وعلى جذوع الاشجار ٠

وفوق الرمال ، وعلى وجه الثلج ٠

نقشت أيتها الحرية اسمك ٠

★★★

وفى جميع الصحائف التى قرأتها ٠

بل وفى الصحائف البيضاء و لفارغة ٠

وكذا الصحائف الحمراء بلون الدماء ، أو الرمادية اللون ٠

نقشت أيتها الحرية اسمك

★★★

وفى الأدغال ، وعلى رقعة الصحراء

وعلى أعشاش الطيور والعوسج الشائك

وعلى أصداء طفولتى التى ولت

نقشت أيتها الحرية اسمك ٠

★★★

وعلى المصباح الذى يضىء

وعلى المصباح الذى انطفا

وعلى منازلى التى تجمعت من جديد
نقشت ايتها الحرية اسمك

★★★

وعلى كل فاكهة شطرتها شطرين
وعلى بريق مرآتى وفوق جدران حجرتى
وعلى وسائد فراشى الخالى
نقشت اسمك

★★★

وعلى مثواى الذى أضحى انقاضا
وعلى حطام معالمى التى تهدينى الطريق
وعلى جدران همومى
نقشت اسمك

★★★

وعلى ظلال غيبتى التى لم أشأها
وعلى عزلتى العارية
وعلى خطوات الموت نفسها
نقشت اسمك

★★★

وعلى صحتى التى استعدتها
وعلى الخطر الذى زال واختفى
وعلى كل رجاء لا ذاكرة له
نقشت اسمك

★★★

واخيرا بفضل القوة التى تبثها فى نفسى الكلمة
سأبدأ من جديد حياتى
فقد ولدت لأعرف
ولأعطى لك اسما
انه اسم الحرية .

★★★

وقد تخيل الشاعر الروسى نيكولاى نيكراسوف خاطرا ملحا استولى على نفسه جاء فيه :

أيها الطفل ، بوركت إذ ولدت فى هذه اللحظة
وانى لأضرع الى الله ، ألا يكون الشقاء فى هذه الحياة من نصيبك •
فقد ولدت حرا لا تخشى أحدا منذ البداية •
وستختار العمل الذى يصبو اليه قلبك
وقد تقضى حياتك فلاحا فى الأرض
أو تحلق فى السماء بين أقرانك النسور
ولعل حلمى هذا أن يبعث ابتسامة قريبة
ذلك أن تفكير الانسان كثيرا ما يمتلىء بالخداع
وعلى الرغم من أن أغلال العبودية قد حطمت
فانى أعلم أن شباكا جديدة نصبت
كما ستثبت ذلك الأيام المقبلة
بيد أن الشعب سيتحرر سريعا من هذه القيود
فيا آلهة الشعر مجدى الحرية فى أمل !!

* * *

ولعل خير وآخر ما نذكره هنـــا ما بعث به الشاعر التركى ضياء كوك الى ابنته « حرية » وابنته « سنية » عندما كان سجينا فى مالطة : قال لابنته « حرية » •

ابنتى المحبوبة : انه ليصعب على المرء ، أن يحيا بدون حرية •

ومع أن لى حريتين الا أنى اليوم بعيد عن كلتيهما : وأنت احداهما والأخرى سأستعيدها يوم ألقاك ، ان اسمك نقى مثل جمالك وطيبتك •

سيحين الوقت ، الذى ستصبح فيه جميع الشعوب حرة ، وتتحرر فيه عقلية الأفراد وضمائرهم •

ان الانسانية تقترب من نهاية هذه الأيام المظلمة ، وسينتصر الحق على القوة •

وكما أن شمسا مشرقة تضىء على صفحة هذه السماء الزرقاء •
فان هناك شمسا أكثر بهاء على وشك البزوغ فى أفق الانسانية •
تلك هى شمس الحرية •
الحق نورها ، والحب حرارتها ، ورسالتها •
هى العدالة يا ابنتى المحبوبة » •

تلك كانت رسالة ضياء الى ابنته « حرية » ، أما رسالته الى ابنتـه سنية فقد جاء فيها :

فى ظل الحياة القديمة ، كان كل فرد وكل شعب ، يعيش عـلى حساب الآخرين ·

أما فى الحياة الحديثة فان كل فرد وكل شعب سوف يعيش عـلى حساب الجهد أو السعى المبذول الذى يفتح له اسرار الطبيعة ويكشف له عن كنوزها وخيراتها الخبيئة ·

ان سهولنا ووديانا لن تظل مجدبة أو عارية كما هى الآن ·

بل سوف تغطى الغابات أديم التلال وأشـــجار الفاكهـــة تربة الوديان ·

أما السهول فستكسوها نباتات المحصــولات بعيدانهـــا الخضر النابتة ·

* * *

وفى كل الجوانب ، سوف ترسل مداخن المعامل والمصـــانع وكذا أفرانها وأدخنتها السوداء الى أجواز الفضاء ·

وسيعكف الأولاد على تعلم دروسهم وهم يمارسون ألعابهم ·

وسيجد اباؤهم أن عملهم قد تم انجازه وهم بعد فى نشوة استمتاعهم بأدائه ·

ولن يقدم فرد للمحاكمة بسبب ما يعتنقه من آراء ولن يدان انسان ما بحسبانه مجرما لأنه يحب وطنه ·

ولن يسمح بعد الآن لا للرجال الاخيار وحدهم بل حتى لغير الاخيار ان يرسفوا فى قيود السجن أو أن يعانوا مرارة النفى والغربة ·

ان قوانين المستقبل الذى أتحدث عنه لن تكون قوانين زائفة ·

ولن تكون نواميس الأخلاق نواميس خداعة أو مزورة ·

وحين يأتى هذا العصر المرموق سيكون شعبنا سعيدا ·

والى أن يبزغ فجره يجب علينا من الآن أن نتحمل الظلم ، والدناءة والخسة والسجن ، والعذاب ·

ولكن لن يتحمل الناس هذه الحال طويلا ·

وما دام للناس عقول ، ومثل عليـــا ، وارادة مصـــممة فانهم لن يستكينوا للهوان ابدا » ٠

* * *

وقد كان من سوء حظى أننى ومنذ نعومة أظفارى كنت عاشقا للحرية والانطلاق ٠

أبكى بكاء مرا عندما أعاقب بحرمانى من اللعب مع الأولاد ٠

تكاد الدنيا تظلم فى وجهى اذا ما سمعت ان صبيا - مثلى - من أبناء القرية - تم حبسه فى غرفة مظلمة لذنب ارتكبه ٠

وما أكثر الأوقات - حتى وأنا طفل صغير لا أعى من أمور الحياة شيئا - التى كنت أهرب فيها ، وقبل أن أدخل الكتاب أو المدرسة ، من جدران بيتنا الى جرن القرية ، حيث السماء الصافية والآفاق الرحبة ٠

* * *

ولقد كانت أحلى الأغانى عندى تلك التى تتحدث عن الحرية وعن الحب فى نفس الوقت ، فلست أدرى لماذا - حتى وأنا صغير - كنت أقرن دائما الحرية بالحب ، فالذين يحبـــون لابد أن يكونوا أحرارا ، والأحرار لا يمكن أن يعيشوا الا فى جو كله حب فى حب ٠

وربما كان أهم ما ساعد بذرة الحرية على النمو فى كيانى ووجدانى أننى كنت بدون مطامع ، أو أحلام ٠

لا شىء يمكن أن يأسرنى أو حتى يرضينى أو يبعث الخـــوف فى نفسى ٠

ملابس جديدة : أكلات حلوة ، رحلات ترفيهية ، كل ذلك لم يكن له أية أهمية عندى ، لذلك لم يكن أحد يستطيع أن يحد من رغبتى ، أو حريتى لأنه سوف يعطينى شيئا جديدا أسعد به أو يستطيع ان يهددنى بحرمانى من أية متعة فلم يكن لى - من الصغر - أية متعة ٠

كما أن والداى قد عودانى ومنذ الصغر على التمتع بالحرية على نحو غير مألوف فأنا - مثلا - الذى اختار المدرسة التى التحق بها مهما كانت الاخطاء التى تحدث بسبب هذا الاختيار ٠

ولا أحد يحدد لى وقتا أذاكر فيه أو أعود فيه الى البيت فأنا الذى أحدد كل ذلك بنفسى ٠

بل اننى لا أذكر مرة واحدة سألنى فيها والدى عن نتيجة امتحانى حتى عندما كنت فى ليسانس الحقوق ٠

ومرة غضبت من والدى لأنه لم يسألنى عن نتيجة اتمام الدراسة الثانوية ، وظننت أن فى ذلك منه عدم اكتراث فاذا به يصفعنى صفعة لا أنساها حتى الآن ، لقد قال لى : لثقتى فيك لا أسألك عن نتيجتك فانا متأكد من نجاحك بل ومن تفوقك فى الامتحان ٠

وسكت برهة ، ثم قال : وهو معقول ابنى حيسقط فى الامتحان ٠

قالها وهو يحتضننى ويحتوينى بين ذراعيه القويتين ٠

* * *

وكانت كلماته تلك أقوى من أى تحريض على المذاكرة ٠

بل لقد كانت بالنسبة لى ناقوس خطر يدق فى أذنى ، وقلبى ، ان أنا تكاسلت يوما عن المذاكرة ٠

وأكون مخطئا الخطأ كله ، اذا أنا لم أركز فى هذه المذكرات ـ فى البداية ـ على الظروف الاجتماعية والاقتصادية والروحية وغيرها ، وغيرها التى اكتنفت حياتى منذ الصغر وأثرت فى تأثيرا كبيرا لا لأن المرء ابن بيئته ومجتمعه الأول وحسب وانما لأن تلك الأيام الأولى التى عشناها فى قريتنا كانت هى البوتقة التى انصهرنا فيها بل كانت هى مصدر القوة التى مكنتنا من مجابهة الحياة وقسوتها وعنفها ٠

وأقولها بصدق وأمانة وتجرد ، أنه لولا الحياة القاسية المرة التى عشتها فى طفولتى ، وصباى ٠٠

ولولا الظلم الفادح والصارخ الذى نزل بأهلى وعشيرتى ٠

لولا انتمائى القوى المتين الى قريتى وتقاليدها العريقة ، ومثلها العليا ٠

لولا ذلك الجو الطيب الذى تنفست فيه أيامى الأولى ٠

ولولا ما كان يبعثه فى أبى من بغض للظلم والاستغلال ، ومن رغبة فى استخلاص حقوقنا بأيدينا ممن اغتصبوا تلك الحقوق ٠

ربما لولا ذلك كله لكنت اليوم واحدا من قوم لم تشغلهم يوما ما قضية عامة ٠

ولم تحركهم لساعة واحدة مشكلة قومية ملحة أو غير ملحة ٠

ربما لولا ذلك كله أو بعض ذلك لكنت اليوم مزارعا فى قرية بعيدة

نائية ، همه أن يجمع الى جانب ما ورثه عن والديه - اذا كان قد تبقى ما يورث - بضعة قراريط ، أو بضعة أفدنة ·

همه - وقد رأيت تلك الصورة في بعض رفاق دربى الاول - ان يبنى فى القرية بيتا شامخا من الطوب الأحمر تدخله الكهرباء ويؤنس وحدته التليفزيون الملون والفيديو كاست والثلاجات والغسالات الكهربائية مما كان يعتبر وجوده فى القرية أمرا مستغربا ·

واذا احتاج الى شيء من الأبهة أكثر وأكثر ، رشح نفسه لعضوية المجلس القروى أو مجلس المحافظة اذا ما استبد به الغرور ·

❋ ❋ ❋

المرء منا شئنا أم أبينا هو ابن مجتمعه الأول : بيئته الأولى هى التى تشكله جسدا وروحا وتشكل الى جانب ذلك أفكاره واتجاهاته وآراءه بل ووجدانه ·

وبالاضافة الى المجتمع الصغير الذى نشأ به : بيته ، جيرانه ·

ان المرء يتأثر بالجيران والظروف المحيطة به ، ولها كلها أقوى تأثير فى تشكيل كيانه وبنيانه ·

على أننى لا يمكن أبدا أن أغفل الاستعداد الشخصى بالنسبة للمرء وى خلق مسار حياته ·

لا يمكن ابدا أن ننسى النوازع الشخصية فى المرء ، فهى وان لم تكن عوامل رئيسية للغاية فهى عوامل ذات أهمية خاصة فى خلق الدروب التى يسير فيها المرء ، أو فى تهيئة الظروف التى يمكن أن يستفيد منها أو يسيرها لتحقيق رغباته ونزعاته ·

❋ ❋ ❋

ولست بمستطيع أبدا - الى جانب ما ذكرت من عوامل - أن أغفل عاملا آخر قد يبدو لا أهمية له وأعنى به عامل الصدفة أو المصادفة ·

الصدفة ، أو المصادفة مثلا بالنسبة لى شخصيا ، لعبت - ومنذ البداية - أخطر الأدوار فى تهيئة مسار حياتى بل والاندفاع فى ذلك المسار ·

كنا فى يوم عيد ، ولم اكن قد تجاوزت الرابعة من عمرى ·

وكان العيد زمان - أيام طفولتنا - عيدا بحق وحقيق ·

كنا نحرص ــ مثلا ــ على أن نحلق شعورنا ابتهاجا بمجيء العيد .

وكلما تأخر موعد تلك « الحلاقة » الى ما يقرب من فجر يوم العيد كان ذلك أفضل حتى لا ينبت شعر جديد يمكن أن يؤثر فى « الأناقة » أو يمكن أن يقلل من روعة « الحلاقة » .

وكنا ــ وخاصة فى عيد الفطر المبــــارك ــ نحرص على أن نرتدى الجديد :

« كله جديد فى جديد » .

الملابس ، الأحذية ، الطواقى . فلم يكن الطربوش وقتذاك قد اقترب من قريتنا الا عندما يزورها الصراف : جرجس أفندى ، أو ضابط نقطة البوليس عزمى « بك » أو خيرى « بك » .

وكنا نحرص على ارتداء ذلك الجديد منذ بزوغ فجر يوم العيد ، وفى أحيان كثيرة كنا لا ننام الا وملابسنا الجديدة فى أحضاننا كأننا نخشى أن يختطفها غيرنا .

بل لقد كان بعضنا ــ تعجلا منه للعيد ــ يرتدى ملابســه الجديدة وينام بها .

* * *

وكنا نذهب الى مسجد القرية لأداء صلاة الفجر ، وأداء صلاة العيد .

وبعدهما نتجه الى « القرافة » زرافات ووحدانا .

وقرافة قريتنا على بعد كيلو متر أو كيلومتر ونصف كيلو متر من قريتنا .

ويقرأ كل منا الفاتحة على أرواح أقاربه .

ويقف الكبار جميعا فى صف واحد على مقربة من المقابر بعد أن يتبادلوا التهنئة بحلول العيد .

ويمر الأطفال جميعا على الكبار ، كل الكبار ، فيقبلون أياديهم بحركة آلية قد تبعث على الضحك فى بعض الأحيان .

وعندما يرى واحد من الكبار طفلا قريبا له وقد جاء للسلام عليه يضع يده فى جيبه ويخرج منه ما تيسر من النقود الفضية ، أو البرونزية ، أو النيكلية : عشرة قروش خمسة قروش ، نصف فرنك ، قرش صاغ قرش تعريفة ، ويعطيه لقريبه أو لابن صديقه .

وكان لا بد ان تكون العيدية ، معدنية ، أى أنهم وقتذاك لم يكونوا ــ وخاصة فى يوم العيد ــ يتعاملون بالورق ٠

وكانت العيدية المعدنية ــ فى بعض الأحيان ــ تثقل جيوب الأطفال فيذهبون بها الى سوق القرية لتجميدها ورقا ٠

***

بعد زيارة المقابر يعود الجميع الى منازلهم لتناول طعام الافطار ، الذى تكون الأمهات والأخوات والزوجات قد أعددنه ــ وغالبا ما يكون ــ فى عيد الفطر ــ سمك بكالاة ، وفى عيد الأضحى « فتة » ولحما مسلوقا ٠

وبالمناسبة كان عيد الاضحى فى قريتنا عيدا من الدرجة الثانية ٠

ليس مهما ان يرتدى الأطفال فيه الملابس الجديدة ، وليس فيه كعك وليس فيه « هيصة » عيد الفطر بل ان العيديات فيه أقل ــ نسبيا ــ من عيديات عيد الفطر ٠

وبعد الافطار ينطلق الأطفال وخاصة الصغار منهم الى سوق القرية ، فى أقصى الشـــمال ، حيث القنطرة والسكة الزراعيـــة وبعض المقاهى ومحلات البقالة ٠

***

فى هذا السوق توجد بكثرة المراجيح ، وصندوق الدنيا حيث يضع المرء رأسه فى مكان معد لذلك فى أحد الصناديق وتمر أمامه بعض الصور الملونة ٠

صور أبو زيد الهلالى ، الزناتى خليفة ، جازية وأبطال وبطـــلات القصص الشعبية المتداولة فى الريف المصرى ٠

***

كما يوجد فى هذه السوق من يبيع « البخت » أو من تبيعه ٠

والبخت عبارة عن صندوق صغير فى حجم قبضة اليد أو أكثر قليلا تدفع فيه عادة قرش تعريفة ٠

« وانت وبختك » : اما ورقة صغيرة كتبت عليها بعض العبارات مثل : اذا عزمت فتوكل على الله ، « رأس الحكمة مخافة الله » ، عدى سنة ولا تخطى قناة » ٠

وفى أحيان قليلة يوجد داخل علبة البخت بعض الهدايا التى تزيد

قيمتها على نصف قرش ، شخشيخة ، زمارة ، عروسة صغيرة ، شوية حلويات .

* * *

وأذهب ولأول مرة وحدى الى هذه السوق ، فما كانت أمى - طيب الله ثراها - تسمح لى بأن اغادر - حتى هذا التاريخ - البيت الا فى صحبة بعض أقاربى ، وخاصة الفتيات اللاتى كن يتفاءلن كثيرا بوجودى معهن .

دفعت قرش تعريفة فى البخت .

لم أفتحه .

عدت به فورا الى أبوى فى المنزل .

وكانت المفاجأة عندما قمت بفتح العلبة أمامهما ان وجدت مصحفا شريفا فى حجم الكف فرح به أبى ، كما فرحت به أمى الى أبعد درجات الفرح ، لو كان للفرح درجات .

يومها قال أبى وأيدته أمى فى كلامه : انى نذرتك لله .

ولم أفهم يومها معنى النذر .

وقد شرحت لى أمى ذلك فيما بعد وهو أننى منذ ذلك التاريخ لن أكون الا للأزهر الشريف .

وان الصلة قد انقطعت منذ ذلك التاريخ بينى وبين القرية والحقل ، والعمل فى الريف ما دمت قد أصبحت جنديا من جنود العلم الشريف .

* * *

وعلى ذكر الفتيات اللاتى كن يتفاءلن بى عندما أخرج معهن ، أذكر أن أول شىء أذكره فى حياتى وكأنما قد حدث اليوم ، أو الأمس - ان ثلاثة منهن كن يتميزن بالجمال المفرط والأنوثة الطاغية - كما قيل لى فيما بعد - حملونى معهن فى يوم عيد .

وكان الهدف أن يقمن بالشحاذة على « بمعنى أن يطلبن من المارة حسنة » للطفل الصغير الذى هو أنا .

ولم يكن الهدف هو الحصول على المال وانما الهدف ان أعيش .

فلقد كان قد وقر فى أذهان بعض الأمهات فى قريتنا وفى القرى المجاورة أنه عندما تتم عملية « الشحاذة على طفل » فان رعاية الله تشمله وتكتب له الحياة الطويلة .

وغالبا كانوا يطلقون على هذا الطفل اسم « الشحات » مبالغة فى الدعاء له بطول العمر وأحيانا كان يضاف هذا اللقب « شحات » الى الاسم فى شهادة الميلاد ٠

كان اليوم حارا ، وكانت الفتيات قد خجلن من أن يقمن بالشحاذة على فى قريتنا فذهبن بى الى قرية مجاورة وكدت أغادر الحيـــاة لكثرة تعرضى للشمس المحرقة ٠

وقد رأتنى احدى قريباتى ٠

وكانت متزوجة فى تلك القرية المجاورة ٠

وكان منزلها فى أقصى مكان بتلك القرية فأنقذتنى من موت محقق ونقلتنى ــ بين الموت والحياة ــ الى غرفة نومها ، الى أن حــل المساء فسلمتنى للفتيات الثلاثة وبعثت برسالة الى قريبتها ــ أمى ــ تنصحها فيها بعدم تعريضى للخطر مرة أخرى « وبلاش الحاجات التى لا تنفع بل تضر »٠

* * *

وكان أول تنفيذ لموضوع النذر اياه أن عهد بى أبى وكذلك أمى الى شيخ الكتاب الذى كان يتوسط القرية وله بوالدتى صلة قرابة ٠

وكان منزله وكتابه مجاورين لمنزل خالى من جهة ، ومجاورين لمنزل خالتى من جهة أخرى وكان الشيخ قد سعد سعادة بالغة بوجــودى فى كتابه ٠

اذ كان التواجد فى ذلك الكتاب مصدر خير عميم له لما كان يغدقه والداى عليه من خيرات ٠

وشيخ الكتاب لم يكن يتناول أجرا عن تعليم الأطفال والصبيان فى الكتاب ،وانما يتناول من أهالى الأولاد ما يسمى بالمسانية (الأجر السنوى) من حصاد القمح ومن حصاد الذرة ٠

وفى الكتاب ، لم أكن مقيدا بمواعيد وانما لصغر سنى كانوا يتركون لى حرية الذهاب الى منزل خالى أو خالتى أو العودة الى منزلنا فى أى وقت ٠

وكان الخير يهطل على شيخ الكتاب من بيت خالى ، ومن بيت خالتى حبا فى ورغبة فى أن يحسن معاملتى ويهتم بأمرى أكثر من غيرى ٠

كان افطار الشيخ وغداؤه تقريبا من منزل خالى أو منزل خالتى بل كان تلاميذ الكتاب تقريبا يحصلون على ما لذ وطاب من الطعام والشراب فى المواسم والأعياد ، كل ذلك اكراما لخاطرى ٠

هذا الى جانب المبالغ النقديــــة التى كـــانت تتوالى على الشيخ ومساعديه ٠

وفى ذات يوم أسر الشيخ الى واحد من زملائى فى الكتاب بأمر ما ، واعطاه بضعة قروش ، وطلب منى الشيخ أن أرافق هذا الصغير ٠

كنا ـ وقتئذ ـ قبيل صلاة العصر ٠

اتجه زميلى الى قرية مجاورة لا تبعد عن قريتنا أكثر من كيلومترين٠

وكان صاحبى طوال الوقت ، حريصا على أن يتحسس جيب جلبابه ليتأكد من وجود ما يحمل من نقود ٠

ووصلنا الى ما كان جديدا بالنسبة لى : لأول مرة أرى وابور طحين يعمل بالكهرباء يختلف اختلافا بينا عن طواحين بلدنا التى تجرها الحمير والأبقار والجواميس ٠

على مقربة من ذلك الوابور الأعجوبة بالنسبة لى يومها ، وجـدنا رجلا هزيلا ، ضعيفا يرتدى طربوشا أكثر ضعفا وهزالا ، وقد وضـع منديلا بين الرأس والطربوش حتى لا يضار الطربوش من عرقه الغزير ٠

أخرج زميلى ما معه من قروش وأعطاه للرجل فأعطاه ورقة صغيرة فى حجم عقلة من أصبع اليد وطلب منـه أن يمســكها فى يده حتى لا تضيع ، فيكون نصيبه من الشيخ علقة ساخنة ٠

وعدنا فورا حتى دون أن أدخل وابور الطحين لأتفرج عليه ، كما طلبت من رفيق الرحلة ، وقتذاك ولكن رفض بقوة ، وعنف ٠

عدنا الى منزل الشيخ الذى كان ينتظرنا بشغف ولهفة ، فلم يكد صاحبنا يعطيه ما معه حتى هش له وبش وانفرجت أساريره ، وكأنما كان قد كسب ورقة يانصيب ٠

عاد زميلى الى بيته ، وعدت أنا أيضا ٠

ووجدت فى بيتنا « حريقة » ٠

قامت الدنيا ولم تقعد ٠

بعد أن عاد الأطفال الى منازلهم من الكتاب افتقدتنى أمى ، وراحت تبحث عنى فى كل مكان فى القرية ٠

فى بيت خالى ،فى بيت خالتى ، فى بيوت أعمامى وأقاربى ٠

ولم تكد تراني حتى نسيت غضبها وقلقها واحتوتني بين احضانها الدافئة . وراحت تقبلني بقوة وعنف .

وكانت قد اعتقدت أنني خطفت أو غرقت في الترعة أو في أحد سواقي القرية .

ورويت لها القصة كاملة وسرعان ما أخذتني من يدى حتى قبل أن أتناول لقمة واحدة ، وكنت جوعانا للغاية .

وذهبت بي الى منزل الشيخ فألقت عليه « دشـــا » هائلا وأمرتني بألا أذهب الى أى مكان الا باذن منها ، أو من والدى .

وعرفت فيما بعد أن ذلك الذى جئنا للشيخ به من القرية المجاورة هو « هيروين » وهو قاتل يقضي على المرء بسرعة .

وان من يتعاطى هذا الهيروين يســـجن وكذلك من يشتريه ومن يحمله حتى ولو كان طفلا صغيرا .

« يعني لو حد ظبطكم وانتم راجعين ووجد الحاجة دي معاكم ، كنتم وحتم في داهية » هكذا قالت لي أمي .

ومن يومها أصبح الشيخ « بعبعـــا » يخيفني أكثر مما تخيفني العفاريت أو ما كنا نعتقد في طفولتنا أنها العفاريت .

في اليوم التالي ، لم أذهب الى كتاب وسط القرية .

وانما ذهبت بي أمي الى كتاب آخر كان مجاورا للمسجد وكانت ساعة دخولي ذلك الكتاب بمثابة عيد عند صاحبه .

وكانوا في ذلك الكتاب ــ كما في الكتـــاب الآخر ــ على ما روى د. طه حسين ــ « يختموننا » ظهر يوم الخميس بخاتم الشيخ ، ويتأكدون من وجود ذلك الخاتم ، صبيحة يوم السبت ، وذلك حتى يطمئنوا الى أننا لم ننزل الترعة لنستحم .

وكنا نلاحظ أن زملاءنا الكبار يســـتحمون ولكنهم لا يضربون من شـــيخ الكتـــاب وذلك لأنهم كانــوا يقـــدمون الى مســاعدى الشيخ بعض الهدايا ، « فيختم » هؤلاء المساعدون الكبار بأختام جديدة أو يقولون للشيخ ــ وهو ضرير ــ ان الأختام سليمة .

هذا بينما يقــوم الشــيخ بضرب بعض التلاميذ الذين يكونون قــد

استحموا فى منازلهم ولم يحصلوا على براءة من والديهم .

وكان هذا أول صور الظلم التى علقت بأذهاننا وقلوبنا .

ثم نقلنا الى كتاب آخر فى قرية مجاورة أكثر تطـــورا فلا يجلس الأولاد على حصير أو على الأرض كما كنا نجلس فى كتاب الشيخ عيسى أو كتاب الشيخ ابراهيم ـ فى قريتنا : كنا نجلس على « دكك » خشـــبية وقماطر .

وكانوا فى كتاب القرية المجـــاورة يعلموننـــا الى جانب القراءة والكتابة ، وتحفيظ القرآن الكريم ، الحساب وبعض الأناشيد .

لم أكن قد جاوزت الخامسة من عمرى .

* * *

كنا نجتمع عند مسجد القرية فى ساعة محددة من الصباح ، قبل أن تبزغ الشمس ثم ننطلق من هناك الى القرية المجاورة وبيد كل منـــا حقيبة بها أدواته الكتابية : لوح اردواز ، أو لوح خشب حسب ســـن التلميذ ب « دواية حبر » ، قلم من البوص أعد بعناية بالغة ، بالاضافة الى غذائه وأحيانا بعض « القراقيش » التى يتسلى بأكلها فى الطريق .

ورأى بعض الذين يكبروننى سنا ـ ولا راد لارادتهم بطبيعة الحال ـ أنه لا داعى لأن نذهب كل يوم الى الكتاب حيث « الدوشـــة » « ووجع الدماغ » .

فى منتصـــف الطريق بين قريتنـــا والقرية المجاورة اياها ، كانت لنا قطعة أرض يسمونها ـ تجاوزا ـ الأبعادية ، وليس لها من اسمها نصيب .

وكان أحد أعمامى رغبة منه فى مضايقة أشقائه قد زرع قطعة من تلك الأرض بنبات الغاب حتى يفسد ظلها الأرض المجاورة .

وكان لنبات الغاب هذا ظله الكثيف الذى يحتمى به ـ فى الصيف ـ بعض المارة على الطريق الزراعى .

* * *

ووضع كبار السن من رفاقنا خطة محكمة لانقطاعنا عن الذهاب الى الكُتاب بعض أيام الأسبوع .

نذهب كالعادة الى الكتاب حاملين معنا حقائبنا ·

وفى الطريق نجلس فى ظل ذلك الغاب ، نتناول طعامنا ·

نجرى ونلعب الى أن يصل ظل الغاب الى نقطة معينة كان قد سبق لهم - فى الأيام العادية - أن حددوها : نعود الى منازلنا ·

وقد اكتشف عم منسى الأمر ·

وعم منسى هذا كان أحد خفراء عزبة الوسية المجاورة لقريتنا والتى يعمل بها كثير من أبناء قريتنا ·

وكان عم منسى هذا مستمعا جيدا للاذاعة ·

ولم يكن يفتح ذلك الجهاز الا وقت قراءة القرآن الكريم ووقت اذاعة نشرات الأخبار ·

وكان عم منسى هذا - للعلم - منصتا جيدا لقراءة الجرائد ·

وكان عم مرسى أحد ترزية القرية ، الوحيد المشترك فى جريدة الأهرام ·

وكان يذهب عصر كل يوم الى محطة السكة الحديد حيث يتسلم بنفسه - من الأبونيه - نسخة من الأهرام تجيىء اليه عن طريق البريد ·

وكان عم منسى لا يقرأ ولا يكتب ولكنه يستمع جيدا لعم مرسى عندما يقرأ ·

وفى بعض الأحيان كان يحصل على نسخ قديمة من الأهرام من عم مرسى ويعطيها لمن يجيدون القراءة والكتابة فى القرية - وهم قليلون - لكى يقرأوا له بعض الأخبار ، وخاصة الحرب الايطالية الحبشية وأنباء الاضطرابات والقلاقل فى فلسطين بين العرب واليهود ·

وقد كان عم منسى « خبيرا » فى الحرب ، أية حروب تكون قائمة ·

وكان يبدى باستمرار آراءه فى تلك الحروب ، ويخطىء قادتها فى خططهم العسكرية ·

وكان عم منسى هذا بمثابة وكالة أنباء ·

وكانوا يسمونه الشيخ روتر كما كانوا يسمونه « أبو خطوة » ·

★★★

تراه هنا في الجرن ، وبعد دقائق قليلة تراه في المسجد ·

وبعد دقائق أقل تراه في الحقل ، بحيث تجده دائما في وجهك ·

وقد نقل عم منسى خبر هروبنا من الكتـــاب الى أمي ، لأنه خشى اغضاب أبي ·

وقالت له الأم : انت مش في ايدك خرزانة يا عم منسى ؟ ولم تكن الخيزرانة تفارق أبدا يده حتى عندما كان يضطجع تحت شجرة لينـام بعض الوقت ·

★★★

وقال عم منسى : أيوه موجودة وأنا مستعد باستمرار ·

وقالت الأم : طيب شوف شغلك ·

وكأنما كان عم منسى ينتظر اشارة البدء بالقيام بتلك المهمة ·

وأعادت أمي القول عليه : « كسرها على جتته »

وفي صبيحة اليوم التالى ، بعد أن أخذ الاذن من والدتى ·

وكنت خارجا لتوى من صلاة الصبح « حاضرا » كعادتى ، ناداني عم منسى قائلا : اوعى تانى مرة تهرب من الكتاب » ·

« وهات يا ضرب » الى أن انكسرت الخيزرانة فعلا على جسدى ·

ورحت أبكي لأمي ، وكنت أعتقد أنها ستقيم الدنيـــا وستقعدها عندما تراني بهذه الصورة ، ولكنها قالت لى : تستاهل ·

ثم صعدت الى الطابق الثانى من منزلنا ·

وراحت تبكي وحدها : لقد كانت أما نموذجية بحق ·

وغضبت أنا من عم منسى وخاصمته سنوات عديدة ، اذ كنت أرى أنه لابد أن يعرف الحقيقة ويعرف أنى مجنى على من زملائى الكبار ·

وأنه ما كان باستطاعتى أن أنفرد بالذهاب الى الكتـــاب وحدى والا لما نجوت من ايذائهم لى ·

ولكن علاقة عم منسى ، كان لها ـ رغم ما وقع على من ظلم ـ أثرها الكبير في مسيرة حياتى ·

أيقنت فيما بعد أن عم منسى لم يرد الا تأديبى ، وتهذيبى كما أنه لم يكن يبغى الا انقاذى من تلك الشلة الفاسدة ·

وحقق عم منسى بعلقته تلك الخير لى ، فسرعان ما نقلت من كتاب القرية المجاورة الى مدرسة جديدة فى قرية أخرى مجاورة قد فتحت حديثا ٠

وقد فسدت الشلة اياها التى كانت تكذب على أهلها مدعية أنها تذهب الى الكتاب دون أن تفعل ٠

ولم تضرب كما ضربت وقد كان مصيرها أن ابتلعتها الحقول ولم يفلح منها أحد أو هكذا يقولون اليوم عن أنفسهم وان كنت أعتقد فى بعض الأحيان عندما تشتد بى قسوة الحياة أنهم قد فلحوا عندما اختاروا « فلاحة » الأرض لا المدرسة ولا الجامعة طريقا لهم فى الحياة ٠

وكان عم منسى بعد أن كبرت وحصلت على ليسانس الحقوق ، وأصبحت سياسيا لامعا ـ على الأقل بالنسبة لقريتنا ـ يتعمد أمام الناس عندما أزور القرية أن يمد يده لأقبلها ، لأن يده صاحبة الفضل على ٠

بل لقد كان يقول لى أمام أبى وأمى وأقاربى ، وهو يشير الى خيزرانته قائلا : دى لسه معلمة على جتتك ، وهى السبب فى نجاحك : تقدر تنكر كده ؟ ٠

وكنت أقبل فعلا يد عم منسى أمام الناس ، كما أقبل يد والدى ووالدتى اعترافا منى بجميله الذى لا ينسى ٠

★★★

وعلى ذكر علقة عم منسى ، أذكر فى مكان بارز من ذكرياتى ، علقة أخرى لا تقل عنها أهمية وخطورة وان كانت العلقة الثانية بعكس العلقة الأولى ، قد ضاعفت من كراهيتى للظلم وللظالمين :

وكنت قد نقلت الى مدرسة تقع فى قرية مجاورة لقريتنا ٠

كانت الدراسة لفترتين : صباحية للبنات ، ومسائية للصبيان ٠

وكانت بضع بنات من قريتنا تعودن أن يذهبن الى تلك المدرسة فى ساعة مبكرة من الصباح ٠

وكان ارسال البنات للتعليم وقتئذ من الأمور الشاذة ٠

وكنا ـ نحن وهن ـ نتقابل فى منتصف الطريق بين قريتنا وبين القرية المجاورة التى بها المدرسة فى وقت الظهر تقريبا ٠

ومما أذكره أننى أحببت قريبة لى كانت تذهب الى تلك المدرسة ٠

وكان حبها لى ـ وهو حب أطفال بطبيعـــة الحال ـ أول حب فى حياتى ٠

وعندما أسميه حبا فانما أفعل ذلك من قبيل تذكر الماضى لا أكثر ولا أقل وقد بقى ذلك الحب دفينا فى القلب الى أن حيل بينها وبين المدرسة تمهيدا لخطبتها ولم تكن قد جاوزت التاسعة من عمرها ، فما يجوز لمن فى هذه السن من بنات قريتنا المخطوبات أن يغادرن بيوتهن ٠

كنت أحمل غذائى وكتبى فى حقيبة كبيرة كانت تحمل شهرة ذائعة فى المدرسة للونها الأحمر القانى ولكبر حجمها وجمال شكلها ٠

وكانت أمى تضع فى تلك الحقيبة ما لذ وطاب من الطعام والشراب ، لا بالقدر الذى يكفينى وانما بالقدر الذى يكفى بعض رفاقى لأنها كانت تعرف عنى أننى لا أستطيع تناول طعامى وحدى اذ لابد من أن أشرك فى تناوله من معى من الصحاب ٠

وحدث فى احدى الحصص أن دخل ناظر المدرسة الفصل وقد حمل أحد سعاة المدرسة حقيبتى ٠

وسأل الناظر : شنطة مين دى ؟

ووقفت بسرعة أقول : بتاعتى يا أفندى ٠

وقال بلغة حاسمة ، حصلنى على أودتى ٠

وكان معنى ذلك أن نهارى سيكون أسود كالحا ، فما من أحد من التلاميذ يذهب الى حجرة حضرة الناظر الا ويعود وقد تورمت أصابعه من آثار ضرب المسطرة أو الخيزرانة ٠

وفى حجرة حضرة الناظر اكتشفت أن بعض كبار السن من زملائى التلاميذ ــ ودائما كبار السن ــ قد ملأوا حقيبتى بثمار « الباباظ » التى توجد أشجاره بكثرة فى فناء مدرستنا ٠

وكان فى نيتهم نقلها الى خارج المدرسة لولا أن كشف أمرهم فراش المدرسة ولكنهم لاذوا بالفرار ٠

وبرغم وضوح براءتى أمام ناظر المدرسة ٠

وبالرغم من تأكيد الفراش أننى لم أكن مع أولئك التلاميذ ، والا لما كنت قد وجدت فى الفصل أثناء هروبهم ٠

وبالرغم من أننى أقسمت لحضرة الناظر بكل الايمان أننى برىء ، برىء :

بالرغم من ذلك كله أصر حضرة الناظر على أن يضربنى علقة ساخنة كان لها أثرها القاسى فى النفس وفى البدن ٠

لقد ضربت يومهـا ـ وبدون مبرر ـ ضربا مبرحا ، حتى سـالت بعض دمائى من قسوة الضرب :

يومها ـ وكان ما نزل بى قد أعجزنى عن الكلام ـ تساءلت بينى وبين نفسى وأنا أرى آثار الضرب عالقـة بجسـدى : هو ده الحق اللى بيقولوا عليه ٠

وكان أقسى ما علق بذهنى وقلـبى يومذاك أن ظالمى كان حضرة الناظر الذى كنت أرى ـ فى ذلك الحين ـ أنه راعى الحق ، المدافع عنه ، بل كنت أرى أنه هو الذى يجب أن يأخذ لأصـحاب الحقـوق حقوقهم المغتصبة ٠

ولا أعتقد أبدا أن تلك العلقة الساخنة ـ والظالمة ـ قد ابتعدت عن خاطرى وذهنى فى يوم من الأيام ٠

اننى أذكرها باستمرار وخاصة عندما يهرع الى أحدهم لأساعده فى الحصول على حق له ٠

أذكرها عندما أجد أحدهم يستولى على حقـوق الآخرين أو يوقع الظلم بغيره ٠

وما أكثر ما لقيت هؤلاء ، وأولئك فى حياتى ٠

***

وبعد أيام كنت فى مدرسة أخرى بعيدة عن قريتنا بما يقرب من ثمانية كيلومترات ، ولكنها كانت مفيدة للغاية ، اذ كانت الدراسة فيهـا طيلة النهار ، من الساعة الثامنة صباحا حتى الساعة الرابعة مساء ٠

وكنا نركب القطار الذى ينقلنا قبـل موعد الحصـة الأولى بربع ساعة ٠

والويل لنا اذا تأخر هذا القطار ٠

وغالبا ما كان يتأخر وخاصة فى شهور الشتاء وفى بعض الأحيان كنا نركب الحمير ونحمل معنا غذاءها ونربطها الى سور المدرسة الى أن يحين موعد عودتنا الى قريتنا ، حيث نصـلها فى الغالب بعـد المغرب بساعة ، أو بعض الساعة ٠

· وأجبرنا على أن نسكن فى تلك القرية عندما يشتد زمهرير الشتاء وعندما تهطل الأمطار بغزارة ويتعذر ركوب الحمير والاطمئنان الى مواعيد القطارات ·

استأجرنا نحن الأربعة الذين التحقنا من أبناء قريتنا بتلك المدرسة غرفة عند احدى الأسر ، نقيم فيها طول الاسبوع ، نذهب فى صباح السبت الى مدرستنا ومعنا زادنا وزوادنا كما يقولون ، ونبقى فى القرية المجاورة الى ظهر يوم الخميس حيث الدراسة نصف يوم ·

***

وكنت ، وقتئذ لم أتجاوز السادسة من عمرى ·

وكانت موافقة أبى وأمى على « غربتى » فى تلك السن وابتعادى عنهما دليلا على عظم تضحية الأب والأم حبا فى العلم وفى التعلم ·

وتذكرنى أيام تلك القرية ، بأول حفلة انتخابية حضرتها فى حياتى حيث غنت ليلى مراد حتى الصباح ·

وكانت تجمعها علاقة وثيقة بالمرشح لعضوية مجلس النواب ·

وكانت علاقتنا بها عن طريق الراديو فنحن لا نعرف الا مطربات الموالد وحفلات الزفاف والطهور ، فى قريتنا وفى القرية المجاورة ·

***

وفى أثناء انتسابى الى تلك المدرسة حدث تطور خطير فى حياتى : لقد أكملت حفظ القرآن الكريم ، وتجويده ولم أكن قد أكملت التاسعة من عمرى ·

***

واقام أبى وامى حفلة كبيرة ، لم تعرفها قريتنا من قبل ·

دعى اليها ناظر تلك المدرسة ومدرسوها وفراشوها كما دعى كثير من أعيان القرى المجاورة ·

وذبحنا يومئذ أكثر من عجل كبير ، وبضعة خراف ·

وكنسوا الشارع الكبير الذى يوجد به بيتنا ، والذى كان يطل على ترعة كبيرة ·

ورشوه بالماء أيضا وكذلك فعلوا بالطريق الذى يصل القرية بمحطة السكة الحديد ، مرورا بقنطرة القرية ·

وأقاموا العديد من الزينات ·

وفي الموعد المحدد جيء ببعض المشايخ لامتحاني وخاصة في بعض الآيات المتشابهة ونجحت في الامتحان ٠

وامتلأ البيت بالعديد من الفتيـات اللاتي كانت مهمتهن الوحيدة اطلاق الزغاريد ٠

ألبست يومها كاكولة وعمامة ، وأطلقوا على منذ ذلك التاريخ اسم « الشبيخ » ٠

وظل اللقب ملازما لى لفترة من الوقت حتى بعد أن ارتديت البـدلة والطربوش ٠

وأصبحت ــ بعد نجاحى فى الامتحان ــ مؤهلا لأن أخطب الجمعة فى مسجد القرية ، وأن أؤم المصلين اثناء غياب امام المسجد ٠ كما أصبحت مؤهلا للالتحاق بالجامع الأحمدى الدينى بطنطا ٠٠

وبعد الجامع الأحمدى ومدة الدراسة به أربع سنوات يمكن الالتحاق بالأزهر الشريف حيث يبقى المرء هناك اذا أراد الى أن يموت : يتعـلم باستمرار ، لا رغبة فى التخرج ، ولا فى التوظف ، ليس هذا هو المهم المهم أنهم فى بيته يرسلون اليه كل شهر أو كل أسبوع الزاد والزواد والمصروف والأسرة تعتبر ما تبعث به الى فتاها جزءا من مهامها الدينية ٠

لقد كان صندوق البخت قد حدد مصيرى منذ البداية ، ولكن ٠٠

★★★

ويبقى بعد سرد تلك الذكريات السريعة قصة لابد من ذكرها ، لأنها لا تزال محفورة فى ذهنى ، وقلبى : كانت قريتنا لا تعرف الجريمة أبدا وكل ما كنا نسمعه عن الجرائم ، كان متعلقا بالقرى المجاورة ٠

وكانت احداهن ــ من قرية مجاورة ــ قد تزوجت من أحد أبنـاء قريتنا الموسرين ٠

وكانت تقيم معه فى أجمل بيوت القرية ٠

وكانت وحدها دون سيدات القرية ، هى التى ترتدى فستانا قصيرا وحذاء عاليا وشرابا « مختلف » ألوانه ٠

كان زوجها أحد العاطلين بالوراثة ٠

يبيع كل عام قطعة من أرضه التى ورثها عن والديه ليتمكن من تلبية مطالبها ٠

وضاقت الزوجة ذرعا بزوجها وخاصة بعد أن أوشكت الأرض التى كان يملكها على الذهاب الى الآخرين ٠

وأحببت شابا يتميز بالقوة والفتوة : كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ولكنه – كما يقولون – « فتوة » وان كان لا يباشر « فتونته » الا خارج القرية حيث يتعامل مع شيخ منسر – قاطع الطريق – معروف فى كل أنحاء الدائرة ٠

وذات يوم وأنا عائد من مدرستى التى ضربت فيها « العلقة » اياها نادانى هذا الفتوة وراح يتحدانى : أنت لا تعرف القراءة والكتابة ! ٠ هكذا قال لى ٠

وقلت له متحديا : لا ، بل أنا أعرف كيف أكتب وأقرأ ٠

واذا به يقول لى ، اذا كنت تعرف فعلا كيف تكتب فاكتب ما أريد كتابته ٠

وأملانى الكلمات التالية : الى فلان الفلانى

– زوج الست اياها – لازم تطلق مراتك والا فسوف أتخلص منك حتى ولو كنت داخل سبع بوابات حديد !؟

وكتبت ما أملاه على ٠

واذا به يأخذ الورقة التى كتبتها ويحتفظ بها للتدليل على قدرتى على الكتابة ٠

ورويت على الفور القصة لوالدى فأخذنى من يدى وذهب الى هـذا الفتوة وألقى عليه درسا فى الأدب والأخلاق ٠

وقد « انكسف » هذا الفتوة من والدى وأعطاه الورقة بعد أن مزقها أمامه ٠

وفى طريق العودة الى المنزل ألقى على والدى درسا فى ضرورة الحذر والحيطة ٠

وبعد عام اختفى الزوج ٠

وبعد عامين طلقت الزوجة غيابيا ٠

وبعد اكمال العدة تزوجت الفتوة ٠

وأقامت معه فى منزل الزوج الغائب الذى لم يعد أبدا ٠

ولم يعرف أحد أين ذهب الزوج ولا الطريقة التى تم بها التخلص منـه ٠

هل قتل فى مكان ناء ؟ هل ترك القرية هاربا من جبروت الفتوة وتهديداته ؟ على أن الأمر الذى شاع وذاع فى قريتنا ، أن الزوج قد قتل ، ودفن فى باطن الترعة الكبيرة التى تبعد عن قريتنا بأكثر من كيلومترين .

وأن أحدا لم يتعرف على الجثة لأن ماء الفيضان قد طغى على الحفرة التى وضع فيها الجسد .

وأنه لهذا السبب وحده لم تظهر رائحة للجثة .

***

وربما كان الحلم الكئيب الوحيد الذى لا يزال يزعجنى حتى اليوم هو الحلم بتلك الشجرة التى تطل على الترعة الكبيرة والتى يحتمل أن يكون الرجل قد دفن تحتها على الشاطىء !

وما أكثر الأحلام التى تفرض نفسها على فى كثير من الليالى وخاصة تلك التى أكون فيها متعبا حيث أحلم بأننى أسير فى شوارع قريتنا ، وأزقتها وأتنقل من بيتنا المطل على الترعة الصغيرة التى تمر بقريتنا الى حيث أؤدى الامتحان .

ولا أزال حتى هذه اللحظة ــ أيضا ــ أحلم بحفلات القرية ، وبجرن القرية حيث كنا فى الصيف ندرس القمح ، ونقضى أحلى الليالى القمرية جالسين على التبن الذى يمتلىء به الجرن ، وكأنه فراش وثير نستمع الى أغرب القصص التى يرويها آباؤنا وأجدادنا وأقاربنا .

فى بعض الليالى لا أزال أحلم بعملية جمع القطن حيث كانت فتيات القرية وفتيانها يذهبون الى الحقل ، قبل أن تصفر الشمس .

كل واحد يمسك « خطا » واحدا من خطوط القطن ، « والممتاز » هو الذى يسبق الزملاء والزميلات .

وعندما كنت أذهب الى أرضنا فى يوم ، أو أيام جمع القطن ، كانت الفتيات يدعوننى الى مساعدتهن .

والسعيدة الحظ هى التى أختارها .

وكانت تبذل قصارى جهدها لكى تسبق الزملاء والزميلات بمسافة طويلة حيث نجلس سويا وسط أعواد القطن نتبادل أطراف الحديث وأحكى لها ــ فى الغالب ــ عن البندر .

في بعض الليالى ، لا أزال أحلم بـكل أيامى فى القرية : البيضاء والسوداء ، لأنها لا تزال محفورة فى ذهنى وقلبى ، رغم أنها لا تزيد على ٥ سنوات لم أكن أعى كثيرا مما يدور فيها ·

ثم ظهر لى بعد أن كبرت وكبرت معى مداركى أن فترات طويلة من الظلم ، والاظلام قد مرت بها قريتنا المصرية فطبعتها بطابع الحزن والألم رغم أن ما كان يبدو على السطح كان عكس ذلك ·

كل طوبة من الطوب اللبن التى بنيت منها منازل قريتنا لم تصنع من الطين والتبن ، كما يظن البعض ، ولكنها صنعت من الاحزان والآلام، والمآسى ، التى تتوالى باستمرار على ريفنا المصرى كما تتوالى فصـــــول الصيف والخريف والشتاء والربيع ·

***

وهل هناك ما هو أقدم من بردية الفلاح الفصيح ، تلك التى تبرهن على عراقة الظلم فى قريتنا المصرية ، وكونه يعود الى ألوف السنين ·

كان الظلم فى القرية المصرية ، كما تدل على ذلك بردية الفـــلاح الفصيح أبرز معالم القرية المصرية :

خوان أنوب فلاح مصرى أصيل ذهب الى العاصمة (أهناسيا) يبيع بعض حاصلات أرضه ويشترى بالثمن غلالا يصنع منها غذاءه اليومى ·

عندما اقترب من العاصمة « اهناسيا » ، رآه « نحوتى نخت » أحد أتباع رنس بن مرد ، رئيس مديرى القصر الملكى ووضع بسرعة نحوتى هذا خطة محكمة للاستيلاء على ما يحمله خوان أنوب ــ على حماره ــ من محاصيل ·

ولم يكتف نحوتى بالاستيلاء على محاصيل الفـــلاح خوان أنوب ، وانما ضربه ضربا مبرحا ·

وبكى خوان من أثر الضرب ·

ونهره نخت وأمره بالسكوت لأنه على مقربة من معبد أوزيريس ··· اله السكون ·

وصاح خوان أنوب ــ الفلاح الفصيح قائلا : انك ضربتنى وسرقت متاعى ، وتأبى الا أن تأخذ حق الشكوى من فمى ·

ويتوجه خوان أنوب الى ربه صائحا : يارب الســـكون ، رد الى بضاعتى حتى لا أصيح » ·

ويسمع الملك بقصة ذلك القروى الفصيح ، ويستدعيه ، ويأمر بعقاب نحوتى نخت الظالم وباعطاء كل أملاكه لخوان أنوب تكفيرا عن الظلم الذى لحق به ٠

***

وتصبح قصة القروى الفصيح من ابدع وأروع قصص الأدب وقصص الظلم في وقت واحد لا في الأسرة العاشرة (٢٢٨٠ ـ ٢٠٥٢ق.م) وحسب وانما فى الدولة الوسطى كلها ٠

***

وقصة القروى الفصيح أقوى دليل على أن الظلم الذى كان يلحق بالفلاحين المصريين ظلم قديم مزمن له جذوره التاريخية القديمة ٠

وقد استهدفت قصة الفلاح الفصيح ضرورة العمل على حماية الفقير ، من بطش الغنى ، مهما كان سلطان ذلك الغنى ٠

وضرورة حماية الضعيف من عسف القوى ، مهما كانت سلطات ذلك القوى ٠

كما استهدفت تلك القصة أيضا ضرورة انزال العقاب الرادع بكل ظالم مهما كان مركزه عاليا ، ومهما كانت درجة قرابته من السلطان ٠

***

واذا كانت قصة القروى الفصيح تدل على عراقة الظلم ، الذى ينزل بالفلاحين ممن يملكون الجاه والسلطان ، فان الأوامر والتعليمات بل القوانين التى أصدرها محمد على باشا تدل ـ بدورها ـ على أن الكثيرين من حكام مصر لم يكونوا ينظرون الى الفلاح الا على أنه قطعة من الأرض التى يزرعها » : أوامر وتعليمات ، وقوانين محمد على تنص على ان من أخذ بهيمة بغير اذن صاحبها أو بغير رضاه وقام بتشغيلها فى الطاحون أو المحراث ، يضرب ٥٠ كرباجا ٠

ومن سرق خضروات أو فاكهة ، وكانت سرقته بقدر ما يأكل يضرب عشرة كرابيج ٠

وان كانت سرقته بقصد البيع يضرب أول مرة مائة كرباج وثانى مرة مائتى كرباج ، وثالث مرة ثلاثمائة كرباج ٠

وفى الرابعة ينفى الى جبل فيزاوغلى ٠

« والذين لا يهتموا — هكذا فى الأصل — بتخضير أراضيهم ويهملون في حرثها ، أو عزقها ، أو قطع ما بها من أخشاب أو يهملون فى رى أطيانهم أو خدمتها ، وحصل بسبب ذلك تلف فى الزراعة ، يجرى التنبيه عليهم في المرة الاولى بعدم العودة الى ذلك مستقبلا ، فان لم يجد التنبيه يضرب ٥٠ كرباجا » ٠

« وفى المرة التالية يضرب مائة كرباج و ٠ و ٠

***

ومن لم يحضر الى أشغال الترع والجسور بعد التنبيه عليه أو يحضر ثم يهرب ، أو يتسبب فى هروب أحد فان كان شيخ حصة يضرب مائتى كرباج ٠

وان كان قائمقام يضرب ٣٠٠ كرباج ٠

وان كان فلاحا وهرب من غير سبب فيحصل له التنبيه أول مرة ، فان هرب ثانية يضرب ٢٥ كرباجا ٠٠

ومن لم يأخذ محراثه وقت التخضير — أى اعداد الأرض للزراعة حتى تصبح خضراء — ولم يذهب الى غيطه ، أو تكاسل فى تحضير أرضه يضرب ٥٠ كرباجا ويجبر على شغله بمحراثه حتى يخضر أرضه » ٠

***

وكان من بين أوامر محمد على الخاصة بالفلاحين — أيضا — أنه لا يجوز للفلاح أن يتصرف فى محصوله ، وعليه أن يورده عند جمعه (جنيه) الى شون (جمع شونة) الحكومة فيوزن أو يكال ويقرر لكل وحدة السعر الذى تحدده الحكومة وتخصم من هذا التقدير الضريبة المفروضة على الأرض ، وثمن المواشى والبذور والسماد الذى أخذه ٠

وما يتبقى بعد ذلك للفلاح يسلم له بقيمته صكوك على الحكومة ٠

وفى بعض الأحيان كانت الحكومة تحتجز نسبة لما قد يتأخر من حسابه لسنة قادمة ٠

واذا لم يتمكن الفلاح من دفع ما هو مطلوب منه نظير عجز فى المحصول أو — لسبب آخر — يخصم ما عليه من صكوك من حساب أبناء القرية الآخرين ٠

واذا تبقى بعد كل هذه التصفيات للفلاحين عند الحكومة مبالغ ما .

وزعت بقيمتها على أهل القرية سلع من المنتجات الفائضـــة التى كانت أسرة محمد على أو صنائعها يقومون بالاتجار فيها ·

***

ويذكر الجبرتى ـ وهو يتحدث عن الظلم الواقع على الفـلاحين فى أيامه ـ أنه فى التاسع من شعبان عام ١٢٢٢هـ ، ١٨٠٧م طلب محمد على الضرائب المستحقة عن السنة المقبلة ·

ولما لم يجد القائمون بالتحصيل شيئا من الدراهم عند الفلاحين ، أخذوا منهم مواشيهم « فان لم يجيئـوا لأخذها بعد دفع المطـلوب بيعت للجزارين » ، أو بمعنى أدق فرضت على الجزارين وأجبروا على أن يدفعوا الثمن فان هم تراخـوا شــــددوا عليهم ـ على الجزارين ـ بالحبس ، والضرب ·

***

ويروى أستاذنا عبد الرحمن الرافعى الكثير والكثير عن الأرزاء والبلايا التى كان يتعرض لها الفلاحون فى أيام محمد على ، وكيف زادت أعبـاء السخرة والضرائب ، وكيف اضـــطر كثير منهم الى الهجرة الى الأقطار السورية المتاخمة لمصر ، فرارا من المكاره ·

وقد زاد عدد المهاجرين ـ كما يقول عبد الرحمن الرافعى ـ حتى بلغ عددهم ستة آلاف من الفلاحين ·

وخشى محمد على عواقب الهجرة وما قد تفضى اليـه من الأخطـار الاقتصادية فيطلب من عبد الله باشا والى صيدا أن يقوم بارجاع أولئـك المهاجرين المصريين الى بلدهم ، فلما رفض عبد الله باشا طلبه محتجا بأن المصريين من الرعايا العثمانيين ولهم الحق فى أن يقيموا أنى شاءوا ·

غضب محمد على باشـــا وكتب اليـه يتوعده وينبهه بأنه قادم ليعيدهم بنفسه بزيادة واحد ـ أى عبد الله باشا ذاته ! ··

***

« وفى الأوامر المرعية فى شأن الأراضى المصرية » لأرتين باشا أنه كان للمتعهدين بصفتهم دائنين لواضعى اليد على الأطيان التى دخلت فى عهدتهم أن يجبروا مدينيهم وهم واضعو اليد على المذكورين على العمل لحسابهم والاشتغال لذمتهم ·

وحيث أن الحبس على ذمة الدين كان ساريا وقتئذ فقد تعهدت الحكومة ضمانا للمتعهدين بأن تسلم اليهم الفلاحين والمزارعين ، الذين يبارحون أراضيهم لسبب من الأسباب ، فكانت حالة الفلاح المصرى ، كما يقول أرتين باشا مشابهة لحالة فلاحى أوربا فى العصور الوسطى ٠

***

ويذكر ادوارد لين ، الانجليزى الذى عاصر عهد محمد على ، قصة سليمان أغا السلحدار ، الذى كان مديرا لمديرية طنطا ٠

واشتهر بالقسوة وغلظة القلب ، وقد ذهب ذات مرة الى « شونة حكومية ليلا فوجد اثنين من الفلاحين فسألهما عما يفعلانه فى هذا الوقت، فقال أحدهما أنه ورد للشونة ١٣٠ اردبا من احدى القرى المجاورة ٠

وقال الآخر أنه ورد ٦٠ اردبا من أرض تابعة للمديرية ٠

فغضب السلحدار باشا من الأخير لأن ما « ورده » أقل ٠

وقال الفلاح الذى غضب منه الباشا : زميلى يجىء مرة كل أسبوع ، أما أنا فأجىء كل يوم ، أى أن ما أقوم بتوريده يزيد عما يقوم به زميلى٠

ولكن الباشا لم يقتنع بما قاله ذلك الفلاح فأمر بشنقه فى شجرة قريبة ٠

وفى اليوم التالى جاء السلحدار الى الشونة ذاتها ففوجىء بوجود الرجل الذى كان قد أمر بشنقه على قيد الحياة ، وقد جاء ليورد ٦٠ اردبا فاستدعى الرجل الذى أمره بشنق الفلاح ، وقال له : ما هذا أعادت اليه الحياة ؟ فقال الجلاد : كلا يا سيدى : لقد شنقته بحيث لمست أصابعه الأرض ٠

وعندما وصلت حللت وثاقه لأنك أمرتنى بشنقه ولم تأمرنى بقتله ٠

وزمجر المدير قائلا : آه : الشنق والقتل عندكم فى اللغة العربية شيئان مختلفان : يا لها من لغة غبية ٠

على أية حال فى المرة القادمة سآمر بالقتل ، لا بالشنق ، احذروا غضب أبى داود (أى سليمان باشا أغا) ٠

والقصة توضح كيف كانت الأوامر تصدر بشنق الفلاحين بدون أية محاكمة ٠

وكيف كان الفلاحون يقومون ـ اجباريا ـ بتوريد ما يزرعونه دون أن يكون لهم من نتاجه حتى ما يقتاتون منه ·

***

وعن الأستاذ محمود كامل أن الفلاح المصرى كان كالعامل المصرى ، كالزارع المصرى يعيش فى أسوأ الحالات ·

حتى فى الأوقات العادية ، التى لا أثر فيها لاعتبارات الحرب والتضخم المالى ·

كان العامل الزراعى يتقاضى أجرا يوميا يتراوح بين قرشين ونصف وثلاثة قروش ·

ولأنه لا يشتغل فى العام ـ عادة ـ أكثر من مائتى يوم . كما أن متوسط عدد الأشخاص الذين كان يعولهم يتراوح بين شخصين الى ثلاثة : من زوجة وأولاد ، لم يكن ذلك الأجر الحقير يزيد يوميا عن عشرة مليمات ·

وهو متوسط منحط لأنه يهوى بأولئك المساكين الى أقل من مستوى البهائم التى تشاركهم الحياة البيئية فى مصر ·

وليس فى هذا أقل مغالاة فان ما تتكلفه الماشية الواحدة من مواشى الفلاح الفقير ، لا يقل عن سبعة جنيهات فى العام ··· زمان زمان !! ·

وذلك جـــدير بأن يخزى جميع الأحزاب المصرية التى تعاقبت على حكم مصر منذ عام ١٩٢٢ زاعمة أنهـا تستند فى توليها الحـــكم الى ثقة الملايين من الناخبين الذين غالبيتهم العظمى من أولئك المزارعين » ·

***

وانطلاقا من ذلك كله ، يتبين ـ بجلاء ووضوح ، أن الظلم والاستبداد كانا من معالم القرية المصرية ، وفى ذلك ما يضاعف من تزايد الغضب فى النفوس ·

وفى ذلك كله ما يبعث فى القلوب ـ وخاصـــة فى قلوب أولئك الذين أنجبتهم القرية المصرية وأنجبت من قبلهم آباءهم وأجـــدادهم ـ نوازع الثورة على كل ما يحيط بهم من مظالم ·

***

وللأمانة أقول ان قريتنا قد خلت ـ لظروف خاصة ـ من كثير من معالم الظلم والاضطهاد بعكس ما كان عليه الحال فى غالبية القرى المصرية أو فى بعض القرى المجاورة ·

وقد روى لى والدى الكثير مما رآه وسـمعه ـ بدوره ـ من مآسى الاقطاع والاقطاعيين ·

★★★

ورأيت بعينى رأسى فى السنوات الأولى من حياتى الكثير والكثير من مآسى الاقطاع والاقطاعيين أيضا تلك التى أثرت فى نفسى ووجدانى الى حد كبير :

كانت قريتنا محاطة بمجموعة من القرى امتلأت بالباشوات والبكوات والأفندية كما امتلأت بالحقد والظلم والكراهية : كانت ـ مثلا ـ حفلاتهم لا تنقطع وكان يؤتى بالمطربين والمطربات من القاهرة مباشرة لاحياء بعض تلك الحفلات الخاصة ، كظهور هذا الطفل أو ذاك أو للاحتفال بنيل زيد من أبناء الباشوات شهادة الابتدائية ·

وكانت مئات الجنيهات تنفق بسعة على كل حفلة من تلك الحفلات ، كما تذبح عشرات الخراف والعجول ·

ولم يكن يسمح أبدا لأى فلاح بحضور واحدة من تلك الحفـلات ، الا للخدمة فقط ، أو للديكور ، اذا ما احتاج الاقطاعى تحويل جو العنجهية والغطرسة الى ديكور كأن يكون الباشـا ، أو البك ، أو حتى الأفندى الاقطاعى قد دعا شخصيات سياسية كبيرة الى الحفل وأراد اظهار ولاء الجماهير له ، ولأولاده فيأمر بجمع الفلاحين وحشرهم كالأغنام أمام باب قصره · الى أن تنتهى التمثيلية ، فيؤمر الفلاحون بالعودة ·

وفى القرى المجاورة ـ ويسرى هذا أيضا على أبناء قريتنا ـ لا يسمح لأى فلاح أن يمر راكبا حماره على مقربة من قصر أحدهم ، حتى لو كان كل سكانه يصطافون فى « كان » ·· أو « نيس » ·

والفلاح ، الذى يتجرأ ويمر بالقصر ـ ولو مرورا عابرا ـ يؤتى به الى حجرة تليفون العمدة حيث يضرب ضربا مبرحا ·

ويحبس ليلة ، أو ليلتين حسب رغبة من أصدر الأمر ·

والباشا الكبير الذى يتحكم فى أرزاق وحياة الفلاحين فى كثير من القرى المجاورة لقريتنا ، كان يمثل عنصر الخيانة بأبشع صورها : لقد ورث عن أمه ـ وهى احدى جوارى اسماعيل باشا مائة فدان ـ وبعد ثمانية أعوام ، أصبحت المائة ثلاثة آلاف ، لم يحصل عليها عن طريق الهبة ، أو البيع أو الشراء وانما حصل عليها عن طريق خيانته للثـورة العرابية ·

وكان في البداية نجما من نجومها البارزة ثم خانها فى اللحظة الحرجة عندما لوحت له بريطانيا العظمى بفرسان الملك جورج ، أعنى الجنيهات الانجليزية الذهبية ٠

★★★

وعندما وعده الخديو توفيق بضيعة أو « شفلك » ٠

وبعد أن انتهت الثورة العرابية نزع الانجليز عشرات الألوف من الأفدنة من عدد غير قليل من الفلاحين الشرفاء الذين انغمروا فى الثورة العرابية وقدموا لها كل امكاناتهم وكل جهودهم ! ٠

★★★

وكان الباشا الذى أصبح كبيرا ، وكبيرا جدا منذ ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ ــ وهو اليوم الذى وطئت فيه أقدام بريطانيا أراضى مصر ــ قد حظى بنصيب كبير من تلك الأراضى المصادرة ٠

ومبالغة من الباشا الكبير فى الخبث والمكر والدهاء ، أوقف ثلاثمائة فدان من أرضه ، أستغفر الله بل من أرض غيره على جهات البر والخير اسما ، ولأولاده وأحفاده من بعده فعلا ٠

وبذلك العمل الخيرى الكبير !! حصل على الباشوية لابنه الأكبر ، وعلى البكوية لاثنين من أنجاله ٠

واستطاع الباشا الكبير خلال الاحتلال البريطانى لمصر ، وخلال العهد الذى حكمت فيه مصر بريطانيا بأسماء مصرية أن يتملك عددا من كراسى المجالس النيابية له ولأبنائه واخوته فلديه ــ لدى الباشا ــ من ينتمى الى حزب ولديه من الأبناء والاخوة مستقلون حيث تكون « المودة » « مودة » المستقلين ! ٠

هو دائما وأبدا جاهز ٠

وهو دائما ، وأولاده واخوته ممثلون فى كل مجلس نيابى من مجلس شورى النواب والجمعية العمومية ، والجمعية التشريعية الى مجلسى الشيوخ والنواب ٠

وقد استطاع الباشا بشىء غير قليل من الجهد ، أن يخضع فى دائرة نفوذه كل الموظفين الذين يعملون فى المديرية ، من المدير الى الخفير بل لم يكن وزير الداخلية ذاته ــ أى وزير للداخلية ــ بقادر على أن يعين ، أو ينقل ضابطا ، أو جنديا من ضباط وجنود نقطة البوليس ، التى تقع

فى زمام دائرة الباشا دون أن يستأذن الباشا فى ذلك ، بل لم يكن وزير المعارف ـ أى وزير للمعارف ـ بقادر أن ينقل ناظر مدرسة ، أو مدرسا فى مدرسة تقع فى القرى التى تنعم برعاية الباشا وتكون ضمن منطقة نفوذه دون أخذ رأى الباشا ، أو أحد رجاله أو أتباعه ٠

***

ولذلك فقد كان كل الموظفين وخاصة الذين يعملون فى القرى التى يسيطر عليها الباشا أو تكون أرضه داخل زمامها ، يعرفون جيدا أن بقاءهم متوقف على رضاء الباشا الكبير ، وأسرته ، وأنهم ما جيء بهم جميعا الا لمساعدة الباشا ، وأبنائه وأصهاره على تحقيق أهدافهم ومن بينها كيفية امتصاص دماء الفلاحين بكثرة ووفرة ٠

والغريب أن الباشا الكبير ، ومن والاه كانوا يعتمدون على بعض العتاة من قطاع الطرق ، الخارجين على القانون فيستأجرونهم فى عمليات القتل ، أو تسميم المواشى أو تقطيع المزروعات ، نظير مبالغ من المال قد تصل فى العملية الواحدة الى مائتى جنيه ٠

وفى بعض الأحيان كان بعض قطاع الطرق هؤلاء يتطوعون لتنفيذ أوامر الباشا الكبير ، دون المطالبة بأية مكافآت ذلك لأن لديهم ما هو أخطر ، وما هو أكثر جلبا للمال ، وأعنى به تجارة المخدرات ٠

***

كان هؤلاء التجار ، الذين يحميهم الباشا ورجاله من سطوة رجال البوليس ينفذون كل ما يريده الباشا ورجاله مجانا لأنهم يحققون من الاتجار بالمخدرات علنا وعلى رءوس الأشهاد ، أكثر ما يمكن أن يحققوه فى مجالات القتل ، وتسميم المواشى ، وتقطيع المزروعات ٠

ولم يكن أحد من رجال البوليس يستطيع أن يقول لواحد منهم ـ من تجار المخدرات هؤلاء ـ « ثلث الثلاثة كام » ! ٠

ومرة تجرأ أحد ضباط البوليس ممن تخرجوا حديثا ، وأراد أن يطبق المبادىء والأسس والأفكار التى درسها فى مدرسة البوليس ، على يد أستاذه عزيز المصرى ـ فاعتقل واحدا من هؤلاء التجار فقامت وزارة الداخلية ولم تقعد حتى تم الافراج عنه معززا مكرما رغم أنه كان قد ضبط متلبسا ببيع كميات كبيرة من الحشيش ٠

ولم يهدأ الباشا الكبير الا بعد أن نقل هذا الضابط الى أسوان ،

ونقل قبله ملاحظ النقطة الذى كان يعمل تحت امرته مبالغة فى التنكيل به ، بل لقد نقل المأمور ، !

ولم تكن قوات الحكومة بقادرة على أن تطأ مكانا ــ أى مكان ــ من أراضى الباشا ، دون استئذانه أو بدعوة منه ·

ومرة دخلت قوات الخيالة قرية من القرى الخاضعة لحماية الباشا ، بحثا عن مجرم فار من العدالة ، فبادرت قوات الباشا ــ وكان للباشا الكبير قواته ــ باطلاق الرصاص على فرق الخيالة ، والغريب ــ ولا غريب الا الشيطان ــ أن الحكومة المجنى عليها فى هـــذا الأمر ، هى ورجالها ، قدمت الاعتذار للباشا ، على لسان وزير الداخلية نفسه !

***

والقصص عن استغلال الباشـــا ، وآله غير الكرام للفـــلاحين ، والاستهتار بكرامتهم وانسانيتهم كثيرة ومتعددة ، تصلح لأن تكون وحدها كتابا مستقلا بذاته ·

فالباشا ــ ومن ورائه ذريته غير الصالحة ــ لا يعترف للفلاحين بأى حق من الحقوق : ولا يرى أنهم آدميون ·

هم رقيق الأرض تسلمهم يوم تسلم الأرض ·

وليس لواحد منهم أن يترك الأرض التى يزرع بها لأنه جزء من تلك الأرض ·

ولأنه الأداة الوحيدة للانتفاع بتلك الأرض ، كالبقر والجاموس ·

وقد كان للمواشى فى ظل دولة « الباشا الكبير » ، أهمية أكبر من الأهمية التى يلقاها الفلاحون فعندما تصاب بعض مواشى الباشا بمرض ما تقوم الدنيا ولا تقعد ، وربما تقوم وتتحرك جهات كثيرة فى وزارة الزراعة ، ووزارة الداخلية ، بل أحيانا فى رئاسة الوزارة حتى يمكن انقاذ مواشى الباشا ·

وكان الباشا ــ وذلك من بعض مآثره الكبيرة ــ !! يرى أن وقت الفلاحين وجهدهم ملك له وحده ·

فكما أنهم ملكه الخاص فكذلك وقتهم أيضا : من حقه أن يعملوا فى أرضه ومن حقه أن يبعث بهم ليعملوا فى أراضى أبنائه ، وأحفاده ·

بل من حقه أن يبعث بهم ليعملوا عند أى باشا ، أو بك بلا أجر ، لأنه المالك للأرض ولمن عليها أيضا ·

ولم يكن الفلاح يحصل لقاء عمله وعمل أولاده وذويه طوال عام كامل الا على بضعة أرادب من الأذرة وبضعة أطنان من التبن ٠

وعليه ـ هكذا كان يقول الباشا الكبير ـ أن يقبل يده ظهرا وبطنا لأن الباشا يقدر على حرمانه من كل شيء ٠

ولم يكن للفلاح ـ كغالبية الفلاحين وقتئذ ـ أكثر من جلباب أزرق يلبسه ثم يغسله ، ثم يلبسه دون أن يكون له « غيار » ، ومع ذلك كان الباشا يقول لهم : احمدوا ربنا اللى فيه حاجة تستركم . دا فيه فلاحين ما عندهمش ، حتى الجلاليب الزرق اللى انتم بتلبسوها ! » ٠

***

وأكثر من مرة جمع الباشا الكبير الفلاحين فى فناء قصره ، عندما سمع أن همسا قد دار بسبب زيادة الايجارات ، أو زيادة سـعر الفائدة التى كان يقرض بها الباشا أمواله للفلاحين ٠

وكان من بين ما قاله ذات مرة ، انتم فاكرين نفسكم ايه ، بهـايم دا البهايم أحسن منكم شوية لأنها بتفهم ٠

احمدوا ربنا اللى احنا بنأكلكم عيش ٠

وأنا أقدر أطردكم كلكم ، وأجيب شوية محاريث من بلاد برة وأزرع بها الأرض لوحدى » ٠

ومرة عمد الى التخصيص بالنسبة للعناصر التى لا يعجبهـا الحال المايل : عندكم شوية عيال يستحقوا الدبح ، دول طالعين فيها قوى ، فاكرين نفسهم بنى آدمين ، الواحد منهم لسانه زى « الفرقلة » ، لما مصطفى أفندى معاون الدائرة يقول له كلمة يرد عليه بكلمة زيها ٠

ولما خولى العزبة ينصحه بحاجة ما يقبلشى النصيحة ، ويشير الباشا الى أحد أبناء الفلاحين قائلا ، دا فيه واحد ، بيمشى قدام السراى عاوج الطاقية على جنب ، ماسك خرزانة فى ايده ، لابس جزمة وشراب يكونش طالع فى دماغه أنه زى ولاد البندر » ٠

***

ويغلظ الباشا فى القول ثم يأمر بضرب أى فلاح قلمين ثلاثة ، ثم يقـول بعد الضرب : ليكن فى معلومكم ان أى واحد منكم ثمنه رصاصة بقرش ، بل خسارة فيه الرصاصة دى ضربة واحدة على نافوخه تجيب أجله ، ولا من شاف ولا من درى ، واهو كلب وراح » ويضحك الباشا

بهستيرية عجيبة وهو يقول ـ وكان يتكلم كأولاد البلد لأنه ليس تركيا ولا خواجة ، وانما هو من صميم الريف لكن « طاقة القدر اتفتحت له » كما كانوا يقولون فى القرى المجاورة لقريتنا ٠

كان الباشا الكبير يقول : يعنى احنا استلمناكم بعدد ، حتى اننا نسلمكم بعدد !! مافيش لأى واحد منكم دية ولا حساب ، ولا اعتبار » ٠

***

ومرة وقف أحد الشبان الصغار المتحمسين ، يقول للباشا : احنا مش بهايم ، احنا بنى آدميين ٠

ولم يستطع أن يكمل كلامه لأن زملاءه شدوه من جلبابه وقفلوا فمه حتى لا تحدث كارثة لهم وله ! ٠

وقد كان من عادة الباشا الكبير قبل مجىء موسم جمع القطن أو حصاد القمح أن يصدر أوامره بألا يقترب أى فلاح من أرضه ما لم يكن مسددا لقيمة الايجار ، والويل كل الويل لمن يخالف هذا الأمر ، اذ أنه يحبس فى سجن الدائرة ٠

ومرة مر طفل صغير بالحقل الذى يزرعه والده فهفت نفسه الى كوز أذرة فقطعه ، فأمر خولى القرية باحضار الطفل ووالده حيث أمر بحبسهما .

ومرة بحثت احدى الفلاحات عن دقيق لتصنع منه خبزا لأولادها الصغار فلم تجد شيئا ، وفكرت فى أن تقترض من جارتها ولكنها خجلت لأنها سبق لها أن اقترضت منها « دقيقا » ، ولم ترده ٠

وطلبت من ابنتها الصغيرة التى كانت تركب النورج وتدرس القمح ، ـ القمح الذى زرعه أبوها ـ أن ترسل لها شوية « قمح » لتطحنها فى « الهون » ، وتخبزها ٠

وفعلت الابنة ما طلبته منها أمها ٠

وعلم بالقصة ناظر الزراعة فأبلغها كعادته الى الباشا الذى أصدر أمره بمضاعفة قيمة ايجار الأرض التى يستأجرها الفلاح صاحب الجرن بعد أن هدد الفلاح بالحبس لأنه سرق القمح ٠

***

ومرة ـ وقد شهدت الواقعة بنفسى « جمع أحد الشبان » قطن بعض الشجيرات ، واتجه به الى أحد البقالين فى قريتنا ليشترى « حتة حلاوة طحينية » يتغذى بها ٠

ونقلت الواقعة الى ناظر عزبة الوسية ،وكان أن أبلغ ناظر العزبة البوليس ، لأن هذا الشاب بدد أموال الباشا .

وكانت وجهة نظره أن القطن حتى وهو في الأرض مملوك للباشا ، وأنه ليس لمن يستأجره أن يحصل على أية لوزة منه

والقطن لابد أن يسلم لدائرة الباشا ، فالباشا متعاقد على بيعه مع بعض التجار اليهود !! وقد شاهدت بعينى رأسى الباشا الكبير ، وقد ربط أحد الفلاحين في ذيل حصانه ، وجرى به في الطريق الزراعى مسافة طويلة ، لأنه لم يقم اجلالا وتوقيرا لحفيد الباشا ، الذى لم يكن قد تجاوز التاسعة من عمره ، عندما مر به ولم يسع الى تقبيل يديه الكريمتين .. !

★★★

ومرة أخرى أمر الباشا بأن يذهب الفلاحون من الصباح الباكر الى الطريق الزراعى لأن أحد ضيوفه من السفراء الأجانب سيتناول الغذاء عنده ، وبالرغم من أن موعد مرور السفير كان فى الساعة الواحدة بعد الظهر الا أن الأوامر كانت صريحة وحاسمة ، ولابد من الوقوف فى الطريق الزراعى من الصباح الباكر .

وقد تخلف أحد الفلاحين لمرضه .

ولم يقبل الباشا عذره واعتبر هذا العمل « عنطزة » ، وتكبرا ومبالغة في اذلاله رفض أن يسمح له بأن يترك القرية .

وعندما حاول هذا الفلاح ، الهرب ليلا ، أعاده رجال البوليس مكبلا بالقيود الحديدية .

ومرة أخرى كان الباشا يمر بالحقول ، وهرع جميع الفلاحين الذين كانوا يعملون بالأرض لتحيته وتقبيل يده ، ماعدا أحدهم الذى اكتفى بتحية الباشا من بعيد .

★★★

وأسرها الباشا في نفسه وتذكرها فى موسم الفيضان ، فأمر بأن يوضع اسم هذا الفلاح فى كشوف « غفر البحر » وأن يبقى هناك — عند شاطىء نهر النيل القريب من قريته — طوال فترة الصيف : هذا بالرغم من أنه قام بواجبه هذا فى حراسة شاطىء النيل فى العام الماضى .

وبالرغم من أن « عمل » أى فلاح فى تلك المهمة لا يمكن أبدا — الا فى ظروف قاهرة — أن يزيد على أسبوع أو أسبوعين !!

★★★

ومن بين ما أذكره عن عزبة الوسية التى كان ثلاثة أرباع أراضيها من زمام قريتنا أن ناظر تلك العزبة كان رجلا أميـــا لا يعرف القراءة ولا الكتابة وان استطاع ـ بصعوبة ـ أن يوقع على بعض الأوراق بما كان يسميه فرمة ـ بكسر الفاء وتسكين الراء وفتح الميم ـ ولكنه كان أقوى ألف مرة من ضابط بوليس النقطة ، التى تتبعها قريتنا ومن مأمور المركز بل ـ وفى بعض الحالات ـ من مدير المديرية ٠

فقوله الفصل ، : هو المسيطر على كل شئون العزبة بما فيها من فلاحين ومواشى ، ومزروعات ٠

وهو وحده الذى يحدد الايجار حسب هواه ومن كان « يعصلج » من الفلاحين كان يضاعف الايجار بالنسبة له ٠

ومن كان يركع له فى ذهابه وايابه كان يخفض له بضعة جنيهات من الايجار وهو وحده الذى يحدد ما يجب أن يدفع قبل جنى المحصول وما يجب أن يدفع بعد جنى المحصول ٠

وهو وحده الذى يأمر لبعض الفلاحين بأن يتسلموا كيلات من الأذرة يأكلون منها قبل أن يتم تسليم المحصول أو دفع الايجار بالكامل ٠

هذا ان كان قد رضى عنهم ٠

★★★

وفى مخزن الوسية كان يجرى تسليم المحاصـــيل كلها وخاصة القطن ، الذى كان يسلم للتجار اليهود عادة بعد أن يكونوا قد تعاقدوا على شرائه مقدما قبل زرع القطن ٠

وليس من حق أى فلاح من فلاحى القرية أن يأخذ لوزة واحدة بل ليس من حق الفلاح أن يحصل على سنتيمتر من القطن لوضعه على أحد الجروح ٠

ومن كان يقبض عليه بتلك التهمة النكراء ـ تهمة سرقة ـ نصف أو ربع كيلو قطن من الأرض التى شقى بزراعتها طيلة العام ـ يسجن فى سجن الوسية أو يبلغ البوليس ضده ليتولى معاقبته بتهمة السرقة ، أو تبديد المحصول ٠

أما القمح فكان يجرى تخزينه بعد درسه وتذريته ، ووضعه فى زكائب الى أن يقوم المستأجر بدفع الايجار المطلوب ٠

وكان بعض الفلاحين يبيعون بعض ما يملكون من مواشى أو مصوغات

ليستردوا كيلات محدودة ، ومعـــدودة من ذلك القمح اللازم لهم فى الأفراح ، وفى الأعياد وخاصة عيد الفطر المبارك ، عيد الكعك ٠

أما التبن الذى يتخلف عن درس أعواد القمح فكان يقسم مناصفة بين العزبة وبين الفلاحين ٠

الفلاحون يأخذون نصيبهم فيه ليستخدموه غذاء للمواشى أو للاستفادة منه فى ضرب الطوب ، لبناء بيوتهم ٠

أما الوسية فكانت تكبس نصيبها فى بالات ضخمة تشـــحن فى قطارات الى خارج العزبة ٠

وكان الفلاحون يدفعون ثمن الأذرة والا بقى المحصول فى الحقـل حتى تتساقط كيزان الأذرة على الأرض ، وتفقد قيمتها لأن الأرض تصاب عادة بالتلف ٠

★★★

وفى بعض الأحيان كانت مساحات كثيرة من الأرض المنزرعة تبقى بدون حصاد لأن أصحابها لا يملكون ما هو مطلوب منهم حيث لا طاقة لهم بدفعه ، حتى يوشك أن يهلك المحصول ويحل موعد زراعة محصول جديد ذلك لأن الفلاحين لم يدفعوا الثمن ٠

★★★

وأيا كانت درجة الهلاك التى يمكن أن تلحق محصول الأذرة ـ وهو فى أرضه ـ فلابد للفلاحين اذا ما أرادوا ألا يكون مصيرهم الســـجن أن يدفعوا الثمن نقدا أو يوقعوا كمبيالات على بياض ٠

ومرة ـ وربما كانت المرة الوحيدة ـ فكرت فى أن أكتب تمثيلية عن عزبة الوسية ٠

ولو أننى نجحت فى نقـــل الواقع الى المسرح ، لقدمت تمثيليـــة تراجيدية وكوميدية عالمية ، فما كان يجرى فى تلك العزبة لا مثيل له فى أى مكان فى العالم بل يفوق ما يمكن أن يصل اليـه ذهن أى كاتب خيالى ٠

★★★

وللعلم فقد كانت قريتنا أكثر استقرارا من القرى المجاورة كما أنها كانت أقل مشاكل من أية قرية أخرى من القرى المصرية :

كانت قريتنا تنعم - نسبيا - بهدوء البال ، بما لا تنعم به قرى أخرى مجاورة ٠

★★★

كان الظلم الذى نزل بأهلها لا يقاس أبدا الى جانب ما نزل وينزل بغيرها ٠

ولكن بالرغم من كل ذلك - وبالرغم من أن القرية كلهـا ، كانت تشكل أسرة واحدة - الا أننى فى بعض الأحيان كنت أحس بأن لدى أهلها - وخاصة عند أبى - رواسب قديمة من آثار الظلم ، والاستبداد والذل والاذلال والفساد والافساد وكان أثر تلك الرواسب يبدو فى كثير من تصرفات أهلى وعشيرتى ٠

★★★

قريتنـا - وتلك ميزة انفردت بهـا على كثير من القرى - كانت تمثل - رغم فقرها ، وعدم وجود أغنياء موسرين بها ، بل ربما لفقرها ، وعدم وجود أغنياء موسرين بها ، - المجتمع النموذجى الذى لا يعرف الحقد ولا الحسد ولا البغضاء ولا الكراهية ٠

قريتنا - وقت أن أنبتتنا - لم يكن يزيد عدد سكانها على ثلاثة آلاف نسمة يشكلون معا أسرة واحدة ، لا تعرف أى نوع من أنواع الظلم أو الاستغلال ٠

تنام كل ليلة على الحب وتستيقظ كل صباح على السلام ، والود ، والخير ٠

لا تعرف صراع الطبقات ، لأنها طبقة واحدة ٠

ليس من أبنائها « باشا » ولا « بك » ولا حتى أفندى ٠

الجميع سواسية كأسـنان المشـط : يرتدون الجلاليب والطواقى واللاسات و « البلغ » ٠

وأربعة فقط هم الذين يضعون على رءوسهم العمائم ٠

أقصى ما يملكه الواحد منهم خمسة عشر فدانا هو وأولاده واخوته ، تم شراؤها - ان لم تكن موروثة - بالكد والعمل والكفاح المتواصل وأدنى ما يملكه الواحد منهم بيت صغير يتكون من حجرتين على الأقل بهما فرن تخبز فيه الأرغفة والفطائر ، ويطهى فيه بعض أنواع الأرز وفى الليل يتم النوم عليه كسرير دافىء طيلة الليل فى الشتاء ٠

اما فى فى الصيف فكان أهل قريتى ينامون فوق أسطح المنازل ٠

أكبر واحد فيهم هو العمدة ٠

وهو أصغر واحد فيهم أيضا ٠

هو الأب والأخ لكل من فى القرية ٠

اذا شكت جاموسة الحاج رمضان عرجا انتقل العمدة الى بيته ليأخذ بيده ، ويوجه اليه بعض النصائح الطبية (البلدية) ٠

وان اختلف محمدين مع أخيه أحمد راح العمدة ينفق ساعات من وقته ليعيد السلام الى الأخوين ٠

دار العمدة ، أو دواره كما يسمونها تعظيما لشأن العمدة بين عمد القرى المجاورة ، لا تغلق أبدا فى أية ساعة من ساعات الليل أو النهار ٠

أى ضيف قادم الى القرية ولو كان راكبا حصانا أو سيارة يجد فى تلك الدار ــ حسب امكانات العمدة ــ الغداء أو العشاء والنوم ٠

وأى جائع من أبناء القرية ــ وقلما يحدث ذلك بل نادرا ما كان يحدث ذلك ــ يستطيع أن يدخل ، وبدون اســـتئذان على الحاجة زوجة « أبويا العمدة » كما كانوا يطلقون عليها فى بعض الأحيان ــ يطلب طعاما وشرابا ٠

وقلما تخلو « مندرة » العمدة من أبناء القرية الذين كانوا يذهبون اليها بعد صلاة العشاء ، للسمر ، أو للمناقشة أو لفض المنازعات ٠

★★★

ولقد ظل أبناء قريتنا على حبهم لعمدتهم طوال ربع قرن من الزمان منذ اليوم الأول الذى اختاروه لهذا المنصب لطيبة قلبه ورغبته فى الخدمة العامة ولأنه كان قد حفظ القرآن الكريم فى شبابه ، وقد رفض يومئذ أن يرشح نفسه للعمودية لأنه لا يملك عشرة أفدنة : وهى الحد الأدنى المطلوب توافره فيمن يرشح نفسه للعمودية وخمسة أفدنة لمن يرشـــح نفسه لمشيخة البلد ٠

يومها تسابق أبناء القرية للتنازل رســـميا عن أراضيهم له حتى يكمل النصاب وليرفعوا من شأنه أمام عمد البلاد المجاورة وأمام كل من فى المركز ، أو فى المديرية ولكنه اعتذر لهم شاكرا بعد أن قام أحد اخوته بتغطية النصاب المطلوب ٠

ومنذ ذلك اليوم وهو يتفانى دائما فى خدمتهم حتى أولئك الذين يتقدمون ضده بعرائض مجهولة الى المركز وكان يعرفهم من خطوطهم ٠

فى قريتنا كان بعض أبنائها يملكون أراضى ولا يستطيعون زرعها بأنفسهم فكانوا يؤجرونها لأقاربهم أو لبعض جيرانهم بايجار يتناسب مع قيمة الأرض ومع ما تغله سنويا من محاصيل ٠

أو يعطونها لغيرهم ، من الفلاحين ، ويقدمون اليهم التقاوى والأسمدة الكيماوية ٠

***

ويقسم الجميع ــ الملاك والمزارعون ــ الناتج من المحصول قسمة عادلة ٠

أما أولئك الذين كانوا لا يملكون أرضا ولا يستطيعون استئجار أرض لأنهم لا يملكون المواشى ، ولا يملكون ما يكفيهم من مؤونة الحياة سنة كاملة ينتظرون فيها نضج المحاصيل الزراعية ، فكانوا يعملون عند بعض أقاربهم أو جيرانهم فى موسم الزراعة ٠

ويكونون فى تلك المواسم كأفراد الأسرة الواحدة تماما ، يأكلون مثلما يأكلون ويشربون مما يشرب منه أفراد الأسرة ٠

فاذا ما جاء موسم « التراحيل » ، والعمل فى البرارى ــ ودائما كان يجىء هذا الموسم فى زمهرير الشتاء القاتل ــ ذهب الى العمل هناك ، ومعه كل طعامه لمدة شهر أو شهر ونصف أو شهرين ،فاذا ما عاد ــ وقلما كان يعود الا جثة هامدة ، أو مريضا ــ كان معه جنيه أو جنيهان اشترى به أو بهما ملابس العيد لنفسه ولأولاده ٠

وبعض العمال الزراعيين كانوا يلتحقون بخدمة بعض الأسر القريبة أو الصديقة منذ أن أصبحوا قادرين على العمل ٠

وهؤلاء لا يأخذون أجورا وانما يأخذون عندما يشبون عن الطوق ، أو يصبحون قادرين على فتح بيوت جديدة يأخذون ما يدفعونه مهـــورا وما يؤثثون به بيوتهم الجديدة ! ٠

وأحيانا يأخذون ممن كانوا يعملون عندهم بعض المواشى ليصبحوا مستقلين عن غيرهم ٠

***

وهؤلاء عندما يكونون يعملون عنـــد بعض الأسر ، كانوا يعاملون معاملة أبناء الأسرة تماما فاذا ما ذهب رب الأسرة الى السوق مثلا ليشترى ملابس العيد أو ملابس فرح من الأفراح المهمة بالنسبة للأسرة ، اشترى لهؤلاء العمال مثل ما يشترى لأولاده وبناته تماما ·

وعندما كان يمرض الواحد كان رب الأسرة ينفق عليه وعلى بيته حتى يشفى ويسترد عافيته تماما ·

واذا ما مات هذا العامل ، أو أصيب بعجز كلى أو جزئى تولى رب الأسرة ، الانفاق عليه وعلى أسرته بل ومن كان يعولهم ·

وكثيرا ما كان رب الأسرة يختار أحد هؤلاء العمال ليزوجه بابنته أو يختار احـدى العـاملات عنده ليزوجها ابنه حتى يصبح « زيتنا فى دقيقنا » ·

وفى كل الحالات كان رب الأسرة هو الذى يدفع مهر وتكاليف الزوج أو الزوجة ويخلى للعروسين احدى حجرات منزله ·

★★★

وقد عرفت قريتنا أنواعا عديدة من الضرائب التى يفرضها الحب والود والجيرة ، ففى المواسم والأعيـاد ـ كل المواسم والأعياد ـ تتوالى الاعانات مرارا وتكرارا على الأسر المحتاجة ·

وتكون هذه الاعانات ـ منعا للاحراج ـ فى صـــورة كميات من اللحم . ومن السكر ، ومن الدقيق ، ومن الصـــابون ومن الأقمشـــة الجديدة ·

ونادرا ما تأخذ صورة نقود ، بحيث لا يشـــعر المحتاجون الذين فقدوا عوائلهم فى هذه المناسبات بالضيق والألم ·

وفى الأفراح تتوالى المساعدات بل الواجبات على أسرتى العروسين فيقدم لهما ـ بكميات كبيرة ـ السمن واللبن والأرز والقمح والســكر حتى تستطيع هاتان الأسرتان عمل الكعك ، والفطير وغيرهما من الأمور الضرورية للأفراح ·

★★★

وعندما تنوى أسرة العروس عجن الكعك تخصص كل أسرة من القرية تملك جاموسة أو بقرة تدر لبنا ، ما يحلب منها فى الصباح ، لكى يرسل طازجا الى أسرة العروس ·

فاذا ما جاءت ليلة الدخلة انهالت النقود على العروسين كما تتوالى النقود ـ فى صورة نقوط ـ فى الصباحية ، أى صبيحة يوم الزواج ٠

وكثيرا ما يقوم العروسان بتجميد ما تجمع من نقوط لشراء بعض المصوغات للزوجة ، أو لشراء عجل ، أو خروف ، يكون أساسا اقتصاديا سليما للحياة الزوجية الجديدة ٠

★★★

وفى المأتم يتكرر هذا التعاون العجيب : هذا يقدم الكفن ، وذلك يشترى البن لعمل القهوة السادة ، وثالث يقدم النقود ٠

الجميع يتعاونون لاخراج الميت ودفنه بالتوقير والاجلال ٠

وقبل أن يحل المساء يذهب الشبان الى دار الميت حاملين ما فى بيوتهم من كراس ، ودكك ، وحصير ليجلس عليها الرجال . كل الرجال أمام بيت المتوفى للاستماع الى آى الذكر الحكيم حتى تحين صلاة المغرب فيقوم الجميع بأداء الصلاة ثم تنطلق سيدات القرية حاملات صوانى مملوءة بالطعام . الذى يقدم للضيوف الذين جاءوا للعزاء من القرى المجاورة وللفقراء المحتاجين من أبناء القرية والقرى المجاورة ٠

★★★

وفى غير تلك الكوارث يتم التعاون بصورة تدعو الى الاعجاب والتقدير ، وتؤكد أن القرية ليست سوى أسرة واحدة ٠

★★★

عندما تصاب ـ مثلا ـ جاموسة أحد الفلاحين ، أو بقرته ، أو تقع فى بئر أو ساقية ، ويتم ذبحها توزن كلها بلحمها وشحمها ، وعظامها وجلدها ، وتقدر حسب ثمنها الأصلى ٠

ثم تقسم على أبناء القرية ، كل أسرة تأخذ رطلا ، أو رطلين ، أو ثلاثة يسمونه « الكوم » بحيث لا تبقى قطعة صغيرة من اللحم ، أو العظم ، دون أن توزع ٠

وتدفع كل أسرة ثمن « الكوم » الذى كان من نصيبها وذلك طبقا للتقاليد السارية فى قريتنا التى تجعل كل كارثة مشاعا بين أبناء القرية جميعا ٠

ولم يحدث أبدا أن رفضت أسرة ما أرسل اليها من لحم من هـــذه الكارثة لأنها تعلم أن الزمن دوار ٠

وان التعاون بين أبناء القرية أمر ضرورى للغاية لا يستطيع أى فرد الخروج على مبادئه غير المكتوبة ٠

***

ولأبناء قريتنا طرقهم فى حصاد القمح ، أو جمع القطن ـ جنيه ـ كما أن لهم طرقهم فى التعاون الزراعى : فمن المعروف مثـــلا ـ أن كل محراث يحتاج الى جاموستين ، أو بقرتين ، أو جاموســــة وبقرة ، لكى يؤدى عمله ٠

والمعروف أن أبناء قريتنا ـ فى الغالب ـ لا يملك الواحـــد منهم أكثر من جاموسة ، أو بقرة ، فيتفق كل فلاح لا يملك الا ماشية واحدة مع زميل له ، جار ، قريب على أن يتعاونا معا لزراعة أرضيهما ٠

ويتكرر التعاون فى درس القمح وفى بعض الأحيان تكون أراضى هذا الفلاح تختلف فى المساحة عن أراضى من يتعاون معه ، قد تزيد ، أو تنقص !! ليس ذلك مهما ٠

المهم أن التعاون يستمر بينهما سنوات ، وسنوات لأن الحب هو أساس التعامل بين الفلاحين من أبناء قريتنا وليس مساحة الأرض ٠

وعندما يحل موسم جنى القطن ـ مثلا ـ أو حصاد القمح ، يختار صاحب الغيط (الحقل) يوما معينا لعملية جمع القطن أو حصاد القمح ، ويمر على أبناء القرية ممن يتعاون معهم فى الزراعة ، ليخبرهم بأن الغد ، أو بعد الغد هو موعد جنى قطنه ، أو حصاد قمحه ٠

وفى الصباح الباكر ، يذهب عدد كبير من الفلاحين كبارا وصغارا ، رجالا ونساء الى الحقل المراد جمع قطنه أو حصاد قمحه ، وعندما يحين وقت الغداء يتناول الجميع الغداء معا من منزل صاحب الحقل ، الذى يعتبر هذا اليوم عيدا من أعياده ٠

واذا ما انتهت عملية جمع القطن أو حصاد القمح واطمأن صاحب الحقل على جنى القطن كله ، أو حصاد القمح كله ، تبدأ عملية جمع القطن أو حصاد القمح فى حقل آخر لفلاح آخر ، بنفس الطريقة الى أن تنتهى القرية تماما من جنى القمح أو حصاد القمح ٠

***

والنجارون والحدادون والحلاقون ، ومشايخ الكتاتيب وغيرهم وغيرهم لا يأخذون أجورا على ما يقومون به من خدمات وانما يأخـــذون مقابل ما يقومون به من أعمال ، فى نهاية كل عام : بعض ما يســـتحقون من محاصيل القمح ، والاذرة والارز عندما تزرع القرية أرزا .

أصحاب تلك المهن يتناولون أجورهم من محاصـــيل الارز والذرة والقمح حسب تعداد كل أسرة ، أو حسب درجة ثرائها : أحيـانا يكون نصيب الحداد ـ مثلا ـ كيلة أو كيلتين من الاذرة كل عام من محصـــول احدى الأسر ، وقد لا تكون تلك الأسرة قد احتاجت الى ذلك الحداد مرة واحدة طوال العام .

وتعطى الأسر مشايخ الكتاب ، ما يسمى « بالمسانية » ، أى الذى يعطى سنويا حتى ولو لم يكن لها أطفال فى ذلك الكتاب أو ذاك ، اذ من المتوقع أن يكون لها أطفال فى الكتاب فى يوم قريب ، أو بعيد .

***

فى قريتنا تعاقد غير مكتوب بين أولئك الحرفيين ، وبين أبناء القرية تعطى الاجور مرة كل عام لأولئك الحرفيين حتى ولو لم يقوموا بخدمات لتلك الأسرة فأبواب محالهم مفتوحة ، وهم لم يتأخروا عن القيام بخدمة هذه الأسرة أو تلك .

***

وكانت علاقات قريتنا بالقرى المجاورة علاقة محبة ومودة ولكن فى تحفظ شديد ، فقريتنا رغم صغرها ورغم فقرها تنعم باستقرار تحسدها عليه كل جاراتها .

***

وفى بعض الأحيان ـ وخاصة فى بعض الأعياد ، وفى بعض حفلات الزواج التى يؤتى لها براقصات محترفات ـ كانت تقوم خناقات بين أبناء قريتنا وبين بعض القرى المجاورة ، ويحمل كل فرد من أفراد القريتين المتنازعتين لغير ما سبب معروف ـ غالبا ـ نبوته أو مقروطته (البندقية ذات الماسورة القصيرة) ، وبالرغم من وجود تلك الأسلحة النارية فى حوزة بعض المتنازعين الا أنه لا يجرى استخدام النار وانما يكتفى دائما باستخدام النبابيت .

وبالرغم من صغر حجم قريتنا ، وبالرغم من قلة عدد أبنائها الا أنها كانت دائما هى المنتصرة فى أى نزاع ، وذلك لأن التعاون بين أبناء هذه

القرية فى الخير لا فى الشر ، فى الحرب وفى السلم ، كان قويا ووثيقا للغاية .

***

ومما أذكره - الى جانب ما سبق ذكره - عن الحياة فى قريتنا ، أن بيت العمدة - وكان العمدة أحد أعمامى - كان يقع على بضعة أمتار من بيتنا - وكان عمى يعتبرنى ابنا له لأنه لم ينجب أبناء فلما أنجب ابنا له انتقل حبه لى الى حبه لابنه .

***

وقد كنت - فى أيام طفولتى - أغشى مجالس الكبار ، وخاصة مجلس العمودية وكان فى بيت العمدة ، غرفة تثير اهتمامى ، أكثر من أية غرفة أخرى وأعنى بها غرفة التليفون أو غرفة السلاحليك .

وكان التليفون أو السلاحليك هما مظهر العمودية وعندما كان ينقل الى منزل آخر كانت عملية النقل تلك أشبه ما تكون بالجنازة .

وكان العمدة يختار للتليفون أحد أقاربه الموثوق بهم باعتبار أن التليفون هو وسيلة الاتصال الوحيدة بنقطة البوليس ، أو البندر .

أما السلاحليك فقد كان عبارة عن شبه صندوق خشبى سميك ، توضع فيه بنادق خفراء القرية فى فترة الصباح ، حيث يحمل الخفراء تلك البنادق ليلا لحراسة القرية .

والويل كل الويل ، للخفير الذى تسرق منه بندقيته فانه يحال فورا الى مجلس تأديب يحكم عليه اما بالفصل ، أو السجن أو بهما معا . أو الجلد اذا لم تستخدم الرأفة .

وكانت غرفة التليفون أو السلاحليك يوضع بها المتحفظ عليهم لمدة لا تزيد على ليلة واحدة أو أربع وعشرين ساعة فى حالات الضرورة القصوى ، كأن تكون هناك اجازة رسمية .

ولابد أن يذهب المتحفظ عليهم أو عليه فى اليوم التالى اما الى النيابة أو الى نقطة البوليس للتحقيق .

***

ولا أذكر أننى رأيت تلك الغرفة مزدحمة الا فى أوقات الفيضان ففى هذا الموسم من كل عام كان على أبناء القرى المجاورة للنيل أن يشتركوا فى حراسة النهر خوفا من أخطار الفيضان .

وكان النهر فى أحد الأعوام السابقة قد كسر الشاطىء فى أحد نقاطه الضعيفة عند احدى القرى فأغرق الدلتا كلها تقريبا ٠

ولذلك كانوا فى وزارة الأشغال يهتمون الى حد كبير بحراسة النهر وتقوية جسوره وخاصة فى تلك المنطقة القريبة من قريتنا ٠

وكانت كل قرية تتولى حراسة مساحة محدودة تحديدا دقيقا من الشاطىء تقيم فى الجزء المحدد لها غرفة من الخوص ، أو من فروع الأشجار تضع فيها ملابس فريق العمل الذى يتكون عادة من خمسة عشر مواطنا يعملون طوال الأربع والعشرين ساعة باشراف مهندس رى يتولى مسئولية بضعة من الكيلومترات تشترك قرى عديدة فى حراستها ٠

ولم يكن أحد من أبناء قريتنا أو أبناء القرى المجاورة يستطيع بحكم القانون أن يعتذر عن المشاركة فى هذه المهمة الهامة التى كانت تحدد بخمسة عشر يوما يجوز تجديدها فى حالات الضرورة ٠

ولم يكن هناك من أجر للقيام بتلك المهمة اذ كانت مجانية تماما ٠

وكان القانون والعرف القائمان وقتئذ يعطيـــان للعمدة الحق فى تشكيل فريق حراسة النهر من أبناء القرية ممن تجاوزوا الخامسة عشرة٠

لم يكن هناك أية شروط أو مواصفات ، لمن يشترك فى هذا العمل فيجوز للعمدة أن يختار واحدا للعمل فى فترتين منفصلتين أو متصلتين ويجوز له أن يعفى من يشاء من العمل فى هذه المهمة ٠

أى أنه كان مطلق التصرف فى اختيار من يريد اختيارهم للعمل فى حراسة النيل ٠

★★★

ولست أنسى ما حييت يوم ألغت حكومة الوفد هذه السخرة ٠

ومع هذا الالغاء أعفت الفلاحين من ضريبة الخفر ، التى كانت تفرض على أهالى القرى لقاء الحراسة ، بمعنى ان المبالغ التى كانت تعطى مرتبات للخفراء تقسم على أبناء القرية ٠

ويكون تقدير العمدة فى هذا الموضوع ، تقديرا جزافيا ولا رقابة لأحد على هذا التقدير فكان العمدة ــ أى عمدة ــ يفرض ما يشـــاء على هؤلاء القرويين ويعفى من يشاء من تلك الضريبة حسب هواه ٠

رغم أن الغاء سخرة حراسة النيل فى أيام الفيضان ورغم أن الغاء ضريبة الخفر ، لم تكلف ميزانية الدولة أكثر من مائة ألف فدان الا أن

هذا الالغاء كان له أصداء قوية وهامة حتى لقد حظى الوفد بسبب ذلك الالغاء بشعبية هائلة ·

وكنت عندما تسأل واحدا من أبناء الريف المصرى : لماذا ينتخب مرشح الوفد ؟ كان يقول لك على الفور : الوفد هو اللى الغى سخرة حراسة النيل وهو اللى ألغى ضريبة الخفر ·

وعندما كان أحدهم يقول لذلك المتحمس للوفد : ولكنك لم تكن تذهب لحراسة النيل أكثر من أسبوع أو أسبوعين كل عام أو كل عامين ، وربما كل ثلاثة أعوام ، كما أنك لم تكن تدفع لضريبة الخفر أكثر من خمسين قرشا فى العام ؟ ·

كان يقول لك : ليس المهم أن أذهب أو لا أذهب لحراسة النيل ، وليس مهما ان أدفع ٥٠ قرشا أو جنيها ، أو أكثر أو أقل ، وانما المهم ان حراسة النيل ، وضريبة الخفر كانتا بمثابة سلاح خطير يستخدمه العمدة للانتقام ممن يريد الانتقام منه ·

لقد كان هذا العمل السياسى الناجح من الوفد بمثابة ضربة معلم أثرت فى جماهير المواطنين ·

وكان ذلك العمل ـ بعد أن كبرت وفهمت الأمور بوعى ودقة ـ أول درس سياسى تلقيته فى حياتى اذ لابد أن تكون الانجازات الحزبية تمس أكبر قاعدة جماهيرية ·

★★★

لقد أثرت فى أيام القرية تأثيرا كبيرا لا يزال قائما حتى الآن ·

ومما أذكره عن تلك الأيام ـ أيامى فى القرية ـ أن والدى ـ طيب الله ثراه ـ كان أول من بث فى روح الثورة على كل ما حولى ·

كان الرجل الفلاح الذى لم يدخل معهد علم ، وانما علمته الحياة ، يروى لى الكثير من القصص والروايات التى تصف بكل الصدق ، والصراحة بعض ما لحق به وبأهله من ظلم فادح ·

كيف اغتصبوا منهم أراضيهم الواسعة أيام « هوجة عرابى » ·

وكان والدى قد شهد بعض تلك الأيام ·

كيف حول الباشوات والبكوات من أراضيهم التى اغتصبوها من أجدادى الى « شفالك » ، وعزب ، وأبعاديات ·

كان يحلو له ـ بعد أن كبرت بعض الشيء ـ أن يأخذني وراءه على حماره ، ليريني الأراضي التي كانت لنا والتي اغتصبت فكان منها ومن غيرها عزبة الوسية ٠

كان يذكر لي باستمرار بعض ما فعله بعض الباشوات والبكوات الكبار من حولنا ، وما فعله بعض الأمراء والنبلاء ، وتابعيهم في قرى تبعد عنا مسافات طويلة من أعمال بالغة القسوة والعنف والظلم ، بل لقد كان يقول لي في مرارة شديدة ، انه ما من مرة مر على تلك الأراضي التي كانت لنا الا وأحس بأن رائحة كريهة تنبعث منها » ٠

★★★

ولذلك فان عملية بيع ما تبقى من أرضنا كانت أقسى عملية تواجه والدي فقد كان من المفروض ، أن يبيع أبي ، وتبيع أمي كل عام ، بعض ما يملكان من أرض للانفاق على ٠

كانت أمي تحرص على أن تبيع أرضها لشقيقهـا حتى لا تذهب الأرض الى أجنبي ٠

وكان خالي دائم الغضب من أمي لأنها تبيع أرضها رغم أنه كان يشتريها بنصف الثمن وكان يقول لها دائما : يعني ابنك هو اللي حيجيب الديب من ديله ٠

أما أبي فكان يبيع أرضه لاخوته ويشترط عليهم عدم بيعها لآخرين ٠ وكانت أرضنا تلك رغم عدم اتساع مساحتها ، تدر أكثر مما كانت تدره أية أراض أخرى تزيد عنها مساحة ٠

★★★

ولست بناس يوما كنا ندرس فيه القمح في الجرن ٠

وكان يحلو لي أن أركب النورج رغم أنه يسبب الصداع ، كما كان يحلو لي أن أنام على أعواد القمح ، بعد أن تم درسها ٠

وكان الى جانبنا حصاد بعض أعمامي ، وخالي ٠

وفوجئت بالرجل ، الذي يقوم « بالتذرية » وكيل القمح ووضعه في زكائب وكان قد قام بهذه المهمة لبعض أعمامي وخالي ٠

فوجئت به يقول ذات مرة لأبي : ايه الحكاية ؟ الفدان عندك بيجيب قمح أكثر من اخواتك مرتين أو ثلاثة رغم أن الأرض واحدة بتنزرع مع بعض ، وبتتروي مع بعض ومافيش بينها أبدا فاصل ؟! ٠

ووجدت والدى يقول وكأنما يريد أن يسكت الرجل الثرثار : يا ابنى دى بركة ، دا رزق الولد ، الصغير ده » ٠

وأشار الى ٠

وكنت وقتئذ لم أكمل السادسة من عمرى !!

ومما يجب أن أذكره أيضا أنه فى السنة الأخيرة لى فى كلية الحقوق كانت أمى قد انهت بيع أرضها كلها ، وكان أبى على وشك أن ينهى بيع أرضه كلها لولا أنه احتفظ بالجزء الذى كان قريبا من القرية لأنه تحول الى منطقة سكنية ٠

ولست بناس أبدا ، أبى وأمى ، وهما يقولان لى بينما يودعانى وأنا فى طريقى الى طنطا لتلقى العلم : انت أهم من أى حاجة : أى أرض حتى ولو كانت عزبة الوسية كلها « فداك » المهم انك تكون راجل : صحيح انك صغير لكن من دلوقت انت بقيت راجل ٠

لا يزال هذ الكلام عالقا بذهنى وقلبى ، وعقلى الى اليوم ، بل والى آخر يوم فى حياتى ٠

★★★

ولست بناس أبدا تفاصيل تلك الأيام ، الحلوة والمرة التى بدأت بها حياتى الشاقة المضنية وحيدا فريدا لا أحد يشير على برأى ما ، ولا أحد يوجهنى الى طريق ما ٠

فأنا الذى أختار الطريق ، وأنا طفل ٠

وأنا الذى أختار الطريق وأنا صبى ، وأنا الذى أختار الطريق وأنا شاب ٠

وكانت مهمة الأب والأم توفير المناخ واعداد المادة دون تدخل منهما فى أى أمر من أمورى ، كبرت تلك الأمور أو صغرت ٠

ربما كان أقسى ما أتذكره عن قريتى ، أن أحدا من أبنائها ـ فيما عدا اثنين أو ثلاثة ـ لم يكن يشجعني علي أن أتعلم ، أو أكمل تعليمي ٠

وربما كان مرد ذلك اننى كنت أول من دخـــل مدرسة من أبناء قريتنا ٠

كان قد سبقنى اثنان دخلا الأزهر ولكن لم يسبقنى من وصل الى أية مدرسة ، وأرتدى طربوشا وجاكتة وبنطلونا ٠

ولذلك كنت أخلع الملابس الافرنكية قبل أن أدخـــل القرية حتى لا يلتف حولى الأطفال الصغار ٠

كنا ننتقل مثلا من القرية الى المدينة اما فى القطار واما في سيارات التاكسى بالنفر ٠

وعندما أركب احدى سيارات التاكسى كنت أتعمد النزول من تلك السيارة قبل أن أصل الى القرية بنصف كيلو تقريبا لكى أغير ملابسى الافرنجية كما كانوا يسمونها وقتئذ ، وأرتدى الجلباب ٠

وفى القطار ، كان الذين يركبون فى العربة التى اركبها يفاجأون بأفندى صغير جدا ، يتحول قبل المحطة التى ينزل بها الى طفل آخر ، يرتدى الجلباب ٠

شخص واحد أو شخصان ـ غير أبى وأمى ـ كانا لا يعارضان تعليمى وان كانا لا يساعداننى على اختيار الطريق السليم عمى العمدة وابن عمة لى صار فيما بعد عمدة ٠

كان جميع أبناء القرية وبلا استثناء ضد دخولى المدرسة ، وضـــد ارتدائى الطربوش والبدلة الافرنجى « الخواجاتى » الا أبى وأمى وهذين الشخصين اللذين شجعانى على مواصلة تعليمى فى المدارس والجامعة ٠

★★★

ولكننى كنت أؤمن دائما بان الله معى منذ طفولتى فقد كنت متدينا للغاية : أصوم رمضان ولم أكن قد اكملت السابعة من عمرى ، أقضى الليل بطوله فى المسجد بعد صلاة العشاء حتى صلاة الفجرة ٠

وخاصة العشر الأخيرة من رمضان : لا أدع دقيقة منها فيما بين العشاء والفجر ، دون أن أكون متوضئا وقارئا للقرآن حتى تكون ليلة القدر من نصيبى ٠

★★★

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم ، أو من كان يخيل الى فى منامى انه النبى يزورنى كثيرا ٠

وعندما ذكرت ذلك لبعض أهلى ، لم استمتع بتلك الزيارة الا بعد أن ندمت وأعلنت فيما بينى وبين نفسى ــ والتزمت بذلك الاعلان ــ ألا أكشف عن أى حلم من أحلامى لأحد ما ٠

ولا زلت أذكر حتى اليوم كيف كنا نحمل الأوانى النحاسية فى الأيام العشر الأخيرة من رمضان وندق بها فى كل مكان من بيتنا ، ونحن نقول : يا بركة رمضان ما تخرجيش من الدار ٠

وكيف كنا فى يوم الجمعة اليتيمة ــ آخر يوم جمعة فى رمضان ــ نبكر فى الذهاب الى المسجد ومع كل منا « دواته » وأقلام البوص التى لديه ، ونبدأ فى كتابة آية معينة من القرآن الكريم فى أوراق صغيرة فى حجم اصبع اليد ثم نقوم بطيها طيات معينة ، الى أن يؤذن المؤذن لصلاة الجمعة فنصلى ، ونستمع الى الخطبة ٠

وبعد انتهاء الصلاة نوزع تلك الأوراق على أقـاربنا وأصدقائنـا ومعارفنا ، وجيراننا كنوع من البركة تقربا الى الله سبحانه وتعالى ٠

حتى اليوم ، لا تزال أصداء الأغانى التى كنت اسمعها فى قريتى سواء فى أيام حصاد القمح ، أو فى أيام جمع القطن ، أو فى الافراح والليالى الملاح عالقة بذهنى ، وقلبى ، وعقلى بل اننى فى بعض الأحيان ، وبدون وعى أردد بعضها عندما أكون وحدى ٠

★★★

وأحب الآلات الموسيقية الى « الناى » وكنا نصنعه من أعواد الغاب الذى كنا نزرعه فى أطراف بعض الحقول وعلى جوانب الطرق الزراعية حتى نحمى الزراعة من التراب الذى يسببه مرور السيارات ٠

كان بعض الشباب يعزف على ذلك الناى اما فى الجرن فى الليالى القمرية ، وفى الصيف بالذات واما على القنطرة التى كانت تحتجز مياه النيل عند قريتنا لتوزعه على ثلاث ترع صغيرة ٠

★★★

وكانت صبايا القرية يذهبن الى « الموردة » عصر كل يوم ، لملء الجرار من مياه الترع الثلاثة ، وكن يتسابقن فى وضع الجرار على رءوسهن، « والشاطرة هى التى تجعل الجرة تميل أكثر من جرار زميلاتها » ٠

وكان شباب القرية ــ وخاصة فى أيام الجمع ، والأعياد ــ يرتدى

أفضل ما عنده ويقف على مقربة من « الموردة » دون أن يقترب منها ، على أن غالبية الصبايا لم يكن يسمحن باظهار وجوههن وهن فى الذهاب الى الموردة ، وفى العودة منها ، عيونهن فقط هي التى تبدو بدون حجاب وان كان كل واحد فى القرية يستطيع أن يميز كل واحدة من الصبايا اما من مشيتها أو من لون ملابسها ، أو من الشبشب الذى تلبسه ٠

★★★

وكنا قبل أيام من شم النسيم نشـــترى الترمس من السوق ، ونضعه فى زكائب صغيرة نربطها باحبال الى جذور بعض الأشجار التى تقع على جانبى الترعة ثم نرميها فى المياه أسبوعين أو ثلاثة أسابيع حتى يستوى الترمس ويكون صالحا للأكل يوم شم النسيم ٠

وكان من عادتنا فى قريتنا أن يضع كل واحد منا تحت المخدة التى ينام عليها حزمة من البصل الأخضر ليلة شم النسيم ، ثم يستيقظ ـ كل واحد منا أيضا ـ فى الفجر ، مهما كانت برودة الجو حيث يستحم فى الترعة المجاورة للقرية ، أو فى الترعتين الأخريين لكى يزيح هموم العام الماضى ويستقبل العام الجديد بروح جديدة ٠

وكان لا بد لنا ان نأكل الفسيخ ، أو السردين ـ عندما لا يوجد الفسيخ ـ يوم شم النسيم ، اما فى الصباح ، أو فى الظهر ، أو فيهما معا .

لم يكن فى قريتنا الا اللمبة نمرة ٥ ، أو نمرة ١٠ ، وأحيانا ـ وفى بعض الظروف ـ توجد بعض الكلوبات التى تعتمد على الغاز ٠

وما أكثر ما تسببت تلك اللمبات فى نشوب العديد من الحرائق فى القرية ٠

★★★

ومرة كنت أستذكر دروسى على واحدة من تلك اللمبات وأخذتنى سنة من النوم وفوجئت فى الصباح بأن ركبتى قد تورمت بشكل لافت للنظر ، ثم اكتشفت فيما بعد أن زجاج اللمبة قد وقع على ركبتى بعد أن كنت قد نمت لتعبى ، ولأن زجاج اللمبة كان ساخنا للغاية فقد حرق ركبتى دون أن أحس ، ومن نعم الله أن اللمبة انطفأت عندما أخذتنى سنة من النوم ولولا انطفاؤها ، لكنت قد احترقت بنارهـــا واحترق المنزل بمن وما فيه ٠٠

فى كل بيت من بيوت القرية كانت زرائب المواشى ، جزءا لا يتجزأ من تلك البيوت فالفلاح لا يطمئن الى ماشيته الا عندما تكون على مقربة منه.

وكان لصوص المواشى يسرقون دائما المواشى التى كانت توجد خارج البيوت ولذلك كان الفلاحون يحرصون على وضع مواشيهم فى بيوتهم ٠

وكان كل بيت من بيوت القرية يعيش مكتفيا بذاته ، لا يحتاج الى شىء من الخارج ، الا فيما ندر ٠

فى الصباح الباكر وقبل أن يستيقظ الرجال والأطفال يقوم بعض السيدات بايقاد الفرن ، وخبز العيش كما يقمن باعداد الفطور ٠

وبعد ان يعود الرجال والأطفال الذكور من صلاة الصبح ، التى لابد أن تكون حاضرة أى قبل شروق الشمس يتناولون الافطار ، ثم يذهبون الى الحقول ٠

وفى الضحى تقريبا تقوم بعض سيدات الأسرة وغالبا فتياتها أو بعض فتياتها بحمل افطار آخر الى الرجال فى الحقل ٠

كل بيت به ما يحتاج من سمن ، وعسل وبيض ، ودقيق ودواجن : فراخ ، وبط ، وأوز ، وحمام ٠

★★★

وفى أحيان كثيرة وابتداء من رمضان يحرص الكثيرون على تربية الخراف لتذبح فى عيد الأضحى ٠

وعلى فكرة كانت الكباش التى تعد لعيد الأضحى تتمتع بحصانة هامة فى قريتنا فمن حقها ان تدخل بيوت الجيران باحثة عن أكل أو شرب ٠

ومن حقها ، اذا هربت من البيوت وذهبت الى الحقول ان تأكل مما أمامها فى تلك الحقول ٠

وكانوا فى قريتنا يتولون بناء بيوتهم بأيديهم ٠٠ يجرى فى البداية اعداد الطوب اللبن الذى يمتزج فيه الطين بالتبن ، ثم يجرى تجفيفه فى الجرن ، أو فى الأماكن الخالية من القرية ٠

والموسرون وحدهم هم الذين يقومون بحرق ذلك الطوب فى « قمائن » خاصة كانت تتسبب فى افساد الجو فى القرية ولذلك كان يجرى اختيار أماكن تلك القمائن بدقة حتى لا تجىء الرياح ممتزجة بدخان تلك القمائن ٠

وكان أبناء القرية يتعاونون معا فى عملية البناء تلك بحيث لا يتحمل صاحب البيت الا أجرة البناء بتشديد النون ٠

وقد كان أول تغيير جذرى فى قريتنا يوم أن جاءها بعض الأفندية يدعون الى قيام جمعية زراعية تعاونية فى قريتنا ، كان حديثهم يتميز بكلام لم يفهمه غالبية الفلاحين ٠

وكان العمدة قد أقام لهم مأدبة غداء غنية دسمة وأحس بعض هؤلاء الأفندية بأن كلامهم غير مفهوم فقام احدهم بتبسيطه قائلا : انتم مش بتتعاونوا مع بعض فى جمع القطن ، وحصاد القمح وفى الأفــراح وفى المآتم احنا عاوزينكم تتعاونوا مع بعض ومعانا فى شراء الأسمدة ، والتعاون فى بيع القطن ، بدل ما نبيعه بنص الثمن للتجار اليهود واحنا مش حناخذ منكم مليم واحد : المبالغ اللى تشتركوا بها ســـوف تبقى فى قريتكم ٠

وبعد هذا الكلام أعلن فتح باب شراء الأســـهم وكان ثمن السهم خمسين قرشا ، اشترك أكثر من مائة من أبنــاء قريتنــا وكانت أمى السيدة الوحيدة التى اشترت أكثر من عشرة أسهم ، وقد أشاد التعاونيون بها فى أكثر من مؤتمر تعاونى فى المديرية ٠

وظلت لفترة طويلة السيدة التعاونية الوحيدة ٠

★★★

وبعد شهور من اعلان قيام الجمعية الزراعية التعاونية وتخصيص احدى غرف منزل الشيخ عبد الصمد ، لتكون مقرا لها ، جاءوا لنــا بصندوق من الخشـــب والحديد ما نكاد نفتحه حتى نســـتمع الى قراءة القرآن الكريم ٠

وعرفنا فيما بعد أن هذا الصندوق اسمه « راديو » وانه الى جانب قراءة القرآن الكريم ، يذيع نشرة للأخبار ٠

بل ينقل بعض الحفلات الغنائية ٠
وقد أحدث ذلك الجهاز فى قريتنا تطورا خطيرا ٠
نقلها من العزلة الى الخارج ٠

بدأنا لأول مرة نعرف أن هناك مطربين ، ومطربات ، غير أولئك الدين يغنون فى قريتنا ، وهم من أبناء القرية أو من القرى المجاورة ٠

★★★

بدأنا نسمع عن وجود ثورة فى فلســـطين ، حيث يحارب العرب اليهود والانجليز ويحارب اليهـــود العرب والانجليز ويحارب الانجليز العرب فقط ٠

ثم بدأت مجلة اسمها « التعاون » تصل كل شهر الى جمعية قريتنا.

واذا بى أحرص على قراءة تلك المجلة من الغلاف الأول الى الغلاف الأخير .

واذا بى احفظ ما بها من أشعار .

واذا بى اتشوق الى لقائها كل شهر أكثر من اشتياق المحب لحبيبه ، بعد طول غياب !

كان أكثر ما يضايقنى أن البعض من أعضاء مجلس ادارة الجمعية كانوا يريدون ان تبقى المجلة فى حوزتهم حتى ولو كانوا أميين لا يقرأون ولا يكتبون أليسوا أعضاء مجلس ادارة ؟

وكنت أقضى وقتى وفى أحيان كثيرة الى الفجر لانسخ بعض ما جاء فى تلك المجلة من أشعار الى أن اشفق على بعض التعاونيين فى المدينة فراحوا يبعثون الى بنسخة غير نسخة الجمعية ، نسخة تكون ملكا لى وحدى !

هذا وقد أثرت فى تلك المجلة ـ مجلة التعاون ـ تأثيرا كبيرا .

وربما كان أهم ما أثر فى مما كان ينشر فى تلك المجـــلة أشعار م. ع. الهمشرى تلك التى كانت أقرب الى قلبى ، من أى شعر أخر .

وقد يفاجأ القارىء عندما أقول له اننى حتى تلك اللحظة ، وبعد مرور سنوات وســـنوات لا أزال أحفظ أجزاء كثيرة من أشعار محمــد عبد المعطى الهمشرى ، وخصوصا قصيدة النارنجة الذابلة .

وخاصة عندما يقول الهمشرى :

كانت لنا ياليتها دامت لنا   أو دام يهتف فوقها الزرزور

ولعلى لا أتهم بالمبالغة اذا ما قلت ان هذه المجلة ـ مجلة التعاون ـ كانت أولى المنابع الثقافية التى نهلت منهـــا والتى أنا ـ بحق ـ مدين الى حد كبير لكتابها وشعرائها وخاصة الهمشرى لأنهم أول من فتحوا عينى الى ما يمكن أن يسمى بأدب الريف أو بمعنى أدق بقضايا الفـلاح المصرى وأهميتها فى دنيا الاصلاح السياسى والاقتصادى والاجتماعى فى مصر : تلك القضايا التى بدأت أهتم بها منذ صغرى : لقد انتهت مرحلة الاعداد والاستعداد والحفر والرى التى بدأناها فى قريتنا الصغيرة .

وأوشكت أن تبدأ مرحلة وضع البذور ومرحلة رعاية الجذور .

الفصل الثانى

جذورنا السياسية والثقافية كانت قليلة ولكنها كانت قوية

كانت مصادرنا الثقافية والأدبية والسياسية فى القرية ، قليلة ، بل ضئيلة للغاية وأكاد أقول منعدمة الا من قليل من قصص وروايات أبو زيد الهلالى سلامة والزناتى خليفة والزير سالم ٠

وكان أبى يشتريها من سوق « الثلات » - التلاثاء - فى المركز ، الواحدة بنصف قرش (تعريفة) ٠

وكنت أكاد ألتهمها ٠

ثم بدأنا نتردد على صندوق الدنيا ، أو قل بدأ هو يتردد علينا فى قريتنا فى المواسم والأعياد ٠

***

وكنا نعتبر صندوق الدنيا هذا معجزة المعجزات :

يضع الواحد منا عينه أو عينيه فى ثقب صغير للغاية ، فيرى صورا كبيرة ملونة تتحرك بسرعة ٠

وصوت صاحب الصندوق يدوى : شوف عندك يا سلام ، شوف ست الحسن والجمال ، اللى كان بيتقاتل عليها أبوزيد والزناتى خليفة ٠

وفى أحيان كنا نرى صورا يقال لنا انها لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه ، أو للحسن وللحسين ٠

***

وكان الواحد منا يدفع نصف قرش صاغ (تعريفه يعنى) نظير جلوسه على ذلك الكرسى المسحور الذى يريه الدنيا كلها أو يخيل اليه أنه يرى الدنيا كلها فى ربع ساعة ٠

وكان الواحد منا يحرص على أن يجلس على ذلك الكرسى مرة واثنتين وثلاثة بعد أن يدفع آخر ما معه من نقود ٠

وبدأنا نهتم بشاعر الربابة ، ونحرص على أن نستمع اليه عندما يجىء الى قريتنا ، أو الى بعض القرى المجاورة ٠

ولأننا كنا صغارا فقد كانوا لا يسمحون لنا بالجلوس على الكراسى ، والدكك الخشبية فمكاننا أن نجلس على الأرض بالقرب من هذا الشاعر الذى يعلقنا فى نهاية كل ليلة فى موقف درامى شـيق : لقـاء حبيبين ـ مثلا ـ وما جرى فى ذلك اللقاء : نتيجة مبارزة جرت بين أبوزيد الهلالى والزناتى خليفة حول قصر السلطان ٠

وكانوا يأتون بشاعر الربابة ، كما يأتون باحدى الغوازى للرقص ، من كفر قريب من قريتنا ، وذلك فى الأفراح والليالى المـلاح : ليـالى الطهور ، وكتب الكتاب ، أو الدخلة ٠

***

وفى أحيان قليلة كان شاعر الربابة يأتى من تلقاء نفسه فى موسم الحصاد ، أو جمع القطن ، ويستأجر بعض الكراسى ٠

ومن يدخل للاستماع اليه يدفع قرش صاغ ، أو « شوية » قطن ، أو حفنات قمح ، أو ما شابه ذلك ٠

ولم تكن تدخل قريتنا الا نسخة واحدة من جريدة الأهرام ، تجىء كل عصر ، فى قطار الدلتا الذى يمر بقريتنا ٠

وكان عم الشيخ رمضان قد تعاقد مع الأبونيه ، وهو رجل يركب القطار باستمرار ويحمل الصحف التى تجىء بالاسم لأصحابها أن تشترى مقدما كل أسبوع ، أو كل شهر ٠

كما كان يكلف من قبل بعض الناس بشراء بعض الحـاجيات من العاصمة أو من المركز أو المديرية ٠

وكان عم الشيخ رمضان يذهب عصر كل يوم الى المحطة حيث يأخذ الأهرام ثم يضعها تحت ابطه ، ويمر على الجانب الآخر من الترعة بجلبابه السكروته « الهفاف الشفاف » وحذائه اللميع ، ويعبر القنطرة الخشبية

التى توصل قريتنا بالمزارع ، ثم يتجه الى المسجد ، لصلاة العصر ، ثم يعود فى نفس الطريق ٠

ويستطيع أى شخص أن يضبط ساعته على مرور الشيخ رمضان عصر كل يوم لا يتخلف عن المرور الا أن يكون مسافرا ، وقليلا ما كان يسافر !!

يسهر عم الشيخ رمضان على قراءة الصحيفة ، ثم يبعث بها فى الصباح الى العمدة ، ومن العمدة الى المشايخ ، مشايخ البلد ٠

وربما مرت نسخة أو اثنتين أو ثلاثة على واحد مثلى ولكن بعد شهر أو شهرين من صدورها ٠

غير أننى عندما كبرت كانت تأتينى ـ بالطلب ـ مبكرة ، أى كان عم الشيخ رمضان يبعث بها ـ بعد أن توثقت الصلة بينى وبينه ٠

وكان كل من يستعير الأهرام ، يعيدها الى عم الشيخ رمضان ، وهو الذى يبعث بالنسخة الى من يريده ٠

وفى أحيان يغضب على الجميع فيدعى أنه لم يقرأ الصحيفة بعد !!

وما دام لم يقرأ الأهرام فلا يستطيع أحد أن يطلبها منه ، أليس هو الذى يدفع كل يوم نصف قرش خمسة مليمات ثمنا للنسخة الواحدة ؟

★★★

وعندما كان القطار يتأخر عن موعده ، أو عندما لا يجىء أصلا ، أو يجىء بدون الأبونيه ، كان عم الشيخ رمضان يحرص على الحصول على كل نسخة صدرت من الأهرام ، حتى ولو جاءت متأخرة أليس مشتركا فى الأهرام ويهمه أن يقرأ الأهرام كل يوم ! وبعد الأهرام ، كانت ـ كما سبق أن ذكرت ـ صحيفة التعاون ٠

★★★

ولأول مرة نفتح أعيننا على جمال القرية ، بعد أن رأينا من يتغزل فى جمال القرية شعرا أو نثرا ٠

أصبحنا نقرأ أشعارا فى أشجار الصفصاف ، التى كانت تنبت على جانبى الترعة المحيطة بقريتنا وفى أشجـــار التوت ٠ التوت الأحمر ، والتوت الأسود ، والتى كانت بالنسبة لنا فاكهة حلوة نتسابق عليها ٠

وكذلك قرأنا قصائد غزل فى أشجار الجميز ٠

وقد كانت لنا شجرة جميز خالدة ، عمرها ـ كما كان يقول أبى ـ أكثر من خمسين سنة ٠

وبالرغم من أنها كانت تتسبب فى « تبوير » قطعة كبيرة من الأرض ، بسبب جذورها الممتدة فى الأرض ولأن ظلها ، كان يحرم الزرع من الشمس ، فيموت •

بالرغم من ذلك كان أبى يرفض أن يقطع تلك الشجرة ، لأن من يقطع شجرة ـ وشجرة جميز بالذات ، يكون مصيره ـ كما كانوا يقولون ـ الى النار ولأن ابى كان يرى فى قطع تلك الشجرة نوعا من عدم الوفاء •

لقد أطعمتنا نحن وآباءنا ، وأجدادنا فى شبابها ، فهل نقطعها عندما تكبر وتصل الى مرحلة العجز والشيخوخة ؟

هذا لا يليق !

وكان ذلك من أوائل دروس الوفاء ، التى تلقيتها عن أبى •

★★★

أصبحنا ـ بعد وصول مجلة التعاون ـ نتغزل فى خرير المياه وأصوات العصافير •

★★★

فتحت مجلة التعاون بكتابها وشعرائها الأفذاذ أمامنا مجال التمتع بالطبيعة •

وما أكثر ما قلت من أشعار غير موزونة فى تلك الأيام عن القرية ، وبنات القرية ، وموسم جمع القطن فى القرية ، وموسم حصاد القمح فى القرية •

وفى بعض الأحيان ، عندما يجيئنى هاتف الشعر أركن الى جذع شجرة وأسجل ما أكتبه بسرعة حتى لا يطير أو أهرع الى غرفتى فى الطابق الثانى من منزلنا وكنا نسميه « المقعد » بفتح الميم وتسكين القاف وفتح العين وكنت « اقزح » السلالم المصنوعة من الطين فى ثوانى الى أن أصل الى « المقعد » ، وأجلس لأسجل القصيدة التى هفت نفسى اليها •

وبعد ان أقوم بتسجيلها استريح ، وكأننى قمت بأداء عمل صعب للغاية كان يجب على أداؤه •

★★★

وبدأت أتعرف على متاعب الفلاحين ومشاكلهم وكنت قد أعجبت بكتابات عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) في الأهرام ، وكانت كتاباتها

كلها عن الفلاح ، وكنت أقول لنفسى لماذا لا أكون مثلها انها ليست فلاحة ولكنها تكتب عن الفلاحين باقتدار ·

وعندما أكتب أنا عن الفلاحين سوف أكون مثلها ، أو أقدر منها لأنى أكتب عن أبى ، وأمى واخوتى ، وأخواتى ، وجيرانى وكل أبناء قريتنا الفلاحين كما أكتب عن مشاكلهم وقضاياهم الساخنة ·

★★★

وبدأت أكتب بعض المقالات ، أو تلك التى كنت أسميها مقالات ، ثم أمزقها : أكتب المقالة اليوم وأمزقها غدا ، لأننى لا أرضى عنها عند قراءتى لها فى اليوم التالى وهكذا ظللت أكتب وأمزق ما أكتبه أكثر من عام ، لأن نفسى لم تقتنع بما خطته يداى ·

★★★

ثم رحت أحفظ ما أجده من قصائد فى صحيفة التعاون من أشعار ومواويل والجدير بالذكر اننى حتى كتابة هذه المذكرات لا أزال أحفظ بعض الأشعار والمواويل من بينها ــ مثلا ــ موال لمحمد مصطفى حمام ، عنوانه « الموال التعاونى » : وفيه يقول حمام ·

الأوله آه
والثانية آه
والثالثة آه
الأوله بالتعاون ينصلح حالنا
والثانية تنصان حقوقنا ويتحفظ مالنا
والثالثة نترقى ونهيص احنا وعيالنا
الأوله بالتعاون ينصلح حالنا مع الأيام نكون أحسن
والثانية تنصان حقوقنا ويتحفظ مالنا ولا ننضام ولا نحزن
والثالثة نترقى ونهيص احنا وعيالنا ونبقى تمام ونسلطن
من دم مصر المرابى ينمى أمواله ولا يرحم
واليه نصبح مدينين والامضا جاهزاله ، ومن يسلم
والدنيا ساكته عليه والشغله طايبا له ، وشىء محكم
ياميت ندامة على التعاون ريح الفلاح
من كل واحد رباوى فى البلد دباح

وكل سمسار من الصنف الرزل شماح
الأوله آه
والثانية آه
والثالثة آه

***

وبلغ الأمر بالهمشرى ــ وكان فى ذلك سباقا ــ أن تغزل فى الجاموسة الصغيرة المحبوبة حيث قال :

هتافة الصبح ان الفجر قد هتفا ... والصبح يكشف عن لآلائه السجفا
والشمس ترسل للدنيا أشعتها ... وتبتغى من ذرا الأشجار مشترفا
لم ألق غيرك يا جاموستى أبدا ... حسنا على القرية الحسناء يسبينا
من أى ينبوع حسن تستقى وهجا ... عيناك ؟ هل سحر ما روت بوادينا
ياسحر خطوك اذ تمشين تابعة ... في الصبح أمك نحو الحقل فى مرح
تتلو عليك فتاة الريف غنوتها ... وتعبر القنوات الخضر فى فرح

الى أن يقول الهمشرى :

لو أن لى ريشة فى الفن عالية ... تهتز بالوحى فى جو التصاوير
اذن رسمتك فى مخضلة أبدا ... فيحاء تصيحين فى ظل النواعير
أو فوق سهيل من الأهرام منبطح ... أو في ربا الخلد في فردوس ايزيس
ترعين سانحة تمشين تائهة ... تغدين ناعسة فى جنب أبيس

ومرة أخرى نظم الهمشرى ــ وكانت تلك جرأة بالغة منه ــ قصيدة قال فيها :

تنقلى تنقلى ... من جدول لجدول
جاموستى يا ساحرة ... جوبى الحقول الناضرة
تنقلى ، تنقلى
يشدو لك العصفور ... ويهمس الغدير
تنقلى ، تنقلى
خطوتك الحسناء ... بمشى بها الرجاء
تنقلي ، تنقلي

تنقلى فى الريـــف وبالـــروح طوفـــى
تنقلـــى ، تنقلـــى
جوبى مع الصبـــاح يا منيـــة الفلاح
يا طينـــة الفـــلاح تنقلـى ، تنقلـــى
من جـــدول لجـدول

الى أن يقول :

وان أتى الظـــــلام ورجـــع الأنـــــام
يركبك الغـــــــلام الى فنـــــاء الـــدار
تنقلـــى ، تنقلـــى

***

وبعد أن كبرت حفظت للهمشرى قصيدته الرائعة فى نوسا و (نوسا) قرية صغيرة على مقربة من المنصورة تميزت بجمالها وجمال ابنتها توحة ٠

وقد جاء فى تلك القصيدة :

منك الجمال ومنى الحب يانوســا فعللى القلب ان القلب قد يئســا
ياحبذا نسمة من توحة خطـــرت أطالت النفس من أسبابها نفســا
أضمها ضم مشـــتاق به خبل قد رام كتم هـــوى أخنـــا ، به فنسا
أن تســـمعى قرع ناقوس بقريتكم في مطلع الفجر ينعى الليل والغلسا
فان قلبى المنكــــــود يذكركم فهل سمعت بقلب قد غدا جرسا
وان تألـــــق برق فى سماوتكم فان من لهيب القـــلب قد قبســا
الروح ان ظمئت يوما فحاجتهـــا خمر سماوية فاحت بها « نوسا »
وأنت يا توحة روحانيـــة خلقت لكى ترينا علا الجنـــات منعكسا
هذا جمالك يدعونى لأعشـــــقه لكن ثغرك يا دنيـــاى ما يئســا
عسى نسيم الصبا يسرىفيسعفبى قلبا يموت حزينا في الغرام،عسى!!
فان بعثت لنا عن توحـة خيـــرا فكم يحبك هذا القلب يا نوســـا

***

ولم يكن الهمشرى ــ شاعر الحب والتعاون ــ قد جاوز العشرين من عمره عندما هتف مناديا « نوسا البحر » ٠

وقد أضاف أهل « نوسا » كلمة البحر ، الى اسم قريتهم ليميزوها عن قرية نوسا الغيط وهى قريبة من قريتهم ! ٠

★★★

وكانت مجلة « التعاون » تكتب فى كل عدد أغراض التعاون ، ومراميه الثلاثة وهى :

أولا : اجادة الانتاج ، عدالة التوزيع ، انقاص النفقات ، شرف التعامل ، العمل بنظام هناءة العيش ، السلام العالمى ، نصرة الضعفاء ، البر والاحسان ٠

ثانيا : الاعتماد على النفس ، القضاء على الأنانية ، نشر المدنية القويمة ، اعلاء كرامة الحرفة ، التدريب على الاقتصاد ، الابتعاد عن الاسراف ، الحث على التوفير ، توافر أسباب الأمن ٠

ثالثا : توحيد الجهود ، تبادل الثقة ، احترام الرأى ، أدب البحث ، التربية الخلقية ، الرقى والاصلاح ، التآزر الاختبارى ، المساواة والرخاء : ازالة الفوارق ٠

وأعود مرة أخرى الى « النارنجة الذابلة » التى حفظتها — رغم طولها — عن آخرها :

« نارنجتى » تالله قد فارقتنى ... وأنا حليف كآبة خرساء
أصبحت بعدك فى انقباض موحش ... وكأننى منه مساء شتاء
تستشرف الآفاق فى قاماتها ... روحى اليك وراء كل فضاء
وترف فى دهليز كل أشعة ... قمراء أو ترنيمة بيضاء

★★★

قد كنت أرجو أن تكون نهايتى ... فى ظل هذا السور حيث أراك
ويكون آخر ما يخدر مسمعى ... زرزورك الهتاف فوق ذراك
ويطوف فى غيبوبتى فيفيقنى ... فجر قصير البعث من رياك
والآن اذا عجل القضاء فانما ... سيقوم فى الذكرى خيال شذاك

★★★

كانت لنا عند السياج شجيرة ... ألف الغناء بظلها الزرزور
طفق الربيع يزورها متخفيا ... فيفيض منها فى الحديقة نور
حتى اذا حل الصباح تنفست ... لها الزهور وزقزق العصفور
وسرى الى أرض الحديقة كلها ... نبأ الربيع وركبه المسحور

وما من مرة تلوت فيها قصيدة النارنجة الذابلة الا وبكيت ٠

ولقد بكيت ـ رغم مرور الزمن الطويل على أيام القرية ـ وأنا انقلها ٠٠ بكيت أياما خالية : حلوة رغم مرارتها ، سعيدة رغم شقائها ٠

***

ثم بدأت مصادرنا الثقافية والأدبية تتنوع ، بعد أن بدأنا نتردد على القاهرة ـ العاصمة الكبرى ـ فى مولد سيدنا الحسين والسيدة زينب ، وعرفنا طريقنا الى سور الأزبكية ٠

وكنت زرت فيها هذا السور فى السابعة تقريبا وقد اشترى رفاقى روايات « أرسين لوبين » ، وحافظ نجيب ٠

واشتريت أنا أيضا أضخم كتاب عند البائع فقد كنت من صغرى طماعا فى الكتب ـ الكتب فقط لا غير ـ فى أكثر من سبعمائة صفحة بثلاثة قروش تعريفة ، رغم أننى لم أفقه منه شيئا : كان الكتاب عن أمين الرافعى وكان هذا الكتاب هو الذى غير مجرى حياتى كلها ٠

وبدأت تصل الى أيدينا أعداد قليلة من « مجلتى » التى كان يصدرها أحمد الصاوى محمد ٠

وكانت تتميز « بالشياكة » والأناقة والصور الملونة ، التى نقف أمامها مبهورين ، وعن طريق مجلتى تلك بدأنا نقرأ ، لابراهيم عبد القادر المازنى وابراهيم مدكور وتوفيق الحكيم كما بدأنا نقرأ أسماء لكتاب وشعراء أجانب تترجم عنهم مجلتى ، بول جيرالدى ، بول بورجيه ؛ راؤول بارم ، ورديارد كبلنج ٠

وقد كنت أكره الأخير لأنه انجليزى ٠

وكنا وقتئذ نبغض كل ما هو انجليزى ٠ أليسوا هم الذين يحتلون بلادنا ٠

ثم انتقلنا الى بعض عواصم المراكز ٠

وبدأنا نتصل بدور الكتب ونقضى فيها كل أيامنا حتى أيام الجمع ، نكون أول الداخلين اليها وآخر الخارجين منها ورحنا نقتصد من مصروفنا ، لنشترى كتبا جديدة ٠ وصحفا جديدة : لقد اتسعت مداركنا تماما ٠

وكانت الحياة رغم الأزمات الاقتصادية الطاحنة سهلة الى حد كبير :

كان الواحد منا ــ مثلا ــ يستأجر بيتا من بابه ، بثمانين قرشا . لم تكن الغرفة « بمنافعهـــا » ــ كما كانوا يقولون ــ يزيد ايجارها عن عشرين قرشا : كان الواحد منا يتغدى ، ويتعشى ، ويدخل السينما ، ويتسلى بالسوداني واللب و .. و .. ولا يكلفه ذلك أكثر من (خمسة قروش) .

★★★

كانت الشوارع فى عواصم المراكز ، والمديريات تبدو خالية الا من عربات الكارو والحنطور .

كانت السيارات التى تعبر الشوارع قليلة بل نادرة .

وكنت كلما سرت هنا وهناك تجد لافتات : شقق للايجار .

وكان بعض أصحاب البيوت يعرضون عليك بيوتهم بل يعرضون أن يقوموا بخدمتك ، اذا أنت سكنت عندهم .

وكان وكان ، الى آخر ما كان .

وكنا فى هذه المرحلة الوسطى ، مرحلة عواصم ، المراكز والمديريات كنا نحضر طعامنا كله تقريبـــا من القرية ، لمدة أسبوع ، أو شهر على أكثر تقدير .

وكان أى زائر من القرية للمدينة التى نحن بها يحمل معه الزاد والزواد : الفطير ، الارز المعمر ، الفراخ ، والحمام .

ورغم أننى لم أكن آكل ــ وقتذاك اللحـــوم ــ الا أن أهلى كانوا يبعثون بها الى لعلى أعدل عن الاضراب عن أكل اللحوم .

★★★

أما كتاب أمين الرافعى الذى غير مجرى حياتى فيكفى هنا ان أقول اننى بذلت جهودا شاقة ومضنية ، لكى أفهم ما فيه فلم أستطع .

وما أكثر ما حملته الى من يقرءون فى قريتنا فلم يفهموا منه شيئا .

وما أكثر ما حملته الى شجرة الجميز اياها التى كانت فى نهـاية حقلنا الصغير ، القريب من القرية لكى أحاول معرفة ما به ولكى أتباهى أمام الرفاق والأصدقاء بأننى أملك أضخم كتاب فى قريتنا ومع كل تلك المحاولات الكثيرة والجادة فقد ظل الكتاب بالنسبة لى لغزا لم أستطع حله الى أن تغير الموقف بعد عامين أو ثلاثة .

ولست أعدو الحقيقة اذا ما قلت ان شخصية صاحب الكتاب ــ أمين الرافعي ــ قد أسرتني ·

وجعلتني أفكر فيها كثيرا بل أكثر مما أفكر في أبي وأمي وفي دراستي لقد غدت تلك الشخصية ــ شخصية أمين الرافعي ــ رفيقة لي ، لا أفارقها ولا تفارقني ، وذلك بسبب ملازمتي لذلك الكتاب وملازمة الكتاب لي ·

كان الكتاب مجمـــوعة من العواطف الحانيه الرقيقــة المخلصة التي كتبها شعرا ، ونثرا بكل الحب وبكل الصدق ، وبـــكل الاخلاص وبكل الوفاء نادر المثال مجموعة من الكتاب والسياسيين والأدباء والشعراء تجاه رجل فدائي وطني نرك هذه الدنيا وهو لم يتجاوز الحادية والأربعين من العمر ثم اكتشفت أن ذكرى الرجل ــ موضوع الكتاب ــ أمين الرافعي ستحل في ٢٩ ديسمبر ·

أعددت كلمات بسيطة ، متواضعة ·

كتبتها باسمي ووضعتها في مظروف كلفني خمسة مليمات وأرسلتها الى رئيس تحرير الأهرام بالقاهرة ·

أما لماذا رئيس تحرير الأهرام بالذات فلأني لم أر في حيـــاتي ــ وقتذاك ــ من الجرائد اليومية الا صحيفة الأهرام ·

حملت الخطاب الى محطة السكة الحديد بنفسي لأتأكد من وصوله ·

وجلست أنتظر كل يوم : فأنا لا أستطيع أن أصارح عم رمضان بحقيقة الرسالة التي بعثت بها الى الأهرام ، خوفا من « التريقة » علي ·

وكنت ــ هكذا ــ ظننت أن الكلمة عندما تنشر سوف يكتشفها عم الشيخ رمضان واذا لم يكتشفها ، فسوف أكتشفها أنا بعد أيام أو أسابيع من وصول الصحيفة الى يدي ·

وأكثر من مرة كان الأسى ينتابني من أجل ضياع قرش التعريفة ·

ومن أجل التعلق بالوهم اذ كيف أطمع وأنا الطفل القروي الساذج في أن أرى اسمي منشورا في صحيفة يومية ·

وذات يوم ناداني عم الشيخ رمضان ليسألني ، ان كان الاسم المنشور في الأهرام يوم ٢٩ ديسمبر هو اسمي ، أم أنها مصادفة ؟

وأطلعني على اسمي مطبوعا لأول مرة في الأهرام ، وقد جاء في المقدمة : تلقينا من الأديب صبري أبو المجـد كلمة عن أمين الرافعي جاء فيها :

وكانت الكلمة قد نشرت فى الصفحة الأولى من الأهرام ٠

ولم أكن وقتها أفرق بطبيعة الحال بين الصفحة الأولى ، والصفحة الأخيرة ٠

وكدت أقبل الصحيفة وأقبل عم رمضان في الوقت ذاته فقد كان هذا الذى بين يدى أجمل ما تلقيته فى حياتى من هدايا !

وفيما بعد عرفت أن الأستاذ انطون الجميل رئيس تحرير الأهرام قد انفعل لأن صبيا ، لم يبلغ الحادية عشرة من عمره يكتب عن أستاذ لم يعرفه بل لم يره بينما هناك عشرات من زملاء أمين الرافعى وتلاميذه الذين عملوا معه ، وكانت له أفضال كثيرة عليهم لم يتذكروا الرجل فى ذكراه ٠

بعث انطون الجميل ، برسالتى الى الأستاذ محمـــد نجيب المحرر بالاهرام وهو فى نفس الوقت ، أحـد المتشـيعين لأمين الرافعى المعجبين به ، والذين عملوا معه لينقح الكلمة ٠

وبعدها أمر الأستاذ انطون الجميل بنشر تلك الكلمة على رأس عمود ، وفى مكان بارز من الصفحة الأولى للأهرام ٠

وكان نشر تلك الكلمة ــ بحق ــ أهم نقطة تحول فى حياتى كلها .

★★★

واقدم صورة سياسية عالقة بذهنى من قريتنا ، ذلك اليوم الذى فوجئنا به ، ونحن صغار ، صغار جدا ، بالشباب يحملون الدكك الخشبية والكراسى والحصير ، ويضعون ذلك كله امام دوار العمدة ٠

وعرفنا أن مقرئين كثيرين من قريتنا ومن بعض القرى المجاورة سوف يقرءون القرآن الكريم ٠

وسوف تقدم ــ من دار العمدة ــ القهوة السادة ورحنا نبحث ونتقصى عن ذلك الميت المهم الذى يعدون له كل هذه الاستعدادات وتساءلنا ، لماذا لم يدفن بعد صلاة العصر كما يفعلون باستمرار فى موتى قريتنا ؟ ٠

وعرفنا بعد جهد أن الرجل الذى أقاموا الصيوان لمأتمه ، لم يمت فى قريتنا ، بل لقد مات منذ سنوات ، وانهم يحتفلون فى قريتنا بذكراه السنوية وكان الرجل هو سعد زغلول ٠

ولم يكن ســعد زغلول غريبا عن مسامعنا فما أكثر ما سمعنا من آبائنا وأقاربنا أن بعض العجول فور ولادتها ، كانت تهتف : يحيا سعد ٠

وان بعض أوراق الفول قد وجدت فى كثير من الحقول وقد كتبت عليها بعناية ربانية « يحيا سعد » ٠

★★★

لقد كان سعد زغلول بالنسبة لنا كبارا وصغارا أشبه ما يكون بالأسطورة تماما مثل أبو زيد الهلالى سلامة ، وعنتر بن شداد ، والزير سالم ٠٠

وما أكثر ما كان يتردد اسم مصطفى النحاس ـ خليفة سعد ـ فى بيتنا فقد كان والدى على صلة وثيقة بوالده ـ تاجر الأخشاب فى سمنود .

والدى كان دائم الحديث عن مصطفى النحاس وعصاميته ، وتفوقه العلمى ، وافتخار أبيه دائما به ٠

ولعل والدى كان يريد من طرف خفى أن يثير اهتمامى دائما وأبدا بمصطفى النحاس « بلدياتى » الذى ولد ، وليس فى فمه ملعقة من ذهب ، أو فضة أو حتى من صفيح ٠

والذى ليس ابن باشا ، أو بك ، والذى لا يملك والده أكثر مما نملك ، والذى لم يسكن يوما قصرا ولا دوارا ، ولم يعرف فى طفولته وصباه خدما ولا حشما ولا ٠٠ ولا ٠٠

وبالرغم من حبى لمصطفى النحاس ، واعتزازى به كواحد من أعاظم بلدياتى وبالرغم من ايمانى الوثيق ، بأن مصطفى من أهم ، وأخطر ، وأنبل وأعظم الشخصيات المصرية التى عملت بالحقل السياسى الوطنى ٠

لا بل بالرغم من أنه لم يكن فى قريتنا كلها والقرى المجاورة لقريتنا ، من يذكر الحزب الوطنى ورجاله بالخير ٠

لا بل بالرغم من أن دائرتنا الانتخابية ، دائرة مجلس النواب ودائرتنا الانتخابية دائرة مجلس الشيوخ ، وكانت الدائرة الانتخابية لمجلس الشيوخ عبارة عن ثلاث من دوائر مجلس النواب ، لم يكن فيها من يهتم أبدا بالحزب الوطنى ٠ الا أننى أصبحت من أسرة الحزب الوطنى ، ومنذ ان بدأت أعى ما حولى ولكن كيف حدث الانتماء السريع ، والمبكر الى الحزب الوطنى ؟ السبب كتاب أمين الرافعى ، وكتاب عبد الرحمن الرافعى، عن مصطفى كامل ٠

وبعدها سلسلة كتب : « مصطفى كامل ، فى ٣٤ ربيعا » ، لشقيقه على فهمى كامل ٠

★★★

لقد عشقت منذ البداية مصطفى كامل وحفظت عن ظهــر قلب ، الكثير من خطبه ، كما حفظت فى نفس الوقت ، كل ما قاله فيه الشعراء : أحمد شوقى ، وحافظ ابراهيم وخليل مطران ، وأحمد محرم ، وأبو شادى، والكاشف ، وغيرهم وغيرهم ٠

***

وكنت قد حفظت كلمة قالها فيه منافسه وخصمه السياسى احمد لطفى السيد وكتبتها بخط جميل ووضعتها خلفى على مكتبى الصـغير المتواضع الذى كنت قد اشتريته – رغم أنه أثرى ومطعم بالصدف – بجنيه مصرى واحد وظل معى حتى اليوم ٠

تلك الكلمة : « كان شعاره الوطنية ، ووسيلته الوطنية ، وكنابته الوطنية وحياته الوطنية حتى لبسها ولبسته ، فصار بينهما التلازم الذهنى والفكرى فاذا ذكرت مصطفى كامل فانما أذكر الوطنية واذا قلت الوطنية فان أول ما يتمثل فى خيالك شخص ، مصطفى كامل كأنما هو الوطنيـة والوطنية هو » ٠

وكان قد نسب الى أحمد لطفى السيد – ولم أتحقق من ذلك – أنه وصف مصـطفى كامل – فى حياة مصـــطفى كامل – بأنه « شــحاذ بردنجوث » ٠

كان مصطفى كامل مثلى الأعلى منذ الصغر ٠

وعندما كنت أواجه بمشكلة ما فى حياتى كنت أسأل نفسى بينى وبين نفسى : ماذا كان مصطفى كامل ، فاعل بتلك المشكلة ، لو أنها واجهته ؟ ٠

على اننى كنت من الحزب الوطنى من منازلهم ، فلا أذكر ، أننى ترددت على ناديه عندما كان له ناد ٠

ولا أذكر اننى حضرت يوما ما – حتى بعد أن كبرت – حفلة من حفلاته ٠

وان كنت – فيما بعد – اعتقل باستمرار على أننى حزب وطنى فى اثر كل حدث سياسى يقع بمصر ويقوم البوليس السياسى بالقبض على كل المشبوهين السياسيين اذ كانوا يعتبروننى واحدا منهم بل من أبرزهم٠

***

دخلت على مصطفى النحاس (باشا) ذات يوم فى أمـــر يخص نشاطنا الطلابى فى الجامعة ٠

وعندما عرف أننى بلديانه واننى لسـت وفديا استغرب وظهرت الدهشة على وجهه ، وقال لى وهو يبتسم ابتسامة الأب الحنـون : بقى دا معقول ، معرفة قديمة ، وبلدياتى ولست وفديا ؟ فقلت له : ورفعتك الم تنشأ حزبا وطنيا ؟

وضحك قائلا : دا صحيح ، وقلت : هذا مبرر أقوى لانضمامى الى الحزب الوطنى !

وضحك ، وضحكت !

***

ومن الصور السياسية التى لا تزال عالقة بالذهن وبالفؤاد ، وبالقلب أيضا ــ وان كانت مهزوزة الى حد كبير اذ كنت صـغيرا للغاية لا أعى ما حولى ــ صورة وزارة البرك والمستنقعات ــ كما كانوا يسمونها ــ وزارة محمد محمود باشا الأولى ١٩٢٧ ٠

وصور عديدة عن وزارة اسماعيل صدقى باشا ٠

صحيح أن بعض أعيان الناحية كانوا يؤيدون اسماعيل صدقى وقد أصبحوا من نواب برلمانه بل أصبح أحدهم واحدا من وزرائه ولكن الصور الباقية ــ والمهزوزة فى نفس الوقت ــ تقول ان الناس جميعا كانوا يكرهون اسماعيل صدقى . ولو كان قد جاء لهم بالمن والسلوى كما يقولون لكرهوه أيضا ٠

***

كانوا يضربون عن المشاركة فى الانتخابات ٠

وكان العمد يستقيلون من وظائفهم احتجاجا على تدخل الحكومة فى الانتخابات ، كنوع من أنواع المقاومة السياسية للنظام القائم وقتذاك ٠

وبالرغم من أنه كان يحكم عليهم بالغرامات حتى لقد زادت فى بعض الأحيان عن عشرين ألف جنيه الا انهم لم يستردوا استقالاتهم لأن الجماهير كانت تؤيدهم فى مواقفهم ولأنهم كانوا رجالا فى مواقفهم ٠

***

وكانت الحياة الاقتصادية فى مصر فى كساد ما بعده من كساد ٠

كل شىء موجود ، وبكثرة فى الأسواق ، وبرخص التراب ٠

ولكن أين هى النقود ، التى يشترى بها الناس ؟

وكانت النقود وقتذاك شحيحة للغاية وكان الواحد يسـتطيع أن يفطر ويتغدى ويتعشى بقرش صاغ واحد ٠

وكان كل عشر بيضات من « بيض الدجاج البلدى المعتبر » ، تباع بخمسة مليمات ، أى نصف قرش صاغ ٠

وكانت الفرخة البلدى الكبيرة السمينة التى تبيض أيضا تباع عادة بقرش ونصف فى أحسن الظروف ٠

ولم نكن نحن ــ فى بيتنا ــ نحس بتلك الضائقة ــ فكل شىء متوافر عندنا بكثرة : المواشى التى تعمل فى الحقل ، وتدر اللبن ، الدواجن التى تربى فى المنزل ، دون ان تكلف شيئا ٠

الخضروات التى تزرع فى الحقل كالباميا والفاصوليا ، والملوخية وغيرها ، وغيرها ، والتى لا تكلف شيئا لأنها تزرع فى هوامش الحقل أو بمعنى أدق فى أطرافه قرب السكك الزراعية ٠

★★★

وربما كانت الأزمة الاقتصادية ، لا تظهر عندنا الا فى عيد الفطر المبارك حيث لابد من شراء ملابس جديدة وحيث تنطلب عملية الشراء هذه نقودا ، وفى الغالب كان يجرى اتخاذ الاحتياطات الضرورية لعدم وقوع أزمة عنيفة فى أيام جنى القطن ، حيث يتم عملية شراء « هدوم » عيد الفطر المبارك ٠

وكانت « الهدوم » الجديدة مطلوبة فى عيد الفطر فقط ، وليس عيد الأضحى ، لأن عيد الأضحى ، عيد لحم ، لا ملابس ٠

★★★

وتذكرنى أيام اسماعيل صدقى بأحلك أيام مرت بى : كنت قد ابتليت بخراج فى رقبتى لم يستطع حلاق القرية ــ وطبيبها فى نفس الوقت ــ أن يفتحه ولم يقبل أبى أن يعرضنى على أحد من حلاقى الصحة ، الذين كانوا ينتشرون فى القرية المجاورة بكثرة ٠

★★★

أصر والدى على أن يأخذنى الى البندر ٠

وأمام طبيب مشهور جدا فى دنيا السياسة أصبح فيما بعد وزيرا وقفت ليكشف على فلم يكن هناك وقت للجلوس وربما لم يكن هناك مكان أيضا وبدون أى بنج ــ كما أذكر ذلك جيدا ــ تناول مشرطه وفتح « الخراج » ، حتى لقد سقطت كتلة من الدم على الأرض ٠

★★★

صرخت ، بكيت ، قفلوا الجرح ، ربطوه بشاش ٠

وكان لا بد من أن نعود بالقطار ــ قطار الدلتا الى قريننا ــ فى نفس اليوم فلا يمكن أن نبقى فى البندر وأمى فى القرية « على نار » ٠

لقد رفض والدى ، أن تجىء معنا حتى لا تتأثر بالعملية التى ستجرى لى ٠

وطلب من حلاق الصحة أن يتولى « الغيار » ، على الجرح ٠

وفعل ذلك يوما ، واثنين ، وثلاثة ، ولكن الجرح ، كبر ، وتضخم ، وتورم ٠

ونقلت الى مستشفى مجاور فاذا بالدنيا ــ فور الكشف على الجرح ــ تقوم ولا تقعد ٠

واذا بهم يستدعون عربة اسعاف من المديرية ، واذا بتلك العربة تنقلنى الى مستشفى الحميات بطنطا ، لقد أصبت بما يسمى « بالحمرة » وادخلت عنبرا فيه أكثر من عشرين جثة شبه هامدة ٠

★★★

كانت كلها ، أو أغلبيتها تنتظر الموت ٠

وأذكر أنه ــ فى الليلة الأولى لتواجدى بذلك العنبر ــ نقل الى المشرحة ثلاث جثث بعد أن فارقتها الحياة ٠

كانوا يعطوننى كل يوم أكثر من ٩ حقن كبيرة أكبر ما رأيت فى حياتى من حقن ٠

وكان الأطباء يولوننى اهتماما فقد كنت طفلا صغيرا بريئا ٠

أقاسى من آلام لا يتحملها الكبار ٠

ولم يكن يسمح لأحد بزيارتى على الاطلاق ٠

وقد أقام أبى وأمى أمام المستشفى ، ولم يكن ذلك لأنهما لا يجدان مكانا يأويهما فى المدينة ٠

ولكن لأنهما كانا ــ كما قال لهما الأطباء ــ ينتظران نبأ الوفاة بين دقيقة وأخرى ٠

وبعد أسبوع من العناية المركزة زالت مرحلة الخطر بعد أن أخذت من الأدوية ما يكفى أى انسان عادى طيلة حياته ٠

وبعد زوال الخطر ، عدت الى قريتنا ، وقد ولدت من جديد بعد أن تعرضت لأخطر محنة فى حياتى ، ارتبطت ـ كما قال لى أبى فيما بعد ـ بحدوث اضطرابات خطيرة وقعت فى طنطا ، وقتذاك ، قامت ضد اسماعيل صدقى باشا ، ووزارته ، وسقط فيها شهداء كثيرون ٠

★★★

وربما كانت أكثر الصور بروزا بالنسبة لأيام صدقى باشا لا تزال عالقة بذهنى ، وقلبى ، ووجدانى ، استخدام المياه ، كأداة للضغط السياسى على خصوم نظام اسماعيل صدقى باشا ثم استخدامها ـ فى نفس الوقت ـ رشوة لأصدقاء ذلك النظام ٠

كانت توجد بقريتنا ، ترعة كبيرة من تلك الترع التى تتصل مباشرة بنهر النيل ، وكانت من الترع الرئيسية الكبيرة والواسعة ٠

وقد أقاموا عند قريتنا قنطرة هائلة من القناطر المعدودة فى مصر لحجز المياه ، وتوزيعها على ترعتين فرعيتين بالاضافة الى الترعة الأصلية ، وكانت كل ترعة تفتح فى أوقات محددة أحيانا بالساعة والدقيقة ٠

وكانت عملية تقسيم المياه تتم على أيدى مهندسين كبار ، بحيث تتم العدالة ٠

والهدف من تقسيم المياه أن تصل المياه الى الأراضى البعيدة النائية فى نهايات الترع ، اذ لو كانت المياه بدون تقسيم فانها ستكون من نصيب الأراضى التى تقع على مقربة من القنطرة دون الأراضى النائية ٠

وقد قسمت المياه بالقسطاس لتصل الى كل الأراضى التى تعتمد على تلك الترع ٠

وقد انقلبت الآية تماما فى عهد اسماعيل صدقى : أصبح توزيع المياه يتم وفقا لأغراض حزبية بحتة ٠

يحرم من المياه أراضى أولئك الذين يعارضون اسماعيل صدقى ، وتتدفق المياه على أراضى أنصاره ٠

كانت القنطرة تفتح ـ مثلا ـ أياما عديدة ، دون أن يسمح لأهالى الجهات التى على مقربة من القنطرة برى أراضيهم لأن المياه أصلا أريد بها رى الأراضى البعيدة ، أراضى أنصار اسماعيل صدقى ٠

وقد جىء بالهجانة ، ليحولوا بين الفلاحين وبين أراضيهم لأنهم ليسوا من أنصار اسماعيل صدقى !!

وعندما تتصور أو يتصور أى قارىء أى ضرر يلحق الفلاح ، عندما يجد مزروعاته توشك أن تحترق من قلة المياه ، بل بسبب انعدامها ٠

عندما تمر المياه ، من أمامه لرى أراضى الآخرين وهو محروم من أن يروى بها أراضيه ٠

لم أجد أبى وأهلى وأبناء قريتنا أشد ما يكونون تعاسة وشراسة الا فى تلك الأيام : لا يمكن أبدا أن تمر المياه على أرض عطشى لتروى أراضى أخرى بعيدة ولا تروى أراضيهم : مهما فعلت الهجانة فان أحدا لا يمكن أبدا أن يقف فى طريق حصول أراضيهم على المياه ٠٠٠

فى ساعة متأخرة من الليل كان أبى وأعمامى وأقاربى ، يذهبون الى الحقول وبأيديهم أسلحتهم ، البعض يتسلح بالمقروطة وهى بندقية بدون ماسورة طويلة ٠

البعض الآخر يحمل السكاكين أو الشواطير ـ جمع شاطور ـ والشقارف ـ ما يحصد به القمح والذرة ، وما فى البيوت من أية آلات حادة : يديرون السواقى ، والطنابير ـ جمع طنبور ـ والطنابيش ـ جمع طنبوشة ، وهى سواقى متطورة كبيرة ، والويل كل الويل ، لأى عسكرى من عساكر الهجانة يجرؤ على منعهم من اختطاف ماء الترعة لرى أراضيهم ،

***

وفى بعض الأحيان كنت أراهم ـ وكان يلذ لى ان أرافقهم فى تلك العمليات ـ يحاولون استقطاب عساكر الهجانة ، بالكلام الطيب ، و « الشاى » ، وربما العزايم ـ جمع عزومة ـ أيضا ! ٠

***

صورة أخرى لم أرها ولكننى سمعت بها فعلا من بعض أبناء القرى المجاورة ٠

كانت الحالة الاقتصادية قد ساءت الى حد ينذر بالخطر ، وكانت المصارف لا تقرض خصوم اسماعيل صدقى باشا فكانوا يضطرون الى عدم سداد ما هو مطلوب منهم للضرائب ٠

وكانت الحكومة تحجز على مواشيهم ، وبيوتهم ، لا بل تبيعها برخص التراب كما يقولون :

ومرة كما قيل لى أيضا باع رجال الحكومة ـ بالمزاد ـ ستة ثيران من أحسن الثيران وجمل وجاموستين مخصصتين لحلب اللبن ، وجوادين

للركوب ، وحمارة للركوب أيضا وثمانية حمير تستخدم لحمل السباخ ، وخمسة نوارج « لدراس » القمح ، و « كارتة » فاخرة للركوب كل ذلك بتسعين جنيها بينما الثمن الحقيقى للثورين فقط يزيد على تسعين جنيها • ولكنه الانتقام المريع من الخصوم السياسيين ! :

★★★

وقد سمعت أيضا أن بعض العمد ـ وهم من علية القوم ـ عندما كانوا يذهبون مثلا الى المديرية لحضور اجتماع من الاجتماعات « الميرى » كانوا ـ وعددهم يقترب من تسعة ـ يجلسون على أحد المقاهى ويطلبون فنجان قهوة واحد يشتركون فى دفع ثمنـه لأنهم لا يملكون ثمن تسعة فناجين من القهوة : لقد أصبح ثمن فنجان القهوة باهظا ، على العمدة : فكيف الحال اذن بالنسبة للفلاحين ؟؟

★★★

وكدليل على قسوة الحياة وقتذاك ، أننى استأجرت ـ وكنت طفلا صغيرا ـ « بيتا من بابه » : ثلاثة أدوار ، فى كل دور غرفة وصالة ودورة مياه بعشرين قرشا ، صاغا فى الشهر •

وعندما فكرت فى الانتقال منه لبعده عن مدرستى عرض على صاحبه ، أن يتنازل لى عن ربع الايجار بشرط ، ألا يكتب ذلك فى العقد ، حتى لا تضار سمعة المنزل الايجارية •

★★★

وقد كنت ـ عندما أصبحت صبيا ـ أسكن ، وآكل وأشرب وأشترى الصحف والمجلات ، واقتصد كثيرا من مبلغ الثلاثة جنيهات التى كنت آخذها كل شهر من أبى وأنا أقيم بالمدينة : كنت أرى زملائى يرتدون أفضل مما ارتدى ويأكلون أحسن مما آكل ، ينفقون عن سعة وخاصة فى السينما ، التى كانوا يدخلونها كل يوم تقريبا ، ولكننى لم أحس لدقيقة واحدة بالحقد عليهم •

لم يتطرق يوما ما الحسد ، الى قلبى •

كنت قنوعا الى أبعد حدود القناعة بما لدى ، أحمد الله سبحانه وتعالى ، « واقبل يداى ظهرا وبطنا » ـ كما يقولون ـ كل صباح وكل مساء لأنه أنعم على بالقناعة والرضا بالقليل بل بالرضا حتى لو انعـدم ذلك القليل :

وربما كانت هذه القناعة ، أثمن ما منحنى به الله تعالى فى حياتى ، فلم أتطلع يوما ما ، بل دقيقة واحدة الى بدلة أكثر شياكة ، ولا الى حذاء لميع ولا الى أكلة فاخرة ، ولا الى نزهة لوكس » •

كل متع الحياة ــ حتى وأنا طفل صغير ــ لم تكن تهمنى أبدا •

كل ما يهمنى حقا أن أتمكن من قراءة كتاب •

أن أشترى مجلة ، أو صحيفة •

أن أتمكن من أن أنقل من المكتبة العـــامة ديوان شعر ، ما دمت غير قادر على شرائه •

★★★

وبالمناسبة فقد كنت ومنذ صغرى (هاوى) دار الكتب •

كل زملائى يذهبون الى السينما وأنا أذهب الى دار الكتب •

وكان العاملون فى كل دور الكتب التى تعاملت معها يحبوننى ، ويتعاطفون معى ، فانا أول من يدخل دار الكتب وأنا آخر من يغادرها •

فى المساء مثلا كانت تدق الأجراس فى الساعة السابعة والنصف مساء ، لكى يقوم كل مستعير لكتاب برده الى أحد أمناء المكتبة •

وفى الساعة الثامنة مساء ، تقفل المكتبة ، ويغادرها من فيها من الموظفين •

ورغبة من أمناء المكتبة فى مساعدتى كانوا يتركوننى وحدى بعد أن تدق الأجراس ، وبعد أن يعيد كل مستعير ، ما استعاره من الكتب •

ويتوجهون هم لغسل وجوههم ، والتوقيع ، على دفاتر الانصراف •

وفى الساعة الثامنة الا خمس دقائق أقوم أنا لأضع الكتاب الذى فى يدى على منضدة الأمين المسئول ثم أخرج مع الموظفين وكأننى واحد منهـم بعكس زملائى من المترددين على دار الكتب الذين كان يجب أن يغادروا المكتبة فى الساعة السابعة والدقيقة الأربعين على أكثر تقـــدير أى أننى كنت أكسب ربع ساعة يوميا •

وفى بعض الأحيان كان بعض الأمناء عندما يرون أننى لم أنته من قراءة الكتاب الذى بيدى ، لا يعيدونه الى المخازن ، وانما يضعونه على المنضدة الخاصة بهم حتى يوفرون لى ربع ساعة أو نصف ساعة من اليوم

التالى حيث أكتب استمارة استعارة داخلية توقع من الأمين ثم من رئيس الأمناء ، ثم يذهب بها ، وبغيرها من الاستمارات أحد السعاة الى المخزن لاحضار الكتب : كنت أدخل فى الساعة الثامنة صباحا ـ وقت افتتاح دار الكتب ـ واتجه الى منضدة الأمين وآخذ الكتاب الذى كنت أقرؤه بالأمس ، بينما آخرون مثلى ينتظرون ربع ساعة أو ثلث ساعة وأحيانا أكثر من نصف ساعة الى أن تجيئهم الكتب التى طلبوها ٠

★★★

وأعود الى الحياة الاقتصادية المتواضعة ، التى كنت أحياها ، والتى كانت لا تسمح لى بشراء كل الصحف ، والكتب التى كنت أريدها ٠

وأذكر أننى ـ رغم الضائقة الاقتصادية التى كنت أعيشها ـ كنت أوفر من الجنيهات الثلاثة التى أتناولها من أبى كل شهر جنيها أو أقل من جنيه بقليـل ، انتظارا لطموحـات كبرى كانت تدور في ذهني ، طبع كتاب لى ، مثلا ٠

★★★

ومرة اقترض مني أحد زملائي الكبار ، الأغنياء جدا مبلغا لا بأس به كل الذى وفرته طيلة أربعة أشهر ، تقريبا ٠

★★★

وما كنت أستطيع الامتناع عن اقراضه والا عرضت نفسى لكوارث عديدة وعندما طالبته بعد شهرين برد ما اقترضـــه منه وهددته بابلاغ الأمر الى والده ان هو توانى عن رد القرض ، قام اثنان من أصـــحابه بالاعتداء على ليلا ، حتى لقد تمكنوا من احداث جروح فى وجهى وفى يدى ، ثم لاذوا بالفرار !! ٠

لم أكن أستطيع وقتئذ الشكوى لأحـد ، الا الله سـبحانه وتعالى فقد كان هذا الفتوة ٠ كما كنا نسميه يتحكم فى الشـارع الذى كنـا نسكن فيه ٠

وكان معنى اغضابه أننى لن أدخل البيت الذى أقيم فيه ٠

ولذلك سكت ـ مرغما ـ على العلقـة التى أخذتها وعلى المبـلغ ، الذى ضاع على تاركا الأمر لله سبحانه وتعالى المنتقم الجبار ٠

ولم يمض عام واحد ، حتى فصل صاحبنا من كل المدارس لسوء سلوكه ، وأعيد الى قريته (وكانت تجاور قريتنا) حيث راح يعمل في الزراعة ٠٠

والعلقة التى أخذتها من صاحبنا تذكرنى بعلقة أخرى ، أخذتها من بعض رجال البوليس فى مناسبة عامة ، وهامة ، ذلك أن اضطرابات شملت البلاد من أقصاها الى أقصاها ، بعد زوال كابوس حكم اسماعيل صدقى ولم نكن نحن كصبية صغار ، نعرف شيئا عن أسباب تلك الاضطرابات ·

كل ما فى الأمر اننا رأينا من يكبروننا فى السن يقذفون لوريات البوليس بالحجارة ، ويقومون بتكسير الفوانيس وزجاج المحلات الأجنبية ومداخل الخمارات (جمع خمارة) ومحلات بقالة اليونانيين ·

رحنا نقلد الكبار

وجاءت الطوبة فى المعطوبة كما يقولون ، فقد قبض البوليس علينا وضربونا علقة ساخنة ·

ثم قادوا بعضنا ، الى قسم البوليس ·

***

وقيل انهم يقبضون ، ثمنا لكل رأس يقذفون بها الى السجن فقد كان البوليس يقبض على كل من يجدونهم أمامهم ، حتى ولو لم يفعلوا شيئا ·

ولم يكن لهؤلاء من ذنب الا أنهم ـ لسوء حظهم ـ قد وجدوا فى ذات المكان ، فى ذات الوقت الذى وقفت فيه عربة البوليس ·

وقد أودعونا القسم حتى الصباح كما قالوا ·

ولأننى كنت أصغر المقبوض عليهم ·

وكانت البراءة تبدو على ملامح وجهى فقد اشفق على الضابط النوبتجى ومن نعم الله على أنه يرسل لى دائما من ينقذنى فى المحن ، فى آخر لحظة :

أخذنى الضابط النوبتجى من يدى وذهب بى الى سجن النساء وأمر العسكرى الموكل بذلك السجن أن يفتح الباب ·

ونادى على واحدة من المسجونات عرفت فيما بعد انها جديدة فى « الكار » وقال لها : ياتفيدة خذى الولد ده فى حضنك لغاية الصبح يحلها الحلال » ·

***

وفى سجن النساء هذا وجدت ، أكثر من عشر سـيدات كانت مناظرهن ـ من وجهة نظرى ـ تبعث على الضحك : الملابس قصيرة جدا ، وعلى وجه كل واحدة منهن ـ فيما عدا تفيدة ـ طبقة سميكة من البودرة :

الأحمر ، الذى كان على وجوههن أشبه ما يكون بالبقع الحمراء فى الجدار الأبيض •

الجميع ـ فيما عدا تفيـدة أيضـا ـ « يتميزن » بعـدم المبالاة : مخارج الحروف عندهن ذات حركات متميزة •

طرقهن فى النـوم أو فى الاسـترخاء كانت تجعلنى ـ وأنا الطفل المميز والصبى غير المميز ـ أغمض عينى حتى لا أرى ما يكشفنـه من أجسام غضة بضة •

وأضع يدى على أذنى حتى لا أسمع من كلامهن شيئا !!

المهم قضيت الليلفى حضن تفيدة ،التى كانت تهطـل الدموع من عينيها من وقت وآخر عندما كانت تحدق فى •

كانت تسـتغرب كيف أن أما مثـل أمى تتركنى فى مثـل هـذا السن وحدى •

وقد كانت تضحك فى سـخرية ، عندما كنت أقول لها : انتى فاكرانى عيل ، أنا راجـل •• راجل كبير ، كبير قوى ، وأنا ماجئت المدينة الا لأطلب العلم » •

واستلمنى الضابط النوبتجى من الست تفيدة ، بعد أن بشرها بالافراج عنها فى هذه المرة لأنها بدون سوابق •

وقد أنذرها ان هى عادت فسيكون نصـيبها نصيب العائدات الى ارتكاب الفسق والفجور •

ولم ينس الضابط النوبتجى أن يوجـه لها بعض النصـائح وفى مقدمتها أن تبتعد عن « شلل » السوء ، والنساء الخبيثات !!

★★★

وكان الضابط النوبتجى قد أرسل أحد الجنود لشراء ساندوتشات فول وطعمية من محل معروف ، قريب من القسم فاعطـاها لى بعـد أن نصحنى ـ كأخ أكبر ـ بالابتعاد عن الأماكن المضطربة •

ثم سلمني للمأمور الذى أصر على ان يودعنا بعلقة أخرى ساخنة ، كان لها علامات بارزة فى أجسادنا ٠

وكان مأمور القسم هذا قد عرف عند الجميع بأنه جبار عنيد فى معاملته للناس وان « رأسه ناشفة زى الحجر » :

تعليمات الباشا المدير لابد من تنفيذها نصا وروحا ٠

وما دام الباشا المدير قد أمره بأن يعطينا ـ نحن الصغار ـ درسا لا ننساه فقد أبى الا أن ينزل بعصاه الغليظة أبرز العلامات على أجسادنا الرقيقة ٠

ويظهر أن الظروف كانت أقوى منى فلم تمض سوى أيام قليلة حتى نزلت ضيفا غير مكرم ، على قسم آخر ، من أقسام المدينة بعد ان ارتدينا ـ ونحن صغار ـ أيضا الكرافتات السوداء ، حدادا على سقوط أحد الشهداء برصاص البوليس ٠

وكان قد طلب منا ـ ونحن الصغار ـ أن نمر أمام جثمان الشهيد المسجى فى أحد المساجد ٠

***

وكان منظره يبعث على الحزن ، والأسى ، وقد أكسبه الموت جلالا ومهابة ٠

كان وجهه الصبوح يكاد يطل علينا من تابوته الخشبى المحاط بالورود والرياحين ليوصينا ببلدنا ٠

وبعد أن مررنا ـ طابورا ، ـ أمام جثمان الشهيد تصور بعضنا نفسه ، فى مكانه : حسرة أبويه عليه ٠

الخسارة الفادحة التى نزلت بأسرته بسبب هذا الرصاص الطائش الذى انطلق بكل وحشية متجها الى صدور الصبية والشباب ٠

اتجهنا وكنا مجموعة نلتقى فى سن الطفولة وفى الحماس الى حيث يقف رجال البوليس ورحنا نقذفهم بما وقع فى أيدينا من طوب وحجارة وسرعان ما قادونا الى قسم البوليس ، وكان من نصيب كل منا علقة ساخنة لا تزال آثارها ـ أيضا ـ « معلمة » على الجسم حتى كتابة هذه السطور ٠

***

وبهذه المناسبة ، أذكر ، أن أول مرة سمعت فيها عن السجون ، كانت فى قريتنا : فى الجرن ، فى احدى الليالى القمرية ·

فى تلك الليلة التى حلا فيها السهر حتى الفجر راح سيد أحمد بسطويسى يتحدث عن زيارته الأخيرة لمصر ·

ولمصر عندنا فى القرية بريق ، وأى بريق ·

وكنـا نطلق على القاهرة ، اسـم « مصر » تعظيما لشأنهـا ·

بدأ سيد أحمد بسطويسى ، فى حديثه عن « مصر » ساخطا ، غاضبا ، للغاية ، لاعنا مصر ، « واللى فى مصر » ، « واللى يفكر يروح مصر » ·

والسبب أنه عندما ذهب منذ أسابيع لزيارة مصر والمشاركة فى مولد السيدة زينب راح يبحث عن منزل محمود أفندى السيد ·

ومحمود أفندى السيد هذا من أبناء قريتنا ، فتح الله عليه فأقام بمصر وسكن بجانب مسجد السيدة زينب وأصبح بيته مزارا لأبنـاء قريتنـا ·

★★★

ما من أحد يزور القاهرة ، الا ويتجه الى منزل محمود أفندى السيد لينام فيه ·

ولذلك فان منزل محمود أفندى لم يكن يخلو من ضيوف من أبنـاء القرية ·

★★★

وفى مولد السيدة زينب والحسين ، كان منزل محمود أفنـدى يتحول الى فندق بل الى أكثر من فندق حيث كان الضيوف « الحريمى » يحتللن المنزل والضيوف الرجالى ينامون أمام المنزل وعلى السلالم ، وفى الطرق المؤدية الى المنزل ·

ما علينا ذهب سيد أحمد بسطويسى باحثا عن منزل محمود أفنـدى ولم يجـده ·

ومضى الليل كله باحثا منقبا عن المنزل دون جدوى ·

اشتبه فيه بعض رجال الشرطة واقتـادوه الى قسم السيدة زينب ضمن من يقبضون عليهم : اشتباه وتحرى ·

وقضى سيد أحمد بسطويسى ليلة فى سجن قسم السيدة زينب •

رأى فيهـا رأى العين ما لم يره فى حيـاته من ضرب واهانة حتى ما كان يحمله من فطير مشلتت ورز معمر وبيض مقلى ـ وهو الهدية التى كان يحملها الى محمود أفندى السيد ـ أكلوه فى السجن ، ولم يتركوا منه شيئا يفطر به فى اليوم التالى •

وفى تلك الليلة ـ كما حدثنا سيد أحمد بسطويسى ـ كان أكثر من ثلاثين شخصا فى عنبر واحد ، وقد تم رصهم كالسردين ، فى علب السردين •

ولم يجد سيد أحمد بسطويسى مكانا ينام فيه فقضى الليل واقفا على قدميه حتى الصباح •

لم يخرج أحمد بسطويسى من سجنه الا بعد أن حضر محمـود أفندى السيد وقام بكفالته : خرج سيد أحمد بسطويسى غاضبا ثائرا ، لم يشأ ان يستمع الى رجاء محمود أفندى السيد فيستريح عنده يوما أو يوما وليلة حتى يستريح •

أصر سيد أحمد بسطويسى على العودة فورا الى القرية لأن السـيدة زينب ـ كما قال ـ مش عاوزاه » •

وكره العاصمة ومن فيها •

وعاد ليقول لنا انه لن يذهب الى القاهرة مرة أخرى ولو قدموا له ملايين الجنيهات •

***

على أنه لابد والذكريات تجر بعضها أن أشير الى ليلة أخرى قضيتها أنا فى السجن وكنت لم أزل بعد صبيا •

والقصة تبدأ ، عندما فكرت فى اقامة حفـل لتأبين أمين الرافعى ولتخليد ذكراه •

وكنت قد وفرت من مصروفى بضعة جنيهات •

واتفقت مع الرجل الطيب الوطنى الكبير د • عبد الغفـار متولى ـ أحد أئمة الحركة الوطنية المصرية ـ على أن نقيم الحفـل فى جمعيـة المساعى المشـكورة بالمنصورة ، التى كان يرأسها هو على ألا تتحمـل الجمعية الخيرية الدينية أية تكاليف خاصة بذلك الحفل •

نحن الذين ندفع ايجار الكراسى ، التى يتطلبها الحفل ،

وندفع تكاليف طبع التذاكر وبرنامج الحفل ٠

الجمعية لن تتكلف مليما واحدا ٠

وقد دفعت كل ذلك من مصروفي ٠

وخاطبت الأستاذ عبد الرحمن الرافعى فى الاشتراك بنفسه فى ذلك الاحتفال ٠

وكان مراسل الأهرام الأستاذ يوسف الصباغ يوالى الأهرام بأخبار ذلك الحفل بانتظام ٠

وكانت الأهرام مشكورة تنشر أخبار ذلك الحفل فى اجتماعياتها ٠

واعتذر الأستاذ عبد الرحمن الرافعي عن عدم الحضور بخطاب رقيق طلب أن يقرأ في بداية الحفل ٠

وقد اتخذ ذلك الخطاب قرينة ضدى عندما اعتقلت فى قضية مقتل أحمد ماهر باشا (٢٤ من فبراير ١٩٤٥) وكان القاتل محمود العيسوى ـ رحم الله المجنى عليه والجانى ـ يعمل فى مكتب عبد الرحمن الرافعي بشارع عدلى كمحام ٠

★★★

فى ذلك الحفل المثير للاهتمام وللفضول أيضا ، وقف صبى صغير ببنطلونه القصير ـ اذ لم أكن قد ارتديت بعد البنطلون الطويل ـ أمام جمع حاشد من أبناء المنصورة ، يلقى كلمة الافتتاح بلهجة حماسية للغاية وصف فيها الاحتلال البريطانى الجاثم على صدور البلاد والعباد بأنه الوباء الثقيل ٠

ثم قدم خطباء الحفل ، وشعراءه ، وكما بدأ الحفل بآى الذكر الحكيم ، انتهى كذلك ٠

★★★

وقد أفردت صحيفة البنان التى كانت تصدر وقتذاك بالمنصورة عددا خاصا عن الحفل ٠

وبعد أن انتهى الحفل أو كاد ، وتم دفع مؤخر ايجار الترابيزات والكراسى جاء من يهمس فى أذنى قائلا : عاوزينك شوية قبل ما تروح ، ومش عاوزين حد يعرف اننا عاوزينك ٠

وأدركت على الفور ما هو مطلوب منى ٠

وكان عدد كبير من ضباط البوليس وجنوده يراقبون الحفل من بعيد ، وكان أحد ضباط المباحث حريصـــا على أن يحصل على نصوص الكلمات التى ألقيت من أصحابها ٠

وكنت قد أعددت كلمتين ، احداهمـا عن الاحتـلال البريطـانى والأخرى عن كفاح أمين الرافعى فى سبيل الدعوة الاسلامية ولم يشـأ الضابط المكلف بالحصول على كلمات الحفل ، أن يكتب كلمتى ، ما دام يعرف اننى كتبتها ٠

وفى قسم بوليس أول المنصورة جرى التحقيق معى حول الحفل ، فأصررت اننى منظمه ، والداعى اليه ـ وكانت التذاكر المطبوعة باسمى نيابة عن لجنة تأبين أمين الرافعى ـ وأننى المسئول عن كل ما يتعلق به ٠

وكانت أسئلة المأمور تستهدف الوصول الى ممول ذلك الحفل ، والى من يتستر خلفه ـ كما كانوا يظنون ـ فأكدت له أن كل ما انفق على الحفل كان من مصروفى وأنه لا أحد قد فكر فى الحفل سواى ، وان كل ما فعله الدكتور عبد الغفار متولى انه سمح لنـــا بقاعة الجمعيـــة لاقامة الحفل فيها ٠

★★★

وعندما سئلت عن الكلمة التى ألقيتها أبرزت الكلمة الخاصة بكفاح أمين الرافعى فى سبيل الدعوة الاسلامية ٠

وهب الضابط المسئول مكذبا اياى ، مؤكدا أننى القيت كلمـــة أخرى ، وانه سمعها بنفسه ، كما سمعها عشرات ممن حضروا الحفل ٠
ولم يستطع أن يثبت قوله ، لانه لا يوجد تسجيل للحفل ٠

★★★

وكان أحد الضباط الذين يتميزون بالغلظة والقســـوة قد قام بتحويل الموقف العادى الى موقف درامى فوجـه الى الضربات واللكمات ، قائلا : مش كفاية سهرتنا ليلة بحالها كان زماننا فى بيوتنا مع أولادنا ٠

وكنت كلما كظمت غيظى وامتنعت عن الصياح للتأكيد على اننى رجل ولست طفلا ، أو صـــبيا ، ضـــاعف من ضربه ، وتعذيبـه مؤكدا للمأمور انه سيجعلنى أطلق السياسة بالثلاثة ٠

ولم يأمر المأمور بادخالى السجن وانما أمر بالابقاء على فى مكتب الضابط النوبتجى ليتسلى ـ كما قال ـ على ·

وكان كلما تعب من الضرب جلس على مقعده ليستريح ثم يقوم فجأة ويوجه الى اللكمات والضربات ·

وبعد أن تأكد له أننى لن أنيله غرضه باتهام الدكتور عبد الغفار متولى ، أو آخرين من الوطنيين واننى المسئول عن اعداد وتمويل الحفل انكسف على دمه ، وخاصة عندما قلت له : بذمتك مش مكسوف من نفسك ، تضرب طفل زيى ، كنت اتشطر على الطلبة الكبار اللى أعطوك أول امبارح علقة سخنة » ·

وكان طلبة المدارس الثانوية (الكبار) قد فشوا غليلهم فى هذا الضابط المشهور بقسوته ، وغلظته ، وقاموا بأداء واجبهم نحوه ·

لم يستطع هذا الضابط « الشهم » ، « الشجاع » المقاتل ـ فى غير ميدان ـ ان « يفبرك » قضية سياسية بعد ان اكتشف اننى صغير السن ولا يمكن أن تقام ضدى أية قضية سياسية ·

والا لتحول الأمر الى « فضيحة بجلاجل » ·

★★★

وكنت قد ذكرت لمراسل « الأهرام » ما قاله لى ضابط المباحث من أنهم فى القسم « عاوزينى شوية » ·

فاذا به يجىء فى الصباح الباكر هو والدكتور عبد الغفار متولى ليتسلمانى من القسم بعد أن وجها عبارات التأنيب والاحتقار للضابط الهمام · ومما هو جدير بالذكر ، أننى لأول مرة ، وأنا أضرب فى القسم لم أكن أتألم ، كما كنت فى المرات السابقة التى ضربت فيها :

كنت سعيدا لأننى قمت بعمل ايجابى بل بأول عمل ايجابى فى حياتى ·

ومنذ ذلك التاريخ بدأت أستعذب كل عذاب لقيته فى حياتى من أجل خدمة الوطن ·

ونجح هذا الحفل فى توجيه الأنظار الى فكنت أدعى للمشاركة فى الاحتفالات الوطنية والدينية وخاصة تلك التى كانت جمعية الاخوان

المسلمين تقيمها بمناسبة الهجرة النبوية الشريفة ، أو في ذكرى المولد النبوى الشريف أو أية مناسبات دينية أخرى عامة وهامة ٠

وعن طريق تلك الحفلات توثقت الصلات بينى وبين الشيخ حسن البنا ٠

وكان يحلو للرجل أن يدعونى لمرافقته فى جولاته بشارع البحر بالمنصورة فى أعقاب أى احتفال هناك فى المساء ، حيث نتجاذب ـ ونحن نسير على أقدامنا ـ أطراف الحديث ٠

وكان الرجل قد أعجب بما أكتبه من مقالات فى مجلة « النذير » التى كان يصدرها الأستاذ صالح عشماوى وكانت تحت عنوان : النواحى الاسلامية فى قضية الفلاح » ٠

وكنت قد تأثرت الى حد كبير بما كانت تكتبه الأستاذة عائشة عبد الرحمن « بنت الشاطىء » فى جريدة الأهرام عن قضية الفلاح ٠

وكان يبدو لى أنها تكتب عن الفلاح من بعيد بوجهة نظر فتاة غير ريفية ٠

ولكن الموقف بالنسبة لى كان مختلفا للغاية فأنا فلاح ومن أبوين فلاحين ، ولا تزال علاقتى بالريف قائمة ومستمرة ٠

وقد آثرت ان أوقع باسم « ابن الشعب » رغم ما كان البعض يأخذه على ذلك الاسم وخاصة بعد صدور رواية تحمل هذا الاسم ٠

★ ★ ★

ومرة فى احدى جولاتنا الليلية سألنى الأستاذ الشيخ حسن البنا : لماذا لا تنضم الى الاخوان المسلمين ؟

ولم يكن السؤال مفاجأة لى ، فقد كنت أعددت نفسى للاجابة عليه من قبل ٠

وقلت للشيخ : لأنكم فى جمعية الاخوان المسلمين تحصلون على اعانات سنوية من مجالس المديريات وحصولكم على هذه الاعانات يقيد حريتكم ، وقد يجعلكم غير قادرين على معارضة الحكومة » ٠

ولم يغضب الشيخ ولم يثر فى وجهى وانما ابتسم قائلا : لاتزال صغيرا يا بنى وعلى أية حال فكلنا حزب وطنى : الحزب الوطنى تحت قيادة مصطفى كامل ومحمد فريد ، أقرب الأحزاب الينا بل هو المنبع الأساسى لنا : انه الحزب السياسى الأول ، الذى قام على أسس وطنية

اسلامية وكان أول داع للجامعة الاسلامية وأول من عمـــل على توطيد الروابط بين الأخوة المسلمين فى كل أرجاء العالم » ·

ولم تتأثر أبدا علاقتى بالشيخ حسن البنـا بعد أن اعتذرت عن الانضمام الى الاخوان المسلمين ·

* * *

واذا كان الشىء بالشىء يذكر فان الشيخ حسن البنا ــ وتلك احدى مميزاته ــ كان يحتفظ بذاكـرة لا مثيل لهـــا ، ذاكرته آلة للتصوير والتسجيل فى نفس الوقت ·

يحدث أن يرى الشيخ أحدهم فى حفل ما أو فى مناسبة خاصة ما وتمر السنين ، ثلاثا أو أربعا ، أو خمسا ، لا بل عشرا أو أكثر ويتقابل الشيخ مع هذا « الواحد » فاذا به يتذكره ، ويذكره باسمه بمجـــرد رؤيتــه له ·

وقد لا يتصـــور البعض أن زعيم حركة كبيرة وخطيرة كالاخوان المسلمين يجد الوقت الذى يتحدث فيه طويلا الى صبى صغير السن مثلى ثم يعرض عليه الانضمام الى جمعيته فى نهاية ذلك الحديث ·

وتلك فعلا ــ أيضا ــ احدى مميزات الشيخ حسن البنا : فراسة قوية ، وقدر وفير من الصبر ، والاصطبار !!

كان يختار أقرب المقربين اليه بهذه الطريقة ، المعرفة الدقيقة ثم الاتصال المباشر ، ثم وضع الشخص تحت التجربة ، ثم الاقتراب منــه أكثر ، وأكثر ·

لم يكن الرجل مستعجلا ، أو متعجلا : كان يبنى جماعته ، على مهل وليس المهم بالنسبة له العدد ، وانما المهم ، بل الأهم ، الكفاءة والقدرة والشخصية والمقدرة على مواجهة الجماهير والتأثير فيها والتأثر بها ·

* * *

وقد كنت أجد الشيخ جسن البنا ، يدفع الكثيرين من شباب المدارس الابتدائية ، والثانوية والمعاهد ، الدينية والمعاهد العلمية الأخرى الى الخطابة ليختار منهم العناصر التى يمكن الاستعانة بها فى نشر الدعوة وكان يعتبر القدرة على الخطابة واحدة من أهم الشرائط التى يجب أن تتوافر فى الداعية الاسلامى وكان يحرص على أن يقارن بين كلام الداعية وبين تصرفاته فلابد ــ فى رأيه ــ من ان يكون الداعية مؤمنا بما يقوله ففاقد الشىء لا يعطيه ومن يعتمد على اختيار الألفاظ المنمقة فى الدعوة دون

ايمان بها مثله ـ كما كان يقول ـ مثل من يخطب فى الصحراء أو يكتب على الماء ٠

لم يكن الشيخ حسن البنا يهتم بالكبار أكثر من اهتمامه بالصغار ٠

كان يرى ـ وتلك احدى مميزاته أيضا ـ أنه عندما يختار الصغار ، ويدربهم ، ويعلمهم على يديه ويشربهم مبادئه وأهدافه بل ومبادىء دعوته وأهدافها انما يبنى بذلك بنيان الهيئة على أسس سليمة ومتينة وكما قلت سابقا فلم يكن أبدا العدد يعنيه وانما الذى كان يعنيه أن يكون من يختاره للعمل صلبا قويا مؤمنا ٠

★★★

ومن الأمور المحفورة فى الذهن ـ لا فى القلب ـ وفاة الملك أحمد فؤاد ٠

وأقول فى الذهن لا فى القلب لأننى كنت صغيرا جدا ـ لم أحس ـ وقتئذ ـ بالأسى والحزن ، اللذين أحسست بهما فى ذكرى سعد زغلول ولا أقول فى وفاة سعد زغلول فعندما مات سعد زغلول لم أكن أعى ما حولى ٠

وكنت قد سألت واحدا ممن يكبروننى سنا : لماذا لم ينظموا جنازات صامتة يوم وفاة الملك فؤاد ، أو فى اليوم التالى ، كما تفعلون بالنسبة للشهداء ، أو بالنسبة لذكرى سعد زغلول فأجابنى : سعد غير فؤاد ٠

فؤاد ملك مستبد ، لم يقف يوما الى جانب الشعب ، معاد للديمقراطية وللدستور ، وللحياة النيابية ٠

أما سعد زغلول ، فهو زعيم شعبى : الشعب هو الذى اختاره وهو الذى أيده ٠

وقد دفع سعد زغلول ـ وفى سن متقدمة ـ ثمن زعامته ووقوفه الى جانب الشعب ، فنفى الى سيشل ، والى جبل طارق ٠ ولم نكن نعى أيضا ما يقوله الكبار فى هذه السن فقد كان ما يقولونه أكبر من فهمنا ٠

على اننا كنا نتابع كل ما يتعلق بوفاة الملك فؤاد على صفحات الصحف ٠

ولا أقول فى الاذاعة فأجهزة الاذاعة وقتئذ كانت قليلة بل نادرة ، وغير متوافرة الا لدى الخاصة ولم نكن وأمثالنا منهم بطبيعة الحال ٠

★★★

وقد تسببت وفاة الملك فؤاد فى حدوث « ربكة » اقتصادية لى ،

اذ اشتريت لمدة ثلاثة أيام متوالية : ٢٩ ابريل ١٩٣٦ ، ٣٠ ابريل ١٩٣٦ ، أول مايو ١٩٣٦ ــ الصحف اليومية الصادرة فى تلك الأيام الأمر الذى سبب لى أزمة مالية تأثرت بها وجبات الغداء ، والعشاء لبضعة أيام .

والغريب أننى لازلت محتفظا بأعداد الأهرام الصادرة فى تلك الأيام الثلاثة وقد جللها السواد .

كان مانشيت الصفحة الأولى فى اليوم الأول : (٢٩ ابريل)
« مات الملك ليحى الملك » .

مع صورتين كبيرتين للملك الراحل فؤاد وللملك الجديد فاروق مع أبيات لعبد الله عفيفى شاعر الملك يقول فيها :

هل يعلمون على من نكس العلم	هذا بناء الحمى والملك ينهدم
فؤاد أين ؟ ومصر غير آمنة	الريح عاتية والموج ملتطم
فؤاد ؟ هل وقفة فالشعب مضطرم	ومصر تبكى مناها والدموع دم
أحالها الحزن أشلاء ممزقة	جسم بغير فؤاد كيف ينتظم ؟
ليس المصاب مصابا انه ضرم	موجع فى نواحى القلب محتدم
فؤاد لا الصبر يأسو جراح فاجعتى	ولا تنهنهه من أحزانى الكلم
قد كنت وحى يراعى حين أشرعه	فالآن بعد بعدك لا شعر ولا قلم

وكانت المانشتات فى اليوم الثانى (٣٠ أبريل) التى ملأت الصفحة الأولى : من الأهرام : جثمان الملك فؤاد الأول .

الاحتفال بنقله من قصر عابدين .

الجماهير المحتشدة على جوانب الطرقات .

نظام سير الموكب .

نائب جلالة الملك فاروق فى تشييع الجنازة .

وصول الجثمان الى قصر عابدين واستقباله .

وضعه فى بهو كبير .

الصلاة على الفقيد العظيم .

وفى الصفحة الأولى أيضا من الأهرام .

نداء من محمد على علوبة باشا وزير المعارف الى طلبة المدارس .

وقد نعى الوزير فى ندائه الى أبنائه الطلبة الملك أحمد فؤاد وطلب منهم فى نهاية النداء أن يقفوا صامتين خاشعين على جانبى الطريق من

الساعة الثامنة صباحا وأن يعاونوا رجال النظام على حفظه واستتبابه وأن يكونوا عونا للأمة والحكومة فى كارثتها الشاملة وحزنها العميق .

وكانت مانشتات اليوم الثالث (أول مايو) أمة تشيع ملكا مئات الآلاف من قصر عابدين الى مسجد الرفاعى يحيون الملك الراحل خاشعين متأثرين » . وقد أفردت الأهرام صفحتها الأولى وصفحتها الأخيرة وصفحتين فى الداخل لأخبار وصور الجنازة .

وخصصت صفحتان لتعازى ملوك ورؤساء الدول فى الملك الراحل وتأبين العظماء والكتاب والصحف الأجنبية للملك فؤاد وكذلك لتهانى الملوك ورؤساء الدول للملك فاروق الأول .

وقد درست فيما بعد حياة الملك فؤاد فلم أجدها ـ ككل حياة فى هذا العالم ـ شرا كلها فلا أحد يمكن مثلا أن ينسى للأمير أحمد فؤاد دوره فى انشاء الجامعة الأهلية .

ولا أحد يمكن أن ينسى له بعض مواقفه خاصة عندما اختلف مع سعد زغلول حول صاحب الحق فى تعيين خمسى أعضاء مجلس الشيوخ هل هو الملك أم الحكومة لأن الملك طبقا للمادة ٤٨ من الدستور يتولى سلطته بواسطة وزرائه .

قبل الملك أحمد فؤاد الاحتكام الى البارون فان دون دوش النائب العام لدى المحاكم المختلطة وقتئذ ثم قبل فى النهاية الحكم الذى قضى به فان دون دوش وهو أن تعيين أعضاء مجلس الشيوخ يجب أن يكون بناء على ما يعرضه مجلس الوزراء .

واذا كنا لعادات فرعونية موروثة قد اعتدنا أن نهيل التراب على الماضى وننسى أو نتناسى الأعمال العظيمة التى قام بها بعض الحكام وننسبها الى من يتولون الحكم بعدهم فاننا لايمكن أبدا أن ننسى لأحمد فؤاد ماقدم من أعمال طيبة .

واذا كان حزننا وقتذاك على أحمد فؤاد لم يكن عميقا فان ترحيبنا بفاروق كان وقتئذ زائدا عن الحد خاصة وأنه كان فى سن الكثيرين منا .

وكنا قد انجذبنا اليه بحق وكان وقتئذ ما يجذبنا اليه : ابتسامته الحلوة ، شبابه الغض ، الدعاية التى لازمته وواكبته وكانت ذكية للغاية .

وأقولها بصدق ان على ماهر باشا وكان وقتئـــذ رئيسا للوزارة قد لعب أخطر الأدوار فى تقبل الشعب لفاروق وترحيبه به فهو الذى أعلن وفاة الملك فؤاد ٠

وهو الذى تولى فى نفس الوقت المناداة « بحضرة صــاحب الجلالة الملك الصالح فاروق الأول ملكا على مصر » ٠

وهو الذى أعلن باسم الملك الجديد تنازله عن ثلث مخصصاته ٠

***

وهو الذى أخرج سيناريو عودة الملك فاروق من لندن حيث كان يتلقى العلم هناك وهو الذى ـ مثلا ـ أذاع الرســالة التى تلقاها من فاروق وفى ٣٠ ابريل ١٩٣٦ ردا على الرسالة التى كان قد بعث بهـا اليه على ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء والتى أكد فيها فاروق على أنه يشعر تمام الشعور بجلال المهمة التى تقع على مسئوليته ٠

« ولكننى أثق بأنى سأستطيع أن أعتمد على ولاء أمتى العزيزة التى نشأت على حبها وربانى المغفور له والدى على الشعور بواجبى نحوها ٠

وسأقف قوتى وجهود حيــاتى مترسما فى ذلك خطواته الحكيمة على أن تتبوأ بلادى العظيمة المكان الذى هى له أهل » ٠

وكان مجلس الوزراء أيضا قد بعث ببرقيــة تعزية أخرى الى الملك فاروق بوصفه وليا للعهد جاء فيها : أرجو من سموكم الملـــكى التفضل بقبول عزائى أنا وزملائى وحزننا العميق للخسارة الفـــادحة التى ألمت بسموكم بفقد جلالة والدكم الحبيب الذى تبكيه مصر بأسرها وتحفظ لعمله المجيد أثرا خالدا لا ينسى » ٠

***

وكان مجلس الوزراء أيضا قد بعث ببرقية أخرى الى الملك فاروق باسمه وباسم زملائه الوزراء مهنئين له بالعرش متمنين عهدا مجيدا ورفاهية للشعب « وانا فى هذا نتضامن مع الأمة بأسرها التى تحيى بابتهاج تبوأ جلالتكم عرش مصر » ٠

وكان فاروق الأول عاشر حاكم تولى أمر مصر من أسرة محمد على ٠

وقد حكم مصر محمد على من ١٨٠٥ الى ١٨٤٨ وابراهيم باشا من يونيو الى نوفمبر ١٨٤٨ ٠

وعباس باشا الأول حكم مصر من ١٨٤٨ الى ١٨٥٤ ٠

وتلاه سعيد باشا من ١٨٥٤ الى ١٨٦٣ ٠

وبعد ســـعيد باشا تولى الحكم اسماعيل باشا من ١٨٦٣ حتى ١٨٧٩ ثم محمد توفيق باشا ابن اسماعيل من ١٨٧٩ حتى ١٨٨٢ ٠

وتولى عباس حلمي باشا الحـكم من ١٨٩٢ وأقصى عن الحـكم فى ١٩١٤ وتلاه حسين كامل من ١٩١٤ حتى ١٩١٧ الى أن تولى الملك فؤاد الحكم سنة ١٩١٧ حتى ١٩٣٦ ٠ وبعد فؤاد كان فاروق ٠

★★★

وأقرر أننا أحببنا فاروق حبا جما منذ اليوم الأول الذى نودى به ملكا على مصر لا بل قد أحببناه منذ أن ظهر لأول مرة فى ٧ أبريل ١٩٣٢ فى حفلة رسمية بأرض النادى الأهلى بالجزيرة فى حفلة المرشدات التى اقيمت برعاية والده ٠

ومما أذكر أن جريدة الأهرام نشرت بتاريخ ٢٩ ابريل ١٩٣٦ وهى تتحدث عن الملك فاروق نبذة جاء فيها : نشأ سموه على اتقان اللغة العربية التى يتكلم بها بلسان فصيح صحيح واللغتين الانجليزية والفرنسية ، ويتحدث بهما كأبنائهما ومن نعمة الله تعالى على هذا البلد الآمن أن صور سموه فى أجمل صورة وجعله على خلق عظيم وحبب الى شخصه الكريم كل من رأى شخصه أو صـورته وســموه يتمتع بذاكرة قوية وحافظة يقظة وقريحة نفاذة وذكاء واسع وطلعة مهيبة فى تواضع وديمقراطية » ٠

★★★

وربما كانت معاهدة ١٩٣٦ أول مسألة أوليتها اهتمامى الخاص ورغم صغر سنى كنت أقرأ كل ما يكتب عنها وكنت أحرص على حضور أية ندوة أو أى اجتماع يتعلق بمشروع تلك المعاهدة ٠

وعندما كانت ميزانيتى لاتسمح لى بشراء كل الصحف والمجلات كنت أذهب الى دار الكتب لكى أطلع على الصحف التى لايتيسر لى شراؤها أو التى لاتوجد عند أصـدقائى ومعارفى ولكى أنقـل بعض ما يعجبنى أو لا يعجبنى مما يكتب عن ذلك المشروع ٠

ومن الوقائع التى لاتزال محفورة فى ذهنى وقلبى اننى ذات يوم قرأت فى جريدة الأهرام ان الأستاذ عبد الرحمن الرافعى أعد كتيبا اسمه « المعاهدة أهى استقلال أم حماية ؟ » ٠

وأنه يبعث بذلك الكتيب الى من يطلبه مجانا ٠

كتبت الى الأستاذ عبد الرحمن الرافعي على عنوانه بمكتبه بشارع عدلى باشا طالبا أن يرسل الى ذلك الكتيب ولم يكن الرجـل وفاء منـه لمبدئه الوطنى قد طلب ممن يريد الحصول على كتيبه أن يبعث له بقيمة البريد التى يتطلبها ارسال الكتيب وانما كان هو نفسه ـ عبد الرحمن الرافعى ـ الذى يدفع من جيبه الخاص قيمة البريد بالاضافة الى ما أنفقه فى طبع الكتاب ونشره ٠

وفوجئت به يبعث بالكتاب الى مدرستى ٠

واذا بناظر مدرستى يبعث فى طلبى ويسألنى : هل سبق لك أن طلبت هذا الكتيب من مؤلفه ؟ فأجبته : نعم وماذا فى ذلك ؟ ٠

ذلك ان الكتاب يوزع على من يطلبه ٠

ورفض ناظر مدرستى أن يعطينى الكتيب وانما سمح لى بقراءته ، قراءته فقط فى أوقات الفسحة بين الدروس ٠

كم كان يلذ لى عندما يدق الجرس منبها كل التلاميذ للنزول الى فناء المدرسة ان أتجه أنا شأنى شـأن المدرسين الى غرفة الناظر حيث يعطينى الكتيب ويطلب منى أن أنتحى جانبا لأقرأها الى أن يدق الجرس ،

وتكررت تلك العملية يومين أو ثلاثة الى أن أنقذنى مدرس اللغـة العربية وكان أديبا وكانت له الشجاعة فى أن يعلن انتماءه الى حزب الأحرار الدستورين وكان ذلك يدل على جرأة كبيرة فاعلان أحد المدرسين انتماءه الى حزب معارض يعنى استعداده للنقل من مدرسـة الى أخرى كنوع من أنواع التشفى والانتقام ٠

كان ذلك المدرس يحبنى ويدفع الى باستمرار بالعديد من الكتب الأدبية وخاصة كتب المنفلوطى لكى أقرأها وأردها اليه بعد انتهـائى من قراءتهـا ٠

أنقـذنى مدرسى هذا من هـذه « المرمطة » ووعدنى بأن يعطينى نسخة من هذا الكتيب حتى لا أحرم نفسى من الفسحة ٠

على أن ناظر المدرسة لم ينس لى هذه الخطيئة فقد كان من حزب الحكومة وكان متحمسا تماما له فانتهز فرصة اشتراكى فى احدى المظاهرات الصبيانية ففصلنى من المدرسة الى أن يحضر والدى ويقـوم كل صباح بتسليمى الى المدرسة ويجىء فى آخر اليوم المدرسى لكى يتسلمنى من المدرسة ٠

وكان ذلك تعذيبا لى ولوالدى اذ كان عليه أن يترك أرضه ويجىء الى البندر ليعيش فيه ــ وهو الفلاح ــ مع ابنه ·

وكان الأمر تعذيبا لى اذ كنت وحدى التلميذ الذى يسلمه والده ويتسلمه أيضا ولكننا ــ والدى وأنا ــ قبلنا عملية التعذيب تلك على مضض الى أن أنقذنى منها أحد المدرسين الذى كتب تعهدا خاصا بأن يقوم هو (المدرس) بتسليمى لناظر المدرسة كل صباح ويقوم بتسلمى هو شخصيا فى نهاية اليوم المدرسى ·

وقد قبل ناظر المدرسة ذلك الأمر على مضض بعد أن تدخل بعض المدرسين الآخرين قائلين للناظر : يا راجل حرام عليك خلى الراجل يروح يشوف زراعته ·

وكان بعض زملائى يسخرون منى لأننى وحدى الذى وقع عليه هذا العقاب الفريد من نوعه ·

★★★

وكان الحزب الوطنى ومصر الفتاة يعارضان معاهدة ١٩٣٦ معارضة شديدة ·

وكانا يعقدان الاجتماعات فى كثير من أنحاء البلاد ·

وكانت قوات البوليس تطارد الذين يشتركون فى تلك الاجتماعات ·

وكنا نقوم بتوزيع المنشورات التى كان يكتبها ويطبعها بعض قيادات الحزب الوطنى وبعض قيادات مصر الفتاة ·

وفى بعض الحالات كانت تنشب المعارك بين لابسى القمصان الزرقاء (الوفدية) المؤيدة للمعاهدة وبين لابسى القمصان الخضراء (مصر الفتاة) المعارضة لتلك المعاهدة ·

وكنا نحن أبناء الحزب الوطنى ــ ولم نكن نزيد على ثلاثة أو أربعة صبيان قمت أنا بتجنيدهم ــ ننضم تلقائيا الى مصر الفتاة ·

وكم كنا نسعد عندما نقرأ فى الصحف معارضة حافظ رمضان ، وعبد الرحمن الرافعى ومحمد محمود جلال وفكرى أباظة فى مجلسى الشيوخ والنواب لمعاهدة ١٩٣٦ ·

وكانت سعادتنا بالغة عندما انضم الى معارضى تلك المعاهدة

بعض المستقلين بل وبعض قيادات من حزب الأحرار الدستورين وان لم تكن معارضتهم صريحة وواضحة ٠

وقد علق بذهني رغم مرور زمن طويل العبارات التى ختم بها د٠ محمد حسين هيكل خطبته فى مجلس الشيوخ حول المعاهدة فهى ـ أى المعاهدة ـ د٠ هيكل ـ صورة محورة من مشروع ملنر لا تحقق الاستقلال بل لا تصل بمصر الى مركز الدومنيون ويجب أن يصوت كل عضو فى مجلس الشيوخ عليها عن علم بحقيقة مداها فمن أراد الاستقلال أو نظ م كنظام الدومنيون فليرفضها ومن أراد خطوة فى سبيل الاستقلال فليقبلها » ٠

ومن التقاليد الصحفية الجيدة التى شدت انتباهنا ان المصور وكان الاستاذ فكرى أباظة رئيسا لتحريره ـ كان ينشر مقالات للأستاذ شكرى زيدان تأييدا للمعاهدة بينما ينشر المصور مقالات للأستاذ فكرى أباظة رئيس التحرير معارضة لتلك المعاهدة ٠

وهكذا كان يتم نشر الرأى والرأى الآخر فى صحيفة واحدة يرأس تحريرها أبرز الكتاب المعارضين ٠

***

هذا وقد وافق مجلس النواب على مشروع القانون الخاص بالمعاهدة بجلسة ١٤ نوفمبر ١٩٣٦ بأغلبية ٢٠٢ صوتا ومعارضة ١١ صوتا ٠

ووافق على نفس مشروع القانون مجلس الشيوخ بجلسة ١٨ نوفمبر ١٩٣٦ أى بعد أربعة أيام فقط ١٠٩ أصوات ومعارضة سبعة أصوات ٠

وقد قرر مجلس الوزراء فى ٢٧ ديسمبر ١٩٣٦ اعتبار يوم ٢٦ أغسطس من كل عام عيدا للاستقلال ٠

وقد ألغى ذلك القرار فى عهد وزارة محمد محمود باشا (الثانية) حيث تم استبعاد يوم ٢٦ أغسطس من الأعياد الوطنية وأذكر أننا ارتدينا الكرافتات السوداء يوم توقيع تلك المعاهدة على أساس أن هذا اليوم من أتعس أيام مصر ٠

وكان البوليس يطاردنا عندما كان يجدنا قد ارتدينا تلك الكرافتات ٠

والطريف أن البوليس قبض على بعض الشباب بدعوى أنهم يرتدون الكرافتات السوداء حدادا على توقيع المعاهدة ثم ظهر أن بعضهم

لم يكن يرتديها لنفس السبب وانما كان يرتديهـا لأسباب خاصة بهم كوفاة بعض أقاربهم ٠

***

والجدير بالذكر أنه بعد توقيع تلك المعاهدة استفحل أمر القمصان الزرقاء التي كانت في الأصل تستهدف النهوض بالروح الرياضية في الشباب ثم اصطبغت فيما بعد بالصفة الحزبية كما صارت فيما بعد أيضا أداة لارهاب الخصوم السياسيين وارهاب من يرتدون أقمصة مختلفة كالقمصان الخضراء والقمصان البنى التي كان بعض شباب الحزب الوطني قد بدأ يرتديها وكانت فرق الحزب الوطني تسمى البازى وكان حافظ رمضان باشا يولى هذه الفرق أهمية بالغة ٠ وكان ينظم مؤتمرات ورحلات في منطقة الهرم لهـذه الفرق ولكن عدد الذين انضموا الى هذه الفرق كان ضئيلا للغاية اذا قورن بعدد من يرتدون القمصان الزرقاء من شباب الوفد والذين يرتدون القمصان الخضراء من شباب مصر الفتاة ٠

وأذكر أنني ارتديت يوما واحدا القميص الأزرق وكنت طفلا صغيرا لأن لونه كان لون الجلاليب الزرقاء التي يرتديها أهلنا في القرية ٠

ولست أدرى أكان اختيار الوفد اللون الأزرق ان زعيم الوفد سعد زغلول قد وصفه البريطانيون وخاصة بعض كتاب صحيفة التيمس بأنه زعيم أصحاب الجلاليب الزرقاء اشارة الى الفلاحين المصريين الذين يرتدون الجلاليب الزرقاء التي تتناسب مع مهنة الفلاحة والتي لا تناسبها مثلا الجلاليب البيضاء أم لا ؟ ٠

ومما أذكره وأنا هنا أسجل ذكريات قديمة أن أصحاب القمصان الزرقاء كانوا يتشاجرون مع أصحاب القمصان الخضراء كما أن بعض لابسي القمصان الزرقاء كانوا يتعاركون فيما بينهم ٠

وقد اندست مجموعات كثيرة أساءت الى القمصان الزرقاء نظرا لكثرة عددهم ولعدم وجود « كونترول » على الانضمام الى تلك المجموعات اذ كان يكفى للانضمام الى القمصان الزرقاء أن يرتدى الراغب في الانضمام الى تلك الفرق القميص الأزرق ٠

هذا بعكس القمصان الخضراء التي كانت قليلة لأنها معارضـة للحكومة ٠

وكانت تتحمل فى الغالب الكثير من أنواع الاضطهاد فلا يقبل على تلك القمصان الخضراء الا القلة النادرة التى هى على أتم الاستعداد للتضحية ·

ولذلك كان من الصعب أن يندس بينهم عناصر غريبة لاتؤمن بأهمية الكفاح السياسى ·

ومما كان يعزز القمصان الزرقاء أن النحاس باشا كان يحضر ـ والدكتور محمد بلال زعيم تلك الفرق ـ حفلاتهم الخاصة وكان يستعرض فى احتفالات رسمية وحزبية هذه الفرق ·

وقد أقيم فى ٢١ يوليو ١٩٣٧ مؤتمر للقمصان الزرقاء أقامته القيادة العامة بالقاهرة حضره جميع قواد الفرق فى الأقاليم واشترك فى اجتماعاته طائفة من رجال العلم والأدب وقد ألقى الأستاذ محمد فريد أبو حديد ـ فى هذا المؤتمر كلمة احتفظت بها لغرابتها اذ قال انى لأشعر فى هذه اللحظة بشىء كثير من شعور المحارب القديم اذ أطالع الكتائب المتحفزة وأرى امتلاءها بالقوة والحماسة واستعدادها للذود والدفاع وأعجب بما يلوح عليها من امارات البطولة والشهامة فتحفزنى الذكرى الى التمنى والتغنى بقول القائل ·

[ياليتنى فيها جذع أخب فيها وأضع]

***

وقد تمنى الأستاذ محمد فريد أبو حديد ان تشمل هذه الفرق بعد قليل كل صفوف الشباب على اختلاف الطبقات فان المثل الأعلى للحكم الحديث الديمقراطى هو أن يتساوى الجميع لاتعلو طبقة على طبقة ولا تتكبر فئة على فئة أخرى فقد مضى الزمن الذى كان من الممكن فيه أن يحكم هذا الشباب بدون رغبته أو يساق كارها لمصلحة طائفة منه ·

وانا لنرجو أن تنضوى الآلاف المؤلفة من الأمة تحت لواء هذه الفرق بل تصير الملايين من الشباب منضوية تحت هذا اللواء فهذا وحده يطمئن الشعب الى مصائره عندما يرى أن شبابه قد صار الشباب الصالح القوى الذى يعتد به الوطن » ·

***

وكانت فرق القمصان الزرق قد تعرضت من بدايتها لحملات عنيفة من الخارج ·

أذكر – مثلا – أن صحيفة المانشستر جارديان كبرى صحف الأحرار في انجلترا قالت في أوائل ديسمبر ١٩٣٦ ان القمصان الزرقاء ستكون عقبة في سبيل الغاء الامتيازات الأجنبية ٠

وكان من بين ما قالته أيضا ان المفاوضات بين النحاس باشا وبين الدول ذات الامتيازات الأجنبية في مصر سوف تكون شاقة بسبب القمصان الزرقاء ٠

وكان الوفد قد تنبه الى خطورة انشاء تلك الفرق فأصدر قرارا بانشاء مجلس أعلى لاعادة تنظيم تلك الفرق وتحديد أهدافها التي تمثلت في تكوين شباب مصرى له خلق قويم وروح رياضية ونظامية يعرف ما له وما عليه من واجبات نحو وطنه وتعويد الشباب الطاعة والنظام والاحتمال والاعتماد على النفس وتثقيفه بما يعوزه من المعارف الاجتماعية : وقد أصدر الوفد في ١٩٣٦/١٢/٥ قرارا « يحظر على الفرق حمل العصى أو الأسلحة من أى نوع كانت وألا يقل سن من ينضم الى تلك الفرقة عن عشر سنوات ولا يزيد على ٣٠ سنة » ٠

وكان المجلس الأعلى التنفيذى لتلك الفرق الذى شكله الوفد يومئذ يتكون من الأميرالاى حافظ صدقى بك وسيد بهنس بك والأستاذ ميخائيل غالى والأستاذ زهير صبرى والأستاذ محمود سليمان غنام ومحمد بلال أفندى ٠

وكان هذا المجلس يتولى ادارة شئون فرق القمصان الزرقاء نيابة عن رئيس الوفد ٠

والجدير بالذكر أن الشك كان قد ساور قيادات الوفد القديمة بسبب انشاء تلك الفرق خشية أن تكون رئاسة الوفد قد شكلتها لزحزحة تلك القيادات أو بعض تلك القيادات عن أماكنها التاريخية ٠

والجدير بالذكر أيضا أن فكرة انشاء القمصان الخضراء قد نبتت في أواخر عام ١٩٣٣ بعد أن مهدت لها صحيفة الصرخة ٠

وقد اتهمت تلك الفرق بانها تقليد للنظام الفاشى في ايطاليا (القمصان السوداء) أو أنها تقليد للنظام النازى في ألمانيا وكانت جمعية مصر الفتاة التى أنشأت القمصان الخضراء قد اتهمت بأنها تمول من دولة أجنبية ٠

وفى ٢٢ يونيو ١٩٣٦ وفى مجلس النواب قال مصطفى النحاس

باشا رئيس مجلس الوزراء وقتئذ انه ثبت لوزارة الداخلية أن جمعية مصر الفتاة تعمل لحساب دولة أجنبية ضد مصلحة مصر .

وكان مصطفى النحاس يعنى بتلك الدولة ايطاليا .

***

وكانت فكرة القمصان الزرقاء سابقة على فكرة القمصان الخضراء ببضعة أشهر حيث فكر الوفد في تشكيل لجان الشباب الوفدى في المدن والقرى وقد عهد بتلك المهمة الى النقراشى باشا وهو رجل تنظيمى من الدرجة الأولى .

وكانت فرقة القمصان الخضراء قد انتشرت بين المثقفين وكانت تلقى التاييد من الحزب الوطنى ومن بعض الشخصيات المستقلة مثل محمد على علوبة باشا .

***

وقد قويت شوكة القمصان الزرقاء بعد أن تالفت وزارة النحاس باشا الثالثة فى ١٠ مايو ١٩٣٦ ثم ازدادت تلك الفرق خطورة وخطرا بعد أن شكل النحاس باشا وزارته الرابعة فى ٣ أغسطس ١٩٣٧ وبعد اخراج النقراشى باشا من الوزارة ومعه ثلاثة وزراء آخرون هم محمد صفوت باشا ومحمود غالب باشا وعلى فهمى باشا .

***

وليس هنا مجال الحديث عن القمصان الزرقاء أو الخضراء بالتفصيل فنحن لم نشر اليها هنا الا لأنها ذات أثر ان سلبا وان ايجابا فى نفوس كثير من أبناء جيلنا سواء الذين انضموا الى القمصان الزرقاء أو الى القمصان الخضراء أو الذين لم ينضموا الى هذه الفرق أو تلك .

***

وقد كنا فى كثير من الحالات نشاهد بعض أفراد من هذه الفرق أو تلك يستخدمون القوة والعنف مع بعض أصحاب المحال للحصول على ما يريدون منهم أو لفرض ضرائب عليهم .

وكثيرا ما كنا نشاهد أفرادا من بعض القمصان الزرقاء تستخدم فى ضرب المعارضين أو فى اسكات أصواتهم .

وما أكثر ما تعرضت بعض صحف المعارضة لهجمات من بعض فرق القمصان الزرقاء .

وقد جاء فى بعض الصحف الأجنبية أن تقريرا بريطانيا (رسميا)

أكد أن نسبة الطلبة فى القمصان الزرقاء لا تزيد على ١٥٪ بينما البقية الباقية من العاطلين والغوغاء مع قلة ضئيلة جدا من العمال والحرفيين .

★★★

وفى النصف الأخير من عام ١٩٣٧ اشتد الصراع بين القمصان الزرقاء والقمصان الخضراء وكانت الأخيرة مؤيدة فى الغالب من السراى وكانت السراى قد بدأت تستعيد الأرض التى كانت قد فقدتها فى السنوات الأخيرة من حكم الملك أحمد فؤاد وكانت الانشقاقات التى حدثت فى صفوف الوفد وأدت الى خروج أو اخراج النقراشى باشا وصحبه سببا فى مضاعفة الهجوم على الوفد .

وكان النقراشى قد اشار فى بعض بياناته الى عصى القمصان الزرقاء التى تهوى على رءوس من لم يؤمنوا بها من الوفديين واخراج البعض منهم جرحى فى عهد الحكم الدستورى الذى ينادى بحماية الحريات (٧ ديسمبر ١٩٣٧) .

وكانت تلك الانشقاقات قد ساهمت فى مضاعفة الحملة على القمصان الزرقاء بالاضافة الى أن القمصان الزرقاء أيضا ، تعرضت لحملة عنيفة للغاية من الأستاذ عبد القادر حمزة صاحب البلاغ – أقوى صحف المعارضة – وقتذاك .

وقد استغل القسم الذى كان أعضاء الفرق يرددونه للوقيعة بين الوفد والعرش وكانت صيغة القسم : أقسم بالله أن أظل مجاهدا لوطنى تحت لواء زعيمى مصطفى النحاس لآخر رمق من حياتى وأن أظل وفيا لذكرى سعد وأن أقاوم بكل قوتى كل خارج على الوطن وأكون بعيدا عما يشوه مبدئى أو يسىء الى هيئتى » .

وكان ابراهيم دسوقى باشا أبرز قيادات الأحرار الدستوريين قد وجه فى ٢٣ أكتوبر فى مجلس النواب استجوابا بشأن القمصان الزرقاء طالب فى نهايته بوضع حد لهذه الفوضى بحل تلك الفرق الحزبية السياسية التى يتنافى وجودها مع النظام الحالى وقيام الحياة النيابية والدستور .

وفى ٩ ديسمبر ١٩٣٧ تقدم نائب آخر – هو مدنى حزين – باستجواب حول القمصان الزرقاء أيضا مطالبا بحلها .

واستمرت البلاغ فى حملتها على القمصان الزرقاء مستغلة وقوع بعض الحوادث فى بنى سويف مؤكدة على أن القسم الذى يقسمه أعضاء تلك الفرق نوع من الولاء الشخصى الذى حول هؤلاء الى اداة لحكم الارهاب

كما أشارت البلاغ أيضا الى استخدام تلك الفرق لارهاب نواب الشعب وقد طالبت البلاغ بحلها فورا ٠

وقد قالت البلاغ أيضا أنه عندما التقى مصطفى النحاس بالملك فى قصر المنتزه فى ٢٦ أكتوبر ١٩٣٧ سلمه الملك بحثا قانونيا يؤكد أن وجود هذه الفرق ينافى الدستور ٠

وكان الملك فاروق قبـل ذلك قد رفض التوقيع على قانون بزيادة الاعتمادات المخصصة للمصاريف السرية بدعوى أن معظم هذه المصاريف ينفق على القمصان الزرقاء ٠

وأذكر أن الأستاذ أحمد حسـين قد دافع دفاعا حارا عن القمصان الخضراء مؤكدا أن الأخذ بفكرتها ليس تقليـدا لزيد أو عبيد من النـاس فان توحيد الزى وتنظيم المجاهدين كان دائما قاعدة من قواعد الجهـاد فالعسكرية فى كل زمان ومكان تستمد قوتها من توحيد الزى ومن النظام لأن فى توحيد الزى افناء لشخصية الفرد فى الجماعة وهو ـ توحيد الزى ـ مصدر كل القوى وكل التطورات ويخطىء الذى يتخيل أن نظام الأقمصة نظام مستحدث ابتدعه موسولينى أو هتـلر بل ان تاريخ أوربا الحديث ملىء بهذه الحركات الوطنية التى اتخذت لونا من الثياب شعارا لها بل أن الاسلام منذ أيامه الأولى اتخذ شعارا له اللون الأخضر ٠

وهؤلاء الذين يطالعون سيرة الرسول يعرفون كيف أنه عندما توجه لفتح مكة كانت تحيـط به كتيبة من المجاهدين ترتدى اللون الأخضر وتسميها كتب السيرة بالكتيبة الخضراء ٠

وقد بقى اللون الأخضر منذ ذلك التاريخ حتى اليوم رمزا للانتساب للنبى صلى الله عليه وسلم ٠

ولعل أكثر الحركات شبها بحركة الاقمصة فى تاريخ الاسلام تلك التى قام بها أبو مسلم الخراسانى فى أثناء دعايته للدولة العباسية فقد اتخذ السواد شعارا لهذه الحركة ٠

وقد ظل هذا اللون بعد ذلك للخلفاء العباسيين رمزا وذكرى للجهاد الأول فتوحيد الزى للمجاهدين واتخاذ لون من الألوان شعارا لحركة من الحركات ليس هو بضاعة أجنبية من ابتكار لموسولينى أو هتلر أو غيرهما ولكنها فكرة شرقية اسلامية ولعلى لا أعدو الحقيقة اذا ما قلت انها فكرة عالمية انسانية استفاد بها المجاهدون فى كل مكان وفى كل زمان ٠

★★★

وعلى أية حال فان مرسوما ملكيا بحل القمصان الملونة صدر فى ١١ مارس ١٩٣٨ وفي وزارة محمد محمود باشا وكانت القمصان الزرقاء قد تلاشت مع ذهاب السلطة عن الوفد واقالة حكومته فى ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧

ومن الحوادث التى أثرت فينا وكنا نتابع اخبارها بشغف فى الصحف ما وقع فى أواخر مايو ١٩٣٦ فى ملهى البوسفور ·

وان كنا حقيقة لم نعرف معنى ملهى اذ لم يسبق لنا أن دخلنا أى ملهى ولم يسبق ابدا ان استمعنا الى بعض زبائنه ·

عصابة خطيرة اسمها عصابة فؤاد الشامى ·

وفؤاد الشامى هذا نشأ كما قيل وقتذاك فى عائلة متوسطة الحال تقطن حى القبيسى بالقاهرة من أم وأربعة أشقاء أكبرهم يشتغل بالتجارة ويتولى الانفاق على بقية أفراد الأسرة ·

كان فؤاد واحدا من الأشقاء الأربعة فسد عندما كان فى الرابعة عشرة من عمره ولم يعد له من عمل الا الاعتداء على أمه للحصول منها على ما ينفقه على ملذاته وشهواته ·

طرده أخوه الأكبر من البيت وتشرد تبعا لذلك فى الشوارع والطرقات والتقطه زبائن السوء ·

واقتدى مختار بأخيه فؤاد فطرده أيضا الأخ الأكبر من البيت ·

ولأن فؤاد كان يتمتع بقوة بدنية خارقة فقد أنشأ ناديا لرفع الأثقال ثم تمكن من العمل فى احدى شركات السجائر ولكنه سرعان ما طرد منها لسوء سلوكه وكثرة اعتداءاته على زملائه ·

راح فؤاد يجمع حوله بعض العاطلين عن العمل الذين اعتادوا لعب القمار واتخذوا من أحد مقاهى حى الظاهر مستقرا لهم ·

وكان فؤاد وعصابته ينصيدون المارة ويسلبونهم أموالهم ولم يطل به الأمر حتى التحق بأحد أندية القمار بوظيفة فتوة لحماية النادى ·

وكانت أندية القمار تستخدم الفتوات لحماية تلك الأندية من زبائنها ومن الجمهور ·

وصادرت الحكومة هذا النادى وبالتالى لم يستطع صاحبه أن يدفع له مرتبه فكان جزاؤه الاعتداء عليه من الفتوة فؤاد الشامى ·

وخشى سكان حى الظاهر نفوذ فؤاد الشامى الذى كان قد بدأ يقوى ويزداد ·

ونجح فؤاد فى تكوين عصابة ممن هم على شاكلته ·

وبدأت العصابة فى فرض اتاوات على اصحاب المتاجر فى الحى وكذلك على أصحاب المقاهى ٠

وعندما امتنع بعض هؤلاء عن دفع الاتاوة كان نصيبهم الضرب وتحطيم محلاتهم عقوبة لهم على التجرؤ على عدم دفع الاتاوة ٠

وكانت بعض أقسام القاهرة تخضع لنفوذ الفتوات وكانت القاهرة قد قسمت بين بعض أولئك الفتوات حتى لا يعتدى فتوة على آخر وكان حى الظاهر من نصيب فؤاد الشامى لكن الغرور سيطر على فؤاد الشامى فظن أنه يستطيع أن يمد نفوذه على بقية أنحاء العاصمة فوسع نفوذه من حى الظاهر الى شارع عماد الدين ـ شارع الفن ٠

وبدأ يفرض اتاوات على ملاهى وصالات عماد الدين ٠

وكان اذا وجد فتوة غيره باحدى الصالات عمد الى مصادقته ثم لفق له حادثا ٠

أهدى ـ كما ثبت فى التحقيق ـ الى أحدهم بدلة فلما لبسها فوجىء برجال البوليس يقبضون على الفتوة لأن فؤاد الشامى كان قد أبلغ البوليس ضده بسرقة ملابسه ٠

وقد قبض على ذلك الفتوة متلبسا بالسرقة وكان السجن من نصيبه ٠

وكان الحادث من بين الأسباب التى ضاعفت من نفوذ فؤاد الشامى اذ اضطر كثير من الفتوات الى اعلان طاعتهم وخضوعهم لامرته ٠٠ وابتكر فؤاد الشامى طريقة لم يسبقه اليها أحد الا فى شيكاغو وهو أنه عندما يعشق احدى الراقصات أحد الرجال مثلا يسارع بفرض ضريبة على الراقصة وعلى عشيقها لحمايتهما فاذا امتنعا أو امتنع أحدهما عن دفع الضريبة بادر هو أو أحد أتباعه الى تأديبه وتهذيبه ٠

وكانت عصابة الشامى قد نمت وازدهرت وأصبحت نموذجا للفتوات فما يكاد صاحب مقهى يمتنع عن دفع الضريبة حتى تصبح مقهاه أثرا بعد عين ٠

ولم يكن البوليس ـ لمهارة فؤاد الشامى وزمرته وقدرتهم جميعا على التخلص من أى اتهام والخروج منه كما تخرج الشعرة من العجين كما يقولون ـ يستطيع أن يثبت أية تهمة على فؤاد أو على أحد من عصابته وقد تولى أحد رجال فؤاد الشامى قتل امتثال فوزى التى كانت تعمل فى ملهى البوسفور ٠

واهتم رئيس الوزراء بالحادث وانتقل اليه بنفسه وتم القبض على فؤاد الشامى وبدأت دولة فؤاد الشامى تنهار ٠

وأبدى ثلاثة من الصحفيين وجهــات نظرهم فى الحادث واعترف بعضهم بأن سبق لأحدهم أن تعرض لارهاب الشامى وعصابته ·

وتجرأ كثيرون فأبلغوا عن الحوادث التى وقعت فى عماد الدين من عصابة فؤاد الشامى بعد أن كانوا فى الماضى لا يقدرون على الابلاغ عنها ·

وشهد بعض مستخدمى محل البوسفور وبعضهم قد أمضى سنوات فى خدمة المحل بأن فؤاد الشامى كان يتقاضى ضريبــة من السيدة علية فوزى عندما كانت تعمل فى الملهى هى وفرقتها وأن المبالغ التى كانوا يدفعونها لفؤاد الشامى كانت تقيد باسمه فى دفاتر المحل ·

وقالت السيدة مارى منصور التى كانت تشترك وامتثال فوزى فى ادارة الصالة أنها لا تستطيع الادلاء بأقوالها للنيابة لأنها تخشى على حياتها وأن شريكتها قد اغتيلت لأن رجال البوليس قد تهاونوا فى حمايتها بعد أن أبلغتهم بتهديدات فؤاد الشامى ولأن رجال البوليس لا يواجهون فؤاد الشامى اما خوفا منه واما لأنه يدفع لهم ·

ولذلك ذهبت امتثال ضحية رجال البوليس ·

***

وقد بذل وكيل النيابة جهدا جبارا لدى السيدة مارى منصــور ليقنعها بأنها فى حماية رجال البوليس والنيابة وأن الحكومة لم ولن تسمح لأحد بأن يعود الى العبث بالأمن العام ·

وبالرغم من توفير كل الضمانات لمارى منصور الا أنها خرجت بعد أن أدلت بأقوالها أمام النيابة وهى تقول : أنا عارفة انى عليه العوض » ·

وأخيرا بدأ فؤاد الشامى بالاعتراف على نفسه وعلى زملائه بعد أن اعترف أبرز رجاله وهو خليل القصاص أحد المتهمين ·

وقد عدل خليل القصاص عن اعترافاته متهما أحد المخبرين بأنه هو الذى أكرهه على الاعتراف ·

وفى التحقيق ظهر أن العصابة وزعت فى أثنـــاء عملية الاغتيــال كما يلى :

حسن ابراهيم ينفذ الجريمة بالسلاح الذى يجيد استعماله ·

محمد على خليفة وعلى حسن الأخضر وخليل القصاص وعبد الحميد عبد الآخر مهمتهم الجلوس فى الصالة بملابس بلدية لاحداث مشــاجرة ليتمكن القاتل من اتمام جريمته والهرب ، محمــــد حسن يقف عند باب الصالة حتى اذا تمت الجريمة فعليه أن ينقل الخبر الى كمال الحريرى الذى

قام ومعه دراجة لنقل الخبر بسرعة الى زعيم العصابة فؤاد الشامى وشقيقه مختار فى المكان الذى كانا يجلسان فيه غير أن الخطة لم تنفذ بدقة نظرا لارتكاب القاتل جريمته قبل احداث المشاجرة المقصودة .

***

وقد شهد عيسى أفندى مدير صالة بديعة ويوسف عز الدين مدير ملهى البيجو والسيدات أنصاف رشدى وعلية فوزى وحياة صالح بما يعرفونه عن فؤاد الشامى وعصابته .

***

وكنا نتابع يوميا ما تنشره الصحف عن حادث مقتل امتثال فوزى والتحدث مع فؤاد الشامى وعصابته وكذلك كنا نتابع يوميا ما تنشره الصحف عن المحاكمة .

وكانت الصحف كلها تقريبا تنشر وبالتفصيل كل ما يحدث فى المحاكمة من أقوال الشهود واعترافات المجنى عليهم والجناة وأقوال المحامين وممثلى النيابة .

***

وكانت جريمة مقتل امتثال فوزى سببا فى اعتقال أكثر من ٤٠ بلطجيا كانوا يزرعون الفساد فى شوارع القاهرة .

وبالمناسبة كانت معرفتنا بالعصابات ووسائلها فى تهديد المواطنين قليلة بل نادرة .

وأذكر أننى فى قريتى لم أكن أسمع الا عن عصابات تأتى فى الليل فى بعض الأحيان لسرقة بعض المواشى حيث « ينقبون » الجدران ليخرجوا المواشى من ورائها .

ومن بين ما أذكره أن العمدة والمشايخ كانوا يحاولون باستمرار التستر على تلك الحوادث لأن البوليس كان يعتبر تلك الجرائم من أخطر الجرائم وكان حدوثها فى دائرة أى عمدة يقلل من شأنه أمام رجال البوليس والادارة وقد يدعو الى مساءلته رسميا .

***

وكان فى مقدمة الأحداث السياسية التى كان لها أثرها البالغ فى النفس وفى القلب خروج محمود فهمى النقراشى باشا من حزب الوفد .

وبالرغم من أننا لم نكن وفديين بل كنا فى كثير من الأحيان من المعارضين له وخاصة فى الوقت الذى كان يتولى فيه الحكم .

ولم تكن لنا علاقة شخصية أو حزبية بمحمود فهمى النقراشى ولكن

عملية اخراجه أو خروجه من الوفد قد شغلت المجتمع المصرى الى حـــد كبير ٠

أسف كثيرون لخروجه أو اخراجه من الوفد ورأوا فى تلك العملية تصدعا فى صفوف الوفد لابد أن يـكون لهـــا أثرها الخطير على حاضر الوفد ومستقبله ٠

***

ومن بين ما أذكره أن المظاهرات التى كان يسيرها بعض قيــادات الوفد للتنديد بموقف النقراشى من الوفد لم يكن يجد فيها المتظاهرون من هتاف الا قولهم « يسقط النقراشى النزيه » فلقد ظل وصف النزاهة مرتبطا دائما باسم محمود فهمى النقراشى ٠

ولذلك فعندما كانوا يسقطونه فى المظاهرات لم يجدوا ما يقولونه الى جانب السقوط الا النقراشى النزيه ٠

***

وزاد من ارتباط الشعب بمحمود فهمى النقراشى أن النقراشى وهو الرجل الفقير الا من المرتب الذى كان يتقاضاه ومن المعاش القليل الذى كان يحصل عليه عندما لا يكون بالوزارة قد رفض ما عرضه عليه مصطفى النحاس من تعويض عن اقصائه من الوزارة وهو عضوية مجلس ادارة شركة قناة السويس وكانت تلك العضوية تعطى صاحبها دخلا ســنويا ولسنوات طويلة قد تدوم مادامت الحياة يصل الى ثلاثة أو أربعة أضعاف ما يحصل عليه رئيس مجلس الوزراء ٠

وكان رفض محمود فهمى النقراشى لهذه العضوية أكبر دليل على تمسكه بنزاهته واصراره على رفضه الدائم لأى اغراء مهما كانت وسائل الاغراء مثيرة للغاية ٠

***

وكان النقراشى قد اختلف مع الوفد حول تنفيـــذ مشروع خزان أسوان بدون مناقصة ٠

وقد أعلن رأيه هذا كما أنه دعا الى حل فرق القمصان الزرقاء ٠

وقد أصدر النقراشى باشا فى ٧ سبتمبر ١٩٣٧ بيانا حدد فيــه موقفه من كل تلك القضايا وغيرها من القضايا الأخرى الهامة فاذا بالوفد يجتمع فى ١٣ سبتمبر ١٩٣٧ ليقرر أن محمـــود فهمى النقراشى يعتبر منفصلا عن الوفد وكان هذا القرار باجماع الآراء فيما عدا صوت أحمـد ماهر الذى لم يوافق على هذا القرار معلنـــا أنه لا يزال يعتبر النقراشى عضوا فى الوفد ٠

وكان أول رد فعل لفصل النقراشي أنه ــ محمود فهمي النقراشي ــ اتخذ مكتبا سياسيا له في شارع المدابغ يستقبل فيه مؤيديه غير أن بعض أعضاء فرق القمصان الزرقاء قد هاجموا مكتب النقراشي وحطموا أثاثه واعتدوا على المجتمعين به وكانوا جميعا الى وقت قريب جدا من أعمدة الوفد وقياداته ٠

ولم يخرج مع النقراشي من كبار الوفديين الا د٠ أحمد ماهر و د٠ حامد محمود وبعض الشيوخ والنواب الذين شاركوا في تاسيس الهيئة السعدية برئاسة أحمد ماهر وكان محمود فهمي النقراشي نائبا للرئيس ٠

وكانت الصداقة التي تجمع بين النقراشي وأحمد ماهر صداقة نموذجية للغاية ٠

وقد جمعت بين النقراشي وأحمد ماهر الحركة الوطنية التي اكتويا بنارها وكانا فيها من الأمثلة الرائعة للتضحية والفداء ٠

وقد بدأ محمود فهمي النقراشي عمله مدرسا بمدرسة رأس التين الثانوية ٠

ثم التحق بجمعية التضامن الأخوى ٠

وقد ظل النقراشي عضوا في تلك الجمعية الى أن انضم الى الوفد هو وأحمد ماهر وكان من أبرز أعضاء الجمعية في الاسكندرية وقتذاك الحاج رمضان زيان ، سليمان حافظ وحافظ قبودان ٠

وقيل في كواليس تلك الجمعية ان سعد زغلول هو الذى حرض ماهر والنقراشي على التخلص من خصمه محمد سعيد باشا وان ماهر زالنقراشي قد اختارا عريان سعد للقيام بتلك المهمة ٠

وقيل وقيل ٠

***

ومن بين ذكريات النقراشي انه اعتقل لأول مرة في ١٩١٩ عقب اضراب الموظفين وأن السلطات البريطانية أرسلت به وببعض زملائه الى قليوب مصحوبين بعدد كبير من الجنود المسلحين من هنود وبريطانيين ٠

وفي اليوم التالى أوقفت السلطة العسكرية قطار الاكسبريس القادم من العاصمة الى بورسعيد عند وصوله الى محطة قليوب ٠

ودعت النقراشي وصحبه الى ركوب مركبة خاصة بهم في ذلك القطار وقد أقفلت نوافذها وسدت منافذها وذلك تمهيدا لنقلهم الى رفح ٠

وكانت المفاجأة ٠ كما قال النقراشي ٠ ان الذى كان يقود السيارة

التى كانت ستوصلهم الى القطار كان مصريا وأنه عامل من العمال المصريين. ولما عرف قصة النقراشي وزملائه دفع هو مبلغا من المال ومبلغا آخر جمعه من زملائه اشتروا به أفخر السـجاير من كابينة الضباط البريطانيين ليقدموها هدية للنقراشي وزملائه وقد شكر النقراشي وزملاؤه لهذا العامل ورفاقه هذه العواطف الطيبة الرقيقة .

وكانت رفح المكان الذى قررت السلطة ابعاد المعتقلين فيه فأقاموا في خيام نصبت لهم بجوار معسكر الجيش البريطانى .

وسرعان ما اتصل بهم فريق من العمال المصريين عرضـوا عليهم خدمتهم ثم ألحق بهم ـ النقراشي وصحبه ـ دفعة أخرى من المعتقلين الى أن بلغ عددهم عشرين معتقلا .

***

وقد اعتقل النقراشي مرة أخرى فى ثكنات قصر النيل .

***

واعتقل مرة ثالثة فى سجن الأجانب وكان معه فى ذات السجن الدكتور محجوب ثابت .

★ ★ ★

وقد سجن النقراشي للمرة الأخيرة عام ١٩٢٥ فى قضية الاغتيالات السياسية .

وقد استغرق التحقيق معه ومع الدكتور أحمد ماهر وزملائهما أكثر من سنة .

ويقول النقراشي ان الاعتقال أفاده فائدة كبيرة فتمكن من مطالعة صبح الأعشى . كما أنه درس كتابات سبنسر فى فلسفة التربية وكان فى السجن يطالع باستمرار صحيفة التيمس البريطانية .

وأذكر اننى ترددت أكثر من مرة على مكتب النقراشي باشا برفقة بعض المعجبين به واستمعت اليـه وهو يتحـدث عن خلافه واختلافه مع النحاس باشا وكان يذكر الوقائع بكل تفصيلاتها المذهلة .

وكان يعمد الى ذكر التواريخ بدقة يحسد عليها .

وكان الرجل وهو يتحدث عن النحاس دائم الاحترام له والتقدير لشخصيته .

لم أسمع منه كلمة نابية واحدة طوال السـاعتين اللتين قضيتهما مستمعا له .

كان مهذبا للغاية فى كل ما قاله بل كان قلبه يمتلىء مرارة عندما يتذكر الأيام الخوالى التى وقف فيها مصطفى النحاس مدافعا عنه قائلا : « لقد أحببته لأننى وجدت فيه خير خليفة لسعد • وقد خسرت بسبب تأييدى له فى وراثته لزعامة سعد أقرب الناس الى حيث فضلت مصطفى النحاس عليهم • وكانوا يتطلعون الى وراثة سعد ولكننى من ناحية المبدأ وجدت أن صالح الوفد ليس فى اختيار واحد ممن يمتون الى سعد واليه - الى النقراشى - بأقوى الروابط الشخصية •

ولست أعدو الحقيقة اذا ما قلت ان مما جعل الكثيرين يتعاطفون مع النقراشى تلك المعاملة السيئة التى عامل بها بعض الوفديين محمود فهمى النقراشى بعد خروجه أو اخراجه من الوفد ومن بين أولئك الوفديين من خدمهم النقراشى وأتاح لهم فرص التقدم •

ومن بين أولئك بعض الشبان الذين كانوا الى أيام مضت يهتفون باسم النقراشى فأصبحوا بعد خروجه من الوفد يهتفون ضده ويقومون بتكسير أثاث مكتبه •

كل تلك المناظر والمظاهر والصور الغريبة والعجيبة صدمتنى الى حد كبير فما كنت أتصور - وأنا الصبى البالغ - أن يتحول الناس بفارق ٩٠ درجة دون أن يعوا جيدا أنهم بتصرفاتهم الشاذة تلك يسيئون الى أنفسهم أولا وقبل كل شىء ولا يسيئون الى من يهتفون ضدهم أو يقومون باتلاف مكاتبهم أو منازلهم •

★★★

ومن بين ما علق بأذهاننا وقلوبنا بل ما حفظناه ظهرا عن قلب بعض ما قاله فكرى أباظة فى الحفلة التمثيلية الخيرية التى أقامتها جمعية المواساة بالاسكندرية فى ١٩٣٧/١١/١٢ برئاسة محمد فهمى عبد المجيد بك رئيس تلك الجمعية وهو يخاطب الملك وكان فكرى أباظة عضوا فى جمعية أنصار التمثيل وقد جاء فى تلك الكلمة : مولاى •• لأول مرة فى تاريخ حياتى أخطب أمام الملك وأى ملك •

ولقد بلغت سنى الأربعين يا صاحب الجلالة ولم أدر كيف يخطب الخطباء أمام الملوك حتى اذا جاءت هذه الفرصة الذهبية فى حياتى وقيل لى انك ستتكلم أمام الملك ذهبت أستشير وأستفتى : قيل لى اخفض صوتك وحذار حذار أن يرتفع بل أهبط به الى طبقة الهمس ومرتبة الخفوت فمجلس الملوك مجلس رهبة يجب أن تعقد اللسان وتعقل الجنان : قلت لهم : لا اننى أعلن الثورة على قواعد البروتوكول وفى حضرة الملك : نحبه نحبه نحن الرعية ونحن الشعب وصوت الحب صوت عال يرتفع يغمر الملك من جمع نواحيه ويرج المكان رجا •

ولئن كره البروتوكول فحسب القلب أنه يريد وأنه يشاء ·

وقيل لى اخشع وطاطىء الرأس وغض البصر ولا تحدق فى الملك فالملوك لا يواجهون كما يواجه الأنداد قلت لهم : اننى سأحدق وأحدق وأصوب نظرى على من أسر الملايين وقد أتاحت الفرصة أن أكون على بعد أمتار من وجهه الصبوح وصباه الناضـج وطليعته التى توحى بالوفاء وبالفداء ·

دعونا (نتغدى) بالله عليكم فلقد طالما جوعتنا وظمأتنا الوجوه التى لا تبعث الحيوية ولا الدموية ولا الروحانية فاسمحوا لنا ان نقتنص الفرصة وأن نخرج من هذا المكان أحياء ·

اغفر لى يا مولاى هذه الثورة على البروتوكول فأنا أتكلم بوحى القلب وبدافع من سلطان الوجدان ولو تنكرت جلالتك كما تنكر عمر بن الخطاب الفاروق وغدوت أحد أفراد الشعب وأمسيت أحد أفراد الرعية لأحسست كيف تربع مليكك فاروق على ملايين القلوب ولعرفت كيف أصبح مولاى فاروق زعيم الملوك المحبوب » ·

***

ويمضى فكرى أباظة فى النهـاية قائلا : أحببنا الملك لا لأن الدستور يقول لنا من فضلكم أحبوا الملك واخلصوا للملك ولا لأن قانون العقوبات يقول لنا آمركم أن تحبوا الملك وأن تخلصوا للملك ·

ولا لأن التقاليد عودتنا أن نحب الملك وأن نخلص للملك : لا لا : ان الحبر الذى على ورق الدستور يزول وأن أمر قانون العقوبات قد يربط اليد واللسان ولكنه لا يربط الوجدان وأن حكم التقاليد قد ينسخه حكم الجديد ·

ولكن الذى لا يزول ولا ينسخ انما هو الحب الربانى الذى حفره الله سبحانه وتعالى حفرا فى الضلوع والذى طبعه طبعا على صفحات النفوس فامتزج الطبع والحفر بالعظم واللحم والدم وسرى فى الشرايين لتغـــذى الأبدان والأذهان ·

مولاى يا أحب ملوك الدنيا للشعب وللرعية ظفرت من الوقت بأكثر مما أستحق فاستصدر أمركم الكريم بالانسحاب داعيا الله سبحانه وتعالى أن يديم عليك نعمه وتوفيقه فانك تتلقى الوحى من السماء والملوك الملائكة جديرون بكل وفاء وولاء وفداء عاش الملك يحيى الملك » ·

***

وأرجو ألا أتهم بالمبالغة اذا ما قلت ان خطبة فكرى أباظة أمام الملك

ســــواء ما نقلته منها أو ما لم أنقله قد حفظناها وكنا نرددها باســتمرار وان القاء فكرى أباظة كان رائعا للغاية وان كلمانه كانت نابعة من القلب.

***

وأنا أسأل بدورى ماذا يكون موقف أمثالنا من أبناء الريف الذين لا يرتفع مستواهم الثقافى والســياسى عن مســتوى ما تنشره الصحف وما تذيعه الاذاعة اذا هم سمعوا رجلا فى مثل مكانة فكرى أباظة ومركز فكرى أباظة وشعبية فكرى أباظة يقول مثل هذا الكلام فى الملك ؟ أكانوا يتشككون فى كلامه ؟ أكانوا لا يصدقونه ؟ لا أحـــد فى مصر وقتذاك ـ ١٩٣٧ ـ كان لا يحب الملك بل لم يكن فى مصر وقتذاك من يكره الملك اللهم الا أن تكون هناك مواقف سياسية كرهها البعض من الملك وحتى تلك المواقف كان البعض ينسبونها الى حاشية الملك فالملك فى مثل سنه وفى مثل تجاربه لا يمكن أن يتخذ أية مواقف سياسية يمكن أن تغضب البعض ، لقد كان الملك بحق محبوبا من الشعب وكنا نحن الصبيان ، والفتية والشبان أكثر ما نكون جنونا بحب الملك وفى حب الملك ..

***

وقد كان باستمرار كبار شعراء مصر وشبابها يطلقون الكثير من القصائد فى كثير من المناسبات الخاصة بفاروق كعيد ميلاده أو عيد توليه العرش أو فى مناسبة خطبته الى صافيناز أو قرانه السعيد .

وكنا نحن فى بداية شبابنا نتلقى تلك القصائد على أنها نبع من العواطف الرقيقة الجياشة .

وقد علق بذهنى ربما حتى كتابة هذه السطور بعض أبيات من الشعر فأنا حافظ للشعر ذواقة له رغم اننى لا أنظمه ثم اننى أهتم اهتماما خاصا بأشعار المناسبات .

صحيح أنها فى بعض الأحيان محكومة بظروف ميلادها كما أنهـا فى بعض الأحيان أيضا روتينية ولكننا ـ وخاصة فى هذه السن المبكرة ـ كنا نتقبل أية كلمات وخاصة عنـــدما تصاغ فى صورة أبيات شعرية قبولا حسنا .

من بين ما أذكره بل ما أحفظه للأستاذ سيد قطب الذى أصبح فيما بعد من قيادات الدعوة الاسلامية :

والليـــالى مرهصـــات والدنا	ترقب الميـــلاد آنا بعـد آن
ثم شب الشعب فى نهضـــنه	ناضـج الفكرة مشبوب الجنـان
فـــاذا فـــاروق فى طلعتـــه	تهتف البشرى على كل لســـان
ثـم كان اليوم يـوم المهرجان	عـاش فاروق ودام المهرجـــان

ويقول أيضا الأستاذ سيد قطب :

انت صنو الشعب فى تاريخه — كنت منه فى الأمانى يوم كان
قد توالى مولد النهضة والمولد — أيضا فتآخى فى مولدان
وتوافى عيد الاستقلال — والمولد السامى فوافت بشريان
حكمة هذا التوافى عجب — شادها الله فجاءت فى الأوان
ثم وافى اليوم يوم المهرجان — عاش فاروق ودام المهرجان

ومن بين ما أذكره للشاعر أحمد محرم :

تفجر من منابعه البيان — ورف على مشارفه الزمان
تفجر طاعة وجرى ولاء — فلم ير قبله جمان
خذى ما شئت يا دنيا فهذى — حلى بجمالها الدنيا تزان
مليك لا ينال الظن يداه — ولا يدانيه العيان
لكل فى كل ما تهوى المعالى — وترضى مظهر جليل وشان

وأذكر وأحفظ أبياتا للشاعر صالح جودت قال فيها :

فاروق واسمك فى القلوب قصيدة — يشدو بها الوادى السعيد ونيله
وأظل الشم كل معنى طاهر — منها ـ ويظمىء علتى تقبيله
وأقول ما بال السمو يطوف بى — فعلمت أنك فى النهى جبريله
الشعر شعرك يا مليك خواطرى — توحى به يا ملهمى وأقوله
خلع الزمان على العروش ربيعه — وتبدلت لك فى الزمان فصوله

ومن أشعار بيرم التونسى فى هذه المناسبات أيضا :

الدنيا أهيه سامعالى — لكن ما هياش سايعانى
واليوم ١١ فبراير — كان مجعول على شانى
ما كانش ظنى يكون لى نصيب — وأسمع وأشاهد بعيونى
واقف فى عيد مولاى — عليك يا منبر ماركونى

و١١ فبراير هو ميلاد فاروق أما منبر ماركونى فقد كان يعنى به بيرم التونسى ميكروفون اذاعة ماركونى اذ كان يقول ما يقوله فى حفلة الاذاعة الحكومية ١٩٣٩/٢/١١ .

***

وكانت الإذاعة قد نظمت عدة حفلات بتلك المناسبة من بينها حفلتان

أدبيتان احداهما اشترك فيها سعيد لطفى وأنطون الجميل والشيخ عبد العزيز البشرى والأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى ٠

وقد جاء فى كلمة أنطون الجميل : السنة العشرون بعد التسعمائة والألف :

العالم مضطرب وهو لا يزال مهيض الجناح دامى الجراح لا فرق بين الغالبين والمغلوبين ٠ بعد معركة طاحنة بين الجبابرة دامت أربع سنين أما مصر فهى فى فوران ثورتها لانتزاع حقوق لها هضمت على السواء قبل الحرب وفى الحرب وبعد الحرب دائبة فى الداخل على ارتجال قوة من عزيمة أبنائها الشماء متلمسة فى الخارج عونا وتأييدا ممن كانوا بالأمس أنصارا وحلفاء ٠

فى مساء مثل هذا اليوم من تلك السنة (١١ فبراير) وقفت مصر تتلفت الى ما حولها تلفت اليقظ الملتاع يرتقب فرجا ما أطوله فاذا بها تلمح فى سمائها نجما طالعا على الأفق المظلم رمزا للأمل والرجاء ٠

واذا بها ترى فى شجرتها النابتة على شاطىء النيل برعم غصن ينبت من الجذع دليلا على الحياة ٠

واذا بها تجد فى عرينها شبلا يولد لها مبشرا بالقوة والنشاط ٠

وذلك هو ميلاد فتى فتيان الوادى ٠

بميلاد ولى العهد أمسى عرش النيل وله وريث وأصبح شعب الكنانة وله أمير ، ذلك كان شعاع الأمل الحى واختلاف الحياة الكامنة ونبضة القوة الوثابة ٠

وكان ذلك فى اليوم الحادى عشر من فبراير والعشرين من شهر جمادى الأولى ٠

وقد جاء المولود ونشأ وهو موضوع العجب والاعجاب فى خلقه السوى وخلقه الرضى وفى فطنته ونضجه : يروض نفسه على التشبيه بسميه وقد ولى عمر الفاروق الخلافة فى هذا الشهر وفى هذا الشهر ولد فاروق مصر » ٠

★★★

الى أن يقول أنطون الجميل وقد كان وقتئذ رئيسا لتحرير الأهرام قالوا : أمة بلا شباب بسنة بلا ربيع : وها هى مصر قد تربع الشباب على عرشها فأصبحت الأمة العريقة فى التقدم شابة فتية تجمع طريف المجد وتليده ٠

وكانت الزهرة الأولى في ربيعها الباسم الأميرة فريال تبشر بأنضر

الأزهار وأينع الثمار : يا صاحب الجلالة قامت الأمة اليوم على بكرة أبيها تزف التهانى الى مقامك السامى فى عيد ميلادك السعيد ٠

فالزعماء والعظماء والكبراء حاشـــدون فى ساحة القصر وجماهير الشعب الطروب مزدحمة فى الميادين والمدافع يدوى صوتها من معسكرات الجند والأنوار تتلألأ والرايات تخفق فوق الدور والمنازل ٠

وها هى أمواج الأثير الآن تحمـل الى الشرق والغرب والى الجنوب والشمال الدعاء الى الله بأن يحرسك ويرعاك ويســـدد فى اسعاد الأمة خطاك ٠

وهذا دعاء لو مسكت كفيته لأنى سألت الله فيك وقد فعل ٠

★★★

ومن كلمة الأستاذ البشرى ، هذه مصر وقدحلك الظلام واشتدت قسوة الأيام وزلزل على البلاد من جميع الأرجاء حتى لم يبق ثمة متنفس لرجاء فاذا غرة البدر تضىء الظلم ٠

واذا طالع السعد يرفع بين يديه الفرحة فهذا الفاروق وهذه مصر حرة مستقلة وهذه امتيازات للأجانب تلغى وهذه كرامة الأمة تعز وتعلى وهذه آمال البلاد تؤذن كلها بالعظمة والمجد والاسعاد بما أعد لها الفاروق من همم جلاد وعزائم شداد أرأيتم كيف أن الله تعالى اذا أراد بأمة خيرا هيأ لها أسبابه ويسر لها طلابه وفتح بين يديها أبوابه » ٠

★★★

ويقول فى مناسبة ميلاد الملك فاروق أيضا عبد القادر المازنى : والأمة لأنها أمة ايمان تستبشر بجلالته فقد ولد فى فجر الحركة الوطنيــة وشب وترعرع فى عنفوانها ٠

الى أن يقول المازنى : لو استطاع رجل الشارع أن يبين لقال وأفاض ولكنه تلجلج وتغمغم : أنه يدرك بنفسه لا بعقله أن جلالة الملك هو ابن الثورة أى أن جلالته يمثل عظمة الأمة بعد الرقاد وحركتها بعد التربص واقدامها بعد القعود وشعورها بكرامتها القومية وحقها فى العمل والحياة العزيزة وثقتها بنفسها وأملها فى المستقبل وتطلعها الى المجد وصحة العزم على العمل والانتقال ٠

كل هذا يمثله جلالته فيما تحس الأمة فجلالته عنـــد أمته بشرى وأمل بل معين مجسد ومجد مرتقب على ثقة ومستقبل كريم عزيز يتفتح كتابه ورقة ورقة وتنشر فصوله فصلا فصلا فاذا قلنا أن ملكا لم تجتمع

له من دواعي الحب والاجلال مثل ما اجتمع لجلالة الفاروق فما نقول الا حقا صدق الله هذه البشرى ووفق الملك الى ما يحب ويرضى ٠

★★★

وكان دكتور طه حسين قد ألقى فى مناسبة القران الملكى من محطة الاذاعة اللاسلكية (١٩٣٨/١/٢٣) تحية الأدب وقد جاء فيها : أن الذين يطلبون من الأدباء الآن أن يصوروا لهم ما يغمر نفس الشعب المصرى من بهجة وما يملأ قلبه من غبطة وما يشيع فى حياته من سرور بالزفاف الملكى السعيد يكلفونهم ما لا قبل لهم ويطالبونهم بما لا قـدرة لهم » الى أن يقول د٠ طه حسين : فأما وهذه الملايين كلها ثائرة ثورة الفرح هائجة هيجة الابتهاج والسرور فلا سبيل الى تصويرها ولا لتصور ما تجد وانما البلاغة كل البلاغة والروعة كل الروعة والسحر كل السحر فى أن ينظر الناس الى ما هو كائن وفى أن يسمعوا لما تنبعث به الأصـوات وما تنطلق به الألسنة وما يفرضه حب الشعب لمليكه من مظاهر الوفاء وآيات الاعظام والاكبـار ٠

على أن هناك حقيقة واقعة يستطيع الأدب أن يصورها وهو صادق ويستطيع التاريخ أن يسجلها وهو واثق بأنه يسجل الحق الذى لا يعتريه الريب وهو أن ستة عشر مليونا هم أبنـاء مصر قد أجمعوا على الابتهاج الذى لا حد له والاغتباط الذى لا يبلغه الوصف لأن الله تعالى قد أسـبغ على مليكهم فضلا من نعمته وأتاح لهم حظا من السعادة فهم يشاركون فى هذه النعمة ، ويستمتعون معه بهذه السعادة ويتمنون لهولأنفسهم منها المزيد ٠

ويضيف د٠ طه حسين الى كل ذلك قوله : والمصريون يجمعون على حب مليكهم لأنهم يجدون فى شبابه النضر بهجة طالما نازعتهم اليها نفوسهم وزينة طالما هامت بها قلوبهم : يظهر فتمتلىء به العيون ، وينطق فتمتلىء به الأسماع ، ويذكر فتمتلىء به القلوب والعقول : لقد خلصوا لمليكهم وخلص لهم مليكهم فأصبحوا كلهم فداء وأصبح حولهم لواء : ينظر الشيوخ اليه فتمتلىء قلوبهم أمنا لأنهم يرون قيادتهم الى المجد والشرف فى يد ملك قوى أمين وينظر اليه الشباب فتمتلىء قلوبهم ثقة ونشاطا وطموحا لأنهم يرون قيادتهم الى المجد والشرف فى يد ملك قوى أمين ٠

وتنظر الصبية اليه فتمتلىء قلوبهم فرحا وابتهاجا لأنهم يرون فيه المثل الأعلى لما تطمح اليه نفوسهم الناشئة من الرفعة والروعة والجمال » .

★★★

وقد كنا وقتذاك ٠ ولا تثريب علينا ــ من أولئك الصبية الذين يرون فى فاروق ما قاله فيه وفيهم د٠ طه حسين ٠

★★★

والجدير بالذكر كما أذكر جيدا أنه فى الشهور الأخيرة لوزارة النحاس باشا الرابعة (النصف الثانى من عام ١٩٣٧) فقد الشارع السياسى الأمن والأمان ٠

مظاهرات معادية للحكومة تذرع شوارع القاهرة وعواصم المديريات بل وعواصم المراكز هائجة ثائرة على الوفد وحكومة الوفد ٠

مظاهرات أخرى مؤيدة للحكومة تذرع نفس الشوارع هاتفة باسم النحاس باشا والوفد معلنة سخطها وغضبها على خصوم الوزارة الخونة والعمــلاء ٠

والجدير بالذكر ــ كما أذكر أيضا ــ أن المعارك فى الشــوارع قد أصبحت محددة تماما بين الوفديين وخصومهم ٠

كان طلبة الأزهر والمعاهد الدينية هم الذين يشكلون عصب خصوم الوفد وقد انضم اليهم العديد من الخصوم التقليديين للوفد ٠

وكان لدى قيادات طلبة الأزهر والمعاهد الدينية الشجاعة الكافية التى تجعل لمعارضتهم أهمية خاصة ٠

وقد كانوا ــ وكنت أعرف بعضهم ــ لا يعبأون بالسجن والاعتقال أو المحاكمة أو الفصل لأنهم على يقين بأن الوزارة الوفدية فى طريقها الى الرحيل ان لم يكن اليوم فغدا أو بعد غد على أكثر تقدير ٠

كان لدى خصوم الوفد جرأة ما بعدها من جرأة فقد كانوا مسنودين فى هذه المرة الى السراى وكانت المعركة قد اتضحت تماما فأصبحت بين الوفد والسراى ٠

ولم تكن السراى فى هذه المرة تنفى عداوتها للوفد وعزمها على اسقاطه أى أن المعركة كانت سافرة للغاية فان هتف الوفد « النحاس أو الثورة » هتف خصوم الوفد : بسقوط أعداء الملك » ٠

وكان الموقف البريطانى الرسمى وقتئذ مائعا للغاية ٠

السفارة البريطانية بكل عواطفها مع الوفد وقيادته ٠

انذارات عديدة يحملها السفير البريطانى الى السراى بضرورة وقف الحرب بين الوفد والقصر وضرورة تلبية القصر لبعض المطالب الوفدية العاجلة كزيادة بند المصروفات أو تعيين بعض المواطنين فى بعض الوظائف العليا الخالية ٠

ولكن السفارة البريطانية لم تكن أبدا حازمة فى انذاراتها أو تبليغاتها ربما لأن الوفد ــ كما كان معروفا وقتئذ ــ قد فقد جزءا كبيرا من شعبيته بسبب التصدع الذى حدث فى الوفد ومن بين الأسباب الأساسية اخراج

أحمد ماهر بعد اخراج النقراشي ولماهر والنقراشي في الوفد ركائز هامة وخطيرة ·

وقد كان أحمد ماهر رئيسا لمجلس النواب الوفدى واختياره لهذا المنصب يعنى أنه يمثل الرجل الثانى أو الثالث فى الوفد كما ان النقراشى كان فى الفترة السابقة على فصله مسئولا عن التنظيم الداخلى لحزب الوفد وكان هو الذى يعد فى الغالب كشوف المرشحين لانتخابات مجلس النواب أو مجلس الشيوخ أو كان يشارك ـ على الأقل ـ فى اعداد تلك الكشوف قبل عرضها على الوفد ·

وكانت السفارة البريطانية قد وجدت أن الـوفد بعد أن نجح فى توقيع معاهدة ١٩٣٦ قد استبدت به الرغبة في الانفراد بالحكم كما أن عودة حكومة الوفد الى التعامل بقانون حفظ النظام بمعاهدة التعليم الذى كان الوفد يعتبره مجافيا للدستور جعل أغلبية الطلاب تتخلى عن تأييدها التقليدى للوفد ·

***

وكان قد أتيح للوزارة الوفدية فرصة التخلص من كل خصومها تقريبا بعد أن أطلق عز الدين عبد القادر حفيد أحمد عرابى من جهة أمه الرصاص على النحاس باشا وكان فى طريقه من منزله فى مصر الجديدة الى رئاسة الوزارة فى ٢٨ نوفمبر ١٩٣٧ اذ ملأت الوزارة السجون والمعتقلات بمعارضيها ·

وكان من المتوقع أن تكتفى الوزارة باعتقال من ترى اعتقالهم من شباب مصر الفتاة اذ كان الجانى ينتمي الى مصر الفتاة غير أن عمليات الاعتقال تطورت وشملت كل من يخشى الوفد من معارضته ·

وفى ٢١ ديسمبر ١٩٣٧ تظاهر طلبة الجامعة الأزهرية واجتمعوا فى قصر عابدين هاتفين بحياة الملك واذا بالملك فاروق يطل عليهم من شرفة قصر عابدين وكان فى ذلك ما فيه من التأييد الملكى السافر لخصوم الوزارة .

وكانت تلك المظاهرة قد قامت ردا على مظاهرة كبيرة أخرى هتف فيها المتظاهرون : النحاس أو الثورة ·

تعقدت الأمور بين الوزارة والقصر وأصبح الأمل فى انفراج تلك الأزمة صعبا ان لم يكن مستحيلا ·

وكان على ماهر قد عين رئيسا للديوان الملكى فى تلك الفترة بدون علم الوزارة رغم أن مثل هذا التعيين لا يمكن أن يتم الا بموافقة الوزارة باعتبارها المسئولة ·

وكان قد نقل عن الملك قوله : أعين من أشـــاء فى أى وقت أرغب واشاء ·

وقد ضعف الوفد الى الدرجة التى جعلته يتعامل مع القادم الجديد فى هذا المركز الحساس عن طريق الأمر الواقع دون ان يجـبـرؤ عـلى الاحتجاج لدى القصر أو على الأقل دون أن يعلن عن وجود أزمة بين الوزارة والسراى ·

تقبلت حكومة الوفد القرار الجديد بالصمت فيمـا عدا احتجاجات قام بها الشباب أو همسات عتاب فى أذن الســفير البريطاني ســير مايلز لامبسون ·

وكان على ماهر هو الذى يقوم باعداد الحملات المعادية للوفد وكان يغذيها باستمرار وخاصة الحملات الصحفية التى بلغت الذروة فى جريدة البلاغ التى كان يرأسها عبد القادر باشا أحد خصوم الوفد : وانتهز الملك فاروق أو انتهز من يخططون للملك فاروق فرصة غياب السفير البريطانى فى القاهرة فى لندن :

***

وفى ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ بعث الملك فاروق بخطاب الى مصـطفى النحاس باشا يقول فيه : عزيزى مصطفى النحاس : نظرا لما تجمع لدينا من الأدلة على أن شعبنا لم يعد يؤيد طريقة الوزارة فى الحكم وأنه يأخذ عليها مجافاتها لروح الدستور وبعدها عن احترام الحريات وحمايتها وتعذر ايجاد سبيل لاصلاح الأمور على يد الوزارة التى ترأسونها ·

لم يكن بد من اقالتها تمهيدا لاقامة حكم صالح يقوم على تعرف رأى الأمة تستقر به السكينة والصفاء فى البلاد ويوجه سياستها خير وجهـة فى هذه الظروف الدقيقة التى تجتازها ويحقق آمالنا العظيمة فى رفعتها وعزتها وانى أشكر لمقامكم الرفيع ولحضرات زملائكم ما تم على أيديكم من الخير وأصدرنا أمرنا لمقامكم الرفيع بذلك » ·

***

وقد حفظ كثير من الشباب هذا الخطاب عن ظهر قلب ·

وكان البعض يرددونه فى وجود بعض الوفديين لمضايقتهم ·

وقد كان الملك محبوبا للغاية وكانت اقالة وزارة النحاس ولأول مرة على يد الملك فاروق من أهم الأحداث التى أثرت فينا رغم اننا كشباب ننتمى للحزب الوطنى لم نكن نهتم بالخلاف الذى نشب بين الملك والسراى فقد كنا بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ قد أصبنا بصـــدمة كادت تفقـــدنا القدرة على العمل ·

كنا وقتذاك نتفرج على ما يجرى في الشارع المصرى دون تأييد لهذا الجانب أو ذاك وان كنا نميل فى بعض الأحيان الى خصوم الوفد لا لشيء الا لأنهم ضعاف ونحن دائما مع الطرف الضعيف الى أن يقوى ·

★★★

ولعل أبلغ صور الاستبداد والعنف والارهاب الذى ساد الشارع المصرى ان مظاهرة كبرى انطلقت الى شارع الفلكى قاصدة منزل محمد محمود باشا أحد زعماء المعارضة وأحد الموقعين على معاهدة ١٩٣٦ الى جانب مصطفى النحاس باشا ومكرم عبيد باشا ·

كانت المظاهرة تهتف بحياة النحاس باشا وسقوط المعارضة ·

وأمر محمد محمود باشا باغلاق بوابة قصره عندما اقتربت المظاهرة من ذلك القصر ·

حاولت المظاهرة اقتحام القصر فلم تستطع وسمعت أعيرة نارية تدوى ·

تم الاتصال بمحافظة القاهرة ·

تأخرت المحافظة فى ارسال نجدة لحماية القصر وكان مبنى المحافظة على مقربة من القصر ·

لم ينجح المتظاهرون فى الوصول الى الدار لأنها كانت محكمة وكانت الحراسة قوية فتفرق المتظاهرون لصعوبة بلوغهم الهدف وجاء البوليس وجاءت النيابة وأغرب ما في الموضوع أنهم فتشوا منزل محمد محمود باشا (المجنى عليه) وجرى تحقيق البوليس والنيابة مع رجال القصر ·

ولولا ما لجأ اليه محمد محمود باشا من اجراءات لحراسة قصره واعتماده على حراسه الخصوصيين لتحول قصره الى رماد فقد كان عدد المتظاهرين كثيرا للغاية وكان الشر يتطاير من عيونهم وقد بذل الكثيرون منهم جهودا مضنية لتسلق الدار من الخلف فلم يتمكنوا من ذلك ·

★★★

وكانت حماية محمد محمود باشا لمنزله ونجاحه فى حراسته من هجوم المتظاهرين سببا فى اعتماد الآخرين على أنفسهم لحمايتهم من مظاهرات الوفد والمظاهرات التى كان ينظمها بعض أصدقاء الوفد أو بعض أعدائه اذا ما التزمنا الدقة فمثل هذه الأعمال لا تخدم الوفد بأية صورة من الصور ·

وكان البعض ينتظر أن يعين أحمد ماهر باشا الذى كان قد أعلن خروجه من الوفد وتأييده للنقراشى باشا رئيسا للوزارة الجديدة بعد اقالة وزارة النحاس باشا وبذلك يمكن الابقاء على البرلمان الوفدى وعدم اجراء انتخابات جديدة ·

ويظهر أن على ماهر باشا شقيق أحمد ماهر باشا كان يعارض هذا الاتجاه لانه هو بنفسه كان يعد العدة لكى ينولى ـ بنفسه ـ رئاسة الوزارة بعد أن يقدم وزارة جديدة تتحمل أعباء مناهضة الوفد وتزيح أية عقبات تعترض الطريق ٠

اختير محمد محمود باشا لرئاسة الوزارة على أمل ان هذا الاختيار يرضى الحكومة البريطانية فمحمد محمود باشا من السياسيين الذين تعلموا فى اكسفورد والذين تربوا على الطريقة الانجليزية والذين لا يعرف عنهم خصومتهم الشديدة للسياسة البريطانية فى مصر ٠

ولعل السراى أرادت بذلك الاختيار الاجهاز على الوفد لما كان يعرف عن محمد محمود باشا من عنف وقدرة على مواجهة الوفد وله فى ذلك تجربته فى عام ١٩٢٨ ٠

على أن السراى لم تكن مرتاحة تماما الى محمد محمود باشا ذلك لأنه من ناحية ليس سهل الانقياد كما أن نظرته الى على ماهر كانت تتسم بعدم الاحترام فهو يعرف جيدا أساليب على ماهر ٠

ثم ان السراى كانت ترى ان اتفاق محمد محمود باشا مع السفارة البريطانية قد يقلص من نفوذ القصر ويجعله بمعزل عن ادارة عجلة السياسة ٠

لكن الذى لا جدال فيه أنه قد نظر الى محمد محمود باشا ـ ولو من زاوية على ماهر باشا ـ على أنه مجرد قنطرة يعبر فوقها على ماهر باشا الى الحكم ٠

وكان محمد محمود باشا قد انتهى من تشكيل الوزارة قبل ثلاثة أيام من تكليفه الرسمى بتشكيلها ٠

ورغم كراهيتى التامة للأسلوب الأوتوقراطى الذى حكم به محمد محمود باشا فى عام ١٩٢٨ ٠ وقد درست ذلك جيدا فيما بعد ٠

ورغم خلافى الدائم مع حزب الأحرار الدستوريين وخاصة فيما يتعلق بنظرته السياسية الى الحكم والدستور والانجليز رغم ذلك الا أننى كنت أحترم محمد محمود باشا ٠

وقد صفقت له طربا عندما خاض معركة ضد الأمير عمرو ابراهيم عندما اعترض على دخول أحد الباشوات نادى محمد على لأنه فلاح وقول محمد محمود باشا بأعلى صوته وقد نشرت ما قاله بعض الصحف والمجلات المصرية : أنا فلاح وابن فلاح ومن لا يعجبه هذا القول فليرحل عن بلاد الفلاحين » وكنا قد سمعنا فيما بعد أنه عندما كان عائدا من مفاوضاته فى لندن قام بالحجز على الباخرة أسبيريا ليستقلها هو ومن معه من نابولى

وتصادف أن كان الملك فؤاد فى باريس ولندن وأنه أمر بأن يحجز له ولحاشيته على الباخرة اسبيريا دون أن يعرف بطبيعة الحال أن محمد محمود باشا وصحبه قد حجزوا عليها ٠

وسأل أحد الصحفيين محمد محمود عما اذا كان سيسافر فى معية الملك فؤاد فكان جوابه : كلا لقد اختار الملك الباخرة التى قررت أنا السفر عليها ليعود الى مصر ٠

وكانت أزمة سياسية عنيفة بين الملك أحمد فؤاد ومحمد محمود باشا رئيس وزرائه ٠

أزمة أخرى سمعت بها شخصيا من واحد من خاصة الملك ، وأثرت فينا تأثيرا خطيرا ، كان فاروق يكره محمد محمود باشا كراهية عنيفة ولكنه كان يحترمه دائما عندما يقارن بين محمد محمود وبين كثيرين غيره ، ممن يجيدون النفاق والرياء ٠

مرة جاء محمد محمود وكان قد رأس الوزارة فى ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ وقابل الملك ليتحدث اليه فى مسلكه وسلوكه ٠

وكان سلوك فاروق الذى بدأ يسوء غير معروف وقتئذ الا لخاصة الخاصة وكان محمد محمود قاسيا جدا وهو يتحدث الى الملك بقسوة لم يعامله بها والده أحمد فؤاد نفسه كما قال فاروق ــ فيما بعد ــ فى مذكراته ٠

وحاول فاروق أن يستر ضعفه فقال لمحمد محمود : لا تنس يا باشا أننى عندما كنت وليا للعهد كنت ألقب بأمير الصعيد » ويجيب محمد محمود باشا فى فتور : ومن نعم الله أنك أصبحت ملكا فلم يعد لك هذا اللقب ٠

وسأله فاروق ماذا تعنى ؟ وقال محمد محمود : جلالتك لا تعرف شيئا عن طبيعة الصعيدى وخصاله وهى ما تعوزك فالصعيدى رمز للنخوة والشهامة والشرف ٠

وقال الملك : انك بذلك تهيننى ؟ وقال محمد محمود لو كنت أقصد اهانتك لقلت لك : ان الصعيد لم يشرفه أن تكون أميره ٠

وصف الملك ما حدث من محمد محمود باشا فى مذكراته قائلا :

قيل ان محمد محمود كان قد توجه الى الملك « لينصحه بخطورة تردده على بعض الملاهى الليلية وتمسكه بالايطاليين فى خدمة القصر » وخشيت ــ فاروق ــ لو تصرف محمد محمود بوجهه العابس لفهم الناس وقتئذ أنه أعطانى درسا وأن الموقف تأزم بينى وبينه فى وقت كنت فيه

أحارب على جبهتين سياسيتين أخريين فقلت له ــ وللعلم فان الذى روى لى هذه القصة هو الاستاذ أمين فهيم الذى عمل لسنوات طويلة سكرتيرا خاصا للملك فاروق : قلت له وهو على وشك الانصراف « حاول أن تنسى ما حدث أو على الأقل تصنع الابتسام أمام الصحفيين الذين على أبواب القصر » : واذا بمحمد محمود يقول لى : ان الذى يتحدث اليه الآن هو محمد محمود وليس يوسف وهبى ٠

***

والذى أذكره أنه غداة اقالة الملك فاروق لوزارة النحاس وتاليف محمد محمود لوزارته قالت جريدة التيمس البريطانية (١٩٣٧/١٢/٣١) من بين أسباب الاقالة احتفاظ الوفد بقوة مسلحة عسكرية من أصحاب القمصان الزرقاء الذين أثارت اعتداءاتهم وعدم تضامنهم مخاوف المعارضين السياسيين وحملهم على الشكوى » ٠

وتحمل نيوز كرونيكل البريطانية مستشارى الملك مسئولية وضع وثيقة الاقالة ثم تقول : ولكن اذا كان الملك فاروق قد عمل عملا غير دستورى من ناحية المبادىء البريطانية فقد كان مضطرا الى معالجة حالة غير دستورية » ٠

لقد كان للنحاس باشا حرس مسلح يبلغ ٢٥ ألفا من أصحاب القمصان الزرقاء ولكل ذلك نقول لهذه الوزارة : مع السلامة بقلب يملؤه السرور ٠

السرور : لقد تبين أن العمل الذى قام به جلالة الملك هو خير لمصر والديمقراطية وصداقة مصر لبريطانيا » ٠

***

وقالت صحيفة المانشستر جارديان ــ وآسف اذا أنا اضطررت الى نقل فقرات مما نشرته تلك الصحف فقد تصادف أننى احتفظت بها : ان الملك فؤاد نفسه لم يظهر فى حياته محبته أو كراهيته الشخصية لأحد بمثل هذه الصراحة التى أظهرها الملك فاروق فى الأسابيع الأخيرة لمصطفى النحاس ٠

وقد كان فى الامكان أن يصاغ جواب الاقالة فى عمارة دبلوماسية وكانت محتوياته تثير اهتماما أقل لو كانت فى بلاط هارون الرشيد » ٠

أما صحف اليسار فى فرنسا فقد أكدت على أن الانقلاب الأخير فى مصر فوز للأساليب الفاشستية ونجاح للدعاية الايطالية فى مصر ضد انجلترا ٠

***

وفى باريس أيضا أكد الكاتب سان برايس فى جريدة الجورنال : أن النزاع القائم فى مصر على جانب عظيم من التعقيد فهناك نزاع بين الملك الشاب والحزب السياسى الكبير ، ويعد النزاع على أقصى ما يكون من العنف بين القمصان الزرق التابعين للوفد والقمصان الخضر المشبعين بروح التعصب الدينى والميل الى الجامعة العربية » .

ويقول نفس الكاتب ان الملك رفض وصاية الوفد وان الملك يعتمد على حزب الأحرار الدستوريين وهو حزب قليل العدد كما أنه يعتمد أولا وقبل كل شيء على الجيش وعلى طلبة المعاهد الدينية ويعتمد على ما له من محبة حقيقية ومكانة سامية فى النفوس بالنظر الى شبابه وميوله الحرة ثم انه أول أمير من أسرته انطبع بطابع عربى وظهر أنه على استعداد تام ليكون بطل الجامعة العربية » .

***

وكانت وزارة محمد محمود باشا قد استقالت فى ١٤ يوليو ١٩٣٨ وعهد الملك فاروق اليه فى نفس اليوم بتأليف وزارة جديدة وقد دخلها وزراء خمسة من الهيئة العسكرية وهم أحمد ماهر ، محمود فهمى النقراشى ، حامد محمود ، محمود غالب وسابا حبشى .

وكانت انتخابات مجلس النواب قد أجريت فى ابريل ١٩٣٨ .

وكانت نتيجة تلك الانتخابات نجاح ١٩٣ من أنصار الحكومة من الأحرار الدستوريين والسعيديين ، ٥٥ من المستقلين الموالين للحكومة و ١٢ من الوفديين ، ٤ من الحزب الوطنى والمجموع ٢٦٤ نائبا .

***

وكانت مؤامرات على ماهر باشا ضد محمد محمود باشا قد تضاعفت بشكل رهيب وجاء الوقت المناسب تماما لعلى ماهر فتقرر تنحية محمد محمود باشا فى ١٢ أغسطس ١٩٣٩ .

وقد تولى على ماهر الى جانب رئاسة الوزارة وزارتى الداخلية والخارجية ودخل الوزارة من السعديين النقراشى ، محمود غالب ،د. حامد محمود وابراهيم عبد الهادى ولم يدخلها الأحرار الدستوريين لأنهم تضايقوا من الطريقة التى تمت بها تنحية رئيسهم محمد محمود باشا .

***

ومن أهم الموضوعات التى جذبت اهتمامنا وكنا وقتئذ صغارا للغاية قصة الحب التى جمعت بين ادوارد السابع ملك انجلترا ومسز سمبسون صحيح أننا لم نكن نعرف ما هو الحب اذ لم يسبق لنا أن جربناه وحتى سمعنا به الا في القِصص والرِوايات « قيس وليلي » ، « عنتر وعبلة » ،

وربما كانت قصة الحب الوحيدة التى سمعنا بها فى قريتنا والتى ظلت « وحيدة » أكثر من عشرين عاما تلك التى نشأت بين سعدية المغنواتية ومحمود أبو ابراهيم ٠

ولم تكن سعدية مغنواتية بحق وحقيق وانما كان صوتها جميلا للغاية والفرح الذى كان يقام دون أن تتطوع فيه سعدية للغناء لم يكونوا فى قريتنا يعتبرونه فرحا ٠

***

وكان محمود أبو ابراهيم يتبع سعدية باستمرار ولكن لم يكن يجرؤ على الاستماع اليها وهى تغنى فهى تغنى للسيدات وللسيدات مكانهن المتميز فى كل فرح ، كان يتتبعها فى الذهاب الى الفرح وفى العودة ٠

وكان يذهب الى الحقل الذى تعمل به متعللا بأى سبب ٠

وكانت سعدية تلك يتيمة الأبوين ويعطف عليها خالها وزوجة خالها الى حد ما ٠

وكانت تفتقد الى الحنان الحقيقى وقد وجدت ذلك الحنان فى محمود الذى ملأ عليها حياتها وراح يمطرها بوابل من الهدايا ، مناديل بأوية ، خلاخيل ٠

واذا كان محمود موسرا وبهى الطلعة فقد أعجبت به فتيات كثيرات ولكنه لم يبادلهن ذاك الذى يسمونه الحب فقد كان قلبه لسعدية ٠

وكنا نتفرج على سعدية فى عصر كل يوم وهى ترتدى أفخم ما لديها من جلاليب وتقوم بتكحيل عينيها وتسريح شعرها ثم تحمل الجرة فوق رأسها لتملأها من مياه الترعة (الموردة) بالقرب من قنطرة القرية ٠

وكانت سعدية تبالغ فى « عوجة » الجرة وهى مملوءة بالمياه فوق رأسها حتى ليخال للمرء أنها توشك أن تقع ٠

وذات يوم اختلى محمود بسعدية فى حقل من حقول الاذرة فى صباح مبكر وكان ما كان ورغم أنهما تزوجا وبسرعة الا أن القرية كلها أنكرت تلك العلاقة وأصبحت سعدية وكذلك محمود منبوذين من أهل القرية حتى ان مأذون القرية لم يقبل أن يعقد القران فذهبا الى مأذون فى البندر ليعقد عليهما ــ شرعا ــ الزواج الرسمى ٠

***

وأكثر من مرة استمعت الى مناقشات دارت مع بعض الكبار حول ما يمكن أن يكون قد جذب الملك فى مسز سمبسون جمالها أم عقلها صوتها أم شخصيتها ؟ ٠

ولم يتفق الجميع على نقطة الجذب والانجذاب فى سمبسون الا القول « وللناس فيما يعشقون مذاهب » ٠

ومن بين ما أذكره الآن وأنا أكتب تلك الأيام الخوالى أن الصحف الأمريكية أو غالبيتها كانت تستنكر اعتراض الوزارة الانكليزية على اقتران الملك من تلك الأرملة الحسناء أو هكذا كانوا يقولون عنها وقتذاك ٠

وان كانت بعض الصحف الأمريكية تستصوب مقاومة الوزارة لتلك الزيجة التى لا تتفق وتقاليد المملكة البريطانية ليس لأن مسز سمبسون من العامة وحسب بل لأنها قد طلقت من زوجين لا يزالان على قيد الحياة ٠

وكانت بعض الصحف الأمريكية تقول انه اذا أجيزت مثل هذه الزيجات تغيرت وجهة نظر العالم بأسره مما يشكل خطرا على الحياة العائلية بتقويضه دعائم الاخلاص والتضحية ٠

***

وأطرف ما نشرته بعض الصحف الأمريكية ان الملك جورج الخامس قد تحدث ذات يوم الى حفيده الملك ادوارد السابع ـ عندما كان دوق أوف يورك وليا للعهد ـ وهو يربت على كتفيه قائلا له بصوت منخفض : ستكون آخر ملك على انكلترا ٠

وقد ظهر كذب هذه النبوءة والتى روتها بعض الصحف الأمريكية بطبيعة الحال عندما خلف الملك ادوارد السابع شقيقه برتى تى ٠

وأذكر ان الملك ادوارد كان يحظى يومئذ بحب جارف من الشعب وأذكر أن بلدوين رئيس الوزارة البريطانية قال للملك ذات مرة وكانت الأزمة على أشدها : أرجو ألا تبالغ فى مقدار حب الشعب البريطانى لك فالشعب البريطانى يحب التقاليد ويجب أن يكون التاج محل احترام ومرة قال بلدوين للملك : ان أية سيدة ستتزوجها ستصبح ملكة وابنها سيصبح وليا للعهد وان الحكومة والمعارضة ترى فى مسألة الزواج من مسز سمبسون مسألة خطيرة وليس فيها خلاف ٠

وعندها قال الملك لبلدوين : اننى أعتبر الزواج من المرأة التى أحبها شرطا لاستمرار حياتى سواء كملك أو كفرد من أبناء الشعب ٠

وقال بلدوين للملك : ان الشعب والحكومة لا يوافقان على هذا الزواج مهما كانت الظروف ، ومرة قال الملك لرئيس وزرائه : ان الملك السعيد يسعد شعبه والملك الشقى يشقى بلاده ٠

***

ولست بناس أبدا ـ وكيف لى أن أنسى والكلمات محفورة في القلب ـ الكلمات التى ودع بها الملك الشعب البريطاني : صحيح اننى لم أسمعها فى الاذاعة فما كان عندى جهاز راديو يمكن أن نستمع اليه منه وما كان يمكن لى أن أتطفل على من يملكون أجهزة راديو حتى أستمع عندهم الى كلمات الملك ·

ثم اننى لم أكن بقادر على تفهم كلماته جيدا فانا لا أجيد الانجليزية وان كان الخطاب بطبيعة الحال مؤثرا حتى بالنسبة لمن لا يعرفون كلماته جيدا : من بين كلمات الملك قوله :

واخيرا وأخيرا جدا أصبح فى وسعى أن أتكلم ، اننى لم أتعمد أن أخفى عنكم شيئا ولكنى حتى هذه الساعة كان الدستور يمنعنى من الكلام فمنذ لحظات تخليت عن آخر واجباتى كملك وامبراطور ·

والآن وقد خلفنى أخى دوق يورك فان كلماتى الأولى هى أن أبادر فأعلن ولائى له كمواطن منكم وأنا أعلن هذا الولاء من صميم قلبى ·

انكم تعلمون جميعا الأسباب التى أجبرتنى على التخلى عن العرش ولكننى أود أن تفهموا أننى حينما قررت خلع التاج لم أنس المملكة ولم أنس الامبراطورية ولم أنس بلادى التى حاولت فى الخمسة والعشرين عاما الأخيرة أن اخدمها كامير وأن اخدمها كملك ولكن يجب أن تصدقونى اذا قلت لكم اننى وجدت من المستحيل أن أحمل عبء التاج وعبء واجباتى الثقيلة دون معاونة المرأة التى أحبها ·

وأحب ان تعلموا ان القرار كان قرارى أنا : قرارى أنا وحدى ·

لقد كان يجب أن أبت فى الأمر وحدى أما الشخص الآخر فقد حاول حتى النهاية ان يحولنى عن اتخاذ هذا القرار باتخاذ قرار آخر ·

ان قرار نزولى عن العرش هو أخطر ما اتخذته فى حياتى ·

وقد فعلت ذلك لأننى آمنت بأنه فى صالح المجموع ومما سهل على اتخاذ هذا القرار علمى الأكيد بأن أخى يستطيع بخبرته الواسعة وصفاته الحميدة ان يحتل مركزى دون أن تقف حركة الامبراطورية بل ان له فوق هذا مزايا أخرى يتمتع بها كثيرون منكم وحرمت منها أنا : هى المنزل السعيد : الزوجة والبنون » ·

***

واذا كان تاريخ المملكة فى بريطانيا قد عرف عشرات من الملوك فسوف يبقى أدوار السابع الملك الذى تخلى عن الملك لأن التقاليد حالت بينه وبين

الزواج ممن يحب ، سيبقى أبرز ملوك التاريخ وأكثرهم تألقا فى التاريخ *

***

وفى مقدمة القضايا التى حفرتها الأحداث فى عقولنا ووجداننا قضية الشعب الفلسطينى وكفاحه البطولى ضد الاحتلال البريطانى والعصابات الاسرائيلية ·

وكانت قريتنا تتابع أنباء المعارك الدائرة فى فلسطين فى عام ١٩٣٦ :

تسعد ان كانت الانباء لصالح الثوار وتحزن ان كانت الانباء لصالح البريطانيين والاسرائيليين ·

وكان عم منسى هو ـ كالعهد دائما ـ رويتر الذى ينقل الأنباء المفرحة والمحزنة أيضا ·

وكان يحلو له بين حين وآخر أن يتنبأ بما سيحدث فى فلسطين من انتصارات وانكسارات ·

وكان يتخذ لنفسه فى بعض الأحيان مقعد الجنرال يحلل المعارك · هذا بالرغم من أنه ـ كما قلت سابقا ـ رجل أمى لا يقرأ ولا يكتب ولكنه للحق كان يجيد الاستماع لما يقرأ عليه ولما يذيعه الراديو حيث لم يتخلف مرة واحدة عن الاستماع الى نشرات الاخبار رغم غضب عم الشيخ عبد الصمد رئيس الجمعية التى كانت تملك جهاز الراديو الوحيد فى قريتنا ·

***

وبعد أن اتسعت رقعة معارفنا وانتقلنا من القرية الى المدينة بدأنا نعرف الكثير والكثير عن القضية الفلسطينية ·

ولأننا كنا نمقت الاحتلال البريطانى لمصر فقد كنا نمقت أى احتلال آخر ·

وكنا نؤمن ايمانا قويا بان آس المصائب فى هذه الدنيا الاحتلال البريطانى كما كنا نؤمن بأن بريطانيا هى عدوة العرب والمسلمين وانها وحدها هى التى تمهد للاسرائيليين فى السيطرة على البلاد بل أنه لولا مساعدة بريطانيا للاسرائيليين لتغلب عليهم الفلسطينيون بسرعة ولكنهم ـ أى الفلسطينيون ـ كانوا يحاربون فى فلسطين الانجليز والصهيونيين معا ·

وما أكثر المرات التى أقيمت فيها صلاة الغائب على ارواح الشهداء الذين سقطوا فى ساحة النضال الفلسطينى ·

وكنا نسمع أيضا عن حركة تبرعات لجمع المال والأسلحة للمجاهدين الفلسطينيين ·

ومما يؤسف له ـ كما أذكر جيدا أيضا ـ ان الاخوة الفلسطينيين كانوا في ذلك الوقت قد انقسموا فيما بينهم :

أيذهبون الى لندن تلبية لدعوة وزير المستعمرات البريطانية لبحث النزاع الفلسطيني أم لا يذهبون ؟ وكان المجاهدون الفلسطينيون قد اعلنوا عزمهم على القيام باضراب عام ابتداء من ٢٠ أكتوبر ١٩٣٦ حتى تحقق الحكومة مطالب العرب ، وتحرجت الحالة في يافا وقد أصيب كثير من اليهود بجروح في بعض المظاهرات ·

وتتصاعد الحملة على بعض الزعماء الفلسطينيين من قبل الصحف الفلسطينية متهمة اياهم بالتساهل والخيانة ·

***

ومما يجدر أن نذكره وان نعتز به في نفس الوقت أن المجاهدين الفلسطينيين كانوا متنبهين ومنذ البداية الى التفرقة بين اليهودى والصهيوني : وأذكر في هذا الخصوص أن عوني عبد الهادى بك عضو اللجنة الفلسطينية العليا وجه في ٢٠ أكتوبر ١٩٣٦ كتابا الى المندوب السامي البريطاني في فلسطين يقول فيه ان العرب لا يناضلون ضد اليهود بصفتهم يهودا بل يناضلون ضد المطالب الصهيونية في فلسطين ·

كما أن كثيرين من البريطانيين لم يكونوا متأثرين بالصهيونية وكانوا رغم تعاطفهم مع اليهود يفضلون ألا يكون الوطن القومي لليهود في فلسطين ·

وأذكر في هذا الخصوص أيضا ـ والكتاب كتاب مذكرات وذكريات ـ أن لورد لنجتون قد نشر في التيمس البريطانية ـ ١٠ أكتوبر ١٩٣٦ ـ كتابا استعاد فيه عرضا كان قد تقدم به المستر تشمبرلين لتخصيص مساحة كبيرة من الأرض في أوغندة لجعلها مستعمرات حكومية لليهود ·

وقد تساءل لماذا لا يوقظ هذا المشروع من رقاده ·

وكانت قد تضاعفت في نفس الوقت ـ أكتوبر ١٩٣٦ ـ الحملات المكثفة لتهجير اليهود البولنديين وغيرهم من البلاد التي يقيمون بها · ـ ولا أقول بلادهم لأن من يفكر باستمرار في الهجرة من اليهود لا يمكن أبدا أن يرتبط بوطن غير الوطن القومي اليهودى ـ وذلك كجزء من معالجة مشكلة زيادة السكان في تلك البلدان ·

وكان البعض قد رأى ضرورة هجرة اليهود البولنديين أو جزء كبير

منهم ذلك لأن الأغلبية اليهودية فى بولندا وحدها أكثر من ثلاثة ملايين نسـمة وكان فى ذلك الوقت أيضا فلاديمير جابوتنسكى رئيس الجمعيـة اليهودية فى بولندا قد أذاع من وارسو مشروعا يمتد لعشر سنين لهجرة اليهود الى فلسطين بمعدل ١٥٠٫٠٠٠ يهودى فى السنة نصفهم من بولندا .

والجدير بالذكر أيضـا أنه فى الوقت الذى كان كثير من ملوك العرب وقادتها يدعون الفلسـطينيين الى وقف الاضراب والأخـذ بالحلول السلمية لم تكن القيادات الصهيونية تتوقف عن مواصلة تنفيذ مخططاتها الخاصة بتهجير اليهود الى فلسطين واجبار الفلسطينيين على الهجرة من داخل فلسطين .

لقد كان العرب مختلفون حول السياسة التى يجب أن تتـبع فى الحاضر وفى المستقبل لمواجهة العدوان الصهيونى .

***

وما اذكره اليوم بكل اعزاز وفخر ان القضية الفلسـطينية كانت دوما ولا تزال فى قلوب المصريين وأفئدتهم وانه لم يحدث أبدا أى خلاف بين المصريين حول ما يجب اتخاذه من خطوات لدعم الفلسطينيين وانقاذهم من براثن الصهيونيين .

ومن بين ما اعتز به وما هو محفور فى الذهن وفى القلب وفى العقل أن مسلمى الحبشة رغم الظروف المريرة التى كانوا يمرون بها ويمر بهـا وطنهم كانوا يدعمون باستمرار الشعب الفلسطينى .

وقد تبرعوا فى ينـاير ١٩٣٨ ـ مثـلا ـ بمائة ألف ليرة لاخوانهم الفلسطينيين .

***

وأذكر أيضا أنه فى جلسة مجلس النواب بتاريخ ٣٠ يونيو ١٩٣٨ أجاب رئيس الوزراء محمد محمود باشـا على سؤال للنائب محمـود أبو رحاب عما اعتزمته الوزارة دفاعا عن فلسطين وبقائها جزءا لا يتجزأ من الجسم الاسلامى وعما اذا كان قد اتخذ أى اجراء دبلوماسى فى هذا الصدد نزولا على رغبة الأمة .

وكان من بين اجابة رئيس مجلس الوزراء : تقدر الحكومة خير تقدير عواطف الشعب المصرى نحو فلسطين وحرصه على أمن أهلها وسلامتهم ومنـذ وليت الوزارة الحكم أخذت على نفسـها بمعالجة أسباب شكواهم بالوسائل الدبلوماسية المختلفة أملا بأنها سوف تصل الى حل عادل يطمئن اليه أهل فلسطين ويستريح له العالم العربى كله .

وما تزال الحكومة تواصل السعى مع الدول الحليفة ابتغاء الوصول الى هذه الغاية منتهزة كل فرصة لمعالجة المشكلة وحلها على النحو الذى يحقق العدل وتطمئن له النفوس !!

وللحكومة أكبر رجاء أن مساعيها الدبلوماسية فى هذه المسألة لن تضيع سدى وأنها ستبلغ منها ما نرجوه تحقيقا لمصلحة الجميع ٠

وكان النائب المحترم عبد اللطيف دراز قد وجه سؤالا مماثلا لسؤال الأستاذ محمود أبو رحاب وقد عقب على اجابة رئيس مجلس الوزراء أنه أراد بتوجيه سؤاله ان تتاح الفرصة لصاحب المقام الرفيع رئيس الوزراء لأن يدلى ببيان يعبر فيه عن عواطف الامة المصرية نحو فلسطين القطر الشقيق وأنه وقد تحقق هذا الغرض فلا يسعه الا أن يلفت نظر رفعته الى أن هؤلاء الناس الذين وقفوا فى وجه العرب فى فلسطين هم أصحاب المبادىء الهدامة فى كل بلد وأنهم اعداء النظام فى بلاد نرجو أن يسودها النظام » وقد قوطعت كلمة النائب الشيخ دراز بالتصفيق ٠

وكان مما قاله النائب المحترم عبد الحميد سعيد وكان هو الآخر قد وجه سؤالا خاصا بنفس الموضوع : ان فلسطين الشقيقة المعذبة التى تربطها وايانا روابط قوية تأكلها النيران أكلا وتنتابها المصائب وينصب عليها العذاب ٠

وقال عبد الحميد سعيد ـ وكأنما كان يقرأ المستقبل ـ ان السياسة الانجليزية اليهودية ترمى الى اقامة دولة يهودية فيها أخطر الخطر على فلسطين بصفة عامة والمسجد الاقصى بصفة خاصة ٠

ثم قال ، كان يجب على مصر قائدة النهضة العربية الاسلامية بل كان يجب على الحكومة أن تكون أسرع الحكومات فى الدفاع عن فلسطين والمسجد الأقصى والا أضعنا كرامتنا أمام العالم العربى والعالم الاسلامى ، ولم يقتنع النائب المحترم محمود لطيف ـ وكان أيضا قد توجه بسؤال حول الموضوع ـ باجابة رئيس مجلس الوزراء فأحال سؤاله الى استجواب !!

★★★

وما أذكره أيضا فى أوائل ١٩٣٩ أن بريطانيا قد أفرجت عن عدد غير قليل من الزعماء الفلسطينيين الذين كانت قد نفتهم خارج فلسطين ٠

وزار هؤلاء الزعماء الفلسطينيون مصر وكان من بينهم أحمد حلمى باشا ، عونى عبد الهادى بك ، رشيد الحاج ابراهيم ، حسين الخالدى بك، يعقوب الغصن بك ، وفؤاد سابا باشا ٠

وكانوا موضع حفاوة شعب مصر وحكومتها ٠
استقبلهم الملك فاروق وأقام حفلة غداء تكريما لهم ٠
وكذلك فعل رئيس مجلس الوزراء ٠
والتقى بهم مصطفى النحاس زعيم الوفد ٠
وكرمهم عبد الله لملوم بك ٠
وأقامت لهم جمعية الشبان المسلمين حفلة جامعة تكريما لهم أى أنهم كانوا طوال اقامتهم بمصر فى قلوب المصريين جميعا وأعينهم ٠

★★★

وعندما وجهت بريطانيا دعوة للفلسطنيين واليهود ولقادة بعض الدول العربية لحضور ما سمى بمؤتمر لندن لبحث القضية الفلسطينية تقرر عقد مؤتمر تمهيدى لذلك المؤتمر بالقاهرة رأسه محمد محمود باشا رئيس مجلس الوزراء واشترك فيه من العراق نورى السعيد باشا رئيس وزراء العراق ومن اليمن الأمير سيف الاسلام نجل الامام يحيى امام اليمن والقاضيان العمرى والشامى ٠

كما اشترك فى المؤتمر من السعودية الأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود ٠

كما اشترك فى المؤتمر فؤاد الخطيب باشا مستشار الأمير عبد الله أمير دولة الأردن ٠

وأجمعت الوفود على ضرورة سفر محمد محمود باشا الى لندن ليرأس الجانب العربى وتلقى محمد محمود باشا دعوة من المستر تشمبرلن رئيس الوزارة البريطانية للقدوم الى لندن ليكون عونا فى الوصول الى حل لمشكلة فلسطين ، غير أن ظروفا حالت بين محمد محمود باشا وبين السفر ورأس الأمير محمد عبد المنعم وفد مصر وكان اشتراك على ماهر باشا فى الوفد المصرى مفاجأة لكثيرين ٠

ومن الأعداد التى احتفظت بها جريدة البلاغ العدد ٥١٠ الصادر فى ١٨ يناير ١٩٣٩ وكانت افتتاحيته عن أهمية مؤتمر القاهرة ، وكيف أنه بمثابة امتحان تؤديه البلاد العربية وقد تساءلت هل تستطيع أن تدخله الدول العربية متحدة وتخرج منه متحدة فتضمن النجاة لها ولفلسطين ؟ ٠

وقد جاء فى ذلك المقال أن اجتماع القاهرة تاريخى بمعنى الكلمة فما سبق أن عقد مؤتمر مثله ٠

ولأن هذا المؤتمر فريد فى تاريخ البلاد العربية يجب أن يعد

امتحانا لها ولمبلغ رقيها السياسى وقدرتها على تحقيق التعاون الذى مالت اليه ·

وقد جاء فى ذلك المقال أيضا : مهما يكن ما سيسفر عنه مؤتمر لندن فيما يتعلق بقضية فلسطين وسواء أظفرت فلسطين بحقها فى هذا المؤتمر أم لم تظفر فان تحقيق العدل فى فلسطين عاجلا أو آجلا رهن بالقضية الكبرى : أى مبلغ قدرة البلاد العربية على دخول المؤتمر متحدى الكلمة وخروجها أيضا ـ وأيا كانت النتيجة ـ متحدى الكلمة أيضا ·

الى أن يقول البلاغ : اننا لواثقون من أن الوفود العربية جميعا على أتم استعداد للتضحية بكل شىء فى سبيل النجاح فى هذا الامتحان الذى ستؤديه فى لندن ·

وهل يخفى عليها أن مؤتمر لندن هو فى الحقيقة اختيار لقيمة التضامن بين بلادها وأنه على نتيجة هذا الاختيار الفعلى يتوقف موقف امم الغرب حيالها فرادى ومجتمعة ·

وتختتم البلاغ افتتاحيتها بقولها : يجب أن نتقدم الى الوفود العربية الجليلة بالشكر على تكريمها لها فى شخص صاحب المقام الرفيع محمد محمود باشا رئيس حكومتها اذ طلبت منه أن يقبل رياسة الوفود العربية جميعها فى لندن وان رفعته لجدير بأن يهنأ بما ناله من تكريم نادر فقد أخلص المسعى وصدق فيه وثابر عليه ولا يزال مثابرا مخلصا : وكان مراسل التيمس ـ بريطانيا ـ قد قام بتحليل خاص لمؤتمر القاهرة وخرج من تحليله الى أن اصرار الفلسطينيين على رفض كل شىء سوف يلحق الخيبة بمؤتمر لندن : لقد بدا أن مطالب المفتى كانت تعد أساسا لحل قضية الخيبة بمؤتمر لندن : لقد بدا أن مطالب المفتى كانت تعد أساسا لحل قضية العرب ، وكانت قد بدت أخيرا بعض الدلائل التى توحى بأن الزعماء الفلسطينيين قد أخذوا ينهجون نهجا أكثر تعقلا وكان هذا العامل الرئيسى لعقد مؤتمر تمهيدى فى القاهرة فاذا هم تقدموا الآن من المائدة المستديرة وألقوا عليها خطة مرسومة لا محيد عنها ولا هوادة فى شروطها فالمؤتمر اذن سيكون بلا فائدة ·

والظاهر ان محمد محمود باشا رئيس وزراء مصر يرى أن الآراء التى أعلنت يوم الأحد لا تمثل حقيقة شعور الفلسطينيين وهو يأمل فى وضع شروط معقولة ويرى أن مؤتمر القاهرة أهم جدا من مؤتمر لندن الا أنه ما لم يتم الاتفاق فى القاهرة على شىء معين فيستحيل الأمل بالتوصل الى نتيجة فى لندن » ·

وكان فشل مؤتمر القاهرة نذيرا بفشل مؤتمر لندن فسرعان ما حدث

الخلاف بين الفلسطينيين : بين المفتى وبين راغب النشاشيبى بك حيث أصر الأخير على أن يكون لحزبه نصف أعضاء الوفد الفلسطينى وحيث بدأ النشاشيبى فى مهاجمة المفتى محاولا بعث الشك فى البيانات التى تصدر عن الفلسطينيين تأييدا له ·

وكان راغب النشاشيبى يرأس حزب الدفاع ·

ثم انحلت أزمة الوفد الفلسطينى عندما وافق الحاج أمين الحسينى على اشراك الأحزاب الفلسطينية فى الوفد الفلسطينى ·

والجدير بالذكر أن المؤتمر بدا بداية غريبة اذ رفض الفلسطينيون الاجتماع مع اليهود ولذلك خطب رئيس الوزارة البريطانية فى العرب كما خطب فى اليهود ·

وقد رد على رئيس الوزارة البريطانية نيابة عن الوفد العربى الأمير محمد عبد المنعم كما رد على رئيس الوزارة البريطانية عن الجانب اليهودى الدكتور وايزمان باسم الوكالة اليهودية وانتهى المؤتمر - مؤتمر لندن - بالفشل الذريع بعد أن رفض العرب واليهود المشروع البريطانى وكان مراسل نيويورك تايمز فى القاهرة - بعد أن وجه اللوم الى اليهود لرفضهم المقترحات العربية فقد قال : عندى أن المؤتمر لا يخلو من فائدة لأن كل فريق عرف الآن أغراض الآخر كما أنه ساهم فى سبيل الوصول الى الاتفاق النهائى ·

ولو كنت يهوديا لغيرت خططى الحالية ولبرهنت للعرب أن التعاون مع اليهود فى فلسطين يعود بالنفع والفائدة على كل من العالمين العربى واليهودى وبذلك يصبح التعاون ممكنا فى جميع البلدان فى الشرق الأدنى وهذا وسيلة لمساعدة اليهود المضطهدين فى أوربا تجديد الصداقة القديمة بين العرب واليهود وتعاونهما ·

وأضيف أن بريطانيا كانت قد نشرت كتابا أبيض عن القضية الفلسطينية تضمن مقترحاتها لحل الصراع العربى الاسرائيلى ·

★★★

ومن بين تلك المقترحات زوال الانتداب البريطانى من فلسطين وانشاء دولة فلسطين وقيام علاقة حسنة بين العرب واليهود بدرجة تجعل قيام حكومة واحدة أمرا ممكنا ·

وقد هاجم اليهود الكتاب الأبيض قائلين ان سياسة الخيانة التى تتبعها بريطانيا لا يمكن احتمالها وان الشعب سيشن عليها حربا لا هوادة فيها ·

★★★

وبدأ اليهود فى فلسطين ينفذون سياسة عدم التعاون مع الانتداب البريطانى فى فلسطين وقام الأمريكيون بالضغط على بريطانيا كما سعوا - الأمريكان - لدى لجنة الانتداب الدولية لرفض الكتاب الأبيض : وقد رفضته اللجنة الدولية بأغلبية أربعة أصوات ضد ثلاثة بدعوى أنه - الكتاب الأبيض - يتعارض مع صك الانتداب .

وقد رفض العرب « الكتاب الأبيض » لأن فترة الانتقال تعطى اليهود سلاحا لمنع استقلال العرب ، ولأن عبارات الكتاب جاءت غامضة ، فضلا عن أن - الكتاب الأبيض - جعل اعلان الاستقلال أو تأجيله بعد عشر سنوات منوطا بالظروف .

وقد رفضت حكومات : مصر ، والعراق ، والمملكة العربية السعودية الكتاب الأبيض لأن « القيادات الفلسطينية - وعلى رأسها الحاج أمين الحسينى ، المفتى الأكبر - قد رفضته » .

واحتجت قيادات أمريكية كبيرة وكثيرة وفى المقدمة لاجوارديا محافظ نيويورك - ودائما محافظ نيويورك - على الحكومة البريطانية بسبب كتابها الأبيض كما احتج كذلك رئيس أساقفة واشنطون .

وحرضت القيادات الصهيونية ، فى بريطانيا والولايات المتحدة وسويسرا ، الصحف على مهاجمة الكتاب الأبيض وكذلك على مهاجمة حكومة مستر تشمبرلن .

وقد عارض الكتاب الأبيض أيضا حزب العمال وحزب الأحرار فى بريطانيا .

وشن وايزمان وقيادات الحركة الصهيونية حملة شعواء على حكومة المحافظين التى قدمت الكتاب الأبيض وبدا الأمر واضحا وجليا : العرب واليهود يرفضون بشدة الكتاب الأبيض ، الولايات المتحدة المتأثرة بالنفوذ الصهيونى ، وكذلك القيادات الصهيونية العالمية ترفض الكتاب الأبيض ومستر تشمبرلن ، وحكومته « فقط » هم الذين يؤيدون الكتاب الأبيض .

***

وجدير بالذكر أن الخلافات كانت قوية وعنيفة بين القيادات الفلسطينية ، بعكس القيادات الصهيونية .

وكان الخلاف أشد ما يكون بين المفتى الأكبر الحاج أمين الحسينى ، وبين راغب النشاشيبى الذى كان يرأس حزب الدفاع - كما سبق أن قلنا .

وكان راغب النشاشيبى وحزبه قد قبلوا الكتاب الأبيض أخذا بمبدأ : خذ وطالب .

وبالرغم من موقفه هذا فقد جاء الى القاهرة واشترك فى المباحثات التى جرت فيها بخصوص القضية الفلسطينية جنبا الى جنب مع أحمد حلمى باشا ، وجمال الحسينى ، وعونى عبد الهادى ، ويعقوب الغصين وحسين الخالدى ، وموسى العلمى ، والحاج رشيد الحاج ابراهيم .

وكان زعماء الهند قد أصروا على مشاركتهم فى بحث القضية الفلسطينية بعد فشل مؤتمر لندن .

ومثل الهند فى المباحثات الخاصة بالقضية الفلسطينية - تلك التى جرت بالقاهرة فى أعقاب فشل مؤتمر لندن - من زعماء الهند السيد خليق الزمان والسيد عبد الرحمن الصديقى وقد لعبا دورا بارزا فى مباحثات القاهرة و . و .

***

واذا كنت قد أطلت فى الحديث عن القضية الفلسطينية وذكرياتى عنها فى مرحلتى الطفولة والصبا فما ذلك الا لأن تلك القضية كانت تحتل المكانة الثانية فى قلبى وعقلى ووجدانى ، بعد القضية المصرية ، بل لقد كنت ولا أزال أعتبرهما قضية واحدة .

***

ولن أطيل أكثر مما أطلت فى الحديث عن جذورنا الثقافية والسياسية التى أثرت الى حد كبير فينا فى هاتين المرحلتين ، وفيما بعدهما .

وان كنت أقول وبصراحة بالغة ان مثلى ، لم يعرف طفولة ، ولا صبا ولا شباب : لقد حملنا أنفسنا - ومنذ بداية ، البداية - أكثر ما تطيق .

لم نولد ، كغيرنا وفى أفواهنا ملاعق من ذهب أو فضة أو حتى من صفيح .

لم نجد فى بيوتنا مكتبات عامرة بالكتب وانما وجدناها عامرة بالأذرة والقمح ، والتبن وحطب القطن والبرسيم : لم نكن نجد من يرعانا ويوجهنا ويقودنا الى الطريق الصحيح : ولذلك كان الخطأ والصواب من نصيبنا فى تلك المراحل .

كانت عملية القراءة بالنسبة لنا عملية شاقة للغاية ، فانت تبذل الكثير ، الكثير من الجهد لكى تجد أولا ما تقرؤه وفى حالات كثيرة أنت مطالب بأن تفاضل بين أن تشترى لنفسك غداء أو عشاء وبين أن تشترى لنفسك طاقية أو شرابا : أنت مطالب بأن تذهب الى السينما أو المسرح ، وبين أن تشترى كتابا أو مجلة ·

وأنت فى كل الحالات تفضل شراء الكتاب أو المجلة ·

وعندما يتوافر لديك الكتاب او المجلة فانت فى الليل لا تجد الكهرباء التى تقرأ على ضوئها وانما تجد لمبة نمرة ٥ أو نمرة عشرة عندما تكون ثريا ·

وفى بعض الأحيان ولكى تحافظ على نور عينيك ولكى تتقى « الهباب » الذى يخرج من اللمبة اياها ، أو لكى توفر الغاز عليك أن تذهب الى المسجد ، لكى تقرأ بعض ما يروقك قراءته الى ما بعد صلاة العشاء بقليل حيث يخرجونك من المسجد بناء على تعليمات الوزارة وأنت لا تجد من يقول لك : اقرأ هذا ولا تقرأ ذاك ولذلك فانت مضطر الى أن تقرأ كل شىء حتى يتبين لك الطيب من الخبيث ·

***

ورغم تلك المعوقات فان الجو نفسه كان يحرض على الاستزادة من الثقافة والتنوير : كل صحيفة من الصحف القائمة التى تصدر بانتظام أو بغير انتظام تولى أهمية بالغة للثقافة ، للآداب والفنون ·

وقد يفاجأ القارىء ــ مثلا ــ عندما يعرف أن الأهرام ــ بجلالة قدرها ــ كانت تفسح صفحتها الأولى لينشر بعض نقاد المسرح ، ملاحظاتهم على ما يرونه ويشاهدونه من مسرحيات وكانت الصحف كلها تنشر قصائد الشعر ــ وخاصة شعر المناسبات ــ بخط كبير ، « وبتشكيل » الأحرف ــ فى الصفحات الأولى ·

وكل صحيفة كانت تنشر يوميا ، أو ثلاث أو أربع مرات فى الأسبوع صفحة للآداب والفنون الى جانب صفحات للمسرح ، وللسينما وخاصة الأفلام الأجنبية · حتى الاذاعة ــ وقد كانت وقتذاك خاضعة لشركة بريطانية ــ كانت تقدم كل يوم حديثا ثقافيا فى عشر دقائق ، أو فى ربع ساعة يلقيه واحد من كبار الكتاب أو الأدباء ·

وكانت محطة اذاعة ماركونى تحترم المناسبات الوطنية حتى تلك التى تؤذى مشاعر الاحتلال والمحتلين · أذكر ــ مثلا ــ ان الأستاذ عبد الرحمن الرافعى ، كان يلقى ــ فى كل عام ــ فى ١٠ فبراير حديثا عن مصطفى كامل الزعيم الوطنى الذى وقف كل جهاده وكفاحه على محاربة

الاحتلال البريطانى ولم يحدث أن حيل بين عبد الرحمن الرافعى ، وبين القاء الحديث فى أى عام من الأعوام !!

وقد كنت فى تلك الأيام ، ولم أكن قد بلغت الخامسة عشرة من عمرى « سوسة قراءة » كما كانوا يصفوننى ·

أقرأ كل ما يقع نظرى ويدى عليه : حتى الأوراق التى كان يلف فيها البائع ، أى شيء نشتريه منه ، كانت سعادتى بالأوراق أكثر من سعادتى بما تلفه الأوراق : كنت أقرؤها جيدا وفى بعض الأحيان أحتفظ بالمهم منها مهما كانت درجة صلاحيتها للحفظ ومهما علق بها من بقايا ما كانت تلف به ·

وكنت أكتب ، أقل مما أقرأ رغم أننى بدأت الكتابة قبل أن أتعلم القراءة ففى بعض الأحيان كنت أؤلف بعض الأزجال والأشعار ، ولكننى لا أستطيع كتابتها ، فأحفظها كما ألفتها دون أن أسجلها ·

وكنت دائم التعليق على ما أقرأ ، وما أسمع ، وما أرى ·

كان الجزء الأكبر من ميزانيتى يذهب فى شراء الكتب والصحف وطوابع البريد ·

كنت كل يوم تقريبا أبعث برسالة أو اثنتين وربما ثلاثة الى بعض الصحف المصرية فى القاهرة ·

وكنت أرسل رسائل عديدة بأسماء مختلفة : لم يكن يهمنى ان ينشر اسمى ، وانما الذى كان يهمنى أن ينشر ما اكتبه ·

وكان أكثر الرسائل ، التى اختص بها الصحف تلك التى أبعث بها الى جريدة الأهرام وقد اخترت لنفسى اسما خاصا هو « ابن الشعب » كنت أوقع به بعض رسائلى ، الى جريدة الأهرام ، وغيرها من الصحف ، رغم ان زملائى وأصدقائى ، كانوا دائمى التندر والتفكه بل والسخرية من ذلك الاسم الذى يعنى — فى رأيهم — من لا أب ولا أم له ·

***

وكنت أحور وأبدل فى اسمى فأضيف اليه وأحذف منه كل ذلك لأن رسائلى كانت كثيرة للغاية أكثر مما يتسع لها أية صحيفة ·

***

وعندما انتقلت الى القاهرة ، أصبحت العملية سهلة بالنسبة لى : لقد وفرت على الاقل ثمن طوابع البريد واصبحت امكانية مواجهة رؤساء التحرير وسكرتيرى التحرير سهلة ميسورة ·

كنت فى كثير من الليالى ، أمر على بعض دور الصحف ، وكان عدد غير قليل منها فى شارع منصور الموصل الى محطة باب الخلق ·

اترك رسالة لجريدة الدستور واخرى للبلاغ وثالثة للكتلة ثم اتجه بعد ذلك الى شارع مظلوم : حيث الأهرام وأظل أياما انتظر عملية النشر ·

وقد تجيء وقد لا تجيء ·

على اننى لم أيأس للحظة واحدة ولم اغضب مرة واحدة بسبب عدم النشر ·

كنت أقول دائما لنفسى عندما ينشرون لى بعض ما أبعث به : لا ريب أنهم ـ فى الجريدة ـ يعمدون الى تشجيعك » ·

أما عند عدم النشر فقد كنت دائما أقول : لعلى لم أصل بعد الى المستوى الجدير بالنشر ، وقد كانت الأهرام ترحب بما أبعث به اليها فتنشر الملخص فى باب : « بريد الأهرام » ·

★★★

وكنت والأستاذ منصور جاب الله نلتقى باستمرار فى هذا الباب فى الذكريات الوطنية : ١١ يوليو : ضرب الاسكندرية ، ١٤ سبتمبر : الاحتلال البريطانى لمصر : ١٠ فبراير : ميلاد مصطفى كامل : ١٥ نوفمبر : وفاة محمد فريد : ٩ مارس : بدء ثورة ١٩١٩ ·

وكنت وحدى الذى اكتب عن أمين الرافعى فى يوم ذكراه : ٢٩ ديسمبر ·

وكنت دائما ألتقى فى باب بريد الأهرام مع الأستاذ : عيسى متولى الذى لقب بأشهر قارىء فى مصر فقد كان ـ باستمرار ـ يعلق على الكثير مما يقرؤه · وكانت الصحف ـ وخاصة الأهرام ـ تنشر له تعليقاته التى كان يحرص على كتابتها بلغة رشيقة وبايجاز شديد وكانت مجلة النذير ـ مجلة الأستاذ صالح عشماوى ـ أول من أفسحت لى كتابة مقالات مطولة بعنوان : النواحى الاسلامية فى قضية الفلاح ·

وكان الشيخ حسن البنا يحرضنى باستمرار على الاستمرار فى ذلك اللون من الكتابة فرغم سذاجة الأسلوب فان ما كنت أكتبه كان نابعا من واقع الريف المصرى ومن خبرة حقيقية بحياة وواقع الفلاحين المصريين .

ومرة اجهدت نفسى للغاية فى كتابة مقال عن شعراء الريف فى مصر، وفى الخارج وبعثت به الى الأهرام باسم مستعار وفوجئت بالأهرام وقد احتفت به ونشرته فى صفحة الآداب والفنون على ثلاثة أعمدة !

ولا أذكر أبدا أننى بعثت برسالة الى المصرى والى الوفد المصرى أو صوت الأمة فقد كنت بعد توقيع النحاس باشا لمعاهدة ١٩٣٦ « لا أطيق » الوفد ولا صحف الوفد ٠

وقبل أن أكمل الثامنة عشر من عمرى بشهور عديدة نجحت فى توفير مبلغ من المال زاد فيما أذكر عن عشرة جنيهات دفعت به الى احدى المطابع لتنشر لى كتابا ـ كان أول ما أصدرت من كتب ـ أسميته « وحى الوطنية » ووضعت اسم « ابن الشعب » ، على الغلاف وذلك على النحو التالى : ابن الشعب يقدم : وحى الوطنية : صبرى أبو المجد ٠

لم أهتم بتوزيع الكتاب ولا ببيعه بل اننى لم أتوقع أبدا أن أسترد قرشا واحدا مما دفعته ٠

بعثت بنسخ كثيرة من الكتاب الى الصحف المصرية ، بل ارسلت بعدد غير قليل من نسخه الى المكتبات العامة ٠

وكان يلذ لى فى بعض الأحيان أن أطلب هذا الكتاب وانا فى احدى المكتبات العامة وأرى كتابى مجلدا ومختوما بخاتم المكتبة كما رحت أوزع الكتاب بالمجان على أصدقائى وزملائى وجيرانى ولم يبق لى ـ كما قلت ذات مرة ـ الا أن اقف فى الطرق والشوارع وفى محطات الأتوبيس والسكك الحديدية وفى الموالد والتجمعات البشرية لأوزع الكتاب بالمجان ٠

أطرف ما يتعلق بهذا الكتاب أن صاحب المطبعة التى طبعته كان جشعا للغاية فقد رفع دعوى ضدى مطالبا اياى بثلاثة جنيهات قال انها باقية له ولم يكن له عندى مليم واحد ٠

وقد حضرت أمام القاضى بنفسى دون أن أوكل أى محام ، وتحديت صاحب المطبعة بأن يثبت دعواه بأى دليل ٠

وأبرزت ورقة « مخالصة » منه ٠

وقد رفض القاضى الدعوة ولقن صاحب المطبعة درسا قاسيا للغاية ٠

ثم استدعانى الى غرفته حيث راح يناقشنى فى الكتاب وكان صاحب المطبعة قد قدم ـ فى دعواه ـ نسخة منه ، وكنت أحتفظ بنسخة منه معى « فأهديتها اليه قائلا : الآن اهديك كتابى أما قبل الحكم فلم أكن أستطيع ذلك » ٠

وابتسم وقبلنى مهنئا بالكتاب متمنيا لى التوفيق !

★★★

بعبارة موجزة أقول ان هـــذه الجذور الثقافية والسياسية ، رغم قلتها كانت قوية للغاية واليها يعود الفضل كل الفضل فى صقل مداركنا وتنويع مصادر ثقافتنا ٠

وقد كان مقدرا لتلك الجذور أن تنمو ، وتكبر ، لولا ان الحرب العالمية الثانية قد اصابت تلك الجذور الى حد ما بالشلل ، لقـد قيدت الأحكام العرفية التى رافقت الحرب العالمية الثانية كل فكر ، وجمدت نمو كل ثقافة ٠

هذا بالاضافة الى أن ارتفاع سعر الورق ، وصـعوبة استيراده قد أجبر الصحف على أن تخفض من صفحاتها وبالتالى لم تعد تلك الصحف ـ كما كانت قبل الحرب العالمية الثانية ـ مصدرا من مصـــادر الثقافة والسياسة : لقد كتب علينا أن نكتوى فى وقت واحد بنارين : نار الحرب ونار الاحتلال ٠٠

الفصل الثالث

مصر بين نارين : نار الاحتلال ، ونار الحرب

كان أبى وزملاؤه من الأقارب والمعارف « الشيوخ » دائمى الحديث عن الحرب : الحرب العالمية الأولى ، التى لم يعاصروها وحسب وانما اكتووا بنيرانها ٠

كانت المرارة تغلف أحاديثهم

كانوا دائمى الترحم على من سقط منهم من شهداء فى تلك الأيام ـ أيام الحرب ٠

وفى بعض الأحيان كان أبى يحسد ـ وليس الحسد أبدا من طبعه ـ أولئك الذين لم يعيشوا أياما بدأت فيها بريطانيا العظمى اعلان حمايتها على مصر فى أواخر عام ١٩١٤ ٠

وكانت قد عزلت الخديو عباس حلمى الثانى من منصبه كخديو لمصر ٠

وكانت قد فرضت سياسة القمع والارهاب التى لم يمر بها المصريون من قبل ٠

لم يكن الأمر أمر جنود احتلال تمرح وترتع فى أرض احتلتها ، تستذل أهلها حتى لا يثوروا ضدها ، وانما كان مع الاحتلال أمور اقتصادية أخرى دفعت الدولة المحتلة الى اغتصاب أموال الوطن والمواطن ، فكانت محتلة وسارقة ومغتصبة فى نفس الوقت ٠

تغتصب الدولة وتسرقها وتحتلها ٠

وفي نفس الوقت تغتصب الأفراد وتسرقهم ، وتحتل أفئدتهم وعقولهم وقلوبهم ٠

وكانت بريطانيا قد دخلت الحرب ضد تركيا ، أو كانت تركيا هي التي دخلت الحرب ضد بريطانيا ، فليس ذلك مهما ٠٠ وانما المهم أن الدولة المحتلة لمصر قد دخلت في حرب مع تركيا ، دولة الخلافة الاسلامية وأيا كان عسف الحكام الأتراك ، وأيا كان جبروتهم وظلمهم وارهابهم فانهم بالدرجة الأولى مسلمون يمثلون الخلافة الاسلامية ، وللخلافة الاسلامية رغم مساوئها وعيوبها وأخطائها وخطاياها بريقها الشعبي الجذاب ٠

كانت جماهير الشعب بحكم الطبيعة والسليقة مع تركيا الاسلامية ومع الخديوى عباس حلمى الثانى الذى انضم الى تركيا ، والذى حالت بريطانيا بينه وبين عودته الى عرشه ٠

وعندما حاولت بريطانيا أن تمنع الدعاء لسلطان تركيا ــ كما كان متبعا قبل اعلان الحماية البريطانية على مصر ــ لم تستطع ٠

عارض شيخ الجامع الأزهر ، وعارض أئمة المساجد ، فسلطان المسلمين خليفتهم أيا كان اسمه لا يمكن أن يختفى أبدا وخاصة فى خطبة الجمعة ٠

★★★

وكانت جماهير الشعب ــ كما قال لى أبى وزملاؤه ــ على ثقة مطلقة من انتصار تركيا ومن عودة الخديو عباس حلمى الثانى الى مصر معززا مكرما ٠

وما أكثر ما كانت الجماهير تنطلق فى احتفالاتها الشعبية ومظاهراتها الوطنية هاتفة : « الله حى ، عباس جى » ٠

هذا بعكس الكراهية التى كانت تحملها جماهير الشعب لانجلترا بل وللمتحالفين معها ٠

وما أكثر ما كانت الجماهير تندب قائلة : « السلطة أخذت ولدى » والسلطة هنا سلطة الاحتلال البريطانى ٠

وقد ظل تعبير السلطة عالقا بالأذهان يرمز الى العنف والظلم حتى بعد أن تحررت مصر من ذلك الاحتلال ٠

كان أبى ورفاقه يذكرون لنا : كيف كانت قوات الجيش البريطانى

تحاصر القرى المصرية بعد الغروب ، ودائما بعد الغروب ، لتضمن عودة الفلاحين الى بيوتهم ومعهم مواشيهم ٠

وكانت تسوق البهائم والأفراد أمامها ، كما كانت تستولى على ما بالبيوت من حاصلات زراعية أيا كان نوعها – قمح ، ذرة – بل كانت تتعدى الى ما هو أبعد من ذلك ، فتستولى على الدواجن ٠ وبعبارة موجزة لم تكن تترك فى القرى المصرية التى هاجمتها ما يمكن أن يؤكل ، أو من هو قادر على العمل ، شيخا كان أم صبيا ٠

وكانت تربط هؤلاء المواطنين من أيديهم فى حبال ، وكان طابور الفلاحين والعمال الزراعيين يمتد فى بعض الأحيان الى نصف كيلو متر وأحيانا الى ما هو أطول ٠

وكان أولئك جميعا ، آدميون ومواشى وحاصلات زراعية يوضعون فى قطارات للسكك الحديدية أعدت لمثل هذا الغرض ٠

***

وانتهز بعض العمد ومشايخ البلاد الفرصة فراحوا يدفعون الى السلطة كل خصومهم من الفلاحين كما انتهز بعض السماسرة الفرصة أيضا فراحوا يعملون على الافراج عن بعض من أخذتهم السلطة البريطانية نظير مبالغ كبيرة من المال ٠

الأمر الذى أدى الى خلق طبقة جديدة استطاعت فى فترة وجيزة أن تصبح من الأثرياء ٠

وكان العمال والفلاحون المصريون الذين اختطفوا من بيوتهم بمثل تلك الطريقة الوحشية – وقد اقترب عدد هؤلاء من المليونين – قد أطلق عليهم فرقة « الحمالة » ٠

وكان هؤلاء يساقون الى العمل فى الصحراء الشرقية أو فى الصحراء الغربية فى ظروف قاسية للغاية وقد ابتلعت رمال الصحراء الألوف منهم ٠

وكانت مهمة هؤلاء العمال والفلاحين مد السكك الحديدية فى الصحراء ، وبناء الحصون والاستحكامات وحفر الخنادق ، ومد أنابيب المياه ، وكذلك مد أسلاك التليفون والبرق بالاضافة الى نقل المهمات والذخائر الى مسافات شاسعة فى أماكن وعرة ٠٠

والى هؤلاء وحدهم يرجع الفضل فى تعبيد ألوف الأميال فى سيناء ورصفها بالمكدام وجعلها صالحة للسيارات المدرعة وأنواع المركبات بصفة عامة ٠

وقد أرسل بعض هؤلاء الى الخارج لخدمة المحاربين من الحلفاء ٠ ولم يعد منهم الا القليل ، نقلوا الى فرنسا ـ مثلا ـ والى الدردنيل وأدوا لقضية الحلفاء أعظم الخدمات وبذلوا فى سبيلها أعظم التضحيات ٠

***

وما أكثر ما حدثنى أبى ورفاقه عن الحالة الاقتصادية السيئة التى مرت بالبلاد خلال أيام الحرب لقد انقطع الصادر والوارد ، وهبطت أسعار القطن ـ فى بداية الحرب ـ فعم الكساد ، سرى الضيق الاقتصادى حتى الى البنوك والمصارف فقبضت يدها عن التسليف ٠

استخدمت البنوك العقارية أفظع الوسائل للحصول على الأقساط المطلوبة من الفلاحين ٠

ولما كان الفلاحون لا يملكون ما يسددونه من تلك الأقساط فقد عمدوا الى بيع ما لدى نسائهم من مصاغ وحلى ذهبية ، واضطر آخرون لبيع حاصلاتهم الزراعية « بتراب الفلوس » حتى لقد باع بعضهم قنطار القطن بمائة وعشرين قرشا ، وباعه آخرون بستين قرشا ، ووقفت الحكومة جامدة أو متجمدة ازاء ذلك الكساد ٠

***

ولم تستطع أكثر من أن تعين مثمنين للذهب والفضة (جاشنجية) لتحديد سعر المصوغات ٠

ثم ارتفع سعر القطن ، وارتفعت بالتالى الأسعار واشتدت موجة الغلاء وخاصة الأقمشة والحبوب وانتهز بعض الأجانب الفرصة فاشتروا أراضى الفلاحين بثمن بخس وكونوا ثروات هائلة ، وزاد الطين بلة ان الحكومة احتكرت المحاصيل الزراعية وخاصة القطن وبذرة القطن ٠

كما لجأت الى مصادرة الكثير من الحاصلات الزراعية والمواشى بصورة جماعية حتى مل الناس الحياة وتمنوا الرحيل عنها ٠

فاذا أضفنا الى ذلك أن سلطات الاحتلال البريطانى اعتقلت المئات من القيادات الوطنيـــة المصرية وخاصة أبنـــاء الحزب الوطنى وأودعتهم السجون والمعتقلات ، حتى ضاقت بهم السجون والمعتقلات ٠

وقد دفعنى ما سمعته من أبى وزملائه عن أيام الحرب العالمية الأولى الى الاستزادة من المعلومات عنها ، بل أكثر من ذلك ، كنت أحفظ الكثير ، الكثير من الأشعار والأزجال التى قالها الشعراء والزجالون الذين عاشوا تلك الأيام الكئيبة وسطروا خواطرهم فيما أنتجوه من أعمال أدبية وفنية ،

الأمر الذى جعل تلك الأعمال وثائق أدبية الى جانب الوثائق التاريخية التى تسجل تلك الأيام .

ومن بين ما حفظته مثـــلا ، بل ولا أزال أحفظه ، وأنا أكتب هذه الفصول قول حسن القاياتى :

فى مالكم للمعتقين فريضـــة   من هب يسلبها فليس بمعتـدى

وقول أحدهم ولم يفصح عن اسمه :

قل يا سمير لمن شكا لك بؤسه   واسأل غريب المدمع الهطـبـال
أجهدت نفسك لا غنى يرتجى   يومـــا لدرء فوادح الأثقـــال
الحرب أفنت مالهم لا بل همو   فى الراح أفنـوا أكثر الأموال
من كان منهـم زائرا أو وافدا   أمسى وجـل منـاه نصف ريال
يا من شكوت البؤس لا تجهر به   واكتم شكاتك ان حالك حالى
لذ بالمنية ان أردت تخلصـا   مما ألم ولا تلذ بســؤال
أظننت فى أرض الكنانة محسنا   تعنيه يومـــا حالة العسـال
حقـا ظننت فليس فينـا محسن   الا لكأس ، أو لطيب وصـال

ومنها أيضا .. قول محمود عماد الشاعر ، وقد سرق نشال راتبه :

فى غـرة الشـــهر والأيدى مسددة   نحوى تطالبنى بالدين فى الحين
والوقت حرب وللأزمات سيطرة   على الجيوب وحظ الطين كالطين

الى أن ينحسر على الجنيهات الأربعة التى كانت مرتبه فيقول :

حتى اذا فاح منها ريحها عبقا   وللدنانير ريح كالرياحـــين
هوى اليهـــا أخو علم بنكهتهـــا   سهل الاغارة شيطان كالشياطين

الى أن يقول :

ضاقت عليه كنوز الأرض قاطبة   وعف عن حوض أصـحاب الملايين
وســار نحوى رعى الله بردته   وتلك سيرة مســكين لمسـكين
يا أسوأ الناس رأيا بى وأخبثهم   ذهنـا وأصلبهم فى موضع اللين
أقسمت باللوح لا مينـا ولا كذبا   والنور ، والطور والزيتون والتين
ان لا غفرت لهـذا اللص غزوته   جيبى ، وجيبى بلا درع وتحصين

والطين التي يقصدها الشاعر في البيت الثاني هي الأرض الزراعية .

***

ومن أحلى ما كتبه بيروم التونسي ما كان بعنوان « هوى حبيب يسمى المجلس البلدي » .

وقد حفظها كثير من أبناء جيلي .

وكنا نرددها بين حين وآخر ولم يبق الا ان نلحنها لنغنيها .

وقد أصررت ذات يوم على أن أسمعها بنفسي من بيرم التونسي عندما كنا نتسامر ذات ليلة في أحد مقاهي شارع خيرت الذي يقع فيه منزله :

قد أوقع القلب في الأشجان والكمد ... هوى حبيب يسمى المجلس البلدي
ماشرد النوم من جفني القريح سوى ... طيف الخيال : خيال المجلس البلدي
اذا الرغيف اتى فالنصف آكله ... والنصف اجعله للمجلس البلدي
أقول حتى لو أني في الطريق أرى ... قرشين ذا لي، وذا للمجلس البلدي

كان أمي بل الله تربتها ، أوصت ... وقالت : أخوك المجلس البلدي
أمشي وأكتم أنفاسي مخافة ان ... يعدها عامل للمجلس البلدي
وان جلست فجيبي لست أتركه ... خوف اللصوص وخوف المجلس البلدي
هل دارت الرسل بين العاشقين ... كما تدور بيني وبين المجلس البلدي

عندي قسائم أشواق مطولة ... وغيرها من حبيبي المجلس البلدي
بكى الصغير ، يريد الخبز قلت له: ... دعنا لأجمع مال المجلس البلدي
يا بائع الفجل بالمليم واحدة ... كم للعيال وكم للمجلس البلدي
الأرض والناس والأنعام أجمعها ... الكل ليست لغير المجلس البلدي

أخشى الزواج اذا يوم الزفاف أتى ... يبغي العروس صديقي المجلس البلدي
وربما وهب الرحمن لي ولدا ... في بطنها يدعيه المجلس البلدي
وصفرة الكون قد أصبحت أبغضها ... لأنها من شعار المجلس البلدي
واذا أقمت صلاتي قلت مفتتحا ... الله أكبر ، باسم المجلس البلدي

أستغفر الله حتى في الصلاة غدت ... عبادتي نصفها للمجلس البلدي
اقسمت لا أدخل الجنات عن ثقة ... في الحشر، ان قيل فيها مجلس بلدي
ان الدعاء على الجبار أبلغه ... يارب : سلط عليه المجلس البلدي

و . و الخ ، الخ ..

وكانت بداية الأغنية الفولكلورية التى انطلقت لتعبر عن آراء الشعب وأشجانه وهمومه وأحزانه ضيقا بسلطة الاحتلال البريطانى :

بلدى ، يا بلدى والسلطة خدت ولدى
يا عـزيز عينى وأنا بدى أروح بلدى

يا مسافر على بحر النيل
دنا ليه فى مصر خليل

من بعده ما بانامش الليل

وما سمعناه وما قرأناه عن أيام الحرب العالمية الأولى ، وما قاسته مصر فيها من أهوال ، كان يخيفنا الى حد كبير عندما نسمع عن قرب نشوب حرب عالمية أخرى .

كنا نخشى أن نواجه فى تلك الحرب بما ووجه به آباؤنا فى الحرب العالمية الأولى .

صحيح أن الظروف قد تغيرت فى عام ١٩٣٨ ـ مثلا ـ عما كانت عليه فى عام ١٩١٤ .

لم تكن البلاد ـ فى عام ١٩٣٨ ـ تحت الحماية البريطانية .

لم تكن البلاد واقعة تحت تأثير حكم مباشر من المعتمد البريطانى .
هناك ـ فى عام ١٩٣٨ ـ معاهدة تحدد العلاقة بين مصر وبريطانيا هى معاهدة ١٩٣٦ .

لدينا مجلس نواب ، ومجلس شيوخ ، ووزارة مسئولة الى حد ما ... تداخلات السفارة البريطانية فى الأمور السياسية ، تجد فى بعض الأحيان من يرفضها أو حتى على الأقل يؤجل تنفيذها .

ولكن الذى كان يزيد من مخاوفنا ، أنه رغم معاهدة الصداقة والتحالف ، بل بسبب الصداقة والتحالف ، لا يزال يوجد ما يقرب من مائة الف جندى بريطانى فى القاهرة والاسكندرية وبعض عواصم الأقاليم وخاصة مدن القناة .

كما ان الجيش المصرى لا تتوافر لديه القدرة ولا العدد لكى يتمكن من حماية مصر ضد أى عدوان خارجى .

بل لا يستطيع أن يقف ضد قوات الاحتلال البريطانى اذ لا تزال قيادته تخضع لامرة قواد بريطانيين رغم أنف مواد معاهدة ١٩٣٦ .

وكانت نذر الحرب العالمية الثانية قد بدت فى الأفق فى عام ١٩٣٥ وكانت الحرب الحبشية الايطالية أولى تلك النذر ٠

ثم راحت الأمور تتطور فى أوربا تطورا سريعا ٠

ألمانيا النازية تعمل على الاسراع بقيام تلك الحرب ٠

وكانت بريطانيا على علم بما تقوم به ألمانيا من استعدادات لحرب كبرى يكتوى العالم بنارها ، فكانت مرة تتشدد ومرات عديدة تتساهل ٠ وكانت بريطانيا تعرف جيدا أهمية مصر فى أية حرب يمكن أن تنشب بين ألمانيا وايطاليا من جهة ، وبين الحلفاء وعلى رأسهم بريطانيا وفرنسا من جهة أخرى ٠

ولذلك فقد راحت تبذل قصارى جهدها لتطمئن على سلامة الأوضاع المصرية وتهيئة الأجواء لتظل مصر الى جانب بريطانيا فى الحرب المقبلة رغبة لا كرها كما كان الأمر فى الحرب العالمية الأولى ٠

★★★

وليس فى هذه المذكرات متسع للحديث عما اتخذته بريطانيا من خطوات لتطمئن الى وجود جو متعاطف معها ، لتضمن – فى نفس الوقت – تعاون أية حكومة مصرية تكون قائمة بالأمر فى مصر فى أى وقت ٠

وقد كان على ماهر باشا يطمع فى أن يكون رئيسا للوزارة المصرية مرة ثانية ، ولذلك فقد تخصص فى وضع العراقيل أمام وزارة النحاس باشا الثالثة ووزارته الرابعة ٠

ولم يكن فى مخططات على ماهر أن يعقب مصطفى النحاس فى رئاسة الوزارة فى نهاية عام ١٩٣٨ ٠

وانما آثر – وهو الرجل الذكي والمناور السياسى البارع – أن يخلف محمد محمود مصطفى النحاس فترة تمهـد الجو ، له ، وتزيل من أمامه السدود والقيود وتمتص الغضب الذى تسببه اقالة الوزارة الوفدية ٠

وجىء بمحمد محمود باشا الى الحكم فى غيبة السفير البريطانى بعيدا عن مصر ٠ كما سبق أن قلنا ٠

ولم تكن السفارة البريطانية لتستطيع أن تعارض محمد محمود باشا فهو بالنسبة لبريطانيا – مهما تكن أسباب الخلاف والاختلاف معها فى بعض الأمور السياسية – من أنسب السـياسيين المصريين وأقربهم الى بريطـانيا ٠

وكانت مؤامرات على ماهر الى جانب الحالة الصحية المتدهورة باستمرار لمحمد محمود باشا من الأسباب التى أعاقت محمد محمود باشا عن أن يقوم بأعمال كبيرة تذكر له ٠

وكان الكثيرون يتوقعون ان د٠ أحمد ماهر باشا هو الذى سيخلف محمد محمود باشا فى رئاسة الوزارة فهو ــ أحمد ماهر ــ شريك محمد محمود فى الحكم باعتبار ان السعديين الذين يرأسهم د٠ أحمد ماهر هم أحد الساقين اللتين يعتمد عليهما نظام الحكم فى أيام محمد محمود ٠

كما أن محمد محمود باشا كان قد رشح أحمد ماهر ــ عندما ساءت صحته ــ لكى يخلفه فى الوزارة ، حتى يستمر مجلس النواب فى أداء عمله اذ أن الأغلبية فيه للدستوريين وللسعديين معا ٠

ولكن على ماهر كان أقوى من أحمد ماهر ، خاصة أن الوفد كان يحارب د٠ أحمد ماهر حربا لا هوادة فيها ، وكان على أتم استعداد لأن يتقبل أى رئيس وزارة فى مصر غير أحمد ماهر ٠

***

ونجح على ماهر فى الجولة الأولى بسهولة خاصة وقد كان سفره ضمن الوفد المصرى الخاص بالقضية الفلسطينية وبقاؤه هناك أياما لفت فيها الأنظار الى حيويته ونشاطه وقدرته على المناورة ٠

وكان وجوده على رأس الديوان الملكى فرصة طيبة لقيامه فى لندن بمشاورات عديدة مع كثير من الساسة البريطانيين ممن فى الحكم وممن فى المعارضة ٠

ويظهر أن أسهم أحمد ماهر (باشا) كانت قد انخفضت لأنه رفع ــ ومنذ بداية الأزمة الدولية التى نشبت مع نهاية عام ١٩٣٨ تنذر بالخطر ــ شعار ضرورة نبذ فكرة حياد مصر ، وكان هذا الشعار وقتئذ سابقا لأوانه ٠

كما أنه كان مناهضا لمشاعر الجماهير التى كانت تنادى بضرورة تجنيب البلاد ويلات الحرب وكانت الدعاية الألمانية والايطالية قد نجحتا فى مصر الى حد كبير وحيث كانت تلك الدعاية تركز على أنه لا يوجد أى خلاف أو اختلاف بين مصر وألمانيا وايطاليا ، بل أن الألمان كانوا حلفاء لتركيا دولة الخلافة الاسلامية ــ فى الحرب العالمية الأولى ــ وكان المصريون بمشاعرهم مع الأتراك والألمان ، وأن الخير كل الخير لمصر أن تتجنب الاشتراك فى أية حرب مقبلة لا ناقة لها فيها ولا جمل ٠

كما أن بريطانيا العظمى وقد نكثت بوعودها للمصريين أثناء الحرب

العالمية الأولى لا أمان لها بالنسبة لأية حرب جديدة ، وأن الخطر كل الخطر أن يعرض المصريون مصالحهم وبلادهم بالوقوف الى جانب بريطانيا فى أية حرب مقبلة ما دام الألمان والايطاليون لا يكنون لمصر أى عداء ولا يفكرون فى الاعتداء عليها ٠

اخطأ أحمد ماهر عندما اختار وقتا غير مناسب لرفع شعار الدخول فى الحرب ، ونجح على ماهر تكتيكيا عندما راح يركز سياسته ـ حتى قبل أن يرأس الوزارة ـ على ضرورة تجنيب مصر ويلات الحرب ٠

★★★

ولا يتسع المجال هنا ـ بطبيعة الحال ـ للحديث عن الطريقة التى جاء بها على ماهر باشا الى الحكم والطريقة التى ذهب بها ، فتلك أمور تاريخية بحتة ٠

ونحن هنا فى هذه المذكرات لا نكتب تاريخا وانما نكتب انطباعات شخصية بحتة ، بل اننا لا نكتب الا عن الانطباعات الشخصية البحتة التى لها علاقة بنا والتى تركت آثارا عميقة فى النفس والوجدان والتى شاركت الى حد ما ـ وبصورة متباينة ـ فى تكوين شخصياتنا ، أنا وأبناء جيلى بصفة عامة ، والتى كان لها أيضا ـ وفى نفس الوقت ـ بصمات فى تاريخنا المعاصر ٠

★★★

جاء على ماهر الى الحكم وكأنه كان على موعد مع الحرب ، فشكلت وزارته فى ١٨ أغسطس ١٩٣٩ وكان لتلك الوزارة ـ عكس ما سبقها من وزارات ـ مذاق سياسى خاص :

عبد الرحمن عزام باشا يتولى الأوقاف ٠٠ وشخصية عبد الرحمن عزام من الشخصيات العربية والمصرية البارزة ولها كفاحها المعروف على المستوى القومى والمحلى ٠

محمد صالح حرب باشا ـ وله أيضا ـ كفاحه المعروف ونضاله التاريخى فى محاربة ايطاليا عند اغارتها على ليبيا واحتلالها لها ٠

أنشأ على ماهر ، بل ابتكر ، وزارة للشئون الاجتماعية ٠

كما أنشأ الجيش المرابط ـ وهو جيش اقليمى يتألف من المجندين الذين يزيدون عن حاجة الجيش العامل ولم تنته مدة التزامهم بالخدمة العسكرية ـ ومدة الخدمة فيه لا تتجاوز ستة أشهر ، ويجوز جمع رجال هذه القوة مدة أخرى لا تزيد على ستة أسابيع فى السنة الواحدة فى أوقات لا تتعطل فيها أشغالهم العادية ٠

والفكرة طيبة للغاية ·

وكان من الممكن أن تساهم فى تعميم الخصال والفضائل العسكرية ، وأن تمد جيشنا « برديف » مدرب فى وقت الحرب ·

وكان من الممكن أن يقوم هذا الجيش - فى وقت الحرب - بحراسة المرافق العامة وأداء الخدمات الضرورية فى ميادين القتال ·

ولكن الفكرة ما لبثت ككل فكرة طيبة ان تطرق اليها - فى التنفيذ - الخلل والفساد ·

فقلت الاعتمادات الخاصة بهذا الجيش ·

وأصبح أفراد الجيش مجالا للسخرية عندما كانوا يسيرون فى الشوارع وملابسهم ممزقة وأحذيتهم بالية ·

***

زحفت القوات الألمانية على بولندا فى أول سبتمبر ١٩٣٩ - بعد أيام من تولى على ماهر الوزارة - وفى ٣ سبتمبر أعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب على ألمانيا بعد أن رفضت الأخيرة سحب قواتها من الأراضى البولندية ونشبت نيران حرب عالمية ثانية أكثر ضراوة من الأولى بكثير لأن الأسلحة الفتاكة كانت قد تطورت وأصبحت أكثر قدرة على حصاد أكبر قدر من البشر ·

وطلبت السفارة البريطانية من حكومة على ماهر تنفيذ المادة السابعة من المعاهدة المصرية/البريطانية (معاهدة ٢٦ أغسطس ١٩٣٦) باعلان الأحكام العرفية فى البلاد ووضع الرقابة على الصحف والمطبوعات ·

واستجابت حكومة على ماهر لطلب السفارة باعلان الأحكام العرفية وعين على ماهر حاكما عسكريا ·

ودعى البرلمان الى اجتماع غير عادى فى ٣ من أكتوبر ١٩٣٩ ليعرض عليه مرسوم الأحكام العرفية والمراسيم الأخرى ·

***

أقر مجلس النواب تلك المراسيم بأغلبية ضئيلة للغاية : ١٣ صوتا ، وأقر مجلس الشيوخ تلك المراسيم بأغلبية أقل - ٦٨ صوتا ضد ٥٩ صوتا ·

بدأت دورة جديدة للبرلمان واختير د· أحمد ماهر رئيسا لمجلس النواب ب ١٤٤ صوتا نالها و١٠٨ أصوات نالها منافسه د· بهى الدين بركات باشا ·

وكانت معركة ضارية ٠

***

زار على ماهر السـودان ، وكان أول رئيس مصرى للوزارة يزور السودان أثناء ولايته الحكم ٠

وقد كان على ماهر عندما ولى الوزارة منبوذا من الجميع ٠٠ الوفد يحاربه ، الأحرار الدستوريون يحاربونه لأنهم لا ينسون أنه هو الذى كان يحفر الآبار ويسممها فى طريق محمد محمود باشا ، زعيم حزبهم ، لذلك لم يشتركوا فى وزارته ٠

السعديون كانوا يحاربونه أيضا ولكن من وراء ستار ، لأنه خطف رئاسة الوزارة من رئيسهم د٠ أحمد ماهر رغم أنهما شقيقان ٠

ولأنه لم يكن صريحا وواضحا فى المعركة التى خاضها د٠ أحمد ماهر ونعنى بها معركة رئاسة مجلس النواب والتى كاد يخسرها د٠ أحمد ماهر ، ويفوز فيها منافسة د٠ بهى الدين بركات ٠

ولكن بمرور الأيام اسـتطاع على ماهـر بنشاطه « وديناميكيته » وابتكاراته السياسية وخروجه على الخطوط السياسية المألوفة أن يجذب اليه قطاعات كبيرة من الجماهير ٠

***

وكنا نحن أبناء الحزب الوطنى قد حمدنا له ازاحة الستار عن تمثال مصطفى كامل بعد أن ظل فترة سجينا فى مدرسة مصطفى كامل ٠

كما أنه دفع الملك فاروق ــ ولم يكن ذلك متوقعا ــ الى أن يتولى بنفسه ازاحة الستار عن ذلك التمثال ٠

وكان قد عرف عن الحزب الوطنى أنه مشايع للخديو عباس حلمى الثانى الذى خلعته بريطانيا فى بداية الحرب العالمية الأولى لانضمامه الى تركيا ــ دولة الخلافة الاسلامية ٠٠

***

وكانت خطة على ماهر فى حفل ازاحة الستار ــ ١٤ مايو ١٩٤٠ ــ قد خرجت على المألوف ولعلها المرة الأولى التى يوصف فيها مصطفى كامل من رئيس وزارة مصرية بمثل ما وصفه به على ماهر ، ولقد حفظنا كلمات على ماهر ، وكان صدورها منه وهو ليس حزبا وطنيا مصدر اعزاز بالنسبة الينا ، فأولنا ، تلك الكلمات ــ بأنها عودة من الدولة الرسمية الى الطريق الصحيح ٠٠ طريقنا ٠٠ طريق مصطفى كامل ومحمد فريد ٠

كان مصطفى كامل ــ كما قال على ماهر ــ أول من حمل لواء الحرية

بعد أن طوى زمانها ، وكان أول من صاح تلك الصيحة فى طول البلاد وعرضها : صيحة التضحية ، صيحة الحق ، صيحة الحب ، صيحة الحياة ·· بلادى ، بلادى ، لك حبى وفؤادى ، لك حيـاتى ووجودى ، لك دمى ونفسى ، لك عقلى ولسانى ، لك حبى وحياتى ، أنت أنت الحياة ولا حياة الا بك يا مصر ·

وقال على ماهر : كان مصطفى مقداما ، يخلق الحماسة ويتعهدها لأنه يعلم ان الحماسة فى حياة الأمم تنزل منها منزلة الروح من البدن ·

وان الشعب اذا غابت عنه الحماسة غابت عنه الحياة ، فكان يعمل ليله ونهاره ، كاتبا وخطيبا على تفذية العاطفة الوطنية وايقاظ الجماهير التى كان يجذبها بشخصيته وايمانه وشجاعته ·

كان مصطفى كامل يحمل فى قلبه صورة الوطن الحى ، أنى سار أو قام فكان قلبه مقتدرا على جمع القلوب ، تخفق كلما خفق ، وتشاطره حمل السراء والضراء ·

★★★

وكان الشـباب ــ شباب الوادى وعدته ــ جنوده المجنـدة يأتلف ويلتف حول لوائه وكان هو قائدها وهاديها ·

كان مصطفى كامل شعلة ذكاء وحماسة ·

وكان خير محام عن خير قضية ·

وكان فى دفاعه يهب لنصرة الحق والعدل ، وكان جلدا على الكفاح ، لا يبرح يناضل حتى يصرع الباطل ويرمى السهم فى مقاتله ·

وقد صبر وجاهد واحتمل الأذى فى سبيل مصر ، فى سبيل النيل وواديه ، فى سبيل تلك القرى والمدائن الجاثمة فى حضن الوادى ، فى سبيل ذلك الأفق الضاحك بين جنات النخيل والأعناب ، بين نوح السواقى وأغانى الفلاح ·

وقد تغلغل حب مصر فى فؤاد مصطفى كامل لأنه كان صادرا عن حب ، وعقل ، وعلم ·

★★★

وكان ذلك الحب لا تشوبه شائبة من مطمع فى مادة أو جاه ·

كان مصطفى كامل مصريا صميما يحب مصر وفلاح مصر ، حافظ كيانها ، ذلك الفلاح الذى هو نحن وأنتم ، الذى هو مصر من طيبة الى الفسطاط والقاهرة ·

والذى طبع البــلاد بطابعه ، وأثرت كتلته على الغــزاة ، فأفنت شخصيتهم فى ثناياها ·

وقد كان المصريون فى أدوار تاريخهم سلسى القيادة لكل زعيم يخرج من صفوفهم ، ويعرف كيف يسوسهم ، ويتخذ لنفسه نقطة ارتكاز فى قلوبهم وفى صميم احساساتهم وعواطفهم وفى شجاعتهم وايمانهم وفى أرضهم ولغتهم ·

وقد ولد مصطفى فى مصر وحك جلده بأرضها طفلا ، ونشأ حرا ، وعاش حرا ·

***

وها نحن أولاء نقف أمام تمثاله ·

ويخيل الينا أن الحياة تدب وتتوثب فى كل ذرة ساكنة فيه ·

وان وراء هذه المادة قوة خفية تدفع الشعب الى غايته الكبرى ·· !!

لقد مات مصطفى ، فكان موته أول شاهد على تغلغل الروح الوطنية فى مختلف الطبقات ·

وأول دليل على أن فى هذه الأمة قوة ··

بل قوى حيوية كامنة اذا وجد من يحركها ويتعهدها أتت بالمعجزات·

فلنذكر مصطفى ، ولنطف بتمثاله ، ولنأخذ من موته معنى الحيــاة والحرية والأمل » ·

***

كانت خطبة على ماهر فى حفل ازاحة الستار عن تمثال مصطفى كامل الذى ارتفع فى ميدان سوارس بالقاهرة ، ليصبح ميدان مصطفى كامل من ذلك التاريخ ، أروع ما قيل فى مصطفى :

***

وقد اختلفنا حول المغزى من تلك الخطبة ·· أيريد على ماهر أن يجمع الشعب من حوله مقتديا بمصطفى كامل ؟ أم أنه يريد أن يجعل من فاروق رمزا للوطنية المصرية ، كما كان مصطفى كامل ؟

وأيا كان قصد على ماهر من خطبته ، فانه ــ بحق ــ أجاد وأجاد ·· دخل قلوبنا وقلوب جماهير عديدة من الشعب ·

وكان شعب مصر ــ عقب وفاة مصطفى كامل ــ قد اكتتب بجميع طوائفه وأحزابه فى عمل تمثال لمصطفى كامل تخليدا لذكراه ·

وقام النحات الفرنسى المشهور ليوبولد سافين بنحته وصبه فى قالب من البرونز عام ١٩١٣ وعرض التمثال فى صحن كلية مصطفى كامل بالقاهرة فى ١٣ فبراير ١٩٢١ . ومنذ ذلك التاريخ كانت الأمة المصرية - كما قالت مدام جولييت آدم الكاتبة الفرنسية المعروفة - تنتظر بنافذ الصبر وضعه فى ميدان عام . ولم يتحقق ذلك الأمل الا فى ١٤ مايو ١٩٤٠ .

ولعل على ماهر قد دفع - فيما بعد - ثمن اهتمامه بتمثال مصطفى كامل وتحريضه الملك فاروق على حضــور حفل ازاحة الستار عن ذلك التمثال ووضعه فى ميدان عام وهام من ميادين القاهرة ، فما كانت انجلترا وما كان المتحزبون المصريون المعادون للحزب الوطنى ولرئيسه مصطفى كامل ينظرون الى هذا العمل نظرة الرضا والقبول .

***

دخلت ايطاليا الحرب فى ١٠ يونيو ١٩٤٠ معلنة الحرب على فرنسا وانجلترا .

وتحت دعوة البرلمان - مجلسا النواب والشيوخ - الى جلسة سرية فى ١٢ يونيو - لسماع بيان رئيس الوزراء عن ســـياسة الحكومة ازاء دخول ايطاليا الحرب .

وقد رأت الوزارة فى بيانها الذى ألقاه على ماهر باشا ضرورة تجنيب البلاد ويلات الحرب من الوفاء بتعهداتها وتقديم أكبر معونة ممكنة للحليفة فى دفاعها عن الحق والحرية فى حدود معاهدة الصداقة والتحالف .

وأن يكون موقف مصر موقفا دفاعيا مع قطع العلاقات السياسية مع ايطاليا واعتقال معظم رعاياها .

وساءت العلاقات بين السفارة البريطانية وحكومة على ماهر ونسبت السفارة البريطانية الى الحكومة المصرية ورئيسها أن له ولها ميولا نحـو ايطاليا والمحور .

***

وتلقى الملك فاروق فى ٢٢ من يونيو - بواسطة السفارة البريطانية فى القاهرة تبليغا من الحكومة البريطانية يقول بأنه لا سبيل الى التعاون بينها وبين وزارة على ماهر .

وجمع الملك زعماء البلاد وقادتها فى ٢٢ من يونيو ١٩٤٠ : افتتح الملك الاجتماع بكلمة عامة ، طلب من الزعماء بحث الأزمة بكل حرية ·

غادر الملك مكان الاجتماع·· تولى على ماهر عرض القضية بتفصيل · انتهى الاجتماع بالموافقة على استقالة وزارة على ماهر ما دام على ماهر مصرا على وجوب تقديم استقالته ·

وضع الزعماء المجتمعون الأمر بين يدى الملك ليتولاه بحكمته ·· !!

ولأول مرة فى تاريخ الوزارات لم تلجأ الوزارة المستقيلة الى تبرير استقالتها بالحالة الصحية لرئيسها التى تحول بينه وبين الاستمرار فى العمل ·

لم تبرر الوزارة استقالتها بعدم وجود انسجام وزارى يدفعها الى الاستقالة ·

عمد على ماهر فى كتاب الاستقالة الذى بعث به الى الملك فى ٢٣ من يونيو ١٩٤٠ الى ابداء السبب الرئيسى الذى يدعوه الى الاستقالة « وجود أسباب قاهرة خارجة عن ارادتنا وارادة الشعب المصرى حالت بيننا وبين الاستمرار فى الحكم ، ولهذا أرانى مضطرا الى رفع استقالتى الى مقامكم السامى » ·

***

خرج على ماهر بتلك الاستقالة بطلا شعبيا ، ولو أن انتخابات أجريت فى ذلك التاريخ ، لحصل على ماهر وحده ودون الاعتماد على أى حزب من الأحزاب على أغلبية ساحقة ·

***

وكنا وقتئذ ـ ونحن فى بداية الشباب ـ قد أعجبنا بموقف على ماهر حتى لقد قمنا ـ سرا ـ بطبع صورة له مع كتاب استقالته قمنا بتوزيعهما · وعزمنا على تنظيم مظاهرات مؤيدة له فلم نستطع لأن الأحكام العرفية كانت تحول دون قيام المظاهرات ·

***

وكبرنا وجئنا الى العاصمة وبدأنا نتردد على بعض السياسيين المطلعين على بواطن الأمور ، ورحنا نستمع منهم الى ما خفى عما واكب وزارة على ماهر التى لم تستمر فى الحكم سوى عشرة شهور وسبعة أيام من أزمات ، وتبليغات ، وانذارات ··

***

وعرفنا ـ عن طريق أولئك الساسة ـ فلم يكن الأمر معلنا ـ أن السفارة البريطانية كانت على خلاف دائم مع الملك فاروق وخاصة عندما

عين في حاشيته أحد الايطاليين واسمه فيروتشي وكان له نفوذه عند والده أحمد فؤاد ٠

وقد خشي الجانب البريطاني من وجود فيروتشي هذا ضمن حاشية الملك ٠ وقد خاطب السفير البريطاني الملك فاروق في أمر فيروتشي هذا ، ونحدث الى الملك في أمره ــ بايعاز من السفير البريطاني ــ محمد محمود باشا حتى لقد قال له محمد محمود باشا وهو الرجل المؤدب : انهم يقولون عن فيروتشي هذا أنه (٠ ٠ ٠ ٠ ٠) وأحرج فاروق رئيس وزرائه محمد محمود باشا عندما سأله (٠ ٠ ٠ ٠) لمن ؟ ولم يجرؤ محمد محمود أن يقول لفاروق : للملك أحمد فؤاد ٠ ولكن فاروق تمسك بفيروتشي هذا ٠

وكانت السفارة البريطانية على خلاف مع الملك أيضـا لأنه أقال وزارة الوفد رغم تمتعها بالأغلبية الساحقة في مجلس النواب والشيوخ ، ولم يستمع الى رغبة بريطانيا في الابقاء على وزارة النحاس ٠

وقد حاولت السفارة البريطانية ــ بايعاز من الحكومة البريطانية ــ أن تصلح ذات البين بين الملك والنحاس باشا فلم تنجح ٠

★★★

وكان الوفد المصري باستمرار يحاول احراج بريطانيا التي تخلت عنه في الوقت المناسب رغم أنه هو الذي سعى لتوقيع معاهدة ١٩٣٦ ٠

ورغم أنه هو الذي ربط مصر وبريطانيا بعلاقات متينة ٠

وكان أبرز ما قام به الوفديون احراجا لبريطانيا ، المذكرة التي قدمها الى الحكومة البريطانية في أول ابريل ١٩٤٠ وذلك عن طريق السفير البريطاني سير مايلز لامبسون ٠

ولست أدري كيف أباح الوفد المصري لنفسه مخاطبة حكومة أجنبية عن غير طريق الحكومة المصرية : طالب الوفد الحكومة البريطانية أن تصرح ومنذ الآن بأنه عندما تضع الحرب أوزارها ويتم عقد الصلح بين الأمم المتحاربة تنسحب من الأراضي المصرية القوات البريطانية جميعها سواء في ذلك القوات المعسكرة قبل الحرب أو بعد الحرب وأن تحل محلهـا القوات المصرية ٠

★★★

على أن تبقى المحالفة فيما بعد قائمة بين الطرفين بالأوضاع المبينة فيها ، وعند التسوية النهائية يجب أن تكون مصر طرفا فيها وأن يكون لها اشتراك فعلي في مفاوضات الصلح للدفاع عن مصالحها والعمل على تحقيق أغراضها معنوية كانت أو مادية ، وبعد انتهاء مفاوضات الصلح يجب أن تدخل انجلترا ومصر في مفاوضة يعترف فيها بحقوق مصر كاملة

بالغاء الاحكام العرفية وعدم الحيلولة دون تصدير القطن المصرى الى البلاد المحايدة أو ضرورة شرائه بالأسعار والشروط المناسبة .

وقد اغتبط الشعب المصرى بهذه المطالب رغم اعتراض الكثيرين على الطريقة التى قدمت بها . ولكن الجانب البريطانى ــ وعن طريق السفير البريطانى ، وفى ٦ من ابريل وباسم اللورد هاليفاكس وزير الخارجية البريطانية ــ قال : « أبلغوا النحاس باشا فى الحال أن الحركة التى قام بها ونشرت على الناس فعلا قد أحدثت لدى الحكومة البريطانية شعورا أليما للغـــاية .

ولا تستطيع الحكومة البريطانية الا اعتبار قرارات الوفد كمحاولة مقصودة للعب دور فى السياسة الداخلية فى حين أن بريطانيا العظمى مشتبكة فى صراع ليس أثره على مصر واستقلالها بأقل منه على بريطانيا العظمى نفسها .. الخ .. الخ .

★★★

ويمضى اللورد هاليفاكس فى نهـاية انذاره أو تحذيره مخاطبـا السير مايلز لامبسون السفير البريطانى : « قل للنحاس باشا ــ وأنا أحد الموقعين على المعاهدة ــ يبـدو لى أنه غير مفهوم أن يشعر النحاس باشـا الناس بأنه يريد التشكيك فيما للمعاهدة من صفة قطعية ورسمية ، وأنه ليسعدنى ــ هاليفاكس ــ أن أتأكد أن النحاس باشا سيعمل جهد طاقته لتخفيف أثر هذه الحركة التى لم تقترن بالسداد على الاطلاق » .

★★★

وقد أثارت مذكرة الوفد الى الحكومة البريطانية ضجة فى مجلسى النواب والشيوخ .

وحاول الشيوخ والنواب الوفديون وفى مقدمتهم يوسف الجندى زعيم المعارضة فى مجلس الشيوخ توضيح أهداف المذكرة .

وقامت مناقشات حادة ومشادات عنيفة فى مجلس النواب .

وانسحب النواب الوفديون من الجلسة على أثرها وكان الاتجاه العام فى مناقشات المجلسين ، استنكار أى عمل يقوم به فرد أو جماعة ويرمى الى التدخل الأجنبى . أيا كان ذلك الفرد أو تلك الجماعة .

★★★

وكان الشيوخ يوسف الجندى ، ومحمود بسيونى وحسين محمد الجندى قد تقدموا باستجواب الى رئيس مجلس الوزراء عن منع الرقيب كل تعليق أو تأييد للمذكرة المتضمنة قرارات الوفد المصرى والهيئـة

الوفدية البرلمانية ، وعن عدم نشر الرد البريطاني وجواب الوفد المصرى وعن موقف الحكومة المصرية من الرد البريطانى ٠٠ الخ ٠٠ الخ ٠

وقد كان من رأى الحكومة البريطـــانية ـ وبالتالى رأى السفارة البريطانية فى القاهرة ـ أنه لابد أن تعلن الحكومة المصرية الحرب بمجرد دحول ايطاليا الحرب ٠

وكان على ماهر يراوغ ويناور حتى لقد اعتبرته بريطانيا ـ كما اعتبرت الملك فاروق قبله من أنصار المحور ـ محور ألمانيا وايطاليا ـ فى مصر ٠

والجدير بالذكر أن الجنرال ويفيل القائد العام للقوات البريطانية فى مصر كان يريد أن يتعامل مع مصر على أنها دولة تابعة ، تؤمر فتطيع ٠

بينما كان من رأى السفير البريطانى سير مايلز لامبسون أن مصر ينبغى أن تعامل كدولة مستقلة ٠

والجدير بالذكر أيضا ـ أن الأمير محمد على توفيق عندما كان رئيسا لمجلس الوصاية على الملك فاروق قبل أن يبلغ سن الرشد كان يتآمر باستمرار ضد الملك فاروق وكان يحرض بريطانيا على عدم الثقة به بل وعلى الاطاحة به ٠

★★★

والجدير بالذكر ـ أيضا ـ ان الرأى العام المصرى كان يبتهج لأية انتصارات يحققها المحور ٠

وكانت سمعة بريطانيا فى مصر تهوى الى الحضيض بسبب تلك الانتصارات وخاصة نجاح ألمانيا فى اجتياح النرويج ، وفى الحاق الهزيمة بفرنســا ٠

ومرة تحدث السفير البريطانى فى القاهرة الى الملك فاروق بخصوص تقرير سرى تلقاه من قائد الأسطول البريطانى فى الاسكندرية يفهم منه أن الأنوار تشاهد ليلا على شواطىء الاسكندرية ومن بين هذه الأضــواء اشارات كانت تصدر من احدى غرف قصر المنتزة ٠

وأن هذه الأضواء والأنوار قد تصبح كاشارات للغواصات الألمانية أو الايطالية لتسهيل عملية بث الألغام ٠

وقد وعد الملك فاروق باجراء تحقيق فى هذا الأمر ٠

★★★

وفى هذا اللقاء الذى تم فى ١٧ يونيو ١٩٤٠ قال لامبسون للملك فاروق : انه لابد من التخلص من على ماهر ، وان على ماهر يجب أن يذهب

بسرعة ، وان الحكومة البريطانية لا توافق على عودة على ماهر الى القصر كرئيس للديوان .

وقد طلب فاروق مهلة للتفكير ..

ويسأل الملك فاروق السفير البريطانى عن الحكومة التى يفضلها فيقول السفير البريطانى أنه يجب أن تجرى مشاورات مع محمد محمود باشا زعيم الأقلية والنحاس باشا زعيم الأغلبية .

وقد ذكر الملك للسفير البريطانى أنه لا يستطيع أبدا أن يتعامل مع الرجل الذى أهانه وهو يجلس فى نفس المقعد الذى كان يجلس فيه السفير البريطانى ، ويعنى به النحاس باشا وقد حذر لامبسون الملك فاروق من اللعب بالنار وقال له : ان الجنرال ويفيل قائد قواتنا ينتظرك بقلق هذا المساء ليعرف قرارك .

وحاول فاروق ـ كما ذكر لامبسون ـ أن يدافع عن نفسه قائلا : ان الملك على مصر يرى أن من واجبه أن يحافظ على الشعب بعيدا عن الحرب وبعيدا عن الطرف الخاسر وأن لامبسون قال له : ان مصر اما أن تغرق مع بريطانيا اذا خسرت الحرب أو تنجو معها ، ومن الأفضل أن تحاول النجاة معها » .

***

وكان أحمد حسنين قد طلب من لامبسون اعطاء على ماهر فرصة أخرى ولكن لامبسون كان واضحا : على ماهر يجب أن يذهب وبسرعة .

***

وذهبت وزارة على ماهر وبسرعة .

وتبعت وزارة على ماهر وزارة حسن صبرى باشا فى ٢٨ من يونيو ١٩٤٠ وقد دخلها السعديون والأحرار الدستوريون كما دخلها حافظ رمضان باشا رئيس الحزب الوطنى وزيرا للشئون الاجتماعية ، الأمر الذى سبب انقساما خطيرا داخل الحزب الوطنى : اذ انقسمت اللجنة الادارية للحزب الى أقلية وأغلبية :

***

أقلية تؤيد حافظ رمضان باشا فى قبوله الوزارة ، وأغلبية تعارض اشتراكه فى الوزارة .

وأخذنا ـ بطبيعة الحال ـ جانب الأغلبية لم نقر حافظ رمضان على قبوله الوزارة لأننا نعارض الاشتراك فى الحكم من ناحية المبدأ .

وقد بقى الخلاف فى الحزب الوطنى قائما حتى نوفمبر ١٩٤٦ .

ولم يزد الخلاف عن كون كل من الأقلية والأغلبية قد اعتبر نفسه الحزب الوطني ·

وقد احترمت الصحف وخاصة الأهـرام هذا الخلاف فكانت تنشر ما يبعث به حافظ رمضان باشا على أنه رأى الحزب الوطني ، وكانت تنشر ما يبعث به عبد الرحمن الرافعي بك (السكرتير العام للحزب الوطني) على أنه رأى الحزب الوطني ، وكان السفير البريطاني قد أصدر تعليمات بمنع الملك فاروق من السفر خارج البلاد بأى شكل رغم اعتراض الجنرال ويفيل على ذلك ·

وقد قابل السفير البريطاني الملك في ٢٥ من يونيو ووافق السفير على اختيار حسن صبرى باشا رئيسا للوزراء بدلا من على ماهر ·

وفرح السفير البريطاني ـ كما قال ـ لذهاب على ماهر وذهاب صالح حرب باشا وزير دفاعه ·

كما فرح أيضا لاحالة عزيز المصرى باشا رئيس أركان حرب القوات المصرية ـ وهو رجل ـ كما يقول كيلرن نفسه ـ وبالحرف الواحد ـ « كانت تشك فيه بريطانيا » · « وكان غير متعاون بالمرة مع الانجليز »·

كما ابتهج لامبسون أيضـا بتعيين أحمـد حسين باشا رئيسا للديوان الملكي ، وهو المنصب الذى كان قد ظل شاغرا بعد تعيين على ماهر رئيسا للوزارة في ١٨ من أغسطس ١٩٣٩ ·· !!

***

وربما كان أهم ما حدث في وزارة حسن صبرى باشا ، المناقشات التي دارت في مصر حول دخول مصر الحرب الى جانب الحلفاء ·

وقد حمل لواء الدعوة الى دخول مصر الحرب الى جانب الحلفـاء د· أحمد ماهر باشا رئيس مجلس النواب وقتئذ ·

وقد عرض الفكرة في جلسة سرية لمجلس النواب في ٣١ من أغسطس ١٩٤٠ ووافق المجلس على تأييده للقرار السابق الصادر من المجلس في ١٢ من يونيو ١٩٤٠ والذى نصه : ان مصر التي لا تضمر عداء أو كراهية لأية دولة لا يمكن لها الا أن تقوم بالدفاع عن نفسها بكل ما تملك من قوة اذا اعتدى على أراضيها أو على جيوشها » ·

***

وكانت وجهة نظر السعديين ـ وخاصة بعد أن بدأت المناوشات على حدود مصر الغربية بين القوات البريطـانية والقوات الايطالية ـ وبدا واضحا أن ايطاليا تستعد للزحف على مصر ـ أنه لابد من اعلان الحرب على ايطاليا ، حتى تتمكن مصر من أن ترد ذلك العدوان ولا تدع مهمـة رده للقوات البريطانية فذلك أكرم لها » ·

وقد عارض الحزب الوطنى والأحرار الدستوريون والمستقلون فكرة اعلان الحرب الى جانب الحلفاء ، وخرج الوفد عن الاجابة بلا أو نعم عن السؤال المطروح بدخــول أو عدم دخــول مصر الحرب الى جانب الحلفاء بالامتناع عن ابداء الرأى مطالبين بتأليف وزارة محايدة تجرى انتخابات جديدة ٠٠ الخ ٠٠ الخ ٠

★★★

وعندما توغلت القوات الايطالية فى الصحراء الغربية واحتلت السلوم ثم بقبق وسيدى برانى فى ١٦ من سبتمبر ١٩٤٠ رأى السعديون ضرورة دخول الحرب وقيام مصر بدفع هذا العدوان ، اذ لا يليق أن تترك مصر هذه المهمة الى الحليفة بريطانيا ٠

وقد أصر الوزراء الســعديون فى وزارة حسن صــبرى باشا على رأيهم ، وعارضهم رئيس الوزراء وبقيــة الوزراء ٠ واســتقال الوزراء السعديون : محمود فهمى النقراشى ، ومحمود غالب ، وابراهيم عبد الهادى، وعلى أيوب فى ٢١ من سبتمبر ١٩٤٠ ٠

وبالرغم من مخالفتنا فى الرأى للوزراء الأربعــة ، ومعارضتنا تماما للفكرة التى كانوا ينادون بها ويصرون على تحقيقها الا أننا حملنا لهم كل تقدير فما كان أندر الوزراء الذين يستقيلون لخــلاف فى الرأى مع زملائهم ٠

★★★

كانوا وزراء شجعان بحق لأنهم وهم يعرفون جيدا ان الفكرة التى ينادون بها تلقى معارضة شبه اجماعية من الرأى العام الا أنهم أصروا على أن يكونوا صرحاء للغاية فى خطاب استقالتهم الذى بعثوا به الى رئيس مجلس الوزراء وقد جاء فيه : اجتمع مجلس الوزراء لتحديد موقف مصر، ازاء هجوم الجيش الايطالى على أراضيها وتوغله فيها ومحاولة تثبيت أقدامه بها مما لا يدع مجالا للشك فى تصميمه على غزوها خلافا لما أعلنه السنيور موسولينى من أنه لا يضمر اعتداء عليها ٠

ورغما عما حرصــت عليه من تجنب أى تحــرش أو استفزاز من جانبها ٠

فكان رأينا أنه لا محل للتردد فى المبادرة لتعزيز الدفاع عن البلاد والتقدم بهذا القرار الى البرلمان تنفيذا للخطة التى حددتها الحكومة من قبل بشأن الحرب أمام المجلسين ـ من الاقرار ـ تلك الخطة الصريحة فى وجوب الدفاع عن البلاد اذا توغل العدو فى أراضيها ٠

ولسنا بغافلين عما تتعرض له مصرنا العزيزة من ويلات الحرب ولكن خير لمصر وأكرم لعزتها وأصون لاستقلالها أن تتحمل هذه الويلات من أن تحمل عار الجبن والاستكانة والاعتماد على غيرها فى الدفاع عن نفسها ٠

وبما أن أغلبية المجلس لم تشاطرنا هذا الرأى فلا يسعنا أن نتضامن معها فى تحمل مسئولية ما ذهبت اليه من أن الحالة لم تصل بعد الى ما يقتضى اتخاذ موقف ايجابى وعرضه على البرلمان ٠

لذلك نتشرف بتقديم استقالتنا راجين التفضل بقبول وافر شكرنا على ما لقيناه من دولتكم ومن حضرات أصحاب المعالى الزملاء من حسن التعاون وكريم الزمالة ٠٠ الخ ٠٠ الخ ٠

★★★

وكان رد حسن صبرى باشا على الوزراء المستقيلين عنيفا للغاية لم يجر به العرف الدبلوماسى ولا السياسى ٠

ورغم أنه كان الحاكم العسكرى والذى يملك حق منع نشر استقالة السعديين ، الا أنه ــ رغبــة فى « حرقهم » سياسيا ــ قد سمح بنشر الاستقالة والرد عليها ٠ وجــاء فى الرد : شئتم أن تسجلوا فى كتاب استقالتكم الذى وقعتموه مع زملائكم الثــلاثة أمورا رأيتها الى الاغراق والتطير أدنى منها الى القصد والانصاف ٠

وانه ليؤسفنى أن أرانى مضطرا أن أسجل من ناحيتى فى الرد عليكم الحقيقة سافرة وضعا للأمور فى نصابها ، لقد عرضتم على مجلس الوزراء أنتم وزملاؤكم اقتراحا خطيرا يرمى الى الزج بالبلاد فورا فى أتون الحرب ومعمعانها من غير مصلحة ظاهرة أو ضرورة قاهرة فرفض المجلس بالاجماع اقتراحكم وظللتم وحدكم مقدميه ومؤيديه ٠

ورأى اخوانكم أن التريث أحجى وأخلق حين البت فى مصائر البلاد وأقدارها حتى تنكشف خفايا النيات وتتأكد بوادر الغايات ، فما كانت مصائر الأمم لتعالج بالخفة والتطير من كل حادث أو طارىء ٠

وانما تساس وتعالج بالروية والتقدير والتدبر وتقدير العواقب اذ أن سلامة الوطن يجب أن تظل وحدها غاية الغايات ٠

واذا كان ذلك واجبا فى الأوقات العــادية فهو فى هــذه الأوقات العصيبة ألزم وأوجب ، وانى اذ أبلغكم قبول استقالتكم أقدر لكم خالص الشكر ٠٠ الخ ٠٠ الخ ٠

★★★

وكانت السفارة البريطانية على أتم استعداد لتبنى هذا الاقتراح الذى تقدم به السعديون لولا أنه جاء من السعديين بالذات وعلى رأسهم د. أحمد ماهر ، ومحمود فهمى النقراشى . وبريطانيا ـ حكومة وشعبا ـ لا تنسى آبدا أن أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى كانا من غلاة الفدائيين المصريين وكانا من ألد أعداء الاحتلال البريطانى ، ورغم أنهما وقعا على معاهدة ١٩٣٦ فان البريطانيين لم ينسوا أبدا لماهر والنقراشى موقفهما القديم .

★★★

ولذلك فقد ظلت رئاسة الوزارة بعيدة عن أحمد ماهر والنقراشى طيلة فترة الحرب رغم ما كانا يناديان به من آراء هى بالقطع فى صالح الحلفاء .

لقد طارت الوزارة ـ مثلا ـ من أحمد ماهر اثر اقالة وزارة مصطفى النحاس فى ٣٠ من ديسمبر ١٩٣٧ .

كما طارت منه الوزارة مرة أخرى بعد استقالة محمد محمود باشا أو بمعنى أدق تنحيته فى ١٢ من أغسطس ١٩٣٩ .

ثم طارت منه مرة ثالثة بعد اقالة وزارة على ماهر باشا فى ٢٣ من يوليو ١٩٤٠ .

ثم طارت منه مرة رابعة بعد وفاة حسن صبرى باشا وهو يلقى خطاب العرش فى ١٤ نوفمبر ١٩٤٠ .

وهذا كله يؤكد ـ ولو ان الأمر لم يكن أبدا بحاجة الى أى تأكيد ـ ان ماهر والنقراشى وزملائهما عندما كانوا يرون ضرورة الدخول فى الحرب الى جانب الحلفاء ، لم تكن رؤيتهم تلك عن عمالة للحلفاء ، وانما كانت نابعة من وجدانهم الوطنى ، ورغم ايمانهم بأن الشعب يرفض فكرتهم الا أنهم لشجاعتهم ظلوا عند رأيهم لا يبالون أغضب الشعب عنهم أم رضى .

وتلك فى رأيى قمة الشجاعة السياسية والوطنية .

★★★

وقد لفت نظرنا ونحن نستمع الى خطاب العرش الذى كان يلقيه حسن صبرى أنه عندما أنهى الحديث عن الماضى ، وتأهب للحديث عن المستقبل ، تلجلج لسانه ، وبدا عليه الاعياء ، وحاول الجلوس فلم يستطع وسقط مغشيا عليه .

وعندما نقل الى غرفة مجاورة لقاعة الاجتماع أسلم الروح .

وأعقبه فى رئاسة الوزارة حسين سرى باشا ، وبعد أيام ـ ثلاثة

أيام ـ اجتمع مجلس النواب لينتخب رئيسه ، وكان قد نافس أحمد ماهر في تلك الانتخابات ابراهيم دسوقي أباظة ، وكانت النتيجة ١٣٠ صوتا للدكتور أحمد ماهر ، و١٠٩ صوتا لابراهيم دسوقي أباظة .

★★★

وربما كان من أهم الأحداث التي وقعت في عهد حسين سري باشا ان لم نقل أهمها وأخطرها محاوله عزيز علي المصري باشا الهروب هـو والطيار الأول حسين ذو الفقـــار والطيار الاول عبد المنعم عبد الرؤوف بطائرة اتسون ، ٢٥ من طائرات سلاح الطيران الملكي المصري بألماظة وذلك في ليلة ١٥/١٦ من مايو سنة ١٩٤٣ واضطرار تلك الطائرة الى الهبوط بعد قليل بجوار قليوب بضواحي القاهرة في مزرعة فاكهة الساعة الثانية بعد منتصف الليل لتعطل المحرك .

★★★

وخرجت الصـحف كلها في اليوم التالي لتتحدث عن أخطر عملية هروب للرجل الذي كان ـ الى فترة قصيرة ـ رئيسا لأركان حرب الجيش المصري .

وما أذكره عن عزيز المصري باشا أنه بالنسبة لنا كان شخصـية اسطورية : كنا قد قرأنا بعض تصريحات له عندما كان مفتشا عاما للجيش المصري وعندما كان رئيسا لاركان حرب القوات المسلحة المصرية ، وكانت صراحته تحببه الينا .

وكان ضيقه الدائم بالحكومات المتعاقبة وحملاته عليها وخروجه عن الروتين الذي يلتزم به الموظف العام ، اثناء وظيفته وبعد الخروج منها .

كان ذلك الضيق يدخل علينا ـ كشباب ـ السرور والبهجة .

فقد كنا وقتئذ رافضين لكل من وما حولنا .

★★★

وما كنا نسمعه نقلا عنه ـ عن سخطه على حاشية الملك ـ واتهام بعضهم بالعمل على انحراف الملك ، كان ذلك يجعل شخصية عزيز المصري تكبر في أعيننا .

مرة قام بزيارة تفتيشية وعاد ليقدم تقريرا الى وزير الحربية ضمنه الحاجة الى علاوات وترقيات ، والأموال اللازمة للنهوض بالجيش في تلك المحافظات التي زارها .

ولم يتطرق عزيز المصري في تقريره الى أية مسألة عسكرية .

فلما سأله وزير الحربية عن السبب في ذلك قال بصريح العبارة : لأنك غير عسكري وبالتالي فانك لا تفهم شيئا في الشئون العسكرية .

مرة أخـرى قال لوزير الحربية : أنت لا تفهم شيئاً فى الشئون العسكرية واذا ما أردت أن تحقق أمرا فانك لا تستطيع ٠

دعنى أجلس مكانك لأنفذ ما أريد لأننى قادر عليه ، أما أنت فتجهل كل شيء والجاهل لا يستطيع تحقيق أى شيء » ٠

★★★

ومرة سأله الصحفيون وهو واقف أمام الطائرة عن سبب سفره فقال ضاحكا : سأسافر الى بغداد لأنى فاضى والفاضى يعمل قاضى » ٠ وعندما عاد من تلك الرحلة التف الصحفيون حوله يسألونه عن تلك الرحلة التى اهتم بها الصحفيون أجاب فى سخرية : أليس عجيبا أن تهتم الصحف بنـزهة أقوم بها الى العراق لا تستغرق عدة أيام دون أن تهتم بالعطلة الطويلة التى تمنحنى اياها الحكومتان المصرية والبريطانية والتى تجاوزت سنتين وأنا مفتش عام الجيش المصرى وأتقاضى مرتبا عن تلك الوظيفة ٠

اننى دهش حقا عندما أجد الصحافة تقوم قيامتها من أجل غيابى بضعة أيام ثم تغمض أعينها عن تلك الاجازة القهرية التى أتمتع بها بالرغم عنى ، لقد حيل بينى وبين اختصاصات منصبى وأداء واجبى » ٠

★★★

فوجئنا بهروب عزيز المصرى ، وفوجئنا أكثر وأكثر بسقوط طائرته حتى لقد داخلنا الشك فيمن هربوا معه ، أو فيمن كان عزيز المصرى قد أسر اليهم بنبأ هروبه وخطة الهروب ٠

★★★

ورحنا نتتبع فى الصحف ــ فنحن خارج القاهرة ليس لنا من وسيلة لمعرفة الأخبار الا الصحف ــ أنباء سقوط الطائرة وهروب من كان بداخلها مع عزيز باشا ٠

وكنا ندعو الله سبحانه وتعالى من صميم قلوبنا الا يعثر البوليس على مكان أو أمكنة اختفاء عزيز المصرى ٠

وكانت الصحف مبالغة منها فى مناشدة الرأى العام والعثور على عزيز المصرى ورفيقيه وضرورة القبض عليهما تنشر العديد من الصـور المرسومة لعزيز باشا : مرة بدون ذقن طويلة ومرة أخرى وقد أرسل ذقنه٠

ومرة ثالثة وهو فى صورة خواجة ٠

ومرة رابعة وهو فى صورة قروى ٠

وأصاب بريطانيا العظمى هاجس من القلق لهروب عزيز المصرى ٠

وكان السفير البريطاني باستمرار دائم الصلة بحسين سرى باشا لمعرفة آخر الأخبار الخاصة بعزيز باشا ·

وكذلك كان الملك فاروق ·

ووضعت وزارة الداخلية ٢٠٠٠ جنيه ـ أضخم مكافأة حتى ذلك الوقت ـ مكافأة لمن يدل على مكان الفارين ·

وقام البوليس ـ ليلا ـ بمهاجمة مئات من المنازل وقبضوا على المئات من الأفراد ·

ونجح البوليس السياسي في معرفة المكان الذى يختبيء فيه المصرى باشا وزميلاه : منزل الفنان عبد القادر رزق المدرس وقتذاك بمدرسة الفنون الجميلة في امبابة ·· !!

★★★

وأودع الأسد القفص في ٤ من يونية ١٩٤١ بعد عشرين يوما من اختفائه ·· وبعد ٥ أشهر ـ أى في ٩ من أكتوبر ١٩٤١ قدم الى مجلس عسكرى عال لمحاكمته وزميليه ·

★★★

وكانت هيئة الدفاع عن عزيز المصرى مكونة من حافظ رمضان باشا رئيس الحزب الوطنى ، ومصطفى الشوربجى ، وابراهيم رياض ، وفتحى رضوان ، وحمادة الناحل ·

وكانت المحاكمة برئاسة اللواء عبد الحميد حافظ باشا واللواء محمد زكى الحكيم باشا وأحمد ناشد باشا وعلى باشا حسنين الشريف وشاكر منصور الروبى باشا ، والأميرالايات أحمد الصاوى ومحمد حمدى وحسين حسنى طاهر ، ومحمود هاشم وحسين محمود وغيرهم وغيرهم من ممثلى النيابة وكانت المحاكمة مثيرة للغاية ·

وقد أثارنا فيها أنه عندما سأل رئيس المحكمة عزيز المصرى باشا : هل له اعتراض على أحد من بين أعضاء المجلس الذى شكل لمحاكمته أو عليه شخصيا كرئيس لهذا المجلس ؟ وقف عزيز المصرى باشا ويده اليمنى في جيبه : اللى يهمنى في الأمر دا أن تكون المحاكمة في أيدى هيئة مصرية وطنية صادقة موثوق في عدالتها سليمة في عقيدتها مؤمنة بالله سواء كانت مسلمة أو نصرانية ·

★★★

وتعرفون سعادتكم أنه اشترط في تأليف المجلس العسكرى أن يكون أعضاؤه أكبر رتبة منى وأنا شخصيا متنازل عن هذه النقطة وأقبل حتى

أن يحاكمنى صف ضابط ، فلا اعتراض لى على ذلك اذا كانت الهيئة مصرية وطنية .

وأثار حافظ رمضان باشا نقطة قانونية هامة قال : انه باسم الدفاع عن عزيز على المصرى باشا يريد أن يحتفظ من الآن بحقه فى الاعتراض على تشكيل المجلس لأن هذا المجلس العسكرى لم يشكل تشكيلا عسكريا قانونيا .

وأنا أتكلم فى الصميم قبل حلف اليمين ، فأنا أخشى أن يفهم أن عزيز باشا يمنع بكلمته الدفاع من الاعتراض على تشكيل المجلس فنحن نحتفظ بحقنا فى الدفاع .

★★★

وأذكر ان حافظ رمضان أكد ان حادثا مشابها وقع فى فرنسا فى عصر نابليون بونابرت عندما حوكم المارشال نييه ـ أكبر قائد فى فرنسا فى ذلك العهد ـ وكان قد قدم للمحاكمة أمام عسكرى لاتهامه بالتفريط فى حقه كجندى .

وعندما سأل رئيس المجلس المارشال نييه عما اذا كان له اعتراض على المجلس أو على رئيسه أجاب : بأنه لا اعتراض له على أحد ، ولكن الدفاع عن المارشال نييه قال : ان المجلس لا يجوز له محاكمة المتهم لأن الموضوع سياسى والمجلس عسكرى .

واستقال رئيس المجلس ولم يستمر فى محاكمة المارشال .

★★★

وقد حوكم هذا الرئيس بعد ذلك وحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات لتخلفه عن رئاسة المجلس ، وعين رئيس آخر بعد المارشال لوردان لمحاكمة المارشال نييه .

★★★

ووقف عزيز المصرى شاكرا للمحامين من أصدقائه قيامهم بواجبهم راجيا ألا يكلفوا أنفسهم كثيرا من أجل الدفاع عنه .

« فقد وطدت العزم على أن أدافع عن نفسى ، وأنا رجل درست القانون ودرست النظم العسكرية وأستطيع أن أقول كل شىء » .

ثم نظر فى شىء من الأسف الى المقاعد الخالية فى قاعة الجلسة قائلا : أين الأمة المصرية .

هل هؤلاء كل البلد ؟

هل أنا متهم بسرقة بسكليت أو طيارة كما يقولون انا أريد أن يمنح

الدفاع نصف تذاكر الدعوة للجلسة التالية على الأقل حتى يحضر الشعب الى هنا ويعرف هل الراجل ده طبيب أم نصاب •

ثم أرجو أن يمنح جزء كبير من التذاكر لطلبة كلية الحقوق وطلبة كليتى البوليس والحربية ، ففى المحاكمة دروس قانونية تفيد الكثيرين » .

وقد بذلت المستحيل لكى أحصل على تذكرة من تذاكر جلسات محاكمة عزيز على المصرى باشا دون جدوى ، فقد كان التكالب على حضور تلك الجلسات من المحامين يفوق التكالب على الحضور من غير المحامين وكانت هيئة الدفاع عن المتهمين حريصة على أن تجعل القضية قضية عامة تنفذ من خلالها الى الشعب رغم وجود الأحكام العرفية والرقابة على الصحف •

لجأ الدفاع مثلا الى طبع مذكراته فى تلك القضية لا على آلة كاتبة كما جرت العادة فى كتابة المذكرات ـ وانما كان يطبعها فى مطابع على هيئة كتب وبكميات كبيرة حتى يطمئن الى وصولها لكثير من العاملين فى الحقل الوطنى •

★★★

وقد رأت الحكومة أن جلسات محاكمة عزيز على المصرى تضر أكثر مما تفيد •

وكانت محاكمة عزيز على المصرى وما صاحبها من مفاجآت قانونية أثارتها هيئة الدفاع عنه وعن زميليه من بين الأسباب التى ضاعفت من اصرارى على دخول كلية الحقوق •

وكانت شخصية عزيز المصرى باشا (العسكرية) وشجاعته واقدامه فى المحاكمة ، وكذلك شجاعة حسين ذو الفقار صبرى وعبد المنعم عبد الرءوف من الأمور التى حببت الى دخول الكلية الحربية •

وكم وددت ـ وقتذاك ـ لو استطعت دخول كلية الحقوق ودخول الكلية الحربية فى وقت واحد •

★★★

كان عدد شهود الاثبات فى القضية ١٨ شاهدا من بينهم شاهد انجليزى قال فى التحقيق : ان عزيز المصرى باشا من أشد أنصار النازية وأنه قال له قبل حادث فراره أنه ينوى السفر الى أمريكا •

★★★

وكان الدفاع قد شكك فى القانون الذى يحاكم بمقتضاه عزيز المصرى باشا لأنه قانون غير دستورى ويعقب عزيز على قول الشوربجى بك ممثل

الدفاع بقوله : لقد جاء في القرآن الشريف الذى جمع كل مبادىء الحرية ومبادىء التشريع « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » وفسر عزيز المصرى باشا الآية بقوله : ان الله سبحانه وتعالى لم يوجب العذاب لغير المهتدين الا بعد أن يبعث اليهم رسولا يبين لهم الحلال والحرام .

وكان مما قاله حافظ باشا في دفاعه عن عزيز المصرى باشا : لاحظوا أن المصرى باشا ذلك الرجل الذى حارب في اليمن وفي طرابلس والذى كل تاريخه فخار وبطولة وفضل وانتصار ، هذا الرجل العظيم لا يصح مطلقا ان يحاكم بقانون مزيف .

★★★

وقال مصطفى الشوربجى في مقدمة مرافعته بعد أن ذكر مساعد نائب الأحكام التهم التى يحاكم عليها عزيز المصرى باشا ومن بينها اغراء ضابطين ناشئين على الهرب من خدمة صاحب الجلالة الملك واختلاس طائرة من طائرات الجيش واستغلالها .. و .. : قال الشوربجى : نطلب منكم يا كبار رجال الجيش ، أيها المسئولون قبل سواكم عن سلامة الشرف الرفيع من الأذى ، أيها الذائدون عن هذا الشرف الرفيع بأرواحكم .

يطلب الادعاء منكم أن تسجلوا بيدكم المصرية في تاريخ مصر العسكرى الحافل بآيات الفخار بأن رئيس هيئة أركان حرب الجيش السابق الحائز لأعلى رتبة عسكرية والحامل لأرفع الأوسمة العسكرية قد ارتكب هذه الجرائم الخطيرة .

★★★

ان تاريخ الجيش المصرى حافل بآيات البطولة في مجاهل أفريقية : في سورية ، في اليونان ، في جنوبى بروسيا ، في المكسيك ، غازيا فاتحا منتصرا حتى ارتجفت له فرائص الدول العظمى .

هذا التاريخ الحافل العظيم يراد منكم أن تسجلوا في صفحاته المملوءة عزا وفخارا هذه السخائم .. اسألوا أنفسكم ، بل اسألوا أولادكم وأصدقاءكم ، اسألوا أى عابر في الطريق : هل تصدق أن عزيز المصرى باشا يرتكب جريمة من هذه الجرائم ، يقول لكم ، انه لا يمكن أن يصدق ذلك ، لأن مجرد اتهام عزيز المصرى باشا بجريمة من تلك الجرائم معناه احتقار البطولة المصرية .. !!

ويقول الشوربجى بك : ما هى الفائدة من حكم لا يقره الرأى العام ؟

اذا أصدرتم حكمكم في هذه القضية بالإدانة مثلا ، ولم يقر الرأى العام هذا الحكم ، فما قيمته ؟

ان الرأى العام هو الأمة وهو الناطق بلسان البلاد ، فلا يصح ان تصدروا حكما يناقض الرأى العام ٠

لا ينبغى ان يكون للسياسة دخل فى هذه القضية فالسياسة والعدل لا يجتمعان ، لأن السياسة شيطان رجيم والعدل ملاك كريم ، والشيطان والملاك لا يجتمعان ٠٠

السياسة نار جهنم والعدل حلو فرات ولذلك فهما لا يجتمعان ٠٠ واذا جاءت السياسة من النافذة ، خرج العدل من الباب ، والسياسة وحدها هى التى أوحت بهذه القضية ويجب ان نقدر مصالح الوطن وان نرتفع بأنفسنا عن الشخصيات والانتقامات » ٠

***

وكانت بعض الصحف المصرية ــ وهذا ما آلمنا الى أبعد الحدود ــ قد راحت تحاول النيل من عزيز المصرى باشا بطرق رخيصة ٠

وكان من بعض ما جاء فى تلك الصحف ؤ المصرى ٢٠ من مايو ١٩٤١ــ ان عزيز المصرى باشا عندما تولى ادارة مدرسة البوليس والادارة أدخل ضمن برامج الدراسة فن التنكر وكان مهتما بهذا الفن اهتماما كبيرا حتى أنه كان يحتم على الطلبة ان يتعلموا كيف يبدلون هيئتهم أربع مرات خلال ساعة واحدة ٠

وهنا ــ المصرى أيضا ونفس العدد ــ يقول الذين كانوا أكثر اختلاطا به فى الأيام الأخيرة انه عكف على قراءة كتب جديدة خاصة بهذا الفن ٠ وكان يقضى معظم وقته فى مطالعتها ودراسة ما جاء فيها » ولم يكن ذلك صحيحا ــ كما أكد عزيز على المصرى بنفسه أكثر من مرة ــ فلم يكن قد وضع فى ذهنه أن الخطة ستفشل وان الطائرة ستهبط وأنه لن يقبض عليه وأنه سيختفى عن أعين البوليس وسيظل مختفيا : لم يكن قد وضع ذلك فى اعتباره حتى يقرأ فى فن التخفى ٠

***

وقد بذلت محاولات كثيرة لدى هيئة المحكمة العسكرية العليا التى شكلت لمحاكمة عزيز المصرى لكى تدين عزيز باشا المصرى ومن معه،ارضاء للجانب البريطانى ، غير ان تلك المحكمة رفضت التدخل فى عملها والاستجابة لضمائر أعضائها ، فأوقفت القضية وقررت تأجيل نظرها الى أجل غير مسمى ، وكان معنى ذلك دفن القضية مؤقتا ٠

***

وقد ظل عزيز المصرى باشا ورفيقاه رهن الاعتقال الى أن جاءت وزارة مصطفى النحاس باشا ،، وزارة ــ ٤ فبراير ١٩٤٢ ــ ورغبت فى ارضاء

الملك فاروق وارضاء الجيش المصرى وخاصة الضباط الشـــباب فقـررت الافراج عن عزيز باشا وزميليه وكان ذلك فى ٥ من مارس ١٩٤٢ أى بعد تشكيل وزارة النحاس باشا بشهر ويوم وقد حرص مصطفى النحاس باشا على أن يقابل فى الساعة السابعة والنصف من مساء يوم ٥ مـن مارس ١٩٤٢ • أحمـد حمـدى سيف النصر باشا وزير الدفاع ، ثم حضرتى صاحب السعادة الفريق ابراهيم عطا الله باشا رئيس أركان حرب الجيش المصرى والفريق عزيز المصرى باشا ومعها الضابطان حسين ذو الفقار أفندى وعبد المنعم عبد الرؤوف أفندى •

وقابل الجميع رفعة الرئيس الجليل فى جناحه الخـــاص بفنـدق مينا هاوس ودامت المقابلة نصف ساعة وقد أعلم رفعـــة رئيس مجلس الوزراء عزيز المصرى باشا وزميليه انهم منذ الآن أحرارا فى الذهاب الى منازلهم على أن يكونوا تحت الرقابة المؤقتة لحين الانتهاء من اتخاذ الاجراءات التى عهد صاحب المعالى وزير الدفاع وصاحب السعادة رئيس هيئة أركان الحرب والضابط العظيم الأمر بتشكيل المجلس العسكرى الذى كان يتولى محاكمتهم ، عهد اليهما اتمامها •

وقد طلب ــ كما يقول البيان الرسمي الصادر عن رئاســـة مجلس الوزراء ــ رفعة رئيس الوزراء من عزيز باشا والضابطين ضرورة احترام القوانين والتزام حدود الواجبات التى يقضى بها الشرف العســـكرى ، فتقبلوا نصحه شاكرين وقطعوا على أنفسهم كلمة شرف بألا يصدر منهم ما يدعو الى أى ريبة نحوهم •

وكان تعليق المصرى على البيان قوله : ولا شك فى أن هذا الاجراء الذى بدا من جانب رفعة رئيس الحكومة جاء نتيجة لمساع بين السلطـات المختلفة توجت بالنجاح •

وجاءت دليلا سابغا على أن الحكومة لا تتوانى فى العمل بما يوحيه اليه ضميرها وما تستوجبه المصلحة العامة ، غير ناظرة الى أى اعتبار من الاعتبارات » •

★★★

وأخيرا ــ ليس آخرا •

لقد كان عزيز على المصرى ــ بحق ــ شخصية شعبية جماهيرية لها تقديرها واحترامها •

وعندما أحيل الى المعاش من وظيفة رئيس أركان حرب الجيش المصرى، أسف الشعب لهذا الاجراء الظالم •

وعندما سقطت به الطائرة ولم يتمكن هو وزميله من الهرب من مصر،

كان نبأ سقوط الطائرة محزنا للغاية وعندما اعتقل الثلاثة فى منزل الفنان الكبير عبد القادر رزق فى امبابة كان الناس فى شبه مأتم ٠

ولازلت أذكر أننا كنا نتسقط أنباء محاكمته وكنا نحرص على قراءة ما تنشره الصحف عن تلك المحاكمة وأكثر من مرة وصلنا الى العاصمة على أمل حضور احدى الجلسات ولكننا لم نتمكن ٠

فما كان منا الا أن ذهبنا الى المحامين الذين يدفعون عنه : حافظ رمضان ومصطفى الشوربجى بك وغيرهما ، لا لشىء الا للحصول على بعض ما يقدمه الدفاع من مذكرات فى تلك القضية حيث كنا نتولى نسخ مذكرات الدفاع وأحيانا نطبعها فى منشورات ونوزعها على أضيق نطاق ٠

***

وكان عزيز على المصرى باشا قد أحس ــ منذ سقوط الطائرة ــ بأنه وقع أسيرا فى أيدى الانجليز لكن ثقته بنفسه وبرجولة من معه ، وكذلك تعاطف الجماهير معه وكراهيتها المطلقة للانجليز ، قد خففت عنه الآلام والأحزان التى تسببت بسقوط الطائرة ٠

وكان عزيز باشا فى محاكمته ــ كما قال لى مصطفى الشوربجى بك ــ يبدو وكأنه هو الذى يتهم الادعاء وليس الادعاء هو الذى يتهمه ٠

وكان فى قمة تألقه الفكرى والذهنى وكان نموذجا رائعا للشجاعة خاصة بعد أن عرف أن الشعب ــ كل الشعب ــ يقف الى جانبه فى قضيته ، ولا أقول فى محنته ، فالقضايا الوطنية ليست محنا أبدا ٠

***

وكان الشعراء والزجالون ، ومنذ اليوم الأول لنشوب الحرب يمنون الناس بالسلام ــ مثلا فى أواخر عام ١٩٣٩ وأوائل عام ١٩٤٠ قال حسين شفيق المصرى تحت عنوان : تفاءلوا بالعام الجديد ٠

ذهب العام ، وعام مقبــــل ... وكذا دنياك عام ، بعد عـام
وسينسى ما مضى من شــدة ... ورخاء وبكـــاء وابتســـام
اذا حرب أتى العـــام بهـــا ... فسيأتى بعده عام ســـلام

الى أن يقول :

فالى التـاريخ يا عـاما مضى ... ليس بالعائد الا فى الكـــلام
والينا ايها العـــام الــذى جاء بالبشرى لاسـعاد الأنـــام
رب نار ، أوقدت رحمـــة ... كالهدى منبعثا من الهيـــام

وعلى لسان هتلر ، الحائر ، قال شاعر مجلة الاثنين :

والبحر ولكننى هنـــا واقف ... مثل سجين بـين أســـوار
والبحر مســـكون عفاريتـــه ... ذوات أنيـــاب وأظفـــار
ولست سباحـــا وما كان لى ... أن أغلب البحـــر بأوزارى

وما لنـــا فى الأرض بائع   اذا طلبنـــاه ولا شـــار
وأرضنا ضاقت على من بهـا   وأصبحت أضـيق من دارى
وعن يسارى الجيش لكنـــه   بالحصر قد أمسى كأصفـــار

★★★

وبعد الحديث بالزجل عن ورطة هتلر فى الدانمرك والنرويج قال الشاعر الزجـال :

فتحت باب المـوت مستهترا   لى ولاصحابى وانفـــارى
وقد هدمت اليوم حصنى فـلا   بد لهم من الأخـذ بالثـار
يادهوتى ، ياوحستى يا عمى   عينى ، ويا موتى ويا عـــارى
ولست قطـا ان مضى عمـره   تبقى لـــه ستة أعمـــار

★★★

ومرة أجرى زجال روز اليوسف حوارا بين هتلر وموسولينى عـلى النحو التالى ، حيث بدأ هتلر الحوار مخاطبا موسولينى :

حوش الدموع من عينك الا الدمع دبلهـم
وارخى جفـونى كمـــان منى وســبلهم

قربنا نرسى خـــلاص يادوتشى والأحسن
نطمـــن الحـزب والعـــزال نضللهـــم

ويقول موسولينى :

اضحك على الخيبة والا أضحك على المحنة
والا على البومة اللى عششت ريحنـــا

بعد الزمن ما صالحنا واتعدل ريحنـــا
سيبنى أعدد وافضفض من تباريحنـــا

سيبنى أنا اعتدت لما انضرب أبـــكى
ما اعرفش أضحك وسن الرمح جارحنا

ويقول هتلر :

أخيه عليك فى سياستـــك دى وتدبيرك
الحزم تضحك ولو أكل الزمن غيـــرك

وتنضرب تعمل ان الضرب فى غيـــرك
ويبقى الخزوق طول كـده تنشـد مزاميرك

وتقول من القوة أخد الدم موصوف لى
لو تطرش الدم من طيقـــان مناخيـرك

★★★

وكان زجال روز اليوسف قد سبق له ان قال مخاطبا أمين عثمان باشا الذى كان دائم التنقل قبل اقالة واستقالة على ماهر باشا من رئاسة الوزارة بين مجلس الوزراء ووزارة الحقانية ووزارة الخارجية ووزارة الداخلية وكان الزجل تحت عنوان « ولو » وقد جاء فيه :

ياماشى تخبط بغصن زتـون على الأبـواب
وتوزع الشهد من فمك على الأحبـاب
ونقسم الجنـة حتـة حتـة ع الأحزاب
لكل مؤمن بسحرك سهم فى الجنـة
ولكل حزب وزعيم فيها رصيد وحساب
تعبت روحـك في ده قال ودا اتقال لـه
وأنبح صوتك واوتار صـوتك انحلـوا
وحفيت من الجرى حتى اتربى لك كاللو
والمغربى مغربى والشامى فضـل شامى
واللى بيتعب هدر الراحة أفضل له
ارتاح مفيش فايدة لو شهدك عصير الراح
والجنة بابها اتقفل بالضـبة والمفتـاح
والحلم اللى انت شفته كان أمل واهو راح
ارتاح ولو ساعة واحدة في النهار واهبط
والبوسطجى يلف لفه يا أخى ويرتاح

وكان الأمير محمد على توفيق ولى العهـد قد صرح باننا لابد ان نساعد الانجليز عمليا • وفى رسم كاريكاتيرى رائع وقف المصرى أفندى يخاطب ولى العهد قائلا : سموك صرحت بأننا لازم نسـاعد الانجليز عمليا • نساعدهم ازاى ؟ على طريقة يا حبيبى أنا باموت علشانك وأنت ماعندكش خبر ، والا على طريقة عاونى وأنا أعاونك ؟ اذا كان كده مفيش مانع ، نعاونهم على العين والراس •

وكان النحاس باشا قد تناول الغذاء بدعوة من السفير البريطانى • وقال له زجال روز اليوسف :

يا مولى وجهـك الى جاردن سـيتى ياللى
بتصـلى فى ضلهـا خاشـع ومتجـلى
جانى بن حنبل يبـكى فى المنـام قال لى
مـا للـرئيس الجليـل ؟ هو بروستنتى

يعطى لعابدين قفاه الضهر ويصلى

***

قصر الدوباره انبدل ماؤه يا باشا سراب

وانسد محرابه راخر ما بقاش محراب

وتبره أمسى وأصبح فى الأيادى تراب

وانفك سحره اللى كان يسخط زمان البوم

يتسبح حمام وانسخط القمرى بكلمة : غراب

صلى ، وكل وانبسط وانذل واتهنا

وحط ايدك على شبباكه واتمنا

واملا عنيك من ترابه كحل واتحنا

على الله قصر الدوباره يرجعك تانى

للحكم يوم ما يعود ابليس الى الجنة

***

ومن الأمور التى تدعو الى البسمة ، ونحن هنا نحاول أن نعطى صورة لصحافة تلك الأيام التى أعقبت اشتداد نيران الحرب ، ان الأستاذ أحمد فهمى أبو الخير – وكان فى عام ١٩٤٠ مديرا لادارة السينما بوزارة المعارف – كان فى نفس الوقت متخصصا فى تحضير الأرواح ٠ وفى جلسة كان الوسيط فيها أحمد زكى عزمى أفندى استحضر – كما قيل ونشر – روح نابليون بونابرت ٠

وفى البداية قال الوسيط صاحب الجلاء البصرى ان الأرواح الحاضرة هى ، ابرام طنطاوى جوهرى ، السيد عبد اللطيف ، نابليون ٠

وقد تحدث السيد نابليون عن الحرب ، بعد أن حيا الحضور بتحية المساء : بونسوار ٠

وكان مما جاء على لسان نابليون ان الحلفاء سوف ينتصرون وأنه لا خطر على مصر ٠

وان الجيش الافريقى الايطالى سوف يقضى عليه قضاء مبرما ٠

وان مصر لن تكون ميدان حرب وان هتلر وموسولينى سوف يفقدان مستعمراتهما الألمانية والايطالية ٠

وأن المانيا ستقسم بعد انتهاء الحرب الى مقاطعات صغيرة ، ولكن نابليون قال ان باريس لن تسقط فى أيدى الألمان ٠

وأن مصر بعد الحرب ستكون فى حالة رخاء عام وسيعمها السلام والوئام بين كل الطوائف وستعطى بعض البلاد مكافأة لها على ما قدمته

لحليفتهما من المساعدة فى ظروفها العصيبة ، ومن البلاد التى ستعطى لها — كما قال نابليون بونابرت — السودان وجزء من الصومال الايطالى ، أما طرابلس ليبيا فستعطى لانجلترا كما يقول نابليون أيضا — سيسود العدل بعد الانتصار على ألمانيا ، وتنال كل الشعوب طلباتها . بحيث أن الشعوب التى لا يمكنها أن تحكم نفسها ستكون تحت انتداب مع معاملتها معاملة الدول المستقلة • وعندما تصل للدرجة التى يمكنها فيها ان تحكم نفسها تترك وشأنها •

ويظهر ان نابليون بونابرت فى هذه الجلسة كان نابليون انجليزى وليس نابليون فرنسى •

***

ويبقى بعد ذلك — للمعرفة ليس الا — أن ننشر برنامج الاذاعة فى يوم ٣١ من مارس ١٩٤٠ كنموذج لبرامج الاذاعة فى تلك الأيام وهو كما يلى :

٩ر٣٠	صباحا	الشيخ محمد عكاشة (قرآن كريم)
٢ر٠٠	بعد الظهر	(إسطوانات) •
٦ر٠٠	شريط	الرئيس حافظ على وفرقته مزمار بلدى •
٦ر١٠	شريط	سميرة وصفى وكورس أغانى شعبية •
٦ر٣٠ — ٧ر٠٠		اسطوانات : موسيقى هندية مذاعة من محطة القاهرة الاضافية •
٦ر٤٥		الشيخ منصور الشامى الدمنهورى (قرآن كريم) •
٧ر٢٠		الآنسة سعاد زكى وفرقتها •
٧ر٤٠		السيدة سمية فهمى (حديث) •
٨ر٠٠		الأستاذ محمد عبد الوهاب وفرقته : نشيد الجهاد •
٨ر١٠		وزارة الدفاع الوطنى (حديث) •
٨ر٥٠		اسطوانات •
٩ر٠٠		الحديث الرابع من أحاديث سلسلة كلية العلوم بجامعة فؤاد الأول عن العلوم المبسطة •
٩ر٢٠		الأستاذ محمد عبد المطلب وفرقته •
٩ر٥٠		اسطوانات : منتخبات فكاهية •
١٠ر٠٠		الآنسة سعاد زكى وفرقتها (حفلة غنائية) •
١٠ر٣٠		الأستاذ محمد عبد المطلب •
١١ر٠٠		تقريبا — سلام الملك — ختام •

وكان من نجوم الاذاعة المصرية ــ المصرية اسما ــ فى تلك الفترة من كبار المقرئين : الشيخ محمد رفعت والشيخة كريمة العدلية والمشايخ على محمود ، على حزين ، عبد العظيم زاهر ، ومحمود صبيح ، محمود محمود هاشم ، وزكى محمد شرف ٠

★★★

وكان من أشهر المتحدثين فى الاذاعة ، فكرى أباظه ، عباس محمود العقاد ، أحمد أمين ، سلامة موسى ، أحمد الصاوى محمد ، الشيخ عبد العزيز البشرى ٠

وكان لكل وزارة من الوزارات أحاديث اسبوعية ، أو كل أسبوعين ، يتناوب فيها المسئولون فى الوزارة ــ فيما عدا الوزراء ــ الحديث عن نشاط وزارتهم ٠

وكانت هناك أيضا أحاديث متفرقة عن الآثار المصرية ، مثلا ، حديث للأستاذ محرم كمال عن الأسرار فى الآثار المصرية ٠

وكانت هناك اذاعات اسبوعية مخصصة للمدارس الابتدائية وأخرى للمدارس الثانوية ٠

وكانت الفرق الموسيقية ، والغنائية تشكل الجزء الأكبر من البرامج ٠

★★★

وفى بعض الأحيان كان يتخلل بعض أغانى الفرقة الواحدة حديث اجتماعى ، أو فنى ٠

ومن أشهر المطربين والمطربات والفرق الفنية فى الاذاعة المصرية وقتئذ : نادرة وفتحية محمود ، وعبد الغنى السيد ، ومحمد البحر وحياة محمد ، ومحمد الكحلاوى ، ابراهيم حجاج وسيدة حسن ــ وكانت تغنى أغانى شعبية ــ وثريا حلمى ٠

وكان لكل مطرب أو مطربة فرقة خاصة به ، أو بها ٠

وكانت سهرة الخميس من نصيب أم كلثوم ، وكانت السهرة تبدأ فى العاشرة والنصف مساء وتنتهى عادة فى منتصف الليل ٠

وكان من بين البرامج : برنامج الفنانين الشبان ، يشترك فيه : كامل العطار ، وفرحات بطاطه ، وكارم محمود ٠

وكان يجرى تخصيص وقت معين لفنانى الاسكندرية ٠ وكان الفنانون الشبان يقدمون أيضا ــ الى جانب الأغانى ــ بعض الفكاهات أو قصص أبوزيد الهلالى سلامة ، والزناتى خليفة ــ لأحمد شفيق المصرى ــ وكان يقرؤها أبو بثينة ٠

ولزيادة المعلومات أنقل ما نشرته الأهرام فى ١٩٣٨/٦/٢ عن برامج الاذاعة وكان عامودين بكاملهما . وقد كانت الصـــحف تنشر الى جانب البرامج ارشادات للجمهور حتى يتعرف المستمع على طول الموجـة وعدد الكيلو سيكلات ، وعدد الكيلو وات .

وكان لدينا فى هذا الوقت ثلاث اذاعات : واحدة منها رئيسية تذيع من القاهرة واثنتان بالاسكندرية وأسيوط .

وكان لدى الاذاعة برنامج عربى وآخر أوربى .

***

كانت الاذاعة المصرية ــ مثلا ــ تفتتح ــ عادة ــ فى الساعة السادسة والنصف صباحا على تمرينات رياضية لبليغ صفوت ولمدة ربع ساعة ، بعدها القرآن الكريم لمدة ربع ساعة أيضا .

وفى العاشرة صباحا : اسطوانات مختارة من الأقطار الشرقية .

وفى الساعة الثانية وعشر دقائق اسطوانات .

وفى الثانية وأربعين دقيقة ــ بعد الظهر ــ نشرات جوية واخبارية وتجارية .

***

وفى الخامسة والنصف مساء ــ أيضا ــ قرآن كريم لمدة ٤٥ ق الشيخ عبد العظيم زاهر : سور الانفطار والمطففين والإنشقاق والبروج والطارق . وفى السادسة و ١٥ ق وفى نفس اليوم أيضا ــ ١٩٣٨/٦/٢ ــ أوركسترا الاذاعة اللاسلكية (حفلة موسيقية) .

ثم حديث للدكتور طه حسين عن كتاب على « هامش السياسة » للدكتور حافظ عفيفى لمدة ثلث ساعة ، ثم أوركسترا ، ونشرتان اخبارية وتجارية وحديث للسيدة زاهية أحمد مرزوق عن مشاكل الأطفـــال ، واسطوانات .

وفى التاسعة والنصف فرقة هواة التمثيل بالاذاعـة اللاســلكية المصرية وتقدم رواية « الرشيد » للأستاذ محمد سعيد لطفى ، وفى الساعة ١١ مساء تقريبا السلام الملكى .

***

وفى البرنامج الأوربى : أنباء واسطوانات موسيقية وأغان .

وأنباء وشئون الأطفال ثم شئون المرأة وموسيقى راقصـة وأغان مختلفة .

يبدأ البرنامج الأوربى ـ مثلا ـ من ١٥ر١ ظهرا وينتهى فى الساعة الحادية عشرة مساء بسلام الملك .

من مختارات اذاعة لندن فى نفس اليوم ، ١٧ر٧ مساء بيانات اذاعية ، ٢٠ر٧ حفلة موسيقية من الأستاذ صالح عبد الحى : الليل يطول قدر ده وده وان عاش فؤادك .

وحفلة من الآنسة أسمهان : ياللى فى حبك ، كله يا نور فؤاد . وفى الثانية تماما : دقات ساعة بج بن والنشرة الاخبارية العربية .

★★★

اذاعة فلسطين تبدأ فى الخامسة والنصف مساء بالنشرة .

ثم حديث الأطفال للآنسة وديعه شطاره .

ثم الياس بشارة مرقص وفرقة استوديو الإذاعة .

وكذلك منتخبات من أغانى عبد الغنى السيد ورجاء عبده من فيلم وراء الستار . وفلاحنا بين عهدين للأستاذ محمد رزق ، والآنسة مارى عكاوى ، وفرقة استوديو الاذاعة .

وفى الساعة ٧ والدقيقة ٤٠ م النشرتان الجوية والاخبارية .

وفى ٨ م البرنامج العبرى ثم النشرات الجوية والاخبارية بالانجليزية و[illegible]

والختام فى العاشرة والنصف مساء .

★★★

وفى بعض الأحيان كانت صلاة الجمعة تذاع من بعض المساجد مثل مسجد الأمير محمد على بالمنيل .

★★★

وبالمناسبة أيضا كانت الصحف ـ وخاصة الأهرام ـ تولى أهمية بالغة لمحاضرات اليوم .

فى يوم ١٩٣٨/٦/٢ ـ مثلا ـ كان الشيخ امام يس عويس يحاضر فى جمعية الهداية الاسلامية بالجيزة « تفسير سورة النور » وفى جمعية الهداية الاسلامية بميدان عابدين بالقاهرة كان الشيخ على محفوظ يحاضر فى « بدع الموالد » .

وفى جمعية أصدقاء الكتاب المقدس ببورسعيد : كانت محاضرة عيسى وهب الله أفندى بعنوان : كيف نرقى بالشباب .

وفي جمعية الشبيبة المسيحية (راغب باشا بالاسكندرية) كان حلمى بولس يحاضر فى موضوع : « المخدرات والمسكرات » .

وكانت بعض الجمعيات ــ كما هو الحال بالنسبة لجمعية الهداية الاسلامية ــ تنظم محاضرتين فى اليوم الواحد ، بل أكثر من محاضرتين .

ففى جمعية الهداية الاسلامية فى الجيزة بالاضافة الى ما سبق كان الأستاذ حسن شافعى ــ فى نفس اليوم ــ يحاضر فى الكشف ، وعبد المنعم العيسوى يحاضر فى صلة الرياضة بالبدن ، وعبد اللطيف خطاب يحاضر فى السفور .

ولم تكن المحاضرات قاصرة على العاصمة الأولى ، القاهرة ، أو العاصمة الثانية الاسكندرية ، اذ كانت المحاضرات تلقى فى كثير من الأقاليم ــ فى نفس اليوم ــ ١٣٩٨/٦/٢ ــ مثلا ــ وفى جمعية الوعظ والارشاد بأبى قرقاص ــ كانت محاضرة الشيخ محمد عبد العزيز بعنوان : آداب الجوارح وتصريفها فيما هو صالح » .

***

وكان قسم الوعظ والارشاد بالأزهر ينظم محاضرات يومية بعد العصر للسيدات ، أحاديث للمشايخ : محمد سليمان النجار (كلية الشريعة) وعبد السلام المنير (كلية أصول الدين) وأحمد قطب (جمعية تحفيظ القرآن بامبابة) .

وبعد المغرب يحاضر الأستاذ عبد الوهاب سليم بمسجد السيدة فاطمة النبوية .

وبعد العشاء : محمد عبد التواب ومحمود على أحمد بجمعية الاخاء والاصلاح الاسلامى (شارع عبد العزيز رقم ٤٩) .

وسيد رجب بجمعية التعاون على البر والتقوى بمصر القديمة .

ومحمد عامر بجمعية تحفيظ القرآن الكريم .

***

وكانت المحاضرات التى تنظمها الجامعة الأمريكية بالقاهرة على مستوى عال من ناحية اختيار الموضوعات واختيار المحاضرين .

وكانت تضع اشتراكا رمزيا لا يجاوز قرشين ، ويدفع المشترك الاشتراك فى الموسم الثقافى كله · مجموعة من التذاكر تعطى دفعة واحدة للمشترك وعند دخوله أية محاضرة كانوا ــ على باب قاعة ايورات ــ يأخذون القسيمة الخاصة بالمحاضرة ·

وكان الموعد محددا لا يتقدم ولا يتأخر دقيقة واحدة ·

وكان النظام دقيقا للغاية والسكون مثاليا بحيث اذا رميت ابرة أو دبوسا فى القاعة يمكن سماع صوته ·

وما أردت من الاسهاب فى ذلك كله الا التأكيد على ان الشباب كان يجد فرصا عديدة كل يوم لكى ينمى موارده الثقافية عن طريق المحاضرات والندوات الثقافية والدينية وغيرها ·

وقد وضعت قيود عديدة على المحاضرات وقت الحرب ·

كما وضعت قيود على كل شىء فى مصر ، فمن ناحية ·· لم يعد ممكنا القاء محاضرة فى مكان ما حتى ولو كان فى داخل جمعية أو نقابة أو اتحاد ، أو أية هيئة ما بدون تصريح من وزارة الداخلية ·

***

كما أن الصحف لم تعد تولى أهمية للمحاضرات ، اذ تقلصت صفحات الصحف من اثنتى عشرة صفحة للصحف اليومية الى أربع صفحات فقط ·

واصبح لزاما على الصحفيين أن يضغطوا المواد الصحفية الى أبعد الحدود ، حتى ان انطون الجميل رئيس تحرير الأهرام كان يقول للصحفيين الذين يعملون فى الأهرام : اضغطوا أخباركم على النحو الذى نستطيع فيه أن نضغط كامل الشناوى ــ وكان ضخم الجثة ــ لنضعه فى جيب صالح البهنساوى ــ وكان صغير الحجم للغاية » ·

***

لقد كانت الحياة لا تطاق ، فمن حرب طاغية ضروس لا ترحم ، الحصول فيها على المواد التموينية الضرورية من الأمور العسيرة ، الحريات فيها مقيدة الى حد بعيد ، و · ولم يكن ينقصنا الا أن نتنفس بقرار من الحاكم العسكرى ··

الى احتلال طاغ ، باغ لا مثيل له فى دنيا الاحتلال ·· احتلال يمص الدماء تدريجيا حتى ليكاد المرء لا يحس بذلك حتى يتحول المواطن الى شبح مخيف ·

***

وقد كنا وقتذاك نقارن بين الاحتلال الفرنسى الذى يلقى بزعماء المقاومة الى أعماق السجون ويوجه الدبابات الى صدور المتظاهرين تحصدهم حصدا وبين الاحتلال الايطالى الذى يأخذ القادة الليبيين مثلا فى الطائرات ويلقى بهم من عل ، والذى يضرب به المثل فى الشراسة • وبين الاحتلال البريطانى الذى يسـلب المواطن بهدوء حريته وماله وقوته ، ولا يقبل المواجهة الا فى حالات نادرة للغاية •

كنا نرى ان الاحتلال الانجليزى أشد وأعتى من الاحتلال الفرنسى والاحتلال الايطالى لأن البريطانى يمزق الصفوف ويسلب القوة بمعسول الكلمات والوعود ، الى أن يصل ــ فى النهاية ــ الى تحقيق أهدافه وهى خلق حالات من اليأس القاتل وتحويل الجماهير الثائرة والغاضبة الى جماهير مستسلمة وذلك عن طريق بعض أبناء الوطن الممالئين للاحتلال •

بعكس ما هو عليه الحال بالنسبة للاحتلال الفرنسى ، أو الاحتلال الايطالى حيث يعمد الاحتلال الفرنسى أو الايطالى الى المواجهة الى الحرب ، دون المراوغة والمماطلة وسلب الدماء نقطة نقطة •

على أية حال كانت تلك الأيام أقسى أيام حياتنا •

وهل هناك أقسى وأعنف من أيام يكون للمحتل الأجنبى الغاشم والغادر كل القوة وكل السطوة ، حتى ليجبر هذا المحتل السلطة الرسمية والشرعية فى البـلاد على أن تختار لرئاسـة الوزراء ــ مثلا ــ شـخصا بعينه تحت وطأة التهديد بالدبابات والمدافع الرشاشـة وقوات جيش الاحتلال •

وانتقلنا بسبب حادث ٤ فبراير
من العمل فوق الأرض الى العمل تحت الأرض

كان حادث ٤ فبراير بلا جدال أهم الأحداث التى أثرت فينا كشباب تأثيرا سيئا للغاية وأقولها بصدق وأمانة ان هذا الحادث قد نقلنى أنا شخصيا من دنيا المظاهرات والاجتماعات وارتداء الكرافتات السوداء وكتابة المنشورات وتوزيعها وتنظيم الاجتماعات الجماهيرية الى دنيا العمل تحت الارض ٠

كان حادث ٤ فبراير قد أصاب كرامتنا الوطنية فى الصميم ٠

كان قد نال من كبريائنا كما لم ينله أى حادث اليم آخر ٠

لم يكن الأمر أبدا متعلقا باستقالة وزارة والمجىء بوزارة أخـــرى فاننا لم نكن نهتم بمثل هذه الحركات المسرحية ٠

وقد كنا نعرف أنه كما توجد دورات زراعية حيث تأتى زراعة القطن فى أعقاب زراعة البرسيم وبعد القطن يأتى القمح أو الاذرة وهكذا فانه لابد من اتمام الدورة السياسية : حكومة أقلية تتغير وتتبـدل قد تضم بضعة أحزاب وقد تضم حزبا واحـــدا ، ثم حكومة محايدة تجىء بعدها حكومة الوفد وبعد حكومة الوفد تأتى حكومة أقلية ٠

وهكذا تجرى دائما دورة الوزارات ٠

وكنا نعرف فى نفس الوقت أن أية وزارة تجىء الى الحكم تسير فى نفس المدار الذى كانت تسير فيه سابقتها مع تغيير طفيف فى بعض الأمور المظهرية •

وأحيانا تحدث بعض التغيرات الجذرية •

ولكنها تتحول بفعل فاعل الى عكس ما أريد لها فى البداية •

ولذلك لم نكن نهتم ابدا بتغيير الوزارات وتبدلها ثقة منا من أنها لن تأتى أبدا بأى جديد جوهرى •

وما دمنا نحن فى المعارضة باستمرار فسيان عندنا أن تكون فى الحكم وزارة أقلية أو وزارة أغلبية لأننـــا لن نغير مواقعنا ولا مواقفنـا ولن ننتقل أبدا الى صفوف الحكم •

★★★

ولكن ما حدث فى ٤ من فبراير ١٩٤٢ كان ماسا برمز البلاد وهذا الرمز أيا كان الرأى فيه وأيا كانت أخطاؤه بل خطاياه فانه يبقى رمزا حتى لو كرهناه أو عملنا على تغييره وتبديله فما دام باقيا كرمز ينبغى أن يظل منا ـ ولو أمام العدو الخارجي ـ موضع التقدير والاحترام •

لم نهتم أبدا بالحوار الدائر فى عابدين حول الوزارة القومية وحول الوزارة المحايدة وحول الوزارة المشبعة بالعطف تجاه الوفد •

ذلك الحوار لم يكن يهمنا فى قليل أو كثير •

ولكن الذى كان يهمنا حقـا وبالدرجة الأولى أن السفير البريطانى حمل انذارا الى رمز البلاد : الى الملك بأنه اذا لم يســـمع قبل الساعة السادسة مساء أن النحاس باشا قد دعى لتأليف الوزارة فان جلالة الملك فاروق يجب أن يتحمل ما يترتب على ذلك من نتائج » •

وكان ما يعنينا بالدرجة الأولى كشباب وطنى آن دبابات بريطانية مسلحة بالمدافع قد رابطت أمام قصر عابدين (قصر الملك) وأن السفير البريطانى قد حضر بصحبة الجنرال ستون قائد القوات البريطـــانية فى مصر وبعض كبار الضباط البريطانيين مسلحين بالمسدسات وأن السفير البريطانى والجنرال ستون دخلا عنوة الى غرفة الملك واجتمعا به بحضور أحمد حسنين باشا وكان السفير البريطانى يحمل ورقة للملك بتنازله عن العرش •

وأن فاروق طاطأ رأســـه للعاصـــفة حتى مرت وقبـــل الانذار البريطانى •

ودعا الملك مصطفى النحاس طالبا منه تشكيل وزارة وفدية كما طلبه الملك من رئيس الوزراء الجديد أن يذهب الى السفير البريطانى ليبلغه تكليف الملك له بتشكيل الوزارة الجديدة ٠

وكان فى ذلك ما فيـــه مـن اذلال للملك واذلال لرئيس الوزراء الجديد ٠

★★★

لم يكن يعنينا قبول النحاس باشا تشكيل الوزارة أو عدم قبوله كما أنه لم يكن يعنينا كشباب أن نلقى اللوم على النحاس باشا أو عـلى أحزاب المعارضة أو حتى على الملك نفسه فكل الذى يعنينا حقا أن كرامتنا الوطنية كشعب قد أهدرت وأن زعماءنا السياسيين قد فشلوا فى انقاذ تلك الكرامة : كل الذى كان يعنينا وقتئذ حقيقة أن بريطانيا العظمى قد وجهت سهام الغدر الى صدور المصريين جميعا وهى كلها سهام مسمومة ٠

ولذلك زادت الكراهية ضـــد بريطانيا بل تضاعفت فى صدر كل مصرى ومصرية ٠

ولعلى لا أتهم بالمبالغة اذا ما قلت أن الجرح الذى خلفته بريطانيا فى صدورنا جميعا ظل ينزف دما حتى بعد خروج القوات البريطانية مـن مصر ٠

ولعلى لا أتهم بالمبالغة أيضا اذا ما قلت أن حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ كان له من الآثار السيئة فى نفوس الشعب المصرى أكثر من أى حادث آخر فى تاريخ الاحتلال البريطانى لمصر ٠

ولقد ضاعف من الآثار السيئة لذلك الحادث أنه جاء فى وقت تقف فيه الحكومة المصرية والجيش المصرى الى جانب القوات البريطانية وفى وقت نجوع فيه نحن الشعب لتمتلىء بطون القوات البريطانية وحلفائها بأقوات الشعب المصرى ٠

لم نهتم بالأسباب التى أدت الى حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ ولا بالظواهر السياسية والاجتماعية التى واكبته ولاحقته ٠

★★★

كما أننا لم نكتف بالقاء اللوم على حزب الوفد وحده فى تلك المأساة وانما القينا اللوم والمسئولية بطبيعة الحال على كل زعماء الأحزاب المصرية والشخصيات السياسية المصرية التى القت بنا الى هذا الدرك من الخزى والعار حيث عجزوا وعجـــزنا معهم عن الثأر للتـــاج المصرى وللكرامة المصرية ٠

وللأمانة التاريخية نقول : لقد وجد من بيننا من لم يلق اللوم أكثر على مصطفى النحاس لأنه قبل الحكم بارادة الملك وخوفا من أن يطاح به وبعرشه ٠

***

والكلام فى هذا الموضوع يحتاج الى صفحات وصفحات ولكننا اجمعنا على أن موقف الوفد بعد أن استولى على الحكم لم يكن ابدا كريما بل كان موضع مؤاخذتنا جميعا وبدون استثناء ، وخاصة عندما بالغت القيادات الوفدية فى اذلال الملك وفى الجنوح الى جانب انجلترا بأكثر مما رغبت انجلترا ذاتها ٠

***

وعندما لجأت الى الانتقام من خصومها السياسيين ومن خصوم بريطانيا بالسجن والاعتقال لآماد طويلة :

أخذنا على حكومة الوفد مثلا أن جماهيرها هتفت بحياة انجلترا وممثل انجلترا عندما ذهب السفير البريطانى الى مجلس الوزراء المصرى لتهنئة النحاس باشا بالوزارة ٠

وأنه ـ أى النحاس باشا ـ أقام للسفير البريطانى حفل تكريم كبير فى ١٢ يناير ١٩٤٣ بمناسبة الانعام عليه بلقب لورد قال فيه كلاما كنا ننزه مصطفى النحاس أن يقوله ٠

أخذنا مثلا على حكومة الوفد أنها تسيبت أو تناست تماما المطالب التى كانت قد تقدمت بها الى الحكومة البريطانية فى ابريل ١٩٤٠ عندما كان حزب الوفد فى المعارضة ٠ لم تشر الحكومة الوفدية بعد أن أصبحت فى الحكم الى أى من تلك المطالب التى هلل لها الوفد وكبر شهورا طويلة عديدة ٠

أخذنا على حكومة الوفد مثلا اعتقالها لعلى ماهر باشا فى حرم مجلس الشيوخ سنة ١٩٤٢ ثم الخلاف والاختلاف مع مكرم عبيد وفصله من الوزارة ومن الوفد واعتقاله وانصاره عام ١٩٤٣ ٠

***

وكانت قضية مكرم عبيد باشا قد أثرت فينا الى حد كبير ٠

صحيح أننا لم نتعاطف مع مكرم عبيد باشا خاصة أنه كان عنيفا للغاية مع أحمد ماهر والنقراشى عندما اختلفا مع الوفد بل كان عنيفا الى درجة لا يتصورها أحد ضد حق أى وفدى يخرج على زعامة مصطفى النحاس ٠

ثم ان توقيت مكرم عبيد للمعركة التى قرر أن يخوضها ضد قيادة الوفد كان سيئا للغاية وبالنسبة لمكرم باشا شخصيا ٠

لم نتعاطف مع مكرم عبيد باشا لأنه قد وقر فى اذهاننا كشـــباب ثقافته مصدرها الصحف الحكوميـــة وصـــحف المعارضـــة أن مكرم عبيد باشا مسئول الى حد كبير عن معظم الأخطاء التى وقع فيها الوفد ٠

ثم اننا قد لاحظنا ـ وذلك ما بعث فينا الشـك ـ العلاقة الوثيقة بين أحمد حسنين باشا وبين مكرم عبيد باشا قبل أن يخرج مكرم باشا من الوفد ٠

وكنا قد بدأنا كشباب نشك فى الخطوات التى يخطوها أحمد حسنين باشا لما كنا نظن أنه فيها « صديق » لبريطانيا وقد نكون على حق أو لا نكون فنحن كنا نستقى ـ كما سبق أن قلت ـ معلوماتنا من الصحف ومن أفواه بعض السياسيين الذين كنا نتصل بهم فى بعض الأحيان وقد يكون بعض هؤلاء السياسيين مغرضين ٠

***

وبعض البعض لم تكن تحليلاته السياسية سليمة ١٠٠٪ ٠

ونظرا لأهمية الفترة التى تلت اقالة وزارة على ماهر وأسـميها ، اقالة لأنى أحب ـ وخاصة فى تلك المذكرات التى أحاول ان أبدو فيها على سجيتى حتى تكون أقرب الى الصدق ـ أن أسمى الأسماء بمسمياتها الحقيقية وليس بما يطلق عليها تاريخيا أو سياسيا نظرا لأهمية وزارة حسين سرى باشا التى اعقبت وزارة حسن صبرى باشا والتى سبقت ٤ فبراير ١٩٤٢ ولأهمية الرجل ـ حســين سرى باشا ـ فى الحيـــاة السياسية وقتذاك لما كانت تربطه من علاقات وثيقة بالسير مايلز لامبسون ٠

ونظرا أيضا لأهمية احداث ٤ فبراير وما تلاها من أحداث على المستوى المحلى استأذن القارىء لهذه الذكريات فى أن أركز على بعض أمور قـــد أراها هامة جديرة بالتسجيل بل والتركيز عليها لأنها أثرت فى وجداننا من ناحية ولأنها ساهمت فى صـــنع الأحـداث التاريخية التى وقعت وقتئذ ٠

٠ وأبادر فأقول اننى حرصت على أن أستزيد من المعلومات عن تلك الفترة بقراءاتى الكثيرة واستماعى الى كثير ممن شاركونى فى صنع تلك الأحداث ان سلبا وان ايجابا فيما بعد ٠

***

وربمـا كانت وجهة نظرى فى بعض تلك الأحداث تختلف عمـا تعارف الناس عليه أو عما استقر رأيهم عليه على أنها ـ فى البداية وفى النهاية ـ مجرد وجهـة نظر شخصية بحتة يتحمـل صاحبها وحـده مسئوليتها ·

ان فى القاء مسئولية الأحداث التى وقعت فى ٤ فبراير ١٩٤٢ وما قبله وما بعده بقليل على الجانب البريطانى وحده خطأ كبير ·

ولابد لكى نكون منصفين لأنفسنا مسايرين للواقع ودارسين للحقائق الثابتة والواضحة أن نلقى المسئولية على كثير من السياسيين المصريين الذين كانوا يضطلعون بالحـكم وقتذاك أو كان لهـم على الأقل صلاتهم الوثيقة بصناع القرار ـ أى قرار سياسى صغر شأنه أم كبر ـ وفى مقدمة من ألقى عليهم المسئولية حسين سرى باشا : انه مهندس عظيم ولكنـه سياسى ضعيف ·

وقد كان يعرف ضعفه هذا ويلجأ الى مداواته بالاعتماد على الجانب البريطانى وبعد أن استغل علاقته بالملك فاروق لأن زوجته هى خالة الملكة فريدة استغلالا سيئا فى البداية ثم لما حصل الخلاف بين فاروق وفريدة استغل هذا الخلاف لتدمير فاروق من الداخل ·

***

ولا أحد من الساسة الانجليز الذين كانت لهم مكانتهم فى السفارة البريطانية بالقاهرة ينفى ان حسين سرى باشا كانت له دالة عليهم وانهم كانوا يعتبرونه « رجلهم » فى الوزارة وعندما أخرج من الوزارة بعد عجزهم عن حمايته لأنهم كانوا يرون وزارته جثة هامدة حاولوا تعيينه رئيسـا للديوان الملكى فى المكان الذى كان يشغله أحمد حسنين باشا : حسين سرى باشا هو الذى أكد للسفير البريطانى مايلز لامبسون أن على ماهر باشا ـ وهو رئيس للوزارة ـ يتآمر على بريطانيا ·

وحسين سرى باشا كان ينقل كل خلافاته مع الملك رأسا الى السفير البريطانى وفى بعض الأحيان كان حسين سرى يتعمد احراج الملك فى بعض الأمور فلا يستشيره فيها وهو عارف أن تلك الأمور سوف تكون سببا فى احداث مشاكل بين الملك والسـفارة البريطانيـة كحادث قطع العلاقات مع حكومة فيشى التى كانت تابعة للألمان أو حكومة للجزء الذى تسيطر عليه ألمانيا من فرنسا مما أدى الى أزمة مع وزير الخارجية المصرية واصرار الملك فاروق على ضرورة استقالته لأنه لم يأخذ رأيه فى موضوع قطع العلاقات قبل اتخاذ قرار فيه ·

***

وحسين سرى باشا الذى اقترح مجىء حكومة الوفد بعد ذهاب حكومته ، كان يستطيع لو حسنت نيته أن يقترح مجى حكومة ائتلافية ٠

ولكنه كان يرى أن يعقد الأمور أولا وقبل شىء أمـام الملك فاروق ومثل حسين سرى باشا من السياسيين المصريين كثيرون ٠

ولن نضع ضمن هؤلاء أمين عثمان باشا لأننـا فى الأصل نعتبره واحدا من الجانب البريطانى ولذلك فاننا عندما نضعه ضـمن المصريين بالمولد فاننا لا يمكن أن نحاسبه الا كسياسى بريطانى يعمل بالأصل فى خدمة بريطانيا العظمى ومصلحتها عنده فوق أى اعتبار آخر ٠

★★★

من الظلم أيضا أن نحمل المظاهرات التى انطلقت هاتفة : « الى الأمام يا روميل : تقدم يا روميل : حذاؤنا فوق رأس جورج » الى آخر تلك الهتافات الصاخبة ٠٠ تحملها مسئولية ٤ فبراير ٠

ان الانجليز لم يهتموا أبدا بتلك المظاهرات ولم تكن من بين الأسباب التى أدت الى قيام أزمة بين الملك والانجليز أو كانت من الأسباب التى عقدت الأمور بين الملك ورئيس وزرائه حسين سرى ٠

★★★

الازمة بين الملك والانجليز بدأت فى أوائل عام ١٩٤٢ ثم اتخـذت فيما بعد أبعادا جديدة ٠

الاتفاق على المجىء بوزارة الوفد مع السـياسـيين البريطانيين والعسكريين البريطانيين كان قد تم قبل وقوع تلك المظاهرات بل ان اعداد خطاب تنازل الملك فاروق عن العرش فى دار السفارة البريطانية كان قد تم قبل قيام تلك المظاهرات ٠

★★★

ولعلى أردت من ابداء وجهـة النظر تلك فى عدم التركيز على تلك المظاهرات التى ثبت انهـا ليست من اعداد الوفد ولا من اعداد القصر وانما هى من اعداد جهات كان يهمها الصيد فى الماء العكر وهى فى الغالب جهات تتصرف وفق تكتيكات سياسية سرية للغاية ٠

وربمـا كان للبوليس السـياسى دوره فى اعداد تلك المظـاهرات خاصة وان البوليس السياسى وقتئذ كان يدار من أكثر من جهة ٠

★★★

وهذا القول لا ينطبق بأية حال من الأحوال على مظاهرات الأزهـر التى كان يدعمها الشيخ المراغى وكانت تهدف فى البـداية الى تحقيق مطالب خاصة ٠

ولكن يبقى السؤال التاريخى الهام معلقا : أكان مصطفى النحاس باشا يعرف ما تدبره السفارة البريطانية من اجراءات لاجبار الملك على أن يشكل النحاس وزارة جديدة ؟ •

والسؤال المطروح هنا لا يتعلق بمسئولية النحاس باشا عن الحادث أو عدم مسئوليته فلسنا الآن فى مجال محاسبة تاريخية وانما يتعلق السؤال بمعرفة أو عدم معرفة النحاس باشا بحقيقة ما كانت تدبره السفارة البريطانية ازاء الملك فاروق •

★★★

وأبادر فأقول ان الثابت فعلا أن النحاس باشا كان يعرف الكثير من المعلومات عما تدبره السفارة البريطانية لا عن طريق سير مايلز لامبسون السفير البريطانى فى القاهرة وانما عن طريق أمين عثمان باشا•

وقد فضلت السفارة البريطانية منذ بداية الأزمة ألا تجرى اتصالات بالنحاس باشا مباشرة حتى لا تحرجه أمام الملك وأمام زملائه من الزعماء السياسيين •

فضل السفير البريطانى سير مايلز لامبسون أن تتم الاتصالات بالنحاس باشا عن طريق أمين عثمان باشا •

★★★

فأمين عثمان باشا هو الذى اتصل بالسفير البريطانى فى الساعة الحادية عشر صباح الثلاثاء ٣ فبراير ليقول له انه قادم بموافقة النحاس باشا وان النحاس باشا مستعد لتولى الحكم اذا ساندته السفارة ، ثم يسأل أمين عثمان باشا السفير البريطانى : ماذا تقترح أن يفعل النحاس باشا بعد ظهر اليوم فى القصر ؟ • وكان النحاس باشا قد دعى الى القصر كغيره من الزعماء لمقابلة الملك •

وقد أبلغ سير مايلز لامبسون أمين عثمان باشا أنه يجب على النحاس باشا أن يرفض أية فكرة يقدمها القصر عن الحكومة المؤقتة التى ليست سوى لعبة من القصر حتى تمر العاصفة •

★★★

وقد ذكر أمين عثمان أنه سيعود الى النحاس باشا ليعرض عليه الموقف ويرى ماذا يقول •

وان أمين عثمان عاد الى السفير البريطانى ومعه رد النحاس باشا الذى يتلخص فى أن النحاس باشا كان مستعدا فى وقت سابق لقبول فكرة حكومة محايدة أما الآن فانه ضد هذه الفكرة تماما •

وقد قال أمين عثمان للسفير البريطانى أن الوفد سيتعاون مع السفارة حتى لو لم تكن هناك معاهدة وأنه اذا كان النحاس قد تعاون مع السفارة فى زمن السلم مرة فانه مستعد أن يتعاون معها فى زمن الحرب عشر مرات ولكن كل ما يطلبه أن تطلق يده وأن يكون حرا فى اتخاذ قراراته وخصوصا ما يتعلق بالقصر ٠

★★★

ويذكر أمين عثمان للسفير البريطانى ـ وكان ذلك فى يوم الثلاثاء ٣ فبراير قبل أن يعهد اليه الملك بتشكيل الوزارة ـ أن النحاس باشا على أتم استعداد بعد أن يؤلف حكومة وفدية أن يخصص دوائر معينة للاحزاب الأخرى فى الانتخابات وأن يكون مجلسا استشاريا من زعماء الاحزاب كنوع من الرمز للائتلاف ويؤكد سير ما يلز لامبسون ذلك بقوله: كان هذا هو ما اتفقت عليه مع أمين عثمان باشا وكان هذا ما سيقوله النحاس باشا للملك عند مقابلته له فى القصر ٠

وفى السادسة من مساء نفس اليوم ـ ٣ من فبراير ١٩٤٢ ـ عاد أمين عثمان باشا للاتصال بالسفير البريطانى ليبلغه ما جرى فى القصر وما قاله النحاس للملك ٠

وقد كان أمين عثمان على اتصال مستمر فى تلك الليلة مع السفير البريطانى ٠

★★★

وفى يوم ٤ من فبراير ١٩٤٢ وقبل أن يوجه السفير البريطانى انذاره الى الملك ـ وبعد أن تم اعداد وثيقة التنازل عن العرش بواسطة والتر مونكتون الرجل الذى أعد وثيقة تنازل ادوارد السابع عن العرش ـ اتصل أمين عثمان باشا فى الواحدة بعد الظهر بالسفير البريطانى الذى طلب منه ابلاغ النحاس باشا بنص الحديث الذى دار بين السفير البريطانى وبين أحمد حسنين وملخصه أن يبلغ الملك بأنه يتحتم على الملك بأن يستدعى « النحاس باشا وأن يكلفه بتشكيل الوزارة » وكان ذلك الحديث قد تم فى مساء يوم ٣ فبراير وان السفير طلب من أمين عثمان أن يبلغ النحاس باشا أنه من الضرورى جدا أن يقوم النحاس باشا بابلاغ السفارة البريطانية بمكانه اذا احتاج الأمر للاتصال ويقول السفير البريطانى بصراحة لأمين باشا : آمل ألا يكون النحاس باشا قد تراجع عن موقفه ٠

★★★

ويجيب أمين باشا ان النحاس باشا لم يغير موقفه وانه يخشى أن نكون السفارة البريطانية هي التي غيرت موقفها .

ويقول أمين باشا أنه تولى بنفسه طمأنة النحاس الى أن الانجليز جادون هذه المرة مع الملك .

وقبل أن يتناول السفير البريطاني غداءه اتصل به أمين باشا عثمان ليقول له : المعلومات التي لدى النحاس باشا تقول ان الملك يحزم حقائبه .

ويقول السفير البريطاني ان أنباء آمين باشا أزعجته فتوجه مايلز لامبسون للاجتماع بالقادة العسكريين لابلاغهم الموقف .

وتم الاتفاق على مراقبة مطارات القاهرة ومداخل القاهرة حتى لا يهرب الملك وحتى اذا أفلت وهرب من القصر فانه يضر بنفسه .

وكان اجتماع الزعماء في القصر قد انتهى بادانة الانذار البريطاني واعتباره انتهاكا خطيرا للمعاهدة المصرية البريطانية والاستقلال وقد وقع على البيان كل الزعماء بمن فيهم النحاس باشا .

وقبل أن يتوجه السفير الى الملك ومعه الدبابات وصل أمين عثمان باشا الى منزل السفير الذى سأله عن توقيع النحاس باشا على بيان الزعماء كما سأله هل في وسعنا (البريطانيين) الاعتماد على النحاس اذا استمرت العملية ؟

وقال أمين عثمان انه يراهن بآخر مليم عنده ان النحاس باشا صامد عند موقفه الذى أبلغه لنا وانه اذا كان النحاس باشا فعلا قد وقع على مذكرة القصر فلأنه اضطر الى ذلك .

★★★

كل ما سبق يؤكد ان النحاس باشا كان على صلات وثيقة مستمرة بالسفارة البريطانية قبل وبعد وقوع حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ عن طريق أمين عثمان باشا .

ان السفارة البريطانية ما كانت لتجازف بالتهديد بخلع الملك اذا لم يكلف مصطفى النحاس باشا بتشكيل الوزارة ما لم تكن السفارة على ثقة مطلقة من أن النحاس باشا سوف يقبل تشكيل الوزارة .

وقد كان ذهاب مايلز لامبسون السفير البريطاني في مصر ومعه الجنرال ستون مسرحية سياسية هي الأولى من نوعها في التاريخ المعاصر بل وما قبل التاريخ المعاصر .

★★★

كانت عينه ـ لامبسون ـ توجعه فى صباح الأربعاء ٤ فبراير ١٩٤٢ ولكنه واصل العمل •

وكان أول من لقيه فى الصباح هوبكنسون من وزارة الحرب البريطانية وهو صديق قديم له وكان أحمد حسنين باشا قد اتصل به طالبا مقابلته : ذهب الى سفير بلاده فى القاهرة ليعرض عليه الأمر لم يخش السفير هنرى هوبكنسون ولم يراع ما بينهما من صداقة وانما قال له : اذا كنت وافقت على الذهاب الى مكتب حسنين باشا كما قلت لتتحدث فى الأمر فأنا ـ لامبسون ـ بصراحة لا أوافق على الذهاب الى حسنين باشا أو أن تراه •

لم يعارض هوبكنسون فالذى يقول هذا الكلام هو الذى يوجه شئون السياسة البريطانية فى هذا الجزء من العالم بعد أن يستأذن رؤساءه فى لندن •

قال سير مايلز لامبسون أن هناك طريقين لمعالجة مسألة دقيقة مثل هذه مع القصر : الأولى ان يظل المرء حازما وان يرفض أية حلول وسط لتلك التى يعرضها حسنين باشا •

والطريق الآخر ان يتدخل آخرون فيفسدون العملية •

ويقول لامبسون بصراحة اذا تدخل آخرون من العسكريين أو من وزارة الحرب فى مشكلة القصر فسوف انفض يدى نهائيا منها •

أبلغ لامبسون ما دار بينه وبين هوبكنسون الى مجلس الحرب وأخذ المجلس بوجهة نظر لامبسون •

فصل لامبسون الخطة التى سيجرى تنفيذها اذا أصر الملك على عدم تشكيل النحاس باشا للوزارة ودارت مناقشات طويلة وحامية حول هذا الموضوع انتهت بوضع خطة لمحاصرة القصر بالدبابات واجبار الملك على التنازل •

★★★

واقترح أميرال البحرية وضع الملك فاروق بعد تنازله عن العرش فى احدى سفن الاسطول البريطانى كسجن •

ولأن هذه مهمة العسكريين فقد ترك لامبسون أمرها لهم •

اتصل لامبسون بفيتز باتريك باشا نائب رسل باشا فى بوليس القاهرة ـ وهما للعلم موظفان مصريان يتناولان مرتبيهما من مصر وهما

منذ توقيع المعاهدة يعاملان معاملة الموظفين المصريين ـ وأوضح لهما أن هناك أمورا خطيرة يمكن أن تحدث وان عليهما الاتصال بجنرال ستون لتلقى التعليمات ·

استدعى لامبسون والتر مونكتون الذى أعد وثيقة تنازل الملك ادوار السابع عن عرش بريطانيا لرغبته فى الزواج من مسز سمبسون ليعد وثيقة تنازل الملك فاروق قبل أن يأمره بالتنازل عن العرش ·

راجع لامبسون الوثيقة مراجعة دقيقة حتى لا تحتوى على أية ثغرة ·

وعندما اقتربت الساعة من الثامنة وجد لامبسون أن يؤجل الموعد ـ موعد الانذار ـ ساعة للانتهاء من بعض الترتيبات الخاصة بمحاصرة القصر ·

***

وفى الساعة الثامنة والدقيقة الأربعين مساء ركب سيارته ومع الجنرال ستون وفى الطريق الى قصر عابدين روى له تفاصيل الحوار الذى دار فى السفارة وقراره ـ قرار لامبسون ـ بعد اجبار الملك على التنازل اذا خضع للمطالب البريطانية ·

وصل لامبسون وستون الى قصر عابدين وكانا قد رأيا فى طريقهما الى عابدين طوابير من المصفحات والعربات المدرعة والدبابات وهى تحيط بالطرق المؤدية الى القصر وبالقصر ذاته ·

وكانت دهشة موظفى القصر بالغة أشدها وهم يستقبلون السفير البريطانى وقائد القوات البريطانية فى مصر ·

★★★

وتأخر موعد مثولهما امام الملك خمس دقائق وكان لامبسون على وشك أن يصيح فى رجال القصر أنه غير مستعد للانتظار غير ان الاذن قد جاء للقاء الملك : حاول رجال القصر منع الجنرال ستون من الدخول مع لامبسون ولكن لامبسون نحى أولئك الموظفين جانبا ودخل هو والجنرال بدت الدهشة على الملك ·

اقترح الملك أن يبقى حسنين باشا فأذن لامبسون بذلك ·

دخل لامبسون فى الموضوع مباشرة قال للملك : لقد سلمنا أحمد حسنين باشا رسالة حول ضرورة أن يكلف النحاس باشا بتأليف الوزارة قبل الساعة السادسة مساء وأن يجيب بـ « نعم » أو « لا » ·

وبدلا من ذلك سلمه حسنين باشا رسالة اعتقد أن الجواب فيها « لا » ·

ويسأل لامبسون الملك هل جوابك : نعم أم لأ .

وعندما حاول الملك الخروج عن الموضوع الخاص بالاجـــابة عـلى السؤال نعم أم لا .

قاطعه لامبسون بشيء من الغضب قائلا : يا صاحب الجلالة ان الموقف فى غاية الخطورة واعتقد انك لا تريد ان تقول نعم وأنك المسئول عما يحدث وتلا لامبسون الخطاب الذى كان قد أعد فى السفارة البريطانية ونصه : يا صاحب الجلالة لقد أصبح واضحا ومنذ فتره طويلة أنك خاضع لتأثير مستشارين غير مخلصين للتحالف مع بريطانيا العظمى أكثر من ذلك أنهم ضد هذا التحالف .

ان هؤلاء المستشارين يقومون بمساعدة العدو وموقفـــك العـام يا صاحب الجلالة أيضا واتصالاتك تعتبر خرقا للمادة الخامســـة مـن معاهدة التحالف التى تنص على أن الاطراف الموقعة على المعاهدة يجب الا تتبع سياسة خارجية لا تتفق والتحالف .

كما أنك يا صاحب الجلالة بالاضافة الى كل ذلك أثرتم عمدا أزمة حول قرار اتخذته الحكومة المصرية (السابقة) استجابة لطلب تقدمنا به كحلفاء لمصر وهو طـــلب يتفق تماما مع المادة الخامســـة من معـاهده ١٩٣٦ .

وأخيرا فانكم يا صاحب الجلالة بعد أن فشلتم فى تشكيل حكومة ائتلافية رفضتم ان تعهدوا بتشكيل الوزارة الى زعيم الحزب السياسى الذى يحصل على تأييد شعبى كبير فى البلاد كما أنه الوحيد الذى يتيح له موقعه أن يضمن لنا استمرار تنفيذ المعاهدة بروح الصـــداقة التى وقعت المعاهدة به .

وهذه التصرفات الطائشة التى تتسم بعدم الشعور بالمسئولية من جانبكم يا صاحب الجلالة لستم أهلا بعد ذلك للبقاء على العرش » .

★★★

ويطلب لامبسون فور قراءته تلك المذكرة من الملك فاروق أن يوقع على وثيقة التنازل التى صيغت كما يلى : نحن فاروق ملك مصر : لما كنا نضع نصب اعيننا مصالح بلادنا فاننا نتخلى ونتنازل عن عرش المملكة المصرية بالنسبة لنا وبالنسبة لورثتنا ونتخلى أيضـا عن كل الحقـوق الملكيـة والامتيازات والسلطات التى تخولها لنا تلك الحقوق ونحن نخلى رعايانا أيضا من الالتزام بالولاء لشخصنا .

صدر فى قصر عابدين ٤ فبراير ١٩٤٢ » .

تردد الملك قليلا فى التوقيع على التنازل ، وأوشك أن يوقع على تلك الوثيقة خاصة وكان لامبسون قد هدد الملك باستخدام اجراءات غير سارة اذا لم يوقع على وثيقة التنازل ، تحدث أحمد حسنين باشا الى الملك باللغة العربية حديثا لم يعيه لامبسون وبعد لحظات من التوتر الرهيب والقلق الشديد قال الملك لمايلز لامبسون وقد بدا على الملك التراجع • أما من فرصة أخرى تعطى لى ؟

ولم يتراجع لامبسون بل قال للملك : أولا يجب ان اعرف اقتراحك بالتفصيل •

★★★

وقال الملك ـ وكل ما ورد هنا من مناقشات ونصوص من طرف الجانب البريطانى وحده ـ أنا مستعد أن استدعى النحاس باشا وفى حضورك الآن لتكليفه بتشكيل الوزارة وانه ـ أى الملك ـ مستعد أن يقول للنحاس باشا ان له الحرية كاملة فى تشكيل حكومة وفدية يختارها بنفسه •

★★★

تردد لامبسون فى قبول عرض الملك ولكنه قال أخيرا ـ تحت تأثير الرغبة فى عدم حدوث أية تعقيدات أخرى ـ : أوافق على أن أمنحك فرصة أخرى بشرط أن يتم التنفيذ فورا •

وغادر لامبسون وستون ، القصر ومرا فى ردهاته بكثير من الجنود الانجليز الذى كانوا قد اتخذوا مواقعهم داخله وفى ايديهم مدافع من طراز « تومى جانز » وقد صوبوها الى من يدخل القصر •

ورأيا ـ لامبسون وستون ـ خارج القصر الدبابات والمصفحات فى كل مكان •

« لقد نجحت العملية » هكذا صاح لامبسون فى النهاية •

★★★

وبعد دقائق يتصل حسنين باشا بمايلز لامبسون قائلا بثورة : لا تزال الدبابات تحاصر القصر وتمنع أى قادم اليه من الدخول حتى النحاس لا يستطيع الدخول الا اذا سحبت تلك الدبابات من حول القصر •

وقد كان : صدرت التعليمات العسكرية البريطانية بعودة الدبابات الى مواقعها الأصلية •

★★★

بعد نصف ساعة ـ وياللاذلال ـ وصل النحاس باشا الى دار السفارة البريطانية ليقول للسفير ان الملك كلفه بتشكيل وزارة وفدية امره بأن يتجه فورا من قصر عابدين الى دار السفارة ليخبر السفير البريطانى بأنه أمر بتشكيل الوزارة الوفدية وأنه ـ أى الملك ـ أوصى زعيم الأغلبية بأن يتفق مع السفير على أسماء الوزراء المصريين وقال لامبسون وقد امتلأ بنشوة الانتصار . اننى أفضل أن أترك لك يا نحاس باشا حرية اختيار وزرائك .

وبعد الاختيار نجلس ونناقش فى كل الأمور .

***

وقال النحاس باشا ان هناك عناصر شريرة داخل القصر الملكى المصرى ـ لا القصر البريطانى بطبيعة الحال ـ وخارجه يجب استئصالها فورا .

ويقول المنتصر الأول الفيلد مارشال مايلز لامبسون : رغبتى أن أكون خلف الستار وأن أترك لك يا نحاس باشا حرية اتخاذ القرارات التى تريدها .

كان ذلك ما حدث بالضبط أو قريبا منه فى السفارة البريطانية وفى قصر عابدين أما ما عرفه الرأى العام عن ذلك الذى حدث فقد كان مختلفا تمام الاختلاف بعيدا كل البعد عن الحقيقة لم تشر أية صحيفة مؤيدة أو معارضة الى قيام الدبابات البريطانية بمحاصرة قصر عابدين بل لم تشر أية صحيفة الى نزول دبابة أو مصفحة بريطانية الى شوارع القاهرة .

أكثر من ذلك راحت صحيفة المصرى تؤكد على أن تنشر ما حدث فى مصر من استقالة وزارة حسين سرى باشا وتشكيل النحاس باشا للوزارة الجديدة على أنه انتصار للشعب لا يعادله أى انتصار .

راحت المصرى ـ كما قالت ـ تنشر فى اليوم السادس من فبراير . فى صفحتها الأولى « وثيقة رسمية تاريخية تزيد الموقف وضوحا وجلاء : باسم العرش ومصر قبل مصطفى النحاس تأليف الوزارة بعد أن اعتذر أولا وبأمر جلالة الملك تقدم رفعته ، لانقاذ الموقف من تطورات لم يكن له يد فيها : حل مجلس النواب الحاضر وتقصير المدد الانتخابية : برنامج سياسة وزارة الشعب .

***

كان وزراء الوفد الى جانب مصطفى النحاس باشا ، عثمان محرم باشا ، مكرم عبيد باشا ، أحمد نجيب الهلالى بك ، حمدى سيف النصر

باشا ، عبد السلام جمعة باشا ، على زكى العرابى باشا ، محمد صبرى أبو علم ، عبد الفتاح الطويل ، على حسين باشا ، كامل صدقى بك .

★★★

وفى الصفحة الأولى أيضا نشرت المصرى جواب مصطفى النحاس باشا على خطاب تكليفه بالوزارة : يا صاحب الجلالة تفضلتم فعهدتم الى مهمة تأليف الوزارة فى هذه الظروف الخطيرة وأبيتم الا أن تزيدونى شرفا فوق شرف بأن أعربتم بلسانكم الكريم المرة بعد المرة والكرة بعد الكرة عن ثقتكم فى وطنية هذا الضعيف وانكاره لذاته مؤكدين أن هاتين الصفتين الكريمتين اللتين شاء فضلكم أن تسدوهما الى تقضيان على بأن أتقدم لانقاذ الموقف وأتحمل مسئولية تطورات علم الله أنه لم يكن لى يد فيها بل جلبها على البلاد غيرى بأعماله أو باهماله فأصبح من واجبى كمصرى وكوطنى اذا اتسعت لذلك جهودى أن أنقذ البلد من نتائجها وأجنبها وزرها بعد أن ظهرت بوادرها وتكررت نذرها .

قدرت المسئولية ووزنت عبء أثقالها فرجحت أمام عيني كفة ضعفى عن احتمالها فاعتذرت عن قبول الوزارة فتفضلتم فأصررتم فزادنى اصراركم على الثقة بى خشية من الثقة بنفسى ولكنى ازاء أمركم الصادر الى باسم العرش ومصر قبلت وعلى الله توكلت .

★★★

وكان أول عهد ألزمت به نفسى أن أحاول انقاذ البلاد من خطورة الموقف الأخير فأخطو خطوة عملية فى هذا السبيل قبل المضى فى تأليف الوزارة بل كشرط أول اشترطته على نفسى قبل السير فى تأليفها .

وقد رأيت أن خطورة الموقف لا تكفى فى معالجتها كلمة أقولها أو صيحة أرسلها أو وعود أبذلها بل يجب لوضع الأمور فى نصابها أن تؤتى البيوت من أبوابها فيصدر تصريح من الجانبين يحفظ للوطن استقلاله وحقوقه وتقطع لنا الحليفة عهدا رسميا بمحو ما عكر أو ما من شأنه أن يعكر صفو الجو بين الحليفين .

★★★

وتحقيقا لذلك اجتمعت بسعادة السير مايلز لامبسون السفير البريطانى فى مصر وأوضحت له وجهة نظرى التى بها تصان حقوق الوطن وتتوطد صلات المودة والتحالف بين مصر وبريطانيا فتلقيت من سعادته رغبة صادقة أكيدة فى تنفيذ المعاهدة بين بلدينا على أساس الاحترام والود المتبادلين ومعاملة مصر معاملة الند من غير مساس باستقلالها وحقوق

سيادتها أو تدخل فى شـــئونها الداخليـــة وبخاصـة تكوين أو تغيير وزاراتها •

وتنشر المصرى فى الصــفحة الثانية من العدد الصادر فى ٧ من فبراير تحت عنوان : يوم فى التــاريخ : أشرف موقف فى أدق موقف فلتشهد الأمة ، ولسجل التاريخ •

وينشر المصرى تحت تلك العناوين أن مصطفى النحـاس لم يقبل من أجل الحكم اقتراف جريمة ولا دس على الأمة نكرا ولا ارتكب طمعـا فى السلطان اثما ولا زورا ولكن صان مصر وأنقذ كرامتها واســتخلص سيادتها الذاتية من محنة يعلم الله وحده ما كان يعقبها لو أن اللاعبين بالنار مضوا فى لعبهم سادرين مستهترين •

وتقول المصرى حين دعى مصطفى النحاس باشـا من لدن صاحب العرش المفدى وملك مصر العزيز لم يتردد فى انقاذ البــلاد من الخراب الذى غمرها والفاقة التى أضنتها والويلات التى ازدحمت عليها وويلات فى الأقوات وويلات فى المعايش والخيرات : ويلات فى حقوق السيادة ، وويلات فى الحياة العامة من سائر النواحى والجهات •

وينهى المصرى المقالة بقوله : الى الأمام اذن مصطفى النحاس والى الوراء كل آثم ودساس والله فى عون المخلصين •

★★★

وكان المصرى قد سبق له في ٦ من فبراير أن ركز على فرحة الشعب بتأليف الوزارة الوفدية مشيرا الى تحية الجموع الحاشدة بالنادى السعدى لمصطفى النحاس والى اســتقبال المجاهد الكبير مكرم عبيد باشا بعاصفة مدوية من التصفيق ، مجلجلة متدفقة من الهتاف بحياة البطل الباسل والمجاهد البار الذى يختلب الألباب •

وكان المصرى قد أشار أيضا فى نفس اليوم الى أن روح الاغتباط بوزارة الأمة عمت البلاد وغمرت جميع الهيئات •

نشرت المصرى ـ مثلا ـ برقية للأستاذ محمــد توفيق دياب الى مصطفى النحاس يقول فيها : ندعو الله مخلصين بأن تنقذ بكم ســفينة الوطن » •

كما ينشر المصرى فى نفس اليوم أن وفودا من طلبة دمنهور الزراعية حضروا الى النادى السعدى لتحية مصطفى باشا وأن موجات من الفرح قد غمرت جميع طبقات الشعب في سمنود والمحلة والزقازيق وبنى سويف والاسكندرية وبورسعيد الخ •

***

وفى ٨ من فبراير وفى الصفحة الأولى تنشر المصرى عناوين بارزة وكبيرة : عن مظاهرات شعبية رائعة فى استقبال وزارة الأمة : كلمة رفعة الرئيس فى جماهير المهنئين بدار الرئاسة .

وعنوان آخر أيضا هو : لن نعرف شيئا اسمه الفشل والدواء الناجح له هو العمل « مكرم عبيد » .

★★★

وينشر المصرى صورة فى الصفحة الأولى للرئيس وسير مايلز لامبسون يتحدثان أثناء زيارة الأخير لرفعته بدار رئاسة مجلس الوزراء .

وفى الصفحة الأولى من نفس العدد : مصطفى النحاس يقول للجمهور الذى احتشد فى فناء دار الرئاسة : الكلمة التى تنتظرونها لا أستطيع أن أسمعكم اياها الا اذا كنتم جميعا فى سكون تام ولا يمكن أن تكون كلمتى الا كلمة تسركم لأنى شعرت أنكم مسرورون من أن حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم حفظه الله قد عهد الى بتأليف الوزارة لمواجهة الأمور الخطيرة التى تحيط بالبلاد من كل جانب سواء فى ذلك ما يختص براحتكم ورفاهيتكم أو ما يختص بتوفير شئون المعيشة لكم جميعا أو ما يتعلق بتجنيب مصر ويلات الحرب التى تناولت العالم بأسره .

أما كلمات مكرم عبيد فقد جاء فى واحدة منها : أيها السادة بل الأحرى حضرات الاخوة فلا سادة ولا مسودين فى وزارة الشعب فكلنا اخوان » .

ومن كلمات مكرم باشا أيضا : لقد أسميتمونى وزير الشباب وانى لأرجو الله وقد حرمنى مظهر الشباب وعمر الشباب أن يهبنى قوة الشباب وعزيمة الشباب ، ومن كلمات مكرم عبيد أيضا : كانت لنا أيام مجيدة من أيام العمر يوم نفينا مع الزعيم الخالد سعد ويوم توقيع معاهدة التحالف والصداقة مع بريطانيا العظمى ولكن أمجد يوم هو يومنا هذا الذى عرفنا أن نظفر فيه بحق ضاع أو كاد وهو حق مصر فى السيادة والاستقلال فى وقت تناضل فيه الأمم حرصا على استقلالها من أن يضيع ويذهب مع الريح أو مع العواصف الهوجاء التى تهب على العالم : اليوم التاريخى العظيم الذى حصلنا فيه على الاعتراف الأخير بحق مصر واستقلال مصر ، وسيادة مصر .

★★★

وأزيح للمرة الأولى الستار عن منشور من المنشورات القليلة النادرة التي وزعت في أعقاب حادث ٤ من فبراير ١٩٤٢ وكنت قد حصلت

على نسخة من هذا المنشور وحفظتها فى مكان أمين أمين للغـــاية حتى جاء الوقت المناسب لكى ننشره هنا للمرة الأولى ضـــمن هذا الفصـــل من مذكراتى : كان عنوان المنشور : أيها المصريون اذكروا « وقد جاء فيه : ان يوم الأربعاء ٤ من فبراير ١٩٤٢ هو يوم اعتداء الانجليز بالدبابات والجند المسلح على جلالة الملك وعلى استقلال البلاد وان الانجليز أرسلوا انذارا كتابيا الى جلالة الملك يطلبون فيه تعيين النحـــاس باشا رئيسا للوزارة المصرية هذا نصه • اذا لم أعلم ـ أى السفير البريطانى ـ قبل الساعة السادسة من مساء اليـــوم أن النحاس باشا قد دعى لتأليف الوزارة فان الملك فاروق يتحمل تبعة ما يحدث » •

★★★

وان الملك المفدى دعا الزعماء وأصحاب الرأى فى البلد فى الســاعة الرابعة لبحث هذا الانذار فقبله النحاس باشا بدعوى انقاذ الموقف فلما أجابه الدكتور ماهر بأن قبـــول تأليف الوزارة تحت التهديد البريطانى خروج على العرش تراجع ، الى أن قرر المجتمعون بما فيهم النحاس باشا هذا القرار : يتقدم المجتمعون الى جلالة الملك معلنين أن فى توجيه الانذار البريطانى اخلالا كبيرا بالمعاهدة المصرية البريطانية وباستقلال البلاد ومن أجل ذلك لايسع جلالة الملك أن يقبل مامن شـــأنه ان يخل بالمعاهدة أو باستقلال البلاد » •

وان أحمـــد حسنين باشا رئيس الديوان الملكى حمل هذه الوثيقة الى السفير البريطانى فلم يقبلها وقال ان سيقابل جلالة الملك فى الساعة التاسعة (لا يطلب التشرف بالمقابلة) اذا لم يجد جديد فانصرف الزعماء على ان يجتمعوا بعد مقابلة السفير بجلالة الملك وأنه فى الساعة التاسعة اقتحم السفير البريطانى ومعه الجنرال ستون قائد عام القوات البريطانية فى مصر وخمسة من ضباط أركان حرب القيادة البريطانية سراى عابدين وفى أثرهم طوابير الدبابات والســـيارات المصفحة البريطانية والجند الشاكى السلاح واحتلوا ميدان عابدين وصوبوا ومدافعهم على ثكنات الحرس الملكى وطردوا الجند المصريين وأهانوهم •

★★★

وان السفير البريطانى والضباط الانجليز اقتحموا مكتب جـلالة الملك وخيروه بين قبوله تكليف النحاس باشا الحكم أو نفيه خارج البلاد وان جلالة الملك المحبوب رد عليه قائلا : اننى لا أعبأ بتهديدكم بخلعى عن العرش ولكنى أقبل انذاركم لأننى أضن بدماء المصريين ان تراق فى مثل

هذه الظروف وأن الانجليز لما علموا أن صنيعتهم سيتولى الحكم سحبوا قواتهم وانصرفوا وأن جلالة الملك طلب من الزعماء بعد هذا الانذار البريطاني المسلح وبعد ان تأكد انهم علموا بهذا الاعتداء الانجليزي المنكر قال للنحاس باشا انه يكلفه بتأليف الوزارة وان يذهب فورا الى السفارة البريطانية لاخبارهم بذلك لأن الانجليز ينتظرونه هناك لابلاغهم ذلك وان الدكتور ماهر باشا وقف فى حضرة جلالة الملك قائلا اننى أحتج بقوة على كل ما حدث وانى أثبت هنا أن النحاس باشا يؤلف الوزارة تحت تهديد الحراب البريطانية وأن فى هذا خيانة للملك والبلاد والدستور ٠

★★★

وأن النحاس باشا تآمر مع الانجليز على اخفاء هذه الحقائق عن الشعب المصرى بفرض الرقابة الشديدة على الصحف ونشر الأكاذيب على الناس وهو الذى كان يصيح بين الفينة والفينة ويقدم نوابه وشيوخه الاستجوابات تلو الاستجوابات مطالبا بحرية النشر وحرية الصحافة ٠

★★★

وان الدكتور أحمد ماهر باشا يتهم علنا مصطفى النحاس باشا بالخيانة العظمى وأنه باع بلده للانجليز ويطلب أحمد ماهر ان يحاكم أمام محكمة عسكرية او مدنية ليبرهن على صحة ما يقول : فيأيها المصريون اذكروا أن النحاس باشا باع ماضيه الوطنى لأجل كراسى الحكم وأن النحاس باشا خان مليكه باتفاق مع الانجليز ٠

واعلموا أن الكرامة المصرية وشرف التاج المصرى مهان ومنكس مادام هذا الرجل على رأس الحكومة فاعملوا على دفع هذا الاعتداء على مليككم واستقلالكم : يحيى الملك ولتحيى مصر ، وليعلم الانجليز أن الشعب المصرى الذى عرف كيف ينال استقلاله فى الماضى سيعرف كيف يرد العدوان الشنيع بأبلغ رد وأقوى اجابة مادام فى مصر شباب هم جند الله والملك والوطن » ٠

★★★

وكانت قد ذاعت بعض الأخبار هنا وهناك تحمل شائعات عما حدث وكان فى مقدمة الأصوات القوية التى انطلقت تندد بما حدث صوت الدكتور أحمد ماهر الذى لم يتردد فى أن يقول لمصطفى النحاس فى مواجهته فى اجتماع الزعماء فى قصر عابدين : لقد جئت على أسنة الرماح الانجليزية ٠

وكادت تحدث بين الزعيمين المصريين معركة عنيفة ٠

***

وقد بعث الدكتور أحمد ماهر فى صباح ٥ فبراير رسالة الى السفير البريطانى سير مايلزلامبسون بوصفه رئيسا لمجلس النواب يندد فيها – وبلهجة عنيفة – بما حدث فى مساء ٤ فبراير باصرار الحكومة الانجليزية على تشكيل وزارة يتولاها شخص بعينه اختاره الانجليز ٠

وصف أحمد ماهر هذا العمل من جانب بريطانيا بانه عدوان صارخ على استقلال مصر يتعارض مع نص المعاهدة ويعرض العلاقات المصرية البريطانية لخطر بالغ ٠

لم يكتف أحمد ماهر بارسال تلك الرسالة الى سير مايلزلامبسون السفير البريطانى وانما طبع الرسالة ووزع منها كميات كبيرة فى أرجاء البلاد وقد انزعج مصطفى النحاس باشا من هذه الخطوة ٠

***

وفى يوم ٧ فبراير توجه والتر سمارت السكرتير الشرقى للسفارة البريطانية الى أحمد ماهر ليبلغه أسف السفير لأنه لم يستطع ان يتصل به فى الأيام الماضية بسبب تتابع الأحداث بسرعة وقال سمارت ان بعض العناصر فى القصر وبعض الوزراء يعرقلون التعاون المصرى البريطانى وأن الحكومة المصرية أبعدت عن الحكم لأنها اتخذت بناء على اقتراح بريطانى خطوة بقطع العلاقات مع حكومة فيشى وان هؤلاء الذين يعملون (ضدنا) فى القصر قد أغروا بعض الشباب على ترديد هتافات بحياة روميل ولا ينسى سمارت أن يؤكد للدكتور أحمد ماهر أن السفير البريطانى يقدر جهود أحمد ماهر من أجل التعاون المصرى البريطانى ويؤكد أحمد ماهر ان موقفه لايزال كما هو رغم كل ما حدث الى جانب بريطانيا وانه واثق من انتصار بريطانيا وان أحمد ماهر سيواصل استخدام نفوذه لمساعدة بريطانيا على القيام بمجهودها فى الحرب كما يؤكد أحمد ماهر ان بريطانيا بفعلتها تلك ارتكبت خطأ فاحشا وانه سيجد من العسير عليه اقناع رجاله بنظرته تلك ٠

***

وذكر أحمد ماهر ان النحاس باشا الذى أهان الانجليز فى خطبة العامة ووافق مع الزعماء الآخرين على ادانة ما حدث من بريطانيا هو الذى تعمل بريطانيا على التدخل في الشئون المصرية الداخلية لفرضه رئيسا للوزارة ٠

ويخرج والترسمارت من اجتماعه بأحمد ماهر بانطباع مؤداه انه أحمد ماهر مغتاظ من النحاس أكثر مما هو مغتاظ من الانجليز وانه ـ أحمد ماهر ـ والهيئة السعدية سوف يتخذان من الآن موقفا عنيفـــا للغاية ضد التدخل البريطانى فى ٤ فبراير وضد النحاس باشا ٠

★★★

ويكتب عبد العزيز فهمى باشا رئيس حزب الأحرار مذكرة عنيفة يقوم بتسليمها دســوقى باشـــا ســكرتير عام الحزب يدا بيــد الى والتر سمارت ٠

ويوفد السفير البريطانى مستر سمارت الى الدكتور حسين هيكل ليشرح له موقف بريطانيا ويرفض هيكل الحديث كما قال سمارت عن الماضى : ولأننى لم أسمع من الدكتور حسين هيكل وقد كانت تربطنى به علاقة قوية كلمة واحــــدة عن تلك المقابلة فاننى أكتفى بما ذكره الجانب البريطانى عن تلك المقابلة ٠

★★★

ومن الأمور التى حزت فى نفوسنا ـ وكنا قد بدأنا نسمع عن بعض ما حدث فى ٤ فبراير ـ المظاهرات العنيفة والصاخبة التى استقبل بها السير مايلزلامبسون السفير البريطانى فى مصر وكيف حمله المتظاهرون على الأعنــاق وكيف خــرج لامبســون ومصطفى النحاس الى المتظاهرين يدا بيـــد ٠

لن ننسى أبدا أن تأثير ٤ فبراير فى الجيش كان تأثيرا ســيئا للغاية وأن ستون قائد القوات البريطانية فى مصر قال للسفير لامبسون أنه ـ أى لامبسون ـ أثار فى الجيش المصرى وبالذات لدى الضـــباط

الذين ليســـت لهم مشاعر خاصة نحو الملك شعور الغضب وأنهم ـ الضباط المصريون ـ يعتبرون ما حدث اهانة للعرش بسبب استخدام القوة : وفى نادى ضـــباط الجيش عقدت اجتماعات كثيرة تحـدث فيها ضباط كثيرون ورأى بعضهم ارسال برقيات يعبرون فيهـــا عن ولائهم للملك واحتجاجهم على السفير البريطانى ٠

وقد تلقى الضباط فى أحد الاجتماعات رســـالة من الملك فاروق يقدر فيها ولاء ضباطه له ويطلب اليهم الهدوء والعودة لعملهم ٠

★★★

وكان بعض الضباط والشبان قد فكروا فى تنظيم مظاهرة يعبرون فيها عن ولائهم للملك وسخطهم على السفير البريطانى ٠

وكان بعض كبار الضباط قد أقنعوا الضباط الثائرين بعدم اتخاذ مواقف عدائية تجاه بريطانيا ٠

وقد قام حمدى سيف النصر باشا بنقل بعض أولئك الضباط الثائرين وقد أحتج اثنان منهم على هذا النقل وطلب آخر احالته الى المعاش لأنه لم يعط الفرصة للدفاع عن جلالة الملك ولأنه يخجل من ارتداء البدلة العسكرية ٠

***

وقد كان أعنف هؤلاء الضباط أحمد فؤاد صادق ومحمد كامل الرحمانى وقد رحب فاروق بمحاكمتها بل أصر على ذلك حتى يفضح وزارة الدفاع والحكومة فى تلك المحاكمة غير أن النحاس باشا ووزير الدفاع عارضا المحاكمة وأصرا على طردهما من الجيش ٠

***

واتخذت المسألة ـ مسالة طرد أحمد فؤاد صادق ومحمد كامل الرحمانى ـ أبعادا هامة وحاول لامبسون أن يحقق رغبة النحاس باشا غير أن الملك فاروق لم يستجب لتحقيق رغبة لامبسون ٠

وكادت تحدث أزمة خطيرة خاصة وأن فؤاد صادق قد اتهم بأنه مناهض لبريطانيا منضم الى منظمة سرية بالجيش مهمتها التخريب ونقل المعلومات الى العدو وأنه من زعماء حركة تهدف الى وضع العراقيل أمام القوات البريطانية فى حالة حدوث نكسة ٠

والجدير بالذكر أن الجنرال نابيه رئيس البعثة العسكرية البريطانية فى مصر كان يحذر من حدوث تذمر فى الجيش المصرى : وأخيرا تم الاتفاق بين الملك والنحاس والسفير البريطانى على احالة أحمد محمد صادق ومحمد كامل الرحمانى الى الاستيداع واعتقالهما ٠

والجدير بالذكر أنه فور استبباب الأمور للنحاس باشا وحكومته بدأت بريطانيا تطالب بالثمن وكان الثمن يتضمن تطهير القصر من الايطاليين ٠

الغاء البوليس الخاص الذى كان قد انشىء لدعم القصر ٠

تحديد اقامة على ماهر باشا فى القصر الأخضر قرب الاسكندرية وعندما هرب من تحديد الاقامة وتمكن من دخول البرلمان اعتقل داخل مبنى البرلمان رغم تمتعه بالحصانة البرلمانية ٠

ورغم أنه لايجوز أبدا اعتقال أى نائب أو شيخ داخل مبنى البرلمان اذ أن للمبنى أيضا حصانة لايجب الاعتداء عليها ٠

كما تم تحديد اقامة صالح حرب باشا فى أسوان وعندما هرب من أسوان وجاء للقاهرة مطالبا برفع قرار تحديد اقامته طلب منه أن يعود الى أسوان لتمكين بحث طلب اعادة حريته اليه ٠

كما تم اعتقال عدد كبير من المعادين للوفد وعددهم يزيد عن خمسين شخصا ٠

وكذلك تم اعتقال محمد طاهر باشا وعمر الفاروق وعباس حليم وغيرهم بناء على طلبات رسمية من السلطات البريطانية فى القاهرة ٠

★★★

وقد وجدت مذكرة مؤرخة فى ٥ أغسطس ١٩٤٢ كتبها مصطفى النحاس باشا كرئيس للوزارة ووجهها الى حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم حفظه الله ٠

★★★

وقد جاء فى تلك المذكرة : وفد الى مصر يوم الاثنين الماضى ١٣ أغسطس بصفة سرية محضة حضرة صاحب السعادة مستر تشرشل رئيس الوزارة البريطانية وقد دعانى لتناول الغداء بدار السفارة البريطانية ١٤ أغسطس حاولت الاتصال بجلالتكم وابلاغكم ذلك فلم يتيسر لى : كان الحديث على المائدة يدور على أحوال مصر بصفة عامة يخيل الى أنه قادم بصفة سرية للنظر فى الحالة الحربية على حدود مصر وان كان لم يتحدث معى فى شىء من ذلك ٠

علمت منه انه انتظر عودة جلالتكم الى القاهرة ليحظى بشرف المقابلة بصفة سرية وهو لهذا السبب لم يتوجه الى القصر العامر لقيد اسمه فى سجل التشريفات وقد اتصل سعادة السفير البريطانى بحضرة صاحب المعالى أحمد حسنين باشا وأفضى اليه بذلك ٠

٢ ــ طلب فى مساء الأمس بصفة سرية استمرار وقف المواصلات مع فلسطين على صورة مخففة لمدة ٤٨ ساعة تنتهى فى صباح الجمعة المقبل وقد نفذ ذلك فعلا ٠

٣ ــ استقبلت فى مساء السبت الماضى بالمنزل حضرات أصحاب السمو والمجد والسعادة عمر الفاروق وعباس حليم ومحمد طاهر باشا

واتفقت معهم على تفاصيل سفرهم الى المصيف ـ هكذا فى الأصل ـ الذى أعدته الحكومة لهم باستراحة السرو اعدادا يليق بمقامهم .

وتنفيذا لما تم فى الاتفاق سافروا باختيارهم صباح يوم الأحد الماضى ووصلوا الى الاستراحة الساعة ٣٠ر٢ بعد الظهر حيث كان كل شىء معدا لاستقبالهم واقامتهم .

وقد أبلغونى فى نفس اليوم أنهم فى غاية الراحة والممنونية ويهمنى أن أذكر لجلالتكم أنى فى الحديث معهم مساء السبت أفهمتهم بكل جلاء مبلغ اهتمام جلالتكم بشانهم وما كان من مواصلة سعيكم الكريم لابعاد هذا الأمر عنهم وانى من جانبى بذلت جهدى نزولا على ارادتكم فلم نستطع أكثر مما تم الاتفاق والتفاهم عليه هذا ما عن لى ابلاغه بصفة عاجلة وانى يا مولاى على الدوام الوفى المخلص الأمين : مصطفى النحاس .

★★★

وقد حرص مصطفى النحاس على ان يكتب المذكرة بخط يده ويبعث بها الى الملك بصفة سرية بعيدا عن السكرتارية فى مجلس الوزراء والسكرتارية فى قصر عابدين .

★★★

على أن الشىء المضحك أنه فى الوقت الذى كان فيه مصطفى النحاس رئيس مجلس وزراء مصر والحاكم العسكرى العام يعلم أن تشرشل لم يقابل الملك فاروق وانه اتصل بالملك لابلاغه خبر وصول تشرشل فلم يستطع الاتصال به كان تشرشل قد قابل ـ بدون أن يعرف رئيس مجلس الوزراء المصرى ـ الملك فاروق بحضور سير مايلزلامبسون وقد دامت المقابلة نصف ساعة تحدث فيها تشرشل عن الحرب وعن ثقته المطلقة فى الانتصار فيها وقد تحدث فاروق أيضا فى تلك المقابلة عن تضامنه وحكومته مع الحلفاء وكيف انه ـ فاروق ـ مصمم على تنفيذ المعاهدة ولكن بعد الحرب سوف يطالب بتعديل بعض بنودها .

★★★

كما أن فاروق ركز فى هذا اللقاء على أنه اسىء فهمه فى لندن بسبب التقارير التى كانت تشوه موقفه وأنه لن يتحدث فى ذلك الآن وسيتركه الى مابعد الحرب .

وقد تأثر تشرشل بحديث فاروق وقال للامبسون وهما يغادران

قصر عابدين من باب خلفي مبالغة في السرية : ان فاروق ليس سيئا الى هذا الحد وان بالإمكان أن نصنع منه شيئا » ٠

ورأى تشرشل أن يقابله على انفراد قبل سفره ٠

وقد تضايق لامبسون من ذلك الأمر وبذل قصارى جهده للحيلولة دون أن يتم اللقاء الثنائي بين الملك ورئيس الوزارة البريطانية ٠

★★★

واذا كان الشيء بالشيء يذكر فقد جاء تشرشل الى القاهرة مرة أخرى في أواخر ١٩٤٣ وقابل فاروق في دار السفارة البريطانية ورحب تشرشل بفاروق بحرارة وانفرد به نصف ساعة ثم استدعى تشرشل مستر مايلز لامبسون للمشاركة في الاجتماع ليجد فاروق وقد أزال الكلفة مع تشرشل حتى كان يخاطبه باسمه مجردا وقد روى لامبسون أن فاروق في هذا اللقاء — وكان في مكتب السفير البريطاني بالقاهرة — وقف أمام خريطة في ذلك المكتب يشير الى ولاية برقة قائلا : أتدري يا تشرشل أن كل هذه الأراضي كانت تابعة لمصر بل انه أشار الى واحة جغبوب والمنطقة المجاورة للسلوم والى حقوق مصر فيها ويقول لامبسون انه خشي من أن يثير فاروق مع تشرشل مشكلة السودان وكسلا واريتريا أيضا ٠ وفي المقابل وصف لامبسون مقابلة تشرشل لمصطفى النحاس فقال : صعقت عندما راح النحاس باشا يقول لتشرشل ان في السفارة البريطانية فريقان : أحدهما يريد بقاء النحاس وآخر يريد التخلص منه وان النحاس أثار موضوع امداد بريطانيا بالحبوب قائلا : كيف نعطيكم الحبوب ونحن لا نجد السماد لأرضنا ٠

★★★

وتدخل لامبسون طالبا من النحاس باشا ترك مثل هذه الموضوعات لصغار الموظفين ويقول لامبسون في بعض الأحيان : كان يخيل الى أن تشرشل على وشك أن ينام أثناء حديث النحاس ولكني اكتشفت أنه كان في بعض الأحيان مغمض العينين بسبب الملل فقط ٠

★★★

لقد كان لامبسون لايطيق فاروق وقد ظل نادما لأنه لم يجبره على التنازل عن العرش في ٤ فبراير ١٩٤٢ ٠

ولم يكن لامبسون يميل كثيرا الى النحاس باشا ولكنه كان مجبرا على حماية وزارته والحيلولة دون إنتصار الملك على النحاس باشا ٠

وقد بذل لامبسون فى سبيل حماية النحاس باشا ووزارته جهودا شاقة ومضنية ٠

وأيا كانت وجهات النظر فى حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ ومهما كانت الثقة كبيرة فى وطنية مصطفى النحاس ومهما كان الرأى سيئا فى الملك فاروق فان الذى لا جدال فيه ـ ونرجو أن يكون ذلك الرأى موضع اتفاق الجميع ـ أن الحادث كحادث سياسى من الأمور التى تجرح كرامة أى مصرى وطنى ٠

ان عملية فرض وزارة معينة مهما كانت درجة وطنية رئيسها وأعضائها بالدبابات على الحاكم الشرعى للبلاد ومهما كان الرأى فيه عملية مرفوضة : ذهاب سفير احدى الدول الى ملك البلاد الشرعى بحراسة الدبابات والمدافع وبيده وثيقة تنازل عن العرش يطلب من الملك الشرعى توقيعها لأنه اختلف مع سفير تلك الدولة أيضا عملية مرفوضة ٠

ثم ان تدخل دولة أجنبية فى أمور داخلية لدولة أخرى مهما تكن تلك الأمور دقيقة وحساسة تدخل مرفوض : ولا أعتقد أن حادثا أثر فى وجدان الشعب المصرى فى العشرينات والثلاثينات والأربعينات كما أثر حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ ٠

أثر هذا الحادث فى معنويات الشعب الى حد كبير وكان هذا الحادث أكثر تأثيرا فى معنويات الشباب وخاصة شباب الجيش المصرى وشباب الجامعات والمدارس ولذلك ليس بغريب أن الضباط الشبان فى الجيش المصرى قد بدءوا يتحركوا وينظمون أنفسهم أنفسهم اثر وقوع هذا الحادث المخزى الأليم ٠

وليس بغريب أيضا أن كثيرين من شباب مصر ـ وكنت واحدا منهم ـ قد انتقلوا بالعمل السياسى الوطنى من فوق الأرض الى تحت الارض والمجال فيما أعتقد لا يتسع للحديث عما كنا نقوم به ـ وقتذاك ـ تحت الأرض من أعمال كانت تستهدف الجنود الانجليز وحدهم ٠

★★★

وقد كنا نقتصد من مصروفنا اليومى وهو ـ بالقروش ـ لكى ننفق على تلك العمليات كما كنا أيضا نقتصد من مصروفنا اليومى للانفاق على طبع المنشورات السياسية التى كنا نصدرها فى بعض المناسبات نفضح بها الاحتلال البريطانى ٠

وقد كنا نقوم بكل تلك الأعمال بوازع من ضمائرنا ولم يكن هناك

من موجه لنا لا من أساتذتنا الرواد ولا من أية جهة من الجهات اذ كانت أعمالنا مصرية وطنية ١٠٠٪ · نحن وحدنا الذين فكرنا فيها ونحن وحدنا الذين نفذناها بأنفسنا وعلى مسئوليتنا ·

لقد اخترنا الطريق الأصعب في الحياة : طريق الكفاح الدءووب العملى الذى يعطى فيه أصحابه ولا يأخذون ، وما أكثر ما عرضنا ــ ونحن صغار السن قليلى التجارب ــ أنفسنا بأنفسنا للأخطار التى من بينها القتل والاعدام دون أن يعرف أحد عنا شيئا ·

ولو ان الطوبة جاءت فى المعطوبة كمـا يقولون وقبض علينـا أو أصبنا فى بعض الحوادث لما عرف أحد هويتنـا ولا أسماءنا فقد كنا وقتذاك نتحرك بأسماء مستعارة ولم يكن الواحد منا يعرف أكثر من ثلاثة أو أربعة من الشباب هم أعضاء الحلقة التى تجمعهم ·

لقد كنا وقتئذ ــ فى الحرب العـالمية الثانية ــ نمثل الصـوفية الوطنية أصدق وكنا نحرص على أن كل ما ننفقه على ما نقوم به من أعمال وطنية يكون من أموالنا الخاصة : من مصروفنا الشخصى ·

لقد كان حبنا لمصرنا ولشعبنا أقوى من حبنـا لأبائنـا وأمهاتنا ولا أقول من حبنا لأنفسنا اذا الثابت أننا لم نكن نحب أنفسنا والا لما كنا نعرضها كل يوم للأخطار التى تكاد تقضى عليها ·

ومما يجعلنا نعتز أكثر بما كنا عليه وبما كنا نقوم به أكثر وأكثر اننا كنا ــ ولعلنا نعطى مرة واحدة فرصة الحديث عن النفس ــ نعيش فى أجواء فاسدة وصل الفساد فيها الى القمة حتى أوشك العهد كله أن يصبح فسادا فى فساد كما قال مكرم عبيد باشا فى كتابه : « الكتاب الأسود للعهد الأسود » : واذا كنا وقتذاك قد اهتممنا بذلك الكتاب أكثر من أى شىء آخر فمرد ذلك أننا فوجئنا به يوزع على نطاق واسع وأننا لم نكن نعرف كيف طبع وكيف يجرى توزيعه فى سرية مطلقة ·

الباب الثانى

الفصل الأول

الكتاب الأسود للعهد الأسود
أسرار وذكريات واعترافات

وراحت مصر ذات صباح (٣١ ديسمبر ١٩٤٢) ولا حديث لها الا عن الكتاب الأسود الذى رفعه مكرم عبيد باشا الى الملك والذى وزع منه حوالى ١٥ ألف نسخة في وقت واحد فى جميع أنحاء مصر : ومكرم عبيد باشا هو الابن البار للوفد وهو سكرتيره العام منذ منتصف عام ١٩٢٧ الى منتصف ١٩٤٢ ٠

وهو أقوى شخصية فى الوفد بعد مصطفى النحاس ، بل انهم فى كثير من الأحيان كانوا يقولون أنه العقل المدبر للوفد ، والموحى بكل شىء الى رئيسه ان طيبا وان خبيثا ٠

والذين لم تتح لهم فرصة الاطلاع على ما فى الكتاب راحوا يبحثون عنه فى كل مكان مهما كلفتهم عملية البحث ، من جهد ٠

وكان حديث الجماهير لايتعلق بما جاء فى الكتاب وحسب وانما كانوا يتحدثون عن الجهد ، والدقة والسرية البالغة التى جعلت مكرم باشا ورجاله يطبعون هذا الكتاب سرا ويوزعونه سرا بينما منزل مكرم عبيد باشا محاصرا بقوات من البوليس وكذلك مكتبه ٠

***

وأذكر أننى حصلت على نسخة من هذا الكتاب لليلة واحدة فقط ، قضيتها بطولها بدون راحة ، فى نقل الكتاب ٠

وكانت عملية النقل تلك هى الشىء الوحيد الذى أستطيعه فما كان لمثلى أن يحصل على نسخة من الكتاب اذ كان الكتاب يوزع على شخصيات لها ثقلها السياسى ولم أكن وقتذاك أكثر من شاب متحمس لايملك الا قلمه ٠ والا قلبه ، كاتبا ، وخطيبا ٠

★★★

وبعد عملية النقل بدأت القراءة الجادة ، المتأنية لما نقلته ولسوء حظى فقد كنت فى بعض الأحيان لا أعرف كيف أقرأ بعض الكلمات بسبب السرعة فى النقل ، فأعود الى صاحب الكتاب لأراجع ما نقلته على الأصل ٠

وقد كان وجود أية نسخة من الكتاب فى أى بيت ، اذا ما عرف البوليس كافيا لاعتقال صاحب البيت وربما بعض من فيه أيضا ٠

وقد كان وجود نسخة منه مكتوبة باليد أخطر من وجود النسخة المطبوعة لأن من ينقل يمكن أن يتهم بترويج الكتاب ٠

★★★

على أية حال فلم يكن الاعتقال يخيفنا ، خاصة وقد بدأ كثيرون يسفرون عن معارضتهم لحكومة الوفد التى ألقت بكل ثقلها الى جانب الانجليز ، بينما المصريون جميعا ، أو أغلبيتهم الساحقة يكرهون الانجليز والاحتلال الانجليزى ٠

★★★

اعجبنى فى البداية أسلوب الكتاب الذى تميز بالأدب الرفيع فمكرم باشا أديب مطبوع كما أعجبنى القدرة على جمع تلك المعلومات الغزيرة التى امتلأ بها الكتاب والتى أكدت أن هناك كثيرين من داخل أجهزة الحكم كانوا يمدون مكرم باشا بها والا لما وصل الى ما وصل اليه ولم يعجبنى فى الكتاب حقيقة ـ احتواؤه ـ على كثير من الأمور التافهة التى ما كان يجب أن يشمل عليها الكتاب ، حتى لقد كاد التافه يذهب بأثر الخطير من الأمور ٠

ولكم تمنيت لو أن مكرم عبيد باشا قد أسقط كل تلك الأمور من كتابه كما أننى أيضا لم أستقبل العبارات العنيفة فى الكتاب استقبالا طيبا ٠

وكنت أتمنى أيضا لو ان مكرم عبيد باشا كظم غيظه وكتم حقيقة عواطفه وألجم قلمه قليلا أو كثيرا من أجل أن يكون الكتاب موضوعيا ٠٠

وكنت فيما بعد قد صارحت مكرم عبيد باشا بآرائى تلك فقال لى : لو أننى فعلت ما تطالبنى به ما كنت فى هذا الكتاب ، مكرم عبيد ·

اننى مكرم عبيد ولا يمكن الا أن أكون مكرم عبيد ·

وعرفت بسرعة ما يعنيه : وهو أنه عندما يحب يسرف فى حبه وعندما يبغض انسانا ما ، يسرف فى بغضه ·

***

بدأ مكرم عبيد باشا كتابه بالتوجه الى « مولاى صاحب الجلالة » ·

أتشرف باسم الكتلة الوفدية ، ـ المستقلة بأن أرفع الى مقامكم السامى أصدق ما تنطوى عليه أفئدتنا ، وتعتز به بصيرتنا من شعائر الولاء لعرشكم والوفاء لشخصكم مبتهلين الى العلى القدير ان يحفظ لمصر عرشها ممثلا ، فى ملكها البطل على تعاقب الأعوام موضع حبها ومرجع شعبها والمعقل الحصين لحقوقها بل وأخلاقها ·

وما أحوجنا يا مولاى فى هذا الزمن المضطرب الذى زلزلت الحرب فيه كل حصن يقينا ، فلولا رحمة الله لما أبقت لنا ولا بقينا ·

ما أحوجنا الى مستقر كمستقر ملكك الأمين تطمئن فيه الأمة الى مصيرها وترجع الى ضميرها » ·

***

ويعرض مكرم عبيد باشا على الملك مساوىء الحكم الحاضر والقائمين به من رجاله : وما كنا علم الله لنجد من أنفسنا دافعا ضد قوم كانوا منا وكنا منهم لولا أن أداة الحكم فى البلاد قد فسدت على أيديهم الى مدى بعيد يكاد يبعث على اليأس من انتاجها ومن علاجها ·

ولا ينسى مكرم عبيد أن يشير الى تلك الصداقة الحلوة التى بزت الأخوة بين شخصين (النحاس ومكرم) تعذبا فتقاربا فتحابا ·

وكانت محبتهما ـ فى نظر مكرم باشا على الأقل ـ نموذجا حيا لعاطفة المحبة أو الرحمة التى شاء الرحمن الرحيم أن ينفثها مع الحياة بين حنايا الصدر ليستعين بها الانسان على وحشة العمر ووحشة القبر ·

ويؤكد مكرم عبيد باشا أنه ما كان له الا أن يكون ناصحا لا فاضحا فى كل مرحلة من مراحل الخلاف بينه وبين الوزراء ·

***

كما يؤكد مكرم عبيد باشا انه ليس مثل الطمع شهوة هى أقوى ما يكون ضد صاحبها منها ضد غيره فلفرط ما يطمع الطامع فى مال الغير دون وزن ، أو تقدير نراه وقد اختلت موازين تقديره ، ولفرط

ما يصبو الى مطمع عز أن يوجد ، أو اذا وجد عز عليه أن ينفذ : نراه يجزع بقدر ما يطمع فيستنفذ الجزع ما بقى من صبره ويفضح الطمع ما يخفى من أمره .

كما يؤكد ـ ولعل هذا ردا على توقع من مكرم باشا بأن كثيرين سينتقدونه كما سبق أن ذكرت ـ : ما كتبت يا مولاى لأشير الى هذه الصغائر وغيرها من مثيلاتها لولا أنها صغائر تدل على كبائر وأولى هذه الكبائر أن الحكم قد أشرف على الفوضى فى أيدى أشخاص غير مسئولين وأن الحاكم المسئول كان يجد نفسه محكوما بجماعة من النفعيين لا يملك من أمره نفعا ولا ضرا .

ويضيف مكرم عبيد بعد أن يذكر أنه عرض الاستقالة ثلاث مرات « وكنت فى كل مرة أؤكد لرئيس الوزراء ما يعرفه من محبتى له وغيرتى على سمعته وأنى قد عجزت عن اقنـــاعه باصلاح الحال فما من وســيلة بقيت لى الا أن استقيل من منصبى على أن يتخير هو صيغة الاستقالة ومناسبتها ، ووسيلتها حتى لا يفضح أمام أعين الناس ما أمر به الوفاء ان يستمر بين صديقين كانا مضرب المثل فى الوفاء والاخاء .

★★★

وهل أنا فى حاجة يامولاى الى التدليل على اننى لم أقصد من وراء استقالاتى احراجا بل علاجا فما من دليل أبلغ فى ذلك وأفظع من أنى ماكنت اختلى به فى أية مرة من هذه المرار وأصر على فكرة الاستقالة منه والانفصال عنه حتى كانت تأخـــذنى ذكرياتى فتخنقنى عبراتى فأبــكى ويبكى ثم يعدنى باصـــلاح الحال فأعدل عن فكرة الاستقالة ثم نفترق متوادين متعاهدين ولكن الى حين : أجل الى حين يتسنى للعوامل التى تكتنفه وتستهدفه أن تفعل فعلها فيه فاذا بالرجل يتبدل واذا بالعزيمة تتخاذل فتتضاءل واذا باللاحق التالى شر من السابق الأول : فالثراء اللين الهين فى متناول اليد ولا يحتاج الا لرخصـــة من وزير المال ليدخل فى الرزق الحلال والوظائف الضخمة الدسمة ليس بينها وبين ذوى الحظوة الا خطوة فاذا مهد لها الطريق أيضا مع وزير المال أصبح الاستثناء هو القاعدة وفتح باب الرحمـة لذوى الأرحام والمهم القـــاعدة وبهذا يكون الاستثناء فى منطق الوزراء هو الحلال من الحلال وان يكن فى منطق القانون هو أبغض الحلال .

✶✶✶

ويتحدث مكرم باشا فى كتابه الأسود عن أزمة الاستثناءات ونشر بعض محاضر مجلس الوزراء فى هذا الخصوص ، دون أن يستأذن المجلس فى ذلك والحيلولة دون نشر مذكرة اللجنة المالية بمنع الاستثناءات و . و .

ويذكر كيف أن رئيس مجلس الوزراء بعد اشتداد الخلاف بينه وبين مكرم حاول محو اسمه من الصحافة فأمرها « ألا تنشر شيئا منى أو عنى مهما يكن بريئا أو بعيدا عن السياسة وفى الوقت نفسه سمح لبعض جرائده أن تتهجم على موقفى منه دون أن يسمح لى حتى بحق الرد والتصحيح الذى أعترف به لكل خصم فى كل عهد من العهود ٠

وذهبت به الجرأة الى حد منع الصحف من نشر خطاب كريم تفضل بارساله الى حضرة صاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسون ذكر فيه ما أديته من خدمات متواضعه لبلادى ومتمنيا لى التوفيق فى خدمتها خارج الحكم ٠

وكذلك منع نشر رسالة كريمة من رجل من كبار رجال الدين والتقوى هو فضيلة الشيخ أبو الوفا الشرقاوى ولم يكفه ذلك بل أصدر التعليمات مكتوبة الى الرقيب يحظر كل اشارة الى البرقيات التى ترد من الخارج وفيها بعض الثناء أو التقدير لمكرم ٠

★★★

الى أن يقول مكرم عبيد باشا : وانزلق النحاس باشا من استبداد الى استبداد فتدرج من رقابة الصحف الى رقابة منزلى ومن رقابة رسائلى البرقية الى رقابة مواصلاتى التليفونية وانتهى به الأمر الى فرض الرقابة على البرلمان نفسه ٠

ويشير مكرم عبيد باشا الى واقعة فصله من الوفد وزميله راغب بك حنا والى استقالة بعض الشيوخ والنواب الوفديين احتجاجا على فصل مكرم وراغب حنا من الوفد ٠

وهؤلاء هم السيد سليم ، محمد فريد زعلوك ، اسماعيل محمد فواز ، زكى ميخائيل بشارة ، عبد الله محمد فواز ، ميشيل رزق ، جلال الدين الحمامصى ، د٠ فهمى سليمان ، أو المجد الناظر ، نجيب ميخائيل بشارة ، حسين الهرميل ، محمد عثمان عبد القادر ، الفريد قسبس أبو الغيث الأعور ، مهنى القمص ، جورج مكرم عبيد ٠

كما يشير الى منع الصحف من نشر تلك الاستقالة ويجمل مكرم باشا الخطوات التى قام بها داخل الوفد قبل أن يفصل منه فلقد ظل فى الشهور الأولى من عمر الوزارة : ينصح وينذر ويرجو ويحذر دون أية جدوى « فتمهلت ثم تمهلت وعندما حاول رئيس الوزراء اقالتى حمانى الله منها فاستقال وأخرجنى من الوزارة » ٠

★★★

ويشير الى فصله من سكرترية الوفد بقرار صادر منه فى غير اختصاصه وطالبت ــ مكرم باشا ــ عرض الأمر على الوفد وهو الهيئة المختصة فرفض كما يشير الى واقعة تدخل النحاس باشا فى أمر ترشيحه

لنقابة المحامين « ليحاربني حتى في شئون مهنتي ، فتمهلت ثم تمهلت الى أن يقول بعد أن يعدد اثنتى عشرة خطوة قام بها للحيلولة دون احداث انقسام في الوفد :

فصلني واخواني من الهيئـــة السياسـية (الوفد) التي شرفناها فشرفتنا وتم هذا الفصل المزرى في غيبتنا دون أن تسمع لنا أقوال وأخيرا لا آخرا حاربنا حتى في تكويننا وفي مباشرة حقوقنا النيابية بل وفي الاستمتاع بحريتنا الشخصية فهل يقول قائل بعد ذلك : اننا تعجلنا المعارضة أم اننا تمهلنا الى أبعد حدود التمهل وتحملنا الأذى والاضطهاد فوق كافة التحمل .

على العكس يا مولاى فانني لأتهم نفسي بأنني تمهلت عليـه أكثر مما وجب التمهل ولي في ذلك عذري أسـتمده من حنايا صدري فقد غلبني شعوري على أمرى : أليست هي صـداقة العمر ، وأليست هي ذكريات غاليات صحبتنا في النفي وفي الأسر وفي الهزيمة وفي النصر فهل من عجب ، اذا ما أشفقت وامتد بالاشفاق حبل الصبر » .

***

ولن أشير بطبيعة الحال الى الوقائع التي جاءت في الكتاب الأسود فلها موقعها ، ضمن كتاب آخر لى : فقط أشير الى واقعتين أو ثلاثة من وقائع الباب الثاني من الكتاب : القسم السياسي أولاهما : لم يكن النحاس باشا يلي الحكم حتى ألقى القبض على رفعة على ماهر باشا دون تحقيق ولا محاكمة .

***

ثم تقدم رفعة النحاس باشا في استغلال سلطة الاعتقال خطوة ثانية فأباح لنفسه ان يعتقل من أعضاء البرلمان من يشاء دون أن يبعث الى المجلس الذي ينتسب اليه العضو المعتقل حتى مجرد الاخطار كما حدث في شأن صاحب السعادة محمد طاهر باشا عضو مجلس الشيوخ وقد اعتقل سعادته مع صاحب السمو الأميرعباس حليم ، دون أن يسمح بنشر شيء عن اعتقالهما ، أو تقديم استجواب عنه في البرلمان .

***

ثم تلت هذه الخطوة ثالثة الاثافي اذا ألقى النحاس باشـا القبض على أحد أعضـاء مجلس النواب وهو الدكتـور فهمي سليمان وأبى على المجلس ، أن يناقشه في ذلك الحسـاب متذرعا بان المجلس حين أقـر سلطته العسكرية قد أعطاه في الوقت عينه تفويضا يفعل ما يشاء وأن له من سلطة الاعتقال ما يسمح له كل يوم بالقبض على من يشاء من النواب وغير النواب دون أن يـكون للبرلمان أن يناقشـــه فيما فعل أو يفعل في الماضي ، أو الحاضر أو المستقبل .

واقعة أخرى أشار اليها مكرم عبيد باشا فى كتابه الأسود : ارتفاع علم مصر وخفضه على سطح دار النحاس باشا اشعارا بوجوده ، أو بغيبته وعلى أثر الضجة التى اثيرت أخيرا حول « صاحب العلم » ، وترتب عليها اغلاق مجلة روز اليوسف لمدة ثلاثة شهور ، اختفى العلم عن الأنظار وقد رأيته ورآه غيرى لأننا أبينا ان نصدق قبل أن تحقق ليتمشى مع العلم الخفاق فى أعلى البنيان وجود عساكر الحرس حول الجدران .

***

ولقد كان لكل رئيس وحاكم عسكرى فى سالف العهد والأوان عسكرى واحد يحويه كشك خشبى واحد أو على الأكثر حارسان ولكن حاكمنا العسكرى الديمقراطى يأبى الا أن يكون له من الحراس العسكريين الواقفين بأبواب داره الا ستة تحوطهم أكشاك ستة فاذا ماخرج من الدار فى المساء أو فى الصباح زلزلت الأكشاك زلزالها وقال الجيران مالها ، ثم نقعقع السلاح وعلا الصياح قرة قول سلاح قرة قول سلاح .

***

ولقد قيل لى ان بعض موظفى السفارة البريطانية الذين تطل مكاتبهم على دار النحاس باشا قد أزعجهم هذا الصياح المتكرر حتى كاد هذا الضجر الانسانى أن ينسيهم التحالف المصرى البريطانى .

***

واقعة أخرى ذكرها مكرم باشا ـ فى كتابه الأسود ـ تتعلق بنعى نشره الأهرام خاصا بأحد أعضاء الكتلة الوفدية المستقلة هو المغفور له الأستاذ عبد الوهاب البرعى المحامى لم يكد النعى ينشر فى الصباح حتى صاح النحاس باشا وثارت ثورته لأن النعى تضمن ذكر الكتلة الوفدية المستقلة وترتب على هذا أمران : أولهما : اصدار تعليمات الى الرقابة بمراجعة اعلانات الوفيات حتى لا يقبض الله الى جواره رجلا آخر من رجال الكتلة الوفدية المستقلة فيذاع فى مصر ، انه لقى ربه على عقيدته الوفدية المستقلة .

وثانيهما ترتب على هذا الثورة أن صودرت برقيات التعزية فى الفقيد الذى نعبه أعضاء الحاكم العسكرى العنيد .

***

والطريف أن مكرم عبيد باشا ذكر أن تشرشل عندما كان فى مصر أهدى صورته للنحاس باشا مع كلمة : الى صديقى حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا فأمر النحاس باشا بنشر الصورة والاهداء فى الصحف .

وتصادف أن تشرشل كان قد أهدى صورة مماثلة في الشكل وفى الحجم لصديقه حسين سرى باشا وأرادت احدى الصحف أن تنشر تلك الصورة التى أهداها تشرشل لصديقه صاحب الدولة حسين سرى باشا فهاجت الرقابة وماجت ومنعت نشر الصورة ٠

وقد أنهى مكرم عبيد باشا كتابه الأسود بقوله ٠ والحق يامولاى ان الأحكام العرفية بشكلها الحالى على الافل ، لم تعـد تتفق مع الحالة التى صارت اليها الحرب بحمد الله فقد أكد رئيس الحكومة البريطـانية ورجالها المسئولون من سياسيين وعسكريين أن خطر الغزو قد زال عن مصر من ناحيتيها فلماذا تبقى الأحكام العرفية ناشرة ظلها الغاشم الجاثم علينا وعلى حرياتنا الناشئة التى تحتاج أحوج ما تحتاج الى جو حر تعيش وتنمو فيه فاذا لم يتح لها النماء كتب لها الفناء ٠

★★★

وعن أصحابه ـ رجال الكتلة الوفدية المستقلة الذين شرفوه برفع هذه العريضة باسمهم الى المقام السامى ـ قال : انهم مصريون يؤمنون بالولاء لمليكهم والوفاء لوطنهم : رجال تعتز الرجولة بهم وحسبهم أنهم علموا النحاس ومن لدنه معنى الآباء وحكمة الجهاد غير عابئين بما يلاحقهم به ذلك الرجل الحقود الجحود من صنوف الأذى والاضطهاد ٠

انهم مثلى وأكثر منى لاتدفعهم أية منفعة شخصية أو مادية بل على العكس فهـم يعلمون أن النفع فى هذه الأيـام لا يكون بمناوأة الحكام ولاسيما اذا كانوا كالنحاس باشا من الطغاة العظام ، فمن كانت له مصلحة شخصية فى هـذا العهد وجب أن يلتمسـها من طريق المسـاومة أو المسالمة أو الاستسلام ولقد أبى زملائى وأبيت معهم أن نسـاوم أو نسالم ، أو نرفع راية التسليم ، بل لقد أبينا جميعا أن نطمع فى مركز أو منصب وقد كنا بحمد الله فى المراكز التى نريد بل فوق ما نريد حتى لم تبق عندنا حاجة لمستزيد بل اننا أبينا أن نكون فوق المال الطائل والعرض الزائل ولو أننا شئنا لما احتاج الأمر الى كبير عناء فما كان علينا سوى الاغضاء بل بعض الاغضاء » ٠

★★★

وأذكر أن الأستاذ صلاح الشاهد وقد عمل كثيرا مع النحاس باشا وكانت تجمعه بمكرم عبيد باشا صلات وثيقة قد روى لى بعض الظروف التى أدت الى وقوع الخلاف بين النحاس باشا ومكرم عبيد باشا ذلك الذى أدى فيما بعد الى نشر الكتاب الأسود وكان من بين ما قاله الأستاذ صلاح

الشاهد : أن أمين عثمــان باشا كان يتدخل كثيرا بين النحــاس باشا والسفارة البريطانية وما قبل أن النحاس باشـــا كان متصــلا بحادث ٤ فبراير قبل الانذار البريطاني فان ظواهر الأمر وسفر النحاس باشا الى أسوان تدل على أنه فوجيء بتطور الأحداث ولقد امتاز النحاس باشا بالصدق ولو على نفسه ٠

***

وكان مما حز في النفس أن مكرم عبيد باشـــا الذى كان يقدس النحاس باشا ورافقه في أحداث ٤ فبراير ثم خرج عليه وأسس الكتلة الوفدية تناقلت الأنباء أن كامل اسحاق عضو مجلس النـــواب عن نجع حمادى أبلغ مكرم باشا أن النحاس باشا تباحث مع شخصية انجليزية قبل الأحداث في أسوان وأن مكرم باشا ارتاح الى هذه الشائعات وروجها مع حسنين باشا انتقاما من النحاس باشا الذى احتضـــن الأستاذ فؤاد سراج الدين باشا ٠٠

***

ولاحظ النحاس باشا في وزارة ١٩٤٢ أن مكرم عبيد باشا وزير المالية كثيرا ما ينفذ رغبات القصر الملكي مما يدخـــل في اختصاصه من غير تشاور أو اعلام وأن النحاس باشا حدثه في الأمر ثم ، كرر التنبيه عليه بأن يطلعه على الرغبات الملكية قبل تنفيذها للتفاهم بشأنها أو على الأقل للعلم بها ٠

وظهرت عند مكرم عبيـــد باشا نغمة لم يشهدها النحاس باشا من قبل ، فقد كان رده أن هذه الرغبات من اختصاص وزير الماليه وحده وبدا الشقاق وازداد حتى خرج مكرم عبيد باشا وأصدر الكتاب الأسود ٠

***

وكنت ـ صلاح الشاهد ـ مع صديقي المرحوم محمود شوقي مدير مكتب النحاس باشـــا وابن شقيقته نتردد كثيرا على صديق يقطن فيلا بكوبرى القبة وكان يشاركنا في هذه الزيارات زميــل لنا كان يرأس مكتب الشكاوى برئاسة مجلس الوزارة ٠

وتصادف ذات يوم أن دخل البوليس الى الفيللا واعتقلوا زميلنــا عبد الوهاب البنا مدير مكتب الشكاوى ومعه مظروف به بعض الأوراق الرسمية الخاصة برئيس الحكومة ٠

وعلمنا فيما بعد أن الكتـــاب الأسود كان يوزع في جوالات من حجرة داخل الفيللا ولم تنفع شفاعة محمود شـــوقي لدى خاله لاقناعه ببراءة رئيس قلم الشكاوى ٠

وبقى معتقــلا حتى أقيلت وزارة مصــطفى النحاس باشا فى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ ٠

★★★

وجاء مكرم عبيد باشا من المعتقل ليصبح وزيرا للمالية فأفرج عن زميلنا وأغدق عليه ترقية استثنائية ، وأود أن أذكر ـ صلاح الشاهد ـ أن كل ما تناوله الكتاب الأسود من استغلال مادى لا يتجاوز عشرة آلاف جنيه . وان أحمد حسنين باشا كان قد حرض مكرم عبيد على وضع الكتاب الأسود وأحمد حسنين باشا بالفعل كان حاقدا على الوزارة الوفدية بسبب اثارة موضوع دين قديم كان على أحمد حسنين لوزارة المعارف الخ ٠

ويقول الأستاذ صلاح الشاهد انه سمع من الأستاذ فايق قصبجي الذى شــارك فى توزيع الكتــاب الأسود ان توزيعه كان يتم بوساطة سيارات الجيش ، وبأمر من الفريق ابراهيم عطا الله باشا رئيس أركان حرب الجيش وبتوجيه ملكى ٠

وقد نفى لى الأستاذ فايق ذلك الذى قاله الأستاذ صلاح الشاهد ٠

★★★

ويقول الأستاذ صلاح الشاهد ان الوزارة الوفدية شكت فى أن الكتاب الأسود قد طبع فى بيت نجيب ابراهيم باشا فى حدائق القبة ٠

وكانت الشكوك قد قامت حول طبع الكتاب فى بنى سويف ، عند أحد الأطباء هناك ٠

★★★

وروى لى المحاسب فايق قصبجى ـ ذات يوم ـ من وجهــة نظره بطبيعة الحال وما رواه لى كان جديدا للغاية بالنسبة للجميع ـ فقال : أصارحك القول للمرة الأولى فى حياتى ان الكتاب الأسود للعهد الأسود الذى كتب عنه الكثير من الصحفيين والكتاب المقالات الخيالية : هذا الكتاب بدىء بطبعه فى منتصف ديسمبر ١٩٤٢ ٠

وتم طبع ١٥ الف نسخة منه وتجليده بالغلاف الأســود وحزمه بالشريط الورقى الأبيض فى ٢٥ مارس ١٩٤٣ ٠

تم كل ذلك فى منزلى الكائن بشارع ابن سندر ٠

وكانت المنطقة بكاملها رملية غير آهلة بالسكان ٠

وعلى بعد أمتار من منزلى كانت فيــلا الصديق صــلاح ندا ، ومن ناحية أخرى وعلى بعد أمتار أيضاً منزل الأخ الدكتور محمد محمد حمزة عليش ، وتلتصق بالفيلا الخاصة بى منزل الأخ عبد الوهاب البنا فى

فيلا يجاورها ويلتصق بالفيلا الخاصة بى الدكتور ايهاب حشيش طبيب أمراض النساء وشقيقه الأستاذ الدكتور عبد الحميد حشيش ، وكانا فى ذلك الوقت أولهما طالب ثانوى والثانى طالب ابتدائى ٠

***

وقد تم توزيع الكتاب الأسود ــ أو نقله ــ على دفعات من منزلى فى أول ابريل ١٩٤٣ بحيث لم يكن يوجد ــ بعد هذا التاريخ ــ أى أثر فى منزلى لا للكتاب ولا للمطبعة ولا للعمال ٠

ولم يكن يعلم بتلك العملية المضنية سوى زميلى فى ذلك كله الأستاذ يوسف ، صلاح وتوفيق خليل وأخ لا داعى لذكر اسمه ٠

وكل رجال الحزب ــ الكتـــلة الوفدية ــ فيما عدا الأستاذ فريد زغلول ــ كانوا لايعلمون أى شىء عما نعمله نحن ٠

وأحب أن أذكر ــ فايق قصبجى ــ أن الذى ساعدنا على القيام بهذا العمل على أكمل وجه هو صداقتنا القديمة لعبد الوهاب ومحمود شوقى وبهاء ، وعبد المنعم وحسن كمال والأميرالاى أمين خليل رئيس البوليس السياسى فقد كان ترددهم على منزلى يوميا يمنع أى شك فى أى منا نحن الثلاثة خاصة واننى لم أكن سياسيا ولم يكن لى صلة بأى سياسى ٠

***

وأصارحك القول بأننى لو علمت بأن هذا العمل سيؤدى بى الى الاعتقــال والســجن لما أقدمت عليــه بتــاتا : لكن اندماجى بعد ذلك فى الوسط السياسى علمنى كيف يكون الانسان مخلصــا لمبادئه أو منافقا مخادعا خائنــا قلبه ملء بالضغائن والأحقــاد ، ويرتدى فى نفس الوقت ثوب الطهارة ٠٠

كان الأخ عبد الوهاب البنا أخلص الناس لرفعة النحاس باشا ، وكان يشغل منصب السكرتير المساعد لمجلس الوزراء ٠

وكانت ترد اليه المئات من العرائض والشكاوى يوميا فكان يأخذها معه لدراستها فى المنزل ٠

وفى يوم أول مايو ١٩٤٣ وبعد اتمام اخلاء منزلى من كافة الأوراق والمطبعة بشهر وفى منتصف الليل كنا فى المنزل عبد الوهاب يوسف ، ومحمد مهدى وخليل جمال الدين وغالبا الأخ المرحوم محمود شـــوقى وثالثنا ٠

وجاءوا لتفتيش منزلى ٠

وبعد تفتيش الفيللا عثر حمدى بك على بعض العرائض ، والشكاوى

وسأل عن سبب وجودها فقلت له اننا بحكم الصداقة والجيرة كان الأخ عبد الوهاب يحضرها معه ·

أراد حمدى بك تفتيش منزل عبد الوهاب الملاصق لمنزلى فمنعه القائمقام عمار بك ·

ثم الاتصال بغزالى بك مدير الأمن العام ، وأبلاغه أنه تم الوصول الى منبع كافة المعلومات الواردة في الكتاب الأسود في الوكر الذى طبع فيه واتصل غزالى بك بمنزل النحاس باشا وأبلغ السيدة حرمه بالانتصار الذى تحقق ·

وراحت حرم النحاس باشا ــ هكذا يقول المحاسب فايق قصبجي ــ تصيح : أولاد أخ الباشا ، وأولاد أخته طبعوا الكتاب ·

وقام النحاس باشا فى مجلس الوزراء باهانة محمود شوقى اهانة بالغة وأصدر قرارا بفصل عبد الوهاب ·

★★★

وفى الساعة الواحدة بعد الظهر حضر الى منزلى حمدى بك ، ومعه ثلاثة ضباط وسيارتين وأخذونى الى باب الحديد وقد أغمى على ولما أفقت وجدت نفسى ومعي أحد الأطباء وعبد الوهاب في غرفة واحدة بسجن الأجانب ·

وقد علمت فيما بعد أن الذى أرشد عنى هو المطبعجى الذى كان يقوم بطبع الكتاب كما أن مراقبة منزل الضابط رشاد مهنا من أحد المنازل المجاورة قد أدت أيضا الى الشك فى » ·

★★★

واذا كان الشيء يذكر بالشيء فانني أذكر واقعة غريبة لم ترد على لسان أى سياسى عاصر الأحداث التى وقعت في أيام الحرب العالمية الثانية ، وبعدها وراوى هذه الواقعة الغريبة هو المحاسب فايق قصبجي وعليه وحده تبعتها ، وما رويتها هنا الا لغرابتها : قال المحاسب : ليس أدل على براءة الوفد بأسره من حادث ٤ فبراير سوى هذه الواقعة : فى مساء ١٠ أكتوبر ١٩٤٤ وفي منزل المجاهد الكبير مكرم عبيد اجتمع حافظ رمضان باشا ، رئيس الحزب الوطنى ، والدكتور حسين هيكل رئيس حزب الأحرار الدستوريين والدكتور أحمد ماهر ، رئيس الهيئة السعدية، ومعه النقراشى باشا ، وابراهيم عبد الهادى ومكرم عبيد رئيس الكتلة الوفدية المستقلة وبعد اجتماع استمر حوالى الثلاث ساعات تحرر المحضر الآتي / نحن المجتمعين هذا المساء (١٠/١٠/١٩٤٤) خلصنا بأن المسئول عن حادث ٤ فبراير هو أمين عثمان حيث لم يكن أحد من الزعماء

المصريين أو الملك أو السفير البريطاني يعلم بالترتيبات التي وضعت لهذا الحادث الذي تم بين أمين عثمان والمستر سمارت ووزارة الخارجية البريطانية : تحرر هـذا المحضر بخط ابراهيم عبد الهادي وقع عليه جميع الحاضرين سوى النقراشي ٠

وأكاد أقطع بأن هذا الكلام ، موضع شك كبير ٠٠ فلا يعقل أبدا ان يوقع الزعماء الكبار ـ حافظ رمضان ود ٠ هيكل ود ٠ أحمد ماهر ، ومكرم عبيد على هذا الكلام الذي لا يعقله أحد خاصة فيما يتعلق بالسفير البريطاني الذي قدم بيده ٠ الانذار الى الملك كما قدم له وثيقة التنازل ولم ينف هذا بل كان يتفاخر به باستمرار ٠

كما أن صدور مثل هذا الكلام على لسان مكرم عبيد ود ٠ هيكل وحافظ رمضان تنفيه شهادة الثلاثة في قضية مقتل أمين عثمان ٠

★★★

لقد حصروا مسئولية أحداث ٤ فبراير في السفير البريطاني ومصطفى النحاس وأمين عثمان ، وقد دفعني الى ذكر تلك الواقعة أن راويها أصر على اثباتها فقد يجيء في المستقبل من يؤكدها ٠

★★★

ونعود بعد ذلك الى الحديث عما أحدثه الكتاب الأسود من آثار عنيفة في داخل البلاد وخارجها ٠

فمن ناحية انتهزت حكومة مصطفى النحاس باشا فرصة فرض الأحكام العرفية وتشديد الرقابة على الصحف فشنت أو بمعنى أدق أوعزت بشن حملة صحفية مركزة على مكرم عبيد باشا بمناسبة ظهور الكتاب الأسود للعهد الأسود ، وحالت بينه وبين الرد على تلك الحملة وكانت صحيفة المصري والوفد المصري وآخر ساعة والشعلة في مقدمة الصحف ، التي اشتدت فيها الحملة على مكرم عبيد باشا رغم العلاقات الطيبة التي كانت تربط أصحاب تلك الصحف بمكرم عبيد باشا ٠

★★★

وكان أعنف الكتاب الذين هاجموا مكرم عبيد باشا الأستاذ عباس حافظ وكان يكتب في المصري بامضاء (ع) وقد كان يلجأ الى ذلك الاسم المستعار لأنه كان موظفا في الحكومة وتم ترقيته استثنائيا ـ كما جاء في الكتاب الأسود ص ٢٣٢ مكرر ٢٠ ـ الى الدرجة الثالثة بأول مربوطها ـ ٤٥ جنيها ـ وذلك تقديرا لما قام به من خدمات ٠

★★★

على أن الوفد وحكومته لم يكتفيا في مجال الانتقام من مكرم عبيد باشا بالحملات الصحفية الصاخبة ضده وحسب وانما قامت حكومة الوفد ،

والوفد أيضا باعداد العديد من المظاهرات في الشوارع في العاصمة والأقاليم ، ضد مكرم عبيد باشا كما أن حكومة الوفد نظمت مؤتمرات عديدة في كثير من الأقاليم كان أبرزها خطبائها من الوزراء الذين راحوا يهاجمون مكرم عبيد باشا أشنع هجوم كل هذا دون أن تتاح للرجل أية فرصة للدفاع عن نفسه .

★★★

وقد كان في مقدمة أهداف الوفد وحكومته من كل ذلك أن يثبتوا للسفارة البريطانية في مصر ، أن الشارع السياسي معهم وأن مكرم عبيد باشا لم ينجح في احداث انشقاق داخل الوفد كما أنهم كانوا يريدون أيضا ، ارهاب السراى التي كانت تتأهب للتخلص من حكومة الوفد .

★★★

كانت هناك ثلاثة محاور هامة تعمل متأثرة بصدور الكتاب الأسود السفارة البريطانية وقد اهتمت بالكتاب لا لشيء الا لخشيتها من ان ينتهز الملك فاروق فرصة صدور ذلك الكتاب فيعمد الى اقالة حكومة النحاس باشا .

★★★

وكانت وزارة الحرب في بريطانيا ــ وهي التي تجمع بعض الوزراء المهمين في الوزارة البريطانية ــ بدورها تهتم الى أبعد حدود الاهتمام ، بالكتاب الأسود ، وآثاره حتى لقد خصصت تلك الوزارة ، أربعة اجتماعات لبحث أثر الكتاب الأسود في الأوضاع السياسية والحربية في الشرق الأوسط ، وما يمكن أن تحدثه اقالة الملك لحكومة النحاس باشا من خلل في التوازن القائم وقتذاك وهل من الفائدة الأخذ برأى العسكريين في مصر الذين ينصحون بعدم الالتجاء الى القوة لاجبار الملك على عدم اقالة النحاس باشا ، أم الأخذ برأى السياسيين في السفارة البريطانية ، الذين كانوا يرون ضرورة استخدام القوة ضد الملك اذا ما أصر على اقالة وزارة النحاس باشا .

★★★

وكان القصر ــ فعلا ــ متأهبا لاقالة الوزارة الوفدية وكانت لديه المبررات الكافية التي تدعوه الى ذلك خاصة وأن الرأى العام المصرى كان مؤهلا لذلك ، وقد اهتز لصدور الكتاب الأسود ولما ذكر فيه من أمور تهز الثقة في الحكومة .

وكان الرأى العام ، حتى ذلك التاريخ يؤمن ايمانا لا حدود له بنزاهة النحاس باشا ونظافة يده ، وبعده ــ باستمرار ــ عن أن ينتفع هو وأهله بالحكم فاذا بالكتاب الأسود ــ وقد أصدره وفدى كبير ، كان الى شهور قليلة مضت الرجل الثاني في الوفد من ناحية الترتيب السياسى

والرجل الأول من ناحية القوة والقدرة ، والأهمية فى الوفد كحزب — يقول عكس ما انطبع فى أذهان الرأى العام ٠

وجد القصر الفرصــــة سانحة أمامه للانتقام من حكومة الوفد ومن النحاس باشا الذى حاول اذلال الملك واضعاف هيبة القصر والذى تجاهله منذ أن ولى الحكم فى ٤ فبراير ١٩٤٢ ٠

كما أن القصر وجد نفســه يسنعيد أنفاســه وقوته بسبب ذلك النشاط الشعبى الذى قام به الملك الشاب فاروق ، وبسبب تصــــيده للعديد من الأخطاء التى وقع فيهــا الوفد وما أكثرها فى الشهور القليلة التى قضاها فى الحكم ٠

وقد ظن القصر ان ابتعاد الحرب عن مصر واستقرار الأمور لصالح الحلفاء فى صالحه هو أيضا اذ أن بريطانيا اذا كانت قد اضطرت الى استخدام القوة ضده فى ٤ فبراير ١٩٤٢ وكانت الظروف الحربية قاسية للغاية بالنسبة لها ، فانها لن تجازف باستخدام تلك القوة مرة أخرى فى هذا الوقت ٠

***

وكان تقدير القصر أن « فى ٤ فبراير ١٩٤٢ » ، لم تكن الصورة ، واضحة تماما أمام الحكومة البريطانيا بعكس الأيام التى ظهر فيها الكتاب الأسود (ابريل ١٩٤٣) اذا أصبحت الصورة الى حد ما واضحة وللقصر مؤيدوه فى وزارة الحرب البريطانية ٠

ويمكن القول — بدون تحيز — أن تقدير القصر لذلك الموقف كان مبالغا فيه الى حد ما :

لقد كان السباق قويا وعنيفا بين القصر ، والسفارة البريطانية : ولم يكن أحد يعرف من الذى ســــوف يكسب هذا الســــباق ٠ وكان مصطفى النحاس باشا بنــــاء على اقتراح من لورد كيلرن — سير مايلز لامبسون سابقا اذ أنعم عليه بلقب لورد فى أول عام ١٩٤٣ — قد نقل معركة الكتاب الأسود الى البرلمان : الى مجلسى الشيوخ والنواب حيث يتولى النحاس باشا ووزراؤه تبرئة ساحتهم مما وجه اليهم من اتهامات وما داموا يملكون الأغلبيــة فى كل من المجلسين فلا خوف من اثــارة موضوع الكتاب الأسود فى مجلس الشيوخ ومجلس النواب ٠

***

وقد تولت حكومة الوفد طبع بيانات الحكومة وقرارات مجلسى البرلمان بشأن الأسئلة والاستجوابات عما ورد فى العريضة المرفوعة الى حضرة صاحب الجلالة الملك من حضرة النائب المحترم مكرم عبيد باشا ، وما يتعلق بها من مسائل سبق اثارتها فى البرلمان : جمعت حكومة الوفد كل ذلك

فى كتاب أبيض غلافه أبيض وليس على غلافه الأول سوى قول الله تبارك وتعالى : « فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه » .

ولم يكن على غلافه الأخير سوى بيت الشعر .

واذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حقود

***

وقد تم طبع الكتاب فى المطبعة الأميرية فى ٨ من شهر رمضان سنة ١٣٦٢ ، ٨ من شهر سبتمبر ١٩٤٣ والكتاب فى ٦١٠ صفحة ومن بين ما جاء فى ذلك الكتاب : الأسئلة : سؤال من حضرة الشيخ المحترم الأستاذ محمد عبد الحميد العبد عن بعض النشرات التى طبعت ووزعت « الكتاب الأسود » متضمنة اسناد أمور معينة لبعض الوزراء وكان نص السؤال الذى أدرج بجلسة ١٢ ابريل ١٩٤٣ : نشر مكرم عبيد باشا كتابا أسود نسب فيه اليكم — الى رئيس الوزراء — ولبعض زملائكم الوزراء أمورا معينة فاذا كان ما جاء بهذا الكتاب لا يستند على أساس من الصدق ولا تقوم دعواه على حقيقة وهو ما نريده ونرجوه فلماذا تجاوزتم عن محاكمة صاحب الكتاب الأسود وخصوصا وأنه قد لجأ الى الهيئات الأجنبية من أمريكية وانجليزية وغيرها مقدما لهم نسخا من هذا الكتاب وكأنى به ينتظر رأيهم ويلتمس عطفهم وهذا جموح عن الوطنية وأمر يجب أن يؤخذ بعزم ، ويعالج بحزم أفلا يرى رفعة الرئيس أن يرفع غموض هذه المسألة السوداء بتحقيق دقيق من جميع نواحيها احقاقا للحق وازهاقا للباطل واذا كان ما جاء بهذا الكتاب ليس صحيحا فلماذا ينفرد مكرم باشا بمحاباة القانون فلا يسأل عن غلطاته ؟ .

***

ومن الناحية الشكلية فان هذا السؤال مناف ومخالف للائحة الداخلية للمجلس اذ أن السؤال يطرح بخصوص عضو من أعضاء المجلس يتمتع كما يتمتع السائل بالحصانة البرلمانية ومن الناحية الموضوعية فان العبارات التى وصف بها العضو السائل نائبا مثله فى البرلمان تجعله — تجعل السائل — يخضع للمساءلة القانونية وخاصة قوله وهو يشير الى التجاء مكرم عبيد باشا الى الهيئات الأجنبية من أمريكية ويلتمس عطفهم وهذا جموح عن الوطنية فكيف يصف نائبا زميله بأنه جمح عن الوطنية ؟ اتهام هو الأول من نوعه فى تاريخ المجالس النيابية ، وعلى أى حال كان هذا رأيى أنا وقتذاك .

***

وقد لاحظنا أن العضو « العبد » قد تأثرت سمعته السياسية الى حد كبير لمجرد أنه قدم هذا السؤال أو أنه سمح بتقديمه باسمه فقد كانت الوزارة هى التى تعد الأسئلة ، وتضع عليها أسماء بعض النواب ممن تعتمد عليهم .

وقد ذكر النحاس باشا بخصوص تقديم مكرم عبيد باشا الكتاب الى بعض الهيئات الأجنبية أن الحكومة تشارك حضرة الشيخ المحترم رأيه فى أنه جنوح عن الوطنية وتأسف لوقوعه من نائب تولى الوزارة عدة مرات وكان نقيبا للمحامين الأهليين ثم يجيء الآن فيهدم صفته النيابية بل كرامته الوطنية على هذه الصورة وكذلك تأسف الحكومة لاسفافه فى لهجته وعباراته اسفافا كبيرا لا يتفق مع ما ينبغى لنائب ، بل لأى فرد من هذه الأمة الكريمة من التزام بمقضيات اللياقة وتجنب الاسفاف فى عريضة تقدم لمقام حضرة صاحب الجلالة الملك ٠

★★★

ولا ينسى مصطفى النحاس أن يهيب فى رده ــ بالجميع على اختلاف أحزابهم وميولهم وبكل حريص من أبناء الوطن العزيز على وحدة الأمة المصرية الكريمة ــ وهى الوحدة التى مكناها بجهادنا ــ أن يقفوا كل محاولة خطرة يدفع اليهــا أى لاعب بالنــار للتفريق بين عنصريها اللذين جمع بينهما الاتحاد الوطنى المقدس فاذا لعب رغم هذا التحذير لاعب بالنار ، مثيرا الفتنة ، وقعت عليه التبعة كاملة من غير رحمة ولا هوادة ٠

ويسأل فى مجلس الشيوخ أيضا ــ الشيخ المحترم محمود أبو الفتح عما نسب الى حضرة صــاحب المقــام الرفيــع رئيس مجلس الوزراء من اصــدار أمر عسكرى بعدم تنفيذ حكم صــادر ضد الخواجة توفيق مفرج ، باخلاء الشقة المؤجرة له ٠

وفى جلسة ٢٢ فبراير ١٩٤٣ يجيب رفعة الرئيس بأن التفكير فى اصدار الأمر العسكرى رقم ٣١٥ لم يبدأ فى يوم ١١ أغسطس ١٩٤٢ وانما سابق لهذا أى فى الوقت الذى كان فيه مكرم باشا لايزال عضوا بالوزارة وان الذى حرك البحث فى اجراء تعديلات فى الأمر العسكرى رقم ١٥١ من شكوى قدمت قبل ٢٤ مايو ١٩٤٢ من أحد الموظفين بوزارة الخارجية فلم يكن لتوفيق مفرج شأن فيــه فالدعوى التى رفعت ضــده تاريخ صحيفتها ٣ أغسطس ١٩٤٢ ثم ان هذه الشكوى اذا كانت حركت هذا الموضوع قبل اصدار الأمر العسكرى بثلاثة شــهور الا أنها أثارت البحث فى تعديل الأمر الخاص بالايجارات كلها مما اقتضى تداول الأمر بين لجنة قضايا الحكومة ومجلس الوزراء وتشكيل لجنة وزارية خاصة لبحث كثير من المشاكل التى تضمنها الأمر رقم ٣١٥ ٠

وكان مكرم عبيد باشا قد قال فى كتابه الأســود تحت عنوان محسوبيــة التشريع : اجترأ هذا العهد المشئوم على اشتراع المحسوبيــة وتنويعها بل وتفريعها حتى لم يبق مجــال حكومى أو أهلى الا واقتحمته فلوثته ولكنى لم أسمع حتى الآن بالمحسوبية فى التشريع وفى استصدار

القوانين العامة تحقيقا للمصلحة الخاصة حتى جاء النحاس باشا فابتكر هذا الابتكار لمصلحة الأصدقاء والأنصـــار وأى الأصدقاء يامولاى : هو الخواجة توفيق مفرج الذى اصطفاه النحاس باشـــا صديقـا حميما وكريمـــا ..

الى أن يقول مكرم عبيد باشا : بعد مرور أيام معدودات من الحكم ضد توفيق مفرج صدر أمر عسكرى يخـرج على كل قياس ويتنافى مع كل سابقة فيرجع بحكم الى الوراء ويلغى حكما قضائيا لا لسبب ، الا لأنه لم يصبح نهائيا .

انها لمهزلة وانها لمأساة أن تنحـــدر بنا المسئولية الى هـذا الحد وما بنا من حاجة الى القول أن الخواجة توفيق مفرج سارع الى الانتفاع بهذا الأمر الذى صدر لمنفعته فاستأنف الحكم الصـــادر ضده بتاريخ ٢٢ سبتمبر والغى الحكم بتاريخ ٧ أكتوبر ١٩٤٢ وهكذا احتفظ مفرج بمنزله ، وبمنزلته فى وقت معا .

***

وكان أضعف مافى اجابة النحاس باشا قوله بأن التفكير فى اصدار الأمر العسكرى كان فى الوقت الذى كان مكرم عبيد باشا فيه لا يزال عضوا فى الوزارة فمن ناحية التفكير فى شىء غير التنفيذ ومن ناحية أخرى فان وجـود مكرم عبيد باشا فى الوزارة لا يعطى أى أمر قامت به تلك الوزارة حصانة فقد يكون مكرم عبيد مخطئا ، وكذلك قد يكون من معه من الوزراء مخطئون :

★★★

وكان الدكتور حسين هيكل باشا قد استجوب النحاس باشا فيما ذكره ردا على سؤال الشيخ محمد عبد المجيد العبد عن الخطة التى رسمها رفعته فى بيانه المذكور بخصوص ما نسبه حضرة المعالى مكرم عبيد باشا اليه والى زملائه فى العريضة التى رفعها الى مقام جلالة الملك وأذاعها فى الناس بعنوان الكتاب الأســـود وسيكون استجوابى ـ د . هيكل ـ مناقشة ذلك البيان والخطة التى رســـمها من حيث مخالفتها للمبادىء والتقاليد والدستورية .

وأخطر ما فى موضوع استجواب هيكل باشا ، ان الكتاب الأبيض ـ وهو كتاب رسمى تم طبعه فى المطبعة الأميرية على نفقة الدولة لم يشر الى ما ذكره د . هيكل ، وهو يقوم باستجواب رئيس الوزراء ـ وان كان الكتاب الأبيض قد نقل وبالحرف الواحد ما قاله مصطفى النحاس باشا

فى رده على هيكل باشا ، أى أن الكتـاب الأبيض نشر الدفاع بحذافيره دون أن يشير بحرف واحد الى الاتهام •

وتلك ـ أيضا ـ سابقة خطيرة لعلهـا الأولى من نوعهـا فى دنيـا المطبوعات الرسمية •

وكان هيكل باشا قد ذكر أنه كان الأولى بالنحاس باشا وزملائه أن يلجأوا الى القضاء بدلا من الالتجاء الى مجلسى البرلمان •

وكان رأى هيكل باشا هو رأى القصر أيضا بل رأى المعارضة •

★★★

وكانت السفارة البريطانية تعارض هذا الرأى الى حد كبير خشية أن يدين القضاء النحاس باشا أو بعض وزرائه أو أحد وزرائه فتقع الحكومة فى ورطة لاسـبيل الى خروجهـا منها الا بالاسـتقالة أو بالاقالة وكان رد النحاس باشا على ما ذكره هيكل باشا : اذا جاز لمجرد اقدام كاتب أيا كانت صفته على اتهام وزارة فى تصرف من تصرفاتها اذا جاز رفع الأمر فورا الى القضاء توصلا الى القول بأنه متى رفع الأمر للقضاء وجب تنحى الوزارة الحائزة على ثقة البرلمان بمجلسيه حتى لا يؤثر قيامها فى سير التحقيق •• أليس معنى هذا أن تصبح الوزارة مسئولة لا أمام البرلمان ولا أمام القضاء بل أمام كل قاذف طاعن حيث تهيأ له لمجرد أنه كتب ، أو كذب أو افترى أو قذف ان يصل الى تخلى ممثلى الأمة عن كراسى المسئولية ، وهذا هو بيت القصيد يا سيدى ماذا يكون مصير الحكم فى البلاد اذا تم هذا وجاءت وزارة ثانية فاتهمها نفس الكاتب أو أى كاتب آخر بافك جديد ألا يجب عليها هى الأخرى أخذا بهذه الخطة تبليغ القضاء والاستقالة لنترك القضاء (حرا) وهكذا لا يكون الحكم فى البلاد للأمة مصدر السلطات والبرلمان الرقيب على الوزارات ولا بالوزارات المسئولة أمام البرلمان وانما يكون الحكم للقادحين والمفترين وأصحاب الأهواء من الكاذبين والطاغين فهل هذا هو المصير الدستورى الذى تريد المعارضة أن تصل بالبلاد اليه ؟ انى لأربأ بوطنيتى أن أساهم فى العبث بالبلاد الى مصير كهذا فعلى من المسئوليـات والواجبـات لحاضر البلاد ومستقبلها مايردنى عن الاشتراك فى العبث بالدستور أو تشويه أحكامه : الحلال بين والحرام بين ، وماكنا عادين ولا مخطئين حين أعلنـا فى جلسـة ١٢ ابريل ٤٣ ان الخطة التى سلكناها هى الخطـة المثلى وهى الخطـة التى لا أحيد عنها وكان قرار المجلس : الانتقال ـ بطبيعة الأحوال ـ الى جدول الأعمال •

★★★

ومنطق النحاس باشا فى الالتجاء الى مجلسى البرلمان ، دون الالتجاء

الى القضاء منطق مردود ذلك لأن أغلبية الشيوخ والنواب ستكون هى الخصم ، وهى الحكم فى نفس الوقت : انها أغلبية حزب سوف تنتصر بلا جدال لحكومة حزبها ثم ان رفع الأمر الى القضـاء لا يعنى أن تستقيل الوزارة فالأمر هنا متعلق بوقائع معينة خاصة لاتتصل من قريب أو من بعيد بالمسئولية الوزارية لكن التجاء بعض الوزراء ضد بعض الكتاب الذين قذفوا فى حقهم ليس بالضرورة داعيا لاستقالة الوزارة الى أن ينتهى نظر القضية أمام القضاء ؟

وقد كان القضاء ينظر ـ مثلا ـ قضية نزاهة الحكم ـ وهى من أخطر القضايا السياسية فى تاريخنا المعاصر ولم يطلب أحد من رئيس الوزارة أو من الوزراء المتهمين الاستقالة .

***

والذى أذكره ـ والذكرى تنفع المؤمنين ـ أننـا كنا نقرأ ردود النحاس باشا وزملاؤه الوزراء فى مجلسى الشيوخ والنواب على الأسئلة والاستجوابات المصطنعة ، فنضحك لأمور كثيرة من بينها ـ مثلا ـ أن الصحف الوفدية كانت تغرق فى نشر المناقشات الخاصة بتلك الأسئلة وتلك الاستجوابات وكانت تفرد لها الصـفحات العديدة حتى لقد كنا نسخر قائلين انها لم تذكر ، أن رئيس الوزراء قد كح كحة واحـدة أو اثنتين أو ثلاثة أثناء القاء هذا البيان ردا على هذا السؤال أو ذاك ؟ .

***

وكنا أيضا نضحك لأن الكثير من الاجابات كانت ساذجة وسطحية للغاية لا تمس جوهر ما جاء فى الكتاب الأسود بالاضافة الى أننا كنا نقرأ الردود بينما لا تعرف شيئا عن الاتهامات .

***

لقد صال وجال رئيس الوزراء والوزراء والنواب والشيوخ الوفديون فى المجلسين دون أن يتيحوا لخصومهم فى الرأى فرصة الرد عليهم .

كانت المعارك ـ وعذرا لاسـتخدام هـذا التعبير ـ معـارك ، دون كيشوتية ولذلك فانها لم تترك من آثار سوى الاشفاق على الوزراء والنواب والشيوخ الوفديين .

***

ولقد كنا يومذاك ـ وكنا معارضين بالسليقة ، نجرى وراء أية كلمة معارضة قيلت فى أى من المجلسـين دون أن نعثر عليهـا لأن الرقابة على الصحف كانت حازمة للغاية فلم تكن تنشر فى الغالب رأيا لمعارض لما يقال من دفاع عما ورد بالكتاب الأسود .

***

وفى مجلس النواب كان أول سؤال وجه لرئيس مجلس الوزراء من النائب المحترم عمر عمر عن رأى الوزارة فيما جاء فى الكتاب الذى وزعه حضرة النائب المحترم مكرم عبيد باشا وكان السؤال فى حد ذاته يبعث على الضحك اذ كان نصه كما يلى : حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس مجلس الوزراء : وزع مكرم عبيد باشا كتابا تضمن تعليقات على تصرفات زعم أنها صدرت من الحكومة فما رأى رفعتكم فيما يتضمن هذا الكتاب ؟ واذا كان السائل فى أول السؤال ، يقول زعم أنها صدرت من الحكومة فقد حكم هو بنفسه على ما ورد بالكتاب ضد الحكومة وقال أن الكتاب قد زعم كذا وكذا ، فلماذا اذن السؤال ولماذا اذن الاجابة على الزعم ..

وكان رد لنحاس باشا على هذا السؤال فى مجلس النواب وبجلسة ١٢ ابريل ١٩٤٣ — هو نفس الرد الذى ذكره فى مجلس الشيوخ وقد اختلفت بطبيعة الحال مواضع التصفيق فى مجلس الشيوخ عنهما فى مجلس النواب وكان التصفيق فى مجلس الشيوخ كما تقول المضبطة عند الحديث عن وحدة الأمة ، ومحاولات التفريق بين عنصريهـــا : من اليمين فقط (التصفيق من اليمين وليس من المجلس كله) بينما كان التصفيق فى مجلس النواب تصفيق ثم « تصفيق حاد متواصل » ، كما جاء فى مضبطة مجلس النواب .

وكان تعليق الأستاذ عمر عمر على رد النحاس باشـــا على سؤاله : ما شككت مطلقا فى نزاهة مصـــطفى النحاس باشا (تصـــفيق حاد) وما شككت مطلقا فى أى وزير من وزارة الشعب ولقد كانت إجابة صاحب المقام الرفيع شافية وافية اذ صرح بأنه على أتم استعداد لأن يجيب المجلس عن طريق الأسئلة والاستجوابات عن كل مايريد أن يسأل عنه أو يستجوب عنه وهذا لعمرى تصريح عظيم جدا لا يصدر الا من رجل واثق من نفسه وواثق من شرفه وبراءته ولهذا أسجل لحضرة صاحب المقام الرفيع تصريحه الخطير بكل شكر (تصفيق حاد) .

***

وكان السؤال الثانى لعمر عمر والذى أجاب النحاس باشا عليه بجلسة ١٤ ابريل ١٩٤٣ . هل صحيح ما ذكره — ولم يقل عمر عمر فى سؤاله هذا ما زعمه ، كما قال فى السؤال الأول — : مكرم عبيد باشا فى كتاب وزعه من أن برقية أرسلت أخيرا بالشفرة من وزارة الخارجية الى سعادة سفير مصر بلندن لشراء ست قطع من الفراء (فروة ثعلب أبيض) قيمة كل منها ٥٠٠ جنيه ومجموع ثمنها ثلاثة آلاف جنيه لصاحبة العصمة حرم رئيس الوزراء ؟

وقد قال النحاس باشا فى رده : قال الكذاب المفضوح اننى اشتريت

بواسطة سعادة نشأت باشا سفير مصر فى لندن ست قطع من فراء الثعلب الأبيض : انظروا كيف أسرف هذا الشيطان فى الافك والبهتان حتى أنه لم يتحفظ فى ايراد الخبر أى تحفظ بل زعم أنه وصل الى علمه من أوثق المصادر وتحدى الحكومة أن تكذبه فيما يزعم وكان الأولى لهذا الوالغ فى الكرامات ، المنقب عن العثرات والسوءات أن يقدم الدليل قبل أن يتحدى ، وأن يتراوى قليـــلا قبل أن يســـقط ويتردى وأن يذكر أول ما يذكر المبادىء فى فلسفة الكذب بأنه أحق الكذابين بالسخرية من يكذب على الناس ولديهم الوثائق التى تثبت غير ما يقول اذا تحدوه كما تحـدى وقد حسب الفاجر أنه ان اورد أرقاما وأشار الى برقيات فقـد أحكم فجوره ونسى أننا قادرون على أن نرد للحق نوره ولا ينفى النحاس باشـــا ــ وهذا مما يحسب له ــ واقعة شراء الفراء عن طريق سفارة مصر فى لندن وان كان يعود بالقصة ــ قصة الشراء الى عام ١٩٣٦ ــ عندما استطاع نشأت باشا وكان وزيرا مفوضا لمصر فى برلين شراء فراء لنا ولزملائنا ومنهم مكرم عبيد باشا وحرمه ، فلما حضر نشأت باشا الى مصر أخيرا سألناه عما اذا كان يوجد فى لندن فرو من فراء الثعلب الأبيض وعما اذا كان ثمنه مناسبا بالاثمان قبل الحرب وفى أول أكتوبر الماضى (١٩٤٢) وصلتنا برقية من نشأت باشا وزير مصر المفوض فى لندن يقول فيها انه عرضت عليه فراء ثعالب بيضـــاء من نوعين نوع ثمن القطعة منه أربعة عشر جنى أى أربعة عشر جنيها مصريا وأربعين قرشا والآخر ثمن القطعة منه ١٦ جنى أى ستة عشر جنيها مصريا وأربعين قرشا .

وقد طلب نشأت باشا فى برقيته موافاته فى حـالة الموافقة على الثمن بعدد القطع التى سيشتريها .

★★★

وفى مارس الماضى (١٩٤٣) كلفت ســعادة وكيل الخارجيـة الابراق عن طريق الشفرة بما يلى : يشكرك رفعة الرئيس شكرا جزيلا على تفضلك بالسؤال عن صحته ويرجوك أن تعمل على شراء ست قطع من فراء الثعلب الأبيض للسيدة حرمه ثم يقول النحاس باشا : أودع جميع الأوراق المجلس ليطلع عليها حضرات النــواب المحترمين ليتبينوا قيمة الكتاب الأسود وما فيه من كذب ولجاجة وقبح وســماجة ولكن الكذوب المفترى لا يقف عند حد ، وقد أراد أن يوهم أننا سخرنا وزارة الخارجية فى شأن خاص وحملناها نفقات البرقيات فى هذا الشأن الخاص وفى هذا أيضا يكذب المحتال فقد اعتادت وزارة الخارجية أن تقوم للمصريين ولغيرهم من المقيمين فى مصر بتولى الاجراءات الخاصة بمصـــالحهم فى الخارج : أن الكذوب المحتال دأب على الكذب والتهويل والتشنيع فجعـل عشرات

الجنيهــات آلافا ليشكك فى أمانة مصطفى النحاس الذى عرف بالتعفف عن الحرام فى كل شأن خاص أو عام (تصفيق حاد متواصل) ٠

★★★

وكان مكرم عبيد قد ذكر تلك الواقعة : واقعة شراء الفراء ــ تحت عنوان : آخر فضيحة فضاحة سفيرنا بلندن يرسل له برقيــة بالشفرة لشراء فرو لحرم النحاس بثلاثة آلاف جنيه ٠

وكان مكرم عبيد باشا قد قال : أى عبث بعد هذا يامولاى بكرامة الدولة وأعمال الدولة ووظائف الدولة ؟ ثم أين لك كل هــذا يا سيدى النحاس باشا وقد كنت الرجل الفقير الى وجه الله تعالى ٠

وكان مكرم عبيد باشا قد خاطب النحاس باشا بقــوله : دعنى أسألك وأبكى عليك ولك ٠

وكان مكرم عبيد قد خاطب الملك بقوله : لقد عنيت يا مولاى فى هذه العريضة عناية خاصة بألا أتعرض لشئون النحاس باشا الخاصة فهى بعيدة عن نطاق النقد العام ، ويجب أن تكون محل الرعاية والاحترام ولــكن النحاس باشا المسكين لم يعد فى حالة تسمح له بأن يفرق بين الخاص والعــام ، فالحكم قد أصبح محل استغلال خاص له ولأهله ووزارته فهو يهيىء لهم البيوت يسكنونها أو يؤجرونهــا والأطيان يشترونها والأوقاف يتنظرون عليها والمحسوبية يوظفونها والبنوك يحتلونها والغلال والحبوب ومواد التموين يصدرونها والخمور والبضائع يستوردونها وأخيرا وليس آخرا فهاهى ذى الفراء الثمين تستحضر لأغــراض الزينــــة فلا يجدون الا وزارة الخارجيـــة فى مصر وســـفارتها المصرية بلندن يكلفونهـــا ويحركونها ٠

★★★

وأذكر ــ والذكرى تنفع المؤمنين ــ أننا قرأنا رد النحاس باشا على واقعة الفرو بمزيد من الغيظ لما أطلقه فى رده على مكرم عبيد باشا الذى كان لا يزال عضوا بمجلس النواب من أوصاف الكذاب المفضوح ، الشيطان فى الافك والبهتان الوالغ فى الكرامات والمنقب عن العثرات والسوءات الكذوب المفترى والدجال والكذوب المحتال وأحزننا أيضا أن مصــطفى النحاس قال فى آخر بيــانه فى مجلس النواب ــ المجلس الذى لم يكن قد فصل بعد مكرم عبيد باشا من عضـــويته ــ قال فى مكرم عبيــد : ستتبينون من الردود على الأسئلة المتتابعة أن أكاذيبه لا تحصى بالعدد كما أنها لن تنقضى مدى الأبد وسيسيل لعـــابه بالمفتريات حتى يغرق فيه ، ويقتله سمه المنبعث من فيه ، وعندئذ يعلم أن كذبه كالسراب قد يلمع ،

ولكنه لا ينفع ولعله يدرك وقتئذ قوله تعالى : ومن يكسب خطيئة أو اثما ثم يرم به بريئا ، فقد احتمل بهتانا واثما مبينا » ٠

« تصفيق حاد متواصل » ٠

★★★

كنا فى بداية عملنا بالحقل السياسى نستغرب ونحزن ـ فى نفس الوقت ـ أن يقول رئيس الوفد ورئيس الوزراء مثل هذه الأوصاف فى صديقه وزميله الذى شاركه مسئوليته فى قيادة الوفد خمسة عشر عاما كسكرتير عام للوفد والذى عمل معه فى الوزارة مرات عديدة وكان مساعده الأول فى حزب الوفد وفى الوزارة ، كما كنا نستغرب ونحزن أن يقول مكرم عبيد فى كتابه الأسود كل ذلك الذى قاله فى مصطفى النحاس صديقه الحميم ٠

كان الحوار السياسى الدائر فى مجلس النواب وفى مجلس الشيوخ قد هبط الى حد غير مألوف بل غير مسبوق ٠

وما أكثر ما أشفقنا على زعمائنا وسياسيينا لأنهم نزلوا الى هذا الدرك الأسفل من رداءة الحوار ٠

★★★

أما عن الموضوع ـ موضوع الفرو ذاته ـ فقد كان رأينا أن العبرة ليست بالمبلغ الذى أنفق فى شراء الفراء ـ وان كان مبلغ ١٠٠ جنيه وقتذاك لم يكن قليلا لأنه يقترب من مرتب وكيل نيابة فى عام كامل وليست العبرة بعدد القطع التى اشتريت وانما العبرة باستخدام شفرة الدولة فى عملية الشراء تلك واشغال شرارة باشا وكيل وزارة الخارجية بها وكذلك نشأت باشا سفيرنا فى لندن أيضا : أما واقعة شراء فرو من ألمانيا عام ١٩٣٦ والتى قام بها حسن نشأت باشا وزير مصر المفوض فى برلين لصالح النحاس باشا وحرمه ومكرم عبيد باشا وحرمه وبقية الوزراء ، الذين كانوا فى برلين وقتئذ فانها تختلف عن واقعة الشراء الأخيرة : رئيس وزراء ووزراء كانوا فى عاصمة أجنبية هم وزوجاتهم وعن طريق الوزير المفوض لبلدهم هناك تم شراء بضاعة ما : عملية طبيعية عادية تحدث كل يوم وكل ساعة بالنسبة للوزراء وغير الوزراء لأنها لم تشغل وزارة الخارجية بالبرقيات ولم تشغل فى نفس الوقت سفارتنا هناك بحل الشفرة وبالشراء ٠٠ و ٠٠٠

★★★

ومن الأمور الطريفة أن وزير التموين أجاب على سؤال للنائب المحترم ابراهيم مكاوى (١٩ ابريل ١٩٤٣) ـ عن كميات الكاوتشوك التى صرفت لفؤاد سراج الدين باشا (وزير الزراعة) وأفراد عائلته وقد جاء فى الاجابة أن معالى فؤاد باشا وأخويه يملكون اثنى عشر سيارة منها عشر خصوصية

وسيارتان للنقل منها واحدة رولزريس وأخرى بويك باســـتر وثالثة ، بويك ساندر ، ورابعة بونتياك ، وخامسة رينو ، وسادسة مارسيدس ، وسابعة شيفروليه وفورد وفيات فوبولينو وفيات بليلا و ٠٠ و ٠٠ وكانت اجابة وزير التموين أن الأسرة لم تصرف سوى عشر اطارات داخليــة • ومثلها خارجية بعكس مكرم عبيد باشـــا الذى حصل شخصيا وقبيل خروجه من الوزارة على ثمانية اطارات لسيارته الخاصة •

★★★

ولا تسمح هذه المذكرات بالاسترسال بأكثر مما استرسلنـا فى الكلام عن الكتاب الاسود ، والمناقشات « المحترمة » التى دارت حوله فى مجلس النواب ولا أقول هنا مجلس الشيوخ أيضـا فقد أسرف مجلس النواب فى نصب السيرك ، لأيام متصلة بعكس مجلس الشيوخ ـ لا لأنه مجلس شيوخ وانمـا لأن المعارضـــة فيه كانت فيمـا يتعلق بالعـدد وبالأشخاص ، قوية جدا ، لقد استمر السيرك البرلمانى ـ وعفوا لاستخدام هذا التعبير ـ أياما طويلة شبع فيها مكرم عبيد هجـــوما قاسيا عنيفا تبودلت فيه نكات كثيرة ووقعت فيه خلافات كثيرة بين الأغلبية الساحقة الماحقة ، والأقلية المسحوقة والممحوقة •

★★★

وكان نجيب الهلالى باشا بعد مصطفى النحاس أقسى الوزراء على مكرم عبيد باشا وقد قال مرة : ينعى علينا بعض النـاعين أننا اهتممنا بالكتاب الاسود أكثر مما ينبغى وأننا أضعنا ردحا من الزمن فى مناقشته وأن دولاب الأعمال فى البرلمان وفى الحكومة قـد تعطل بسببه مع أنه كتاب تافه •

وفى الحق أنه كتاب تافه بل انه لتافه نجس ، ولكن لا شىء يعطل الأعمال مثل التافه النجس (تصفيق) وفى ١٩٣٨ تعطل فى لندن أكبر مركز لتوليد الكهرباء فخيم الظلام الدامس على المدينة الكبيرة ، وانقطعت فيها الحركة ووقفت فيها « القطارات » فى الأنفاق وتساءل أهل المدينة فى خوف وفزع ماذا حدث ؟ وانصرف المتخصصون والمهندسون للبحث عن المجرم الذى شـــل حركة لنــــدن فاذا بالمجرم الأثيم فار ضـــخم أسود (ضحك وتصفيق) فلا تعجبوا اذن أن يشل حركتنا الى حين كتاب أسود وسننتهى منه الليلة ويعود دولاب الأعمال الى حركته وكما احترق الفأر الأسود الى جانب الأسلاك سينتهى الكتاب الأسود استغفر بالله ، بل سيبقى وراء مكرم عبيد فى حياته وسيلاحقه وراء ظهره بعد مماته مصداقا لقوله تعالى فى سورة الانشقاق ومكرم زعيم دولة الانشقاق ، وأما من أوتى كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا ويصلى سعيرا « تصفيق » •

وقد أنهى وزير المعارف بيانه بهذين البيتين من الشعر قالهما أبو العلاء المعرى فى الخمر وهو قول ينطبق على مكرم باشا تماما ولذلك لم أرد ان أحرم المجلس من سماع هذين البيتين :

يحرم فيهم الصهباء صبحا ويشربها على عمد مساء
اذا فعل الفتى ما عنه ينهى فمن جهتين لا من جهة اساء

تصفيق حاد : وكان مكرم عبيد قد ذكر فى كتابه الاسود أن مصطفى النحاس باشا أعطى رخصة للخمر وقد كان آخر المتحدثين فى هذا (السيرك البرلمانى) وزير العدل صبرى أبو علم باشا وقد قال فى آخر ما قاله : ما أنكر مكرم باشا من النحاس الا أنه تغير عليه : نعم لم يتغير فى قلب النحاس باشا ولا فى نفسه شيء من مقاييس النزاهة ٠ وانما تغير شيء هو مقياس النحاس لنزاهة مكرم وكفاءته وبقائه فى الوزارة : هذا هو الذى تغير فاذا كان مكرم قد أنكر من كان يترنم به فلا عيب ان تنكر العين ضوء الشمس ٠

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

★★★

انتهينا من كل ذلك فماذا بقى من الكتاب وصاحبه ؟ أن كان لصاحبه أثر هنا فلكتابه أثر انى لأفتح عينى فلا أجد له هنا أثرا ولا أجد له فى قلوبكم أثرا ولا لكتابه ذكرا فليبق الكتاب الأسود عنوانا لليل اذا عسعس وللكذاب اذ تدنس ، وللشيطان اذا وسوس وللسياسى اذا أفلس (تصفيق حاد متصل) ٠

★★★

ويكون قرار مجلس النواب وهو الأول من نوعه أيضا أنه يسجل للحكومة مسارعتها الى مناقشة الاستجواب فورا بمجرد تقديمه وكان رفعة رئيس الحكومة قد صرح قبل ذلك فى المجلسين عقب أن أبلغت اليه العريضة من ديوان جلالة الملك أى منذ أكثر من شهر بأن الوزارة ترحب بكل سؤال أو استجواب يوجه اليها عن أى موضوع وأرد فى العريضة وفى ذلك الكتاب وان مكرم عبيد باشا قد التجأ مع الأسف الشديد فى استجوابه وفى عريضته وفى كتابه الاسود الى الزراية بالحكومة الشعبية والوطنية وتجريحها بصفة عامة ورئيسها بصفة خاصة تجريحا ظالما ، مستخدما فى سبيل ذلك سلاحين كلاهما شر من الآخر وهما سلاح الاختلاق وسلاح المسخ والتشويه ٠ يقرر المجلس استنكار المسلك الشائن الذى سلكه مكرم عبيد باشا سواء كان ذلك فى طريقة تسويده كتابه وتلفيق ما فيه أم فى طريقة نشره بدل تقديم استجواب مهذب الى البرلمان كما يستهجن المجلس التهمتين الطائشتين اللتين جعلهما مكرم عبيد محور دعايته وغاية القصد من استجوابه وهى تهمة استغلال النفوذ ، وتهمة

عدم نزاهه الحكم ويقرر المجلس عدم صحة هذه التهم جميعا ويعلن المجلس من جديد ثقته العــامه بحضرة صاحب المقام الرفيع مصــطفى النحاس باشا رئيس مجلس الوزراء وحضرات أصحاب المعالى الوزراء هيئه وأفرادا كما يعلن عن أسفه الشديد لما نالهم على يد مكرم باشــا من بغى ظالم ونجن آثيم » .

وصوت الى جانب الثقة ١٧٦ عضوا وهم جميع الأعضاء الحاضرين ما عدا عشرة من النواب الوزراء لم يعطوا أصواتهم وكان ذلك فى ٢٣ مايو ١٩٤٣ .

★★★

وفى جلسة ٤٣/٧/١٢ نظر مجلس النواب الاقتراح الذى عرضه مكتب المجلس بعد أن عقد ثلاث جلسات لبحث قضية مكرم عبيــد باشا كعضو فى المجلس ونصه : ــ وفد تلاه عمر عمر ــ كان المجلس قد سجل فى قراره الذى أصدره بتاريخ ٢٣ مايو ١٩٤٣ على حضرة النائب مكرم عبيد باشا انه سلك سلكا يتنافى مع الصدق والنزاهة والأمانة وصحة الحكم على النــاس والأشياء والتجــأ الى سلاح الاختلاق ومسخ الوقائع وتشويهها .

وبما أن المجلس قد قرر استنكاره الشديد لهذا المســلك الشائن واعتبر أن مكرم عبيد باشا أسوأ مثل للنائب منذ أقيمت فى البلاد الحياة النيابية منذ سنة ١٩٢٤ اذ استسلم للأحقاد وشهوة الانتقام ، واعتدى على سمعة الأبرياء على حساب سمعة البلاد ، ومصلحتها العليا وبما أنه كان منتظرا بعد هذا القرار أن يفكر مكرم عبيد باشا فى المعانى التى تستخلص منه وأهمها ان وجوده بالمجلس أصبح وضعا غير طبيعى لكنه لزم الصمت فوجب أن يتخذ المجلس قرارا فى هذا الشأن وأن يعرض مكتب المجلس عليه وجهة نظره فى الأمر ، وبما أن مكرم عبيد باشا لم يصبح ، بعد قرار ٢٣ مايو ١٩٤٣ جديرا بشرف النيابة عن الأمة ويتعين فصله من عضوية المجلس بالتطبيق للمادة ١١٢ من الدستور لذلك يقترح المكتب على هيئة المجلس فصل نائب قنا مكرم عبيد باشا من عضويته .

وتسفر عملية أخذ الرأى عن الموافقة على فصل سعادة مكرم عبيد باشا من عضوية المجلس بأغلبية ٢٠٨ أصوات ضد ١٧ صوتا .

وكانت عمليــة أخذ الرأى قد تمت بالنداء بالاسم وكان فى مقدمة النواب الموافقين على فصــل مكرم عبيد باشا « الوزير الوفدى السابق وسكرتير عام الوفد المصرى من عام ١٩٢٧ الى يونيو ١٩٤٢ » ــ أحمد أبو الفتح ، معالى أحمد حمدى سيف النصر باشا ، أحمد محمد أباظة ، معوض الباز ، كامل يوسف صالح ، عوض أحمد الجندى ، رفعة مصطفى

النحاس باشا ، معالى فؤاد سراج الدين باشا ، معالى محمود سليمان غنام . معالى نجيب الهلالى باشا ، د. عباس حلمى طلعت ، وزير بهنساوى ، محمد الدمرداش تونى ، عبد الرحمن الطرزى ، محمد محمد قراعة ، أحمد عبد الكريم أبو شقه ، جميل فانوس ، ياسين أحمد باشا ، وأخيرا ، عبد السلام فهمى جمعة باشا وكان رئيس المجلس وكان الأولى به أن يمتنع عن التصويت .

★★★

وقد رفض الموافقة على فصل مكرم عبيد باشا نائب قنا « النواب المحترمين » : جلال حسين ، محمد عبد الرحمن نصير ، فكرى أباظة ، الفريد قسيس ، السيد سليم ، مرقص بطرس ، عبد السلام الشاذلى باشا : سعد اللبان ، محمد فريد زعلوك ، على على بسيونى ، محمد محمود جلال ، أبو الغيث الأعور ، مهنى القمص بك ، لبيب جرجس ، محمد فؤاد أبو ستيت ، عبد الفتاح أبو سحلى بك ، جورج مكرم عبيد .

★★★

وقبل أن أنهى الحديث فى هذه النقطة التى طالت واستطالت . حتى أوشكت ان تنتقل من صفة الذكريات الى صفة الدراسة أقول اننا كشباب احسسنا بالآلم والحسرة يوم أن فصل مكرم عبيد باشا من مجلس النواب رغم أننا لم نكن نؤيده بل رغم أننا كنا نعارضه حتى بعد أن أخرج عن الوفد لما كنا نأخذ عليه ــ قبل اخراجه من الوفد ــ من اللدد فى الخصومة ، والعنف والحدة فى الحوار والنقاش .

وكان السبب الرئيسى فى ألمنا زيادة ومضاعفة المرارة التى امتلأت بها نفوسنا وقلوبنا أن نرى زملاء الأمس ، رفاق الماضى القريب ، الذين كانوا الى عام واحد مضى ، نعم الاخوة والرفاق والزملاء فاذا بهم فجأة يتحولون الى أعداء يمسك كل واحد منهم مسدسا يصوبه الى صدر زملائه وأصدقائه .

كنا نتساءل ــ والحرقة تكاد تآكل قلوبنا ــ ، أما من أيام حلوة وذكريات جميلة جمعت بين أولئك المتعاركين فجعلتهم ــ على الأقل ــ يترأفون بأنفسهم وبرفاق الماضى ؟ لم يكن أقسى على قلوبنا وأمر على نفوسنا من أن نجد ــ كشباب ــ القمم السياسية والحزبية فى مصر ، تستخدم هذه الأسلحة فى الدفاع وفى الهجوم غير ناظرة الى ما كان يربطها ببعضها من روابط الاخوة والزمالة والصداقة .

وفى أكثر من مرة كنا ــ كشباب نتساءل : ألا يفكر هؤلاء الذين يقاتلون بعضهم بتلك الأسلحة اللا أخلاقية فى أنهم يمكن أن يلتقوا مرة أخرى أو أن عملا سياسيا واحدا يمكن أن يجمعهم فيما بعد ؟ وكان يحلو لنا ــ من حين وآخر ــ أن نتساءل .

يقول ـ مثلا ـ أحدنا للآخر : ممكن فى يوم من الأيام لما نختلف فى السياسة حنقول عن بعضنا كده ونطلق على بعضنا الأوصاف والنعوت التى أطلقها مصطفى النحاس وصبرى أبو علم ونجيب الهلالى ، فى مكرم عبيد ـ ابن سعد ؟ ·

وهل يمكن فى يوم من الأيام أن يكتب أحدنا فى الآخرين مثلما كتب مكرم عبيد فى مصطفى النحاس ورفاقه ؟

ولكننا كنا نعود وقتئذ وبسرعة نتذكر أن خلافا عنيفا بل اختلافا عميقا فى الرأى وفى الأسلوب بين أغلبية اللجنة الادارية ، للحزب الوطنى والأقلية فيها وقد أصر كل من الأغلبية ، والأقلية على أنه هو الممثل الشرعى للحزب الوطنى وكان كل فريق يجتمع وحده ويصدر من البيانات والقرارات الحزبية وحده ·

ولكن لم يحدث أن قال أحد من هذا الفريق كلمة سوء فى الفريق الآخر ولم يحدث أن كتب أحد الفريقين كلاما أى كلام عن الفريق الآخر وقد احترم الآخرون هذا الخلاف وهذا الاختلاف فى الرأى بين الفريقين وتركوا للزمن أن يحل هذا الخلاف وهذا الاختلاف وأن يعيد الوئام بسرعة بين الفريقين المختلفين ·

خاصة وأن عودة الوئام بين هذين الفريقين المتنازعين كانت دائما وأبدا ممكنة وسهلة لأن أى فريق لم يجرح الآخر ولأن أى عضو من أى فريق لم يقل كلمة سوء فيمن يختلف واياهم فى الرأى ·

***

وهذا الكلام عن الحزب الوطنى يذكرنى بموقف للأستاذ عبد الرحمن الرافعى ـ فى مجلس الشيوخ · ونفيه مناقشة الاستجواب الخاص بالدكتور حسين هيكل والذى قدمه للنحاس باشا رئيس مجلس الوزراء بخصوص موقف حكومة الوفد تجاه الكتاب الأسود عندما بدأ عبد الرحمن الرافعى الحديث ـ جلسة ٢٢ ابريل ١٩٤٣ ـ قال رئيس مجلس الشيوخ الأستاذ على زكى العرابى : هل حضرة الزميل المحترم من المؤيدين للاستجواب أو من المعارضين ؟ وقال الرافعى : اننى مؤيد للاستجواب فى بعضه ومعارض فى البعض الآخر : ان موضوع الاستجواب خاص بكتاب مكرم باشا ، وما هو الموقف والخطة الدستورية الواجبة الاتباع بازائه أما فيما يتعلق بكتاب مكرم عبيد باشا فانى أقول فى صراحة ووضوح أننى عندما اطلعت عليه وقد أرسل الى البريد وتلوته من أوله الى آخره لم أقابله بالارتياح وبخاصة بعد ما سمعت أن نسخا منه أرسلت الى دور

الوكالات الأجنبية وعلمت أنهم اطلعوا عليه كما سمعت أيضا أن نسخا منه أرسلت الى البلاد العربية ٠

لم أقابل هذا العمل بأى ارتياح لأنى أعتقد أن الكتاب مع ما فيه من المطاعن اذا اطلع عليه غيرنا من الأمم الأخرى كان مدعاة الى التشكك فى نزاهة الأمة وفى نظامها البرلمانى ٠

وأنا أعلم أن الأطماع فينا كثيرة جدا وأن الدول الطامعة فينا لا نقف مطامعها ومطالبها عند حد وتعلمون ـ زملائى الأعزاء ـ أنه سنكون هناك اتفاقات علنية أو سرية ومفاوضات دولية علنية أو سرية ومؤتمرات ستقرر مصير الشعوب لذلك أعتقد أن نشر مثل هذه المطاعن على ملأ العالم بهذه الطريقة يضر البلاد ولا ينفعها ٠

★★★

وقد تتخذ حجة علينا فى المستقبل ولا أكتمكم يا حضرات الزملاء وربما ـ أتخطى فى هذا آراء كثير من حضراتكم ـ انى لم أستحسن طريقة وضع هذا الكتاب باعتبار أنه عريضة قدمت الى مقام صاحب الجلالة الملك لأن تقديمها الى مقام جلالتـه معناه شعور من مقدم العريضة بأن البرلمان لا يمكنه أن يفصل بنزاهة وكفاءة فى هذه التهم فكأنه يقول ان هذا النظام القائم الآن لا يؤتمن على تحقيق مثل هذه التهم ولذلك أتخطاه وأتجه الى طريقة أخرى ٠

★★★

وهذا ما أعتقد أنه طريق لا يتفق مع روح الدستور ولا مع كرامة النظام الدستورى (تصفيق) ان هذه الطريقة فيها نوع من الاستكبار والاستعلاء على النظام الدستورى واننى وبالرغم ـ يا حضرات الزملاء ـ من معارضتى للوفد وبالرغم من أنى كنت معارضا لسعد فى سنة ١٩٢٤ فى البرلمان الأول وبالرغم مما أصابنى من سعد وخلفاء سعد فانى أدين بأن الحكم يجب أن يكون بارادة الأمة كما أدين أيضـا بحجة الأغلبية فى تولى الحكم مهما تكن هذه الأغلبية لنا ، أو علينا لأن حكم الأغلبية هو حكم الأمة وهو الحـكم الذى يجب ان تتجه اليه جهـودنا وأفـكارنا وأنظارنا (تصفيق) ان حكم الشعب له أخطاؤه وله عيوبه وقد يخطىء الشعب فى اختيار ممثليه ولكن هذا الخطأ يمكن اصـلاحه ولكن ذلك لا يكون الا بممارسة الشعب حقوقه السياسية ، اذ لا توجد فى العالم أمة قد وصل فيها النظام الدستورى الى حد الكمال فى سنة أو سنتين كلا فان التربية السياسية للشعب تحتاج الى سنين طويلة يمارس فيها الشعب حقوقه السياسية فخير علاج للنظام الدستورى ولما فيه من عيوب أن يمارس الشعب حقوقه ، ويتولاها بنفسه ٠

هذاهو الطريق الصحيح لحكم الشعب نفسه بنفسه وهو الطريق الذى يبعث فى الأمة روح الاستقلال روح العزة ، روح الكرامة ، روح التقدم الى مستوى الأمم العظيمة وبالرغم من أن أحدا من أعضاء مجلس الشيوخ قد صفق لتلك الكلمة فاننا كلنا كشباب قد صفقنا لها واعتبرناها ادانة للكتاب الاسود أقوى ألف مرة من ادانة النحاس باشا وزملاؤه والنواب والشيوخ الوفديون جميعا لأن عبد الرحمن الرافعى أصاب الكتاب الاسود فى مقتل ٠

هذا وقد خالف الرافعى رئيس الوزراء فيما ذهب اليه من أن أحكام الدستور تمنع التحقيق القضائى فى مثل هذه الأمور وأشار الرافعى الى المادة ١٠٨ من الدستور التى تقول ان لكل مجلس حق اجراء التحقيق فى مسائل معينة داخلة فى حدود اختصاصه وهذا يعنى أننا كمجلس لنا حق تأليف لجان برلمانية تجرى التحقيق فى كل ما يطعن فيه ضد الوزراء وغير الوزراء فلماذا لا تستعمل هذا الحق ؟ لقد كان يجب على مكرم باشا أن يقدم ما يشاء من الأسئلة وما يشاء من الاستجوابات وله أن يطلب تأليف لجنة تحقيق برلمانية تعرض عليها هذه المطاعن وتنظرها بتوسع واستفاضة أكثر من أية هيئة قضائية أخرى ويقول عبد الرحمن الرافعى أيضا اذا أردنا أن تمنعوا النيابة أو قاضى التحقيق من أن يتولى أى تحقيق سواء كان هذا التحقيق خاصا بالوزراء أم بغيرهم لأن الرأى اذا كان متجها الى حرمان القضاء من اجراء هذا التحقيق فنكون قد عطلنا عملا من أعمال السلطة القضائية ٠

وعندما يسأل عبد الستار الباسل : وما نتيجة تحقيق القضاء ولمن نرفع هذه النتيجة ٠

يقول الرافعى : يرفع المحقق التحقيق الى مجلس النــواب فالرأى البرلمانى لا يقيد مطلقا السلطة القضائية ٠

وهنا ــ عبد الرحمن الرافعى ــ ألفت نظر حضراتكم الى أن قرار البرلمان لا يفيد مطلقا السلطة القضائية » ٠

وتنتهى كلمة عبد الرحمــن الرافعى بدون تصفيق لا من الحــكومة ولا من شيوخها ولا من شيوخ المعارضة ٠

ويلتقى كيلرن مرة أخرى فى اليوم التالى مباشرة بالملك ليحذره من اتخاذ أى اجراء متهور ، كما يلتقى أيضا بحسنين باشا ليحمل اليه نفس الانذار ٠

وتهدأ الأمور بعض الوقت ويدعى كيلرن لحضور لجنة الدفاع عن الامبراطورية حيث خشى بعضهم من الالتجاء الى القوة بالنسبة للملك فاروق وقد شرح كيلرن الخطة القائلة بتجنب استخدام القوة والحرص الشديد على الابقاء على وزارة الوفد فى الحكم وأنه اذا كان لأبد من الخيار بين ذهاب الوفد ، وبين استخدام القوة فلابد اذن من استخدام القوة حتى يبقى الوفد فى الحكم وكان الرأى الذى ذكره كيلرن هو نفسه رأى تشرشل الذى أعطى القادة العسكريين فى مصر الضوء الأخضر ، لاستخدام القوة عند الضرورة حتى يبقى الوفد فى الحكم وكان لقاء لجنة الدفاع فى ٢٧ ابريل ١٩٤٣ وكان قرار تشرشل بعد اجتماع اللجنة ·

وقد علم فاروق بما دار فى اجتماع اللجنة كما علم بتعليمات تشرشل ولذلك رأى أن يتراجع بسرعة ·

وقد اشتكى الملك – فى لقائه بكيلرن – من استخدام الاذاعة فى السياسة الداخلية ومما يثار من غمزات في البرلمان ضد العرش · ولم يلتزم كيلرن في هذا اللقاء الجديد بأى التزام بل اكتفى بأن نصح الملك بأن يبقى ممسكا باللعبة في يده ليظل على العرش ، كما نصحه بأن ينجب ولدا ويقول كيلرن ، انه قال للملك أن الذى كان يغمز فى العرش فى البرلمان هو مكرم عبيد عندما كان وزيرا فى حكومة الوفد السابقة ، كما يقول له أن عددا قليلا من الملوك باقون في العالم ونحن لا نريد أن ينقص عددهم ·

ويبعث كيلرن برقية شخصية الى أنتونى ايدن مؤكدا أنه ليس هناك أفضل من الهدنة وأن الملك قد أصبح هادئا سلس القيادة ، ورؤية السوط معلقا على الحائط كان لها فعل السحر فى نفسه ·

★★★

وفى ٣١ مايو ١٩٤٣ يستجيب الملك لطلبات النحاس بنقل فؤاد سراج الدين الى وزارة الداخلية وتعيين أمين عثمان باشا وزيرا للمالية ويستجيب النحاس لطلب الملك بضرورة استبعاد عمر عمر وكيل مجلس النواب من الترشيح للوزارة ·

ويصبح فؤاد سراج الدين – بعد هذا التعديل كما يقول كيلرن فى برقية له الى وزارة الخارجية البريطانية – أقوى رجال الحكومة بعد أمين عثمان ومنذ ذلك التاريخ يحاول فؤاد سراج كما قال كيلرن « أن يعطينى انطباعا بأنه يضعنى محل ثقته وأنه على استعداد لأن يضحى بعمره ليعرف رأى السفارة فيه » ·

وعندما قامت مناقشة موضوع الرقابة بشكل عام أعرب فؤاد سراج‌الدين باشا – كما يقول كيلرن – « عن استعداده لمساعدتنا بكل ما في

وسعه » وأكد للسفير البريطاني ـ لورد كيلرن شخصيا ـ أنه بامكان كيلرن الاعتماد على نفوذه الشخصى لدى النحاس باشا رئيس الوزراء في هذا الأمر » . يبقى القول بأن كيلرن قال أيضا : لدى انطباع واضح جدا من مقابلاتى لفؤاد سراج الدين بأنه يريد اشارة منا الى الخط الذى نحب نحن أن يتبعه هو شخصيا » .

وفى ٥ يونيو ١٩٤٣ يبعث انتونى ايدن برسالة شخصية الى لورد كيلرن يهنئه فيها على عدم طرد مصطفى النحاس وعلى « انهاء مسألة الكتاب الأسود بدون ضجة » .

الفصل الثانى

حادث القصاصين الذى هز مشاعر مصر لثلاثة أسابيع

فى مقدمة ما أسفر عنه حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ من نتائج على المستوى الداخلى التفاف الشعب حول الملك فاروق وارتفاع اسهمه على نحو غير مسبوق داخل الجيش المصرى وخاصة عند شباب الضباط الذين هالهم أن تمتهن كرامة بلادهم بمثل ذلك الحدث الكريه ٠

وقد نجح المحيطون بالملك فى خلق جو عام تميز بالعطف ، والتعاطف بل بالحب للملك – كما تميز لو جاز لى استخدام هذا التعبير – بالسخط والكراهية للانجليز ومن يسير فى فلكهم من السياسيين المصريين وكان أول من دفع ثمن هذا الجو قيادات الوفد النى بالغ الملك فى احتقارها وازدرائها والتى جعلها تبالغ بدورها فى الارتماء فى أحضان الانجليز والتى لم تكن تستطيع مواجهة الجماهير الا فى حراسة الحكومة ٠

وقد لاحظنا وقتذاك أن قيادات الوفد تلك رغم ما لها من جاذبية عند جماهير الوفديين لم تنجح فى جذب تلك الجماهير الى صف المعادين للملك ذلك أن الملك بشبابه ونشاطه ومحاربة الانجليز له وبسبب تلك الحملة الرائعة التى قادها رجال مدربون لاظهار الملك فى صورة الوطنى الأول والعامل الأول والفلاح الأول والشاب الأول – قد انتصر – ومنذ الساعات التالية لحدث ٤ فبراير – على الذين انتصروا عليه وقت الحادث ٠

وكلما نجح رجال الملك فى تسريب الأخبار عما حدث فى قصر عابدين للملك مساء ٤ فبراير ١٩٤٢ كلما ازداد التعاطف مع الملك ٠

وقد كان الملك فاروق – وقتذاك – حسن الحظ لأنه نجح فى أن يضم الى جانب مستشاريه مجموعة من خيرة القيادات الصحفية التى وجدت

ـ للمبدأ وليس لغير المبدأ ـ ضرورة الوقوف الى جانب الملك مثل أنطون الجميل ، فكرى أباظة ، أميل زيدان ، شكرى زيدان ، عبد القادر حمزة ، عباس محمود العقاد وفاطمة اليوسف .

هؤلاء أحاطوا الملك الشاب بعطفهم وحنانهم بل ونقلوا هذا العطف والحنان من خلال ما يكتبون الى الجماهير .

وشاء القدر أن ينتقل مكرم عبيد من معسكر خصوم الملك فى ٤ فبراير ١٩٤٢ الى معسكر المدافعين بل غلاة المدافعين عنـــه بعد شهرين أو ثلاثة .

وأقول كشاب لم يكن يعرف أحدا من السياسيين الكبار وكانت كل معلوماته عن الملك مستقاة مما نشر عنه فى الصحف اننى تأثرت الى حد كبير بشباب الملك وبنشاطه وبما ينقل عنه من كلمات وبما يروى عنه من حكايات :

لم نكن نتصور أبدا أن أولئك جميعا يكذبون حتى محمود أبو الفتح صاحب جريدة المصرى لسان حال حزب الوفد المصرى ومن أقرب المقربين الى مصطفى النحاس باشا وقتذاك قد جعل جريدته « المصرى » لسان حال للملك الشاب .

★★★

فى عيد ميلاده الذى أعقب ٤ فبراير خصص صفحة كاملة عن الملك وعن كفاءته وعبقريته ووطنيته وان كان بعد ذلك عندما اشتدت وطـأة الخلاف بين الملك وبين النحاس باشا الذى قلل من اهتمامه بأمر الملك وان لم يكتب حرفا واحدا يمكن أن يقال أنه ضده أو أنه لمز أو غمز فيه كل ما فى الأمر ورغبة فى الاحتفاظ بمكانته عند رئيس الوفد وحرصا على عضويته فى مجلس الشيوخ كان يكتفى بتلخيص أخبار الملك .

وذات مرة وعندما قضى الملك عيد ميلاده مع منكوبى الملاريا فى قنا وأسوان توسعت الصحف كلها فى نشر صور وأخبار الملك هناك ما عدا المصرى التى لم تنشر الا خبرا ضئيلا عن ذلك الحدث وبعده بيومين .

أذكر مثلا أن مجلة روز اليوسف نشرت بتاريخ ٢٥ يونيو ١٩٤٢ مقالا بعنوان : الى مليك البلاد : تتطلع أبصارنا ، قالت فيه : اليوم يرفع سبعة عشر مليونا فمهم بالدعاء للملك المحبوب .

يتوجه سبعة عشر مليونا بعيونهم وأفئدتهم الى الســـماء يطلبون من الله أن يحفظ لهم راعيهم الأول وصـــديقهم الأول ومنقـــذهم الأول فاروق الأول .

اليوم ، وقبل اليوم وغدا وعلى الدوام يجد الشعب فى مليكه هذا أبا وأما وحارسا يسهر على مصلحته ويجهد ذاته الكريمة فى سبيل الترفيه عن كل فرد من رعاياه : فى كل أزمة وفى كل محنة وفى لحظة من اللحظات الحرجة يهبط فيض الملك على البلاد كملاك رحمة أرسلته السماء ليأسو الجراح أو كبلسم الهى يشفى كل عليل » ٠

★★★

وفى أثناء مناقشة استجواب التموين ومجلس النواب قائم ، قاعد وكل فرد من أفراد الشعب يتتبع تلك المناقشة فى لهفة لكى يطمئن على قوته ، هبط وحى الملك اذ أعلن جلالته أنه يضع غلال مزارعه تحت تصرف الحكومة تستخدمها فى تموين مصر من من أغنيائنا خطر بباله أو سنح فى فكره أن يقوم بعمل كهذا أو يخطو هذه الخطوة النبيلة ؟ ولكن الملك الذى يفكر لشعبه بعقله وقلبه ويذكر اسم مصر لا بلسانه بل بشعوره ووجدانه لمس قبل سواء حاجة شعبه الذى يرعاه ويحبه ويهواه فأعطاه مما ملكت يداه فأوجد بذلك لمسألة التموين حلا ، وكان للأغنياء مثلا أعلى فاقتدوا به وكان لهم نعم الهدى : هكذا دفع الفاروق سراة شعبه الى أن يضعوا بعض مالهم تحت تصرف فقرائهم ويضحوا بشىء من أنانيتهم في سبيل غيرهم ، فربح الفقراء وهم الأغلبية من وراء ذلك ربحا كبيرا وافرا الا أن قيمة هذا الربح على حسابها لا ينبغى أن تقاس بالمعايير المادية لأنها من جانب الملك قطرة من فيض قلبه ورمز لحنانه على شعبه ، ودليل جديد على شغفه به وحبه » ٠

★★★

وأذكر مثلا أن الأستاذ محمـد حسنين هيكل ـ روز اليوسف ـ ١٦ أغسطس ١٩٤٣ ـ كتب مرة تحت عنوان : « كنت أتمنى أن أكون معهم » فقال : مولاى : لست أدرى ماذا فعل هؤلاء الذين تلقوا دعوتك الكريمة حين عرفوا أمرها ولست أدرى أى أحاسيس ومشاعر تلك التى كانت تجيش فى نفوسهم حينما علموا نبأها ٠

ولست أدرى لو أننى كنت واحدا منهم أن الحيرة تستولى على حينما أتخيل ماذا كنت أفعل لو كنت واحدا منهم : ان الحيرة تستولى على لمجرد تفكيرى فى ذلك فماذا أفعل وأنا أمام الأمر الواقع : ماذا أقول يا مولاى وماذا أتصـــور ؟ ان تلك العواطف التى تملأهم الآن عواطف جديدة ، عواطف لم يعرفوها من قبل ٠

هى مزيج من الفرح والابتهاج والفخر والشعور بالقوة ٠

أنا أعرف هذه العواطف يا مولاى لأننى شاب مثلهم وكذلك تعرفها

انت لأنك واحد منا : لقد رأيتهم بنفسك يا مولاى فهل رأيت عيونهم التى كانت تلمع بكل ما كان يجيش فى نفوسهم .

وهل لاحظت يا مولاى تلك الحيرة الحقيقية التى تظهر جلية واضحة على وجوههم ؟ : أليست هذه يا مولاى دلالة من هذه الأحاسيس الجارفة التى تخالج نفوسهم الشابة الفتية ؟ » .

الى أن يقول الأستاذ هيكل : أى شعور هذا الذى شعر به الواحد منهم ويده فى يدك .

ان القلم ليعجز عن تصوير هذا وان أروع العواطف يا مولاى هذه هى العواطف التى يشعر بها المرء ولا يستطيع أن يعبر عنها .

ولئن كان هذا يا مولاى هو تشجيعك الرائع لهؤلاء الذين أوشكوا أن يدخلوا باب الحياة فانه هو نفسه تشجيعك النبيل للباقين .

ان عرشك يا مولاى : حياة وارفة زاخرة .

حياة كلها شباب ملتف حولك وحول عرشك .

ان هذا اليوم سوف يخلد فى التاريخ فهو وحده تاريخ جديد .

وأكاد أتطلع الى الآفاق وأطوى بخيالى فروق الزمن وأسبق فكرى الحاضر فأنفذ الى المستقبل فأرى عجلة الزمن تدور وأرى أجيالا أخرى تنهض وأخالهم يا مولاى يشيرون الى هذا اليـــوم ويقولون : لقد كانت هذه ساعتهم المجيدة وحقا انها ساعة مجيدة يا مولاى لفجر عصر جديد يشرق : انه لعصر رائع مجيد .

وكان هيكل قد قال أيضا : ليس بامكان أحد أن يصور كم يحبك هذا الشباب ويؤمن بك وبرسالتك .

ولقد آمن الشباب بك لأنك مؤمن به وبرســـالته فى ســبيل الجد الجـديد .

ان هذا اليوم يا مولاى نور .

نور عصر جديد ، عصر اتصال مباشر بين الشباب ومليكه .

ولقد كان الشباب دائما فى حاجة الى تشجيع وهو أحوج ما يكون الى هذا التشجيع فى هذه الفترة التى يدخل فيها الحياة ليشرف على آفاق جـديدة .

انه فى هذه الفترة الدقيقة من حياته يا مولاى .

فى حاجة الى من يشجعه ،

ويا له من تشجيع لم يكن أحد يتوقعه أو يحلم به وهل هناك تشجيع لهؤلاء الشباب أعظم وأقوى من رؤيتهم لك رؤى العين بل وأروع من هذا مصافحتهم لك » ٠

وكان الملك فاروق قد دعا الخمسة الأوائل من خريجي الجامعة والمعاهد لتناول الشاى معهم فى قصر عابدين ٠

★★★

وكان الكاريكاتير الذى نشرته روز اليوسف بجوار كلمة هيكل : اثنان من الخريجين أحدهما يقول للآخر : والله يا أخى أنا زعلان اللى نجحت ونفسي أعيد السنة عشان أطلع من الخمسة الأوائل ٠

★★★

وكانت روز اليوسف قد نشرت مقالا ـ فى نفس العدد أيضا ـ فى ثلاث صفحات لقاسم أمين ٠

وكانت قد نشرت وسط هذا المقال كلمة الملك فاروق وهو يخاطب الشباب : انى لأشعر بالغبطة تغمر نفسى اذ أراكم تحيطون بعرشى وتحيطون تاجى بهالة من علمكم وشبابكم وان عرشا وان تاجا يحف بهما العلم والشباب لعرش وتاج جديران بمصر ٠

مصر التى كانت ومصر التى ستكون ٠

وكلمة « لجلالته » أيضا : أنتم حملة المشاعل وكثيرون ينتظرون الضوء الذى تحملون ليهتدوا به فى طريق الحياة فلا تطيلوا انتظارهم وانفعوا بعلمكم وانتفعوا وليكن لكم من دينكم ووطنيتكم وايمانكم حصانة تقيكم من الزلل ٠

ارفعوا المشاعل فوق الطريق ولا تجعلوها نارا تحرق بل اجعلوها نورا يضىء وعلى بركة الله سيروا فى طريقكم

★★★

وهذه يدى فى أيديكم تساهم فى العمل معكم : يد قوية لا لأنها يد ملك ، ولا لأنها يد شاب ولكن لأنها يد مصرى يؤمن بمصريته فلنؤمن جميعا بمصر فانها كنانة الله ولنعمل لها وسيرى الله أعمالنا ويباركها ٠

★★★

وكانت روز اليوسف أيضا (١١ نوفمبر ١٩٤٣) قد نشرت كلمة لمكرم عبيد باشا عن الملك قال فيها : لعل أول ميزة للملك أن كل حزب ينتمى اليه وهو فوق الأحزاب ٠

ولا عجب فكل مصرى يملك نصيبا من الملك رغم أنه الملك ذلك هو الدستور وذلكم هو الفاروق ٠

وليس سرا ان المصريين أحبوا الملك فيما مضى وانهم ازدادوا حبا له فى الحاضر ٠

وليس السبب فى ذلك فقط أن الحب ينميه الزمن ، بل أيضا لأن الحب ينميه ما يضنيه من المحن ٠٠٠ ولقد أحببنا ـ مكرم عبيد ـ الفاروق فى مجده لأننا أحببنا فيه مجدنا وحببنا فيه نضارة شبابه ولا لأنه أحب الشباب فى مشيبنا ولكن الفاروق وقد شاطر الشعب الآلام وتحمل عنه ومعه قسوة الأيام فنضج شبابه قبل أوانه وبرزت رجولته فى شجاعته وسياسته واتزانه قد أصبح محببا الينا فوق كل محبة لأننا كنا من قبل منه فاذا هو الآن منا نذود عنه فيذود عنا ، ونرتفع اليه فينزل الينا ٠

الملك هو اذن شرعا وطبعا الديمقراطى الأول فى مصر فليحى الملك ٠

★★★

حتى حافظ رمضان باشا رئيس الحزب الوطنى يقول عن الملك عقب مقابلته له : ان جلالة الملك هو أخبر مصرى بشئون بلاده ، وانه يعلم حتى أصغر الدقائق ويطلع على كل ما فى قلب الشعب وما فى رؤوس الساسة .

★★★

موضوع آخر فى روز اليوسف ١٨ نوفمبر ١٩٤٣ يصف كاتبه قاسم أمين وصول الركاب العالى الى كفر الدوار التى تلبس حلة بهيجة من الزينة :

الموكب الكريم يتخذ طريقه الى مصانع شركة مصر للغزل والنسيج الرفيع : أعضاء مجلس ادارة شركة يتشرفون باستقبال جلالة الملك ٠

جلالته يتفضل بتناول طعام الغداء مع كبار المدعوين ويأمر بدعوة ممثلى العمال لتناول الغداء مع كبار الضيوف ٠

جلالته يتعطف بالسؤال عن صاحب المكان الخالى على المائدة من الصحفيين ٠

جلالة الملك يفتتح المصانع ويتفقد أقسام المصانع ودور العمال ويدخل احدى دور العمال ليتأكد من حسن نظامها ٠

مولانا يتذوق طعام العمال انه يقصد الى الكانتين لشراء علبة من السجائر للتأكد من السجائر ويتعطف مع البائع فى بساطة ٠

مولانا أمر مراد محسن باشا (ناظر الخاصة الملكية) بأن يضع فى صندوق اعانة العمال مبلغ ٥٠٠ جنيه : المنحة الملكية تقابل بالهتاف العالى من العمال ٠

★★★

ويقول قاسم أمين فى النهاية : رأيت قلب مصر يخفق مرتين الأولى يوم ٢٠ يناير يوم زواجه ويوم ٣ نوفمبر ٤٣ يوم الرحلة الى كفر الدوار ·

وبعد الحادث اياه ـ حادث القصاصين مثلا ـ كانت صورة غلاف روز اليوسف : المصرى أفندى وهو يقوم بتبخير الملك « محروس من العين » ومحفوظ باسم الحسن والحسين والبدوى والحرمين ·

حافظ محمود يقول ـ وكان قد بدأ يكتب أسبوعيا في روز اليوسف ـ تحت عنوان « سلمت يا فاروق » يقول الأستاذ حافظ فى بداية كلمته : كان امتحانا قاسيا خفقت لأجله قلوب الشعب الوفي وارتجت له البلاد من أقصاها الى أقصاها ولكن الله الذى يرعى هذه الأمة الكريمة استجاب لدعوات أبنائها الخالصة فحفظ ذات مليكها من كل سوء ·

وأسرة هذه المجلة (روز اليوسف) التى عرفت بولائها للمليك وللأسرة المالكة تنتهز هـــذه الفرصة لتعرب عن صادق تمنياتها وأطيب تهانيها وتضرع الى المولى تعالى أن يسبغ على جلالته نعمة العافية ·

وينهى الأستاذ حافظ كلمته وكانت افتتاحية المجلة : هى العاطفة المتبادلة بين الملك وشعبه التى جعلت طريق الاسماعيلية وكأنه طريق الحجيج يروحون اليه ويجيئون : يروحون بالأمل السافر وهم يستفسرون عن صحة مولانا ويجيئون بالأمل الباسم وهم مطمئنون لمستقبل المليك ! يا لهذه القصاصين ما أبلغ حظوتها : لقد أصبحت جزءا من التاريخ ولقد حسدتها بلاد الشرق جميعا ثم حسدتها سائر البلاد الشرقية ذاتها ففى القصاصين اليوم آمال أمة ورجاء جيل ·

« سلمت لمصر يا فاروق » : انه النداء الذى تتذاكره القلوب فى القاهرة كل مساء الى كل صباح والناس وهم كل الناس الذين يتذاكرون هذا النداء انما يرقبون بعين الرجاء مقدم مليكهم ليس لشىء الا يحشدوا فى طريقه الى عابدين قلوبهم حشدا ·

وفى العدد التالى ٢٠ ديسمبر ١٩٤٣ تكون افتتاحية روزاليوسف « الله يحفظ الملك » ·

وقد جاء فى تلك الافتتاحية على لسان عبد المسيح أفندى رزق : كنت فى المعسكر الانجليزى أول من رأى الملك مصابا : لقد بهرنا ما رأيناه من جلالة الملك من تجلد وشجاعة فائقة حين حاول أن ينهض بنفسه رغم اصابته دون أن يظهر عليه أقل أثر من الانزعاج أو الاضطراب ·

وكانت الكلمـــة الأولى التى سمعته يقولهـــا فى هـــذه اللحظة : الحمد لله ·

وبعد لحظات جاء الضابط الانجليزى الذى رافق بعد ذلك جلالة الملك في سيارته الى المستشفى العسكرى ٠

ولم يكد النبأ يطير بين أنحاء المعسكر الكبير حتى اهتزت قلوب الجميع بينما الموظفون المصريون الذين أحاطوا بالمستشفى ينتظرون الأنباء التى تطمئنهم على صحة فاروقهم المحبوب ٠

★★★

وتقول الصحيفة ان زعماء المعارضة توجهوا الى القصاصين لتأدية واجبهم نحو الملك المحبوب وقد تعطف جلالته فاستقبلهم جميعاً وخرجوا من لدن جلالته يتحدثون عن المقابلة الملكية ويضرعون الى الله أن يمن على جلالته بالشفاء العاجل ٠

★★★

ويقول المصرى أفندى زجلا ـ وكان الشعب قد رأى أن يذهب فى يوم عيد الأضحى الى القصاصين فسارع الملك بعودته الى عاصمة ملكه حتى لا يكلف الشعب عناء السفر الى القصاصين فى يوم العيد :

وقد جاء فى ذلك الزجل :

يوم الثلاث كان ميعاد الوقفة فوق عرفات
صبح وبات عند عشاق موكب جلالتك فات
مفيش كده يا فاروق أعياد ولا وقفات
يوم رؤيتك بعد غيبتك شفنا أحلى هلال
والأنس م البحر لبيض عم للشلال
وبموكبك فرحت الدنيا بلاد وتلال
واتمنت الكعبة لو طالها سبع طوافات

وتنشر روز اليوسف فى نفس العدد أيضا جملة أخبار عن حبيب مصر رقم (١) ـ كما يقول الأمريكيون ـ الملك فاروق ٠

ومن بين تلك الأخبار مثلا أن الملك عندما علم ان مجلس الوزراء قرر تخفيض أجور السفر للقصاصين أمر جلالته معالى رئيس ديوانه بابلاغ معالى وزير المواصلات أن جلالته يقدر الباعث على اصدار هذا القرار ويرى العدول عنه لأن الدولة يجب الا تتحمل نفقات الاستفسار عن صحته ٠

★★★

وكان من تعليقات المصور على حادث القصاصين ـ العدد الصادر فى ١٩ نوفمبر ١٩٤٣ ـ أجمع الذين شهدوا الملك عقب الحادث من الانكليز أن جلالته أبدى شجاعة مدهشة وهذه غريزة المؤمنين الغيورين ٠

وكان هم جلالته الأول أن يطمئن رجال دولته وشعبه لتسير الامور سيرها العادى ٠

فاتصل معالى رئيس الديوان الملكى بالقاهرة ليبلغ الارادة الملكية فهدأت النفوس واطمأنت القلوب وها هى القاهرة عاصمة الدولة وقلب الوطن فى صباح الثلاثاء قد ماجت بالجموع الزاخرة التى تتجه الى القصر لتبدى عواطف ولائها واخلاصها وفرحتها بالنجاة والسلامة ٠

★★★

وفى العدد التالى من المصور ـ ٢٧ نوفمبر ١٩٤٣ ـ نشرت صورة كبيرة فى حوالى نصف صفحة تحت عنوان : القصاصين كعبة مصر اليوم ٠

وتحت هذا العنوان قال المصور : تحج الى القصاصين مصر بكافة طبقاتها وشخصياتها تستفسر عن صحة الملك وتعرب عن اخلاصها للجالس على العرش وها هى ذى محطة القصاصين الصغيرة وقد احتشدت فيها جماهير الشعب التى تكاثرت عليها من كل مكان تهتف للفاروق » ٠

★★★

وفى عدد المصور الصادر فى ١٧ ديسمبر ١٩٤٣ نشر المصور تحت عنوان « جلالة الملك فى مرضه » حديثا للدكتور فؤاد رشيد طبيب المعية السنية روى فيها الكثير عن حرص الملك على الاهتمام الشديد بشعبه وحاشيته فى أثناء مرضه وما يتمتع به الملك فى مرضه من صبر وشجاعة ٠

ثم يختتم حديثه بقوله : هذا هو جلالة الملك فى مرضه وهو فى صحته ٠

وفى كل ناحية تتجلى فى جلالته نواحى العظمة فهو فى مرضه المريض الأول طاعة وعزيمة وانشراحا ٠

وفى صحته أسبغ الله عليه ثوب الصحة تماما ـ الرجل الأول وهو على كل حال يفاخر قبل أن يكون ملكا بأنه المصرى الأول ٠

★★★

وكان مما قاله د٠ محمد حسين هيكل باشا عن هذه المناسبة ضمن مذكراته وذكرياته يجب ألا ننسى عاملا جوهريا كان له أثره فى تشجيع المعارضة فمنذ عام فبراير ظلت الصلة بين الملك والسفير البريطانى وبين الملك ووزارة النحاس باشا صلة رسمية تشوبها مرارة لم تستطع الدبلوماسية ولا استطاعت أطوار الحرب التعليق عليها لقد اعتبر الملك تصرف النحاس باشا خروجا على واجب الولاء للعرش ان لم يكن قد اعتبره أكثر من ذلك كما اعتبر تصرف الحكومة البريطانية بارسال الدبابات لمحاصرة القصر ابتغاء غاية أبعد مدى عملا لا شىء فيه من الود ٠

وقد حرصت السياسة البريطانية بعد انتصار مونتجمرى فى العلمين على أن تزيل ما تركتـــه حوادث ٤ فبراير فى نفس الملك من أثر فجـاء دوق كنت ابن عم انجلترا الى مصر ٠

وقيل ان فى مجيئه ومقابلته الملك معنى الاعتذار عما حـدث بضغط تطورات الحرب ومع ذلك بقيت المرارة التى تخلفت عن ٤ فبراير فى نفس الملك وكان طبيعيا والأمر كذلك أن تشعر المعارضة لحكومة النحاس باشا بقوة معنوية ما كانت لتشعر بها لولا هذا العامل الجوهرى ٠

★★★

الى أن يقول د٠ هيكل ان الأقدار ساقت فى تلك الآونة حادثا هز مشاعر الشعب ذلك هو حادث القصاصين ٠

وعن حادث القصاصين قال د٠ هيكل أنه بينما كان الملك يعـــود بسيارته من أنشاص الى الاسماعيلية عن طريق المعاهدة وفيما هو منطلق مسرعا ازاء قرية القصاصين اعترضته سيارة ضخمة من سيارات الجيش البريطانى مقبلة من داخل المعسكر الى طريق القاهرة فلم يستطع الملك تفاديها بل اصطدم بها ونزعته الصدمة من أمام عجلة القيادة وألقته خارج السيارة فانشرخ عظم الحوض ولم يستطع لشدة الصدمة حراكا من مكانه ونقله رجـال الجيش البريطانى الى مستشفى الجيش بالقصـــاصين وهم لا يعلمون من هو فلما عرفت القيادة هناك بما حدث خاطبت قصر عابدين بالتليفون تبلغه بالحادث وتبدى أسفها ٠

★★★

ورأيت ليلتئذ ولم أكن أعرف شيئا عن الحادث بعد الدكتور على باشا ابراهيم جراح مصر الأكبر بنادى محمد على وهو مشغول البال مشتت الفكر يطلب ساندوتش مع أن الساعة قد قاربت السابعة فأبديت دهشتى أن يطلب ساندوتش فى هذا الوقت من المساء فلم ينبئنى بشىء لكنى علمت بعد قليل بالحادث وبأن الدكتور على باشا ابراهيم والدكتور محمد كامل حسن طبيب العظام دعيا للذهاب الى القصاصين للعناية بالملك ٠

★★★

وقد عرف هيكل باشا أن على باشا كان يعد السندوتش لرحلة من القاهرة الى القصاصين مخافة ألا يجد فى المعسكر البريطانى طعاما لعشائه ٠

وعرف الناس من بعد بالحادث فتولاهم الاشفاق والجزع فهذا الملك الذى لم يجاوز الثالثة والعشرين من سنه والذى لم يسىء بعد الى أحد قد أراد به الانكليز فى ٤ فبراير ١٩٤٢ ما أرادوا مما أضاع بينه وبينهم كل ثقة ٠

وما جعل طائفة من أبناء الشعب يتوهم أن الحادث وقع قصدا لغاية

في نفس الانجليز فأراد الله غير ما أرادوا وأضاع الله عليهم قصدهم وما بيتوا ٠

وبدأ المصريون من أهل العاصمة ومن شتى المدن والأقاليم يفدون الى القصاصين يقيدون أسماءهم في سجل التشريفات الذى أعد هناك للاطمئنان عن صحة الملك على ان الناس لم يلبثوا أن تساءلوا لماذا لم يذهب النحاس باشا ورجال وزارته الى القصاصين وهل تراهم اذا ذهبوا يؤذن لهم بالدخول الى غرفة الملك ؟ أم أن ما هو معروف من عدم رضاء الملك عنهم يحول دون أدائهم واجب الذهاب الى القصاصين اسوة بغيرهم من الناس ٠

★★★

والواقع أن الفجوة بين الملك ووزرائه جعلت الناس يتجهون بقلوبهم تأييدا الى ناحية الملك يحوطونه بولائهم وصدق اخلاصهم فلم يصدق أحد قط أن النحاس باشا يوم قبل الوزارة فى ٤ فبراير بعد أن أحاطت الدبابات البريطانية قصر عابدين قد قبلها لمصلحة مصر بل آمن الكل بأنه قبلها من يد الانجليز لمصلحته هو وعلى كره من الملك ٠

★★★

أما والملك غير راض عنه وعن وزارته والملك فى بدء شبابه لم يسىء بعد الى أحد فلم يفكر أحد حينذاك فى البرلمان وتمثيله سلطة الأمة لأن الأمة لم تكن بها يومئذ سلطة بل كانت السلطة للانجليز الذين أقاموا النحاس باشا رئيسا للوزارة بانذارهم ودباباتهم ٠

★★★

وتجلت ــ د٠ محمد حسين هيكل ــ عواطف الملك ازاء وزارته اذ ذاك فى مناسبة دولية خطيرة فلقد عقد الحلفاء مؤتمر القاهرة حضره الثلاثة الكبار : روزفلت رئيس الولايات المتحدة الأمريكية وتشرشل رئيس الوزارة البريطانية وشان كاى شيك رئيس الجمهورية الصينية ٠

وانى لفى دارى ذات مساء اذ تلقيت نبأ من قصر عابدين بأن أذهب الى القصاصين صبح الغد ٠

★★★

وعلمت ان الدكتور احمد ماهر باشا وحافظ رمضان باشا وبعض زعماء المعارضة ذاهبون كذلك الى هناك وان الرغبة الملكية اقتضت أن نتشرف بالمقابلة قبل الظهر من ذلك اليوم فلما اجتمعنا بالقصاصين واذن لنا بالمقابلة ذكر لنا الملك اجتماع الرؤساء الكبار بالقاهرة وأنه يجب ألا نضيع هذه الفرصة بل يجب ان نبلغهم مطالب مصر القومية لقاء معاونتها الحلفاء فى الحرب ويجب أن نسعى ان استطعنا الى مقابلتهم وأن ندلى بحجتنا اليهم : لهذه اللفتة مغزاها فالطبيعى أن تقوم الوزارة بهذا المسعى

فهؤلاء الكبار ضيوفها وهى أقدر من المعارضة على الاتصال بهم والتحدث اليهم الخ الى أن يقول د. هيكل : ان اختصاص الملك رجال المعارضة بمشورته فى هذا الأمر الحيوى له مغزاه البين فى تقدير عواطفه ازاء من يتولون السلطة باسمه وله دلالته على أن حادث ٤ فبراير بقي عميق الأثر فى نفسه .

***

وقد قام زعماء المعارضة بارسال مذكرة كتبها اسماعيل صدقى باشا بالفرنسية عن المطالب القومية وأقرها هؤلاء الزعماء الى الرؤساء الثلاثة دون أن يتمكنوا بطبيعة الحال من مقابلتهم !

وقد كنت واحدا من ملايين شباب مصر الذين انفعلوا بحادث القصاصين .

وكان الجانب الذى أثارنى فى هذا الحادث بالذات أكثر وأكثر اتهام الجيش البريطانى بتدبير الحادث للتخلص من فاروق وتولية الأمير محمد على توفيق ولى العهد العرش بعده .

فى صبيحة اليوم التالى للحادث خطبت فى تلاميذ مدرستى وكنت ضمن طلبتها وقتئذ فى نهاية المرحلة الثانوية (البكالوريا) .

نجحت فى اخراج تلاميذ المدرسة جميعا كما نجحنا فى اخراج تلاميذ المدارس المجاورة واتجهنا الى محطة القاهرة وهى قريبة من المدرسة وركبنا القطار الذى أقلنا الى القصاصين .

وفى معسكر الجيش البريطانى الذى وضع به الملك للعلاج رحنا نهتف بحياة الملك وسقوط الاحتلال البريطانى بالعربية والانجليزية وخرج الينا السكرتير الخاص للملك الأستاذ أمين فهيم يحمل الينا تحيات الملك .

ورجاء منه لنا بالانصراف بعد أن طمأننا على صحته .

وعدنا وتكررت مظاهراتنا فى اليوم التالى وسافرنا مرات أخرى الى القصاصين ورأينا مصر كلها قد انتقلت الى القصاصين .

***

وفكرت بعد أيام فى أن أسجل هذا الحادث - كما سبق لى أن سجلت حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ - ثم تراءى لى لماذا لا يكون التسجيل حيا بمعنى أن أطلب من بعض كبار الصحفيين مقالات خاصة أضمها فى كتاب خاص عن المناسبة .

وكان تنفيذ الفكرة صعبا للغاية . فمن الصعوبة بمكان اقناع صحفى أو كاتب كبير بكتابة مقال خاص ينشر فى كتاب لن يطبع منه سوى بضع مئات من النسخ .

ثم من أين لى بالناشر الذى يتولى طبع كتاب يقوم بتقديمه طالب ثانوى ٠

***

على آية حال بدأت الاتصال بأسرة روزاليوسف وكنت قد اخترت ثلاثة من قممها لأطلب منهم مقالات خاصة عن حادث القصاصين : السيدة فاطمة اليوسف ، الأستاذ احسان عبد القدوس ، الأستاذ محمد حسنين هيكل وكان وقتئذ يعمل سكرتيرا لتحرير المجلة ثم طلبت من الأستاذ حافظ محمود رئيس تحرير جريدة السياسة والاستاذ محمد خالد رئيس تحرير جريدة الدستور وطلبت أيضا من الاستاذ محمد على ناصف سكرتير تحرير الكتلة وطلبت من الأستاذ أمين فهيم السكرتير الخاص لفاروق أن يكتب كلمة بعنوان « ثلاثة أسابيع فى ضيافة الملك ، فى القصاصين » وطلبت أيضا من الأستاذة مفيدة عبد الرحمن أبرز محامية مصرية ليكون صوت المرأة ممثلا فى هذا الكتاب وآخرين وآخريات ٠

***

وظللت أواصل ليل نهـار السعى لدى هؤلاء جميعا لكى يكتبوا ما طلبته منهم ٠

وكانت المهمة كما قلت شاقة بل عسيرة ولكن استجاب كل هؤلاء ، ولكن بعد مضى فترة من الزمن ٠

وكنت كلما ذهبت الى مطبعة لكى أطبع الكتاب على نفقتى تعللوا بأزمة الورق التى كانت مستعصية على الحل وقتذاك ٠

وقد اقترح على أحد أصحاب المطابع ــ فى الفجالة ــ أن أسعى لدى وزارة التموين لتعطينى ورقا يلزم لطبع الكتاب بالسعر الرسمى حتى تقل التكاليف للطباعة ٠

وقضيت فى سبيل أداء هـذه المهمة شهورا طويلة دون جـدوى فالمسئولون فى وزارة التموين عندما كانوا يسألوننى عن موضوع الكتاب وأقول لهم « حادث القصاصين » كانوا يجفلون خائفين من أن يغضبوا وزير التموين الذى رفض تخصيص حصة من الورق لطبع هذا الكتاب ٠

ولكنى ومن صغرى أتصف « بنشوفية » الدماغ ــ وتلك مسألة وراثية ، كما يقول أبناء قريتنا ــ أصررت على طبع الكتيب على نفقتى الخاصة مهما كلفنى ذلك من أمر ، فلقد انتهى الكتاب الذين طلبت منهم المشاركة فى الكتيب من اعداد مقالاتهم بل وقام كثيرون بتسليمها لى : الأمر الذى أصبح يضعنى فى حرج بالغ ٠

وقد أقنعت والدى ووالدتى بأن يبيع كل منهما قطعة من الأرض لكى أتمكن من الحصول على نفقات هذا الكتيب الذى استغرق خطوات اعداده ونشره قرابة عام وقد صدر بمقدمة منى عبرت فيها عن مشاعرى تجاه الملك ، المعادى للاستعمار وتجاه الحادث الأليم الذى وقع له .

***

وبعد مقدمة الكتاب التى كتبتها ولم أكن قد أكملت بعد دراستى الثانوية نشرت فى الكتاب مقالات السيدة فاطمة اليوسف ، حافظ محمود ، احسان عبد القدوس ، محمد حسنين هيكل ، محمد خالد ، محمد على ناصف ، مفيدة عبد الرحمن ، أمين فهيم وغيرهم وغيرهن .

***

وقد حيت الصحافة المصرية هذا الكتيب وتلقيت عن طريق أمين فهيم رسالة من كبير الأمناء شكرنى فيه على مشاعرى الرقيقة حرصت على أن أسجله فى الكتاب التـــالى الذى ظهر لى بعد ذلك الكتيب ـ الكتيب الخاص بمحمد محمود ـ لا شىء الا لكى أذكر أننى لم أقابله واننى لم أتقبل منه سوى خطاب شكر .

ولم يمض سوى أسابيع قليلة على ظهـــور الكتاب حتى كنت من أوائل الذين اعتقلوا فى قضية اغتيال أحمد ماهر الوزير الأول للملك فاروق .

وبعد أن عرفت الكثير عن مباذل فاروق فيما بعد لم أندم ولو لدقيقة واحدة عن تقديمى لهذا الكتيب فعندما أعددته وقدمت له كنت مؤمنا بـكل حرف كتبتـه وهـــذا هو ما يعنينى : الايمان بكل ما أكتبـــه والتمسك به أمران أحرص على التركيز عليها بل انى فيما يتعلق بمـا كتبته فى كراسات الانشاء المدرسية ، أؤمن به ولا زلت متمسكا بكل حرف كتبته فى تلك الكراسات أو فى غيرها من الكتب أو المقالات .

***

ومما يقوى مركزى عند نفسى اننى فى كل حرف أكتبه لا أنطلق من بعد شخصى أو من رغبة فى تحقيق مصلحة خاصة وان كل ما أكتبه لا يستهدف فى رأيى ـ وقد يكون هذا الرأى صحيحا أو خاطئا ـ تحقيق مصلحة عامة .

ولقد جر على الكتيب فيما بعـد متاعب كثيرة واتخـذ مادة للاساءة الى وحدى ، دون المشاركين فى هذا الكتيب فيما عدا الأستاذ احسان عبد القدوس الذى اتخذ مقاله فى هذا الكتيب مادة لهجوم عنيف عليـه مثلى .

على انني لم أتراجع ولن أتراجع في يوم من الأيام عما كتبته في هذا الكتيب والا كنت غير جدير باحترامي لنفسي ٠

لقد أصدرت في يوم من الأيام في واقعة من الوقائع حكما لصالح احد الأفراد ولا يضيرني أن يكون هذا الفرد قد تغيرت أخلاقياته بعد صدور هذا الحكم فانتقل من الطيبيين الى الخبيثين ٠

كما أنه لا يضيرني أبدا أن يكون هذا الشخص وقت صـدور هذا الحكم قد أساء ما دمت أنا لا أعلم شيئا عن تلك الاساءة ٠

ثم ان ما كتبته عن الملك في هذا الكتيب كان نابعا من اقتناع شخصي وكان وقت أن كتبت ما كتبتـه هو ملك البـلاد الشرعي : لم يكن حاكما أو ملكا أجنبيا ٠

ثم وهذا هو الأهم ، انني فيما كتبته لم أقبض له ثمنا ٠

لقد ضحيت بقوتي واقتصدت من مصروفي وبعت بعض ما يملكه أبي وأمي ، لكي أتمكن من طبع هذا الكتيب على نفقتي الخاصة ٠

وفي ذلك ما فيه من التضحية ٠

ولو كنت من المنافقين مثلا لانتهيت من اعداد الكتاب وبعثت الى السراى لتطبعه على نفقتها ٠

ولو انني فعلت ذلك أو ما يقرب من ذلك لظللت الى الأبد أحتقر نفسي لأنني تاجرت بعواطفي ٠

ولو كنت ممن يتأجرون بعواطفهم مثلا لاتجهت الى أحزاب المعارضة وأخذت جانبها في صراعها دفاعا عن الملك وأوكلت لها أو لأحدها مهمة نشر الكتاب ٠

ولو أنني فعلت ذلك أيضا ، أو ما يقرب من ذلك لما كنت أنا نفسي : كنت لا قدر الله واحدا غيري ، وهذا ما لا ترتضيه نفسي بأية حال من الأحوال لنفسي ٠

وعلى أي حال فان موقفي من الملك وقتئذ كان موقفا حزبيا وأنا ملتزم بما يتخذه حزبي من مواقف وقد كان حزبي ــ الحزب الوطني ــ وقتذاك يقف مع الملك في صراعه ضد الاحتلال البريطاني وعندما تغير موقف الملك من ذلك الصراع وتحول موقفه الى مهادنة أو مصانعة للاحتلال وقفنا ضده وملأنا الدنيا منشورات عن أخطائه وخطاياه ٠

الفصل الثالث

٤ فبراير آخر ولكن بدون دبابات !!

تميزت الفترة من ٤ فبراير ١٩٤٣ حتى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ ـ وكانت الأحكام العرفية فى أقصى درجات شدتها وعنفها ـ بأكبر قدر من الفساد عرفته الادارة المصرية ٠

والكتاب الاسود رغم ما فيه من أمور تافهة يشير الى أكثر من جانب من جوانب الفساد ٠

وقد استغلت الوزارة القائمة بالحكم الأحكام العرفية أبشع وأفظع استغلال : استغلتها ـ مثلا ـ فى التموين وفى التجارة الخارجية وفى التخلص من الخصوم السياسيين ٠

ومن أبرز صور هذا الاستغلال ما قام به بعض المحامين الوفديين من السعى بالوساطة فى القضايا العسكرية لاخراج بعض المتهمين فى تلك القضايا أو الغاء الأحكام الصادرة ضدهم فيها أو تخفيفها قبل أن يصدق عليها مكتب الحاكم العسكرى ٠

ولقد قضت الظروف أن أشهد عن قرب واقعة من هذه الوقائع ، كان أحد عمد البلاد ممن تربطنى بهم صلة قد تآمر بعض خصومه عليه فكادوا له فى قضية تموين وبالرغم من أنه ليس تاجرا وبالرغم من أنه لا يمكن أن تنطبق عليه الأحكام الخاصة بالتسعيرة ولم يثبت عليه أنه هو الذى باع ، أو اشترك فى البيع ، أو حتى على الأقل ، كان يعرف شيئا عن عملية البيع تلك وبالرغم من أنه كان خارج القرية وقت تنفيذ تلك المؤامرة الا أنه قد حكم عليه بالسجن عاما كاملا ولأنه كان قد تجاوز

السبعين من العمر ولم تكن صحته تسمح بالسجن أو حتى بالاعتقال فقد بذل قصارى جهده لعدم تصديق مكتب الحاكم العسكرى على الحكم .

وكانت أحكام المحاكم العسكرية يصدق عليها مكتب الحاكم العسكرى واتصل بأحد المحامين الوفديين وكان من النواب البارزين واتفق معه على مبلغ ضخم للغاية لم يكن يملكه فباع جزءا مما يملك لكى يعطى هـذا النائب المحامى ما طلبه وحتى لا يستغل خصومه فى الانتخابات فرصة الحكم عليه هرب من القرية وأقام عند أحد كبار الوفديين بالمعادى وكان يذهب الى محاميه فى ميدان باب الخلق كل أسبوع تقريبا .

***

وفى كل أسبوع كان المحامى يحرص على ان يأخذ مبلغا آخر فوق المبلغ المتفق عليه لأنه سيعطيه لزيد أو عبيد وظلت العملية أكثر من ستة أشهر والرجل بعيد عن داره وأولاده ووظيفته التى كان قد أوقف عن مباشرة أعمالها الى أن تمكن هذا النائب من الغاء الحكم الصادر ضده وقد رافقته أكثر من مرة الى مكتب هذا المحامى فوجدت المكتب مليئا بأصحاب القضايا : صحيح أن عدد الذين كانوا يقومون بهذه العمليات من المحامين المتعاملين معهم عدد من كبار تجار المخدرات .

وقد عمدت وزارة الوفد الى فصل بعض مخالفيها فى الرأى من كبار الموظفين أو احالتهم الى المعاش والصورة الواضحة للظلم الذى كان سائدا وقتذاك مثل احالة الأستاذ الدكتور عبد الرزاق السنهورى وكيل وزارة المعارف ولم يكن له من ذنب الا أنه غير وفدى .

وقد بذلت محاولات مضنية لدى وزير التربية والتعليم لنقـــل الدكتور السنهورى الى المحيط القانونى كأن يعين مثلا مستشارا ملكيا لوزارة العدل غير أن وزير المعارف أصر على ضرورة احالته الى المعاش .

وقد ظهر أن الجريمـــة الوحيدة التى ارتكبهـا الأســتاذ الدكتور السنهورى هو أنه كان وفيا لصديقه وزميله محمود فهمى النقراشى باشا .

وتلك جريمة شنعاء فى نظر القيادات الوفدية .

وقد تأثر بعض الوفديين بهذه الصور المخزية ونقموا على الوزراء المسئولين قيامهم بها ولكن كان أولئك الغاضبون من تصرفات الوزارة الوفدية من القلة بحيث لم يستطيعوا تغيير المسار الذى اتجهت اليه الحكومة الوفدية .

***

ونظرا لأن الأحكام العرفية كانت قائمة وتنفيذها كان بالغ القسوة ولأن الصحافة كانت مقيدة تماما فلا ننشر أية كلمة ولو فى صفحة الوفيات

دون أن يجيزها الرقيب فلم يكن هناك من نافذة يمكن للرأى العام أن يطل منها على بعض الحقائق سوى مجلسى النواب والشيوخ ، فقد كانت التقاليد التى روعى تنفيذها الى حد ما ــ وكانت ذات فائدة كبيرة للغاية ــ ألا تتدخل الرقابة فيما يقال فى جلسات المجلسين وحتى هذه التقاليد لم تراع فيما بعد وشملها ما شـــمل غيرها من اعتداءات على حرية القول وحرية الكتابة فبعد شهور من تولى الحكم راحت أيدى رقباء صحف وزارة ٤ فبراير تمتد الى ما يجرى داخل مجلسى الشيوخ والنواب من مناقشات فلا يوافقون الا على ما يفيــد الوزارة وما يمــكن أن يعلى من شأنهــا فى ظنونهم هم وما أكثر ما نوقش موضوع حرية الصحافة فى جلسات مجلسى الشيوخ والنواب فقد كان الاهتمام بالصحافة وحريتها أشد مما يحرص عليه كثير من الشيوخ ومن النواب ٠

***

وفى بعض الأحيان كان يأخذ جانب الصحافة بعض الشيوخ وبعض النواب المؤيدين للحكومة القائمة وقت مناقشة الاستجوابات أو الرد على بعض الأسئلة ٠

وقد تقدم باستجواب عن حرية الصحافة الأستاذان محمود بسيونى ويوسف الجندى فى مارس ١٩٤٠ عندما كان الوفد فى المعارضة وكذلك تقدم باستجواب عن حرية الصحافة الشيخ المحترم أنطون الجميــل بك رئيس تحرير الأهرام وعضو المجلس وكذلك الشيخ المحترم د٠ محمد حسين هيكل فى مجلس الشيوخ ٠

وأذكر أن الأستاذ فكرى أباظه قد تقدم باستجواب الى رئيس مجلس الوزراء فى ١ ديسمبر ١٩٤٢ ٠

وكانت نقط الاستجواب

أولا : خرجت الرقابة فعلا على الحدود المرسومة فى الأمر العسكرى الصادر فى سبتمبر ١٩٣٩ ٠

ثانيا : امتدت الى المسائل الشخصية لا العامة التى يقصد منها حماية أمن الدولة العام والدفاع الوطنى ٠

ثالثا : حيل بين الأفراد وبين حق الرد على ما يوجه اليهم فى الجرائد .

رابعا : حيل بين الصحافة والنقد العام الذى يبيحه الأمر العسكرى السالف الذكر ٠

خامسا : اجراءات الرقابة فى حد ذاتها مرهقة ومعقدة ٠

وطلبت الوزارة التأجيل الى ١٢ يناير ١٩٤٣ ثم أجل الاستجواب الى جلسة ١٠ فبراير ١٩٤٣ ثم طلب وزير التجارة تأجيله مرة أخرى لانشغال رئيس الحكومة يومئذ بعيد ميلاد الملك ٠

وأخيرا فى ٢٨ ابريل ١٩٤٣ تمت مناقشة الاستجواب بعد أن قدم له الأستاذ فكرى أباظة بقوله : من عهد أن تكلم وزير التجــارة باسم الحكومة بجلسة الأربعاء ٢ ديسمبر ١٩٤٢ وقطع على الحكومة عهدا بألا يتعدى الرقباء حدود الرقابة الصحفية الواردة فى الأمر العسكرى الصادر فى سبتمبر ١٩٣٩ والأمر يسير بالعكس وتتجاوز الرقابة الصحفية تلك الحدود وتتوسع فى فرضها على الصحف وتكون بذلك قد خرجت من الحيز القانونى الذى أبيح للحاكم العسكرى من بدء تنفيذ المرسوم الى اليوم٠

الوقائع :

أولا : الأمر العسكرى الصادر فى سبتمبر ١٩٣٩ خولفت نصوصه وحيل بين الصحف وبين نشر ما لا يتعلق بســلامة الدول ولا بالدفاع ولا بالأمن العام ٠

ثانيا : حرم ذوو الحقوق ممن هاجمتهم بعض الصحف من حق الرد وهو حق مقرر بحكم القانون ٠

ثالثا : أتيح للصحف الحكومية أن تنشر تفاصيل الاجتماعات الوفدية وما قيل فيها وحرم على غيرها أن تنشر ما يماثلها من اجتماعات الأحزاب السياسية الأخرى ٠

رابعا : صودرت بعض الصحف وعطلت بسبب أخبار أجازهـا الرقيب ٠

خامسا : الأخبار العادية البحتة والأخبار الادارية يمنع نشرها ٠

سادسا : أخبار الترقيات والاستثناءات المقررة من الجهات المختصة ومن مجلس الوزراء يحال بينها وبين النشر ٠

سابعا : ما يرد من التلغرافات الأجنبية عن سير المعارك والتعليقات الحربية لا يباح نشرها كاملة فى الصحف المصرية ٠

ثامنا : لم ينفذ معالى وزير التجارة الممثل للحكومة فى شــئون الصحافة ما وعد به الصحفيين فى اجتماعه معهم بمجلس ادارتهم وقد ورد هذا فى تقرير النقابة العامة المرفوع للجمعية العمومية ٠

تاسعا : كانت النتيجة أن التاريخ المصرى المسجل لحوادث هذه الأعوام والمدون فى الصحف اليومية والاسبوعية يخالف الواقع والحقيقة تمام المخالفة ويعطى صورة غير حقيقية للحالة الحاضرة ٠

عاشرا : حيل بين الصحف وبين نشر ما هو فى مصلحة الجمهور لحمايته والدفاع عنه فى شئون التموين وشئون أخرى .

★★★

وقد ذكر الأستاذ فكرى أباظة انه عندما تولى النحاس باشا الحكم توجه اليه وفد يمثل مجلس نقابة الصحفيين لشكره على ما أسداه للصحفيين من امتيازات مادية يومئذ قرر النحاس باشا أن الرقابة ستكون قاصرة على ما يسىء الى العلاقات المصرية الانجليزية أو يفشى أسرارا حربية أو يخل بالأمن والنظام أو يضر بالسمعة المالية أو تهييج الخواطر » بعد عام اتضح أن الرقابة قد تعسفت فى التطبيق الى آخر ما ذكره الأستاذ فكرى أباظة وقد ضرب أمثلة كثيرة على تعنت الرقابة .

★★★

ومن بين ما أذكر عن جلسات النواب والشيوخ التى كان لها صداها عند الجماهير والتى حرصت على أن أشاهد بعضها من شرفات الزوار وكان حضور مثل تلك الجلسات من الأمور الشاقة والعسيرة أذكر مثلا جلسة ٢٩ يونيو ١٩٤٢ وقد أشير فيها ـ فى جلسة الشيوخ ـ نبأ المضاعفات المرضية التى حدثت للمعتقل السياسى الأستاذ ابراهيم طلعت المحامى فقد ساءت حالته الصحية بسبب نقله منـــذ يوم ٨ ابريل الماضى من معتقل الزيتون الى سجن الأجانب وعدم تمكينه من التردد على الطبيب الذى كان يعالجه بأمر وزارة الداخلية من مرض صدرى أصيب به .

★★★

وقرر حضرة طبيب السجن ـ كما قال الأستاذ عبد الرحمن الرافعى بك فى الجلسة ، وكذلك حضرة طبيب المحافظة ـ ضرورة نقله من السجن الى المستشفى كما قرر حضرة مدير مستشفى الدمرداش الذى انتدبته المحافظة لفحصه أنه مصاب بأمراض صدرية وانه يحتاج الى علاج سريع ومع ذلك وضع بالسجن حتى ازدادت حالته سوءا ونقل يوم ١٤ مايو الى مصلحة حلوان حيث فحصه أطباء الصحة وتبين انه مصاب بالتدرن الرئوى وبحالة خطرة .

وأثير فى تلك الجلسة أيضا الظروف الصعبة التى يمر بهـا بعض المعتقلين ومن بينهعم الأساتذة محمد صبيح وأحمد حسين وابراهيم الزيادى وفتحى أبو الوفا (مهندس) وعبد الوهاب حسنى (طالب بالسنة النهائية بكلية الحقوق) .

وفى جلسة ٢٠ مايو ١٩٤٢ أثار الأستاذ عبد الرحمن الرافعى أيضا قضية الأديب عبد الوهاب حسنى الذى ظل معتقلا أكثر من ثمانية أشهر « ومسألته عجيبة فكل ما نسب اليه أنه وجد مع شخص آخر اسمه (مدحت عاصم) اتهم بأنه كان يوزع منشورات ثورية فقدم الى المحكمة العسكرية

ولم يقدم معه عبد الوهاب حسنى حيث لا تهمة له فحوكم مدحت عاصم وحكم عليه بعقوبة مدنية مع وقف التنفيذ وافرج عنه ولكن الشخص الذى وجد معه بالصدفة لم يفرج عنه ولا يزال معتقلا للآن ٠

★★★

وكانت قضية المعتقلين السياسيين قد بدأت تأخذ شكلا هاما وخطيرا فى وزارة حسين سرى ٠

وكانت وزارة سرى باشا قد بدأت فى اعتقال الكثيرين من المصريين استجابة لطلبات الحكومة البريطانية أو ممثلها فى القاهرة (سفير بريطانيا فى القاهرة) سير مايلز لامبسون ومن بينهم الأستاذ حسن البنا المرشد العام لجمعية الاخوان المسلمين والأستاذ أحمد السكرى الوكيل العام لهذه الجمعية والأستاذ عبد الحكيم عابدين السكرتير العام ٠

وقد تم الاعتقال دون أى تحقيق مع هؤلاء المعتقلين أو توجيه أية تهمة لهم ٠

وكانت الوزارة عندما يتقدم أحد النواب والشيوخ بسؤال أو باستجواب بعض المعتقلين ويتحدد موعد للاجابة على هذا الاستجواب تقوم بالافراج عنه ٠

وتأتى الوزارة : رئيس الوزارة أو وزير الداخلية يقول انه تم الافراج عنهم بعد زوال الأسباب التى بنيت عليها أوامر اعتقالهم ٠

وبعد الرد على السؤال أو مناقشة الاستجواب الخاص بالمعتقلين السياسين تعود الى اعتقالهم من جديد

★★★

وقد ظل الأساتذة أحمد حسين ومحمد صبيح وابراهيم الزيادى وفتحى أبو الوفا معتقلين فى أيام وزارة حسين سرى باشا وفى أيام وزارة مصطفى النحاس باشا وقد أضرب بعض هؤلاء المعتقلين عن الطعام احتجاجا على استمرار اعتقالهم دون تحقيق معهم فى أية تهمة ودون أن يقدموا الى المحاكمة وكانت الحكومة فى أغلب الأحيان تقول أن الاعتقال السياسى يختلف عن الحبس الاحتياطى فالاعتقال السياسى إجراء وقائى يتخذ فى أثناء قيام الأحكام العرفية كلما استلزمت ذلك الاعتبارات الخاصة بالمحافظة على أمن الدولة وسلامتها ٠

★★★

وكان وزير المواصلات عبد الفتاح الطويل باشا قد أجاب نيابة عن رئيس الوزارة مصطفى النحاس باشا ٠ (٢١ يونيو ١٩٤٢) بخصوص الأستاذ ابراهيم طلعت أن حكيمباشي البوليس قرر أن حالته لا تستدعى علاجا وأنه لا خطر عليه من البقاء في معتقله ولكن المعتقل ابراهيم طلعت أصر على نقله الى أحد المستشفيات وانتدب حضرة مدير مستشفى

الدمرداش للكشف عليه واتضح من تقريره ومن كشف الأشعة أنه ليس مصابا بالتدرن الرئوى ولكن بتضخم القلب ٠٠ الخ ٠

***

وقد كانت آخر أزمات الانجليز مع الملك فاروق بخصوص وزارة النحاس باشا تلك التى أخذت شكلا عنيفا منذ بداية ابريل ١٩٤٤ ٠

كان الملك قد قضى عيد ميلاده (١١ فبراير ١٩٤٤) بين منكوبى قنا وأسوان وكانت الملاريا قد اتخذت شكلا وبائيا عنيفا فى تلك المناطق وقد اتهم الملك أثناء زيارته الوزارة باخفاء الحقائق عنه ٠

***

ثم قام النحاس باشا بعد زيارة الملك بزيارة تلك المناطق وحشدت الادارة كل رجالها لكى تكون الزيارة أروع وقد عومل النحاس باشا فى تلك الزيارة معاملة الملك مما ضاعف من غضب الملك على رئيس وزرائه فتقرر اقالة الوزارة ٠

وقد طلب الملك أن يزوره السفير البريطانى فلبى السفير الدعوة وفوجىء بأن الملك على غير عادته بعد ٤ فبراير ١٩٤٢ قد استقبله هاشا باشا مرحبا به للغاية حتى لقد استولى الشك على السفير واعتقد أن هناك قنبلة أخفاها الملك وانه لأبد من أن يفجرها فى هذه المقابلة ٠

دخل الملك فى الموضوع مباشرة وأعطى السفير مذكرة قرأها عليه وكانت المذكرة بمثابة شكوى مرة من النحاس باشا وتصرفاته الحمقاء ٠

وبعد ذلك قال الملك للسفير أنا أعرف ان النحاس باشا صديق لك ولبريطانيا وقد تقبلت فيما مضى الكثير من حماقاته وانه ــ أى الملك ــ ليس مستعدا لحماقات أخرى ٠

وانه ــ الملك ــ يود ان يفتح صفحة جديدة مع بريطانيا ومع السفير متجاوزا عن أية أخطاء وقعت فى الماضى ٠

وكان من بين الأمثلة التى وجهها الملك الى كيلرن ان النحاس باشا يتصرف كملك ولعلك ــ عزيزى السفير ــ توافقنى على أنه لا يمكن أن يكون هناك ملكان فى مصر ٠

وبلعها السفير البريطانى ولكن قرر أن يرد على الملك فورا فقال له بسخرية مرة : لا قدر الله يا مولاى أن يكون هناك ملكان فى مصر فما تعانيه يا مولاى من ملك واحد يكفى ٠

وقهقه فاروق ثم قال للسفير : أننى أود تغيير الوزارة واعتقادى أن الوقت مناسب لذلك بالنسبة لى ولك وبالنسبة لمصر ولبريطانيا ٠

وبدا على كيلرن التجهم والقلق وقال للملك ان العالم يمر بمرحلة مصيرية وكذلك مصر ولذلك فأنا أعتقد أن تغيير وزارة النحاس التى تعمل على تنفيذ المعاهدة نصا وروحا كمـا انهـا وقفت الى جانبنا عندما كانت الحرب على الأبواب وقدمت لقضية الحلفاء أكبر دعم ومساعدة فيما يتعلق بالمجهود الحربى : تغيير وزارة النحاس باشا الآن ليست من صالحك أو صالحنا ٠

صحيح انها ليست فوق مستوى النقد ولكنها على كل حال أفضل من غيرها ٠

وابتسم كيلرن فى مرارة قائلا للملك أنه يعتقد أن المذكرة التى أعطاها له ليست قرارا وان كل شىء قابل للمناقشة وانه من الأفضل للملك ألا يقدم على أية خطوة جديدة الا بعد تلقى رأى لندن خاصة وانه ـ مستر تشرشل ـ هو الذى يتولى بنفسـه توجيه السياسة الخارجيـة البريطانية ٠ ٠

ويسأل كيلرن الملك من قبيل الاستطلاع عن اسم رئيس الوزراء الجديد فقال الملك انه صديق لبريطانيا ٠

يقول الملك أنه أحمد حسـنين باشا ومعه وزراء اداريون : حسن صادق باشا للحربية ، حسن رفعت باشا للداخلية ثم سابا حبشى للتجارة ود٠ شوشة للصحة وعمرو باشا بطل الاسـكواش ، والوزارة المقترحة ادارية وإنتقالية مهمتها الاعداد للانتخابات الجديدة ٠

***

ويقول كيلرن للملك ان بريطانيا ـ وهو شخصيا ـ كيلرن ـ قد عانوا كثيرا من حكومات الأقلية وأنه ـ كيلرن ـ يعتقد أن تشكيل الوزارة بمثل هذه الأسماء ليس جديا على الاطلاق ٠

ويقول كيلرن للملك محذرا : عليك الا تقدم على أية خطوة جديدة حتى يصلنا رد مستر تشرشل ٠

***

وأفاد كيلرن : أتوقع أن يكون ردا موجزا ومركزا جدا ومر المذاق أيضا ويبلغ كيلرن السفارة الأمريكية تفاصيل لقائه بالملك ويدعو لجنة الدفاع للاجتماع ٠

وفى أثناء الاجتماع يتلقى نبأ مفاده أن الملك قد أقال وزارة النحاس باشا وعين حسنين باشا رئيسا للوزارة الجديدة ٠

ويطلب كيلرن مقابلة الملك بسرعة ويستأذن فى أن يكون اللقـاء بالملابس العادية ٠

ويسأل كيلرن الملك ٠ لماذا لم تنتظر تعليمات تشرشل ؟ ويقول الملك فاروق : سوف أشرح لك الظروف فيما بعد ٠

ولكن كيلرن كان أسرع من الملك فأبلغ الملك رسالة تشرشل التى تقول أن المشكلة التى نشأت بين الملك ورئيس وزرائه مهمة جدا وقد رأيت ـ تشرشل ـ عرضها على مجلس وزراء الحرب فى الاسبوع القادم وأنه لابد من انتظار قرار مجلس الحرب فى هذا الموضوع ٠

وقد ذكرت رسالة تشرشل أنه ـ تشرشل ـ بعث بتعليمات الى سفيره فى القاهرة يطلب من النحاس باشا أن يتصرف بحكمة وألا يبدأ بالعدوان ٠

وأكد تشرشل أيضا فى رسالته ان بريطانيا العظمى سوف تقف ضد كل من يضرب أولا ٠

وقبل أن يغادر كيلرن القصر الملكى كرر النصح لفاروق وبشدة أن يأخذ بعناية واعتبار رسالة مستر تشرشل وخاصة تحذير تشرشل من يضرب أولا ٠

وطلب كيلرن من الملك أن يرد على رسالة تشرشل فأمهله الملك ساعة واحدة ٠

وفور وصول كيلرن الى دار السفارة استدعى أمين عثمان باشا ليبلغ النحاس باشا ضرورة معالجة الأمور بالحكمة وتحذيره ـ تحذير النحاس باشا ـ من أن يبدأ بالعدوان أو بمعنى أدق أن يضرب أولا ٠

***

وكرر أيضا تحذيره لأحمد حسنين لكى يبلغ الملك خطورة اقدامه على تغيير النحاس باشا ٠

وفى ١٩ ابريل ١٩٤٤ وردت رسالة تشرشل الى سفير بريطانيا فى مصر تقول له ان من المحتمل أن يؤيد مجلس وزارة الحرب حكومة مصر الديمقراطية ضد عصابة القصر الذى يتربع فيه على العرش ملك شرقى طاغية كان يثبت باستمرار أنه غير مخلص لبريطانيا ٠

ويدعو كيلرن لجنة الدفاع حيث ناقش مسـألة استخدام القوة ضد فاروق ان هو أقدم على تغيير وزارة النحاس باشا ٠

***

ويختلف العسكريون فى لجنة الدفاع مع وجهة نظر كيلرن الداعية الى استخدام العنف ضد فاروق ٠ واضعين فى اعتبارهم أمورا غاية الخطورة من بينها ـ مثلا ـ أن ظروف الحرب وقد تحسنت بالنسبة الى الحلفاء لم تعد تدعو الى استخدام القوة كما أن العسكريين كانوا يخشون أن يتحرك الجيش المصرى والبوليس المصرى ضد الانجليز اذا استخدموا القـوة ضد الملك ٠

وكان من رأى كيلرن أنه لا خوف من الجيش أو البوليس قد بحث الأمر منذ فترة مع الأمير محمد على ولى العهد الذى كان سيخلف الملك

فاروق فيما لو عزل فاروق عن العرش وأن الأمير محمد على طمأنه الى أنه لن تمضى سوى فترة قصيرة حتى يلتف الجيش والبوليس حوله ـ حول محمد على توفيق ولى العهد ـ ٠

***

وكانت وجهة نظر كيلرن أيضا أنه لا داعى لاستخدام الدبابات وأنه فى البداية يجب أن يذهب الى الملك محاولا بشتى الطرق اقناعه بعـدم احداث تغيير وزارى فان تمسك برأيه وعجز عن اقناع الملك يذهب اليه فيما بعد قائد القوات البريطانية فى مصر ورجاله وحدهم دون السفير البريطانى ليتم كل شىء ٠

وجاءت رسالة تشرشل واضحة صريحة مؤداها أن مجلس الحرب يعتقد أن رغبة الملك فى اقالة رئيس وزارة تتمتع وزارته بثقة البرلمان الذى لا يزال أمامه ثلاث سنوات ، رغبة الملك محفوفة بالمخاطر ومجلس الحرب لن يمنع الملك من حل البرلمان واجراء انتخـابات جديدة بشرط ألا يتولى وزارة الانتخابات أحد من رجال القصر أو زعيم لا يحصل على ثقة البرلمان ٠

ملخص وجهة نظر مجلس الحرب اما أن يبقى النحاس فى رئاسة الوزارة أى بدون تغيير no change واما أن يحـل البرلمـان وتجرى الانتخابات وتتولى وزارة النحاس باشا اجراء الانتخابات الجديدة ٠

ويقول فاروق فى هذه الحالة يجب أن تسحبوا الخطاب الذى سبق أن وجهتموه الى النحاس باشا فى ٥ فبراير ١٩٤٢ الذى نص على عدم تدخل بريطانيا فى الأمور الداخلية لمصر ٠

ويقول كيلرن ان فاروق قد كسب بنطا عليه ـ على لامبسون ـ بهذا القول ٠

★★★

أما الخطاب الذى أشار اليه الملك فهو ذلك الذى بعث به السـفير البريطانى الى النحاس باشا ردا على خطاب كان قد بعث به النحاس الى السفير البريطانى وهذا نصه : « من النحاس باشا الى سير لامبســون يا صاحب السعادة لقد كلفت بمهمة تأليف وزارة وقبلت هذا التكليف الذى صدر من جلالة الملك بما له من الحقوق الدستورية وليكن مفهـومنا أن الأساس الذى قبلت عليه هـذه المهمــة هو أنه لا المعاهدة المصرية البريطانية ولا مركز مصر الدولى كدولة مستقلة ذات سياسة يسمحان للحليفة بالتدخل فى شئون مصر الداخلية وبخاصة فى تأليف الوزارات أو تغييرها وانى آمل يا صاحب السعادة أن تتفضلوا بتأييد يتضمن ما فى خطابى هذا من المعانى وبذلك تتوطد صلات المودة والاحترام المتبادلين وفقا لنصوص المعاهدة وتفضلوا الخ ٠

٥ فبراير ١٩٤٢ مصطفى النحاس

وقد رد السفير البريطاني على النحاس باشا بالرسالة التالية :

يا صاحب المقام الرفيع لى الشرف أن أؤيد وجهة النظر التى عبر عنها خطاب رفعتكم المرسل منكم بتاريخ اليوم وانى أؤكد لرفعتكم أن سياسة الحكومة البريطانية قائمة على تحقيق هذا التعاون باخلاص مع حكومة مصر كدولة مستقلة وحليفة فى تنفيذ المعاهدة المصرية البريطانية من غير أى تدخل منها فى شئون مصر الداخلية ولا فى تأليف الحكومة أو تغييرها وانى لأنتهز هذه الفرصة لأعبر لرفعتكم عن فائق احترامى ·

مايلز لامبسون

***

وكان النحاس باشا ، ومكرم عبيد باشا - عندما كان فى الوفد - قد هللا لهذين الخطابين المتبادلين ولكن ظهر أن هذين الخطابين كغيرهما من الخطابات لا تزيد فى قيمتها عن قيمة الورق الذى كتبت عليه وحول ما اقترحه الملك فاروق من ضرورة سحب خطاب كيلرن السفير البريطانى قال الملك : مادامت بريطانيا باسم تشرشل رئيس الوزارة البريطانية تحتم اما بقاء وزارة النحاس باشا واما أن يقوم النحاس باشا باجراء انتخابات جديدة وهذا تدخل فى شئون مصر الداخلية فعليها أن تسحب خطاب السفير البريطانى الى النحاس باشا ويقول كيلرن بكل سرور أقبل اقتراحكم ولكن ليكن فى علمكم أن موضوع سحب هذا الخطاب هو من اختصاص النحاس وحده ·

***

وقد فرح الوفد الى حد كبير برسالة تشرشل وقد ذاع أمرها وخاصة عندما اختصرت لتصبح « لا تغيير » no change وقد وصف أستاذنا عبد الرحمن الرافعى الأمر الذى أحدثته رسالة تشرشل بقوله : كانت البرقية التى تحمل رأى الحكومة البريطانية ومضمونها لا تغيير no change حديث المجالس وموضع الأسف لاقحام الجانب البريطانى فى شئون مصر الداخلية الى هذا الحد وقد اغتبط الوفديون لهذه البرقية اغتباطا شديدا وازدادت العلاقة بعد هذه البرقية تحرجا بين القصر والوزارة وزاد اطمئنان الوفد الى بقاء الوزارة فى الحكم مستندة الى التعضيد البريطانى » ·

ولست أنسى ما حييت أن نواب الوفد وشيوخه كانوا يرقصون فرحا فى نواديهم لأن برقية تشرشل ضمنت البقاء للوزارة ·

وقد تهكم كثيرون على الوفديين الذين لم يكونوا يعرفوا حرفا انجليزيا واحدا ومع ذلك راحوا يرددون بالانجليزية no change

ولم يعرفوا لهذه العبارة من معنى الا أن الوزارة باقية رغم ارادة الملك ورغم رغبة الملك ٠

وتلقى كيلرن برقية من تشرشل يقول له فيها « برافو » قل للنحاس باشا ، أن يصلح ما بينه وبين الملك » ٠

***

وبرقية شخصية أخرى بعث بها تشرشل الى كيلرن مهنئا اياه لأنه « نجح فى مزج الخل بالزيت » وان ، كنا لم نعرف من هذا الخل ومن هو الزيت ، هل النحاس هو الزيت والملك فاروق هو الخل أم العكس ٠

***

ويصر كيلرن على أن يصلح ما بين النحاس والملك بعد أن تلقى رسالة من فاروق سلمها له حسنين باشا مؤداها أنه الملك قرر أن يترك الحكومة الوفدية فى الحكم فى الوقت الحاضر » ٠

كان حزننا نحن الشباب بالغا أقصى الدرجات بسبب التدخل البريطانى السافر فى ابريل ١٩٤٤ والبرقيـة التى جاءت من تشرشل رئيس الوزراء البريطانية بأنه « لا تغيير لا تغيير » والفرحة الطاغية التى نزلت بالقيادات الوفدية حتى أفقدتهم السيطرة على النفس ٠

كان حزننا بسبب هذا التدخل أقسى كثيرا من حزننا بسبب فى تدخل الانجليز فى شئوننا الداخلية فى ٤ فبراير ١٩٤٢ فمن ناحية فوجئنا كشعب بصفة عامة وكشباب بصفة خاصة بما حدث فى ٤ فبراير ١٩٤٢ بل لم نسمع عن حقيقة ما جرى أو حقيقة بعض ما جرى الا بعد شهور عديدة وكان اتخاذ أية تصرفات مضادة لذلك التدخل قد فات أوانهـا ٠

وكان الاخوة الوفديون أو بمعنى أدق بعض قيادات الوفد ــ فالجماهير الوفدية وكثير من قيادات الوفد أبرياء من تهمة التستر على التدخل البريطانى فى ٤ فبراير ١٩٤٢ براءة الذئب من دم ابن يعقوب ــ يدعون أنهم لم يكونوا يعرفون عن التدخل البريطانى الا بعد أن سبق السيف العزل ٠

كل هذا بعكس التدخل البريطانى فى ١٩ ابريل ١٩٤٤ فقد كان معروفا أمره للجميع : الخاصة والعامة ٠

كان الجميع يعرفون أن الملك فاروق قد اتخذ قرارا باقالة وزارة مصطفى النحاس وأصدر مرسوما بتكليف أحمد حسنين بتشكيل الوزارة الجديدة وأن هذا القرار أو هذا المرسوم الملكى لم ينفذ فى انتظار تعليمات تشرشل ٠

حكومة الوفد تنتظر تعليمات تشرشل .

القصر ينتظر تعليمات تشرشل .

السفارة البريطانية فى مصر وقائد القوات البريطانية فى مصر بانتظار تعليمات تشرشل : وتجيء تعليمات تشرشل وفيها ما فيها من تدخل فى السياسة المصرية الداخلية بل فى تلك التعليمات ما يتعارض مع الخطاب الذى قال النحاس باشا أنه لم يقبل الحكم الا على أساس تعهد جديد من السفير البريطانى باسم الحكومة البريطانية بعدم التدخل فى الشئون الداخلية المصرية كتغيير الوزارات المصرية مثلا .

ولست أدرى أية حجة اقتنع بهـا النحاس باشا ليبرر انتظار التعليمات من تشرشل تلك التى تقرر مصير وزارته .

***

وأقول اننى لو كنت مكان النحاس باشا صاحب الخطاب الخاص بتعهد بريطانيا بعدم التدخل فى الشئون الداخلية لمصر لرفضت انتظار التعليمات من تشرشل التى تقرر مصير وزارته أتذهب أم تبقى . . .

أقول اننى لو كنت مكان النحاس باشا صاحب الخطاب الخاص بالتعهد لرفضت انتظار التعليمات من لندن لأننى من ناحية المبدأ أرفض تلك التعليمات ، ولبادرت بتقديم استقالتى الى الملك أو لأعلنت مقاومتى لأمر الملك الخاص بالاقالة وليكن بعد ذلك ما يكون اما أن أنتظر التعليمات البريطانية وأبتهج بمجيئها فذلك ما اعتبرناه نحن الشباب جريمة وطنية وقد ردد بعضنا قول أحمد شوقى فى رواية كليوباتره :

يقول ديون ـ لحابى وحابى وديون من مساعدى زينون أمين مكتبة قصر كليوباتره .

حابى سمعت كما سمعت وراعنى أن الرعية تحتفى بالرامى ،
هتفوا بمن شربوا الطلا فى تاجهم وأحال عرشهمو فراش غرام ،
ومشى تاريخهم مستهزئا ولو استطاع مشى على الأهرام .

***

والتقى النحاس وفاروق وتم توقيع المراسيم التى كانت مركونة فى القصر دون أن يوقعها الملك منذ زمن بعيد : لم تنحل الأزمة كما توقع البعض وانما تأجلت الى حين .

وفى سبتمبر كانت القشة التى قصمت ظهر حكومة الوفد ـ حكومة ٤ فبراير ١٩٤٢ ـ وقبلها كانت أزمة بسيطة تافهة لا تقدم ولا تؤخر

بالنسبة للسفارة البريطانية ولكنها كانت بالنسبة للقصر أزمة خطيرة للغاية ٠

في رمضان فتح الملك فاروق أبواب قصره للشعب ليستمعوا الى تلاوة القرآن الكريم من أشهر مقرئى القرآن فى مصر ٠

ولأن الاذاعة المصرية كانت وقتذاك تتبع وزارة الداخلية فقد طلب الملك فاروق من الوزير المختص فؤاد سراج الدين باشا أن يذاع تلاوة القرآن الكريم من القصر الملكى كل ليلة ولكن الوزير المختص فؤاد سراج الدين رفض تلبية رغبة الملك : ملك البلاد الشرعى باذاعة القرآن الكريم بأصوات أشهر مقرئى مصر والعالم الاسلامى ٠

بل أكثر من ذلك كانت الاذاعة برئاسة سعيد لطفى قد أرسلت الى عابدين الرجال والآلات وما يلزم لاذاعة القرآن الكريم من القصر الملكى ٠

واذا بالحكومة ترسل رجالها لسحب الرجال والآلات الأمر الذى أوقع رجال الاذاعة والقائمين عليها فى حرج شديد ٠

أما القشة التى قصمت ظهر البعير فقد كانت فى ١٥ سبتمبر ١٩٤٤ يوم الجمعة اليتيمة ٠

كان الملك فى طريقه لأداء صلاة الجمعة ولاحظ لافتات غريبة تملأ الشوارع والطرق المؤدية الى المسجد بل تتوسط الشارع الذى لابد للموكب الملكى أن يخترقه : اسم النحاس جنبا الى جنب مع اسم الملك كانت اللافتة التى تحمل « عاش الملك » تحمل الى جانب اسم الملك اسم النحاس فبدت « عاش الملك وعاش النحاس » وان وجدت لافتة تهنئة الملك فانه لابد أن تحمل نفس التهنئة للنحاس : نهنىء الملك فاروق ونهنىء مصطفى النحاس » ٠

ولأنها كانت الأولى من نوعها فقد استدعى الملك فاروق : محمود الغزالى مدير الأمن العام وأمره بازالة اللافتات بحيث لا يجب أن يجد واحدة منها وهو فى طريق عودته من المسجد الى القصر الملكى ٠

كان الوقت ضيقا أمام مدير الأمن العام بحيث لم يتيسر له الاتصال بوزير الداخلية بل لقد اتصل به ولم يجده ٠

وكان على مدير الأمن العام أن ينتهى من ازالة تلك اللافتات فى أقل من نصف ساعة وهى الفترة التى تتطلبها صلاة الجمعة ٠

ولابد عندما يخرج الملك من الصلاة ويعود الى قصره ألا يجد لافتة واحدة تجمع بين اسم الملك واسم النحاس ٠

وأمر الرجل ـ غزالى بك ـ بازالة كل اللافتات التى تعترض طريق الموكب الرسمى استجابة لتعليمات الملك التى صدرت له شخصيا ٠

نفذ غزالى تعليمات الملك بسرعة وقد فوجىء القصر بوقف غزالى بك عن العمل ٠

وحاول مستر شون القائم بأعمال السفير البريطانى لورد كيلرن الذى كان قد سافر فى اجازة طويلة الى جنوب افريقية ـ أن يعمل سريعا على حل الأزمة خاصة وأن غزالى بك صديق لبريطانيا وهم ـ البريطانيون ـ يعتبرونه رجلهم فى الأمن العام فبعث برسالة شخصية الى النحاس باشا وفى نفس الوقت اتصل بحسنين باشا رئيس الديوان ليخفف من وقع القرار بايقاف غزالى بك ٠

وكان شون قد تلقى من حكومته توجيها بألا يتدخل فى هذه الأزمة الا بصفته الشخصية ٠

وضع الرجل الذى حاول ـ بعكس كيلرن ـ أن يكون محايدا بضعة حلول من بينها اما أن يعود غزالى بك الى عمله فورا ٠

أو ينقل بعد شهرين أو ثلاثة وقد وافق النحاس باشا على أن يعود غزالى الى عمله وينقل بحيث يكون هناك قراران : قرار باعادة غزالى الى الداخلية وقرار آخر بنقله الى عمل آخر خارج وزارة الداخلية ويصدر القراران فى وقت واحد ٠

لم تنجح مساعى شون فى اقناع القصر بقبول أى حل غير اعادة غزالى بك فورا الى عمله دون أية اشارة الى أنه سينقل فى المستقبل أو اقناع النحاس باشا بالعدول عن قرار ايقاف غزالى بك ٠

***

ورأى حسنين باشا ـ ويبدو أنه كان وقتئذ ميالا الى عدم وقوع صدام عنيف بين القصر والحكومة الوفدية ـ أن يبعث بحسن يوسف بك الى النحاس باشا فى الاسكندرية على أمل الوصول الى حل مرض فيما يتعلق بأزمة غزالى بك وكانت قد مضت أسابيع ثلاثة دون الاقتراب من حل للأزمة ٠

ولم تنجح مساعى حسن يوسف بك لدى النحاس باشا الذى أصر على ضرورة اجراء تحقيق مع غزالى بك لأنه لم يرجع الى وزير الداخلية قبل أن يزيل اللافتات اياها التى أمره الملك بازالتها ٠

ورأت السراى أن تتحرك بسرعة خاصة وقد تبين لها أن السفارة البريطانية غير متحمسة فى هذه المرة للوقوف الى جانب النحاس باشا

اما لتفاهة السبب الذى أدى الى تلك الأزمة واما لأن السراى قد وجدت أن النحاس باشا زودها حبتين في اظهار عدائه السافر للملك الشرعى واما لأن الأحوال الحربية التى كانت توجب الحرص على بقاء النحـــاس باشا فى الوزارة قد تحسنت واما لأن السفير البريطانى - كيلرن - كان فى اجازة طويلة في جنوب افريقية وقد حاول مستر شون القائم بأعمال السفارة البريطانية فى القاهرة أن يتصل بالسفير البريطـــانى بســبب صعوبة المواصلات اللاسلكية : كل ذلك ســاهم فى سرعة الاجهــاز على وزارة النحاس باشا ٠

***

وقبل أن نفصل طريقة الاجهاز على وزارة النحاس باشا أذكر أننى كنت قد انتقلت الى القاهرة لأكمل دراستى الثانوية وبدأت عملى الوطنى فوق الأرض وتحت الأرض ٠

كنت ألتقي باستمرار بقادة الحزب الوطنى عبد الرحمن الرافعى بك ومحمد محمود جلال بك وعبد المقصود متولى وآخرين من أولئك الذين عارضوا حافظ رمضان فى قبوله الوزارة اذ كنت من المتحمسين لعـــدم مشاركة الحزب الوطنى فى أية وزارة حتى ولو طلب من الحزب أن يؤلفها وحده ٠

وكانت لنا تنظيماتنا السرية التى كانت تتميز بالدقة التامة ولا أعتقد أن هذه المذكرات تتسع للحديث عما كنا نقوم به وقتذاك من أعمال مخالفة أن هذه المذكرات تتسع للحديث عما كنا نقوم به وقتذاك من أعمـــال لا تستهدف الا جنود الاحتلال البريطانى وعملاءه الرسميين ٠

وكانت الحياة فى القاهرة بعكس الحياة فى الأقاليم لا تطاق فأنت تقاسى الأمرين كل صباح فى معارك الحصول على رغيف الخبز وعلى كوبونات الكيروسين (الغاز) وكذلك كانت هناك معارك الحصول على الزيت والسكر والشاى هذا بينما الجبن والسمن والأرز والعدس وغيرها من المواد التموينية موجودة فى الأقاليم ان لم يكن بكثرة الا أن الحصول عليها ليس بالأمر الصعب كما هو الحال فى القاهرة ٠

وقد كنت مرتاحا من ناحية اللحوم والدواجن فقد كنت قد حرمتها على نفسى منذ أن كنت فى السابعة من عمرى لا لأننى نباتى وانما لأنى تعمدت عدم أكلها مشاركة لكثيرين ممن كانوا فى قريتنا لا يستطيعون الحصول عليها ٠

***

وكانت الرسوم الكاريكاتيرية الخاصة بالمسائل التموينية تحتل جزءا كبيرا من صحافتنا وخاصة روز اليوسف وآخر ساعة والاثنين ٠

تحت عنوان اعلانات مبوبة : مزاد : سيباع نصف أقة أرز بالمزاد العلنى فى شارع كذا فعلى راغبى الشراء الحضور ٠

رسم آخر تحت عنوان : مطلوب لحسة زيت فرنساوى بأسعار متفق عليها والمخابرة مع حامل بتتوحم ٠

رسم ثالث تحت عنوان : معروضات أيام العز ٠

استحضرنا من معروضاتنـــا رغيف عيش أبيض من القمح الخالص فهلموا لمشاهدته اذ أن مدة العرض محـــددة : تباع التذاكر فى شباك وزارة التموين ٠

★★★

وكان الجنود الانجليز والسنغاليون والهنود وغيرهم من جنود الحلفاء يسيرون فى الشوارع عرايا أو شبه عرايا يغتصبون الفتيات جهارا نهارا وكان بعض هؤلاء يدخلون الى الملاهى والبارات والمطاعم فيأكلون ويشربون ويرفضون دفع الثمن ثم يقومون فى النهاية بتكسير المحـــلات وكانوا يذهبون الى محلات البغاء فى شارع كلوت بك زرافات ووحدانا فيبعثون فيها القلق والفوضى ويزعجون المارة وسكان تلك المناطق من غير محترفات البغاء ٠

★★★

وكان بعض رجال قوات الاحتـــلال يعرضون حمايتهم على كثيرين من المجرمين الخطرين لقاء مبالغ كبيرة من المال يأخذونها كما كان بعضهم أيضا يتاجر فى المخدرات أو يحمى تجار المخدرات علنـــا وعلى رءوس الأشهاد وما أكثر الجرائم التى كانت ترتكب فى الشوارع والطرقات من جنود الاحتلال السكارى الذين لا يفيقون أبدا ٠

وكان الرأى العام كله ـ الا قلة منه ـ مع ألمانيا وضد بريطانيا ورغم الغارات العنيفة التى كانت تقوم بها الطائرات الألمانية على بعض ضواحى القاهرة وعلى الاسكندرية بالذات والتى كان يسقط فيهـــا العشرات من الأبرياء ، وكان الشعب يعطى العذر للألمان ويرى أنه لولا وجود المعسكرات البريطانية داخل المناطق السكنية ما كانت تلك الغارات ٠

بل لقد وجد من بيننا من يتهم البريطانيين بأنهم هم الذين يقومون بتلك الغارات حتى يخلقوا الكراهية عند المصريين بالنسبة للألمان ٠

★★★

وكانت اذاعة برلين تتوجه باذاعاتها الى مصر فى المساء وكان المصريون يتابعون الاستماع اليها رغم أن الاستماع اليها وقتذاك كان جريمة يمكن أن تؤدى الى الاعتقال ٠

وكان المذيع العراقى يونس بحرى قد حصل على شعبية بالغة ٠

وكان صوته مألوفا عند المصريين بل عند العرب جميعا ٠

وكان ما يردده راديو برلين ينتقل بسرعة غريبة ٠

وقد وقر فى أذهان غالبية المصريين ان ما يقوله هذا الراديو هو الحق والصدق وما عداه زور وباطل ٠

وعندما كانت البيانات البريطانية العسكرية تتحدث عن غارات الحلفاء على بعض المواقع الألمانية والايطالية ويكون ختامها عادة ، « وعادت جميع طائراتنا الى قواعدها سالمة » كنا نضحك ونعتبرها نكتة اذ لم نكن نصدق حرفا واحدا من تلك البيانات ٠

★★★

وفى بعض الأحيان كان بعض الألمان يهربون من المعسكرات البريطانية وكنا نتلقفهم ونيسر لهم المأكل والمأوى وفى حالات كثيرة نعلمهم العربية ونتعلم منهم الألمانية ٠

وقد استطاع بعض هؤلاء أن يقيموا فى بعض القرى المصرية طيلة فترة الحرب دون أن يكتشف أمرهم أحد بل ان بعضهم تزوج وأنجب وفضل البقاء فى مصر بعد انتهاء الحرب ٠

وفى بعض الأحيان كنا نجمع نقودا لمعاونة أولئك الأسرى ونمكنهم من الهرب خارج مصر اذا أمكن ٠

وقد عرف بعض هؤلاء مدى الجهد الذى بذلنـــاه من أجلهم فكانوا بدورهم متعاطفين معنا الى حد كبير وما أكثر ما تلقينا من تدريب عسكرى على أيدى بعض هؤلاء وما أكثر ما حصلنا على أسلحة : مسدسات وقنابل انجليزية وغيرها عن طريقهم ٠

وللأمانة أقول أننا لم نكن نتعاطف مع الألمان أو الايطاليين كراهية للانجليز أو الفرنسيين أو ايمانا بالنازية فالله وحده يعلم أننا لم نكن أبدا نكن كراهية للشعب الانجليزى أو الشعب الفرنسى كما أننا كنا فعـلا وقولا من أنصار الديمقراطيات ولكننا كنا نعادى جنود الاحتلال البريطانى لمصر ٠

كنا نراهم قذى فى عيوننا وسهاما مصوبة الى قلوبنا ٠

ولو أننا كنا نثق بالسياسة البريطانية ما وقفنا أبدا هذا الموقف فلقد ساعدناهم فى الحرب العالمية الأولى : أخذوا أموالنا وذهبنا وفضتنا وجندوا أكثر من مليون مصرى منا الى جانبهم ولكنهم بعـد الحرب نكثوا بعهودهم لنا وضاعفوا من كبتهم لمشاعرنا ٠

كانوا بعد الحرب العالمية الأولى رغم وقوفنا الى جانبهم أكثر قسوة وعنفا ·

لم يكن موقفنا موقف عداء لقضية الديمقراطية أو عداء للحلفاء بدليل أننا كنا فى مأتم يوم أن استسلمت قوات فرنسا لقوات هتلر وبدليل أننا كنا نتابع البطولات الروسية فى ميادين القتال على الجبهة ستالينجراد الشرقية بكل حب وتقدير واعزاز ·

وما أكثر ما سعدنا بمقاومة الروس فى ستالينجراد ·

وما أكثر ما تغزلنا فى بطولات الروس فى اسباستبول ·

لقد كنا وقتئذ معادين لجيوش الاحتلال البريطانى لمصر ·

كنا عاملين على تحرير بلدنا ·

واذا كان تشرشل ـ عدو الشيوعية اللدود ـ قد وضع يده فى يد ستالين رجل الشيوعية العتيد من أجل هزيمة هتلر فقد كنا نحن أيضا على أتم الاستعداد لوضع أيدينا فى أية أياد تساعدنا على تحرير مصر ·

وقد كلفنا هذا الكثير : لم يفهمنا النازيون والفاشيون ولم يفهمنا كذلك الديمقراطيون ·

***

وما نقوله عن تعاطف الشعب مع الألمان وسخطه على الاحتلال البريطانى لمصر لا يعنى أبدا أنه لا يوجد من بين أفراد الشعب المصرى من وجهت اليهم اتهامات ـ لم تثبت ـ خاصة بوجود علاقات تربطهم بألمانيا أو ايطاليا ·

ولا أملك هنا الحق فى ترديد الاتهامات كما لا أملك حق القيام بمهمة الدفاع · كل ما أستطيع قوله بضمير مستريح أنه لم تقم أدلة ثابتة على وجود أية علاقات رسمية تربط أى مصرى بألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية أو قبلها ·

وقد استولى الحلفاء على كل الأوراق الرسمية لألمانيا فى أعقاب هزيمتها وقد نقبوا فى هذه الأوراق ودرسوها دراسة وافية وخرجوا من تلك الدراسة ومن عملية التنقيب تلك باكتشاف عناصر كثيرة من أقطار كثيرة كانت تتعاون مع الألمان وكانت عميلة لألمانيا ولا أعرف أن مصريا واحدا كان من بين تلك الأسماء التى اكتشفها الحلفاء ·

كما أن اسرائيل الدولة والعديد من المنظمات الصهيونية كانت تتبع كل من كان يتعاون مع المحور ومع ألمانيا الهتلرية بالذات وكان لدى اسرائيل ولدى تلك المنظمات ولعله لا يزال حتى اليوم أرشيف كامل عن

بكل من تعاون مع ألمانيا النازية ومع ذلك لم نسمع ولم نقرأ أن مصريا واحدا تعاون بصفة رسمية أو تعامل كعميل أو حتى كهـــاو مع ألمانيا لا قبل الحرب العالمية الثانية ولا فى أثنائها ٠

وربما كانت السلطات البريطانية فى مصر تعمـــد الى الحاق تلك التهم ببعض خصومها وأعدائها أو من ترى أنهم من خصومها وأعدائها لكى تبعده عن الساحة السياسية أو لكى تقيد حريته بالسجن أو الاعتقال ٠

والغريب أن على ماهر باشا الذى اتهمه الانجليز بأنه عمد الى تجنيب مصر ويلات الحرب وبالتعاطف مع ألمانيا ، وكان سير مايلز لامبسون السفير البريطانى فى مصر يعتبره وهو رئيس الديوان الملـــكى قبل أن يرأس الوزارة رجل بريطانيا الأول فى القصر الملكى (عابدين) كما أن بريطانيا فيما بعد وبعد حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ كانت فى مقدمة الذين رشحوه لرئاسة الوزارة المصرية خلفا لمصطفى النحاس باشا ٠

وربما كان الصاق تهمة التعاون مع المحور أو التعاطف مع المحور من بين أفكار بعض السياسيين المصريين للتخلص من خصومهم السياسيين المصريين فأسهل طريقة لتسميم الآبار أمام زعيم سياسى أو للتخلص منه هى ايهام الانجليز بأن هذا السياسى متعاون مع المحور أو متعاطف معه لكى يجرى التخلص منه فورا ٠

قام حسين سرى باشا ـ مثلا ـ باتهام على ماهر باشا عند السفير البريطانى سير مايلز لامبسون موهما اياه أن على ماهر باشا بعد أن أخرج من الوزارة قد أصبح من أعدى أعداء بريطانيـــا فى مصر وكذلك الأمر بالنسبة لصالح حرب باشا ٠

ان ثلاثة أرباع الذين اعتقلهم النحاس باشا فى فترة حكمه خلال الحرب العالمية الثانية كانوا من خصومه السياسيين وخاصة أولئك الذين اعتقلهم بسبب طبع الكتاب الاسود ونشره وبسبب معارضتهم لسياسة الوفد بعد أن ولى الحكم فى ٤ فبراير ١٩٤٢ ٠

وقلة ضئيلة جدا من الذين اعتقلتهم حكومة الوفد بدعوى معارضتهم للاحتلال البريطانى ، وبناء على تعليمات من السفارة البريطانية ٠

وقلة ضئيلة جدا من تلك القلة بل أفراد قلائل يعدون على أصابع اليد الواحدة وربما على أصابع اليدين فقط هم الذين اتهمـــوا بولائهم للمحور ومع ذلك وحتى كتابة هذه السطور لم يقم دليل واحد على قيام أية صلة رسمية أو غير رسمية بين ألمانيا أو ايطاليا وبين واحد منهم ٠

وهذا يقطع كما قلنا آنفا أن الاتهـــام الذى وجه الى البعض بقيام ارتباط أو علاقة بينهم وبين ألمانيا اتهام هزيل ضعيف لا يســـتند الى حقيقة ·

وقد تحدث الكثيرون أيضا عن وجود علاقة بين الملك فاروق وبين دول المحور (ألمانيا وايطاليا واليـــابان) ·· وكتب كثيرون فى هـــذا الموضوع وكانت كتاباتهم غير محددة ·

وربما كان اعتماد هؤلاء الكتاب والسياسيين على توجيه مثل هذا الاتهام كراهية فاروق للانجليز وعدم كراهيته للألمان ·

وقد صرح فاروق ذات مرة للسفير البريطـانى بوضـــوح وصراحة قائلا : لا نريد أن نقف الى جانبكم فقد تخسرون الحرب وقد نخسرها معكم دون أن تكون لنا علاقة بتلك الحرب » ·

والغريب أن بعض من اتهموا فاروق بممالأة المحور كانوا يعتمدون على ما يقال من وجود صلات بين السفير المصرى فى طهران وبين بعض الشخصيات الألمانية ·

***

وحتى هذا الاتهام لم يقم عليه أيضا أى دليل مادى : وتبقى بعد ذلك كله كلمة لابد من أن نركز عليها هنا هى أننا نحن الذين آمنا بمبادىء الحزب الوطنى منذ الصبا الباكر لم نكن نعرف مقار الحزب الوطنى ولم نكن فى البداية نلتقى بقياداته ·

لقد أثرت فينا مبادىء الحزب الوطنى مما قرأنا للرافعى عن مصطفى وفريد ، ومنذ الصباح الباكر ونحن نقاوم الاحتلال البريطانى بما يملكه الصبيان والفتيان من أسلحة :

شاركنا مثلا ــ حســب قدراتنا وامكاناتنا ــ فى معارضة معاهدة ١٩٣٦ : وزعنا بعض المنشورات المعارضة لتلك المعاهدة ·

فى البداية كان غيرنا ممن يكبروننا سنا يكتبون المنشورات الوطنية فى كثير من المناسبات القومية ويطبعونها وكنا نحن نقوم بتوزيعها وبمرور الزمن أصبحنا نحن الذين نكتب المنشورات ونقوم بتوزيعها ·

كنا فى البداية أيضا نقوم بالمشـــاركة فى بعض الاجتمـــاعات والمظاهرات التى نظمت من قبل بعض المعارضين ولم يكن ذلك بتوجيه من أحد وانما كان من تلقاء أنفسنا ·

وبعد أن كبرنا رحنا ننظم الاجتماعات والمظاهرات ولذلك عندما بدأنا العمل بالقاهرة واتصلنا بأساتذتنا الرواد كنا مدربين على العمل الوطنى ولم يكن بعضنا ينقصه الا التوجيه السليم والقدوة الطيبة .

وكم كنا فى صغرنا نسمع « تريقـــة » على الحزب الوطنى حزب « لا مفاوضة الا بعد الجلاء : حزب الملحقات « زيلع وبربر ومصوع وهرر » ولم يكن للحزب الوطنى صحيفته التى يمكن أن تشرح مبادئه وتعرض تاريخه كما أنه لم يكن له مقاره التى يستطيع الشباب الوطنى أن يتواجد فيها على الأقل ليستطيع الرد على تلك التريقة .

وكنا نقول لبعض الوفديين عندما يقولون عنا اننا من الخياليين الذين يجب أن يعيشوا فى المريخ : آكان زعيمكم مصطفى النحاس خياليا لأنه كان عضوا بالحزب الوطنى وهو قاض ولم يترك الحزب الوطنى الا بعد أن اختاره سعد زغلول عضوا فى الوفد المصرى ليمثل هو وحافظ عفيفى باشا الحزب الوطنى .

وكنا نقول لمن يحاجوننا بأن « الجلاء لا يمكن أن يتم بدون مفاوضات ان عبارة لا مفاوضة الا بعد الجلاء ليست واردة ضمن المبادىء العشرة للحزب الوطنى واذا كانت تلك العبارة قد وردت وعلى ألسنة بعض قادة الحزب فأن المقصود منها أنه لا مفاوضة على مبدأ الجلاء لأنه مبدأ واضح وجلى ولابد من أن يعترف به الطرف الآخر قبل اجراء أية مفاوضات والمفاوضة تكون حول كيفية الجلاء وترتيبه ما بعد الجلاء : أما حكاية الملحقات فكنا نقول لمن يناقشوننا فيها نحن لا نطلب الا حدودنا فى أيام اسماعيل باشا تلك الحدود التى اعترف بها العالم ثم أننا عندما نطالب ــ فى الحزب الوطنى ــ بتلك الملحقات ــ لا نطالب بها بحق الفتح كما يشيع بعض أعدائنا وانما نطالب بها لأنها منا كما أننا منها : ومطالبتنا بتلك المناطق لا تستهدف الا تحريرها من الاحتلال الأجنبى .

وأخيرا لا آخرا :

لقد كنا قلة ضئيلة داخل مجتمعات كبيرة : كنا ندعو الى الاستقلال وغيرنا يدعو الى الحكم .

كنا ننفق من مصروفنا وكان غيرنا يحصل على المئات من الجنيهات ويركب العربات الفارهة .

فى الوقت الذى لم نكن نحن نملك الملاليم أو حتى نملك ما ندفعه ثمنا لتذكرة الترام والاتوبيس .

وقد كان باستطاعتنا نحن أبناء الحزب الوطنى بعد أن دخلنا الجامعة وأصبحنا فى مقـــدمة قياداتها أن نســكن ـ كغيرنا ممن اشترتهم بعض الأحزاب ـ فى عمارة الايموبيليا وننفق عشرات الجنيهــات كل ليلة فى الكباريهات و ٠ و ٠

ولكننا آثرنا أن نرفض أى عرض من عروض الدنيـــا وأن نكون لمبادئنا وبمبادئنا : كان طريقنـــا شاقا وصـــعبا للغاية ولكننا فضلنا هذا الطريق الشاق الصعب على كل الطرق السهلة التى تقود الى الغنى والمناصب الكبيرة ٠

★★★

وقد كان آخر عهدى بالتصرفات الفاشـــية لحكومة الوفد ـ حكومة ٤ فبراير ـ فى أواخر نوفمبر ١٩٤٣ عندما دعيت الى منزل النائب المحترم محمد محمود جلال بالدقى للمشاركة فى الاحتفال بذكرى محمد فريد ٠

كانت ظروف الحرب العالمية الثانية تحول دون عقـــد الاجتماعات السياسية فى الشوارع وكان بعض السياسيين يعمدون الى اقامة الحفلات السياسية الضرورية فى منازلهم ٠

فى ذلك الاحتفال تحدث عبد الرحمن الرافعى وفكرى أباظة ومحمد محمود جلال وألقى على منصور قصيدة رائعة فى تلك المناسبة وامتـــد الاحتفال الى ما بعد منتصف الليل ٠

وبالرغم من أن الخطباء جميعا تناولوا الاحتلال البريطانى بالحملات الضارية وبالرغم من أن فكرى أباظة وقد انفرد من بين الخطباء بالهجوم على الفساد وعلى الراشين والمرتشين وبالرغم من أن الخطباء انتهـــوا الى أن معاهدة ١٩٣٦ باطلة بطلانا مطلقا ودعوا الشعب الى الثورة على الاحتـــلال فلا طريق الا طريق الثورة للحصول على الاستقلال و ٠ و ٠ بالرغم من كل ذلك لم يقبض على واحد منهم فقد كانوا متمتعين بالحصانة البرلمانية ، ولكن قبض على عدد من شـــباب الحزب الذين كانوا فى الاحتفال فوز خروجهم مباشرة من باب المنزل بدعوى أننا وزعنا منشورات ضد الاحتلال البريطانى ولم يكن ذلك صحيحا على الاطلاق ٠

وقد كنت واحدا من أولئك الشـــبان الذين قبض عليهم على ذمة التحقيق وقد وضع كل ثلاثة أو أربعة منا فى قسم من أقسام البوليس حتى لا تتاح لنا فرصة الالتقـــاء أو التجمع أو الاتفـــاق على رأى واحد وكان نصيبى قسم السيدة زينب ٠

وفى قسم السيدة هذه المرة لم أضرب ولم توجه الى أية اهانة وانما احترموا آدميتى وكانوا يكتفون باغلاق أبواب السجن علينا بل أكثر من ذلك كانوا يوزعون علينا نحن المحتجزين فى القسم عموما ما يتيسر من أرغفة العيش بمعدل ثلاثة أو أربعة كل يوم لكل واحد منا ·

وكانت احدى أميرات البيت المالك ـ ولست أدرى لماذا ـ قد وقفت بعض أملاكها على المحتجزين فى أقسام البوليس على ذمة التحقيق ذلك لأن كل محتجز فى القسم لا تتولى الدولة اطعامه لأنه ليس من المساجين ·

رأت الأميرة ـ وجزاها الله خيرا ـ أن تقدم الأرغفة الى كل المحتجزين فى كل أقسام القاهرة صبحا وظهرا وفى المساء ·

وكان مندوبو دائرتها يمرون كل يوم بسيارات مملوءة بأرغفة العيش على كل أقسام القاهرة ·

وبطبيعة الحال لم تكن الأرغفة من نصيب المحتجزين وحدهم وانما كانت أيضا من نصيب عساكر القسم والعاملين فيه ·

★★★

قضينا أربعة أيام على ذمة التحقيق فى قسم السيدة زينب وكان ذلك بالنسبة لنا شيئا عاديا للغاية فقد كنت وطنت نفسى وأعددتها تماما لمثل تلك الأمور فى أى وقت ·

وكنت أقيم وحدى فى شقة متواضعة فيما كان يسمى « بالخرطة الجديدة » فى روض الفرج ·

ولذلك لم يكن أحد يحس باختفائى لبضعة أيام فما أكثر ما كنت أسافر الى القرية للحصول على الزاد والزواد ·

وفى ذلك الاحتفال بذكرى محمد فريد توثقت العلاقة بينى وبين محمود العيسوى ـ وكان يعمل وقتذاك محاميا فى مكتب أستاذى عبد الرحمن الرافعى بشارع عدلى بالقاهرة ـ وكان قد سبق له أيام الحرب العالمية الثانية أن قدم للمحاكمة بتهمة توزيع منشورات معادية وكان الذى عرفنى به أستاذنا عبد المقصود متولى الذى فتح لنا باب مكتبه فى عابدين وكان يواجه تماما للشرفة التى كان يطل منها الملك على الجماهير التى تحتشد فى الميدان ·

وفى اليوم التالى للافراج عنا توجهنا بدون اتفاق مسبق الى ضريحى مصطفى كامل ومحمد فريد وكان لقاؤنا هناك وبدون اتفاق يعنى وحدة الاتفاق فى المبادىء والأهداف ·

وللأمانة التاريخية أقول ان شباب الأربعينات فى الغالب ومن جميع الأحزاب والانتماءات السياسية الفكرية كان يتمتع بروح نضـالية رائعة لم تشهد البلاد لها مثيلا الا فى ثورة ١٩١٩ ٠

كان شباب تلك الأيام أو غالبيتهم بمعنى أدق قد حملوا أنفسهم ودون أن يحملهم أحد أعباء العمل لتحرير البلاد ٠

حمل هؤلاء الشباب أنفسهم أكثر مما تطيق وكانوا لأنفسهم حقا من الظالمين وقد وجد من بين هؤلاء من لم يعرف الطفولة أو الشباب ٠

أصبحوا فيما يتعلق بأعباء الوطن وقضاياه كهولا ولما يتجاوزوا بعد سن الشباب ٠

حملوا فى قلوبهم هموم الوطن قبل أن يحملوا همومهم الخاصة ٠

لم يفكروا يوما ما فى أمورهم الشخصية بل لم يفكروا فى مستقبلهم وانما كان جل تفكيرهم فى القضايا العامة ٠

وأقولها بضمير القاضى ان هذا الجيل الوطنى الثورى واجه أعتى التحديات ولكنه لم يهن ولم يضعف وانما كان يزداد قوة واقتدارا وبذلا وتضحية كلما واجه أقسى الصعوبات ٠

وفيما يتعلق بى ــ مثلا ــ وأقولها ــ لا منا ولا غرورا وانما تحدثا بنعمة الله تعالى ــ اننى ظللت طيلة حياتى والى أن جلا الاحتلال عن أرضنا وشعبنا ــ لا أرتدى الا الكرافتة السـوداء حـدادا على وجود الاحتلال البريطانى ٠

وربما كان عدد المرات التى ارتديت فيها كرافتات ملونة لا يتعدى مرتين أو ثلاث كنت فيها مضطرا لمشاركة بعض الزملاء فى أفراحهم ولم أكن لحساسيتى الشديدة أقبل المشاركة فى تلك المناسبات بكرافتة سوداء حتى لا يتشاءموا ٠

كنت عندما يسألنى البعض عن أسباب ارتدائى الكرافتة السوداء وحتى لا أدخل فى نقاش أو حوار غير مثمر أقول اننى أرتديها من قبل الاقتصاد لا أكثر ولا أقل ٠

وقد ظللت طيلة شبابى كله لا أذهب الى مسرح أو سينما أو الى حفلة غنائية الا أن يكون المراد من الذهاب الى هذا المكان برفقة بعض الزملاء والأصدقاء اثبات وجودى فى ساعة معينة فى مكان معين ٠

وأرجو أن يصدقنى القارىء اذا ما قلت له اننى ظللت أضع أمامى لافتة اخترت لها عبارة وردت على لسان أحد أبطـال مسرحية لتوفيق الحـكيم ٠

« كل شاب يعيش مع شبح امرأة جميلة الا الشاب الموعود فانه يعيش مع شبح المجد المنتظر » .

ولم يكن المجد المنتظر الذى نرجوه ونأمله خاصا بشخصى وانما كان خاصا بالوطن وقضاياه .

لقد كان الوطن وقضية الوطن أقرب الينا من آبائنـــــا وأمهاتنا واخواتنا .

كان الوطن وقضية حريته واستقلاله شغلنا الشـــاغل وأملنا فى الحياة .

وأقول انصافا للحقيقة وعرفانا بالجميل أيضا أن هذا الجيل التاريخى لم يكن ليصل الى ما وصل اليه من ايمان وتضحية وصـــدق واخلاص وانكار للذات .

لم يكن هذا الجيل بقادر على تحقيق ما وصل اليه أو بعض ما وصل اليه الا لأنه ـ وذلك من حسن طالعه بلا جدال ـ وجد جيلا من الأساتذة والرواد زرعوا فى قلوبهم محبة الوطن .

كان هؤلاء الأساتذة والرواد بل الأساتذة الرواد يحرصون على تربية جيل جديد يؤمن بالوطن ويضحى من أجله بكل شىء بما فيها الحياة .

كانوا يدربوننا على التفكير الوطنى والعمل الوطنى وكانوا باستمرار يوجهوننا الى الطريق المستقيم والعمل المخلص .

ولم نكن نحن لنتأثر بهم ونستجيب لدعوتهم وننهج طريقهم ما لم نكن نؤمن بأنهم نعم القدوة .

وفيما يتعلق مثلا بمدرستنا الوطنية لا يمكن أبدا أن نغفل ذكر الرجل الوطنى عبد الرحمن الرافعى .

كان الرجل ـ مثلا ـ وتلك بعض مآثره علينا ـ عندما نزوره فى مكتبه كمحام ولديه الكثير من الرواد وأصحاب القضايا ولا أقول الزبائن فما كان الرجل يعتبر أى صاحب قضية يلجأ اليه زبونا .

كان يترك كل أولئك جانبا ويستقبلنا فى بشاشة وترحاب ويسألنا فيما سبق له أن أعطانا اياه من كتب ليرى درجة استيعابنا لتلك الكتب ثم يعطينا غيرها .

كان يسألنى ـ مثلا ـ عما أكتبه ويناقشنى فيما أنشره وكانت أسعد لحظة بالنسبة لى عندما يصدر لأستاذنا عبد الرحمن الرافعى كتاب جديد ويبعث الى بنسخة منه مهداة الى « الأديب الوطني فلان » كان الاهداء يبعث فى القدرة على مواصلة العمل الوطنى .

ولم يكن يضايق الرجل من بعضنا الا أن يشترك فى أعمال ظاهرها الوطنية ولكنها لا تعود على الوطن بالخير ·

ولا يمكن أبدا أن نغفل ذكر أستاذنا عبد المقصود متولى وكان فى مقدمة ما يتصف به أنه لا يقبل كمحام الا القضايا التى يؤمن بعدالتها شأنه شأن زميله عبد الرحمن الرافعى ·

كان عبد المقصود متولى يفتح لنا مكتبه ومكتبته ويخصص بعض وقته كل يوم لاجراء حوارات وطنية معه ·

واذا كان عبد الرحمن الرافعى حريصا فى كلامه الينا وخاصة عندما يكون معنا أكثر من واحد فان عبد المقصود متولى كان صريحا للغاية وكان يدعونا باستمرار الى الاقتداء بالمدرسة الوطنية الفدائية التى كان ابراهيم ناصف الوردانى أبرز روادها الأوائل ولأنه كان يملك أغنى وأغلى مكتبة وطنية فى مصر وكان يوجد بتلك المكتبة من الكتب الوطنية ما لا يوجد له مثيل فى أية مكتبة أخرى سوى مكتبة عبد الرحمن الرافعى فقد كان يعطينا من تلك المكتبة الكتب النادرة وخاصة تلك التى كتبها مؤلفون أجانب عن « الاحتلال البريطانى » وعن « عدالة القضية المصرية » وكنا نستغرب كيف يخرج تلك الكنوز النادرة من مكتبته ويعطيها لشباب صغير السن قد لا يوليها ما تستحق من أهمية بالغة ولكنه كان يقول ان لى نظرة فى الشباب الذى يدخل مكتبى وفى أحيان كثيرة يدخل على فى مكتبى بعض من يعملون فى البوليس السياسى وأستطيع أن أميزهم بسهولة وفى بعض الأحيان أعطيهم دروسا فى الوطنية فنحن مثلا ـ كما كان يقول ـ لا نريد حكما ولا مغانم : نحن نضحى ولا نأخذ : نقدم ولا نستفيد ولأن قضيتنا واضحة فأساليبنا أيضا واضحة :

عبد المقصود متولى هو محمد فريد رقم ٢ : لقد عاش الرجل الذى كان يتمرن فى مكتبه مصطفى النحاس : عاش جنديا مجهولا ومات جنديا مجهولا رغم أنه أعطى لمصر أضعاف أضعاف ما أعطى كثيرون ·

أما أستاذنا الدكتور حسن نور الدين فقد كان من أساتذتنا فى العمل الفدائى ، تحت الأرض وسأكتب عنه بتوسع فيما بعد كان ـ مثلا ـ يذهب الى الندوات والمحاضرات وتجمعات الشباب يستمع الى المتحدثين والمشتركين فى حلقات الحوار ويتجاذب أطراف الحديث مع بعض الشباب الذين يؤمون تلك الأماكن ·

وكانت لديه قدرة غريبة على اكتشاف الخامات الجيدة من الشباب لصالح العمل الوطنى والسرى وكان يدعو من يتوسم فيه الخير الى أن يلقاه

مرة ومرة ثم يعطيه اذا ما اطمأن اليه بعض الكتب الوطنية التى لا توجد عادة فى الأسواق ويطلب منه قراءتها ودراستها ثم يعود فيناقشه فى موضوعات تلك الكتب ٠

وعندما يثق به ثقة مطلقة يدعوه الى منزله على شاى ، أو على غداء أو على عشاء مرة بل مرات حسب الظروف ثم يبدأ فى جس النبض فان وجد لدى ذلك الشخص استعدادا للعمل تحت الأرض كان بها والا اكتفى بالحديث العابر وكان لدى د٠ حسن نور الدين فى منزله بالحلمية الجديدة وقبل أن يتزوج كل متطلبات التدريب على اطلاق النار فى سرية بالغة ودون أن يسمع أحد من الجيران طلقات الرصاص ٠٠ الخ ٠

★★★

هؤلاء الأساتذة الرواد ـ وذلك مجمل القول ـ لم يكونوا ينظرون الى تلاميذهم سوى نظرتهم الى أبنائهم الذين يحبونهم ويحنون عليهم ٠

★★★

وأخيرا نعود الى نهاية الخلاف بين الملك فاروق ورئيس الوزراء مصطفى النحاس وهو الخلاف الذى وصل بهما الى طريق مسدود ٠

فى نفس الوقت الذى كان فيه حسن يوسف بك يتوجه الى فندق سيسيل بالاسكندرية ليسلم خطاب الاقالة كان أحمد ماهر فى نفس الوقت ـ الساعة الخامسة والنصف تماما من مساء الأحد ٨ أكتوبر ١٩٤٤ ـ ، يتسلم خطابا من الملك فاروق يعهد فيه اليه بتشكيل الوزارة الجديدة ٠

وقد ذهب أحمد ماهر فور تسلم خطاب الملك الى رئاسة مجلس الوزراء بوصفه رئيسا للوزارة حيث بدأ يلتقى هناك بالمرشحين للوزارة الجديدة ٠

ولم يكن الانقلاب الجديد مفاجأة للانجليز ولا للأمريكيين وانما كان مفاجئا فقط للنحاس باشا ووزارته وكان خطاب الاقالة مفاجأة أيضا فى شدته ، وفى عنفه على النحو التالى :

عزيزى مصطفى النحاس باشا

لما كنت حريصا على أن تحكم بلادى وزارة ديمقراطية تعمل للوطن وتطبق أحكام الدستور نصا وروحا وتسوى بين المصريين فى الحقوق وفى الواجبات وتقوم بتوفير الغذاء والكساء لطبقات الشعب فقد رأينا أن نقيلكم من منصبكم وأصدرنا أمرنا هذا لمقامكم الرفيع شاكرين لكم ولحضرات الوزراء زملاءكم ما أمكنكم أداؤه من الخدمات أثناء قيامكم بمهمتكم ٠

صدر بقصر عابدين فى ٢١ شوال ١٣٦٣هـ/٨ أكتوبر ١٩٤٤م .
فاروق

***

والجدير بالذكر أن خطاب اقالة الوزارة النحاسية الرابعة كان أيضا فى شهر شوال ٢٧ شوال ١٣٦٣هـ/٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ .

وكانت اقالة الوزارة فى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ جاءت بعد تأكيدات من السفير البريطانى بأن بريطانيا مع الوزارة القائمة ولن تتخلى عنها أبدا كما كان الأمر بالنسبة للاقالة السابقة حيث كان السفير البريطانى ـ نفس السفير ـ يؤكد للنحاس باشا أن الحكومة البريطانية لن تتخلى عن الوفد وظهر للنحاس باشا أن الانجليز يلعبون به وبحكومته وأنه لا أمان لبريطانيا على الاطلاق فهى دائما وأبدا تبحث عن مصالحها وحدها بل ولا تنظر من قريب أو من بعيد لمصالح حلفائها .

***

واذا كان اسراف وزارة الوفد عام ١٩٣٧ فى الاعتماد على القمصان الزرقاء وفى معاداة الملك بالاضافة الى كثرة ما وجه الى الوزارة الوفدية من انتقادات على المستوى الشعبى وما واجهته فى أيامها الأخيرة من مظاهرات عنيفة قام بالعبء الأكبر منها شباب الأزهر والجامعات كل ذلك وغيره جعل السفارة البريطانية تتخلى عن الوزارة الوفدية فان الأمر كان كذلك أيضا بالنسبة لسكوت الحكومة البريطانية على اقالة وزارة النحاس فى أكتوبر ١٩٤٤ .

كانت الظروف الحربية قد تغيرت وأصبحت لصالح بريطانيا والحلفاء فى عام ١٩٤٤ عنها فى عام ١٩٤٢ .

الحلفاء نزلوا الى فرنسا وراحوا يعملون بنجاح على اجلاء القوات الألمانية عنها .

فى الجبهة الشرقية حقق الروس انتصارات رائعة فى ستالينجراد وسباستبول ونجحوا فى تحرير مساحات شاسعة من الأراضى الروسية التى كان الألمان قد احتلوها .

ابتعدت الحرب عن مصر تماما : لم يعد الحلفاء بحاجة اليها لتكون ميدانا للمعارك أو حتى مخزنا للتموين فقناة السويس لم تعد مهددة لا من قبل ألمانيا أو ايطاليا أو اليابان فلماذا اذن ـ من وجهة نظر بريطانيا ـ الاصرار على فرض حكومة مصرية بالقوة ولماذا الحيلولة بين الملك الشرعى

وبين استعماله حقه الشرعي الدستوري في اقالة الوزارة التي يريد اقالتها ٠

هذا بالاضافة الى أن الوفد ـ وكان قد تولى الحكم باستخدام القوة البريطانية ، قد ارتكب أخطاء فاحشة ـ من وجهة النظر البريطانية ـ في كثير من مرافق البلاد على نحو غير مسبوق ٠

ملك مصر ورئيس وزراء مصر شغلا وزارة الحرب البريطانية بكثير من الأمور التافهة التي تدل من وجهة نظر بعض السياسيين البريطانيين على تفاهة التفكير ، ففي الوقت الذي كانت فيه بريطانيا تواجه هجمات مضادة عنيفة في بعض المواقع الحربية من الجنود الألمان في أوربا الغربية وفي الوقت الذي كانت تشن فيه الغارات الألمانية على بريطانيا نجد فاروق ملك مصر ومصطفى النحاس رئيس وزراء مصر مشغولين بحكاية غزالي بك مدير الأمن العام هل يحال الى المعاش أم يعاد الى وظيفته بعد ايقافه عن العمل لأنه نفذ أمر الملك أم ينقل فورا الى وظيفة أخرى أم يبقى عدة أيام في وظيفته كمدير للأمن العام ثم ينقل بعد ذلك ؟ لقد أتعب الملك ورئيس وزرائه الساسة البريطانيين والقيادات العسكرية البريطانية في مصر وكان لورد كيلرن السفير البريطاني في مصر قد تغير تغييرا جذريا تجاه مصطفى النحاس بعد أن آمن أن النحاس باشا قد خدعه كثيرا ٠

وكان لورد كيلرن قد رأى بحاسته السياسية الدقيقة أن معاداة بريطانيا للملك فاروق قد جعلت للملك شعبية كبيرة ٠

وكان لورد كيلرن قد استشف من رسائل رؤسائه في وزارة الخارجية البريطانية وفي وزارة الحرب البريطانية كما استشف من تعليمات تشرشل أنه ـ لورد كيلرن ـ متهم شخصيا بمعاداته للملك فاروق ومحاباته للنحاس ٠

وان من الظلم لبريطانيا أن تتحمل مسئولية حماية نظام حكم متهرىء أو هكذا بدأت تراه في النصف الثاني من عام ١٩٤٤ : افتعل لورد كيلرن ـ وتلك رؤية شخصية بحتة ـ اجازة طويلة يقضيها خارج مصر بعيدا في جنوب أفريقيا حتى لا يشترك في الأحداث التي كان يتوقعها في الربع الأخير من عام ١٩٤٤ ٠

وأقولها ـ وعن رؤية شخصية بحتة ـ أنه لو لم يكن كيلرن قد أعطى الضوء الأخضر لمرءوسيه في السفارة البريطانية في القاهرة على أنه لا مانع من ذهاب النحاس باشا ما ذهب النحاس باشا بل ما جرؤ الملك فاروق على اقالة النحاس باشا ٠

وكان الملك قبل أن يتخذ قرارا باقالة النحاس قد حرص على مقابلة مستر شون القائم بأعمال السفير البريطاني في القاهرة ٠

وكان كيلرن — حتى وهو في جنوب افريقية — يتوقع ما هو أسوأ من الانقلاب الذى حدث باقالة النحاس باشا وان لم يوضح كيلرن ماذا يريد بكلمة أسوأ ٠

ومبلغ ظني شخصيا أنه كان يتوقع بعد أن تنجلي غيوب الحرب العالمية الثانية وتصبح بعيدة تماما عن مصر أن يتحرك الجيش المصرى لازاحة مصطفى النحاس عن الحكم وتولية من يريده الملك ٠

وربما كان كيلرن يخشى من تحرك الشارع السياسى ضد وزارة النحاس باشا ومؤيديها من البريطانيين ٠

على أية حال أبدى كيلرن ارتياحه لاقالة النحاس باشا حتى لا يضطر الى الوقوف الى جانبه في تلك المحنة خاصة وأنه كان — كما سبق أن قلنا — متهم بتحيزه للنحاس باشا من جانب بعض العاملين في السفارة البريطانية ومن جانب كل العسكريين البريطانيين في القاهرة بل ومن جانب كثير من الدبلوماسيين الأجانب في القاهرة وخاصة الأمريكيين منهم ٠

ولم يكن تحيز لورد كيلرن لمصطفى النحاس باشا تقديرا منه لكفاءته أو زعامته وانما كان هذا التحيز كراهية عنيفة منه لفاروق ٠

وكراهية لورد كيلرن — سير مايلز لامبسون — للملك فاروق تعود الى منتصف عام ١٩٣٦ ٠

وكان قد نقل اليه وللبريطانيين عن طريق عملائه في القصر — وكان للانجليز عملاؤهم في القصر كما كان بالنسبة للألمان وللايطاليين — ان فاروق يكره الانجليز وانه يكثر من الاحاديث السيئة عن ملك بريطانيا وعن الأسرة المالكة بالذات وأنه — أى فاروق — رفض أن يعود الى بريطانيا ليكمل تعليمه هناك وكان قد انقطع عن تلقى العلم في بريطانيا ، بسبب وفاة والده الملك أحمد فؤاد ٠

وكان سير مايلز لامبسون السفير البريطاني في القاهرة قد تأكد له أن الملك فاروق يضيق ذرعا بمربيته الانجليزية وكانت ممرضة سابقة اختارها له لامبسون شخصيا كما أنه كان دائم الاستهزاء بها وكان اسمها مسز تايلور ٠

هذا بالاضافة الى أنه ـ فاروق ـ لم ير معلمه الانجليزى مستر فورد الذى اختاره له لامبسون أيضا سوى مرة واحدة ولمدة خمس دقائق فى عدة شهور .

ومما يدل على أسلوب البريطانيين فى التجســـس على من يرون التجسس عليهم أن رجل سير مايلز لامبســـون الأول فى القصر الملكى (عابدين) كان مستر بيترنجتون وكان صيدلى الملك فاروق .

وكان هذا الصيدلى ينقل يوميا الى مايلز لامبسون نفسه كل ما يجرى فى القصر .

وكان لامبسون ـ باستمرار ـ حتى قبل أن يصل الملك فاروق الى سن الرشد قاسيا على الملك وكان يصفه بالولد المجنون حتى فى البرقيات التى كان يبعث بها الى وزارة الخارجية البريطانية .

وكان فاروق يسمى لامبسون البروفيسير لامبسون لأنه دائم النصح له وبقسوة شديدة .

وكان حقد لامبسون على فاروق من النوع الأسود .

وكان دائما يعمل على اذلاله وعندما واتته الفرصة ـ واتت لامبسون ـ تحرك أكثر من مرة لخلعه عن العرش .

وعلى أية حال لم يكن كيلرن ـ سير لامبسون ـ يعمل ـ الا داخل دولة ديمقراطية ولم تكن آراؤه الشخصية لتتغلب على الخطوط الرئيسية لحكومته .

لقد كان كيلرن بريطانيا قحا يسعى لتحقيق ما يرى أنه فى مصلحة بلده .

على أن عبارة وردت فى مذكرات كيلرن تعليقـــا على اقالة مصطفى النحاس هى فى رأيى أقسى كلمة قيلت فى مصطفى النحاس من أعدى أعدائه ولأهمية تلك الكلمة وحرصا منى على أن أكون دقيقا للغاية أنقل تلك الكلمة حرفيا من مذكرات لورد كيلرن :

I know Ahmed Maher and like him well. Of course he won't be quite so much in our pocket as Nahas but he is heavily indebted to Aboud, (who is 100% with no) and also incidently ii our debt too ! Furthermore his pro-Ally and pro-British

sentiments one not in doubt. But Amin will be a very great loss : and the general conduct of buisiness is not likely to be quite'50 easy as here lo for.

والذى يهمنى مما جاء فى مذكرات لورد كيـلرن قـوله أنه يعرف أحمد ماهر ويحبه ولكنه لن يكون فى « جيبنا » كما كان نحاس باشا ٠

والذى يقوله كيلرن عن النحاس باشا صحيحا كان أم غير صحيح يؤكد بجلاء وجهة نظر لورد كيلرن السفير البريطانى فى مصر ـ وكذلك الانجليز ـ فى مصطفى النحاس باشا زعيم الأغلبية الشـعبية المصرية ووجهة النظر تلك بصرف النظر عن كونها كما قلت صحيحة أو غير صحيحة لا تدين النحاس بقدر ما تدين الانجليز الذين يرون هذا الرأى فى الرجل الذى وقف الى جانبهم منذ ٤ فبراير ١٩٤٢ وحقق لهم كل ما يريدونه وأكثر ٠

وجهة النظر تلك تؤكد ـ ولو أن الأمر لا يحتاج الى أى تأكيد ـ أن أولئك الذين ينجحون فى استخدام شخص مهما تكن نواياهم حسنة فى خدمتهم ولخدمتهم لا يحترمون الشخص المستخدم ـ بفتح الدال ـ وانما فى الغالب يحتقرونه ويزدرونه ٠

وان أكبر جريمة فى رأيى ارتكبها لورد كيلرن فى حق شعب مصر وفى حق النحاس باشا شخصيا أنه وصف زعيم الأغلبية الشعبية بأن كان فى جيبه ـ جيب السفير البريطانى ـ وبالتالى فى جيب بريطانيا وان كنا لا ندرى آكان جيبها الأيمن أم جيبها الأيسر جيبها الأمامى أم جيبها الخلفى ٠

وفى ذلك ما فيه من دروس قاسية لأولئك الذين اطمأنوا ولو ليوم واحد أو ساعة واحدة الى انجليزى واحد ممن كانوا يحتلون بلادنا ٠

ذهب النحاس باشا فى غيبة لورد كيلرن الى جنوب افريقية ٠

وان كنت أذهب بعيدا ـ والمسألة هنا مسألة تقدير شخصى وليست مسألة معلومات من هذه الجهة أو تلك ـ أنه كان قد ذهب ليخلى الجو للملك كى يفتك برئيس وزرائه أو بمعنى أدق برئيس وزارة ٤ فبراير ١٩٤٢ ٠

ذهب النحاس باشا دون أن يجد من يتظاهر استنكارا لذهابه بل دون أن يجد من يبكى من أجل ذهابه ٠

وتلك علة العلل في حياتنا السياسية المصرية أنه عندما يكون أحدهم فى الحكم ـ قابضا فى الغالب على سيف المعز وذهبه ـ تجد جماهير كثيرة هاتفة له باستمراره مادحة اياه أيضا باستمرار : ولاؤها له طالما هو فى الحكم فاذا ما تخلى عن الحكم أو تخلى الحكم عنه ، تخلى أولئك المنافقون ـ وما أكثرهم ـ عنه لينقلوا ولاءهم الى القادم الجديد ٠

والحاكم الذكى الألمعى هو الذى لا يغتر بهتافات تلك الجماهير ولا يبنى على ولائها خططه وبرامجه لأن هذا الولاء المشكوك فيه باستمرار أشبه ما يكون بالقصور التى تبنى على الرمال ٠

وقد يضحك القارىء منى اذا ما قلت له ان ما كان يعنينى بالدرجة الأولى بالنسبة لاقالة وزارة مصطفى النحاس التى حظيت بولاء شعبى منقطع النظير أن أقارن وبدقة المظاهرات التى استقبلت مبتهجة مصطفى النحاس عندما جاء فى الحكم فى ٤ فبراير ١٩٤٢ والمظاهرات التى انطلقت مرحبة باقالة مصطفى النحاس فى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ وكانت المقارنة مؤلمة ، ومخزية فى نفس الوقت ٠

البـاب الثـالث

الفصل الأول

أحمد ماهر يؤلف وزارة ١٣٩ يوما
سر الرصاصات الأربع التى أصابت صدر مصر
فى ٢٤ فبراير ١٩٤٥

ردود فعل اقالة الوزارة النحاسية فى ٤ أكتوبر ١٩٤٤ تختلف الى حد كبير عن ردود الفعل بالنسبة لاقالة الوزارات النحاسية السابقة :

أول اقالة لوزارة النحاس باشا كانت فى ٢٥ يونيو ١٩٢٨ ولم يكن فى خطاب الاقالة أى اتهام سوى ان الائتلاف الذى قامت على أساسه وزارة مصطفى النحاس باشا قد أصيب بصدع شديد ٠

وكانت الوزارة النحاسية الأولى قد تألفت فى ١٧ مارس ١٩٢٨ وكانت مشكلة من الوفد والدستوريين : مصطفى النحاس للرئاسة والداخلية جعفر ولى باشا للحربية ، واصف بطرس غالى باشا للخارجية محمد نجيب الغرابلى باشا للأوقاف على الشمسى باشا للمعارف ، أحمد محمد خشبة باشا للحقانية ، محمد محمود باشا للمالية ، محمد صفوت باشا للزراعة ، ابراهيم فهمى كريم بك للأشغال ، مكرم عبيد للمواصلات ٠

وكانت تلك الوزارة فى صراع دائم مع الحكومة البريطانية ويمثلها فى مصر المندوب السامى البريطانى جورج لويد بسبب اصرار الحكومة البريطانية على فرض معاهدة على مصر ، وبسبب ضرورة الحيلولة بين الحكومة المصرية وبين اصدار قانون للاجتماعات ٠

وقد قام المندوب السامى البريطانى فى ٢٩ أبريل ١٩٢٨ بابلاغ رئيس الحكومة المصرية مصطفى النحاس أن المندوب السامى البريطانى مكلف من قبل حكومة حضرة صاحب الجلالة البريطانية بأن يطلب من دولة النحاس باشا كرئيس للحكومة المصرية أن يتخذوا فى الحال الاجراءات اللازمة لمنع مشروع القانون المنظم للاجتماعات العامة والمظاهرات فى أن يصبح قانونا وانى مكلف بأن أطلب من دولتكم اعطائى تأكيدا قاطعا بأنه لن يستمر فى نظر المشروع المذكور فاذا لم يصلنى هذا التأكيد قبل الساعة السابعة من مساء الأربعاء ٢ مايو فان حكومة حضرة صاحب الجلالة البريطانية تعد نفسها حرة فى أن تقوم بأى عمل ترى أن الحالة تستدعيه ·

ورغم أن الحكومة المصرية قد أكدت فى ردها على المندوب السامى البريطانى أن مشروع القانون الجديد لا يعرض أمن الأجانب لخطر ما ، بل يرمى الى تنظيم الحريات الدستورية مع صيانة الأمن العام صيانة تامة ·

ومع أن الحكومة المصرية لم تسلم بما جاء فى الانذار البريطانى فتعبث بحق مصر الأزلى عبثا خطيرا ·

وما كان لها ان تعتقد ان الحكومة البريطانية بما عرف عنها من ميول حرة تبغى اذلال أمة عزلاء من كل سلاح الا قوة حقها وصدق طويتها الا أن الحكومة المصرية طلبت الى مجلس الشيوخ أن يؤجل المشروع الى دور الانعقاد القادم وقد وافقها المجلس على ذلك ·

★★★

ولم نكن نأمل أن تقبل الحكومة المصرية ذلك ولو أدى الأمر الى استقالة الوزارة ·

على أية حال استغلت المعارضة قضية الأمير أحمد سيف الدين واتفاق مصطفى النحاس والأستاذ ويصا واصف وجعفر فخرى المحامين على الدفاع عن الأميرلرفع الحجر عنه ·

وكان الاتفاق قبل أن يرأس مصطفى النحاس الوزارة بعدة شهور ·

حملت الصحف المعارضة للوفد على مصطفى النحاس باشا بسبب هذا الاتفاق لأن الأتعاب المتفق عليها فى تلك القضية مبالغ فيها ·

واستقال محمد محمود باشا من الوزارة النحاسية كما استقال جعفر ولى الأمر الذى ارتكنت عليه السراى فى اقالة الوزارة خاصة بعد أن انضم للوزيرين المستقيلين محمد محمود وجعفر ولى وزيران آخران هما أحمد محمد خشبة باشا (وفدى) وابراهيم فهمى كريم (مستقل) .

وبعد اقالة وزارة مصطفى النحاس باشا تولى بعده محمد محمود باشا رئاسة الوزارة الجديدة فى ٢٧ يونيو ١٩٢٨ لتمهد للانقلاب على الدستور .

كانت اقالة الوزارة النحاسية الأولى عملا غير دستورى أحدث دويا هائلا فى الرأى العام المصرى .

وكان الوفد قد أصيب بهزة عنيفة لوفاة رئيسه سعد زغلول باشا وجاءت الاقالة لتضعف الوفد أكثر وأكثر خاصة أن بعض الوفديين الكبار انضموا الى الأحرار الدستوريين .

★★★

وبالرغم من أن استقالة وزارة النحاس باشا فى ١٧ يونيو ١٩٣٠ كانت كما يقول خطاب الإستقالة لأن الوزارة عجزت عن صيانة أحكام الدستور واحاطته بسياج من التشريع يكفل له حياة متصلة ونموا مطردا ولأن الحكومة لم تتمكن أن تقدم الى البرلمان التشريع الخاص بمحاكمة الوزراء الذين يقدمون على قلب دستور الدولة أو حذف حكم من أحكام أو تغييره أو تبديله بغير الطريقة التى رسمها الدستور أو مخالفة حكم من أحكامه الجوهرية ومحاكمة كل وزير يبدد أموال الدولة العامة : رغم تلك الأسباب المعلنة والتى جاء بعضها فى خطاب الاستقالة الذى قدمه الى الملك مصطفى النحاس باشا فى ١٧ يونيو ١٩٣٠ الا أننى أرى أن الأمر لم يكن استقالة بمعنى كلمة الاستقالة المتعارف عليه دستوريا وانما كان اقالة بدليل أن الذى خلف النحاس باشا فى رئاسة الوزراء كان اسماعيل صدقى باشا الذى ألغى الدستور وفرض دستورا جديدا وأقام نظاما دكتاتوريا فريدا فى بابه .

★★★

وقد جاءت اقالة وزارة النحاس باشا (الوفدية) فى ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧ وكان خطاب الاقالة عنيفا للغاية فالشعب كما يقول خطاب الاقالة لم يعد يؤيد طريقة الوزارة فى الحكم والشعب كما يقول خطاب الاقالة أيضا يأخذ على الوزارة مجافاتها لروح الدستور وبعدهما عن احترام

الحريات وحمايتها وانه قد تعذر ايجاد سبيل لاستصلاح الأمور على يد الوزارة التى كان يرأسها مصطفى النحاس باشا الى آخره ·

وكانت تلك الاقالة قد جاءت بعد تفاقم الأزمات الدستورية بين السراى والوزارة وكان من بين مظاهر تلك الأزمات مثلا أن السراى طلبت حل جماعات القمصان الملونة ومن بينها جماعة القمصان الزرقاء (مليشيا الوفد المصرى) ·

ومن بينها أن الوزارة رشحت فخرى عبد النور ليكون عضوا بمجلس الشيوخ بينما السراى رشحت عبد العزيز فهمى باشا ·

وقد رفضت الوزارة ترشيح عبد العزيز فهمى كما رفضت السراى ترشيح فخرى عبد النور واقترحت السراى أن يحل الخلاف بطريق التحكيم فرفضت الوزارة ذلك الحل ·

وقد جاءت الاقالة بعد أشهر من اخراج النقراشى باشا وهو أحد أركان الوفد وانضمام عدد غير قليل من الوفديين له ، مما أحدث بكيان الوفد ، رجة عنيفة ·

كما أن اقالة وزارة الوفد قد سبقتها مظاهرات عنيفة فى الجامعة والأزهر ·

وقد قام لطفى السيد مدير الجامعة باصدار قرار بتعطيل الدراسة فى ٢٥ أكتوبر ١٩٣٧ ولم توافق الوزارة فاستقال من منصبه كمدير للجامعة ·

وجاءت اقالة الوزارة بعد قيام مظاهرة عنيفة قام بها الوفديون هتفوا فيها : « النحاس أو الثورة » ·

وبعدها مظاهرة مضادة قام بها الجامعيون والأزهريون فى ٢١ ديسمبر اتجهت الى عابدين وأطل عليها الملك من شرفة القصر وكانت تلك المظاهرة ردا على مظاهرة « النحاس أو الثورة » ·

وقد اعتدت تلك المظاهرة على مكرم عبيد باشا وكان وقتئذ وزيرا للخارجية بالنيابة وكان قد ذهب الى القصر لحضور مراسم تقديم وزيرى اليونان والمجر أوراق اعتمادهما الى الملك ·

جاءت اقالة وزارة مصطفي النحاس باشا في أعقاب تلك الظروف والملابسات ·

وبطبيعة الحال لم يكن هنـــاك فى أعقـاب اقالة ثورة كما ردد المتظاهرون بل لم نسمع عن أية مظاهرة قامت لتأييد وزارة النحاس باشا عقب اقالة وزارته ٠

وتلك محنة أخلاقية كنا نحس بها والألم يعتصرنا فعندما يكون الوزير فى الحكم يجرى التظاهر والهتاف باسمه ٠

وعندما يترك كرسى الوزارة يختفى أولئك المؤيدون له والمنادون بحيـاته ٠

ولست أذكـر وقد كنت قد بدأت وقتئذ أعى ماحولى من أحداث سياسية أن الشارع المصرى قد غضب لاقالة وزارة النحاس باشا بل ان معظم الذين كانوا أعضاء فى تنظيمات القمصان الزرقاء كانو أول الذين خرجوا عليها وعلى الوفد لأنهم لم يكونوا قد انضموا للوفد ولا للقمصان الزرقاء الا لأنهم فى السلطة ٠

ومما يجدر بنا أن نذكر : أن اقالة وزارة الوفد فى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ قد حركت الكثير من مظاهرات الفرح والابتهاج فى الشارع المصرى بعكس اقالة الوزارة النحاسية فى مرتين سابقتين وربما كانت مظاهرات الفرح والابتهاج تلك ليست نابعة عن كراهيـــة للوفد وانما عن شعور عميق بالسعادة لأن مصر اســـتردت كرامتهـــا التى كانت قد فقدتهـا فى ٤ فبراير ١٩٤٢ ٠

وكان الكثيرون بمن فيهم بعض الوفديين القدامى والمخلصـــين فى وفديتهم يرون أن مجىء أية وزارة حتى ولو كانت وزارة الوفد بالدبابات البريطانية فيه امتهان لكرامة الشعب المصرى مهما كان الرأى مع أو ضد الوفد ومهما كان الرأى مع أو ضد الملك ٠

محاصرة الدبابات البريطانية لمقر الحكم الشرعى ـ أيا كان الرأى فى اسلوب الحاكم الشرعى وفرض وزارة جديدة بناء على ارادة المستعمر أمر رأى فيه المصريون جميعا عارا ينبغى أن يزول وقد زال ذلك العار فى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ ٠

المسألة هنـــا ـ وأنا أتحدث كحزب وطنى غير معاد للوفد الا فى توقيعـه لمعاهدة ١٩٣٦ وفى قبـول رئاسة الوزارة فى أعقـــاب حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ ليست مسألة حزب الوفد وليست مسألة القصر الملكى وانما هى مسألة مصر وكرامة مصر ٠

وكان شعورى كمواطن مصرى يمتلىء بالبهجة والفرح لزوال وزارة فرضتها بريطانيا هو شعور كل مصرى بل لعلى لا أغالى اذا قلت أن كثيرين من الوفديين من غير المستفيدين من الأحكام العرفية كان رأيهم من رأينا .

فاذا أضفنا الى ذلك المعنى العام الذى أوجد الفرحة والبهجة فى النفوس باقالة وزارة الوفد معانى أخرى تتصل بأسلوب الوزارة الوفدية ـ وزارة ٤ فبراير ١٩٤٢ ـ فى الحكم فالذى لا جدال له أن الأحكام العرفية قد سهلت على الوزارة الوفدية القيام ببعض أعمال ما كان يمكن لها أن تقوم بها لو لم تكن هناك أحكام عرفيه فالسلطة المطلقة مفسدة مطلقة .

ومما يؤخذ على وزارة الوفد تلك أنها ملأت السجون والمعتقلات بكثير من المصريين ، وبخاصة خصومها السياسيين .

واذا كنا نعطى للوزارة العذر فى اعتقال محمد باشا طاهر وعباس حليم وعلى ماهر بتعليمات من بريطانيا التى يمثلها فى مصر لورد كيلرن فان أحدا لا يعطى العذر للوزارة الوفدية فى اعتقال مكرم عبيد باشا وأنصاره مهما كانت أخطاء مكرم عبيد باشا وأنصاره وتجاوزاتهم السياسية المعادية للوزارة الوفدية فقد كانوا الى وقت قريب وفديين بل من غلاة الوفديين .

واعتقالهم بسبب خروجهم على الوفد أو اخراجهم من الوفد أو حتى بسبب معارضتهم للوزارة لم يكن أبدا أمر مقبولا بأية حال من الأحوال فاذا أضفنا الى ذلك أن بعض وزراء الوفد وبعض كبار الموظفين قد استغلوا الأحكام العرفية وقيام الحرب فى الثراء غير المشروع وخاصة فى المسائل التموينية ذلك كله جعل الكثيرين يفرحون لاقالة الوزارة التى مكنت البعض من أن يتحول الى أثرياء عن طريق الاتجار فى المواد التموينية .

فاذا أضفنا الى كل ذلك أيضا أن وزارة الوفد قد استغلت الأحكام العرفية فى التضييق على الحريات بشكل غير معهود فلم يكن يسمح لأى حزب سياسى أن يتحرك حتى ولو فى داخل مقاره فيقيم ندوات أو حتى يعقد اجتماعات .

لم تكن الصحافة وهى تحت سلطة الرقابة تسمح بنشر أى خبر لاتريده الحكومة .

وفى كثير من الأحوال كانت الرقابة تمتد الى بعض الأمور الشخصية البحتة كأن تمنع نشر هذا الاسم أو ذاك فى صفحات الوفيات اذا ما أراد أحد أقارب المتوفى شكره لأنه قدم لهم العزاء ٠

هذا الاستغلال الفاحش للأحكام العرفية قيد حريات المواطنين حتى المواطنين العاديين ٠

ولذلك لم يكن غريبا اذن ان تنطلق وبدون أى استعداد أو اعداد تلك المظاهرات التى صاحبت اقالة وزارة النحاس باشا ٠

وأقولها كشاهد عيان ان تلك المظاهرات التى انطلقت فى كل أنحاء البلاد لم تكن مؤيدة للوزارة الجديدة برئاسة د ٠ أحمد ماهر باشا ولم تكن كارهة للوفد كحزب وانما كانت بسبب زوال عهد اقترن بالحكم العرفى البغيض وبسبب أن تلك الوزارة كانت قد فرضت بالدبابات البريطانية ٠

***

وكنا قد توقعنا قيام ثورة كثورة ١٩١٩ فى أعقاب اقالة وزارة النحاس باشا ومجىء وزارة من أحزاب الأقليات فلقد علمتنا دراساتنا التاريخية والسياسية أنه فى أعقاب الضغط والكبت السياسى يحدث انفجار هائل ، يمكن أن يتحول الى انفجار أو الى ثورة كما حدث بالنسبة لثورة ١٩١٩ ٠

لقد قاسى الشعب الأمرين فى أيام الحرب العالمية الأولى ٠

قاسى سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ٠

وكانت سلطات الاحتلال البريطانى قد بالغت الى حد كبير فى الانتقام من الشعب فى تلك الأيام ٠

ولذلك فلم تكد الحرب العالمية الأولى تضع أوزاها وأوضارها ولم نكد أعباء الحكم العرفى تخف نوعا ما ولم تكد الظروف التى فرضت الظلم والقهر على الشعب تتغير حتى هبت الثورة فى ٩ مارس ١٩١٩ بدون اعداد أو استعداد بدليل أن قادة البلاد وفى مقدمتهم سعد زغلول باشا وعبد العزيز فهمى باشا وعلى شعراوى وغيرهم وغيرهم من تصدروا العمل السياسى بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى لم يكونوا يتوقعون أبدا قيام تلك الثورة وكان بعضهم يخاطب الطلبة وقتئذ ـ وهم جنود الثورات حركات التحرير ـ « دعونا نعمل فى هدوء » ٠

ولكن لماذا لم تقم الثورة فى مصر فى أعقاب الحزب العالمية الثانية • كما قامت الثورة فى مصر فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ؟ •

وجهة نظرى وأرجو ألا يغصب البعض فانا هنا أعبر عن انطباعات شخصية بحتة : ان وجود الوفد فى المعارضة فى عام ١٩١٩ وانضمامه الى الثورة كان من أسباب نجاحها بعكس الموقف فى عامى ١٩٤٤ ، ١٩٤٥ ذلك أن الوفد كان مؤيدا للنظام •

صحيح أنه كان خارج الحكم بعد ٨ أكتوبر ١٩٤٤ ولكنــــه كان داخـــل النظام •

كان قد أسقط الشـــعار الشورى منذ آن ولى الحـــكم فى بداية عام ١٩٢٤ •

لم نشترك نحن فى تلك المظاهرات رغم ابتهاجنـا وفرحنا بزوال وزارة ٤ فبراير ١٩٤٢ فمهما كان رأينا فى الوفد وفى أخطائه وخطاياه الا أننا لسنا من أنصار أحزاب الأقليات •

نحن ضد الوفد فى تجاوزاته ولكننا فى نفس الوقت لســـنا مع الأحرار الدستوريين أو الكتلة وقد أصبنا كشـــباب فى الحزب الوطنى بوجوم عندما رأينـــا حافظ رمضـــان باشا يقبل الاشتراك فى وزارة د • أحمد ماهر باشا •

وقد كنا قد خالفناه رغم حبنا وتقديرنا لكفاءته وتضحياته عندما قبل الاشتراك فى وزارة محمد محمود باشا الثانية (١٩٣٧) •

وكان ذلك الاشتراك بدون قرار من اللجنة الادارية للحزب واعتذاره بأن الوقت لم يتسع لعرض الأمر على اللجنة الادارية •

ثم خالفناه أيضا يوم أن اشترك فى وزارة حســـن صبرى باشا (٢٨ يونيو ١٩٤٠) ذلك الاشتراك الذى أدى كما سبق أن قلنـــا الى حدوث انشقاق فى صفوف الحزب الوطنى لجنة ادارية يرأسـها حافظ رمضان باشا تقول انها الحزب الوطنى ولجنة أخرى يقوم فيها بمهام السكرتير العام عبد الرحمن الرافعى تقول انها الحزب الوطنى •

والرأى العام والصحافة حائرة بين اللجنتين •

ومن قبيل الاحترام للحزب الوطنى ، كان الرأى العـــام وكانت الصحافة المصرية وفى المقدمة الأهرام تقبل هذا الانقســام عن أنه أمر مؤقت مصيره الى زوال •

ولذلك كانت الصحافة المصرية تنشر ما تبعث به اللجنة الادارية برئاسة حافظ رمضان باشا من بيانات ومنشورات على أنه رأى الحزب الوطنى .

وفى نفس الوقت ننشر ما تبعث به اللجنـــة الادارية بســكرتارية عبد الرحمن الرافعى على أنه رأى الحرب الوطنى .

كان إشتراك حافظ رمضان باشا فى وزارة أحمد ماهر باشا صدمة لنا خاصة وقد كنا نحن الشباب بدأنا نعمـــل تحت الأرض وكان من مصلحتنا ومصلحة الحزب الوطنى الذى ننتسب اليه ألا يتحمـــل الحزب أوزار حكومة د. أحمد ماهر باشا .

وكنا نرى أن قوة الحزب الوطنى باستمرار رفضه المشاركة فى الحكم .

ومن بين ما أذكره من صور الترحيب باقالة الوزارة الوفدية مقال فى مجـــلة الاثنين التى كان يرأس تحريرها الأســـتاذ مصطفى أمين (١٣ أكتوبر ١٩٤٤) بعنوان اليوم يوم الاستقلال وقد جاء فيه .

سألونى رأيك الشخصى فى اقالة وزارة النحاس باشا : قلت رأيى معروف فقد كنت أتوقع هذه النهاية منذ اليـــوم الأول الذى ولدت فيه الوزارة السابقة ولادة غير شرعية .

لقد حضرت يوم ولادتها فى الظلام ورأيت يومها الرجال الوطنيين يتبادلون العزاء فلم يطلق فيه أحد الزغاريد ولم يوزع أحد المرطبـــات والمغـــات ولم تفرش الأرض بالرمل الأصـــفر الجميل ولم تخضـــب أم المولود يدها بالحناء وانما كان مأتما وطنيا شعر به العارفون ببواطن الأمور فسمعنا الأنين الوطنى المكبوت بدلا من الزغاريد ووزعت المناديل على أقارب المولود الجديد لتجفيف الدموع أو لاخفاء الوجوم وخضبت أيدى المولود بدم الوطنية المراق ولكن كل هذا لم يشعر به الرأى العام ورجل الشارع العادى فلقد أخفيت الحقيقة عن الناس وصور لهم الحق باطلا والنكبة الوطنية فوزا وانتصارا .

وفى اليوم التالى لتأليف الوزارة كنت أسمع هتاف الشعب بحياة المنفذين .

ولم أجد وصفا خيرا من وصف شوقى وكأنه بعث من جديد ليصف المشهد الذى رأيت وهو ديالوج فى رواية كليوباترة بين ديون وحابى جـاء فيه .

اسمع الشعب ديون كيف يوحون اليه .

ملأ الجو هتافا بحياتى قاتليه

ومضى الأستاذ مصطفى قائلا أن الاقالة كانت متوقعة بعد ما حدث فى أسبوع البر وكانت تشرف عليه حرم النحاس باشا •

كانت مترقبة فى حادث الخلاف بين مكرم عبيـــد باشـا والوزارة بشأن الاستثناءات ورخص الاستيراد والتصدير •

وكانت مؤكدة بعد الكتاب الأسود •

وكانت أكثر من مؤكدة يوم تقدم نائب مدفوع بسؤال وقح تضمن افتراء ضد رئيس ديوان جلالة الملك •

وكانت مؤكدة بسبب فضيحة الملاريا فى قنا وأسوان ، ففى خلال السنوات الثلاث الماضيات كان فقهاء الدستور يقولون انه يحدث كل يوم أكثر من سبب وجيه ودستورى وشرعى لاقالة الوزارة ولكنهـا كانت تبقى فى الحكم باعتبارها ظرفا من ظروف الحرب كالأحـكام العرفيـــة والرقابة على الصحف والظلام فى الشوارع وارتفاع الأسعار واحتفـــاء السكر والزيت •

وكلما اقتربت الحرب من نهايتها كانت وزارة النحاس باشا تقترب من نهايتها أيضا حتى لقد قال أحد الظرفاء ان النحاس باشا يعطى الحلفاء خططا عسكرية مغلوطة حتى تطول الحرب ويبقى فى مقاليد الحكم •

ويقول مصطفى أمين أيضا : اننى سعيد باقالة الوزارة لا لأننى أرحب بالحكام القادمين ولا لأنى أتوقع ان يأتـوا بالعجائب ولكن لأنى أعتبر يوم ٨ أكتوبر يوم اقالة الوزارة اعلانا جديدا باستقلال مصر وانها اليوم فقط صبحت حرة صاحبة سيادة وسلطان •

وهكذا أصبحت مصر المســتقلة حليفة لبريطانيـــا الصـــديقة بالروح والقلب •

ان اليوم هو يوم الاستقلال •

***

والى جانب مقال مصطفى أمين فى الاثنين كلمة بعنوان « وقد كان »•

جاء فى خطاب حضرة صاحب المقام الرفيع أحمد محمد حسنين باشا رئيس النادى الأهلى الذى القاه بين يدى الملك فى يوم ١٢ مارس الماضى ما يأتى موجها الكلام الى جلالة الملك •

وكان أحمد حسنين بطلا من أبطال الشيش : انى أراك منـــذ تسعة أعوام تمسك سيفك بيدك وتلعب معى وقد حاولت يوما أن يكون لى شرف انتصارك على فادركت ذلك وأبيته وأعفيتنى من ذلك الشرف •

وقلت لى أن الرياضى لايخدع نفسه .

وكبرت يا مولاى وكبرت اليد التى تحمل السيف .

رأيناك تشجع هزيمة مع الشرف على فوز أشرف منه الهزيمة .

رأيناك تطلب الى كل من يلتف حولك أن يكون شريفا فى عمله شريفا فى وسيلته شريفا فى غايته .

وهكذا جعلت دستور الرياضة ضربا يامولا دستورا للملك وجعلت أخلاقك ووطنيتك ورجولتك دستورا للشباب .

الى أن يقول حسنين باشا : ياصاحب الجلالة جرت التقاليد على أن يجلس الملك فى مقصورته يشهد المباراة مع المتفرجين يصافح الغالب ويواسى المغلوب .

ولكنك يا مولاى دخلت الميدان ووقعت بفريق مصر ضد الفقر والمرض والجهل والجوع وما أن رآتك مصر ترأس فريقها حتى التهبت بحماسة وزادتها ثقتها فيك ثقة فى نفسها وزادها اطمئنانها اليك اطمئنانا الى نتيجة المباراة وسننتصر يا مولاى باذن الله » .

وكان من الرسوم الكاريكاتيرية فى مجلة الاثنين : النحاس باشا الاقالة مكتوب فيها ايه ؟

حسنين باشا مكتوب فيها كل اللى مصر بتقوله .

كاريكاتير آخر للوزراء الجدد جميعا وقد ساروا فى صف واحد وبيد كل واحد مقشة وتحت الرسم قال كبير للوزراء أنه يريد أن يكونوا وزراء وكناسين أيضا .

كاريكاتير آخر موسولينى وهو يقول للنحاس باشا : حصل لك اللى حصل لى بالضبط .

كاريكاتير رابع للصحفيين المصريين الذين عدلوا عن السفر الى أمريكا فى آخر لحظة لتأدية واجبهم بعد اقالة الوزارة : ابن البلد يقول للصحفيين أنتم ما طرتوش ليه ؟ الصحفيون عشان وزارة النحاس طارت .

وقد استغرب الأستاذ محمد التابعى فى آخر ساعة أن تقوم مظاهرات فى الشوارع تصف وزارة النحاس بأنها وزارة الرشوة والظلم والفساد

وكان تعقيب التابعى على ذلك الهتاف قائلا : آكان عهد عبد الواحد الوكيل فى وزارة الصحة عهد رشوة وظلم وفساد ؟

وعبد المجيد عبد الحق فى وزارة الأوقاف أكان عهد فوضى وفساد أم عهد نهضة واصلاح ؟ ٠

وصبرى أبو علم باشا فى وزارة العدل وقد حقق للقضاء أمنيته القديمة وهى استقلال القضاء هل أشاع هؤلاء الظلم والرشوة والفساد ؟

ويرد الأستاذ النابعى على كل تلك التساؤلات بقوله : قد يكون هناك وزير أو وزيران لست مستعدا لا اليوم ولا غدا أن أدافع عن بعض تصرفاتهما ولا بكلمة واحدة » ٠

وفى مجلة الاثنين نفس العدد الذى سبقت الاشارة اليه مقال كتبه مكرم عبيد باشا تحت عنوان « زوجتى فى الاعتقال » ٠

وقد جاء فى ذلك المقال عايدة زوجتى فى الاعتقال : لعل من يقرأ هذا الاستهلال يسند ما ينقصه من براعة الى عقلية التبلد التى قد تنجم عن الاعتقال ؟ أو ليس من تحصيل الحاصل أن أصف زوجتى بانها زوجتى ؟

هذا تساؤل حق ، ولو أن البلاغة انحصرت فى منطق اللفظ ولكنها على النقيض من ذلك أبلغ منطقا منها فى مبناها ولو أن منطق اللفظ قد يكون فى بعض الأحوال بليغا فى ذاته ٠

بل انى اذهب الى حد القول بأن منطق اللفظ كمنطق الحظ قد تكفى فى سحر بلاغته مجرد كلمة او اشارة كما تكفى بسحر اللحظ مجرد نظرة ٠

الى أن يقول مكرم عبيد : من الخطأ أن يظن أن العائلة هى مجرد شخص أو أشخاص يعولهم الرجل أو أنها مجرد وحدة طبيعية تتألف من زوج وزوجة وأولادهما ان كان لهما أولاد ؟ كلا بل ان العائلة هى أولا وقبل كل شىء وحدة روحية تسكن اليها النفس فوق أنها وحدة طبيعية يسكن اليها الحس ٠

وعائدة زوجتى هى كل عائلتى التى يأويها بيتى ٠

وهى من هذه الناحية كل دنياى الصغيرة ٠

ولكنى أعترف بأنى لم أحس هذا الاحساس وكل ما ينطوى عليه من معان وأحاسيس الا بعد اعتقالى ٠

ثم يقول مكرم عبيد : لقد شاطرتنى زوجتى المحبوبة الاعتقال منذ ١٨ مايو ١٩٤٤ أى بعد أسبوع تقريبا من تاريخ اعتقالى فى السر وحتى

٢٢ يونيو وانتقلت معى فى ذلك التاريخ الى معتقلى بالمستشفى رافضة أن تتركنى رغم الحاحى عليها بأن ترحم نفسها ٠

وانى أكتب هذا بعد انقضاء بضعة شهور على اعتقالنا فى المستشفى وهى لا تزال الى جانبى تقاسمنى الاعتقال وما أدراك مع الاعتقـــال بأمر مصطفى النحاس زعيم الحرية فى مصر ٠

ويقول مكرم عبيد باشا ، ان الاعتقال أعاده الى دنياه الخاصة ٠ وكشف عن نواح من نفس زوجته (عايدة) لم يكن قد استجلاها طوال العشرين عاما من زواجهما « حتى لكأنى تزوجتها من جديد الى أن يقول : لقد قضى القدر باعتقالى ثم ترفق بى فقد قضى باعتقال زوجتى ثم زوجنى بزوجتى زواجا جديدا فأصبحت هى معتقلة كما أنا معتقل وازدوجنا فى الاعتقال وتزوجنا كما ازدوجنا فى الحرية وتزوجنا » ٠

ويقول مكرم عبيد : وانه ليسرنى ويؤلمنى معا أن أعترف بأنى لم أكن أعرف زوجتى حق المعرفة ولم أكن أحبها كزوجة لا كامرأة ـ ذلك الحب الروحى العميق الذى شعرت به نحوها فى الاعتقال أو بالأحرى فى زواجنا الجديد زواج الحلم والخيال ٠

ولقد أبرز ألم الاعتقال ما انطوت عليه نفس زوجتى من رحمة تكاد تكون ملائكية ومن قدرة على تحمل الآلام تكون مثالية ٠

وفوق ذلك وأجمل من ذلك فهى فى كل بساطة وفى غير تواضـــع ولاترفع ترى أن وجودها معى فى الاعتقال أمر طبيعى وأن من غير الطبيعى هو ألا تكون حيث أكون » ٠

★★★

وتعلل ذلك فى براءة بأنه ليس لها ولد ولا بنت وليس لها فى الدنيا غيرى لتعتنى به فلا معنى اذن للثناء عليها لأنهـــا عملت ما عليها ويقول مكرم عبيد باشا لكم رجوت زوجتى أن تستريح من هذا العنـاء فتغادر المعتقل ولو الى حين ولكنها كانت ترفض رفضا باتا مؤكدة أنها لن تنام الليل بعيدة عنى وعلم الله انى كنت أرجـو منهـا مالا أرجـوه فلو انها تركتنى بعد المرض الذى انتابنى لانتابنى منـــه فوق ما انتابنى ولكننى كنت من ناحية أخرى أتعذب لأجلها كما كانت تتعذب لأجلى لأن كلا منا كان معتقلا فى شخصه وشخص زوجه معا : ولم يكن النحاس ومن حوله يريدون من اعتقالى الا اغتيالى ولذلك كنت أوثر أن أوفر عليهـا هذا العذاب الذى تطوعت فاستهدفت له بينمـا أنا عتيق الاعتقـــال

وذو سوابق فيه فلا يهمني بل يشرفني أن أعتقل ولكن يهمني ويضنيني أن تعتقل هي فتحمل صليبها وصليبي ولكن عبثا ما كنت أحاول فلا هي كانت تقبل ولا قلبي رغم عقلي أن يطاوعني أن يقبل فلم يكن بد من أن يتحمل كل منا الألم دون أن نتأفف وهل يتأفف من ارتضى الضجر لنفسه وتعفف كلا فما كان لها ولا لي أن نفرط فيما حبانا الله من نعمة زواجنا الجديد هذا الزواج أين منه زواجنا القديم الذى كان زواج الصبا بالصبا والهوى بالهوى في حين أن الجديد هو زواج الروح بالروح وزواج القلب بالقلب ٠

نعم هو زواج جديد ونحن قضينا به في المعتقل شهور العسل ومن أدرانا هل هي شهور أم أعوام فلتكن ما تكون ولتكن نهايتها مني فستكون زوجتي الى جوارى أرى فيها قبل أن أغمض عيني غمضة الأبد وذلك المواطن الذى أحببته وعشت له ولكنى حسبي في أعماق نفسي أن الله سيحفظني ويحفظ على صحتي اكراما لزوجتي تلقاء ما عانت وما ضحت أو في القليل جبرا لقلبها وجزاء لحبها ٠

ولو أن أحدا رأى زوجتي وهي تمرضني لا تنام الليل اذا لم أنم وتزعم أنها مستريحة وهي متعبة وتعاني فوق ذلك ما تعاني من حبس حريتها وانحراف صحتها لقال عنها ما قاله الطبيب الايطالي الذى يعالجني الدكتور جروس رئيس القسم الباطني بالمستشفى انها ملاك وانها ملاك لا يرى أنها ملاك ٠

ولكن ليس هذا مجال تفصيل لتضحيتها وبطولتها وحسبي أن أقول انها شجاعة وداعة معا وان هذه هي البطولة والتي تتميز بها الأنوثة وينكرها عليها الرجولة ٠

اللهم احفظ زوجتي لي واحفظني لوطني ولمليكي ولها عسى أن استكمل رسالة الولاء لمليكي والوفاء لأمتي رسالة الحب لزوجتي ٠ ان زوجتي هي مثال الوفاء الذى لايرتجي شيئا ولا يدعي شيئا ولا يبالي شيئا وحسبي أن أنظر اليها لكني أومن فوق ايماني بأن من يعمل للدنيا كمن يعمل للآخرة يجب أن يكون شعاره أن لا رجاء بلا وفاء وان الانسانية قوامها المحبة وان الله محبة ٠

***

واذا كان الشيء بالشيء يذكر كما يقولون فان مكرم عبيد باشا قد استقبل الذين هنأوه بوزارة المالية في اليوم التالي لتشكيل الوزارة

(٩ أكتوبر ١٩٤٤) بكلمة أدبيـــة رائعة قال فيهـا اللهم لا شماتة بل عبرة وتذكيرا •

اللهم لا انتقاما بل قصاصا وتطهيرا •

اللهم لا استغلال للحكم ولا محسوبية ولا فوضى بل نزاهة فى الحكم وحكمة وتدبيرا •

اللهم لاتنصفنا على حســـاب مواطنينا بل انصف مواطنينا على حسابنا •

اللهم غنى عن الغنى •

اللهم لا ميلا مع الهوى بل ميلا عن الهوى •

اللهم دينا عن الدنيا أو فارفع دنيانا الى مستوى الدين •

اللهم اجعلنا نحن المسلمين لك وللوطن أنصارا ونحن النصارى لك وللوطن مسلمين اللهم ملكا صالحا لمليكنا الملك الصالح

اللهم لا تحرمنا ولا تحرمه منا •

اللهم ارفعنا به وارفعه بنا •

اللهم أدم للأمة شبابه وافتح لنا على الدوام بابه •

اللهم ابعد عنا شيطان الغرور لتصغر نفوسنا دون صغار ولتكبر دون استكبار ولنكبرك أنت على الدوام تكبيرا •

اللهم لقد أكرمت شخصى باعتقالى فاكرم الأمة بأعمالى اللهم سبحانك فيما ارتضيت وفيما أرضيت فقد هيأت لى من بذكرتى عند ربى فجعلنى على خزائن الأرض أمينا بعد أن كنت فى زواية من زوايا الأرض سجينا •

★★★

ومكرم عبيد باشا يشير بذلك الى قصة سيدنا يوسف عليه السلام وكيف كان سجينا بأمر عزيز مصر ثم قدر الله من يذكره عند ربه ـ أى عند مليكه ـ فكان الافراج عنه وكان أن أصبح أمينا على خزائن مصر •

★★★

وكانت علاقة وثيقة قد ربطتنى بمكرم عبيد باشـا كمحام وكنت دائما أزوره فى مكتبه عندما يكون خارج الحكم فى شارع قصر النيل •

وأكثر من مرة شهدته وهو يعد خطبه كما شهدته وهو يعد مقالاته•

وكان مكرم عبيد باشا أديبا مطبوعا حفظ الكثير من أجزاء القرآن

الكريم كما حفظ الكثير من دواوين الشعر وخاصة للشعراء القدامى .

ويرجع الأستاذ عباس محمود العقاد ذلك الاسلوب الأدبى الذى تميز به مكرم عبيد باشا كاتبا وخطيبا الى الأصـــول التى تميزت بها المدرسة القنائية .

مدرسة منا أو كور « قوص » كما كانت تسمى قديما ويقول العقاد إن مدرسة قنا نشأ فيها البهاء زهير وجمال الدين بن مطروح وكانا فى زمانهما رافعين لواء الشعر الحديث هذا بالاضـــافة فى مجال النثر الى القاضى الفاضل والعماد .

وقد جمع مكرم عبيد كما يقول العقاد بين هيئة الأديب ونشاط السياسى صاحب الأعمال فما من أديب الا وله طريقته ينبه وعيه الباطن الذى ترجع اليه جميع الهيئات الفنية .

ويقول العقاد أيضا ان أروع ما كتبه مكرم عبيد باشا ما كان من وحى الساعة وهو يحسب أنه قد ضـــاق به الوقت أو سيضيق عن انجازه واذا به أنسب الأوقات للخلود الى العش أو العكوف على قريحته .

ان مكرم عبيد باشا بحق من كبار أدباء السـياسة أو من كبــار الساسة الأدباء .

★★★

وكانت افتتاحية المصور (العدد الصادر فى ١٣ أكتوبر ١٩٤٤) تحت عنوان « الأحد ٨ أكتوبر ١٩٤٤ » للأستاذ فكرى أباظة رئيس تحرير المصـــور .

وقد استهل فكرى أباظة مقاله بقوله : هذا يوم جبار فى تاريـخ مصر الحديثـــة جرت الحوادث بسرعة البرق فهوى حكم وقام حكم على الأنقاض والناقد السياسى اذ يودع واذ يستقبل يجب أن يكبح جماح قلمه وأن يلوى عنانه فى ميدان الوداع وفى ميدان المواجهة والاستقبال : كلام كثير لا تتسع له صفحات هذه المجلة بأسرها والوقائع والحقائق تتدافع أمامنا وفيها الغائم والباسم وفيها العظة والعبرة وفيها أيضا المضـــحك والمبكى وفيها الضار وفيها النافع .

وهذه مهمة المؤرخ الحزين الذى يحب أن يعتزل فى كهف ليسجل للحق وللتاريخ وللعظة وللوطن وللدرس الذى يحب أن يتلقاه النشء الحديث من خضم هذه الأزمات وهذه المفاجآت .

كان الزلزال يتمخض ويثور تحت طبقـــات الأرض انفجر فارســل

ناره ولهبه وقذف حممه فأصاب وحطم وبدد والوزارة السابقة تذهب وقد خلفت وراءها معنفلا واسعا للبدن وللذهن ٠

وقد خلفت وراءها على خزانة الدولة تعهدات والتزامات لا ندرى أتقوى على الوفاء أم نتنكر ونتمرد ونعجز عن الأداء ٠

وقد خلفت وراءها قضايا وطنية معلقة طالما نصحناها بأن تواجهها بالحسم والجزم فلم تفعل بل تركتها للقادمين ثرورة مقلة بالمازق والصعاب ٠

وقد خلفت وراءها هوة عميقة بينها وبين كل من يجب على كل سياسى حصيف أن يظفر منه بالثقة والولاء ٠

وخلفت وراءها كل ذلك ولكنها خلفت وراءها مشروعات كثيرة فى مختلف نواحى الاصلاح نرجو أن تجد المال للتحقيق والتنفيذ ٠

الى أن يقول فكرى أباظة وكأنما كان يمشى فى مقاله على حبل رفيع ٠

واليوم يثب الى الحكم مصريون آخرون لهم تاريخ جهاد طويل ولهم تجارب فى الدنيا الحرة ودنيا الحكم ولهم فى نظر الناقد السياسى مبادىء مخطوطة وآراء مبسوطة نشروها واذاعوها عهدا عليهم للوطن وميثاقا فالسياسة التى تجرى عليها الوزارة الحاضرة سياسة مقروءة ، ومعروفة من زمن ونعلم كل العلم أن فى طريق الوزارة صعابا لايستهان بها وان هذا الطريق (الملغم) سياسيا وماديا يحتاج عناء عنيفا وجهدا جبارا ٠

ولكن الوزارة الحاضرة تمتاز عن السابقة بانها ترتقى الحكم ممهورة برأس مال كبير هو ثقة السلطة الشرعية العليا وسندها وعونها وعطفها وهذه دفعة قوية للعهد ٠

ونعلم كل العلم أن الوزارة الحاضرة ستواجه عملية معقدة من عمليات المسخ والنسخ وهذه مهمة من أدق المهام فهى ستجد نفسها فى وضع عجيب بين الأمر الواقع وبين ما وجب أن يكون ولا تدرى كيف توفق بين هذا وذاك الا أن ندعو لها بالتوفيق وقد يكون معجزة من المعجزات ٠

وأعاد المصور نشر نبذة كان رئيس التحرير فكرى أباظة قد نشرها عن د ٠ أحمد ماهر رئيس مجلس الوزراء الجديد وهى : من أكبر

الساسة المصريين اعتدادا بالنفس لايضعف أمام أقوال الناس ولا تقاليد الوزراء ولا ملاحظات الأصـــدقاء والمحبين وهذه نزعة من نزعاته التي لاتعالج وقد يكون محقا لو كان في غير الشرق وفي غير وزارة الماليـة وزارة العنف والارهاق والعناء ٠

خير ما في د ٠ أحمد ماهر ـ فكرى أباظة ـ أنه لايتكلف ولا يتصنع ولا يخشى احدا مادام يعتقد أنه يؤدى واجبه ٠

ويروى المصور قصة دخول د ٠ أحمد ماهر الوفد فيقول : بعد مقتل السردار سير لى ستاك واستقالة الوزارة السعدية ولم يكن قد قبض على أحمد ماهر ، كان بعد د٠ أحمد ماهر موجودا في بيت الامة مـــع سعد زغلول الزعيم الخالد لأنه كان عضوا في وزارته فضلا عن أنه كان عضوا بازرا في الهيئـة الوفدية وكان مقررا أن يعقد الوفد قيادته العليا يومئذ اجتماعا هاما للبحث في الأحوال القائمة وقتذاك فلما أذن موعد الاجتماع أراد الدكتـــور ماهر أن ينصرف فاستوقفه الزعيم سعد زغلول قائلا : رايح فين يا ماهر فرد بأنه يريد الانصراف لأنه ليس عضوا في الوفد حتىيحضر الاجتماع فقال الزعيم : يأخى خليك معـانا انت كنت وزيرا وتعرف أعمالنا ومن يومذاك اعتبر الدكتور أحمد ماهر عضوا في الوفد الى أن خرج منه عام ١٩٣٧ احتجاجا على فصل زميله محمود فهمى النقراشى » ٠

وتمضي وزارة أحمد ماهر باشـــا في ادارة شئون البلاد أو في ادارة بعض شئون البلاد كما هى الحال بالنسبة لأية وزارة سابقة ٠

وان كان مجال التحرك أمام الوزراء ضيقا للغاية في هذه الوزارة ذلك أن السراى كانت تتدخـــل باستمرار في كثير من الأمور صغيرها وكبيرها وصغيرها قبل كبيرها ٠

وكان خميرة عكننة الوزارة الماهرية مكرم عبيد باشا الذى كان يرى أنه ساهم في اقالة وزارة النحاس باشا بأكبر قدر وانه وكثيرا من أنصاره قد إعتقلوا وسجنوا وأضيروا في أرزاقهم بعكس الحال بالنسبة لشركائه في الحكم من السعديين ومن الدستوريين ٠

وكان مكرم عبيد باشا يعتمد اعتمادا مطلقة على تأييد السراى له وخاصة أحمد حسنين باشا ٠

وكان أحمد حسنين وحده هو الذى يكبح من غلواء مكرم عبيد باشا..

وفى أكثر من مرة كان أحمد ماهر ـ وهو الرجل الصريح الواضح الدستورى لحما ودما والذى رأس مجلس النواب الوفدى كما رأس مجلس النواب السعدى والدستورى ـ يثور على بعض التداخلات فى عمل وزارته ·

وقد هدد بالاستقالة أكثر من مرة ·

وفى كل مرة كان يهدد فيها بالاستقالة بل يستقيل بالفعل : كان بعض أنصاره يهدئون من ثورته مؤكدين أنهم وقد قاسوا الأمرين من حكومة الوفد يخشون أن يستفيد الوفد من استقالته وأن يعودوا هم الى المعارضة ولما يستمروا فى الحكم سوى أسابيع قلائل ·

وقد كانت الصورة التى تبدو للجماهير من خلال عمل الوزارة تختلف الى حد كبير عن الصورة الحقيقية ·

ما كان يجرى فى الكواليس كان يختلف تماما عما كان يجرى فوق السطح ·

ضغوط مستمرة من الحكومة البريطانية على الحكومة المصرية التى لم تعد فى جيبها ·

وضغوط مستمرة أيضا من السراى على الوزارة وخاصة من الملك فاروق ومن حسنين باشا بالذات ·

هذا الى جانب الصراع القائم بالفعل وبشدة داخل الوزارة بين السعديين والدستوريين والكتليين وحرص كل حزب على أن يكسب على حساب شركائه ·

وكان الرجل الشجاع أحمد ماهر وكان يلى رئاسة الوزارة لأول مرة ـ موزعا بين كل هذه الصراعات والتداخلات وكان يحاول أن يوازن بين المصلحة العليا للوطن التى كان يضعها فوق كل اعتبار والمصالح البريطانية ومصالح السراى ، ومصالح أعضاء حزبه وأعضاء الأحزاب التى تشترك واياه فى الحكم ·

كان أحمد ماهر ، كما جاء فى خطابه الى الملك ـ الخاص بتشكيل وزارته ـ قد وعد بالقضاء على ما اتسم به العامان الماضيان من تقتير فى الأرزاق ومن تضييق فى الحقوق ، والحريات ·

وكان قد وعد أيضا بالتخلص من أسباب الاستغلال والمحاباة والمحسوبية التى تفشت فى عهد الحكم السابق وكذلك التخلص من

وسـائل الارهاق والارهاب والقمع التى طمست معنى الحكم النيابى وصيرته أداة تحكم ودكتاتورية وطغيان .

وكان قد بدأ أول ما بدأ بالافراج عن مكرم عبيد وجميع المعتقلين فى أقسام البوليس من الطلبة والشبان الذين سيقوا الى السجن ولا ذنب لهم الا أنهم رجال .

وكان قد بدأ يعالج مشكلة الاستثناءات التى زادت خطورتهـا فى عهد الوزارة السابقة .

وكان قد بدأ يخفف من قيود الرقابة على الصحف .

وكان الملك قد طلب منهم فى أول لقاء له بهم : بالمساواة بين كل المصريين فى الحقوق والواجبات وأن يحمل كل منهم بيده مقشة ليكنس بها أدران العهد السابق .

وكان أحمد ماهر قد استقبل بعض الذين كانوا معتقلين فى الطور او فى سـجن الأجانب وفى مقدمتهم النائب المحترم نجيب ميخائيـل بشارة والأستاذ محمد الدمرداش الشندى عضو مجلس النواب السابق واليوزباشى صليب رزق والعمال الذى طبعوا الكتاب الأسود كما استقبل أيضا القائمقام أحمد فؤاد صادق بك والصاغ محمـد كامل الرحمانى وهما ضابطان فى الجيش المصرى كانا قد قدما شكوى ضد بعض تصرفات وزير الدفاع السابق حمدى سيف النصر باشا فأصدر النحاس باشا بوصفه حاكما عسكريا أوامر باعتقالهما وفصلهما من الجيش .

وقد بقيـا فى المعتقل حوالى عامين الى أن أفرجت عنهما وزارة أحمد ماهر باشا .

وكان أحمـد ماهر فى يومه الأول فى الوزارة قد اسـتدعى محمود غزالى بك مدير الأمن العام وأبلغه أنه أصدر أمرا بالغاء القرار الخاص بوقفه عن العمل فى ١٥ سبتمبر الماضى وطلب منه العودة الى عمله فتوجه فورا الى مكتبه فى وزارة الداخلية وأخـذ فى مباشرة عمله .

وكان من المتبع أن تسير أمام سـيارة رئيس الوزراء بضـعة موتوسيكلات وأن تسير خلفها سيارة فيها ضباط مسلحون وأن يصحب رئيس الوزارة ياور عسكرى وقد أمر أحمـد ماهر بالعدول عن هـذا النظام .

وكان من المتبع أيضا أن يحرس دار رئيس الوزارة ليلا ونهارا

خمسة من الجنـــود المسلحين فأمر أحمـــد ماهر بأن يحرس داره رجل البوليس العادى وحده ·

وكان أحمد ماهر قد استقبل هيئة مراقبى الصحف وقال لهم / انى أعلم ان الرقابة عن الصحف مهمة شاقة وأمر غير محبب الى النفس فاجتهدوا فى تخفيف هذا الأمر على زملائكم الصحفيين ·

واجعلوا من الرقابة معاونا فى خدمة الصحافة ·

واعلموا انى أحب النقد وأرحب به فمن أراد أن يعمل وينتج لأمته فعليه أن يصغى الى النقد الصـحيح القائم على الوقائع ولكنى لا أرحب بالكلام الذى يرمى الى العبث وتضييع الوقت والاخــلال بالنظام فهذا ليس وقته ويجب منعه ؟؟ وكان أحمد ماهر قد توجه فى ١٢/١٠/١٩٤٤ الى السفارة البريطانية حيث رد الزيارة للمستر الن شو الوزير المفوض فى الدار والقائم بأعمال السفير ·

وكان أحمد ماهر باشا أيضا قد أكد لأعضاء حزبه (الهيئة السعدية) انه وان كان قد أعطى سلطة الحاكم العسكرى الا أنه لن يلجأ الى الأوامر والأحكام العسكرية الا فى الأحوال الضرورية التى أعدت لها هذه الأوامر والأحكام وأنه سيحاول اتباع القوانين العادية بقدر الامكان فذلك هو نظام الحكم العادل الذى ينبغى أن تحكم البلاد على أساسه ·

وكان أحمد ماهر باشا فى ١٧/١٠/١٩٤٤ قد أصـدر أوامر بمنع المظاهرات بعد أن أتيحت للجماهير فرصة اظهار شعورها ·

وكان من بين ما قاله د· أحمـد ماهر حول المنع : يجب أن يتفرغ كل منا لأداء واجبه ويجب أن يعود الهدوء الى البلاد ·

وكان مســتر اتلى رئيس مجلس الوزراء البريطانى قـد صرح فى ١٩/١٠/١٩٤٤ بأن الدول التى لها الحق المكتسب فى أن تمثل فى مؤتمر الصلح هى التى اشتركت فى الحرب بصفتها دولا محاربة ·

وقد أكد د · أحمد ماهر رئيس مجلس الوزراء المصرى أن تصريح مستر اتلى لايمس مركز مصر ولا يؤثر فى حق اشتراكها فى مؤتمـر الصلح وأن تصريحات مستر روزفلت وديوى عن فلســطين لا تعبر عـــن رأى حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ·

وكان الرئيس روزفلت ومستر ديوى مرشحا الحزب الجمهـورى قد صرحا بأن فلسطين يجب أن تكون وطنا قوميا لليهود ·

وقال أحمد ماهر ان آراء روزفلت وديوى ليست سوى آراء شخصية أبديت أثناء المعركة الانتخابية لرئاسة الجمهورية الأمريكية وكان مجلس الوزارة قد أصدر فى ١٥ نوفمبر ١٩٤٤ مرسوما بحل مجلس النواب ودعوة مجلس النواب الجديد الى الاجتماع فى يوم ١٨ يناير ١٩٤٥ ٠

وكان قد حدد للانتخابات يوم ٨ يناير ١٩٤٥ ٠

وكان حل مجلس النواب ضربة موجعة للوفد ٠

ولذلك فانه ــ الوفد ــ قرر عدم الدخول فى تلك الانتخابات لأن الأحكام العرفية تحول دون حرية الانتخابات ٠

نفس الموقف الذى اتخذه السعديون والأحرار الدستوريون فى ٤ فبراير ١٩٤٢ ــ لأنه لم يستجب الى مطالبهم برفع الرقابة عن الصحف ورفع مارس ١٩٤٢ قاطعوا الانتخابات لأنه لا ضمان للانتخابات مع وجود الأحكام العرفية ٠

وكما فعلت وزارة الوفد فى مارس ١٩٤٢ اذ أجرت الانتخابات فى ظل الأحكام العرفية وجندت كل شىء فى الدولة لصالح مرشحى الوفد بعد أن قاطع الانتخابات السعديون والدستوريون ٠

شرعت وزارة أحمد ماهر فى اجراء الانتخابات فى ظل الأحكام العرفية بعد أن جندت هى الأخرى كل شىء لصالح مرشحى الحكومة : السعديون والأحرار الدستوريون والكتليون وان كان التجنيد لصالح الكتليين كان أقل وأكثر فتورا ٠

وهذا بالرغم من أن أحمد ماهر وتلك احدى حسناته قد أعطى التعليمات بتخفيف الرقابة على الصحف بل باطلاق حريتها الا فيما يتعلق بالشئون العسكرية أو الاقتصادية أو ما يشتمل على ألفاظ نابية ٠

وانشغلت البلاد كما هى العادة بالانتخابات ٠

وبدأت حركة تنقلات ولكن فى نطاق ضيق بين الأحزاب كما جرت وفى نطاق واسع حركة انضمامات للأحزاب وخاصة الأحزاب الحكومية كالهيئة السعدية والأحرار الدستوريين والكتلة الوفدية المستقلة وان كان الانضمام الى الهيئة السعدية أكثر لأن رئيس الحكومة هو رئيس تلك الهيئة ٠

وكان هنـــاك بعض الوفديين أو الذين يميلون الى الوفد يرغبون في دخول الانتخابات فابدوا رغبة في ان يدخلوا الانتخابات مستقلين على ان يدخل بعضهم منعا لاراقة ماء الوجه الهيئة السعديه بعد اعلان نتائج الانتخابات وفوزهم في تلك الانتخابات وفجـــأة ظهرت مشكلة خطيرة في الانتخابات تلك التي ســـميت مشكلة على البربر وعلى البربر من كبار التجار السودانيين الذين أقاموا بمصر مدة طويلة وكان على علاقات طيبة بكافة الأحزاب والهيئات المصرية وقد رغب في ترشـــيح نفسه عن دائرة عابدين كسوداني لا كمصري فما دامت مصر كلها تنادى بوحدة وادى النيل وما دامت الحكومة المصرية ذاتها تحمل شعار وحدة وادى النيل وما دام الملك يسمى ملك مصر والسودان فلماذا لا يرشح على البربر نفســه للانتخابـات كســوداني ان معاهدة ١٨٩٩ ومعاهـدة ١٩٣٦ لا تمنعان سودانيا من أن يرشـــح نفســه للانتخابات في مصر ولا تمنعان مصريا من أن يرشح نفسه في السودان ٠

وبدأت اجراءات الترشيح وأعد على البرير أوراق ترشيحه لتقديمها الى دائرة عابدين الانتخابية ٠

وقامت السفارة البريطانية في مصر ولم تقعـــد : لو أن الحـــكومة المصرية قبلت أوراق ترشـــيح السوداني على البربر ضـــمن مرشحى انتخابات مجلس النواب لقضت على خططها الاستعمارية التى استهدفت فصل مصر عن السودان وفصل السودان عن مصر ٠

وكانت هناك اتصالات رسمية بين السفارة البريطانية في القاهرة وبين رئيس الوزارة حول ذلك الموضـوع وكان هناك تحذير من قبول أوراق ترشيح على البربر ٠

وجرت اتصالات مع على البربر وبين بعض المسئولين : لماذا لا ترشح نفسك كمصري في تلك الانتخابات لتضمن الفوز بالدائرة ٠

وأصر على البربر اما أن يقبل الترشـــيح كسوداني واما فلا داعى للترشيح على الاطلاق ٠

واعتبرنا الأمر نحن شـــباب الجامعة ــ جامعة فؤاد الأول ــ خطيرا للغاية كيف تقبل الحكومة المصرية هذا التدخل في أمر من أمور مصر الداخلية ٠

وذهبنا الى على البربر نرجوه ألا يعدل عن ترشيح نفسه كسوداني وأن تكون قضية محل اختيار لنوايا الحكومة المصرية ٠

وقررنا عقد مؤتمر طلابى فى الحرم الجامعى لمناقشة هذا الموضوع .

وكنت من أوائل الذين تحدثوا فى هذا الأمر واتفقنا على أن نخرج من الجامعة فى مظاهرة تتجه الى رئاسة الوزارة لنعلن احتجاجنا على التدخل فى هذه المشكلة الداخلية .

وكانت لدى البوليس الذى كان يحاصر الجامعة تعليمات بمنع خروجنا من مبنى الجامعة ولو أدى الأمر الى اطلاق الرصاص وكنا مصرين على الخروج ورجال البوليس مصممون على اطلاق الرصاص فيما لو كسرنا أبواب الجامعة وخرجنا الى الشارع .

وتأزم الموقف بشكل خطر وكادت تحدث مذبحة رهيبة واتصلنا بالدكتور أحمد ماهر فى مكتبه برئاسة الوزارة وروينا له ما حدث وكيف ان الدماء توشك أن تسيل .

وفوجئنا بأحمد ماهر يقول : لاتخرجوا من الجامعة وسوف أحضر اليكم فورا بنفسى .

وانتقلنا من الحرم الجامعى الى مبنى كلية الحقوق .

وكان زعماء طلبة الحقوق هم وقتئذ المسيطرون على الموقف والذين بدأوا التظاهر وهم الذين فكروا فى الاتصال برئيس الوزراء .

ووصل أحمد ماهر رئيس مجلس الوزراء الى حرم الجامعة : لم يقبل أن يدخل بسيارته الرسمية التى أوقفها خارج مبنى الجامعة ولم يسمح لحرسه الخاص بأن يدخل الجامعة أيضا وانما أصر على أن يدخل وحده بدون أى حرس .

وناقشه كبار رجال البوليس فى الموضوع يحذرونه من دخول المبنى فالجو متوتر للغاية ولا يستبعد أحد الاعتداء عليه .

ولكن د . أحمد ماهر كان حازما فى هذا الموضوع الى أبعد حدود الحزم .

أوقف حرسه عند باب الجامعة الخارجى وسار على قدميه فى طريقه الى مبنى كلية الحقوق وكنا فى انتظاره فأحطناه من كل جانب كى لا يتاح لأحد فرصة الاعتداء عليه .

وروينا له ما حدث بالضبط وما سمعناه من ان هناك تبليغا رسميا

بعدم قبول أوراق على البرير • الا اذا تقدم كمصرى لا سودانى ونفى لنا د • أحمد ماهر وقوع أى تبليغ •

وكان من بين ما قاله لنا ان احمد ماهر الذى حمل روحه على كفه مقاوما الاحتلال البريطانى والذى عرض نفسه لحبل المشنقة فى بواكير الكفاح الوطنى المصرى لا يمكن أبدا ان يقبل أى تدخل من اية جهة كانت فى أى أمر يمس السيادة المصرية •

وأقسم لنا أنه لو كان قد أحس بوجود أى ضغط من هنا أو من هناك فى مثل هذا الأمر لقاوم الى أبعد حدود المقاومة وأنه لو كان هناك احساس قوى بأن الضغط سيكون قويا ولن تجدى معه المقاومة فان لم يكن ليتأخر عن تقديم استقالته •

وأذكر ان أحمد ماهر كان صريحا واضحا فى حديثه معنا قبل أن يلتقى بجماهير الطلبة •

والتف الطلبة حوله فى أحد مدرجات كلية الحقوق وشرح أحمد ماهر الموقف بهدوء غير أن حديثه لم يكن يصل الى كثير من الطلبة وكان عددهم قد بلغ بضعة آلاف •

وفكرنا فى ضرورة أن تصل كلمات الدكتور أحمد ماهر الى آذان كل الطلبة •

ونبتت فكرة صعوده الى الطابق الثانى من الكلية حتى يستطيع مخاطبة الطلبة من احدى الشرفات التى تطل على الحرم الجامعى من كلية الحقوق وعرضننا الفكرة على الرجل ورحب بها فقد كان وقتذاك رغم شدة الزحام وكثرة مقاطعات الطلبة الوفديين وكانوا بكثرة فى ذلك اليوم حريصا على ان يقنع أبناءه الطلبة بأن الموقف لايستدعى أبدا الاضراب وانه يتحدث الى الطلبة كأستاذ جامعى وكأب فى نفس الوقت •

وصحبنا د • أحمد ماهر الى الطابق الثانى من الكلية وكان عميد الكلية د• محمد صالح وبعض أساتذة الكلية قد التفوا حول رئيس مجلس الوزراء واقترح بعضهم ان يختار الطلبة ممثلين عنهم ليستمعوا الى رئيس الوزارة د • أحمد ماهر فى مكتب العميد ثم يعودون الى الطلبة فيما بعد ليحدثوهم عما قاله رئيس مجلس الوزراء •

ولكن دكتور أحمد ماهر أصر على أن يتحدث الى الطلبة مباشرة وان يستمع الى أسئلتهم مباشرة فذلك أوقع ونجحنا فى أن نوفر للدكتور ماهر ميكروفونا متواضعا •

ومن شرفة كلية الحقوق راح د. أحمد ماهر رئيس مجلس الوزراء والاستاذ السابق بالجامعة يجادل الطلبة الثائرين الغاضبين ثلاث ساعات كاملة لم يضق ذرعا باستفزازات بعض الطلبة ولم يغضب لأن بعض الطلبة الوفديين كانوا يهتفون هتافات عدائية ضده : شرح أحمد ماهر بصراحة ووضوح القصة شرحا وافيا مؤكدا ـ كما أذكر جيدا ـ حرصه على استقلال مصر ورفضه لأى تدخل أجنبى .

وقد نجح أحمد ماهر فى النهاية فى أن يكسب الجولة من أولئك الذين كانوا يهتفون منذ التاسعة صباحا بسقوطه وسقوط وزارته : الذين كانوا ينوون الخروج من الجامعة لاثارة الرأى العام ضده وضد وزراته .

كل أولئك راحوا يهتفون بحياته مقدرين له شجاعته ووضوح سياسته .

خرج أحمد ماهر من الجامعة مودعا بالتقدير والاحترام وفوجئنا به يشكرنا لأننا أنقذنا الوطن من كارثة رهيبة .

ثم دعانا الى أن نلتقى فى مكتبه لبعرض علينا ما خفى من جوانب مشكلة ترشيح على البرير .

ومن قبيل التذكرة نقول أن أحمد ماهر صرح ببيان للصحف جاء فيه : علمت بالأمس ان بعض الطلاب قد أوعز اليهم ان يحرضوا زملائهم فى الجامعة ويدفعوهم الى التظاهر متسترين وراء دعايات تحمل فى ظاهرها ما يبعد الشبهة عن مصر لأنهم يعرفون أن أى صوت من جانب الموعزين وباسمهم لا يمكن ان يصل الى ضمائر الوطنيين الابرياء .

وحرصا على أبنائى ورعاية لحرمة الجامعة توجهت بمفردى صباح اليوم وهناك استقبلنى الطلاب مجتمعين أحسن استقبال محيين فى شخصى الوزارة والاحزاب المؤتلفة فيها مما دل على ان المتظاهرين يقدرون للوزارة أعمالها ومواقفها وقد خاطبتهم ناصحا أن يلتزموا معاهدهم ويعكفوا على دروسهم وان يتركوا الأمور هادئة تصرفها يد المسئولين عنها وهم بحمد الله أهل للأمانة التى ائتمنوا عليها .

كذلك أوضحت لهم كل ما زيف عليهم وصارحتهم بأن مالا كثيرا ينثر فى سبيل تكدير الأمن وأن المأجورين بهذا المال يتوسلون بعلل براقة ظاهرها الغيرة الوطنية ثم ينبثون وسط الطلاب ويستغلون طهارتهم ونقاء صدروهم وسلامة قصدهم فيستدرجونهم الى التجمهر والهياج والتظاهر

ليحققوا على حساب مصر وسلامتها مطامع صغيرة لأنفسهم ولمحركيهم فى الخفاء ٠

ولقد طالبتهم بعد أن أوضحت لهم الحقيقة أن يصمموا اذانهم عن دعوى المحرضين وان ينتبهوا لصنائع الأموال والرشوة ويبعدوا عنهم وكذلك يتفادون الزج بأنفسهم وبمصلحة وطنهم فى طرق كلها أشواك ومخاطر ٠

وانتهى حديثى بأنى فيما وجهت اليهم من نصح قد عبرت عن الرغبة السامية لحضرة صاحب الجلالة مولانا الملك من ضرورة التزامهم بالهدوء ومتابعة دروسهم والابتعاد عما يضر بمستقبلهم ومستقبل بلادهم ٠

ويسرنى ما بدا لى من اقتناع ابنائنا الطلبة الأبرياء ووطنيتهم وأننى بعد كل ما تقدم لا أجد متسعا من العذر لمن يعود الى التظاهر مصغيا لسعاية المأجورين ٠

وسآخذ المحرضين والخارجين على النصح بالردع الشديد الذى يتناسب مع خطورة جنايتهم على مصالح البلاد ٠

★★★

ولعل فى مقدمة ما أدهشنى ان هذا الموقف الشجاع الذى وقفه أحمد ماهر رئيس مجلس الوزراء والذى انقذ به شباب جامعة فؤاد من كارثة محققة كان يمكن أن تتحول حقا الى مذبحة رهيبة لم ينل ما يستحقه من اشادة وتنديد ٠

وتلك مأساة أخرى من مآسينا القومية : تلك التى تجعلنا فى حمأة الصراع الحزبى الرهيب ننسى أو نتناسى تلك المواقف الرائعة والتى لا مثيل لها من قبل لمجرد أن الذين اتخذوا تلك المواقف كانوا حزبيين ولم يكن لهم فى حياتهم من يجيد التطبيل والتزمير ٠

★★★

ومنذ يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٤٤ الى آخر يوم فى حياتى اعتبر ذلك الموقف الشجاع من أحمد ماهر الفدائى القديم وأستاذ الجامعة الأقدم ورئيس الوزراء الجرىء من المواقف التاريخية التى وقفها أحمد ماهر فى حياته والتى كنت احد شهودها ٠

★★★

ومن أهم واخطر الجرائم التى وقعت فى مصر ولم تكن وزارة د٠أحمد ماهر قد أكملت شهرها الأول جريمة اغتيال لورد موين وزير الدولة فى الشرق الأوسط فى ٦ نوفمبر ١٩٤٤ ٠

ولورد موين من الشخصيات البريطانية التى كان لها بصماتها فى السياسة البريطانية وفى سياسة بريطانيا فى الشرق الأوسط بصفة خاصة : ولد لورد موين فى دبلين فى ايرلندا سنة ١٨٨٠ ·

ودخل مجلس العموم البريطانى وعمره سبعة وعشرون عاما عن دائرة سانت ادموندز ·

وعندما منح لقب لورد سنة ١٩٣١ انتقل الى مجلس اللوردات نائبا عن الدائرة نفسها ·

وكان فى الحرب العالمية الأولى من المقاتلين الممتازين وقد انعم عليه بوسام الشرق ·

وقد تبرع قبل عام من اغتياله (١٩٤٣) بجزء من قصره فى لندن ليكون ناديا لشباب ضباط سلاح الطيران البريطانى (نادى الاجنحة) ·

وكان قبل اغتياله بعامين ١٩٤٢ قد رأس بعثة بريطانية للشئون الاقتصادية والتموين طافت بدول الشرق الأوسط ·

وبالرغم من اننا كشباب كنا فى معركة ضد الاحتلال البريطانى لمصر الا أننا أسفنا للغاية لمصرع لورد موين فالرجل لم يرتكب اثما ولا جريرة ·

واذا كان قد نصح حكومته بتحديد هجرة اليهود الى فلسطين فقد كانت نصيحته تلك نابعة عن تقدير سليم لمصالح بريطانيا فى الشرق الاوسط ·

ورغم أن بريطانيا قد شاركت فى زرع جرثومة الصهيونية فى فلسطين وفى اعطاء وعد بلفور وكانت تقف فى كثير من الأحيان ضد مصالح العرب ومع السياسة الصهيونية الا أن اقتراح لورد موين قد أراح العرب الى حد كبير وجعلهم يقدمون على مساندة بريطانيا فى حربها ضد دول المحور ثم اننا كنا نرى فى أى صهيونى عدوا لنا أشد مما نرى فى البريطانيين وان سياسة الاستيطان الصهيونية اقسى من الاحتلال الأجنبى بكل صوره ·

أسفنا حقا لمصرع لورد موين وسعدنا جدا أيضا بالقبض على قاتليه الياهو حكيم والياهو بتسورى ولو أن هذين المجرمين لو لم يقبض عليهما لاتهم المصريون بعملية الاغتيال تلك ولتعرضت مصر لعدوان بريطانى جديد·

ولكن بطولة محمد عبد الله (الكونستابل) وشجاعته وجرأته مكنته من القبض على هذين الصهيونيين ·

وتقع الجريمة فى ٦ نوفمبر ١٩٤٤ ولم تكن وزارة أحمد ماهر قد مكثت فى الحكم أكثر من ثمانية وعشرين يوما ٠

أصيب موين وهو جالس فى مقعده بالسيارة بثلاث طلقات نارية فى الصدر والعنق أطلقها عليه الياهو حكيم (٢٠ سنة) من مواليد بيروت ٠

وعندما حاول تويلر سائق سيارة لورد موين تعطيل تنفيذ الجريمة أطلق عليه الياهو بتسورى ثلاث طلقات فأرداه قتيلا ٠

توجه الملك فاروق الى المستشفى حيث يرقد جثمان اللورد موين. وكان قد استفسر عن صحته لحظة وقوع الحادث كما كان قد أوفد أحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكى للاستفسار عن صحته قبل أن يتوجه الى المستشفى لاعلان أسفه ٠

وكان اللورد موين قد توفى فى الساعة الثالثة والدقيقة الاربعين من مساء يوم ٦ نوفمبر ١٩٤٤ ٠

وقد نعته السفارة البريطانية فى القاهرة ببيان قالت فيه : الى جانب ثرائه الواسع كان ذا كفاية كبيرة كوزير ومستكشف وعسكرى كما أنه كان من علماء الآثار البارزين وقد عاد من رحلاته فى جزر بحر الجنوب وجنوب أمريكا ومعه آثار قيمة اهداها للمتحف البريطانى كما أهدى الى حديقة الحيوان بلندن كثيرا من الطيور والحيوانات النادرة ٠

وأصدر القائد العام فى الشرق الأوسط بيانا آخر قال فيه : ان الامبراطورية البريطانية قد فقدت فى اللورد موين الذى توفى بفعل القتلة اليهود شخصية كبيرة بل ان العالم قد فقد واحدا من الحكماء الأفذاذ الذين تملؤهم انبل الدوافع نحو الخير العام وقليل من الرجال من نستطيع أن نقول أنهم لا يعرفونه ٠

ومع هذا أستطيع أن أقول بملء الثقة أن اللورد موين بما فيه من روح العدل المقترنة بروح المرح التى كانت تجرى فى دمه جاءت وليدة التجارب الواسعة ومن وزن للأمور بميزان عادل : كل هذه الصفات مجتمعة قد جعلت منه شخصية لا تعوض ٠

ومن بين ما قاله تشرشل وهو ينعيه فى مجلس العموم البريطانى : إننا سنقابل بصعوبات جسيمة فى ملء الفراغ الذى تركه لورد موين وانى أؤكد للمجلس أن يهود فلسطين قد خسروا بفقده صديقا عالما بقضيتهم ٠

وكان مما قاله أرثر جرينولد نائب حزب العمال البريطانى : هذا المجلس الذى يضم قلوبا كريمة لا يعرف للخلافات السياسة أثرا فى

العلاقات الشخصية فاذا مات رجل وهو فى خدمه بلاده فانه يكرمه دائما مهما يكن لونه الحزبى ٠

ومما يجدر بنا أن نذكر أن الدكتور وايزمان رئيس الوكالة اليهودية بفلسطين بعث الى المستر تشرشل ببرقيه يقول فيها : اننى لا أستطيع أن أجد الالفاظ التى تكفى للاعراب عن الاستهجان والهلع اللذين أشعر بهما نحو مصرع اللورد موين واعلم أن اليهود فى جميع انحاء العالم يشاطروننى نفس الشعور وسواء كان المجرمون من يهود فلسطين أم من غيرهم فان فعلتهم تكشف عمق الهوة التى تؤدى اليها أعمال الارهابيين وأن الجرائم السياسية التى هى من هذا الضرب لهى من الخطر بحيث تحتمل أخذ الجمعيات بجريمة أفراد قلائل ٠

وأستطيع أن أؤكد لكم ـ وايزمان لتشرشل ـ أن يهود فلسطين كما صرحت الهيئات التى تجمعهم ستبذل أقصى ما يسعها من جهد لانتزاع جذور الشر وفروعه من بينهم ٠

وكان من بين ما جاء فى بيان الوكالة اليهودية فى القدس : ان هذه الجريمة النكراء والتى وقعت خارج حدود بلادنا فى ظروف لم تعرف عن تجدد الخطر العظيم الناجم عن عصابة الارهاب القائمة حتى الآن فى فلسطين ٠

ومن شأن الارهاب أن يسىء الى نضالنا السياسى ويدمر أمننا القومى ٠

وأنا لندعو المجتمع اليهودى فى فلسطين الى نبذ العصبة المدمرة وحرمان أفرادها من كل مأوى وتحدى تهديداتهم وتقديم كل مساعدة ممكنة الى السلطات لوقف أعمال الارهاب وسحق عصابة المنظمة ٠

ان كياننا بأجمعه يتوقف على هذا العمل ٠

بقى أن نعرف ان هذا العمل قامت به عصابة شتيرن بزعامة اسحاق سامير : تولى التحقيق فى القضية النائب العام وأصدر مكتبه فى ١١/١١ بيانا أكد فيه على ان قاتلى لورد موين يهوديان من فلسطين ينتميان الى جماعة تطلق على نفسها المحاربين عن حرية اسرائيل (اشتيرن) وقد حضرا الى مصر خصيصا لارتكاب جريمتهما وانهما أقدما على القتل بناء على قرار من هذه الجماعة ٠

كانت الجلسة الأولى للمحاكمة بتاريخ ١٠ يناير ١٩٤٥ ٠٠

وكانت محكمة الجنايات العليا العسكرية التى نظرت القضية برئاسة محمود منصور بك وجلس فى كرسى النيابة عبد الرحمن الطوير باشا النائب العام بمساعدة الأستاذين محمد نجيب محمد أحمد رئيس النيابة العسكرية وأحمد موافي وكيل النيابة وحضر من هيئة الدفاع عن المتهمين توفيق دوس باشا وعبد الفتاح السيد بك (عن المتهم الأول) وحسن حسنى ، وحسن الجداوى عن المتهم الثانى .

وقال المتهمان أنهما يفضلان التحدث باللغة العبرية .

ودفع المحامون عن المتهمين بعدم الاختصاص وتولت النيابة الرد على هذا الدفاع وقد رفضت المحكمة الدفاع .

وقد اعترض المتهم على المترجم من اللغة العبرية الى اللغة العربية ورفعت الجلسة .

وجيء بالأستاذ صموئيل عطية مدرس اللغة العبرية بالمدرسة الاسرائيلية للقيام بالترجمة وقد طالب المتهم الأول بأن تكون المحاكمة دولية .

واستمعت المحكمة الى شهود ستة دورتى أوزموند سكرتير اللورد موين وياور اللورد « كابتن هيوزاوسلو وطاهى اللورد فهمى سليمان وحسن صالح سائق سيارة علم بالحادث فأبلغه الى نقطة الجزيرة ثم أخذ يبحث عن الجناة فلم يوفق .

واستمعت الى الملازم الثانى (بعد ترقيته) الأمين عبد الله الذى طارد المتهمين حتى قبض عليهما .

وكذلك استمعت المحكمة الى يوسف الخادم أفندى الذى شاهد عبد الله الذى يطارد المتهمين فوق كوبرى أبو العلاء ثم السيدة رالين يوسانيلا التى جاءها المتهم الثانى ليبلغها سلام ابنتها التى تقيم فى فلسطين وكيف ترك عندها حزمة وطلب اليها أن تسلمها لصديق له سوف يأتى بعد ١٥ يوما .

وعندما سئلت الشاهدة كيف وثقت بانه قادم من فلسطين أجابت ضاحكة لأنه قال شالوم ومعناها بالعبرى السلام عليكم .

وفى هذه الجلسة الثانية اعترف المتهمان بأسباب الجريمة .

ولم تسمح المحكمة بنشر القسم الخاص بالبواعث السياسية والقومية التى دفعت المتهمين الى ارتكاب الجريمة .

واستمعت المحكمة فى الجلسة التالية الى بقية شهود النفى ·

وكانت المحكمة برئاسة محمود منصور بك وعضوية أحمد زكى البهنيهى وعبد الحميد رشدى بك والقائمقام مصطفى حسن بك والبكباشى جلال صبرى ·

وقد ترافع النائب العام عبد الرحمن الطوير باشا فى الجلسة الثانية واستهل مرافعته بقوله أنه يعرض على مسامع المحكمة « وقائع جريمة ارتكبها قوم خلت قلوبهم من الرحمة كما خلت رؤوسهم من التفكير السليم فهذه قضية فئة ظالمة حكمت بالاعدام على شيخ مهيب جليل القدر لم يقترف وزرا وقد قتلوا فى سبيل تنفيذ حكمهم نفسا بريئة أخرى بغير ذنب ·

وقد مضى على هذه القاعة حين طويل من الدهر وهى تشهد كثيرا من القضايا سياسية وغير سياسية حوكم فيها الكثيرون ممن اتهموا باقتراف الجنايات المختلفة الا أنها من يوم نشأتها لم تشهد وتسأل الله آلا تشهد قضية كقضية اليوم اهتزت لها أنظار كثيرة وكان وقعها على النفوس أليما استقطعها كل من سمع بها ونزلت على المصريين نزول الصاعقة وكاد شعورهم ازاءها ينطوى على ألم من صدمتين صدمة قتل الوزير البريطانى وسائق سيارته وصدمة ما قد يترتب على هذه الجريمة من أثر سيىء فى حالة بلادنا السياسية أما الصدمة الاولى فلازال اثرها يحز فى نفوسنا نحن المصريين الى الآن ومازلنا نترحم على القتيلين وهما من أبناء بلد حليف نرعى له الصداقة والود ·

أما عن الثانية فنحمد الله أن سلطاتنا الشرعية قد وضعت يدها على المجرمين ونبت بلا ريب انهما من الأجانب ولا صلة لهما بمصر ولا بأحد من المصريين ·

وروى النائب العام كيف دخل المتهم الأول الحدود بملابس عسكرية كانت لزميل له اسمه صمويل بروتشتين وأشار الى شهاد الاسرائيليين ايلن بوسكيلا وابنتهما سوزان واتصال المتهم الثانى بهما ·

وختم النائب العام عبد الرحمن الطوير باشا مرافعته بقوله : ان هذه القضية قاسية تدعوكم الى استعمال منتهى القسوة فلا تجعلوا للرحمة الى قلوبكم سبيلا ·

واذا كان المتهمان لم يرحما المجنى عليهما فلا حق لهما فى طلب الرحمة ·

واذا طلبت رأسيهما فليس لشخصيتى المجنى عليهما أو لحكم القانون وحسب ولكن لاستئصال الجرثومة الخبيثة التى قد وصلت الى بلادكم فاقترفت مثل هذه الجريمة ·

وقد أشار عبد الفتاح السيد المحامي الى ظروف القضية وما أسماه باضطهاد اليهود في أنحاء العالم وما عانوا من تعذيب ومضايقات في ألمانيا أولا ثم في البلاد التي احتلتها ألمانيا بعد ذلك ٠

وأشار المحامي عن المتهم الأول الى حوادث مماثلة وقعت في سويسرا أو برلين أو باريس وكان القتلة مدفوعين بعوامل الاضطهاد التي لحقت بني اسرائيل وقضي ببراءتهم ٠

وقال أن المتهم الأول الذي يدافع عنه لا يتجاوز الثامنة عشر من عمره وأظن أن لهذه النقطة اعتبارها عند الحكم فامره موكول الى عدالة القضاء المصري ٠

وان انظار العالم أجمع لتشخص الى حكم المحكمة ولا شك أنه سيكون عادلا ٠

وقدم الى المحكمة شهادتي ميلادهما ٠

وفي مرافعة توفيق دوس باشا أشار الى ما جاء على لساني المتهمين من أن المسألة الصهيونية ليست من أغراضهما ولا هي من هدفهما وهما بلا شك صادقان ٠

وأشار توفيق دوس باشا الى أن القانون نص على الاعدام في جريمة القتل الا في حالتي الدفاع عن العرض أو النفس أو المال ومع ذلك فهناك حالات أخرى يجب النظر اليها بعين العدل والرحمة ٠

ولا يجب أن يؤخذ المتهمون فيها بنصوص القانون فالقانون ليس نصوصا وحروفا وحسب وانما هو روح قبل أن يكون نصوصا وحروفا اذكر على سبيل المثال قضيتين حكم في احداهما سعد زغلول باشا وكان الجاني متهما بقتل ابنته لأنها حملت سفاحا والأخرى قضية المرحوم علي فهمي كامل الذي قتلته زوجته مرجريت وقضي في انجلترا ببراءتها مع أنها لم تكن في حالة يعذرها عليها القانون ٠

ولم يشر توفيق دوس باشا الى حكم سعد باشا في قضية الرجل الذي اتهم بقتل ابنته هل برأه أم خفف الحكم عنه ٠

وقد جاء في مرافعة الأستاذ حسن الجداوي أن الرجل الذي ينتمي الى شعب مضطهد لا يفكر تفكيرا سليما بل يخضع الى ما يسمى مركب النقص ٠

وقد وصف الأستاذ الجداوي الرحمة بأنها أكثر عدلا من العدالة

فهى ظل الله فى أرضه والعدالة لا ترى الا الخطأ أما الرحمـــة فتطل من عليائها وتلقى ظلها على مرتكب الجريمة .

وأشار الأستاذ حسن الجداوى الى قصيدة لفيكتور هوجو عن مقتل هابيل بيد قابيل وكيف أن آدم بكى ابنه القتيل وحواء بكت ابنهـــا القاتل .

وحاول الأستاذ حسن حسنى التأكيد على أن الجريمة سياسية وأشار الى أن المتهم سأله : هل يتدخل الانجليز فى الحكم ؟ فرد عليه بأن القضاء المصرى نزيه وكان فى مصر منذ ثلاثين عاما قضـــاة من انجلترا ولـكن جنسيتهم لم تمنعهم من تطبيق القانون .

والجدير بالذكر أن توفيق دوس باشا أولم مأدبة عشاء دعا اليها رجال النيابة وهيئة الدفاع ومراسلى الصحف المصرية والأجنبية .

وقد علق النائب العام على بعض ما ذكره محامو المتهمين من أن المتهمين طفلان فقال انهما طفلان يلعبان بلعبة اسمها أتوماتيك ولعبة أخرى قدمتها ألين بوسكبلا وهى ديناميت فهل كان قتل اللورد موين وسائقه عبث أطفال ؟ .

وعلق عبد الرحمن الطوير باشا النائب العام على ما ذكره الدفاع من أن الباعث على الجريمة سياسى فقال : اننا لو أبحنا القتل لمجرد عقيدة تجول فى ذهن الناس فلتقل على الأمن السلام فليس من المعقول أن كل مفتون آثم تجول فى رأسه فكرة أو عقيدة يخضع لها الناس والقانون .

وقد القى الأستاذ عبد الفتاح السيد بك ضمن مرافعته الثانيـــة كلمة مستر جولد المحامى بالإستئناف المختلط ألقاها باللغة العربية وقد جاء فيها أن النيابة كأنها أرادت أن تنتقم من المتهمين لأسرة القتيل وشعبه وأنه يرى كرجل انجليزى يفهم عقلية الانجليز وشعورهم وبما له مـن خبرة طويلة ويعرف طبيعة الإنجليز وطبيعة النفس البشرية كمحام وكقاض سابق يرى بل يوقن أن أسرة الفقيد قد تتألم ويتأثر شعورها اذا عرفت أن المحكمة راعتهم فى حكم ثم رجا مستر جولد الا تنظر المحكمة الى هـذا الاعتبار .

ووجهت المحكمة فى النهاية الشكر لحضرات المحامين وقد احسنوا أداء واجبهم موكلين ومنتدبين وقد لبوا ما طلب منهم بارتياح واغتباط وقد أفسحت المحكمة لهم صدرها ليؤدوا أقدس واجب عليهم وهو الدفاع عن المتهمين وأحب أن أذكر ـ رئيس المحكمة ـ أن دوس باشا كان عليه أن

يتخلى عن مأموريته عندما ظهر المحامون الموكلون ولكن لم يفعل بل عكف على دراسة القضية وحضر جلسات المحاكمة كلها ولا أنسى أن أوجه شكر المحكمة أيضا لحضرات مندوبى الصحف الذين تجشموا المصاعب في الحضور وكانوا عند حسن ظن المحكمة فلم ينشروا الا ما وقع تحت سمعهم أو بصرهم ٠

***

وفى جلسة ١٩٤٥/١/١٨ نطق رئيس المحكمة بالحكم : بعد الاطلاع على المادة ٤٩ من قانون تشكيل محاكم الجنايات قررت المحكمة احالة أوراق القضية الى فضيلة المفتى لأخذ رأيه فيها ٠

وحددت للنطق بالحكم يوم الاثنين ٢٢ يناير (وقد خارت قوى المتهمين ولم يستطيعا الوقف فجلسا بين حراسهما ٠

وللعلم فان رأى المفتى استشارى محض لا يقيد المحكمة ٠

واحالة القضية اليه اجراء شكلى صرف وليس فى القانون ما يوجب على المحكمة أن تتبين رأى المفتى فى حكمها ان كان صحيحا أو غير صحيح ٠

وربما كان استفتاء المفتى قبل النطق باحكام الاعدام يعود الى ما قبل عهد محمد على باشا حيث كان يتولى القضاء فى مصر قاضى مصر المعين من قبل السلطان فيقوم بأعبائها بنفسه وبوساطة القضاة الشرعيين نائبين عنه وقد اعترف السلطان بحق والى مصر عباس باشا الاول فى القصاص دون استئذان السلطان !

ورغم أن رأى المفتى استشارى محض الا أن المادة ٤٩ الخاصة باحالة الأوراق على المفتى فى حالة الحكم بالاعدام هى من الاجراءات الالزامية الا أن المحكمة ليست مرتبطة برأيه ٠

وفى صباح يوم ٤٥/١/٢٢ قضت المحكمة باعدام كل من الياهو حكيم والياهو بتسورى ٠

وبعد شهرين كاملين – أى فى ٢٢ مارس ١٩٤٥ – نفذ حكم الاعدام شنقا فى الياهو حكيم والياهو بتسورى قاتلى لورد موين وزير الدولة البريطانى فى الشرق الأوسط وسائق سيارته ٠

وقد طلب المتهمان صباح يوم تنفيذ الاعدام الشاى والافطار : طلب بتسورى كوب شاى باللبن فقدمت اليه والى زميله مع طعام الافطار وكان مؤلفا من الخبز والجبن والبيض والحلوى ٠

تناولا طعامهما الساعة السادسة صباحا ولما بلغت الساعة السابعة صباحا وصل الى سجن الاستئناف السيد نسيم أوصياء وكيل الحاخام الأكبر ورئيس محكمة الأحوال الشخصية الاسرائيلية وقد دعى لمقابلة المحكوم عليهما قبل اعدامهما للقيام ببعض المراسيم الدينية ٠

وفى الساعة الثامنة الا خمس دقائق رفع العلم الأسود على باب سجن الاستئناف ٠

ووقف الجلاد ومساعده أمام غرفة الاعدام وجيء بالياهو حكيم وهو مكبل بالاغلال يحيط به أربعة جنود وعلى أثر ذلك تقدم الجلاد ومساعده ففكا الاغلال ٠

وأخذ مأمور السجن يتلو عليه ملخص الجريمة ونص الحكم الصادر ضده ٠

ثم دعى الحاضرون : اللواء محفوظ ندا باشا وكيل مصلحة السجون الأميرالاى ابراهيم حسنى بك مفتش السجون والبكباشى حسن محمد شلبى مأمور السجن والدكاترة محمد « باشا بك » ومصطفى الشعراوى وكمال قاسم وهم هيئة تنفيذ الحكم ٠

وكان قد وصل الى السجن أيضا اللواء جبر باشا وكيل حكمدار الاسكندرية والقائمقام أنور عامر بك مساعد حكمدار فرقة أ نائبا عنه وعدد من الصحفيين ومراسلى الصحف الأجنبية ووكالات الأنباء ومحافظ القاهرة والبكباشى أحمد عبد الرحمن والبكباشى عبد الله طلعت دعى كل هؤلاء الى غرفة الاعدام حيث نفذ الحكم ٠

★★★

وفى الساعة الثامنة والنصف دعى الحاخام الى مقابلة المحكوم عليه الثانى الياهو بتسورى لتلاوة المراسيم الدينية وجيء به الى هيئة التنفيذ وأخذ مأمور السجن فى تلاوة الحكم عليه وسيق الى غرفة الاعدام حيث نفذ الحكم ٠

وبعد اتخاذ الاجراءات المعتادة خرجت عربة نقل الموتى وبها تابوتان وسارت الى مقابر الاسرائيليين بالبساتين حيث دفنا بغير احتفال طبقا للنظام المقرر ٠

وكان دفنهما فى مقبرتين أعدتا لذلك وكان ونستون تشرشل ـ رئيس الوزارة البريطانية قلقا بسبب تأخير تنفيذ الحكم فى قاتلى لورد موين ٠

وقد بعث ــ عن طريق لورد كيلرن ــ السفير البريطاني فى مصر ــ بتهديد الى الحكومة المصرية اذا لم يتم تنفيذ الأحكام التى صــــدرت ضد قاتلى لورد موين وقد حذر تشرشل بأن عدم تنفيذ الحكم فيهما سوف يؤدى الى أزمة خطيرة بين مصر وبريطانيا ٠

ويشير تشرشل الى احتمال وقوع تدخل ، أو ضغط صهيونى لعرقلة سير العدالة ٠

ويطلب من سفير بلاده أن يستخدم منتهى الحرص واللباقة فى أى عمل قد يقدم عليه نحــــو الحكومة المصرية ويرد كيلرن على رســـالة تشرشل بأن السفارة لن تسكت اذا لم يعتمد رئيس الوزارة المصرى الحكم الصادر من المحكمة أو اذا تعطل تنفيذ الحكم وقد أوضحت ذلك لرئيس الوزراء المصرى أحمد ماهر باشا فى آخر لقاء بيننا وبحثنا فيه قضـــية اغتيال اللورد موين وحتى الآن فان الاجراءات مازالت سليمة وليس هناك ما يوحى بأن رئيس الوزارة المصرية لن يعتمد الأحكام وأنا اعرف أنــه واقع تحت ضغط أمريكا ولكن برقيتك الأخيرة سوف تساعدنى فى أن أوضح لرئيس الوزارة المصرية مدى خطورة أى خضوع من جانبه لهـــذا الضغط ٠

وكان أحمد ماهر باشا واقعا بالفعل تحت تأثير ضغوط أمريكيـــة وصهيونية من جميع أنحاء العالم مما جعله يرفض أن يقرأ أية برقية من أكوام البرقيات التى انهالت عليه من اليهود ٠

وكانت ألوف البرقيات تتوالى على القصر الملكى وعلى رئاسة الوزارة من شتى أرجاء العالم مطالبة بالعفو عن قاتلى لورد موين أو تخفيف الحكم عليهما والطريف ــ لو كان الأمر المأساوى يمكن أن يكون فيه طرافة ــ ان لورد كيلرن بعد أن تحدث الى أحمد ماهر بوضوح فى أمر تنفيذ الحكم فى قاتلى اللورد موين وضرورة الاسراع به قال ان أية محاولة لتخفيف الحكم أو وقف تنفيذه سيكون لها أثر أشبه بالكارثة وان رد الفعل الذى جاء من لندن مرده ما قيل ان تنفيذ الحكم لن يتم قبل مضى فترة تتراوح بين ثلاثة وخمسة أسابيع ٠

وبعد كل الانذارات التى وجههـــا لورد كيلرن الى رئيس الوزارة المصرى قال ــ فى نهـــاية الحديث : أرجو ألا تظن أبدا أننى أتدخل فى سير العدالة وانما أريد فقط أن اطمئن الحكومة البريطانية الى أن الأحكام سوف تنفذ فعلا ٠

وكان القرار الذى اتخذه د. أحمد ماهر بتنفيذ الحكم فى قاتلى لورد موين من أخطر ما اتخذ من قرارات .

وبعد ذلك الاستطراد الطويل نعود الى الحديث عن الانتخابات المصرية التى لم يشترك فيها حزب الوفد المصرى وانما اشتركت فيها أحزاب الأحرار الدستوريين ، الهيئة السعدية ، الكتلة ، الحزب الوطنى وفى المعركة الانتخابية خرجت الأهرام عن حيادها التقليدى ففتحت صدرها لفكرى أباظة أحد المرشحين ليوجه بعض منشوراته الى ناخبيه .

وكان فكرى أباظة قد رشح نفسه فى دائرة منيا القمح وكان منافسه فيها الشيخ محمد هاشم فايد .

ومن بين تلك المنشورات المرحة قول فكرى أباظة : رأيت الموت بعينى رأسى ٧ مرات : وكنت فى كل مرة أنطق الشهادتين وأقول :

نجح الشيخ محمد .

نجح لا بالتزكية وانما بالوفاة وهو لا ينجح باذن الخالق الوهاب الا اذا مت أنا فى اثناء الانتخاب .

بفضله سبحانه وتعالى نجوت ٦ مرات : المرة الأولى حين قفزت من شباك السيارة قبل أن تتدهور فى الترعة .

والثانية حين داهمنى قطار الدلتا بجوار شلشمون .

والثالثة حين دلفت العربة فى بحر موسى تغطى بوزها ولم أغطس حضرته .

والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة فى الليل حين لعبت السيارة : حاورينى يا طيطة ثم احترقت وأنا فى الداخل فالقيت بنفسى فى الماء طلبا للبقاء مرشحا بسبعة أرواح ولكن عمر الشقى بقى .

***

ومن تلك المنشورات أيضا وكان تحت عنوان « الصندوق » وقد جاء فيه من منيا القمح باكر باكر صباحا الصندوق وأنا واثق كل الثقة بعدما رأيت وبعدما سمعت وبعدما أحسست أن الصناديق كلها ستمتلىء باسمى وأن الله سبحانه وتعالى سينصرنى نصرا مبينا : أقول نصرا مبينا وقد آمنت بأن علامات النصر المبين قد أخذت تتجلى فى الأفق وأخذت تبشر بحكمها الحاسم الأخير أودعكم والى اللقاء عند تبادل التهانى باذن الله : فكرى أباظة .

وكان آخر منشور بعنوان « ربى » وقد وقعه فكرى أباظة نائب منيا القمح وقد جاء فيه شئت ان تجزينى أكثر من جزاء فى أسبوع واحد فظفرت بعطف المليك وظفرت بعطف الزملاء الصحفيين وظفرت بعطف الشعب ثم يقول : الآن علمت فقط أن نزاهة اليد واللسان والقلب ثروة أية ثروة والآن علمت أن المبدأ الثابت الذى لا يتغير يجدى باغداق وان طال الزمن ولو صدقت هذه العواطف الوافدة الى من جميع انحاء القطر نقودا لأصبحت من ارباب الملايين ويشكر فكرى اباظة منيا القمح فهى جواز المرور الى مقعد النيابة ٠

ويوجه كلمة الى منافسه محمد هاشم فايد : بعد صراع دورتين ازددت اعجابا بأدبك وكرم خلقك ولئن خسرت المعركة فقد كسبت صديقا وحليفا ٠

وكل رجائى أن أربحك أو أن أضمك الى صدرى وأن أقبلك ٠

ومن ألطف ما قرأت فى تلك المعركة قصيدة نشرها الشاعر عمر مصطفى منصور صهرجت الكبرى (بالاهرام) تحت عنوان مرشح وقد جاء فيها :

ناديت أهل النهى والنيل والضاد
ضاع النداء وضاع الصوت فى الوادى

رشحت نفسى لعل الجمع منتخب
يا ضيعتى أهملوا فنى وانشادى

لكنهم اخلفوا ظنى وما سمعوا
يوم النداء لألحانى واعوادى

تأديت والقلب منى واجف جزع
أخشى خلافا يقوى شوكة العاذى

أهل البيان لأنتم دولة ملكت
لب الحياة بوحى الملهم الشادى

مصر تناديكم : هيا لنجدتها
أنتم خلاصة أبناء وأحفاد

وقد ظهرت بواكير نتائج الانتخابات مساء ٨/١/٤٥ وكان من أولى الدوائر التى ظهرت نتائجها فى القاهرة : قسم الدرب الأحمر : دولة أحمد ماهر باشا بالترشيح (تزكية) (سعدى) ٠

نقطة بوليس العزب مصطفى أمين بالترشيح (مستقل) ٠

قسم مصر الجديدة طه السباعي بك (١٩٨٩ صوتا) انتخب (كتلة)
قسم الجمرك : محمود فهمي النقراشي باشا ٣٩١٦ صوتا انتخب (سعدى) أحمد بكرى ٦٣ صوتا أحمد محمد زيتون أفندى ٣٦ صوتا ٠

مديرية البحيرة : كفر داود : عبد العزيز الصوفانى ٧١١٠ صوتا انتخب (وطنى) الجارحى حمزة أفندى ٣٦٩٨.

المنيا : دمشير نور الدين طراف ٧٠٧٤ انتخب (وطنى) على الشريعى ٣٠٠٨ صوتا عبد الحميد عقيلة أفندى ١٧١ ٠

بنى مزار : محمد محمود جلال ١٠٠٦٨ صوتا انتخب (وطنى) محمد محمد زكى عبد الرازق ٢٦٥٤ صوتا ، محمد صادق أمام أفندى ١٥ صوتا ٠

وأسفرت الانتخابات عن حصول الحزب السعدى على ١٢٥ مقعدا فى المجلس وحصول الدستوريين على ٧٤ مقعدا والكتليين على ٢٩ كرسيا ولم يحصل الحزب الوطنى الا على سبعة مقاعد بينما حصل المستقلون على ٢٩ مقعدا ٠

وأعاد أحمد ماهر تشكيل الوزارة من جديد بعد أن استقالت طبقا للتقاليد الدستورية ٠

★★★

وفى اليوم التالى لظهور نتائج الانتخابات قدم الوزير الوفدى السابق عبد الحميد عبد الحق استقالته من الوفد فى كتاب نشرته الأهرام مؤكدا فى ذلك الخطاب أن الحرية والعدالة والاستقلال لا تصان بالقوانين ولا تحمى بالدساتير انما يحميها شيء واحد هو استقرارها فى ضمير الأمة لقد أصاب التحزب الحياة النيابية وحسن سير الحكم والأمن والعدالة والاخلاق ٠

وقد أدى التحزب الى اعطاء القوس لغير باريها والى اسناد مناصب الدولة ووظائفها لغير مستحقيها وجاء فى كراسى النيابة بعض ممن لا يصونها ولا يحميها كما أدى ذلك التحزب الى التفريط فى الضمانات التى أحاط الدستور بها حرية الرأى حتى صار منبر الأمة أقل المنابر حرية وأشدها خطرا على من يمثلها ولقد أبعد التحزب الأمة عن أهدافها وشغلها عن قضيتها بقضايا صغرى ٠

وقد أكد عبد الحميد فى خطابه الى النحاس باشا أنه يستقيل ليتفرغ لنشر رسالة توحيد الصفوف وضم القوى وتمكين المحبة والألفة بين جميع المصريين حتى يقفوا صفا واحدا لاستخلاص حريتهم واستقلالهم .

وملئت المقاعد الخالية فى مجلس الشيوخ وكان من بين من عينوا فى ذلك المجلس محمد شريف صبرى باشا و د. عبد الرازق السنهورى ومحمد بهى الدين بركات وعباس محمود العقاد .

وقد أعلن الأستاذ توفيق دياب انضمامه الى الهيئة السعدية .

وكان الملك فاروق فى ٢٥/١/١٩٤٥ قد قام بزيارة شخصية للمملكة العربية السعودية والتقى بالملك عبد العزيز آل سعود فى المخيم الملكى فى ينبع .

ووصف عبد الرحمن عزام الوزير المفوض للشئون العربية بوزارة الخارجية هذه الزيارة بأنها شخصية وغير سياسية الا أنها - الزيارة - كانت أعظم من أية زيارة رسمية سياسية أو رسمية يقصد بها حل مشكلة معينة وقد دعمت الزيارة ما تم من اتفاقات وفتحت الطريق أمام اتفاقات جديدة وحلت أمورا مكنت صداقة وخلقت محبة حقيقية وجعلت اتحاد العرب أمرا ملموسا .

وقد التقى ابتداء من ٢٠ فبراير ١٩٤٥ ، روزفلت وتشرشل بالملك فاروق والملك عبد العزيز آل سعود وشكرى القوتلى رئيس جمهورية سورية ونجاشى الحبشة .

وكان اللقاء فى طراد أمريكى كان راسيا فى مياه البحيرات المرة وكانت لقاءات أخرى فى الاسكندرية وبعضها كان فى الفيوم وقد وصفت تلك اللقاءات بأنها كانت على درجة كبيرة من الأهمية .

وبعد تلك اللقاءات مباشرة بذل د. أحمد ماهر رئيس مجلس الوزراء جهودا شاقة لاعداد مصر لاعلان الحرب على المانيا وهى الفكرة التى كانت قد راودته وراودت الهيئة السعدية معه منذ بدأ الهجوم الالمانى الايطالى على الصحراء الغربية والتى استقال بعض وزراء تلك الهيئة من وزارة حسن صبرى باشا . دعا أحمد ماهر الهيئة السياسية للتباحث فيما نحن مقدمون عليه من قرارات خطيرة عن مستقبل البلاد وقد لبى دعوته شريف صبرى ، اسماعيل صدقى ، عبد الفتاح يحيى ، حسين سرى ، د. حسين هيكل ، حامد جوده ، النقراشى ، مكرم عبيد ، ابراهيم عبد الهادى ،

بهى الدين بركات ، محمد على علوبة ، حافظ عفيفى ، أحمد لطفى السيد ، عبد الحميد بدوى ، على الشمسى ، ومحمود حسن ٠

وقد اعتذر عن عدم حضور ذلك الاجتماع الذى امتد الى أكثر من اربع ساعات حافظ رمضان باشا رئيس الحزب الوطنى ، ووزير العدل وأحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكى وقد خرج د٠ أحمد ماهر من الاجتماع لمقابلة السفير البريطانى ٠

وراحت الصحف المصرية تمهد الجو لذلك الحدث الهام والخطير الذى دعى من أجله مجلس النواب فى الساعة الخامسة والنصف بعد ظهر يوم السبت ٢٤ فبراير ١٩٤٥ كما دعى مجلس الشيوخ للانعقاد فى نفس اليوم بعد ساعة ونصف الساعة من اجتماع مجلس النواب ٠

وكان قد نشر فى القاهرة ملخص لمقال كتبه المحرر السياسى لجريدة الديلى هيرالد البريطانية ذكر فيه احتمال دخول مصر الحرب ضد ألمانيا واحتمال أن تحذو بعض الدول العربية ــ المملكة العربية السعودية والسورية ــ حذو مصر ٠٠

وفى الديلى هيرالد أيضا كتب ــ يوار مشيدا بما أظهرته مصر من الثبات والعزم بقيامها بجميع الالتزامات التى ترتبها عليها المعاهدة المصرية البريطانية ٠

كما أشار يوار أيضا الى ان أحمد ماهر كان يناصر باستمرار ومنذ فترة فكرة اعلان مصر ، الحرب على المانيا ٠

★★★

وأذكر للأمانة التاريخية أيضا أن أحمد ماهر دعا الى بيته بعض زعماء الطلبة ممن يمثلون بعض الاحزاب ويمثلون الطلبة المستقلين كما دعا زعماء مصر وعرض عليهم ــ كما عرض على زعماء الطلبة ضرورة اعلان مصر الحرب على ألمانيا ٠

وقد طلب أحمد ماهر من الجميع زعماء البلاد وزعماء الطلبة أن يحتفظوا بسرية الموضوع والمناقشات الى أن يتم عرض الأمر على مجلسى النواب والشيوخ يوم السبت ٢٤ فبراير ١٩٤٥ ٠

وقد التزم الجميع بالسرية فلم يعد أحد لا من زعماء مصر ولا من زعماء الطلبة باذاعة أى شىء مما دار بينهم وبين دولة أحمد ماهر باشا ٠

وقد حرص د. أحمد ماهر على أن يطلع المعارضة على ما تنوى حكومته اتخاذه من اجراءات فاستقبل محمد صبرى أبو علم باشا زعيم المعارضة فى مجلس الشيوخ وعرض عليه القضية برمتها .

وقد خرج صبرى أبو علم باشا من مقابلة د. أحمد ماهر فورا الى منزل النحاس باشا رئيس الوفد حيث عقد معا اجتماعا مطولا دعا النحاس باشا على أثره الوفد المصرى الى الاجتماع .

وكنا نحن فى الحزب الوطنى جناحين .. جناح حافظ رمضان باشا وجناح عبد الرحمن الرافعى بك ولكننا كنا جميعا ضد اعلان مصر الحرب على المانيا لاعتبارات كثيرة من بينها اننا لن نطمئن الى وعود الحلفاء وخاصة بريطانيا والولايات المتحدة كما اننا كنا نخشى أن يؤدى اعلان الحرب على ألمانيا الى أن تهاجمنا ألمانيا بطائراتها من الجو ثم أننا لم نكن نجد مبررا أبدا لخروجنا على السياسة التى التزمنا بها منذ بداية الحرب وهى سياسة تجنب مصر ويلات الحرب .

وأسباب أخرى كثيرة سوف نشير اليها فيما بعد عندما نتحدث بالتفصيل عن الموقف من الحرب وهل الحرب التى سندخلها هجومية أم دفاعية وهل سيشترك الجيش المصرى فى الحرب التى كانت مطروحة فى الشارع السياسى وقتئذ .

وكان د. أحمد ماهر رئيس مجلس الوزارة قد تحدث فى جلسة مجلس النواب بتاريخ ١٩٤٥/٢/٢٠ عن الوحدة العربية فقال ان الخطوات الماضية كانت تمهيدية فقد وضعت الوزارة الماضية مع رؤساء الحكومات العربية بروتوكولا تمهيديا ولم تبدأ بعد اجتماعات وزراء الخارجية .

ولكن حدثت فى خلال ذلك حوادث بين فرنسا من جهة سوريا ولبنان من جهة أخرى .

وقد تتبعت الحكومة هذه الحوادث واتاحت لنا فرصه زيارة فخامة رئيس الجمهورية السورية أن نتكلم مع رجال الحكومة السورية فيما تتخذه حيال هذه الحوادث .

فالحكومة المصرية تؤيد سوريا ولبنان فى موقفهما كما تؤيد مطالبيهما بتصفية ما بقى من مسائل تمس استقلالهما وهى ترجو من فرنسا أن تعمل ما فى وسعها وأن تنفذ ما التزمت به وأن يتم ذلك كله فى جو من الصفاء بينها وبين سوريا ولبنان فلا شك فى أن موقف فرنسا له صداه فى مصر وفى الشعب المصرى .

وأعتقد أن فرنسا تقدر ذلك كل التقدير وأنها عاملة على القيام بكل ما يصون استقلال سورية ولبنان وهو استقلال سام وأظن ان هذا يكفى فى هذا الموضوع الدقيق الذى لا يزال موضع مباحثات .

وقد صفق النواب لهذا التصريح بشدة .

وكان رئيس مجلس الوزراء قد اتفق مع مجلس نقابة الصحفيين ان يتولى رؤساء التحرير مسئولية الرقابة على الصحف بأنفسهم وقد ذكر د. أحمد ماهر فى تلك الجلسة أن ما قمنا به كان تجربة لالغاء الرقابة على الصحف ولكن بعض الصحف لا تمضى على جادة الصواب ولذلك أعلن أننا سنأخذ بالعقوبة كل من يخالف ما اتفقنا عليه فى اجتماعنا بوزارة الداخلية وأرجو من البدراوى باشا أن يتسامح فيما نشرته عنه كذبا جريدة البلاغ وأن يكون أرحب صدرا .

وأقرر أن التجربة ستستمر ولكن الحكومة لن تتسامح بعد ذلك فيما اتفقت عليه مع رؤساء التحرير .

وهنا قال الأستاذ فكرى أباظة أنه يشكر دولة رئيس الوزراء على النظام الجديد الذى اسفر عن نجاح يقرره باعتباره صحفيا وباعتباره نقيبا للصحفيين .

وأبدى أسفه لأنه لا يستطيع أن يتكلم عن شكوى البدراوى باشا لأن مستنداتها ليست تحت يده .

وقد أشار العضو فريد أبو شادى الى الشطط الذى لجأت اليه بعض الصحف واعترض فكرى أباظة على تلك العبارة كما أن رئيس مجلس الوزراء طلب من فريد أبو شادى الا يمس الصحافة وطلب فريد أبو شادى من رئيس الوزراء أن يقرأ ما نشرته عنه جريدة الوفد .

وقال أحمد ماهر أنا أقرأ جميع الصحف وقد قرأت ما وجهه الى من الطعن الجارح لكننى بالرغم من ذلك لم أشأ الرد عليها الخ .

وكان د. أحمد ماهر قد حضر فى صبيحة يوم السبت ٢٤ فبراير ١٩٤٥ مع الملك الاحتفال بالمولد النبوى ثم ترأس اجتماعا لمجلس الوزراء دام حتى منتصف الساعة الخامسة .

وقد حضر الاجتماع عبد الحميد بدوى باشا ومحمود حسن باشا رئيس أقسام قضايا الحكومة .

وكان د. أحمد ماهر قد طلب الغداء للوزراء فى مجلس الوزراء .

وفى منتصف الساعة الخامسة انصرف ولما أبصر مندوب الأهرام فى مجلس الوزراء داعبه بقوله : نحن اتعبنا الصحافة فى هذين اليومين ٠

وقصد على أثر ذلك الى داره حيث أبدل ثيابه الرسمية ثم قصد الى مجلس النواب ٠

اعتلى أحمد ماهر المنبر ٠

وظل يتحدث ساعة كاملة عن موضوع اعلان الحرب وكان النواب يسألونه ٠

ويحاول رئيس المجلس منعهم الى أن يجىء دورهم فى الكلام ٠

ولكن د٠ أحمد ماهر كان يصر على أن يجيب على الأسئلة والاستفسارات أولا بأول قائلا : هذه ليست مقاطعات ولكنها أسئلة المقصود منها الوصول الى الحقيقة فدعهم يسألون وأنا مستعد للاجابة عن كل سؤال ٠

وكان كما قالت الاهرام متئدا فى القاء كلماته متزنا فى اشاراته ولفتاته ٠

وكانت تبدو عليه مظاهر الصحة والنشاط فلما انتهى من القاء كلمته جلس فى مكانه بجوار معالى مكرم عبيد باشا ودوى التصفيق يملأ أذنيه ٠

ولم يكن فى استطاعته أن يقاوم اغتباطه بما قابله به المجلس فكانت ابتسامته واضحة وهى تنتقل كثيرا بين شفتيه ٠

وحاول أن يغادر قاعة الجلسة ولكن الأستاذ فكرى أباظة كان قد بدأ كلامه فاضطر دولته الى الانتظار ٠

وانتقل الى صفوف المعارضة فجلس بجوار دولة صدقى باشا لحظة قصيرة ٠

وكانت الساعة قد بلغت الثامنة ولم يكن الأستاذ فكرى أباظة قد أتم كلامه بعد ، فترك القاعة متجها الى مجلس الشيوخ ليتفق على الموعد الذى تعقد فيه جلسة الشيوخ ثم يعود ثانية الى جلسة النواب وقد سلك الطريق الموصل من المجلس وهو البهو الفرعونى وكان البهو خاليا الا من حرس البرلمان وبعض المصورين وأربعة من الشباب جلسوا الى احدى الموائد ٠

وعن الحادث الذى وقع قالت صحيفة المصرى : فى الساعة ٧٫٤٠ من مساء أمس (٢٤ فبراير) خرج المغفور له الفقيد الكريم دولة أحمد ماهر باشا من مجلس النواب حيث كانت المناقشات مستمرة فى طريقه الى مجلس الشيوخ لمقابلة سعادة الدكتور هيكل رئيس المجلس ٠

وسار معه بعض من حضرات النواب فيهم الدكتور حلمى الجيار والأستاذ ممدوح رياض والأستاذ سعد اللبان ٠

ولما اجتاز الفقيد البهو الفاصل بين ردهة مجلس النواب والبهو الفرعونى تقدم اليه اثنان من مصورى احدى المجلات الاسبوعية (المصور) هما عبده خليل أفندى وأحمد سليمان أفندى والتمسا من دولته التوقف قليلا لالتقاط صورة فوتوغرافية له ٠

وكان نحو أربعة أو خمسة أشخاص جالسين عند هذا المكان فى البهو فلما شاهدوا دولته أحاط بعض هؤلاء للتحدث معه وتقدم المجرم الدنىء نحوه فى مواجهته فلما صار على بعد عشرين سنتيمترا من الفقيد الكريم أطلق عليه أربع رصاصات سقط على أثرها على الأرض ثم استند على احدى يديه وأمسك الجانى باليد الأخرى ثم خانته قواه فسقط على أثرها ثانية على الأرض ٠

وانتزع الأستاذ سعد اللبان المسدس من يد المجرم وقبض عليه الأستاذ كامل الدماطى مدير مكتب وزير الداخلية ٠

واعتقل الاشخاص الآخرون وكان الصاغ اسماعيل أبو العزم من قوة حرس البرلمان سائرا خلفه فأصيب فى ساقه ٠

ونقل الفقيد الكريم بين الرجاء واليأس الى غرفة الاسعاف بمجلس الشيوخ حيث أسعفه أولا الدكتور حلمى الجيار وانضم اليه على عجل الدكاترة على ابراهيم باشا ومسيو دينيه ومورو وعبد الله الكاتب ومحمود مراد سامى والمنياوى باشا ٠

ولكن ارادة الله نفذت ففاضت روحه الطاهرة الى بارئها فى الساعة الثامنة الا خمس دقائق ٠

وكانت ابنة الفقيد قد وصلت الى المجلس وكانت تصيح بالحراس : افتحوا أريد أن أرى أبى ٠

ولما لم يفتح الحراس الباب توالى الطرق على زجاج الباب حتى ، تم كسره وتناثرت شظايا الزجاج ومن ورائه كان وجه صغيرة مبللة الدموع لم ير منه الا شفتان تصرخان : أبى ٠٠ أين أبى ؟

لقد جاءت لترى اباها وقد أحاط بهـــا بعض الوزراء والنـــواب وأخبروها أن والدها ذهب الى داره وأجهش الحاضرون بالبكاء ٠

وكان الملك قد توجه الى البرلمان لزيارة الفقيد فلما علم أنه نقـل الى داره أقصد الى دار أحمد ماهر في حدائق القبة وكان في معية الملك ياوره اللواء عبد الله النجومي باشا ٠

وكان جثمان الفقيد مغطى بملاءة بيضاء فرفع الملك الملاءة ورأى موضع الرصاصات ثم أحنى رأسه قائلا ــ لقد خسرت مصر رجلا عظيما ٠

وقال الملك لعلي ماهر باشا شقيق الفقيد : هذا ليس فقيدكم فقط أنه فقيد البلاد كلها ٠

وأنعم الملك على اسم د٠ أحمد ماهر بالوشاح الأكبر من نيشـــان محمد على تقديرا لما قام به من مجيد الأعمال ولما امتاز من رفـــع المزايا والشمائل ٠

وفي الصفحة الأولى من الأهرام التي نشر فيها نعي أحمد ماهر كانت كلمة لفكرى أباظة تحت عنوان « الصريع الحر الشجاع » وقد جاء فيها :

سقط أحمد ماهر فكان ضحية شجـاعته وشجـاعة الرأى التي امتاز بها في كـل ظروف هـذه الأزمـة النفسية وحريـة الرأى التي أطلق لها العنان فجرد نفســـه عن سلطان الحاكم العسكرى وجرد شـخصه عن الحرس وهو يواجه مرحلة من مراحل التاريخ المصرى ٠

أنه لرجل : أيه لشجاع ٠

ان ميتته الغالية النبيلة ميتة تاريخية تسجل في كتاب النهضــــة المصرية بطولة هي خير رثاء لزعيم كبير من خيرة الزعماء ٠

وكان استهلاله في حكمه استهلالا رائعا سمت فيه روحه القومية فجمع حوله الاصدقاء والخصوم السياسيين على السواء وفتح ذراعيـــه للمعارضة وللمعارضين فلم يوصد دونهم بابه ولم يحبس في صدورهم آراءهم بل استعان بهم حتى يومه الأخير : مات أحمد ماهر قبل أوانه وقبل أن يرسخ تقاليد الحكم القومية الوطنية الحرة الشجاعة ففقدنا بعده كل هذا : عوضنا الله فيه خير الجزاء وكتب لهذا الوطن السلامة وجعل من ميتته درسا وعظة ومدرسة عالية كريمة نبيلة للحاكمين والمحكومين ٠

وكان من بين ما كتبته جريدة المصرى المعارضة له ولسياسته تحت عنوان « شهيد الوطن » ٠

كان الفقيد العزيز شخصية وطنية عظيمة كان سجلا فى تاريخ النهضة الوطنية وصفحة ناصعة فى كتاب الاخلاق والسمو الانسانى والتربية الوطنية المنزهة عن الدنايا والاغراض ٠

درس الفقيد الاقتصاد والحقوق فكان من المبرزين فى مضمار العلم والمعرفة ثم كان أستاذا فى كلية التجارة فكان مثلا للمربى الكامل الحبيب الى نفوس طلبته وما أن بدت تباشير الحركة الوطنية حتى خاض غمارها وساهم فيها بقسط وافر لاعجاب زعيمنا الخالد الذكر سعد زغلول فكان من خلصائه المقربين واختاره سعد وزيرا للمعارف فى وزارته ٠

وللفقيد العزيز وقفات ووقفات فى تاريخ النهضة المصرية ينحنى امامها كل وطنى فى هذه البلاد فطالما شرد وسجن فى سبيل مصر بل أنه قدم الى المحاكمة والاعدام فلم يرعه شبح الموت والاستشهاد فى سبيل الوطن وقابل التضحية الفادحة بالهتاف لمصر

ومن ثم استأنف الفقيد العظيم جهاده تحت لواء الوفد فكان من رجاله البارزين الى أن أختلف مع الوفد فألف حزبه ٠

وهنا يبدو خلقه الرفيع كسياسى عفيف اللسان كريما نزيها مثلا عاليا للحزبية الرفيعة النبيلة ٠

ولم تقل صحيفة « الوفد » فى أحمد ماهر سدى السطور التالية فى نعيه : تلقى الوفد المصرى ببالغ الحزن وعظيم الأسف نبأ الاعتداء الذى وقع على المغفور له حضرة صاحب الدولة الدكتور أحمد ماهر باشا وهو يستنكر هذا الاعتداء ويقدم للهيئة السعدية ولآل الفقيد العزاء لفقده تغمده الله بواسع رحمته ورضوانه وأسكنه فسيح جناته » ٠

وأصدر عبد العزيز الصوفانى بيان عزاء باسم اللجنة الادارية للحزب الوطنى ووصف الحادث بأنه اصاب قلب مصر قبل ان يصيب قلب أحمد ماهر ٠

وأصدر عبد الرحمن الرافعى بيانا اخر باسم الحزب الوطنى أعلن فيه حزنه الشديد لفقد زعيم عظيم عرف طول حياته بالشجاعة والصراحة وقوة العزيمة وتقديره لحرية الرأى واحترامها وأصدرت أم كلثوم بوصفها رئيس نقابة الموسيقين بيانا نعت فيه الرجل الشجاع أحمد ماهر بقلوب دامية ودموع لا ينضب معينها أسفا وحزنا ٠

أما البيان الذى كان قد القاه د٠ أحمد ماهر فى الجلسة السرية لمجلس النواب قبل الاغتيال وكان فى نيته أن يلقيه فى مجلس الشيوخ

لولا أن امتدت الى صدره رصاصات محمود العيسوى فقد جاء فيه : يوم الأحد الماضى (١٨ فبراير) استقبلت فى رئاسة مجلس الوزراء جناب المستر أنتونى ايدن وزير خارجية انجلترا وقد أبلغنى جناب المستر ايدن أن مؤتمر القريم قرر عقد مؤتمر دولى فى مدينة سان فرانسيسكو يوم ٢٥ أبريل المقبل كما قرر ألا تشترك فى هذا المؤتمر الا الدول التى تكون قد أعلنت الحرب على المحور قبل أول مارس القادم وزاد جنابه (مستر ايدن) بأن اعلان الحرب يتيح لتلك الدول فوق اشتراكها فى هذا المؤتمر أن تكون من الأعضاء المؤسسين للهيئة الدولية المزمع تكوينها بعد الحرب لكى تخلف عصبة الأمم القائمة الآن ٠

سمعت من المستر أيدن هذا البيان ولم أشأ أن أطلب ايضاحا أو استفسارا خشية أن يحمل ذلك على محمل قد يحد من حرية الحكومة فى بحثها ومناقشتها للموضوع » ٠

ويشير أحمد ماهر الى لقاء رئيس الديوان الملكى ثم الملك الذى كان قد قابل مستر روزفلت ومستر تشرشل وعندما تحدثنا معه فى الأمر أشار جلالته عليهما (على روزفلت وتشرشل) بأن يجرى الاتصال فى هذا الشأن برئيس الحكومة المصرية كما أشار د٠ ماهر الى لقاءاته بالهيئة السياسية و ٠٠و ٠٠

وكان رأى الاغلبية الكبرى التى تكاد تكون اجماعا على ضرورة دخول مصر الحرب واشار د٠ أحمد ماهر الى ما قرره مجلس الوزراء من ضرورة عرض الأمر على المجلس ــ مجلس النواب ــ الى جانب عرض الثقة٠

وأشار د٠ أحمد ماهر الى مباحثات سابقة أجرتها وزارة النحاس باشا مع الحكومة البريطانية حول اشتراك مصر فى مؤتمر الصلح وكيف أنه لا خلاف بين وجهة نظره فى موضوع الحرب والمعارضة ٠

وقد رد د٠ أحمد ماهر على ما أثاره البعض حول مبلغ ما تتحمله مصر من مسئوليات نتيجة لدخولها هذه الحرب فقالت أرى فى هذا السؤال جرحا لشعورنا وايلاما لشجاعتنا وانقاصا من قدر استعدادنا للتضحية لكى نحقق ما تطلبه لبلادنا من استقلال وحرية وسلام ٠

وقال د٠ أحمد ماهر : كثير من الدول أعلنت الحرب ولم تعمل شيئا من الناحية الحربية الا مساعدات قد تكون قليلة اذا ما قيست بما قدمته مصر للحليفة فى هذه الحرب ٠

وقال د٠ أحمد ماهر انه ذكر للسفير البريطانى أن هناك شائعات

تقول أنه سيطلب من مصر ارسال نصف مليون عامل للاشـــتراك فى التجهيزات والاعداد وأن السفير قال له : هذا غير مقبول ان مصر ساعدت فى هذه الحرب مساعدة قيمة ٠

وقد ذكر المستر أيدن ذلك بل أنها اشتركت فى الحرب فعلا وان كانت لم تعلن الحرب ٠

وقد حصل هذا بموافقتنا ورضانا ومصر التى فرضت حيادها أكثر من مرة بشكل ملموس محسوس طلبت منا ان نعاونها فى الوصول الى مؤتمر الصلح فلما صدر قرار مؤتمر القرم رؤى ان نبلغه لها لأن فى ذلك ما يحقق لها ما ترغب به من الوصول الى مؤتمر الصلح ٠

وهذا كل ما فى الأمر ولكم أن تقرروا ما تشاءون » ٠

ويختتم د٠ أحمد ماهر بيانه بقوله اننا لانجنى شيئا من بقائنا على انفراد وفى عزلة عن سائر الدول بل الخير كل الخير فى التعاون الدولى والاشتراك فى المؤتمرات الدولية : هذه فى السياسة الايجابية المفيدة لمصر والمحققة لأمانينا القومية ٠

أما سياسة العزلة والانفراد فسياسة سلبية عقيمة لا خير فيها لمصر على الاطلاق ان لم يكن فيها الضرر كل الضرر لآمالنا ومطامحنا فى الحياة الرفيعة الكريمة ٠

أنى واثق كل الوثوق من قراركم فى هذا الموضوع وآمل أن يكون اجماعيا أو شبه اجماعى ٠٠

ورأيى الخاص ، أنه لو نشر هذا البيان ، أو لو أذيع جزء منه أو حتى على الأقل لو جرى التمهيد له فى صحف الصـــباح وتم نشر مضمونه أو بعض مضمونه لما جرت جريمة ، اغتيال د٠ أحمد ماهر ٠

الفصل الثانى

من مقتل بطرس غالى باشا الى مقتل أحمد ماهر باشا ومن ابراهيم ناصف الوردانى الى محمود عيسوى عوض الله

كان شعب مصر جميعه ، فى بداية اعلان الحرب العالمية الثانية ـ فيما عدا أفراد قلائل ربطوا أنفسهم ، أو ربطوا مصالحهم ببريطانيا ـ ضد فكرة الدخول فى الحرب الى جانب بريطانيا العظمى ذلك أن بريطانيا العظمى تلك ، منذ أن احتلت مصر فى ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ وهى تعطى وعودا زاد عددها على السبعين وعدا بضرورة جلائها عن مصر ٠

وفى الحرب العالمية الأولى ، ولكى تضمن وقوف مصر الى جانبها ولكى تستنزف أموالها ، وخيراتها ، ولكى تجند أكثر من مليون من أبنائها ، ضاعفت من وعودها لمصر بضرورة جلائها عنها عند انتهاء الحرب العالمية الأولى ٠

وبطبيعة الحال ٠٠ طبيعة الحال الاستعمارى لم تنفذ بريطانيا وعدا واحدا من تلك الوعود ٠

بل على العكس ـ رغم ما قدمته مصر لبريطانيا فى الحرب العالمية الأولى ـ شددت بريطانيا قبضتها الحديدية على البلاد ٠

وراحت تقف دائما ضد تحقيق أحلامها وأمانيها ٠

حتى كادت قواتها البحرية والبحرية تحتل ميناء الاسكندرية حتى

لا يمر أحد القوانين فى مجلس النواب المصرى ، رأى نواب الشعب أن اصدار هذا القانون ضرورى لكى تستقيم بعض الأمور فى مصر .

ولم تكن فكرة الدفاع عن الديمقراطيات ضد النازية ، مطروحة وقتئذ لأننا رأينا أن مصالحنا فى تجنيب بلادنا ويلات الحرب وقد فعل ذلك ، بل أكثر من ذلك كثيرون حتى انه لم نفكر فى الدخول فى الحرب الى جانب بريطانيا وفرنسا والحلفاء .

الاتحاد السوفييتى نفسه ، عقد معاهدة صداقة وعدم اعتداء مع ألمانيا ، وتركها تستولى على جارتها بولندا فى أسبوعين تقريبا .

وقد رحب شعب مصر ، بسياسة تجنيب مصر ويلات الحرب التى أعلنتها الوزارة القائمة وقتذاك - فى مصر - برئاسة على ماهر باشا .

وحقق على ماهر باشا باعلانه تلك السياسة لنفسه ، شعبية كبيرة عند الشعب وعند الجيش ، وخاصة شباب ضباط الجيش .

كانت سياسة تجنيب مصر ويلات الحرب نابعة من ارادة شعبية قوية جارفة ، فليس من المعقول أبدا أن أقف الى جانب من احتلنى واستغلنى وظل يماطل فى الجلاء عن أرض بلادى أكثر من ثمانية وخمسين عاما ، وأقف معه فى الحرب ، ضد من ؟ ضد ألمانيا التى لم تكن قد أساءت الى بلدى ، والتى لم تكن تكف عن اعلان تأييدها لاستقلال مصر .

وعندما رأت الهيئة السعدية برئاسة أحمد ماهر باشا ومحمود فهمى النقراشى باشا - وكانا قد خرجا من الوفد ، أو أخرجا منه - ضرورة دخول مصر الحرب ضد ايطاليا ، بعد أن توغلت قواتها فى منطقة الصحراء ، وتقدمت فى سبتمبر واحتلت السلوم ، ثم بقيق ،، وبعدها سيدى برانى فى ١٦ سبتمبر ١٩٤٠ لكى تدفع مصر هذا العدوان بجيشها وتحارب ايطاليا ، اذ لا يليق بمصر أن تترك هذه المهمة الى القوات البريطانية .. كنت - رغم كل شىء - من المؤيدين لهذا الاتجاه رغم مخالفتى لكثير من آراء السعديين ، بل أذكر أننى اختلفت فى هذا الأمر مع كثير من اخوتى أبناء الحزب الوطنى اختلافا كبيرا كاد يؤدى الى القطيعة . وكانت وجهة نظرى أنه ما دامت ايطاليا قد دخلت أرضا مصرية فقد وجب محاربتها ، ومهما ادعت بأنها لا تحارب الا الجيش البريطانى ، فهذا القول مردود عليه بأن الجيش البريطانى فى أرض مصرية ، ولتلك الأرض كرامتها .

وأنه ما دام هذا الجيش لم يقم بعدوان على الأراضى الايطالية فليس من حق ايطاليا أن تتبعه الى داخل الحدود المصرية .

صحيح أن هناك فى الحرب ما يعرف بنظرية تتبع قوات العدو ، الا أننى ـ وكنت وقتذاك فى بداية الشباب ـ كنت أرى أن تحترم ايطاليا حياد مصر ٠

وربما كنت وحدى من شباب الحزب الوطنى الذى رأى هذا الرأى ٠٠ لندخل الحرب ، ولننهزم ، انما ان نترك أمر الدفاع عن أرضنا لعدونا فذلك ما لم أكن مقتنعا به ٠

وعلى أية حال ، فهى وجهة نظر مصـيبة كانت أم مخطئة ، آمنت بها وكنت أدافع عنها باستمرار ٠

عرضت الهيئة السعدية وجهة نظرها بلسان وزرائها فى مجلس الوزراء ،وعارض وجهة النظر تلك حسن صبرى باشا ، رئيس مجلس الوزراء وبقية الوزراء ٠ وأعجبنى ـ كشاب من شباب الحزب الوطنى ـ موقف الوزراء السعديين ، فعندما لم يقف مجلس الوزراء الى جانبهم فى وجهة نظرهم ، استقالوا ، واستقالوا استقالة مسببة ، وذلك من الأمور السياسية الهامة التى كنا نفتقدها ٠

وكانت استقالة هـؤلاء الوزراء الأربعـة محمود فهمى النقراشى ، ومحمود غالب ، وابراهيم عبد الهـادى ، وعلى أيوب فى ١٩٤٠/٩/٢١ مسببة على النحو الذى جاء فى خطابهم لرئيس مجلس الوزراء :

« اجتمـع مجلس الوزراء لتحديد موقف مصر ازاء هجوم الجيش الايطالى على أراضيها وتوغله فيها ومحاولة تثبيت أقدامه بها بما لا يدع مجالا للشك فى تصميمه على غزوها خلافا لما أعلنه السنيور موسولينى من أنه لا يضمر اعتداء عليها ٠

ورغما عما حرصت عليه مصر من تجنب أى تحرش أو استفزاز من جانبها ، فكان رأينا أنه لا محل للتردد فى المـبادرة لتقرير الدفاع عن البلاد والتقدم بهذا القرار الى البرلمان تنفيذا للخطة التى حددتها الحكومة من قبل بشأن الحرب أمام المجلسين فأقراها عليها ، تلك الخطـة الصريحة فى وجوب الدفاع عن البلاد اذا توغل العدو فيها ٠

ولسنا بغافلين عما تتعرض له مصرنا الحبيبة من ويـلات الحـرب ولكن خير لمصر وأكرم لعزتها ، وأصون لاستقلالها ، أن تتحمل هذه الويلات من أن تحمل عار الجبن والاستكانة والاعتماد على غيرها فى الدفاع عن نفسها ٠

وبما أن أغلبية مجلس الوزراء لم تشاطرنا هذا الرأى ، فلا يسعنا

أن نتضامن معها فى تحمل مسئولية ما ذهبت اليه من أن الحالة لم تصل بعد الى ما يقتضى اتخاذ موقف ايجابى وعرضه على البرلمان ٠

لذلك نتشرف بتقديم استقالتنا ، راجين التفضل بقبول وافر شكرنا على ما لقيناه من دولتكم ومن حضرات أصحاب المعالى الزملاء من حسن التعاون وكريم الزمالة وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ٠

محمود فهمى النقراشى　　　محمود غالب

ابراهيم عبد الهادى　　　على أيوب

ويغضب ويثور حسن صبرى باشا ويبعث الى الوزراء الأربعة بالخطاب التالى :

حضرة ٠٠٠٠٠

شئتم أن تسجلوا فى كتاب استقالتكم الذى وقعتموه مع زملائكم الثلاثة أمورا رأيتها الى الاغراق والتطير ، أدنى منها الى القصد والانصاف ٠

وانه ليؤسفنى أن أرانى مضطرا ان أسجل من ناحيتى فى الرد عليكم الحقيقة سافرة ، وضعا للأمور فى نصابها ٠

لقد عرضتم على مجلس الوزراء انتم وزملاؤكم اقتراحا خطيرا يرمى الى الزج بالبلاد وفورا فى أتون الحرب ومعمانها من غير مصلحة ظاهرة قاهرة فرفض المجلس بالاجماع اقتراحكم وظللتم وحدكم مقدميه ومؤيديه ، ورأى اخوانكم أن التريث أحجى وأخلق حين البت فى مصائر البلاد وأقدارها حتى تتكشف خفايا النيات وتتأكد بوادر الغايات ، فما كانت مصالح الأمم لتعالج بالخفة والتطير من كل حادث ، أو كل طارىء ، وانما تساس وتعالج بالروية والتدبر وتقدير العواقب ، اذ أن سلامة الوطن يجب أن تظل وحدها غاية الغايات ، واذا كان ذلك واجبا فى الأوقات العادية فهو فى هذه الأوقات العصيبة ألزم وأوجب ، وانى اذ أبلغكم قبول استقالتكم أقدر لكم خالص الشكر على ما سلف من عظيم جهودكم وصادق معونتكم ٠٠٠٠ الخ ٠

رئيس مجلس الوزراء
حسن صبرى

وللأمانة التاريخية ، وحتى لا يكون عرض القضية ــ قضية الدخول فى الحرب ــ مبتورا أقول : ان فى مقدمة الحجج التى كان يقدمها معارضو الدخول فى الحرب أنه بمجرد دخول مصر الحرب فان الطيران الألمانى

سوف يدك المدن المصرية وسوف تتعرض البلاد لكل ما تتعرض له أوروبا ـ وقتذاك ـ من تخريب أو تدمير ..

وكان الشعب قد استقبل دعوة السعديين الى دخول الحرب الى جانب بريطانيا بمزيد من الضيق والحنق ، لأنه كان فى الغالب متعاطفا مع المانيا ، كارها لبريطانيا .

وقد قيل أن محمود العيسوى كان قد فكر فى ارتكاب جريمة ضد د. أحمد ماهر باشا رئيس الهيئة السعدية وقتذاك .

ولكنى أستطيع أن أزعم بأن هذا القول غير سليم لاعتبارات هامة مؤداها : أن الفكرة ـ فكرة دخول الحرب ـ التى رفع لواءها السعديون لم تستمر سوى أيام ، وكانت الصحف لا تشير اليها بمعنى أن الجدل لم يقم حول هذه الفكرة .

وكانت جلسة مجلس الوزراء التى نوقش فيها الأمر سرية ، ولم يعرف ما دار فيها الا بعد نشر الخطابات المتبادلة بين الوزراء المستقيلين وبين رئيس مجلس الوزراء .

كما أن محمود العيسوى لم يكن وقتذاك مؤهلا لارتكاب أية جريمة سياسية .

فقد كان ـ وقتذاك ـ عاكفا على وضع اللبنات الأولى فى حياته العملية بعد أن تخرج من كلية الحقوق .

وأكثر من ذلك فقد نفى لى محمود العيسوى ان تكون تلك الفكرة قد راودته وقتذاك ، لأن كل الدلائل كانت تؤكد أن الفكرة لن تنفذ وأن الانجليز ـ وقتذاك أيضا ـ لم يكونوا متحمسين لتلك الفكرة لأن الشعب ـ من جهته ـ معارض لها ولأنهم ـ فى بريطانيا ـ كانوا يخشون أن تكثف المانيا وايطاليا حملاتها الجوية ضد مصر بعد دخولها الحرب كما أن بعض البريطانيين من العسكريين ، كانوا يفضلون ـ من الناحية العسكرية ـ عدم دخول مصر الحرب وقتذاك للاستفادة ـ حربيا ـ من بقائها بعيدة الى حد كبير عن الحرب .

كل الأطراف اذن كانت غير متحمسة للحرب : الملك ، كاره كل الكره للفكرة من بدايتها .

حسن صبرى باشا وميوله انجليزية للغاية كما هو معروف ، هو أيضا معارض للفكرة الى أبعد حدود المعارضة .

الانجليز ـ أصحاب المصلحة الأولى والأخيرة فى دخول مصر الحرب ـ يرون ان الوقت غير مناسب لاشتراك مصر فى الحرب ، ما داموا هم يجندون كل شيء وكل انسان يمكن تجنيده فى مصر لصالح الحرب ٠٠ !! بل أكثر من ذلك كان سير مايلز لامبسون السفير البريطانى فى مصر ـ وأقوى رجل فى مصر ـ كان يرى أن أحمد ماهر ورجاله بفكرتهم تلك ـ فكرة دخول مصر الحرب ـ قد ورطوا بريطانيا بدون مناسبة ٠

وقد كان يود لو أن د٠ أحمد ماهر قد فاتحه فى أمر تلك الفكرة قبل أن يعرضها على مجلس الوزراء ، اذن لجنب نفسه خطورة الزج بحزبه فى هذا المعترك السياسى ، الذى لن يستفيد منه الحزب بأية حال من الأحوال ٠

لقد كان كل ما يهم بريطانيا فى تلك الفترة التخلص من الملك فاروق بأية طريقة من الطرق لأنهم ـ فى بريطانيا ـ كانوا يرون انه أخطر عليهم من أى شخص آخر خاصة وأنهم كانوا ـ فى بريطانيا ـ متأكدين ان الملك على صلة مباشرة بالألمان عن طريق ممثلى حكومة فيشى (فرنسا الخاضعة للاحتلال الألمانى فى مصر) وكان ايدن قد زار مصر فى تلك الفترة واجتمع بالزعماء المصريين واحدا بعد الآخر ، وقد ابلغوه جميعا ـ كما ذكر ايدن ـ أن الملك هو سبب كل المشاكل فى مصر ٠

وأن حسن صبرى باشا رئيس وزراء مصر قد قال لمستر انتونى ايدن ، رئيس وزراء مصر ـ وقد ذكر ايدن تلك الواقعة ـ سأدعو الملك الى رحلة بحرية وعليكم الباقى ٠

ويؤكد ايدن ـ أكثر من مرة ـ أنه فى أكتوبر ١٩٤٠ ، كان أول من فكر فى طرد الملك فاروق من مصر ٠٠ تلك كانت القضية التى كانت تشغل بال بريطانيا طرد الملك فاروق وليس دخول مصر الحرب الى جانب بريطانيا ٠

وعندما عادت ـ كما سبق أن ذكرنا ـ فكرة دخول مصر الحرب الى جانب الحلفاء فى أوائل فبراير ١٩٤٥ كانت الظروف وقتذاك مختلفة تماما عن الظروف التى طرحت فيها الفكرة لأول مرة فى سبتمبر ١٩٤٠ ٠

كانت الحرب قد اقتربت من النهاية ولصالح الحلفاء ٠

كانت ايطاليا قد اختفت تماما من المعركة ، والجيش الالمانى كان يدافع عن أرضه أوما تبقى من ارضه ٠

وكان الملك فاروق الذى كان معارضا لفكرة دخول الحرب سنة

١٩٤٠ قد أصبح مؤيدا لها فى ١٩٤٥ وذلك بعد أن تخلص من حكومة النحاس باشا .

وبعد ان لاح له أن الرهان على كسب ألمانيا الحرب هو رهان خاسر .

وكان أحمد ماهر باشا رئيس الهيئة السعدية وصاحب الفكرة فى عام ١٩٤٠ هو صاحبها أيضا فى عام ١٩٤٥.

ولكن الموقف بالنسبة له مختلف تماما فى عام ١٩٤٥ عنه فى عام ١٩٤٠ .

كانت الوزارة وأغلبية مجلس النواب فى عام ١٩٤٠ ضد الفكرة ، ولكنه فى عام١٩٤٥ كان يرأس الحكومة التى تؤيد ـ ومجلس النواب أيضا ـ الفكرة .

وأهم من ذلك كله أن الحكومة البريطانية بلسان رئيسها تشرشل ووزير خارجيتها انتونى ايدن ، كانت تلح ـ فى ١٩٤٥ ـ فى دخول الحرب ، خاصة وأنه عندما تعلن مصر الحرب على المحور فان دولا عربية كثيرة سوف تقتدى بمصر .

وكنا نحن فى الحزب الوطنى ، شيوخا ، وشبابا ، نعارض فكرة دخول الحرب ضد المانيا ، والى جانب من .. الى جانب بريطانيا : الموقف مثلا بالنسبة لى ـ مختلف عن فى عام ١٩٤٠ : لقد أيدت دخول الحرب فى عام ١٩٤٠ ضدايطاليا ، لأضد المانيا ، ودفاعا عن استقلال البلاد وحريتها لا مع بريطانيا ولا تنفيذا لرغبة بريطانية .

وفى فبراير ١٩٤٥ كنا نغلى بسبب اصرار أحمد ماهر على دخول الحرب ، فمن جهة لم تكن لنا أدنى ثقة ببريطانيا .

وكنا نؤمن بأن النظام الأممى الجديد ، لن يكون الا كما كانت عصبة الأمم ، منبرا للخطابة لا أكثر ولا أقل .

ثم ان هناك زاوية خاصة كنا مقتنعين بها الى أبعد حدود الاقتناع ، وهى أن المانيا لن تنهزم ، ولست أدرى لماذا كانت حكاية المخزن رقم ١٣ الذى كان يهدد هتلر به ، ذات تأثير بالغ فى نفوسنا وعقولنا نحن الشباب.

كانت الاذاعة الألمانية ـ وخاصة تلك التى كانت تذيع بالعربية وكان نجمها اللامع العراقى يونس بحرى ـ تركز على المخزن رقم ١٣ ، وخطورة المخزن رقم ١٣ .

كان مفهوما لدينا أنه عندما توشك ألمانيا على الهزيمة العسكرية

فأن هتلر سوف يفتح المخزن رقم ١٣ الذى سيقضى قضاء مبرما على جيوش اعدائه ٠

وكانت الاجتماعات مستمرة فى الأسبوع الثالث من فبراير ١٩٤٥ بين بعض من شبيبة الحزب الوطنى ٠

كنا نذهب الى مكتب عبد الرحمن بك الرافعى بشارع عدلى باشا فى المساء ، ونصطحب الاستاذ محمود العيسوى ، وكان يعمل بمكتب عبد الرحمن بك ٠

ولم يكن يهتم بقضايا المكتب أو قضاياه بصفة خاصة ٠

كانت السياسة شغله الشاغل ٠

وفى أكثر من مرة كان عبد الرحمن الرافعى بك يلومه على ذلك مؤكدا له أن العمل عبادة وهو سياسة أيضا ٠

وكلنا ـ عبد الرحمن الرافعى ـ نشتغل بالسياسة ولكن ليس على حساب مكاتبنا ٠

لقمة العيش مهمة ، بل أكثر من مهمة ، لأننا لن نعمل بالسياسة اذا لم نجد تلك اللقمة ٠

ثم نتجه من شارع عدلى الى ميدان عابدين حيث مكتب الأستاذ عبد المقصود متولى ونجلس الى الرجل ـ عبد المقصود متولى ـ ساعة أو أكثر من ساعة يتحفنا فيها بالدروس الوطنية التى كنا نتلقاها منه ٠

ثم يستأذن منا على اعتبار أننا أصحاب مكتب ، ويطلب من فراش المكتب ان يبقى معنا ليتولى هو اغلاق المكتب ٠

وتدور بيننا مناقشات حادة بعد أن يكون المكتب قد « صفصف » كما يقولون على اثنين أو ثلاثة ، ولم يكن فى تلك الفترة من حديث لنا الا حديث الحرب ، وما يمكن أن تجره الحرب على البلاد من أخطار ونكبات ٠

وفى بعض الأحيان كان يحضر تلك الاجتماعات د ٠ حسن نور الدين ، ومرة اصطحبنا الى بيته لنكمل الحوار العنيف ٠

وكان من رأى محمود العيسوى أنه لابد من الوقوف ضد تنفيذ فكرة دخول مصر الحرب بأية طريقة من الطرق ٠

وعندما كان بعضنا يطلب من العيسوى إن يذكر بعض الطرق التى

كان يرى أنها مانعة للحرب ، كان يلجأ الى الكلام العام ، دون ان يحدد ما يقصده ٠

وقد وضح لى من خلال مناقشات جانبية مع محمود العيسوى ، أنه مقدم على عمل ما ، ما هو هذا العمل ؟ لم أكن استطيع وربما لم يستطع أحد غيرى الوصول الى حقيقة ما كان يدور فى خلد محمود العيسوى وقتذاك ٠

وأذكر ٠٠ أنه كان طوال تلك الفترة ـ الأسبوع السابق على ٢٤ فبراير ١٩٤٥ ـ دائم الحديث عن ابراهيم ناصف الوردانى ٠

وكان يطلب من الدكتور حسن نور الدين أن يحدثنا عنه لنعرف ما لم نعرفه عنه : خصاله ، قراءاته ، مكونات شخصيته ، الى جانب الشخصيات التى كان لها تأثيرها الكبير عليه ٠

وقد كان ابراهيم ناصف الوردانى ، بصرف النظر عن ماهية الجناية التى ارتكبها ، والرأى فيها بصفة خاصة ، وفى الاغتيال بصفة عامة ، كان بالنسبة لنا نحن المجموعة اياها من شباب الحزب الوطنى الذين كنا نعمل تحت الأرض أكثر مما نعمل فوق الأرض ، كان له تأثيره البالغ ، وكنا نحبه الى حد كبير ، بل لعلى لا أبالغ اذا ما قلت : ان ابراهيم ناصف الوردانى فى فترة من الفترات كان ثانى كل واحد منا ، وكان ثالث كل اثنين كما كان رابع كل ثلاثة منا ، كما كان خامس وسادس كل أربعة وكل خمسة منا ٠

وقد كان مما يضاعف من حبنا للوردانى ، أنه ضحى بنفسه دون أن يعترف على أحد ٠

وكانت حكاية عدم الاعتراف على أحد تلك ، من الأمور التى حببت الينا ذلك الشاب الوطنى ٠

وكنا وقتئذ ـ فى ثورة الشباب ـ نرى أن اعتراف متهم على آخر انما هو جبن ما بعده من جبن ٠

فما دام الواحد منا قد اقدم على عمل ما فيجب أن يتحمل وحده جزاء ذلك العمل ، أما ان ينال من آخرين ـ حتى ولو كانوا شركاء له ـ فذلك أمر يشوه من صورة المعترف ، وقد كانت وجهة نظرنا تلك قائمة بالنسبة للقضايا السياسية كلها ٠

اهتز حبنا لعبد الفتاح عنايت ، وتضاعف تقديرنا لعبد الحميد عنايت لأن الأول اعترف ، والآخر لم يعترف على الآخرين ٠

لم نقدر تماما شفيق منصور رغم ماضيه الوطنى ، ورغم كونه من قدامى الفدائيين ، ومن رفاق الوردانى ، لأنه اعترف على آخرين من رفاقه .
وقدرنا موقف محمود اسماعيل وابراهيم موسى لأنهما ـ رغم ما بذل من جهود لدفعهما الى الاعتراف على الغير ـ لم يعترفا على أحد .

كانت وجهة نظرنا أن كل امرىء حر فى نفسه ، يعترف بما فعل ، هو حر ، يقول ان كذبا وان صدقا عن نفسه ما يقول .. أما أن يعترف على الآخرين ولو بالحق ، فهذا ليس من حقة على الاطلاق .

وكنا باستمرار نرى أن الوردانى لم ينل بعض حقه فان كون القتيل من الأخوة الأقباط ، جعل الوردانى يوضع فى زوايا النسيان ، أو على الاقل لا يجرى الحديث عنه من قريب أو من بعيد ، بينما لو نظر الى القضية نظرة سياسية بحتة لما وجدت تلك الحساسية .

وكان ابراهيم ناصف الوردانى يقول باستمرار لو كان رئيس الوزراء ـ أو ناظر النظار وقتئذ ـ مسلما ، لما تغير الموقف . فأنا لم أفعل ما فعلته عن تعصب فلست بالمتعصب وانما فعلت ما فعلته لأن القتيل قام بأعمال رأيت أنه يستحق من أجلها ضرب الرصاص .

وقد أعجبنا موقف أحد أبناء بطرس غالى عندما وقف فى ثورة ١٩١٩ موقفا وطنيا رائعا وعندما شارك مشاركة ايجابية فى الثورة ضد الانجليز وقال له أحد كبار قادة الانجليز فى مصر : كيف تضع يدك فى يد قتلة والدك ؟ وقال الرجل : أضع يدى فى يد من قتلوا أبى ولا أضعها فى يد من قتلوا وطنى .

وصارت مثلا .. !!

وابراهيم ناصف الوردانى كان مثلا أعلى لمحمود العيسوى .

وقد كان بينهما أكثر من وجه من وجوه الشبه ، فكلاهما كان نحيل الجسم ، دائم التفكير ، قليل الكلام ، محبا لوطنه الى أبعد الحدود ، ولكن بالطريقة التى كان يريانها وبالأسلوب الذى آمن به كل منهما .

وكل منهما ـ وبلا جدال ـ كان يعرف أن عمره قصير وأنه سوف يقدم روحه على مذبح اختاره هو بنفسه لنفسه .

وكما أن ابراهيم ناصف الوردانى ، لم يشأ أن يشرك أحدا معه فى جريمته « وحمل » الجريمة وحده دون أن يمس من قريب أو من بعيد أحدا غيره ، فكذلك فعل محمود العيسوى عوض الله ، كان يستطيع لو أراد أن يذهب الى المشنقة هو وآخر ، أو هو وآخرون ، ولكنه آثر أن يموت

وحده مضحيا بنفسه ، لأنه هو وحده الذى صوب رصاص مسدسه الى صدر أحمد ماهر باشا ، كما فعل تماما ابراهيم الوردانى قاتل بطرس غالى باشا ٠

ولقد ذاق الوردانى مرارة الظلم فى عنف أيام الاحتلال البريطانى ، وكان التعليم فى أيامه فى أيدى المستعمر الأجنبى ٠

وكانت اللغة العربية غريبة على منـاهج التعليم ، وكذلك كانت التربية الوطنية ، بل لقد كانت الصحف التى تشتم صباحا المصريين والخديو والحزب الوطنى ، كانت تختار لمطالعة تلاميذ المرحلة الثانوية كدروس فى اللغة العربية أو فى اللغة الانجليزية حسب ظروف المنهج الدراسى ٠

وقد أثرت الظروف العائلية الخـاصة بالوردانى مثل ، انفصـال والده عن والدته ، واضطراره الى أن يكون على مقربة من عمه ، ٠

وقد تنقل ابراهيم ناصف الوردانى فى كثير من المدارس فى أسيوط والقاهرة والاسكندرية ومنذ نعومة أظفار الوردانى وهو دائم الاهتمـام بالشئون السياسية ، وقد كانت ظروف دراسته فى لوزان (كلية لوزان) تمكنه من معرفة كثير من الشخصيات السياسية فى سويسرا٠

وكانت سويسرا وقتذاك ١٩٠٧ـ١٩٠٨ تجمع العديد من السياسيين المنفيين عن بلادهم ، وكان لبعض تلك الشخصيات أثرها فى بلورة تفكير الوردانى واتجاهه الى العمل الفدائى ٠

ثم انتقل الوردانى الى بريطانيا فى مارس ١٩٠٨ وبقى بها يدرس الكيمياء والتاريخ الطبيعى الى يناير ١٩٠٩ ولم يعد بشهادة عليا ، وهذا ما أحزنه كثيرا ، ولكنه فضل أن ينشىء صيدلية ويختار صيدليا للعمـل بها ، وقد نجح فى فتح الأجزخانة فى نوفمبر ١٩٠٨ ولكن الأجزخانة لم تحقق كثيرا من النجاح لانشغال الوردانى فى كثير من الأعمال السياسية ، كان يكتب فى اللواء ، كما كان يسافر الى الخارج لتوفير محلات للشباب فى بعض المعاهد العليا وخاصة العسكرية فى تركيا ٠

وكانت هناك مراسلات كثيرة من الزعيم محمد فريد ومن ابراهيم ناصف الوردانى ، ولكن هذه الرسائل لم تعرف طريقها الى المحكمة ولو أن ذلك قد حدث لزج باسم محمد فريد فى القضـية ، وكان قد فتش منزله ولم يتم سؤاله فيها٠

وكان الوردانى ولفيف من زملائه قد انشاؤا فيما بينهم جمعية للتضامن ٠

وقد عثر فى منزل أحد الأعضاء وقد قدم للمحاكمة أمام قاضى الاحالة ـ على خطاب يؤكد ان من بين مبادىء الجمعية الاشتغال بالسياسة وجعل مصر للمصريين ونيلها الدستور ، والتدريب على استعمال السلاح ، واستخدام القوة للحصول على ذلك الاستقلال ٠ غير أنه لحسن الحظ وجد خطاب آخر يؤكد أن الجمعية فى اجتماعها الثالث لم توافق على استخدام القوة لتحقيق أغراضها ، وأن فكرة استخدام القوة ، كانت فكرة لأحد الأعضاء لم يؤخذ بها ٠

وثبت أيضا من بعض الأوراق التى وجدت لدى بعض المتهمين فى القضية ـ عندما أحيلت الى قاضى الاحالة ـ ان الجمعية أوقفت نشاطها فى يونيو ١٩٠٩ قبل وقوع جريمة اغتيال بطرس باشا بحوالى سبعة أشهر ٠

وقد أصر الوردانى فى التحقيق وأمام قاضى الاحالة على أنه ارتكب الجناية وحده دون مساعدة من أحد بل دون أن يعرف بنيته على ارتكاب الجريمة أحد ، وأنه ارتكب ما ارتكبه لان بطرس غالى باشا وقع معاهدة١٨٩٩ التى جعلت حكم السودان مناصفة بين مصر وبريطانيا ، وكان الحكم قبل تلك المعاهدة ـ لمصر وحدها وقد أكد الوردانى أنه اغتال بطرس باشا لأنه رأس المحكمة المخصوصة التى حاكمت أبناء دنشواى وقضت بالاعدام على بعض من أولئك الأبناء ، ولأنه أعاد قانون المطبوعات الذى كان قدألغى ، وكان هذا القانون قد صدر فى أيام الثورة العرابية ، وكان اعادة اصدار هذا القانون قد قضى على الحرية النسبية التى كانت تتمتع بها الصحف المصرية قبل عملية تلك الاعادة فى مارس ١٩٠٩ ٠

وأكد الوردانى أيضا ، أنه صمم على ارتكاب الجريمة فى أثناء جلسة الجمعية العمومية التى نوقش فيها مشروع الحكومة من امتياز قناة السويس، وأنه اغتاظ جدا من قسوة ناظر النظار على نواب الأمة ٠

وقد أكد على الشمسى أفندى الذى كان جالسا بجوار الوردانى فى تلك الجلسة وشاهد انفعاله واضطرابه وتغيظه من المرحوم بطرس غالى باشا ٠

وقد قام الدفاع عن الوردانى فى محكمة الجنايات بأكبر جهد ممكن لانقاذ رأس المتهم من حبل المشنقة ولجأ الدفاع ، وهم أقطاب المحاماة فى مصر ـ ابراهيم الهلباوي ، أحمد لطفي ، محمود أبو النصر ـ الي كلي

الوسائل ، اعتمدوا على بعض الأطباء ومنهم الدكتور تورنوت ، الذى كان ضمن الكونسلتو الذى عمل فى مستشفى ملتون للنظر فى حالة بطرس باشا غالى ، وهل من المصلحة اجراء عملية له ، وكان من رأى د٠ تورنوت أنه لا لزوم للعملية خاصة وان نسبة الوفاة من اجراء متل هذه العملية فى مثل هـــذه الحـــالة قـــد بلغت فى ـ ألمانيـــا ـ ٤٠ و ٤٥٪ ، وفى أمريكا بلغت النسبة ٥٨ و٧٠٪ ، وكان الدفاع يستهدف من الاستعانة برأى الدكتور تورنوت اثبات أن المجنى عليه توفى بسبب العملية لا بسبب الرصاص الذى أطلق عليه ٠

ولو ثبت هذا لكان فى الامكان انقاذ رأس المتهم على أساس ان الرصاص الذى أطلقه لم يؤد الى الوفاة وانما الذى أدى اليها العمليــة الجراحية التى أجراها د٠ ملتون الانجليزى ٠

بل أكثر من ذلك ، كان الدفاع يحاول أن يحمل المستشفى الانجليزى المسئولية ـ مسئـولية اجـراء العمليـة ـ لأغـراض سياسية ٠٠ !! وقد قال د٠ ملتون : أنه بعد أن رأى أن العملية ضرورية عملها ولا يحق لأحد أن يناقشه فيما تحققه بنفسه دون سواه ٠

وقد قرر سعد بك الخادم ، أنه شاهد حالة بطرس غالى باشا بعد الاصابة ، وأنه كان يكلمه بعقل وأنه ـ بطرس باشا ـ قال له : عندى ألم فى البطن ، وأنه ربط الجرح وركب معه الى مستشفى ملتون وأنه أصر على أن يغير له ملابسه ، فكان نبضه جيـدا وتنفسه بطيئا ، وان الكونسلتو ـ بالأغلبية ـ قرر عدم لزوم العملية ، وان الكونسلتو رأى العودة الساعة السادسة للنظر مرة أخرى فى أمر العملية ، وأنه عندما عاد فى الساعة السادسة ـ الكلام لسعد بك الخادم ـ « وجدتهم شرعوا فى العملية » ٠

وقال سعد الخادم : ان العملية يمكن أن تسبب الموت لأن الأمعاء تركت مسافة طويلة خارجه ، كما أكد أن حالة بطرس باشا العامة كانت قبل العملية حسنة بعكس الحال بعد العملية ٠

وقد قال الدكتور محجوب ثابت ـ وكان أستاذا فى مدرسة الطب ـ أنه لم يكن من الضرورى اجراء العملية خاصة وان اصابات المرحوم بطرس غالى باشا لم تكن مميتة حتما ٠

وبقاء العملية ـ د٠ محجوب ثابت ـ أكثر من ساعة ونصف له تأثيره السيىء على المصاب بالنسبة لسنه ٠

وقرر د· محجوب ثابت أنه يعرف الوردانى وقد رآه فى جنيف مع عمه ، وذهبنا الى جامعة أدخلناه فيها طالبا وأوصانى عمه به ·

وكان يحضر الى عندما يرد اليه خطاب من عمه ، يعبر فيه عمه عن عدم رضاه عنه ·

وقال د· محجوب : انه كان يشكو ضيقا شديدا فى الصدر · وذكر د· محجوب ثابت أن الوردانى كان يعمل بالسياسة وهو الذى أسس جمعية مصر الفتاة ·

وقد شهد عيسى باشا حمدى كطبيب معـالج للوردانى بأنه فى ١٢ ديسمبر ١٩٠٩ كشف على الوردانى فوجد عنده نوبة عصبية رخوية حتى لا يكاد يتنفس ، وقد أصيب بمثلها منذ ٣ سنوات واستمرت معه ثلاثة أشهر ·

وذكر محمد بك كامل الكفراوى ، أن الوردانى ذكر له من سبع سنوات ، وقت ما كان الوردانى صغيرا أنه كان مريضا بالحمى التيفوسية وأنه من الممكن ـ د· الكفراوى ـ أن تسبب تلك الحمى فقده حاسة من حواسه ·

وشهد المسيو بيـو الافوكاتو أنه كان أستاذا لابراهيـم ناصف الوردانى فى مدرسة كليبر ١٩٠١ وكان تلميذا مجدا فى عمله ، مطيعا ، ولم أشك منه مرة واحدة ·

وكان لطيف المعشر مع اخوانه ، وحالته طبيعية مثل بقية اخوانه ·

وشهد مسيو أنتينو أن الوردانى عندما كان تلميذا عنده فى المدرسة الفرنساوية من أكتوبر ١٩٠١ الى يونيو ١٩٠٣ ـ كانت أخلاقه طيبة ، ولم يكن من الأذكياء ، وكانت بنيته نحيفة ·· !!

وشهد الشيخ طنطاوى جوهرى أن الوردانى كان معه نحو تسع سنين فى المدرسة الفرنساوية ، وكان ساكنا ، هادىء الحركات ، مؤدبا ، كثير السكوت ولم يحفظ دروسه العربية ·

كما شهد عثمان لبيب أن الوردانى كان تلميذا عنده فى مدرسـة رأس التين مدة ٣ أو ٥ سنين وكانت أخلاقه حسنة ، وسيرته حميدة ·

وكان الوردانى قد نشر اعلانا فى الصحف عن صيدلية قال أنه يوجد بها دواء لمنع الحمل ، وأن عثمان لبيب عبـده ـ وكان شاهد نفى فى

القضية ــ ذهب اليه للعتاب فى أمر نشر اعلان عن هذا الدواء ، فهو ــ كما قال عثمان لبيب عبده ــ مصرى ولا يجوز له أن يفعل ذلك ٠

وذكر عثمان لبيب عبده أنه لم يقرأ عن الاعلان عن ذلك الدواء « التركيب » مرة أخرى ٠٠ !!

وقد تولى عبد الخالق ثروت باشا النائب العام الرد على كل ما أثاره الدفاع من قضايا وفى مقدمتها اجراء العملية الجراحية ، والقول بأن المتهم مصاب بمرض عصبى وقال أننا نرى أن الصفقة التى حاول أن يربحها الدفاع من وراء شهود النفى هى بالعكس صفقة خاسرة ٠

وذكر ثروت باشا أن ابراهيم أفندى يزبك (الأجزجى) بدمنهور قال ان الوردانى اشتغل معه ، وكان هادئا عاديا فى أطواره ، ولم يلاحظ عليه شيئا من أحوال النفس غير العادية ٠

كذلك شهد الشيخ عبد العزيز جاويش بأنه كان يلاحظ على المتهم السكون والحياء ، ولم يره فى حالة غضب فى حياته ٠

وكذلك شهد الدكتور حافظ عفيفى أفندى وهو صديقه وزميله فى لجنة الارساليات ، وشفيق أفندى منصور ، وحسن أفندى محرم ، بأنهم لم يلاحظوا عليه تغيرا ما فى الأيام التى سبقت ارتكاب الجريمة ٠ وكذلك شهدت والدته وقالت : أنه فى صباح يوم الواقعة تناول طعام الفطور وخرج كعادته ٠

وقد ذكر الوردانى أنه فى يوم الجمعة ١٧ فبراير كان بأجزخانته واجتمع فيها زائرون كثيرون وفى ليلة السبت ذهب الى النادى لترتيب أوراق الارساليات (البعثات التى كان يبعث بها الحزب الوطنى الى أوروبا) لأنه كان مصمما على ارتكاب الجناية فى صباح السبت ٠

وفى صباح السبت خرج من بيته وذهب الى النظارة لارتكاب جنايته ، ولما ذهب اليها خانته قواه فعاد الى أجزخانته حيث كانت الساعة الواحدة وكسور بعد الظهر ٠ وفى عصر اليوم كان موجودا فى أجزخانته مع عدة أشخاص من بينهم حسن أفندى تيمور رئيس اللجنة الفرعية للحزب الوطنى فى العباسية ، وتكلموا معه فى استئجار محل لاعداد مكتبة لمجلة الهداية ٠

وخرج ليلة الحادثة هو وشريكه من الأجزخانة فتقابلا فى الطريق مع شفيق أفندى منصور ، وصادق أفندى سعد ، وقصدوا النادى ٠

وهناك تقابل بالدكتور حافظ عفيفي أفندي وكلمه في شأن صبي صغير كان رجاه أن يسعى في ادخاله ملجأ الأيتام .

ثم خرج من النادي ، وسار هو ومن كان معه الى أن وصلوا الى الفجالة ، وهناك افترقوا في منتصف الساعة الحادية عشرة ، وتوجه الى منزله .

وفي صباح يوم الحادثة خرج من منزله ، بعد أن أفطر كعادته ، وذهب مباشرة الى نظارة الخارجية ثم انتظر على قهوة أمام نظارة الحقانية تناول فيها شيئا من البسكويت ريثما تأتي ساعة انصراف الدواوين ولما دقت الساعة دخل النظارة ، فلما نزل بطرس باشا أمهله حتى يشرع في ركوب عربته خشية أن يصيب أحدا غيره . وعند ذلك أطلق مسدسه .

كان الورداني ــ عبد الخالق ثروت باشا ــ شديد الاحتياط ، هادئا ، رزينا قبل ارتكاب الجناية وفي وقت ارتكابها كان رابط الجأش ، لم يتزعزع .

ضبط وهو ساكن لا يميل الى فرار ولا يقاوم في ضبطه ، ولما سئل اعترف لأول وهلة ثم أخذ يبين أسباب ارتكاب الجريمة ، وتاريخ حياته ونشأته بيانا تفصيليا لا يصدر عن متهيج فاقد لميزان ارادته .

أما محمود أبو النصر فقد قال : ان المتهم تغذت روحه وتشبعت حواسه بالمبادىء السامية فكونت عقيدة خاصة في فهم معنى الواجب عليه من حيث هو انسان أولا ومصر ثانيا ، عقيدة تمكنت في قلبه حتى صارت شعارا ومذهبا ودينا ؛

... في هذه القضية لم يرتكب المتهم ما ارتكب ، ملتمسا لنفسه من فعله نفعا ، أو ساعيا وراء شيء قل أو جل من حطام هذه الدنيا كما تشاهدون فيمن يتقدم الى عدلكم كل يوم من أولئك الذين يعيثون في الأرض فسادا أو يضربون في عرض البلاد نهبا وسلبا .

وانما ارتكبها مدفوعا بعوامل أخرى لا يختلف اثنان في مقدار شرفها وقوة تمكنها وشدة تأثيرها فيه .

في هذه القضية أشرف المتهم على وطنه المحبوب من سماء تلك العقيدة ، فرآه في تيار الحوادث مضطربا كالسفينة في بحر لجي ، ورأى الأيدي تكاد تختطف ما بقي من مال واستقلال .

واندفع بحب وطنه معتقدا أنه انما كان يؤدي واجبا عليه لهذا الوطن الأسير .

وهو تضحية كل شيء في سبيل الدفاع عنه والذود عن حياضه بكل الوسائل ، على ذلك يسعنا أن نقول ان اليوم أول يوم ينظر فيه القضاء المصرى على ما أعلم فى حادثة مبناها على العقيدة وتضحية النفس فى سبيلها .

وعن العقيدة .. قال أبو النصر : العقيدة رسوخ فكر الانسان على رأى فطرى أو كسبى يرى أنه هو الحق وأن ما سواه هو الباطل .

ولقد كان للعقائد فى معترك الحياة أجل الآثار وأعظم النتائج التى أسست بمقتضاها المجتمعات الانسانية ، وشيدت عليها نظاماتها المختلفة فى جميع الأمصار فهى التى كانت على مرور الأيام مدار التقلبات الاجتماعية ومثار القلاقل ومقر الثورات ، كما أنها كانت مقر الأديان ، ومبعث العلوم، ومجال الاصلاحات العمرانية ..

وينتهى محمود أبو النصر من كلامه هذا بأن الرجل الماثل أمام القضاة موقف الاتهام ، انما هو سليل رأى ونابعا عن عقيدة ، وللعقيدة ما ليس لغيرها من الأحكام .

ويشير أبو النصر الى الكتب التى طلبها الوردانى فى سجنه : المصحف الشريف تفسير البيضاوى ، اللزوميات لأبى العلاء ، نهج البلاغة للامام على ، الواجب لجول سيمون ، والحرية السياسية لسيمون أيضا ، عقدة النظام الاجتماعى لروسو ، كتاب الدستور الانجليزى لبونجى .

ويقول أبو النصر : ان هنالك قوة مؤثرة تغلبت على ارادة المتهم فسلبتها أو أضعفتها .

وأشار أبو النصر الى تهيج الوردانى عندما رأى بطرس غالى باشا يسوق أعضاء الجمعية العمومية (كانت بمثابة برلمان) سوقا يسأله هذا عما أشكل فى خطبته الجناب العالى فيأمره بأسلوب عنيف .

ويسأله الآخر فيقابله بالتعنيف والتقريع رأى الوردانى منه ذلك فعده اهانة للجمعية العمومية أو للأمة بأسرها فى شخص جمعيتها . لأنها هى التى تمثل الأمة ، وسلطة الأمة فوق كل شيء .

ان معاملة المرحوم بطرس باشا للجمعية بهذه الشدة وذلك الاغضاء من جانب أعضائها قد هيجت ذكرى دنشواى واتفاقية السودان ، واعادة قانون المطبوعات فى نفس الوردانى فأثرت على فكره وأعصابه وأحدثت اضطرابا فى أعضائه الى الحد الذى دلت عليه شهادة الشهود فى التحقيق وفى الجلسة .

ثم يقول الأستاذ أبو النصر أيضا : حصل فى يوم ١٧ فبراير أن كتبت جريدة الأخبار وجريدة مصر الفتاة تحت عنوان « حادث غريب » تضمنت هذه العبارة ان المرحوم بطرس باشا طلب من اللجنة التى كانت مشكلة للنظر فى مسألة القنال محاضر جلساتها ، وانتقادها من الجريدتين عليه انتقادا مرا لأخذه تلك المحاضر دون علم اللجنة أو استئذان رئيسها ٠

وهنا اتجه تفكير الوردانى الى القتل ٠

قبل تلك الواقعة ، لم يتجه تفكيره الى القتل ٠

وقد ذكر الوردانى أنه كان يفزع من نومه ، ويقوم منزعجا اذا كان يحلم فى نومه أنه كان يهجم على بطرس باشا ليقتله ٠

وقد شهدت والدته بأنه كثيرا ما كان يقوم من نومه مفزوعا ويقول : الجرنال ، الجرنال وأنه كان يقلقها ويتفزع فى الليلة ست مرات فتقول له : مالك يا ابنى ، عقلك جرى له ايه ٠

فيقطع الجرنال وينهار فيقول : وطنى ، وطنى ٠

ويقرأ أحمد لطفى لك خطابا وصله من ن ٠ هايلار قالت فيه ــ وهى سيدة كان الوردانى يسكن بمنزلها فى مدينة لوزان ــ لحضرة أحمد ، وعمر لطفى بك : سيدى علمت من طريق الجرائد أنك عينت محاميا عن الوردانى ، وحيث أنى أعرف هذا الشاب الذى قضى نحو عام ساكنا عندى فى أودة بالأجر فمن الضرورى جدا ، بل من الواجب على أن أحادثك فى شأنه وأخبرك بالأثر الذى تركه فى نفسى : اعترتنى دهشة مؤلمة عندما بلغنى خبر جنايته لأنى أعتقد أنه من المستحيل أن شابا شريف النفس طيب القلب محبا للانسانية عاجزا عن الاضرار بالغير ، يمكنه أن يرتكب جريمة القتل ٠

انه كان كثير الاهتمام بكل المعاهد الخيرية فى بلادنا ٠

يطلب دائما نسخا من قوانين نظامها مؤملا انشاء مثل هذه المعاهد فى بلده عندما تساعده الظروف ٠

وكان أكبر همه ، العمل على ما فيه الخير لمصر ، حدثنى كثيرا بهذا الخصوص وأظهر لى غاية ألمه من الاحتلال الانجليزى ٠

وقد لاحظت عليه أن المسألة المصرية كانت أم المسائل فى نظره ٠

وأنه كان يخرج من وداعته وطيبته الى الهياج والاضطراب كلما تكلم عن مصر ، أو قرأ فى الجرائد بعض أخبار مكدرة عن حالة بلده ٠

ولذا ترانى أعتقد اليوم كل الاعتقاد أنه ما ارتكب فعلته الا تحت تأثير هياج مؤقت · وعشمى أن يكون فى هذه السطور ما يمكن أن يفيدك فى دفاعك عنه وينيلك شيئا من رأفة القضاء ·

وأرجو يا سيدى أن تبلغ الوردانى حسن ذكرنا له ، وغاية عطفنا عليه » ·

ومن لوزان أيضا يختار الأستاذ أحمد لطفى بعض رسائل الوردانى التى كان قد أرسلها الى مسيو برجهوس ـ صديق له من ألمانيا ـ وقد قام برجهوس بارسال هذه الوسائل الى الأستاذ أحمد لطفى لاعطاء صورة عن صديقه الوردانى ·

من بين تلك الرسائل رسالة كتبها الوردانى فى ١٩٠٧/٧/١٥ وبعث بها من لوزان الى برجهوس يقول فيها : كنا قد قررنا فى ٧ يوليو أن نعمل أو نؤسس فرعا لجمعيتنا بمدينة لوندرة ، ومدن انجلترا التى يوجد بها مصريون ، لذلك تكلمت مع السيد المصرى الذى كان يدرس فى لوندرة وحضر الى لوزان للاستعلام عن جمعيتنا بشأن تأسيس الفروع التى عزمنا على انشائها فى بلاد الانجليز ، وعما اذا كان يرغب أن يكون عضوا فيها ، أو أن يكون من المؤسسين لجمعية مصر فى لندن ، وفى أن يتخذ نفس ألوان (يريد البارات) الجمعية لتحملها ·

ففى نفس الليلة التى كان مقررا لى أن أودعك فيها الى محطة لوزان وتأخرت وهذا ما يدفعنى الى الاعتذار اليك ، كان لدى رئيسنا قبعة ومشبك زائدين عن الحاجة فأعطاهما للعضو الجديد الذى بعد أن تحلى بالشارات ركبنا معه عربة الاحتفال بافتتاح فرع لوندرة ونزلنا بجانب (لوزى) فى قهوة هناك تبقى مفتوحة للصباح حيث قضينا الليلة كلها وشربنا ثمانى زجاجات من الشمبانيا وغنينا ورقصنا مع زوجة القهوجى وابنتيه وتمازجنا الى الساعة الخامسة صباحا كل ذلك على شرف افتتاح فرع لوندرة ·

وفى الساعة الخامسة والنصف عدنا بنفس العربة الى مسكن المسيو سرى حيث توجد به حديقة كبيرة وشجر كريته أكلنا منها وكنا سكارى وهذه أول مرة سكرت فيها ونمنا على الكراسى ، وكنت افتكر انه فى استطاعتى ان أقوم فى الساعة السابعة صباحا لأتمكن من مقابلتك بالمحطة لأنى كنت أذكر الميعاد جيدا ·

ولكن لم أستفق من النوم الا فى الثامنة والدقيقة العاشرة واحترت فى أمرى وما الذى تفتكره فى شأنى ، ولكن لثقتى بطيبة قلبك واخلاصك

أنتظر أن تسامحني على هذه الغلطة التي لا تنسى واقبل سلام الاخلاص ٠٠ من ابراهيم ناصف الورداني ٠

ويلاحظ أحمد لطفي على هذا الخطاب أن محرره شديد الاهتمام بتأسيس فروع للجمعية في مدينة لندرة وأنه لذلك قد ارتكب أمرا لم يقع له في حياته وهو أنه شرب لدرجة السكر احتفالا بتأسيس هذا الفرع ٠

وأزيد على ما قاله الأستاذ أحمد لطفي من أن ابراهيم ناصف الورداني لم يكن قد تجاوز وقتذاك الثامنة عشر من عمره ولم يكن قد مضى على مغادرته مصر سوى بضعة أشهر ٠

وكتب الى صديقه مرة في ١٩٠٧/٩/٣٠ وكان قد نضج بعض الشيء ـ ومن لوزان أيضا ـ يقول : ان الحركة الوطنية في مصر تتقدم كل يوم وتقوى ٠

وحال السياسة في مصر طيب جدا ٠

وعند عودتي من مصر تعرفت على ظهر الباخرة برجل صحافي يكاد يعد سياحته في أوروبا وخصوصا في انجلترا أن يكون عظيما مثل مصطفى كامل باشا ، أما اسمه فحافظ عوض وهو يتكلم الانجليزية والفرنسية جيــــدا ٠

وقد ذهب الى انجلترا مع صحافي ثالث اسمه الشيخ على يوسف لا يعرف اللغات الأجنبية ، داعيا لحضور حفلة أعدها لورد يير في لندرة ، وقد دعاهما أيضا في حفلة سياسية كثير من أعضاء مجلس العموم الذين يكونون فيه لجنة للدفاع عن مصالح مصر وحقوقها ، وقد تكونت هــذه اللجنة بهمة هذين الصحفيين الذين بانضمامهما الى مصطفى كامل باشا يمثلون الثلاثة الوطنيين الأول في مصر ٠

وقد أحسن حافظ عوض في الدفاع عن المسألة المصرية سواء في هذه الليلة أو في الجرائد ، أو في محادثاته أو في الجواب الذي أرسله الى السير ادوارد جراى وزير خارجيــة انجلترا مطالبا بحقوق المصريين وشارحا مطالبهم وبروجرام الوطنيين الدستوريين سواء في البرلمان أم في الجرائد ٠

ولما كان في لاهاى مؤتمر دولي آخــر غير رسمي لمحاكمة الدول الحاكمة ، ومساعدة الدول الضعيفة فقد انتخب حافظ عضوا به وألقى خطابا حاز كثيرا من التصفيق الذي دوى في كل أوروبا ٠

وقد وعدني حافظ عوض بزيارتي في لوزان ليتعرف بجمعيتنا ٠

وقد قضى معنا بلوزان خمسة عشر يوما استلم فى أثنائها ردا من السير ادوارد جراى ، وقد عاد الى مصر حيث أحسنوا استقباله ، والآن أخبرك بأن حافظ عوض قد حرر لى مكتوب توصية لأستاذك فى اللغة العربية فى مدرسة باريس واسمه الشيخ على مرسى فارجو أن تسر بذلك ... الخ ... الخ .

الى أن يقول الوردانى : وانى اخبرك يا أخى أيضا اذا كان هذا يهمك كما أخبرتنى بأن رئيس جمعيتنا قد أنعم عليه أميرنا برتبة (بك) .

وأرجو عندما تصل الى برلين أن تخبرنى ما اذا كان فيها طلبة مصريون أم لا ، لأنى سمعت أن بها مصريين واننا نريد أن نكون منهم فرعا لجمعيتنا .

ومن القاهرة كتب الوردانى فى ١٧/٨/١٩٠٩ الى صديقه برجهوس هذا خطابا يقول فيه :

وصلتنى بطاقتك فشكرتك كثيرا ، عدت من القسطنطينية ولم أذهب الى جنيف لأن ظروفى لم تمكنى من ذلك وانى شارع فى انشاء أجزاخانة من نحو شهرين ، وقد كادت تنتهى .

وستكون من أول الأجزاخانات فى مصر

السياسة فى مصر غير موضوعية ، فقد أودع السجن رئيس تحرير اللواء الذى حكم عليه بالحبس ثلاثة شهور ، صممت الحكومة على تنفيذ قانون تقييد الصحافة ، وفى اليوم عينه أنذرت هذه الجريدة - الأول مرة - بمعنى انها ستقفل فى الثانية .

أما تحرير اللواء فلم تتغير لهجته ولن تتغير ، وأما عن مستقبلى فانى أستعد لميدان السياسة وقد انتهيت من انشاء نقابة للعمال بعد أن كنا محرومين منها ، وقد تفاوضت أثناء اقامتى بالقسطنطينية مع وزيرى المعارف والحربية على تسهيل مهمة التحاق الطلبة المصريين بالمدارس الملكية والحربية ، وقد طلب منى أن أكون عضوا فى مجلس ادارة جريدة وطنية كبرى .

وكان الأستاذ أحمد لطفى قد قدم صورة بخط المتهم من خطاب القاه فى جمعية مصر بلوزان أرسلها الى المسيو براجهوس صديقه بالمانيا ، يظهر فى - الخطاب - شدة ولع الوردانى بالمسائل السياسية على اختلاف

أنواعها : جاء فى تلك الخطبة التى ألقيت بتاريخ ١٩٠٧/٥/١٤ ، أننا نحن الطلبة المصريين لم نجىء الى أوروبا لنشتغل بالسياسة وانما جئنا لمراقبة ما يحصل هنا لعلنا نستفيد مما نرى ونسمع فى هذه البلاد » ٠

وأشار الوردانى الى ما فعله الطلبة المصريون فى لندن عندما أنشأوا لهم ناديا يتناقشون فيه فى حقوق مصر واستقلالها ٠

وقد انضم اليهم جماعة من كبار الانجليز أنصار المبادىء الحرة ٠

ويؤكد الوردانى على أن جمعيات الطلبة المصريين فى أوروبا لابد وأن تكون أفرعا للحزب الوطنى بقيادة مصطفى كامل باشا ٠

ويذكر الوردانى أنه لا توجد فى مصر الا مدرسة واحدة للمعلمين وهى خالية لأن الحكومة المصرية والمراقبة الأجنبية لا تعين بها الى معلمين انجليز ٠

اننا نحن الطلبة المصريين نتلقى العلوم فى أوروبا حرة بعيدة عن الضغط ونريد لأقراننا ومواطنينا تعليما مثل هذا ، ولنا أمل كبير فى المستقبل ٠٠٠ ان فى مصر اثنا عشر مليـونا من السكان وليس فيهـا الا جامعة واحدة ، هذا محال ٠

ومن بضعة أشهر فقط ابتـــدأت الأمة المصرية تتضامن لانشـــاء جامعة مصرية أهلية ٠ وفى الختام مع اتباعنا للطريق الذى انتجه مصطفى كامل باشا ، فقولوا معى أيها المواطنون بصوت عال : لتحيا الوطنيـة المصرية ولتسقط كل سلطة تهدد حقوقنا ٠

والجدير بالذكر أن الأستاذ نصيف المحامى ، كتب الى جريدة الاكلير عن مقتل بطرس غالى باشا يقول : حضرة رئيس التحرير ٠٠

اسمح لى بصفتى مصريا ان أقرر بعض نقط تتعلق بمقتل بطرس غالى باشا رئيس الوزارة المصرية ليس من اختصاصى تقدير عمل ابراهيم الوردانى ، ولكنى أريد من صميم فؤادى أن أبعد التهم التى أشاعها الانجليز فى العالم ضد هذا الشاب ، ليقللوا من النتيجة السياسية لعمله ، فقد اتهموه بأنه فتى مختل الشعور ، قليل الذكاء وأنه أطاع داعى التعصب بقتله بطرس باشا غالى المسيحى الذى يقولون أنه كان حرا ووطنيا ٠٠

أنا أعـرف الوردانى شخصـيا ، وهو فتى شديد الذكاء ، كثير المعارف ، ملء صدره الوطنية الحرة وليس رجلا متعصبا ، ولم يقدم على عمله الا بداعى الوطنية المتحمسة بعد أن ضاق صدره كما ضاقت صدورنا جميعا من السياسة الانجليزية التى كان بطرس باشا غالى ينفذها باجتهاد،

وأنا بصفتي قبطيا أعني مصريا قبطيا أصرح بأن حركتنا وطنية مجردة ترمي الى الترقي والحرية ، وما تهمة االتعصب الديني الا من اشاعات الانجليز التي يعيشونها ليبرروا المظالم التي يرتكبونها في مصر » ٠

هذه صورة من حياة ابراهيم ناصف الورداني الذي كان ــ كما أعلم جيدا ــ مثلا أعلى لمحمود العيسوى قاتل أحمد ماهر باشا ٠ ومحمود العيسوى للعلم ــ من مواليد قرية بني غريانه التابعة لمركز قويسنا ، وهي على مقربة من قرية بجيرم مسقط رأس الدكتور شفيق منصور الذي أعدم في قضية مصرع السردار والذي سبق أن اتهم في قضايا مصرع بطرس غالي والاعتداء على السلطان حسين بالاسكندرية وقد تلقى العيسوى علومه بمدارس الأوقاف الابتدائية ومدرسة الخديو اسماعيل الثانوية ٠ وقد تخرج في كلية الحقوق عام ١٩٣٣ ولما تجاوز سنه العشرين ، وكان في طليعة الناجحين في جميع سني دراسته ٠

ولأن نقابة المحامين كانت تشترط في من يقيد في جدول المحامين ألا تقل سنه عن احدى وعشرين سنة ، فقد ظل عاما لا يعمل بالمحاماة حتى تصل سنه الى الواحد والعشرين ٠

والتحق محمود العيسوى بقسم الدراسات العليا فحصل على دبلوم في القانون الخاص ١٩٤٠ ودبلوم في القانون العام ١٩٤١ بتفوق وأعد رسالة لنيل الدكتوراه في الحقوق كان موضوعها : « مركز مصر الدولي بعد ابرام معاهدة ١٩٣٦ » ٠

وقد كان محمود العيسوى من غلاة أنصار الحزب الوطني ، وقد ظن البعض خطأ ، أنه من الاخوان المسلمين ٠

والواقع أنه لم ينضم الى الاخوان المسلمين ، وكل ما كان بينه وبين الشيخ حسن البنا ان المعتقل جمعهما في فترة من الفترات ٠

عرف عن محمود العيسوى تشيعه لألمانيا ، وقد أرسل برقية تهنئة الى السيد رشيد عالي الكيلاني عندما قام بثورة في العراق ضد الاحتلال البريطاني ١٩٤١ مؤيدا ألمانيا ٠

وقد اتهم العيسوى في قضية منشورات « عدائية » وزعت في القاهرة ضد الحلفاء ٠

وقد لبث في السجن بضعة أشهر ٠

وقد كان محمود العيسوى ــ وكان هذا هو الخطأ الأكبر في حياته ــ مؤمنا والى أبعد حدود بانتصار هتلر ٠

وللأمانة التاريخية ٠٠ كان هذا الشعور الموالى للألمان لا ينبع عنده الا من شدة كراهيته للاحتلال البريطاني ٠

ولم يعرف عن العيسوى حتى بعد أن قبض عليه فى قضية مقتل أحمد ماهر ، وبحثوا كل صغيرة وكبيرة في حياته ، أن مناصرته للألمان نتيجة تأثير من أى من الألمانيين ، أو ان أية علاقة كبيرة أو صغيرة كانت بينه وبين أى ألمانى ٠

كان الرجل ــ وقد لقى ربه ــ يتمنى انتصار ألمانيا لا لأنه معجب بالنظام النازى ، ولا لأن ألمانيا تعنى بالنسبة له شيئا معينا سوى انها تحارب انجلترا ، العدوة الأولى والأخيرة لمصر ولمحمود العيسوى بوصفه من أبناء مصر بل من عشاقها ٠

وقد كان من سوء حظى ــ كما سيبدو فيما بعد ــ أن جمعنا هذا العداء وان توثقت الصلات بيننا بسبب هذا العداء ٠

فى مساء ٢٢ فبراير ١٩٤٥ كنت مع محمود العيسوى فى مكتب عبد الرحمن الرافعى بك وأهديته كتابى « وحى الوطنية » وأرخت الاهداء فى ٢٢ فبراير ١٩٤٥ ٠

وبقينا فى المكتب حوالى الساعتين ثم انتقلنا إلى مكتب الأستاذ عبد المقصود متولى وبقينا به ثلاث أو أربع ساعات ٠٠

ثم رحنا فى الشوارع ندور وندور فى السيدة زينب و ٠٠ و ٠٠ وكنت أشعر أن محمود العيسوى مقدم على شىء ما ٠٠ ماهو هذا الشىء ٠٠؟ لم يفصح عنه حقيقة محمود العيسوى ، ولكننى كنت من زاويتى الخاصة أحاول اقناعه بأن العنف لا يجدى ، وأننا اذا تخلصنا من زيد ، وحل محله عمرو ، وربما يكون عمرو أسوأ من زيد ٠

ثم ان الظروف غير مواتية لأى عمل عنيف ، فلا تزال بريطانيا قابضة على كل الأمور ، صغيرها وكبيرها فى مصر ٠

ولا تزال بريطانيا هى المسئولية الأولى عن كل عمل سياسى فى مصر ، وما الحكام المصريون الا منفذون للارادة البريطانية ، بريطانيا هى الأصل ، وهم ــ الحكام المصريين ــ الأداة ٠

وأى عمل ــ من وجهة نظرى ــ يجب أن يستهدف فى الأصل الاحتلال البريطانى ، حتى العنف ضد الاحتلال البريطانى فى هذه الأيام التى يتكالب فيها المصريون على الحكم ، لن يجدى هذا العنف اذا ما كان فرديا ٠

وقد دفعنا ثمنا للرصاصات التى أطلقت على السير لى ستاك باشا ، الكثير الكثير ، بالاضافة الى مليون جنيه ، فان الجيش المصرى آنزل من السودان وطرد شر طردة ٠

انتهى الحكم النيابى الشعبى المستند الى ارادة الشعب وذهبت وزارة سعد زغلول باشا ، لتفرض وزارة أحمد زيور باشا ولتبدأ مرحلة من أفظع مراحل الحكم الديكتاتورى ٠

وظهر لنا بعض الأصدقاء فانضموا الينا ، وسكت بطبيعة الحال عن الكلام المباح وغير المباح ٠

وقد حزنت فعلا لمصرع أحمد ماهر ، وحزنت أكثر لان قاتله محمود العيسوى ، فلم يكن أحمد ماهر ليستحق تلك النهاية المؤلمة ، وما كان العيسوى أيضا ـ أقول هذا كصديق وزميل ـ ليستحق تلك النهاية المؤلمة ٠

فى صبيحة يوم ٢٦ فبراير ١٩٤٥ ، أى فى اليوم التالى لتشييع جنازة د٠ أحمد ماهر شعبيا ورسميا كنت فى جامعة فؤاد فى الساعة الثامنة والنصف ، ورآنى بعض زملائى فعرفوا ان فى الأمر شيئا ، فلم أكن أذهب الى الجامعة مبكرا الا للضرورة القصوى ٠ رأيت أن نقوم بمظاهرة صامتة احتجاجا على اغتيال أحمد ماهر باشا وترحما على حياته ٠

وعلم الزملاء الذين ينتمون الى الهيئة السعدية والى حزب الأحرار الدستوريين المشاركين للهيئة السعدية فى الحكم ، وكذلك شباب الكتلة الوفدية ، ألا نقوم اليوم بتلك المظاهرة وانما يجب أن نؤجلها لكى نستعد يوما أو يومين ٠

وكانت وجهة نظرى أن المظاهرة يجب أن تخرج اليوم لا الغد ولا بعد الغد حتى لا تبرد ٠

وأن من المصلحة والعواطف جياشة والدم لم يجف بعد ، أن يعبر الجامعيون عن مشاعرهم ازاء هذا الحادث الأليم وتجاه الراحل العظيم ٠

ودخلت ـ كما كنا متعودين فى مثل هذه الحالات ـ على أحد مدرجات كلية الحقوق ، واستأذنت الأستاذ المحاضر ، وطلبت من الزملاء الخروج للمشاركة فى المظاهرة ٠

وخرج طلاب هذا المدرج ، وانتقلنا الى المدرج الآخر ، ثم انتقلنا الى ملحق الكلية ، وبعد أن تجمع طلبة الحقوق ٠٠ انتقلنا الى كلية التجارة

فكلية الآداب ، ولم يعترض أحد حتى من الزملاء الوفديين على قيام تلك المظـــاهرة ٠

وكنت قد طلبت من بعض الزملاء اعداد باقات من الورد بصورة سريعة نحملها فى مقدمة المظاهرة ٠

وكنت صادقا فى مشاعرى وأنا أخطب فى طلبة الجامعة فى كل كلية ، وفى الحرم الجامعى ، وبعد أن تجمع ألوف من الشباب الجامعى من طلبـــة كلية الهندســـة وطلبـــة كلية الزراعة وكذلك طلبة المدرسة الســـعيدية وكان الثـــلاثة ـ الهندسة والزراعة الســـعيدية ـ خارج الحرم الجامعى ، ولكنها كانت تتأثر بسرعة بما يجرى فى الحرم الجامعى ٠

وفى أحيان كثيرة كنا نقوم بتقسيم أنفسنا الىمجموعات : بعضنا يذهب الى كلية الهندسة والبعض الآخر يذهب الى كلية الزراعة ، والبعض الثالث يذهب الى المدرســـة السعيدية ، وكنـــا نحرص ـ بعد كثير من التجارب ـ ان كل من يذهب لاخراج طلاب كلية أو مدرسة ينبغى أن يكونوا من طلبتها ، فما أقسى على طلبة اية كلية أو أية مدرسة أن يجيئهم من الخارج من يلفت نظرهم الى واجب وطنى أو ما نعتقده نحن الشباب أنه واجب وطنى ٠

سارتالمظاهرة فى الطرق المرسومة لها ، ولم يحدث أى احتكاك بأحـد ٠

وكانت الجماهير وهى ترانا بمظهرنا الحزين والشارات السوداء التى نحملها والهتافات المدوية التى تنطلق من وقت لآخر يبلغ فيها التأثر فنبكى الراحل الكريم ٠

وكانت وجهة نظرنا مجلس الوزراء ٠

وامتلأت ساحة مجلس الوزراء عن آخرها بطلبة الجامعة وخرج محمود فهمى النقراشى باشا رئيس الوزراء الجديد ليطل على الشباب الجامعى ، وقلت فى هذا الموقف كلمة باسم الجامعة ، أعربت فيها عن حزننا الشديد لفقد أحمد ماهر الذى عرفناه والذى لم يتردد فى زيارتنا بالجامعة عندما تأزمت الأمور بيننا وبين البوليس ، والذى ضحى فى سبيل بلده كأروع وأفضل ما تكون التضحية ٠

ورد محمـــود فهمى النقراشى على كلمتى ، بشكر أبنـــاء مصر على مشاعرهم الرقيقـــة مؤكدا أن الوزارة تسير فى نفس المســـيرة التى كان صديقه وزميله أحمد ماهر باشا يقودها ٠

وطلب منا الانصراف فقلت : اننا لن ننصرف قبل أن نؤدى واجبا آخر هو تعزية السيدة الجليلة أم المصريين باعتبارها والدة لأحمد ماهر ، فقد كانت أم المصريين تعتبر أحمد ماهر ومحمود النقراشى ابنين لها ·

وألقيت فى بيت الأمة كلمة باسم طلبة الجامعة ، معزيا أم المصريين فى مصـاب الأمة المصرية ، ولم تستطع أم المصريين أن ترد على كلمتى أحد أقاربها بالرد على كلمتى ·

انصرفنا فى هدوء بعد أن قمنا بهذا الواجب ·

ولما كنت على مقربة من ضريح السيدة زينب ، فقد سرت على قدمى حتى أقرأ الفاتحة على روحها ·

وفى طريقى الى السيدة زينب مررت بالشوارع التى كنا نذرعهـا سويا أنا ومحمود العيسوى قبل ساعات من وقوع الحادث ـ حادث اغتيال أحمد ماهر ـ وأيقنت أن الدنيا لا تساوى قلامة ظفر ، فمنذ اثنتين وسبعين ساعة كان أحمد ماهر ملء السمع والبصر ، يرأس حزبا له ثقله فى مجلس الشيوخ والنواب ويرأس الوزارة ، ويتمتع بثقة الملك ، وثقة البرلمان ، وقد جاءته الوزارة بعد كفاح مرير ، كان أيسره تلك الفترة التى قضاها فى السجن متهما فيما سمى بقضية الاغتيالات السياسية ، ثم اختفى ذلك كله فى لمح البصر ·

وكذلك كان محمود العيسوى : كان شابا فى مستهل حياته ، حصل على ليسانس الحقوق فى سن صغيرة ، ثم حصل على دبلومين فى عامين لا يحصل عليهما زملاؤه الا فى سنين عديدة ، ثم أعد رسالة الدكتوراه أو كاد ، لم ينعم فى حياته لا بزوجة ولا بأولاد ·

المستقبل مفتوح أمامه ، مئات الفتيات يتمنون الزواج منه وألوف الأسر تود لو تقدم اليها للمصاهرة · وفجأة ·· قضى هو بنفسه على كل ذلك المستقبل ، أنهى بيـــده حياته لا طمعا فى جاه ولا فى مال ولا فى منصب ، وانما دفاعا عن رأى ارتآه ·

وقد كنت أستبعد أن يقوم محمود العيسوى على ارتكاب تلك الجريمة بعد أن أوضحت له وأوضح له آخرون وفى مقدمتهم أستاذنا عبد المقصود متولى أن الاغتيال لا يفيد ، وأنه لا يغير من الأمر شيئا ، وأننا سنستبدل بشخص شخصا آخر دون أن تتغير السياسة ·

وفى طريقى الى منزلى فى روض الفـرج ، وقد سرت حتى العتبـة الخضراء من السيدة زينب سائرا على قدمى كنت دائم التفكير فى أحمد

ماهر ، وفى محمود العيسوى معا ، لم أنس أبدا يوم أن أخبرناه بالاشتباك بيننا وبين البوليس الذى أوشك أن يتحول الى مذبحة رهيبة ، فاذا به يصر أن يجيىء بنفسه ، واذا به يحرص على أن يدخل الحرمى الجامعى — كما سبق أن قلت — سائرا على قدميه وبدون حرس .

وأكثر من ذلك تذكرت أن زميلنا أمين صفوت — الطالب معنا فى كلية الحقوق — قد أرسل اليه بعد مجيئه الى الجامعة خطابا ينتقده فيه ، فاذا بأحمد ماهر لا يكلف سكرتاريته بالرد عليه ، ولا يطلب من مدير مكتبه أن يكلف الكاتب على الآلة الكاتبة ليكتب الرد ، وانما تولى هو بنفسه كتابة الرد على زميلنا العزيز .

وتذكرت — وأنا فى الطريق الى المنزل — رسالة أمين صفوت ورد أحمد ماهر على تلك الرسالة ، وكان قد شاع وذاع أمر تلك الرسالة والرد عليها ، وأكسب ذلك كله أحمد ماهر شعبيته لدى طلاب الجامعة وأساتذتها، فلم يحدث من قبل أن أرسل طالب باحدى الكليات رسالة الى رئيس الوزارة ينتقده فى بعض الأمور بل ويحذره من اعتقال شباب الأحزاب غير المشتركة فى الوزارة ، ولم يعتقل ذلك الشاب ويرمى به الى غياهب السجون ، وانما تلقى ردا فوريا مهذبا بخط رئيس الوزارة بعد مرور ثمان وأربعين ساعة على وصول الرسالة اليه لا مؤنبا ولا معاتبا وانما شاكرا له روح الوطنية .

وفيما يلى رسالة أمين صفوت الى الدكتور أحمد ماهر باشا ، وكنا قد حفظناها لكثرة تداولها بيننا وكثرة قراءاتنا لها .

الرسالة ، مؤرخة فى يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٤٤ أى فى يوم زيارة أحمد ماهر باشا الجامعة ، ولقائه بطلابها ذلك اللقاء العاصف الذى استمر أكثر من ثلاث ساعات :

يا صاحب الدولة .

ان حضورك الينا فى الجامعة كان عملا جريئا ، ولكننى لا أصدقكم القول اذا قلت لكم ان كلمتكم أحدثت كل الأثر الذى كنتم ترجونه منها ، ولى يا صاحب الدولة ملاحظات سريعة أجملها فيما يلى :

١ — تبينت أن دولتكم ، رجل عملى ، واقعى ، تستطيعون بصراحتكم وشجاعتكم اقناع المثقفين ، أما الجماهير فانها تحكم عواطفها وتنساق معها .

٢ — كان الواجب أن تبدأوا خطابكم بنصح الطلبة بالانصراف الى

دروسهم ، لان أثقل الأشياء على نفس الطالب المهرج والمتذمر هو شبح الدروس ٠

٣ ـ ان سياسة الحكومة فى الاعتقال والافراج غير واضحة ولا مفهومة ، فالحرية يجب ألا تمنح للمرتزقة الذين يتخذون السياسة حرفة والنزاع الحزبى مصدر رزق ٠

٤ ـ أحذر دولتكم ، من اعتقال شباب الأحزاب غير المشتركة فى الحكم والتى لم تتخذ موقفا معارضا من الحكومة لان الاعتقال يضمهم الى صفوف المعارضة ٠٠ الخ ٠٠ الخ ٠

وقد أخبر أمين صفوت زملاءه بنبأ الرسالة التى بعث بها الى رئيس الحكومة أحمد ماهر باشا ٠

ووجه إليه بعضهم اللوم للعبارات العنيفة التى وردت فى الرسالة وخاصة تحذيره ـ بلفظ التحذير ـ لدولة رئيس الوزراء ٠

ورؤساء الوزراء عادة لا يقبلون عبارات التحذير من أى كائن كان ، فما بالك بطالب فى كلية الحقوق ٠

أما أنا فلم يكد نبأ تلك الرسالة يصلنى حتى أيقنت ان الرجل العظيم الذى اتخذ هذا الموقف العظيم من أبنائه الطلبة واتجه اليهم حيث هم بلا حرس ولا موكب يحاول اقناعهم بالحسنى أكثر من ثلاث ساعات ٠

هذا الرجل لا يمكن أبدا أن يضيق ذرعا من رسالة طالب صادق ومخلص وأمين يتميز بقوة الشباب وعنفه وصدقه فى نفس الوقت ، ولم يمض سوى ثمان وأربعين ساعة حتى كانت كلية الحقوق بجامعة فؤاد ولا حديث لها الا عن رد رئيس الوزراء الدكتور أحمد ماهر الطالب أمين صفوت ، فأضاف بذلك أحمد ماهر الى جرأته وشجاعته صفة التواضع الجم ٠ وكانت رسالة د٠ أحمد ماهر باشا كما يلى :

رئاسة مجلس الوزراء

مكتب الرئيس

حضرة الطالب المحترم أمين صفوت أفندى

تلقيت مع السرور كتابكم الذى تبدو فيه بعض الملاحظات عن زيارتى لدار الجامعة يوم السبت الفائت وانى لشاكر لكم غيرتكم ٠

ويهمنى أن أشير فى هذا المقام ، الى أنى أعتبر طلبة الجامعة أولادى، لهم جميعا فى نفسى كل محبة وتقدير ، وهم بعد رجال المستقبل الذين تعتز بهم البلاد ٠

أسأل الله أن يوفقنا الى خدمة وطننا ويهب أولادنا الحكمة والسداد ٠

١٩٤٤/١٢/٢٥ أحمد ماهر

على أنه لم يدر فى خيالى للحظة واحدة أن أكون متهما بالمشاركة فى اغتيال أحمد ماهر باشا ، وأحمد ماهر باشا بالذات ، بل انه لم يدر فى خيالى ولو للحظة واحدة أيضا ، أن أكون متهما بالمشاركة فى اغتيال أى مصرى على الاطلاق ، حتى ولو كان عميلا أو خائنا أو متحالفا مع الاحتلال ، فلست سلطة تحقيق وبالتالى فلست سلطة اتهام ٠

وأخيرا وليس آخرا فلست سلطة قضائية . ذلك كان رأيى الذى آمنت به من اقتناع كامل ، وربما كان ذلك الرأى مثال جدل ونقاش وحوار ساخن فى كثير من المرات بينى وبين بعض الزملاء ٠

فيما يتعلق بالقصاص من المصريين ٠٠ هناك جهة أو جهات تتولى عملية القصاص ، هى وحدها ــ السلطة القضائية ــ المنوط بها القيام بتلك المهمة ، فان أحسنت فى أحكامها فبها ، وان أساءت فالذنب ذنبها ٠

أما فيما يتعلق بجنود الاحتلال فالأمر مختلف تماما : لقد جيىء بهم الى وطن محتل ليمثلوا القوة المحتلة ٠

ليقفوا ضد الشعب ٠

ليفرضوا ارادة المحتل ورغباته وتعليماته على الشعب الآمن الأعزل من كل سلاح ، وهم يسمون جنود احتلال ٠

وأرض مصر كلها فيما يتعلق بهؤلاء الجنود ، أرض قتال ٠

وهم جميعا وبدون استثناء من جندوا طبقا لرغبتهم أو رغما عنهم أثناء احتلالهم للبلاد لا يتقيدون بقانون ولا مبدأ ، ولا عقيدة ولا تقاليد ، فينبغى أن يعاملوا لذلك بدون تقيد بقانون أو مبدأ أو عقيدة أو تقاليد ٠

وكنا نعتبر هؤلاء الجنود منذ أن دخلوا أرض مصر ، معتدين ، يحق محاربتهم ، بل ان حربهم فرض على كل مصرى قادر على تلك الحرب ٠

ولذلك لم تكن تأخذنا بهم رحمة أو عطف ، على أننا ــ وتلك مسألة كنا توليها أهمية بالغة ــ كنا نفرق بين الجنود المحتلين الذين جيىء بهم

من انجلترا ، والذين جيىء بهم من المستعمرات البريطانية كالسنغاليين والهنود وغيرهم وغيرهم ·

هؤلاء ـ غير البريطانيين ـ كنا نعتبرهم ضحايا مثلنا الى أن يرتكبوا في حقنا جرائم قتل أو عدوانا على العرض أو المال ·

لقد أجبر هؤلاء على أن يجندوا لصالح المحتل ، وقد جيء بهم ونقلوا بالضغط الى بلادنا ، ولا أحد يمكن أن يسامحهم اذا ما وضعوا أيديهم على الزناد وأطلقوا نيرانهم على الشعب ، ولذلك فقد كنا عندما نصطاد بعض هؤلاء الجنود ، جنود الاحتلال ، كنا نفرق بين البريطانيين وبين غيرهم من جنود المستعمرات ، ولكن عندما نكون في مظاهرات ويطلق بعض الجنود السنغاليين ـ مثلا ـ النار علينا تكون معاملتهم كمعاملة جنود الاحتلال البريطانيين سواء بسواء ·

وكنت باستمرار أنصح زملائي بعدم اطلاق النار على المصريين أيا كانت جرائمهم ، كنت أفضل ـ مثلا ـ تحذيرهم وانذارهم مرة واثنين وثلاثة ·

وبعد الانذار والتحذير يتم مناقشة الجرائم التي ارتكبوها في حق المواطنين المصريين ·

ولأن تلك الجرائم عادة لا تصل الى حد القتل ، كذلك العقـــوبات التي تصدر ضدهم لا تكون أبدا القتل ·· !!

وخلال الفترة التي قضيتها بعد المظاهرة ، الى أن اقتربت من منزلي في شارع أبو الفرج بروض الفرج ، وأنا أفكر في الحياة وفي الموت وفي الفاصل بين الموت والحياة ··

ما قيمة الحياة اذا لم يكن وراءها فائدة للوطن ككل ، أو لبعض أفراده على أقل تقدير ؟

ثم ما قيمة الحياة اذا قضاها المرء في خدمة ذاته ، وفي جلب الأموال وكنزها ، دون أن يكون له هدف آخر عام في هذه الحياة ·· ؟

واذا كانت الحياة سوف تنتهي ان عاجلا وان آجلا فلماذا لا يحاول المرء أن يجعلها ، طالت أم قصرت ، منتجة ، مفيدة ··

وكنت أسترجع وأنا في الترام الذي يوصلني الى منزلي رغم ما به من ضجيج وعجيج قول بعض أقاربي لي وهم يضحكون مني لما كنت أحاول

بثه فيهم من رغبة فى العمل العام : هو انت إللى حتصلح الكون يا أخى ٠٠!؟ ما تسيب غيرك يقوم بالحكاية دى ٠٠ !!

وكنت أقول لنفسى ، اذا كان كل واحد سيترك هذه المهمة للآخرين فان أحدا لن يقوم بها على الاطلاق ٠

وكان تفكيرى فى الموت يختلف عن أى انسان آخر فى سنى ، فأنا لا أخافه أبدا ، ولماذا أخافه ولم أرتكب جريمة ما فى حق انسان ، حتى المعاصى التى يمكن أن أكون قد اقترفتها فى حياتى لا علاقة للبشر بهـا لأنها متعلقة بفروض وواجبات على قبل الله تعالى وهو وحده الغفور الرحيم٠

ولئن حاسبنى الله بذنوبى ومعاصى تلك ، فاننى أحاسبه بعفوه ورضاه وكرمه وحلمه ، وهو ــ جل وعلا ــ أرحم الراحمين ٠

لم أكن حقيقة وأنا كذلك ــ وأرجو أن أكون كذلك الى أن ألقى وجه ربى ــ أخاف الموت وانما كنت أنتظره باستمرار ، أتوقع مجيئه فى كل دقيقة بل فى كل ثانية ٠

ولذلك فقد كنت دائما أشبه بالمهاجر الذى أنهى كل علاقاته بالناس، دفع ما عليه من ديون ٠

سدد ما عليه من التزامات ٠

أنهى ما بينه وبين الغير من مشاكل ٠

وكنت قد تعودت أن أكتب وصـيتى كل ليلة قبل أن أنام ، حتى لا يفاجئنى الموت وأنا نائم ٠

فلا أحد يمكن أن يشقى ، فكل شىء يتعلق بالوفاة مكتوب فى تلك الورقة ، حتى فى الموت لم أكن أود أن يتعب أحد من أجلى ، لأذهب كما يذهب النسيم ٠

وفى الصباح كنت أتناول الورقة وأمزقها وأضحك فى نفسى على نفسى ، غير أنه ما أن يحل المساء ، ويوشك النوم أن يداعب جفونى ، حتى أعمد الى الورقة والقلم لأكتب الوصية من جديد ٠٠ !!

ولأننى كنت أرى رأيى هذا فى الموت وفى الحياة فان أحدا فى هذه الدنيا لم يستطع أن يستعبدنى ٠

يخيفنى أو يغرينى ٠

وما من شىء فى الدنيا ــ المال والبنون والنساء ــ وكان من رأيى

وقتذاك أن النساء جملة اعتراضية في حياة البعض ، وجملة أصلية في حياة الآخرين - يمكن أن تؤثر في ٠

لم أعرف يوما ماذا في جيبي من مال ، ولم أعرف يوما ماذا أملك ، ان كنت أملك شيئا ، حتى السجائر وقد كان بعض الزملاء يعتبرها مفرجا للكروب ، لم أقترب منها ، لا لأنى غير قادر على دفع ثمنها ، وانما من أجل ألا أصبح أسيرا لها وقد رأيت بعض الاخوة يشقون فى السجن من أجل السجائر ، وكان الواحد منهم مستعدا أن يقول كل شيء ويفعل كل شيء من أجل نفسين دخان ٠٠ !!

ولذلك رفضت أن أكون عبدا لأى انسان أو لأية متعة في هذه الحياة ٠

وكنت قد اقتربت تماما من منزلى وتأهبت للنزول فى المحطة التى تسبق المحطة التى هى أمام منزلى حتى اشترى ما أريد شراؤه من مستلزمات الأكل والشرب ٠

وأستطيع أن أقول أننى كنت فى هذه اللحظات منقبضا الى حد كبير ٠

لقد أتعبنى التفكير فى الموت وفى الحياة ٠

أشقانى حديثى مع نفسى عن أحمد ماهر وعن محمود العيسوى ٠ وان كنت لم أفكر للحظة واحدة أنهم سوف يقبضون على لعلاقتى بقاتل أحمد ماهر : كانت ثقتى فى العدالة لا حد لها ، بل كانت ثقتى أيضا بالبوليس وبالنيابة لا حد لها أيضا ٠

فان أسجن أياما وليالى خشية مشاركتى فى مظاهرة ، وان أعتقل فى قسم بوليس لليلتين أو ثلاث أو أربع لأننى شاركت فى مظاهرة وأن أضرب وأهان هنا وهناك من قبل بعض رجال البوليس لأننا ضربنا بعض رجال قوات الاحتلال بالطوب أو ٠٠ أو ٠٠ كل ذلك من الأمور التى يجب أن يتوقعها ، ويتحملها - فى نفس الوقت - كل من يعمل فى الحقل العام ٠٠ أما أن أسجن بتهمة قتل رئيس الوزراء فذلك ما لم أتوقعه أبدا ، بل ما كنت أرفض تخيله فهناك - من وجهة نظرى - حقوق للمواطنين يجب أن تحترم وأن تصان ، وفى مقدمتها حق المواطن فى أن يتمتع بحريته الشخصية ٠

وهناك فيما أرى ــ قيود وضوابط يجب أن تكون قائمة وثابتة ، عندما يراد حرمان مواطن ما من حريته لأمد غير قصير ٠٠ هذا ما كنت أثق به ، وأثق في وجوده ٠

على أنني ــ ولست أدرى حقيقة لماذا ــ كنت دائم التفكير في تلك المدرسة التى أثرت في وفى العيسوى كما لم تؤثر فينا أية مدرسة أخرى أعنى المدرسة الفدائية ، مدرستى الأولى ومدرستى الأخيرة : مدرسة ملائكة الاغتيال ٠

البـــاب الـرابــع

الفصل الأول

المدرسة الفدائية : مدرستى الأولى والأخيرة
مدرسة ملائكة الاغتيال

عشقت ـ ومنذ الطفولة ـ الأبطال والبطولة : وكم كان يلذ لى وأنا صغير السن أن أجلس على الأرض أمام شاعر الربابة عندما يستقدمه بعض أبناء قريتنا فى الأفراح ، والليالى الملاح فى حفلات الزواج ، الطهور • العودة من بيت الله الحرام •

وكنت أتتبع كل حرف يقوله ذلك الشاعر عن أبوزيد الهلالى سلامة والزناتى خليفة وأجمل جميلات السيرة الهلالية جازية •

وكنت أفرح للأحداث المفرحة ، وأبتئس للأحداث المؤسفة بل أكثر من ذلك كانت أعصابى تهتز عندما يخرج الزناتى لمنازلة خصمه بالسيف وكنت أدعو الله ـ فى سرى ـ أن يكتب له النصر •

وكذلك الأمر مع بعض البطولات الأخرى بطولة الزير سالم وغيرها وغيرها •

وكان شاعر الربابة بذكائه الوقاد يحرص على أن يتوقف عند حدث مثير حتى نقضى ليلتنا ونهارنا الى أن نلتقى به ثانية نفكر فى الأمور التى ستحدث فيما بعد وكان خيالنا يشتعل ويشتعل •

وفى أحيان كثيرة كنا نجلس ـ على الأرض أيضا أو على احـــدى المصاطب ـ نحن صبيان القرية ـ لنتحدث فيما سيحدث ويسأل كل منا الآخر ماذا يتوقع أن يحدث بفلان وعلان و • و • ؟

وكنا نتعاطف مع الشخصيات الخيرة وننفر من الشخصيات الشريرة بل كنا نطلق أسماء أبطال تلك القصص على بعضنا فالشجاع نسميه أبوزيد الهلالى والماكر الخبيث ، نسميه الزناتى خليفة ٠٠ الخ الخ ٠

ثم تطورت أفكارنا ومعلوماتنا الى حد ما فأصبحنا نهيم بالعديد من البطولات المصرية ٠

وكان بعضهم قد نجح فى تحويل قصة مصطفى كامل الى موال شعبى حلو المذاق يشوقك اليه ويجعلك تتعاطف مع صاحبه وتكره خصومه كرومر وكافة جنود الاحتلال ٠

وبدأنا نعجب بأبطال دنشواى أولئك الذين ضحوا بأرواحهم فى سبيل الدفاع عن كرامة بلدهم ٠

ثم انتقلنا الى قصة أدهم الشرقاوى وعشنا معها زمنا طويلا : نخوض معاركه فى عمليات اختفائه ، نخشى عليه وكأنه أحب الناس الينا اذا ما حوصر فى أى مكان وكنا نحفظ عن ظهر قلب بعض ما يجىء فى موال أدهم الشرقاوى :

منين أجيب ناس لمعنات الكلام يتلوه
شبه المؤيد اذا حفظ العلوم وتلوه
كلام ومطلوب عشان الأعيان راح أقوله
خايف نقوله تقولوا مش معقولة
رواية عن شاب شملول وسيفه على العدا جاوى
الاسم أدهم لكن النقب شرجاوى
الولد كان بالمدرسة عنده من السن تلاتاشر
وتنه فى المدرسة لما بلغ من السن سبعتاشر
يا عينى على اللى جرى للسبع يا عينى
من يومه مظلوم ومثله ما رآت عينى
اشمعنى هوه اللى من زملاه يا عينى
فى المدرسة يترفد علما بأنه نبيه
دانبيه أتى له شرع العين بالعينى

شخصيات كثيرة أحببتها فى صغرى وأصبحت أقرب الى من أولئك الأقارب الذين أعيش معهم ٠ ويعيشون معى وفى بعض الأحيان كنت

أضع نفسى أو أحاول أن أضع نفسى مكان تلك الشخصيات كما أحاول أن أعبر عن مكنونات نفسها فيما أكتبه من كلام فارغ لا قيمة له على الاطلاق ، ليس فيه الا تعبير جياش عما فى النفس ·

ويظهر أننى تعلمت الكتابة قبل أن أتعلم القراءة ·

كانت الكتابة هوايتى من الصغر وما أكثر الأشعار ، أو التى كنا نسميها أشعارا التى جادت بها النفس فى الغزل وفى الوطنيـــــة وفى الحماسة والتى كنا نصوغها موزونة أو غير موزونة والتى كنا نعهد بها الى من يجيدون الكتابة بغية كتابتها ·

ما أكثر ما حفظنا بعض الأشعار التى كانت ترد على ألسنة بعض الأبطال فى القصص الشعبية التى كنا نسمعها من شاعر الربابة أو من غيره من الرواة وما أكثر الأشعار التى كنا نحاكى بهـــا ما نسمعه من أشعار · ونحاول الاقتداء بها فى الوزن وفى القافية ·

وبمرور الأيام ازددنا معرفة بتلك الشخصيات التى كنا نسمع عنها أو نقرأ عنها ثم رحنا نحاول الاقتداء بها وما أكثر ما تمنيت فى طفولتى أن أكون أبوزيد الهلالى سلامة أو الزير ســالم ، أو عنترة العبسى أو أدهم الشرقاوى ·

وما أكثر ما كرهت الشخصيات الشريرة فى تلك القصص والملاحم ، وقد تجلت كراهيتى لتلك الشخصيات اننى – فى صغرى – كنت أتمنى مقابلتها لكى أخوض واياها بالسيف الخشـــبى ، الذى كنت أحتفظ به باستمرار ، المعارك لكى أخلص الناس من شرورها وآثامها ·

وقد وصلت فى تلك الرحلة المبكرة من حياتى الى أن أعظم ما يقدمه المرء فى حياته أن يجود بالروح فى سبيل دينه ، وبلده وشعبه وأى هدف نبيل آخر يمكن أن يحققه اذا ما ضحى بتلك الروح : ليس مثل التضحية بالروح أية تضحية أخرى فى الوجود ·

ثم جذبتنى فيما بعد رؤيتى للحياة وكانت رؤيا مثالية للغاية : مادام الموت هو النهاية ومادام لم يخلق بعد من يمكن أن يكون مخلدا فان الحياة لا قيمة لها اذا انتهت بدون أن يتوجها المرء بعمــل عظيم بل لقد وصلت الى نتيجة – وكنت لا أزال بعد فى مرحـلة الصــبا وبدايات الشباب – ان حياة قصيرة متوجة بعمل عظيم خير ألف مرة من حياة طويلة بدون ذلك العمل العظيم : الحياة الطويلة بدون العمـــل العظيم أشبه ما تكون بشجرة غير مثمرة ·

ولذلك بدأت أسترخص الحياة وأتمنى أن أختتمها مبكرة بعمل عظيم حقا .

بل لقد وقر فى ذهنى وفى قلبى أنه من الخير للمرء أن يموت وهو فى سن مبكرة بعد أن يؤدى عملا جيدا من أن يعيش طويلا حيث من الممكن أن تغريه الدنيا بالزائل من المغريات القاتلات .

ونمت التجارب وكثرت آفاق المعرفة وأصبح لدى الفرد منا قدر لا بأس به من المعلومات وثمار ما قمنا به من قراءات ، وبدأت لا أكتفى بالقراءة ولا بالكتابة عن الشخصيات الفـذة أو التى لعبت بعض الأدوار التاريخية وانما رحت أسعى لمقابلة تلك الشخصيات فان لم يتيسر سعيت الى أبنائهم أو بناتهم ، أو أقاربهم ، أو معارفهم لكى أستمع منهم شخصيا الى بعض ما يعرفونه عن تلك الشخصيات .

وفى بعض الأحيان كنت أصطدم - كما حدث فى حالات كثيرة - ان معلوماتى عن تلك الشخصيات رغم أننى لم أقابلها مرة واحـدة فى حياتى أضعاف أضعاف ما لدى أولئـك الأبناء والبنـات والأقارب ، والمعارف ! .

وكان من حولى يستغربون جدا أننى وقبل أن أستقر فى القاهرة كنت أحرص على زيارة شخصيتين هامتين رغم أنهما لا يعرفان عنى شيئا ، الشخصية الأولى شخصية عبد الفتاح عنايت الذى حكم عليه بالاعـدام فى قضية مقتل السير لى ستاك سردار الجيش المصرى ثم خفف حكم الاعدام الى المؤبد وخلال قضائه فترة العقوبة فى السجن حصـل على ليسانس الحقوق من جامعـة فؤاد الأول وكانت الحجة التى أتذرع بهـا لزيارة عبد الفتاح عنايت اننى أعد دراسة عن القضايا السياسة الهامة ومن بينها قضية مقتل السردار ولأن عبد الفتاح عنايت هو الوحيد من بين المتهمين فى تلك القضية فان الدراسة الموضوعية تتطـلب الاستماع اليه فى سجنه .

وقد تردد عبد الفتاح عنايت فى البداية ثم راح يسـتقبلنى كل اسبوعين مرة أو كل شهر مرة بحفاوة بالغة .

ولم أقل أبدا لعبد الفتاح عنايت اننى متألم من اعترافه فى القضية ذلك الاعتراف الذى أساء الى بقية المتهمين وفى مقدمتهم شقيقه عبد الحميد وانما كنت باستمرار أدعه يتحدث لى عن والده ووالدته وأشقائه وقد مات الأخ الأكبر محمـود فى السجن وأعـدم الأصغر عبد الحميـد وهرب عبد الخالق الى النمسا .

أما الشخصية الثانية التى كنت أحرص على زيارتها فى مستشفى الأمراض العقلية بالعباسية فكان البطل على عبد اللطيف زعيم جماعة اللواء الأبيض بالسودان ، وكنت وأنا أزور زميلا لى كان يؤدى امتحان الثقافة السنة الثالثة ثانوى وقد أصيب بجنون لكثرة مذاكرته وعلمت أن على عبد اللطيف فى هذه المستشفى ولا أحد يعرف عنه شيئا ٠

وكان تصريح الزيارة يأتى باسم هذا الزميل وان كنت بعد زيارته اتوجه لزيارة على عبد اللطيف حيث زيارته ممنوعة ٠

كنت أركب الترام من العتبة الخضراء الى القبة الفداوية ثم أسير على قدمى الى مستشفى الأمراض العقلية ٠

وعندما كنت ألتقى بعلى عبد اللطيف كنت أجده فى حالة عقلية طيبة لولا مؤثرات خفيفة من بقائه فى تلك المستشفى سنوات طويلة ٠

وفى بعض الحالات كان يسألنى : هل أنا صحيح يا ابنى مجنون ؟ وكنت أنفى عنه صفة الجنون وأذكر له ان الانجليز هم وراء الالقاء به فى المستشفى ٠

وكنت أستزيده من الحديث عن جمعية اللواء الأبيض كما كنت أستزيده من الحديث عن زملائه فى تلك الجمعية ، الذين قضوا ، والذين لا يزالون بعد على قيد الحياة ٠

وكان يسعدنى منه أنه برغم سجنه ، وتعذيبه ورغم الالقاء فى مستشفى الأمراض العقلية وحتى بعد عقد معاهدة ١٩٣٦ ، لم يفقد أمله أبدا بوحدة وادى النيل ٠

وكان من أسعد اللحظات التى أعيشها عندما كنت أذهب الى شبرا لألتقى بالحاج أحمد جاد الله وزوجته الشجاعة الباسلة ٠

وكان الرجل وزوجته يحسنان استقبالى فقد كان مجرد زيارة شاب وطنى لهما يبعث فى نفسيهما الغبطة بعد أن نسيهما أو تناساهما الجميع ، حتى من كانوا يعملون واياهم فى الحقل الوطنى ، ممن أصبحوا وزراء بل رؤساء وزارات وكان فى مقدمة ما علق بذهنى وقلبى أقوال الحاج أحمد وزوجته ، قصتهما مع بعض الفدائيين ٠

كان أحمد جاد الله ، يخرج من بيته فى شبرا متأبطا ذراع زوجته ، سائرين على الأقدام الى حديقة الحيوان وقد حملا « سبتا » به جبنة وسميط وبيض ٠

وكانا يبيعان ما لديهما الى أن يجيء من يذكر لهما « كلمة السر » فيعطى الى جانب البيض والسميط قنبلة ، أو مسدسا ٠

ثم يجيء هذا الذى يحمل كلمة السر بعد فترة من الزمن ليعطى المسدس الذى كان قد أخذه ، أما اذا كان يحمل قنبلة فانه لا « يعود بها » لأنه يكون قد فجرها ٠

وبعد أن ينتهى من العمليات الفدائية « المقررة » بالنسبة لكبار الموظفين الانجليز فى الجيزة والدقى يعود الحاج جاد الله وزوجته والسبت اياه وقد أصبح خاليا الا من مسدس مستخدم حديثا وبعض بقايا بيض وسميط ٠

وقد ظل الحاج أحمد جاد الله يقوم بهذه المهمة سنوات وسنوات هو وزوجته دون أن يكشف البوليس أمرهما ٠

وقد بذلت ــ شخصيا ــ جهودا شاقة مضنية من أجل العثور على ولدى ابراهيم موسى زعيم عمال العنابر الذى أعدم فى قضية مقتل السير لى ستاك سردار الجيش المصرى والحاكم العام للسودان ٠

وأخيرا اكتشفت أنهما يقيمان فى غرفة ضيقة فى مكان ناء بالشرابية ــ من أحياء القاهرة ــ ولم أستفد من ابن ابراهيم موسى « جمال » ولا من ابنته من ناحية المعلومات فقد كانا صغيرين عندما أعدم والدهما ٠

ومحاضر قضية السردار التى أعطتنى اياها ابنة ابراهيم موسى التى كانت لا تعرف القراءة والكتابة أفادتنى كثيرا وخاصة تلك التقارير التى كتبها بعض زعماء الحركة الفدائية كالدكتور شفيق منصور عن تاريخ الحركة والحوادث التى ارتكبها بعض أعضاء تلك الحركة ٠

واستفدت كثيرا من زوجة محمود اسماعيل الذى أعدم فى قضية السردار وقد روت لى فى حضور ولدها كمال اسماعيل ــ كيف كان اختياره لها لأول مرة بعد أن تزوجا مباشرة ٠

كان محمود حينئذ فى مأمورية الأوقاف بدمنهور وكان يستأجر منزلا ــ من بابه ــ لا يشاركه فى سكناه غير زوجته وذا تيوم طلب محمود من زوجته أن تطهى له وللفيف من أصدقائه دعاهم لتناول الغداء سمكا سيرسله لها ٠

ودخل الخادم يحمل قفة كبيرة بداخلها شيء كبير الحجم ملفوف بلفافة بيضاء يغشاها الدم ٠

وذعرت الزوجة وأبعدت الخادم خارج المنزل ·

وأغلقت على نفسها وعلى « القفة » الأبواب ·

وظلت الى جوار القفة من الصباح الباكر حتى الساعة الثانية بعد الظهر حينما عاد زوجها من عمله ·

وسأل الزوج : خلصت السمك ؟ ·

وردت الزوجة : سمك ايه وبتاع ايه أما نشوف المصيبة دى الأول ·

- مصيبة ايه ؟ ·

- القتيل الى انت بعته عملت فيه ايه ؟

- ماعملتش حاجة بعت الخدام بره وقفلت الباب على القفة · وبعدين حنعمل ايه ؟ ندفنه تحت فى الحوش · فكرة عال ·

انما قتلته ليه مش حرام يا محمود ؟ ·

واستغرق الزوج فى الضحك وكشف القفة فوجدت الزوجة سمكة كبيرة بداخلها ·

وأدرك محمود ان سره مصون وانه عرف كيف يختار زوجته ·

ومن هذه اللحظة بدأت الزوجة الوفية تعاون زوجها وأصدقاؤه فى عملية دفن المفرقعات والذخيرة فى باطن الأرض بفناء المنزل ·

ومرة هاجم البوليس ، المنزل وكان معها شقيقها محمد عبده ، الذى لم يدر كيف يواجه الموقف ·

أسرعت الزوجة الى أحد الدواليب تخرج عددا من القنابل الصغيرة وعددا آخر من المسدسات ·

ودق البوليس باب الحجرة فارتفع صوتها : استنوا شويه لما البس هدومى ·

بينما أسرعت تلف المفرقعات حول بطنها ثم تلف جسدها بملاءة · وتفتح الباب ·

ويتدافع رجال البوليس الى داخل الحجرة ، يفتشون هنا وهناك بينما محمد عبده شقيقها قد تسمر فى كرسيه وانسحبت الزوجة احتشاما فما يليق أن يراها أجانب ·

وتبوء حملة البوليس بالفشل فينصرفون ويعود محمود اسماعيل باحثا عن زوجته فلا يجدها في البيت .

ويبحث في سرداب ينتهي الى فتحة صهريج كبير قديم فيجدها جالسة الى جانب الفتحة وأمامها الذخيرة .

وقد همت بالقائها في الصهريج حينما سمعت صوت أقدامه يعود اليها ، ولما تبينت صوته أعادت الذخيرة الى مكانها .

وسألها محمود لماذا لم ترمها في الصهريج ، وأجابت باسمة : مش خسارة دي بفلوس برضه ، يمكن تنفع في يوم من الأيام .

وقد كان في مقدمة ما يحز في النفس وفي الفؤاد ، أن أصدقاء محمود وزملاءه أو بعض أصدقائه وزملائه بمعنى أدق لم يكونوا محافظين على الصداقة والزمالة .

وفي بعض الأحيان ، كان بعضهم يهرب من ابن كمال ، أو من زوجة محمود بالرغم من أنهما - الابن والزوجة - لم يكونا بحاجة الى أحد . ولكنه الجبن الذى كان قد استولى على بعض النفوس والأفئدة فأفقدها أبسط ما يمكن أن يتمتع به المرء وهو أن يكون وفيا لأصدقائه وزملائه .

روت لي زوجة محمود ، أن السجن فتح يوما ما ليدخله أحمد الأخ الأكبر لمحمود في زيارة خاصة وشرع أحمد يروى لأخيه قصة العفو الموعود .. ان هو تكلم ويستعطفه باسم ابنه الطفل وباسم عائلته وهو رب عائلة كبيرة وفقيرة ويستحلف أحمد أخاه محمود بكل عزيز لديه أن يتكلم .

ويرفض محمود ما يعرضه عليه أخوه بل يستنكر ذاك الذى يعرض عليه ويقول لأخيه الأكبر : أنا لو تكلمت سيقيم الانجليز مائة مشنقة لمائة رأس كبيرة فهل تساوى رأسي كل هذه الرءوس .

وخرج أحمد ليرى انجرام ومساعده سليم زكي يسترقان السمع في غفلة منهما ويسجلان حديثهما .

وقد كنت أذرف الدمع دما وأنا أسمع من زوجة محمود قصة زيارتها الأخيرة له : كان محمود اسماعيل يبذل جهد طاقته أن يجنب أسرته المذلة والهوان وقد كان يتمنى ألا يفقد أعصابه في الزيارة الأخيرة التي سبقت الاعدام ، حين اجتمعت به الأسرة أكد بأنه عائد حتما وتبسط في الحديث وداعب الكل فردا فردا حتى كادت الأسرة تقتنع فعلا بأنه عائد .

وعاد كل أفراد الأسرة الى بيوتهم الا واحدة لم يقنعها حديثه :
وفي اليوم التالى كانت تقف أمام باب السجن منذ الفجر .

وأقبل أحد حراس السجن يزجرها ويركلها بقدمه وقالت له : يا ابني أنا زوجة محمود اسماعيل فارتعشت قدم الجندى وقدم لها الاعتذار وخرجت سيارة كبيرة فعدت خلفها تتطلع الى من فيها فسمعت ابراهيم موسى يقول لها بصوت مرتفع : العربية اللى ورانا .. وخرجت العربة الثانية تحمل محمود اسماعيل الى حيث يعدم فأجهشت بالبكاء وجرت خلف السيارة التى أبطأت السير .

لقد أشار الضابط الذى كان يرافقه فى السيارة الى السائق أن يتمهل حتى ترى الزوجة زوجها .

ولم يملك محمود الا أن يطلب منها أن تعود الى البيت وكان يردد قائلا : ربنا يسترك ربنا يسترك وارتفعت الراية السوداء على دار محافظة مصر في صبيحة ٢٣ أغسطس ١٩٢٥ حيث صعد الى المشنقة ثمانية من أعز أبناء مصر ، هم : عبد الحميد عنايت (الطالب بمدرسة المعلمين العليا) ابراهيم موسى (الخراط بالعنابر) محمود راشد (المهندس بالتنظيم) على ابراهيم (البراد بالعنابر) راغب حسن النجار د. شفيق منصور ، المحامى ، محمود أحمد اسماعيل (الموظف بوزارة الأوقاف) محمود صالح (سائق سيارة أجرة) وذلك لاغتيالهم سير لى ستاك سردار الجيش المصرى والحاكم العام للسودان .

وكانت وزارة زيور باشا ـ التى أعقبت وزارة سعد زغلول ، التى جرى فى عهدها اغتيال السردار ـ قد حاولت ايجاد صلة بين حادث مقتل السردار وحوادث القتل السياسى التى وقعت ضد البريطانيين من قبل .

وكانت وجهة نظر المحققين اتهام فريق من الوفديين بأن لهم يدا فى تلك الحوادث .

وانتهى التحقيق بتقديم كل من الدكتور أحمد ماهر ، والاستاذ محمود فهمى النقراشى والاستاذ حسن كامل الشيشينى وعبد الحليم البيلى ، ومحمد فهمى على ، ومحمود عثمان مصطفى والحاج أحمد جاد الله للمحاكمة أمام محكمة الجنايات بتهمة تدبير حوادث القتل والاشتراك فيها .

وكانت هيئة المحكمة مؤلفة من المستر كرشو رئيسا وكامل ابراهيم بك ، وعلى عزت بك ، عضوين ومثل النيابة مصطفى حنفى بك .

وقد ترافع فى هذه القضية أشهر محامى مصر : مصطفى النحاس ، مرقص حنا ، مكرم عبيد ، نجيب الغرابلى ، أحمد لطفى ، مصطفى الشوربجى ، وهيب دوس ، زهير صبرى ، ابراهيم رياض •

وفى ٢٥ مايو ١٩٢٦ صدر الحكم باعدام محمود فهمى على شنقا وبراءة جميع المتهمين الآخرين •

ولم يكن القاضى كرشو موافقا ، على براءة ماهر ، والشيشينى والحاج أحمد جاد الله ومحمود عثمان فقدم استقالته من منصبه بعد الحكم وبناها على اعتراضه على براءة هؤلاء •

وكان للتحقيق فى تلك القضية وكذلك الحكم فيها كما كان لاستقالة كرشو ، أكثر من ضجة فى مصر •

لقد اتهم بعض أعضاء الوفد المصرى بارتكاب بعض حوادث القتل أو الاشتراك فيها ثم جاءت المحكمة ، لتبرىء الوفد من الاشتراك فى حوادث القتل ، بتبرئة أعضائه •

أما المندوب السامى البريطانى فى مصر فقد أبلغ الحكومة المصرية أن حكومته ترفض حكم المحكمة الذى برأ المتهمين الوفديين وخاصة أحمد ماهر ، والنقراشى •

وقد ظلت الحكومة البريطانية تستخدم الفيتو ضد أحمد ماهر والنقراشى ، اذا ما أريد اشتراكهما فى الوزارة الى أن أصر النحاس باشا على هذا الاشتراك الأمر الذى أحدث ضجة كبيرة فى البرلمان الانجليزى •

***

وربما كان فى مقدمة الشخصيات التى تأثرنا بها فى صبانا وتمنينا لو كنا نستطيع افتداءها الشاب الهندى دنجرا الذى كان يطلب العلم فى انجلترا وكان قلبه مليئا بالبغض والكراهية والحقد على من احتلوا بلاده من الانجليز •

وقد انتهز دنجرا فرصة وجود السير كيرزون ويللى ــ وكان وقتئذ حاكما للهند ــ فى احدى الحفلات التى أقيمت فى مدينة لندن فقتله ظنا منه أنه بذلك يعيد مجدها اليها ويحررها من الاحتلال البريطانى وهو ظن خاطىء بطبيعة الحال •

قبض على دنجرا وأثناء التحقيق معه ، اعترف بكل صراحة ووضوح ،

بأنه القاتل وأن أمله فى أن يفتدى الهند ـ وطنه ـ بحياته فما أرخص الموت فى سبيل الوطن ٠

ولما حكم عليه ، بالاعدام ، لم يضعف ولم يهن وانما ابتسم لهذا الحكم ، وحياه « بسلام عسكرى » شاكرا القضاة الذين هيئوا له فرصة الموت فى سبيل بلاده ٠

وكنا قد حفظنا الأبيات التى حياه بها الشاعر على الغاياتى ٠

ولم يكن نشرها مباحا وانما كانت تتداول خلسة بعد أن نشرت فى ديوان « وطنيتى » وقد صودر هذا الديوان ٠

والأبيات التى وجهت الى دنجرا قبل اعدامه هى :

هنيئا فقيد الهند نلت مدى المجد	وخلدت التاريخ فى مصر والهند
همو حكموا بالموت وهو محبب	اليك فحييت القضـا معلن الحمد
وقدمت نفســا للفـداء كبيرة	لتبعث فى وجدان النفوس على وجد
وسرت أن تقضى الحياة مجـاهدا	وأبديت في التحقيق مالم تكن تبدى
شجاعة مقـدام يجـود بنفسه	على الوطن المأمول في القرب والبعد
وقوة ليث دونهـا كل قوة	تروح الى رشد ، وتغدو على رشد
ألا فى سبيل الله موت مجـاهد	يذود عن الأوطان فى المهد واللحد
يموت ولكن لا يموت جهـاده	وعما قريب تصبح الهنـد للهندى

وكذلك حفظنا أبياتا للغاياتى وجهها الى دنجرا بعد اعدامه ٠

وقد لوحظ أنها كانت رثاء شخصيا وليس فيها تمجيد للجريمة ، حيث كان القانون يعتبر ذلك التمجيد جريمة ٠

وقد كانت تلك الأبيات :

كيف أرثيك دنجرا بمقـال	يدع القـوم انه اجـرام
كنت شـهما على البلاد غيورا	لم يشنك الرضـاء والاحجام
دفعتك الحياة للمـوت حتى	لم يرعك القضـاء والاعـدام
فقضـيت الحياة مبتهج النفس	وأمضـت قضاءها الأحـكام
مت بالأمس والممـات حيـاة	خلدتهـا لذكرك الأيـام
فسـلام عليك والدمع جار	وسـلام وفى القـلوب ضرام
يا فتى الفتيـان فى النفس وجدا	كافيـا تسـتفزه الآلام
رحت أبديه يوم موتك لـكن	حال بينى وبينـه الحـكام
وسـيبدو مع الزمان ويدرى	غافل القوم أننـا لا ننـام

وكانت العلاقات وثيقة للغاية بين الحركة الوطنية المصرية والحركة الوطنية الهندية ، وكان ثمة تحرك مشترك بين الحزب الوطنى فى مصر وبين الكثيرين من قادة الحركة الوطنية الهندية ، يبدو جليا فى المؤتمرات الدولية وفي العمل المشترك للاضرار بأدوات الاحتلال البريطانى فى كل من مصر والهند وكان الاحتلال البريطانى يبذل قصارى جهده لقطع الصلات بين الحركتين الوطنيتين فى كل من مصر ، والهند ٠

***

أما الشخصية الثانية التى أثرت فينا ، تأثيرا كبيرا والتى كانت ـ فى صبانا ـ تزورنا فى أحلامنا وكأنها توقظنا فهى شخصية ابراهيم ناصف الوردانى ٠

وكانت الروايات تجىء الينا عن تلك الشخصية لا من الكتب ولا من الصحف فان الكتب والصحف قد تجاهلت ابراهيم الوردانى خشية اغضاب الاخوة الاقباط الذين كان منهم بطرس غالى باشا الذى قتله ابراهيم ناصف الوردانى ٠

وبرغم التأكد من أن دوافع القتل كانت سياسية لا دينية الا أن الاحتلال البريطانى صاحب فلسفة : فرق تسد ، قد ضرب على هذه النغمة ، نغمة التفرقة بين أبناء الوطن الواحد ٠

كانت الروايات عنه تأتينا ـ فى البداية ـ من أبناء قريتنا الذين اعجبوا اعجابا شديدا بذلك الفتى الذى واجه الموت بصدر رحب ، بل بشجاعة وبسالة ، لا مثيل لهما ٠

وما أكثر ما كنا نسمع المواويل التى تبكى الوردانى وخصوصا ، الموال الذى مطلعه :

قولو لعين الشمس ما تحماشى   أحسن غزال البر صابح ماشى

وقد قيل هذا الموال قبل اعدام الوردانى بأيام ٠

وقد رمز اليه فى الموال بأنه غزال البر ٠

وبعد ان كبرنا جاءتنا روايات كثيرة عنه وخاصة من الأستاذ امام وأكد أحد أقطاب الحركة الوطنية المصرية والذى لم ينل بعض حقه والذى كان يتحدث الينا عن الوردانى حديث أخ وتلميذ ٠

ثم تطورت الأيام وعرفت شقيقته ، ـ شقيقة ابراهيم ناصف الوردانى ـ وكم كانت سعادتى بالغة بتلك المعرفة ٠

كانت السيدة قد جاوزت السبعين من العمر ، وقد ابيضت عيناها من الحزن على شقيقها ابراهيم ٠

وكانت قد احتفظت بمجموعة من الخطابات ، كان يبعث بها ابراهيم الى والدته ٠

وكانت شقيقته وقتذاك طفلة صغيرة ٠

فى تلك الخطابات يتجلى ابراهيم ناصف الوردانى ـ وكان وقتئذ يدرس الصيدلة ـ على حقيقته ٠ وكأنه طفل كبير يتحدث عن الهدايا التى اشتراها لشقيقته نعمت كما يتحدث عن عواطفه فى الغربة واهتماماته الصغيرة ببعض ما يحدث فى سويسرا ٠

وبعض الخطابات بعث بها ابراهيم ناصف الوردانى الى بعض أصدقائه وقادته فى الحزب الوطنى يخبرهم بمساعيه لدى دولة الخلافة العثمانية لكى تقبل بعض الشبان المصريين فى مدارسها العسكرية بعد ان حيل بينهم ـ الشباب المصرى ـ فى أوائل عهد الاحتلال البريطانى لمصر وبين دخول الكليات العسكرية بل من الدراسة العسكرية بأية صورة ٠

وكان أكثر ما هزنى فى حياة ابراهيم ناصف الوردانى قوله وهو على حبل المشنقة :

أشهد الا اله الا الله وان محمدا رسول الله وان الحرية والاستقلال آيتان من آيات الله ٠

وكنا قد حفظنا أبيانا قيل انها لاسماعيل صبرى باشا ـ والعهدة فى ذلك على الأستاذ امام واكد ـ قالها فى ابراهيم الوردانى ، وقد جاء فيها :

أكبرت حتى انهم صلبوك
مثل المسيح فليتهم عبدوك
لو كان يحوى النيل شعبا ساهرا
يحمى الحقيقة والدم المسفوك
ما كان الا شن غارته على
تلك السجون وغل من سجنوك

وفى ابراهيم ناصف الوردانى قال على الغاياتى :

هل خال ابراهيم عند قضائه ... أملا من الآمال دون حياته
لم يفد حسن الدفاع ولم تفد ... فتوى الشريعة وهى حصن نجاته
فقضوا على هذا الشباب وريه ... لم يثنه الاعدام دون ثباته
حتى كأن الموت من رغباته ... ليكون فى الأحياء بعد مماته

واشارة الغاياتى هنا الى حسن الدفاع : اشارة الى تلك المرافعات العظيمة التى قام بها ابراهيم الهلباوى وقد كان أراد ان يكفر بها عن خطيئته الكبرى فى قضية دنشواى وكذلك مرافعات محمود أبو النصر وأحمد لطفى وكل شيوخ المحاماة ، وقتذاك فى مصر ٠

أما معنى الشريعة التى اشار اليها فهى تلك الفتوى الشرعية من المفتى التى امتنعت عن الموافقة على تنفيذ الحكم باعدام ابراهيم ناصف الوردانى ٠

ومن المعروف أن رأى دار الافتاء فى مسألة الحكم بالاعدام رأى شكلى وليس ملزما للمحكمة ٠

***

وقد كان الشعر الوطنى ـ وقتذاك ـ فى الفترة من ١٩٠٠ حتى ١٩١٤ يلعب دورا وطنيا هائلا ٠

كان الشعراء مقاتلين من الطراز الأول ، وقد دخل الغاياتى ، ومحمد فريد السجن ستة أشهر : الأول لأنه أنشأ ديوان وطنيتى والثانى لأنه حسن ـ بتشديد السين ـ ، الديوان ٠

والجدير بالذكر انه كان قد قبض على تسعة من الشباب الوطنى فى قضية مقتل بطرس غالى هم ابراهيم ناصف الوردانى (صيدلى) وعلى مراد ومحمود انيس (المهندسين)وعبده البرقوقى ، وشفيق منصور (الطالبين بمدرسة الحقوق) ، وعبد الخالق عطية المحامى وعبد العزيز رفعت (المهندس) وحيد حسن ، ومحمد كمال وقدم التسعة الى قاضى الاحالة متولى بك غنيم ٠

وكان لتقديم القبض الى قاضى الاحالة بهذه الصورة حدث وطنى كبير ، فلأول مرة فى تاريخ القضاء المصرى يقدم مثل هذا العدد من شباب مصر الى القضاء فى جريمة قتل ٠

ولكن قاضى الاحالة برأ ثمانية من هؤلاء التسعة واكتفى بتقديم واحد منهم هو ابراهيم ناصف الوردانى الى محكمة الجنايات ٠

وكان الحكم الذى أصدره القاضى متولى بك غنيم ، ـ أو القاضى العادل كما أطلقوا عليه ـ فى يوم ذكرى المولد النبوى الشريف ، وفى ساحة المحكمة ارتجل على الغاياتى قصيدته التى مطلعها :

عيد النبوة أم عيد البراءات ‏ قولوا يعيش قاضي الاحالات

وفي القاضي العادل متولى بك غنيم قال الغاياتى :

حكمت فارضيت البلاد وأهلهـا وحياك عيسى والمسيح ومحمدا
وأثنى عليـك الله بين ملائـك ترتل في ذكـراك حمدا مرددا
ثمانيـة احييت رقـابهم قام عليهـا الموت سيفا مجردا
وراقبت وجه ربك مرسـلا من العدل آيات وحـكما مسددا
فخلدت الأيام ذكـرك بيننـا وبات لك الشعب المجيـد ممجدا
لك الله من قاض تـولى أمورنـا فكان لنا عند الشدائـد مسـندا
رأى وادى النيل يبكى في الخطوب جسيمة وفي شعب مصر يشتكى عادى العدا
فلم يخش الا الله عند قضـائه وصان حقوق الأبرياء وأيـدا
سلام عليك اليوم يا خير عادل أعاد جهود الراشدين وجـددا

***

وتاثرنا في صبانا أيضا والى حد بعيد ـ بقضـية مؤامـرة شبرا ـ ١٩١٢ ـ وكان يلذ لى الاستماع بل والاستمتاع بما كان يردده على مسامعنا أبرز المتهمين فى تلك القضية امام واكد الذى كان يتخذنى ابنا روحيا له وكان يقول لى باستمرار ، انه يرى فى شبابه الذى ولى ٠

وكنت قد قرأت ما كتبه محمود طاهر العربى ، ـ احد المتهمين فى تلك القضية ، ـ تحت عنوان : اثنى عشر عاما فى السجون أو فى مقابر الأحياء وكان قد قبض عليه ـ على العربى ـ فى أول يوليو ١٩١٢ وافرج عنه فى ٢١ يوليو ١٩٢٣ وكان امام واكد ، ومحمود طاهر العربى ومحمد عبد السلام قد قدموا الى محكمة مصر الابتدائية برئاسة ذى الفقار بك ، وعضوية توفيق رفعت بك وموسى بك المستشارين وكان فى كرسى النيابة عبد الخالق ثروت باشا ، النائب العام ٠

وقد تطوع للدفاع عن امام واكد ، الأستاذ ابراهيم الهلباوى وتطوع للدفاع عن طاهر العربى الأستاذ مصطفى الشوربجى كما تطوع الأستاذ عبد الوهاب البرعى للدفاع عن المتهم محمد عبد السلام ٠

وكانت التهم التى وجهت الى المتهمين التآمر على قتل الخـديوى عباس حلمى ، واللورد كتشنر المعتمد البريطانى فى مصر ، ومحمد سعيد باشا ناظر النظار والمستر دلبراوغلى ومحمد مجدى باشا المستشارين ٠

وقد جاء فى شهادة جورج فليبيدس مأمور ضبط العاصمة ورئيس أول مكتب سياسى انشىء فى مصر ان امام واكد كان تلميذا بالمدرسـة السعيدية ، وقد طرد منها فى سنة ١٩١٠ بأمر سعد باشا لأنه كـان يشتغل بالسياسة وانه اشترك فى عضوية جمعية فوضوية انشئت فى مصر

بعد حادثة ابراهيم الوردانى وانه كان للجمعية فروع كثيرة وان محمد عبد السلام كان عضوا بها وان الجمعية كانت تعمل تحت ستار تشجيع التعليم الحر ، وقد استأجرت « أودة » لهذا الغرض ٠

وقال جورج فليبيدس أن اسماعيل فرج من بين أعضاء تلك الجمعية وقد بعث بخطاب تهديد الى توفيق نسيم بك وأنه – اسماعيل فرج – قال يوم الحكم على على فهمى كامل – شقيق مصطفى كامل ، أنه سمع حسن حسنى كامل يقول انه سينتقم من اثنين احدهما يصعب الوصول اليه وانه – اسماعيل فرج – استنتج ان الشخص المقصود هو اللورد كتشنر وانه – فليبدس – بمجرد أن عرف ذلك ابلغ به هارفى باشا مساعد حكمدار العاصمة كما أبلغ هارفى باشا أيضا أن حسن حسنى كامل وآخر سيذهبان الى أوروبا لقتل سعيد باشا ، ناظر النظار ٠

وقال فليبدس أيضا ان هارفى باشا أبلغه عن اللورد كتشنر – الذى اتصل به شخصيا ، أى بهارفى باشا – ليبلغه ان امام واكد وطاهر العربى سيذهبان الى الاسكندرية لقتل ناظر النظار وان امام واكد سيعود من الاسكندرية الى القاهرة ليقتل اللورد كتشنر عند عودته من سخا ٠

وقال جورج فليبدس أيضا انه سمع عن محمد عبد السلام قوله لآخر : روح اخرط لنا رقبة الخديو » ولغرابة هذه الكلمة حفظها جيدا ٠

وعندما سئل فليبدس عن الأسباب التى تدعو المتهمين الى ارتكاب تلك الجرائم ٠

قال : ان المحرضين يبحثون عن أمثال هؤلاء الغلمان ليملأوا رؤوسهم بحب قلب الحكومة وقال : ان وظيفتى تسمح لى بأن أعرف ان رجال الحزب الوطنى يريدون قتل الخديو لأنه اذا قتل يوضع ابنه مكان أبيه ، وابنه قد تربى على مبادىء الحزب الوطنى بواسطة والدته ٠

أما قتل رئيس النظار – أو ناظر النظار – فلأنه لم يسر على السياسة التى دخل عليها الوزارة باتفاق مع الحزب الوطنى وبذلك القتل يكون الحزب الوطنى قد انتقم ودفع عن نفسه تهمة التعصب عندما يقتل رئيسا مسلما كما قتل من قبل رئيسا قبطيا ٠

اما الهدف من قتل اللورد كتشنر فهو أن يتعلم الانجليز ان مصلحتهم فى تخفيف سياستهم الشديدة فى مصر ٠

وكان من بين الكلمات التى وقفت عندها طويلا ، تلك التى جاءت على لسان عبد الخالق ثروت باشا ، النائب العمومى انه يحمد الله لأن الله

وفى البلاد من نكبة لم يشهد التاريخ لها مثيلا وان عددا من الأغرار المفتونين الذين طاشت احلامهم وعميت بصائرهم وقلوبهم وخبثت نفوسهم لم يروا من النور الا ظــلاما ومن اليسر الا عسرا ومن الخير الا شرا ومن وجوب المحافظة على القانون الا استبدادا ورقا ، لم تجد تلك الفئة خيرا من اراقة الدماء أنهارا ولا الحاق الايذاء بنفوس عالية تدأب أبدا لخير أمنهم البريئة الا قتل كبراء المخلصين لها خيانة وجبنا » ٠

ولست أدرى حقيقة أكان النائب العام يعرف جيدا أن القضية ملفقة من ألفها الى يائها أم لا ؟ وعلى أية حال فقد كان موقفه ـ موقف ثروت باشا ـ من تلك القضية من الأسباب التى أغضبت عليه الحركة الوطنية وان كان هذا الموقف قد جعله قريبا من المنصب الوزارى ٠

وقد وصف ثروت باشـــا المتهم امام واكد بأنه امام تلك الحركة المشئومة وحامل لوائها الاسود وأنه غر مفتون ضاقت بوالـــده المسكين سبيل تربيته فما زال ينتقل به من دور العلم تطرده مدرسة وتنبذه مدرسة أخرى وهو لا يحصل من العلوم شيئا حتى كانت خاتمة المطاف رفته من سلك تلاميذ المدرسة السعيدية لسوء أخلاقه والقضاء عليه بـعد ذلك بمنعه من دخول أية مدرسة أخرى من مدارس الحكومة حرصا حكيما من القائمين بالتعليم على التلاميذ من أن تصل اليهم شرارة من شره ٠

لقد عاد امام واكد من أوروبا بعد أن أرسله اليها أبوه عاطـــلا من حلية العلم والأدب ، عاد وفى عقله غبرة من الجهل والوحشـــية ٠٠ عاد ولم يحو صدره الا تلك المبادىء المبيدة الفاسدة : عـــاد فصرف قواه ، ومجهوداته الى تدبير العمل لتلك المبادىء وتأسيس تلك الجمعـيات التى شعارها الظاهرى الاشتغال بالمسائل الاجتماعية والخيرية وهى فى الباطن قوامها السياسة وبذلك أصبح واكد قطبا من أقطاب تلك الحركة ٠ واماما من زعمائها واشتهر بالقـــدرة على مغالبة البوليس ومخادعته وأنه قوة عاملة مؤثرة فى اجتذاب بعض الشبان المتحمسين ممن يسهل التغرير بهم لاستعمالهم فى تنفيذ بعض المقاصد ٠

وبعد أن يتحدث النائب العـــام عن محمود طاهر العربى ومحمــد عبد السلام يقول : هؤلاء المتهمون الثلاثة الذين عللتهم آمالهم الكاذبة بأن يكونوا من وراء ثورة يضرمون نارها ويؤججون سعيرها خير لهم ومتسع من ضيق عيش حاق بهم ومفرج من عسرهم فدعوا الى القتل والدم نظما وشعرا وما تركوا فرصة تمر الا ونادوا ملء أفواههم : هلموا أبناء البلاد الى السيف والحسام : هلموا الى القتل ، والقتال بحدين الخراب والدمار ،

منادين : لا هناء ولا عيش ولا سعادة الا اذا أجريت الدماء ، على ظبى ، الأسنة ، والرماح ٠

ويشـــير الى مقالة أعدها امام واحد للنشر بعنوان : اليوم لا لهو ولا لعب : بلادنا تباع لغيرنا فالى متى نعيش أرقاء فى ديارنا يتحكم فينا الأجنبى وكأننا خشب مسندة والى متى تستنزف أموالنا وتمتص دماؤنا ونحن لا نتحرك لدفع البلاء : اذا ما عشنا كما عشنا اليوم فسيجيئنا يوم تجز فيه رقابنا ويستعلى المستعمرون ظهورنا كما يعتلى المختال الفخور ظهر جواد ٠

ويأخذ النائب العام على امام واكد تمثله بأقوال الشاعر فى بعض مقالاته :

ماء الحيـــاة بذلـــة كجهنم   وجهنم بالعـز أطيب منـــزل

وكذلك قول الشاعر :-

واذا لم يكن من الموت بـــد   فمن العجز ان تكون جبانـــا

أو بقول الشاعر :

اذا الملك الجبار صعر خـده   مشينا اليه بالسيوف نعاتبـــه

كما يشير عبد الخالق ثروت باشا الى مقال آخر لامام واكد جاء فيه :

ياللعجب من الظالمين أيطغون ، ويبغـون ، ويرهقـون شعبا لولاه لما كانوا شيئا مذكورا ؟

أيعدون له السجون ، المفتحة الأبواب ، ويسنون له القوانين الصارمة العقاب ، ويكممون الأفواه حتى لا تتألم ولا تشكو أو تتكلم ويل للظالمين من يوم عبوس قمطرير ينشط من عقاله كل ذى حرية مسلوبة أو حقوق مغتصبة : يوم يهب كل مظلوم وينهض كل ذى حق مهضوم ٠

هذا يطالب بذهب ، وفضة ، وحق ضـــاع وعرض ومتاع وآخر يطالب بحرية وئدت وأقلام كسرت وصحت طويت وأصوات خفضت وأركان مادت ومعارف تلاشت ٠

يوم لا تسمع فيه لغوا ولا كذابا بل كل فى شغل شـــاغل عن صاحبه وذويه ، وابنه ، وأبيه : لا تسمع فيه الا قصف المدافع ولا ترى الا لمع السيوف وتناثر الأشلاء والهـام ، رجالا ، تصـــيح : الانتقام ، الانتقام ٠

كما يشير الى مقالة أخرى لامام واكد يقول فيها :

أنت أيها الشعب المبتلى بقوم ظالمين لئام لا يعرفون للعدل معنى ولا للحق مغزى : اصبر ولكن لا تخضع لجبروتهم ولا تستمرىء مراتع الهوان ، بل اعمل للحرية والاستقلال • ولا يهولنك السجن والتنكيل ولا ترهبك مظالمهم بل ارفع صوتك وقل لهم : ويل لكم أيها الظالمون وستعلمون أى منقلب تنقلبون •

وانهى النائب العام عبد الخالق ثروت باشا مرافعته بقوله : اننا امام تيار جارف ان لم نقف فى سبيله نزل بمفهومه سفهاء شبابنا الى منزلق فيه بلاء البلاد :

لقد بدأ هؤلاء الشبان يفكرون فى استباحة القتل ، واراقة الدماء تخلصا مما صوره حمقهم من الشقاء قبل أن يفكروا فى الخلاص من جهالتهم التى هم فيها يعمهون •

ان هذه الأفكار الطائشة الخطرة كالسلاح فى يد المجنون الهائج ان لم يعجل بنزعه منه قوة واقتدارا كانت العاقبة وبالا وعلى من هذا الواجب الخطر الشريف ؟ انه عليكم الآن يا حضرات المستشارين : امحوا هذه الأفكار الخطرة وانزعوا هذا السلاح القاتل •

انزعوه من يد هؤلاء المفتونين قبل أن يصيب البلاد شره المستطير

انزعوه بحكم ترضاه الحكمة وأصالة الرأى •

انكم بذلك لا تكسفون الرحمة والعدل بل تزيدونهما رواء وجمالا اليس من الرحمة والعدل أن تبعثوا الطمأنينة فى القلوب الواجفة ؟

اليس من الرحمة والعدل أن ترحموا صغارا كالغصون الرطبة أوشكت أن تلتوى على الشر تقليدا أعمى للمتهمين وأمثالهم •

لقد أجهدت نفسى فى هذه القضية حتى اطمأن ضميرى واقتنع بأن من وضع القانون يده عليهم من الجناة العاتين فقدمتهم للقضاء لينالوا شرورهم وسوء ما كانوا يريدون •

قدمتهم وتركت رابعهم لأن شبهة ضعيفة فى براءته شفعت له •

الى أن يقول : وما هى الا كلمة تنطقون بها ترجو الأمة أن يكون من ورائها عبرة كبرى لأمثال هؤلاء المتهمين فلا تقوم لهم بعدها قائمة •

★★★

وكانت مرافعة النائب العمومي في ١١ أغسطس ١٩١٢ وكان قد حرص على كتابتها مسبقا ووزعها على مندوبي الصحف بعد أن انتهى من القائها .

وكان الحكم على امام واكد بالأشغال الشاقة ١٥ سنة وعلى محمود طاهر العربي ومحمد عبد السلام بالسجن ١٥ سنة مع الشغل .

وقد كانت سجون مصر ـ وقتذاك ـ من أربعة أقسام : ليمانات واصلاحيات ، سجون عمومية سجون مركزية .

وكان هناك سجن للأجانب يعتبر فندقا فخما اذا ما قيس ببعض سجون مصر : وكانت الليمانات في طره وأبو زعبل .

وكانت الاصلاحيات وقتذاك أيضا : الدلتا للرجال الجيزة للغلمان والبنات .

وكان أكبر وأهم السجون في مصر (١٩١٢) سجن مصر العمومي.

وكان موجودا بالمنشية وعرف باسم « قره ميدان » .

وقد تأسس عام ١٨٩٩ في عهد مدير السجون كروكشفت .

وكان سجن مصر العمومي وقتذاك ـ أيضا ـ من ثلاثة عنابر في كل عنبر منها أربعة أدوار : عنبر (أ) ، عنبر (ب) ، عنبر (ت) الخ .

والزنزانة طولها ثلاثة أمتار وعرضها متران وارتفاعها ثلاثة .

وكان سجن النساء شطرا من عنبر (ت) .

★★★

ويطل من الناحية الغربية على الطريق العام ويسع أربعمائة مسجونة وكان محمود طاهر العربي سجينا عندما حكم على جورج فلبيدس بك في قضية الرشوة .

والتقى الاثنان في سجن مصر العمومي ثم صدر قرار بنقل العربي الى سجن بني سويف حتى لا يحتك بفليبدس الذى كان قد « فبرك » القضية من أولها الى آخرها كما يقول العربي بل كما اعترف فليبدس نفسه ومما يجدر بنا أن نذكره أن محمود طاهر العربي قد ذكر العديد من أسماء المسجونين السياسيين الذين التقى بهم في سجن مصر ، وفي بعض السجون خلال الاثنتى عشرة سنة التى قضاها سجينا ومن هؤلاء عبد الرحمن فهمي بك ، وابراهيم عبد الهادى (باشا) وسامي زادة

(بك) والشيخ عبد الرحمن الجديلي وحسني الشنتاوي والشيخ محمد يوسف وعبد الحليم عابدين وحامد المليجي وياقوت عبد النبي ومحمود عبد السلام وتوفيق صليب والشيخ المصيلحي والشيخ علي هنداوي وعبد العزيز هنيدي ومحمود حفني وعلي رحمي ومحمد حسن سعد والشيخ أحمد حتاته ورياض الجمل وسيد ابراهيم وابراهيم شاكر عبد اللطيف وكذلك عبد القادر شحاته ، وعباس حلمي ، ومحمد شمس الدين ونجيب الهلباوي وعبد الله كريم ، وسليمان مصطفى خليل وعبدالله عبدون ، وعبد الحميد عمار ، وعريان سعد •

وكان بعض هؤلاء متهمين في قضية المؤامرة الكبرى ومؤامرة شبرا أو بسبب اتهامهم بالاشتراك في اضطرابات وقعت في المنيا •

وبعضهم كان محكوما عليه في قضية قنبلة شفيق باشا ، ومحاولة اغتيال ، السلطان حسين •

وكان بعض هؤلاء يشتغلون في قطع الأحجار وحملها فوق رؤوسهم لا فرق بينهم وبين أخطر المجرمين من اللصوص ، والقتلة ، ومن كانت ادارة السجن ترأف بحاله كالأستاذ رياض الجمل المحامي ، كانت تبقيه للعمل في ورشة كي الملابس •

وكنت قد سمعت من محمود طاهر العربي ذكرياته ، عن أيام سجنه وكيف التقى هناك في ١٩١٩ بحمد الباسل باشا ، الذي وضع في السجن الأسود في غرفة رقم ٦٤ ومرقص حنا في غرفة ٦٣ وواصف غالي بك في غرفة رقم ٦١ ، وجورج خياط بك ، ومحمد علي الجزار بك ومراد الشريعي بك في الغرف أرقام ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، وكذلك كان ويصا واصف بك في الغرفة رقم ٦٢ وكانوا من زعماء الوفد وقد التقى بهم في أثناء الثورة في الدور رقم ٥ المعد لمجرمي الحماية الأجنبية وللمحكوم عليهم من المحاكم المختلطة وكانوا لا يختلفون في زيهم وطعامهم ونظام معيشتهم عن باقي المسجونين الأجانب وقد عوملوا بعد أيام من دخولهم السجن معاملة خاصة فخلعوا شعار السجن وملابسه ولبسوا ملابسهم العادية وكان تغيير المعاملة قد تم بالنسبة لهؤلاء الزعماء بعد أن نقل البرق الى لندن أنباء عن سوء المعاملة التي كان يلقاها هؤلاء الزعماء •

وقد نقل هؤلاء ــ فيما بعد ــ الى مستشفى السجن وسمح لهم بالتدخين بعد أن أعطوا كلمة شرف لمفتش من عموم السجون أن يكون التدخين قاصرا عليهم وحدهم •

وقد وضعت علب السجائر عند مأمور القسم وكلما طالبوا منها اجيبوا الى مطالبهم •

ثم نقل هؤلاء فيما بعد أيضا الى الماظة حيث المعاملة أفضل ٠

أما الشيخ مصطفى الغاياتى وكان يقيم فى الزنزانة رقم ٤٤ دور رقم ٢ فقد بقي بها الى ان أعتلت صحته واشتدت عليه وطأة المرض وقرر القومسيون الطبى - وكان على رأسه طبيب انجليزى - ان حالته الصحية ستزداد خطرا اذا استمر حبسه وعرض عليه أولو الأمر ، أن يفرجوا عنه اذا وعد بترك السياسة فأبى قائلا : « رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه » ٠

★★★

والجدير بالذكر قبل أن ننتقل من الحديث عن مؤامرة شبرا نذكر ان المتهم الرابع الذى أشار عبد الخالق باشا ثروت النائب العام الى انه أفرج عنه لأن شبهة بسيطة شفعت له هو الأستاذ حسن نافع : وكان أسوأ دور فى تلك القضية - الى جانب جورج فليبدس - هو دور مصطفى كامل المحلاوى الذى حمل العبء الأكبر فى التبليغ عن أصدقائه وزملائه واكد والعربى وعبد السلام وقد اتصل أول ما اتصل باللورد كتشنر شخصيا وبعده بهارفى باشا وفلبيدس ٠

★★★

ومن الذين تأثرت بهم الى حد كبير فى الربع الثانى من الأربعينيات الصاغ محمود لبيب وقد أحبنى حبا جما وكان يعاملنى كابنه ٠

وقد أحببته حبا يفوق حبه لى ، وكنت باستمرار أعامله كأبى ٠

وربما كان الصاغ محمود لبيب هو الذى فتح أمامى باب التدريب العسكرى للشباب الوطنى ، لم يكن يهتم بأن يدرب - كما كان يفعل - د٠ حسن نور الدين شابا أو شابين أو ثلاثة ، أو حتى بضعة شباب فى بيته وانما كان يدعونا علنا وعلى رؤوس الأشهاد ، الى أن نتدرب جماعات على حمل السلاح وكان يتولى هو تلك المهمة ولو على بنادق من خشب ٠

المهم ان يجيد الشاب تصويب الهدف وأن يعرف كيف « يفك البندقية » ، ويعيد تركيبها ٠

وأهم من ذلك كله أن يتعود على الروح العسكرية ٠

وكان الصاغ محمود لبيب حتى فى مشيته العادية عسكريا ٠

ولست أنسى ما حييت وجهه البشوش ، وطربوشه الطويل الذى كان يميزه عن غيره من الضباط ، وعصاه ، الصغيرة ، القصيرة ، التى كانت لا تفارقه ٠

ورغم ان اللواء صالح حرب باشا هو الذى قدمنى اليه الا اننى سرعان ما أصبحت قريبا منه أكثر من قربى من صالح حرب باشا فقد كان صالح حرب باشا وزيرا ، ووزيرا سابقا ، وكان رئيسا لجمعيات الشبان المسلمين العالمية وكان مركزه لا يسمح له بالتبسط مع أمثالى من الشباب الصغار بعكس الصاغ محمود لبيب ٠

وقد ظل طيلة حياته صاغا وكنا نخرج واياه ، وأحيانا يدعونا الى العشاء فى أحد محلات الفول والطعمية بل وأحيانا أخرى كنا ندعوه الى زيارتنا فى شقتنا المتواضعة فيقبل الدعوة بكل سرور ٠

كانت شخصية الصاغ محمود لبيب من الشخصيات الفذة التى أثرت فينا نحن الشباب : لقد كان هو وصالح حرب باشا زميلين يعملان معا ورتبتهما واحدة ملازم أول فى الصحراء الغربية فى السلوم ٠

وقد أصبح صالح حرب « لواء وباشا » ووزيرا للدفاع وبقى محمود لبيب صاغا ٠

لم يحقد الرجل ولم يتراجع عن الخط الوطنى الذى اختاره لنفسه منذ أن كان شابا ٠

وما أكثر ما قبض عليه واعتقل وسجن فلم يهن ولم يضعف ولم يلن ٠

ولو أن الانصاف كان من طبعنا لقلنا ان هذا الصاغ قد أثر فى الشباب المصرى عامة وفى شباب الضباط تأثيرا لا يقل عن تأثير الفريق عزيز على المصرى باشا ٠

كنت أجلس أمام الصاغ محمود لبيب وهو يحكى عن ذكرياته كما يجلس الطفل المؤدب المهذب أمام جده أو جدته وهو أو وهى تروى له حكاية الشاطر حسن ٠

وقد جمع بينى وبينه أكثر انه كان من أبناء الحزب الوطنى ولم يغير مبدأه أبدا ٠

كان محبا مخلصا لمصطفى كامل وللحزب الوطنى وما أكثر أحاديثه لى عن مصطفى كامل والحزب الوطنى والذكريات التى كان يرويها أحد المشاركين فى عمل ما ، تحفر فى الذهن وفى القلب بأكثر من تلك التى تقرأ فى الكتب أو فى الصحف ٠

أذكر للصاغ محمود لبيب قوله : عندما أضرب عمال اللواء عن العمل في جريدة اللواء بتأثير من بعض خصوم الحركة الوطنية هب طلبة المدارس

الى مطبعة اللواء يقومون بالعمل بدلا من هؤلاء العمال : تعلمنا كيف تصف الحروف وكيف « نوضبها » وكيف نجرى عليها بروفات .

وكان أحمد لطفى السيد باشا رئيس تحرير الجريدة قد اذن بأن يطبع اللـــواء المنافس القوى « للجريدة » فى مطـــابع « الجريدة » حتى لا تتأخر عن الصدور وقد ظللنا يومين كاملين نقوم بأعمال العمال دون كلل أو ملل ودون أن يتعطل اللواء عن الصدور فى موعده ساعة واحدة الى أن عاد عمال اللواء الى عملهم نادمين مستغفرين .

وروى لى الصاغ محمود لبيب قصة أول مظاهرة وطنية اشترك فيها بلباسه العسكرى كضابط .

كان تيودور روزفلت قد زار مصر فى ٢٤ مارس ١٩١٠ قادما من السودان .

وقد القى محاضرة فى الجامعة الأهلية عارض فيها اصـــدار دستور لمصر ، مؤكدا ان اعطاء الدساتير للأمم التى لا تزال فى دور التكوين يعتبر خطرا عليها لأنه لم تنم فيها الصـــــفات التى تمكنها من الانتفاع بالدستور .

كما أثنى على كرومر ، وسياسته فى مصر ، وثارت مصر ، ثورة عارمة ضد تيودور روزفلت وقال شاعر النيل حافظ ابراهيم قصيدته الرائعة التى ذكر فيها الأمريكان بمآسى الانجليز فى يوم ان كانوا يحتلون بلادهم مخاطبا روزفلت بقوله :

لم تطيقوا جوارهم بل أقمتم فى حماكم من دونه ألف سور
أنت تطريهمـــــو وتثنى عليهم ، نائيـــــا آمنـــا وراء البحور
ليت شعرى أكنت تدعو اليهم ، يوم كانوا على تخوم الثغور
يا نصير الضعيف حبب اليهم ، هجر مصر ، تفز بأجر كبير .

استأجر محمود لبيب جوادا من اسطبل بالحلمية الجديدة كان يؤجر الخيل وقام على رأس احدى المظاهرات الصاخبة وكان بملابسه العسكرية برتبة ملازم واتجه بالمظاهرة الى فندق شبرد حيث ينزل رئيس الجمهورية السابق وراح يهتف بسقوط الاستعمار والمستعمرين ، والطفيليين .

ووقف يخطب فى الناس خطبة طويلة ختمها بقوله : أخرجـــــوا هذا الرجل من مصر .

ولكن لم تمض سوى ساعات قليلة حتى أخرج هو ـ محمود لبيب ـ من القاهرة الى سيدي براني بالصحراء الغربية .

وكان الصاغ محمود لبيب واللواء صالح حرب دائمي الحديث معنا عن دور الحزب الوطنى والفدائيين من أبنائه فى حرب طرابلس الغرب وفى مساعدة الليبيين والأتراك وكان الايطاليون قد زحفوا على طرابلس الغرب (ليبيا) بمائتى ألف جندى تحت حماية اسطولهم ولم تكن القوة التركية فى طرابلس الغرب تزيد عن خمسة آلاف جندى .

وروى لنا أكثر من مرة الصاغ محمود لبيب - وهو ما كان يرويه لنا أيضا الحاج أحمد رمضان زيان - قصة مجىء بعض كبار الضباط الأتراك الى مصر ، ومعهم ضابطان ألمانيان ، هما البارون فون جوتنبرج وفون بنتهايم وكيف نزل بعضهم فى منازل أصهار الشيخ جاويش فى الاسكندرية كما نزل مصطفى كمال اتاتورك فى عوامة محمد باشا يكن بواسطة حافظ رمضان باشا .

وذكر لنا الصاغ محمود لبيب كيف وضعت أهم خطة عرفها تاريخ الشرق العربى فى « لوكاندة عصفور » بشارع فرنسا بالاسكندرية .

فى هذه اللوكاندة المتواضعة جلس أنور باشا ومصطفى كمال اتاتورك وعصمت باشا والضابطان الالمانيان وأمين بك وعبد الله طومكست وغزلى جمال بك وعبد اللطيف جاويش ، شقيق الشيخ عبد العزيز جاويش وكان عبد اللطيف حمزة همزة الوصل بين الحزب الوطنى والقادة الأتراك .

وفى الصباح كان هؤلاء القادة يتشحون بأحزمة بيضاء فضفاضة ويتقدمون ركبا من الخيول والابل عبر الصحراء الغربية .

وكانت القيادة البريطانية قد عرفت بنزول هؤلاء القادة بمصر ورصدت مبلغ ٥٠٠ جنيه ذهبا لمن يقبض على واحد منهم وخاصة القائد أنور باشا وقد ضحك أنور باشا عندما سمع نبأ المنشور الخاص بالمكافاة ، التى تعطى لمن يقبض عليهم أو على واحد منهم قائلا : عظيم جدا هذا القرار ، لقد بخسونا حقنا حقا فى تقدير القيم الشخصية ، لعنة الله عليهم .

ويروى محمود لبيب كيف كان يتجول بجواده فى سهول بقبق والشمس تنحدر تدريجيا نحو الغرب فشاهد قافلة تسير فى حذاء الأفق البعيد ، فلما ذهب اليها وجد عبد اللطيف جاويش فحياه بحرارة وذكر له - أى عبد اللطيف جاويش - أنهم جاءوا عن طريق زاوية الشيخ سيدى برانى وقد أمنهم ودلهم ، على الطريق اليوزباشى على عبد الوهاب .

وذكر عبد اللطيف جاويش أسماء من معه : أنور باشا ، البكباشى مصطفى كمال ، البكباشى عصمت الضابط الألمانى فون جوتينبرج والضابط الألمانى فون بنتهايم كما قدم اليه بعض الضباط الأتراك الآخرين .

ورحب بهم الملازم أول محمود لبيب الذى طلب من القائد أنور أن يسمح له بمرافقته وان يشترك معهم فى حرب الطليان وطلب منه أنور باشا ان يفكر جيدا وقال محمود لبيب : لقد فكرت وانتهى الأمر ·

ورفض أنور باشا ، ان يأخذ الملازم أول محمود لبيب معه · قائلا ان بقاءك هنا أنفع لقضيتنا من ألف جندى محارب ·

وسار معهم محمود لبيب مسافة ٣ كيلو مترات غربى بقبق ثم استأذن فى العودة بعد أن زود القافلة بالمعلومات الخاصة بالطرق الذى يجب عليهم أن يسلكوه وهو طريق نقب حلفاية حتى يأمنوا الانجليز وعيونهم ·

***

ومرة أخرى بل أكثر من مرة روى لنا الصاغ محمود لبيب قصة رفع العلم المصرى على السلوم وكيف نجح فى معرفة الشفرة الخاصة بهينتر باشا القائد العام لفرق الهجانه المصرية وكيف اتفق مع أحمد أفندى مسعود وكيل تلغراف السلوم · فى أن يبعث اليه أية برقية تصل الى هنتر باشا من اللورد كتشنر وكانت أول برقية وصلت الى هنتر باشا ·

وقام هو ـ محمود لبيب ـ بحل الشفرة الخاصة بها وكانت تطلب من هنتر باشا أن يحتال على الضابط التركى في المعسكر بقشلاق السلوم ، العلوى ليخلى القشلاق ويتسلمه هو وكانت البرقية كما يلى : الى قائد عام سلاح الهجانة هنتر باشا : ارفع العلم المصرى على السلوم : كتشنر وامتلأت قلوب الضباط المصريين والجنود السودانيين حماسة بعد أن عرفوا نبأ المؤامرة الانجليزية للاستيلاء على السلوم وكيف تمكنوا من أن يسبقوا الانجليز الى رفع علمهم على السلوم ويرفعوا العلم المصرى بينما الضباط الأربعة الذين كانوا مكلفين برفع العلم الانجليزى على السلوم يغطون فى نوم عميق ·

محمود لبيب لم يكن يريد لنا ان نغتال جنديا انجليزيا أو مصريا يتعاون مع الانجليز وانما كان يريد منا ـ كما سبق أن قلت ـ أن يكون تدريبنا على السلاح على أوسع قاعدة جماهيرية ·

وقد كان محمود لبيب يقوم بهذه المهمة ـ مهمة تدريب الشباب على حمل السلاح ـ لا بالنسبة لشباب الحزب الوطنى وحسب وانما بالنسبة للشباب المصرى عامة وخاصة شباب الأخوان المسلمين وقد وجد الصاغ محمود لبيب فى تنظيم الاخوان المسلمين ما يساعده على تحقيق أحلامه فى خلق جيل عسكرى ·

وكانت الفرصة قد واتت هذا التنظيم لا لمحاربة الانجليز فى مصر وانما لمحاربة الصهيونيين فى اسرائيل وقد كان من رأى محمود لبيب أن الاحتلال الانجليزى وان بدأ مختلفا مع الصهيونية فى فلسطين الا انه هو حامى الصهيونية وهو حصنها الحصين ٠

★★★

ومن الشخصيات التى أثرت فى نفسى لتواضعه الشديد ولتضحياته الجسيمة شيخ الفدائيين بالاسكندرية الحاج أحمد رمضان زيان والذى كان أبرز أعضاء جمعية التضامن الأخوى التى كشف أمرها أحد المواطنين الأرمن ٠ الذى كان يصب الكرات الحديدية التى كانت تستخدم فى الأعمال الفدائية ٠

وتم القبض على الحاج أحمد رمضان بوصفه رئيسا لنقابة عمال الصنائع اليدوية كما اعتقل أيضا محمد الشافعى كاتب الجمعية ٠

وشكل مجلس عسكرى لمحاكمتهما قضى على الحاج أحمد رمضان زيان بالسجن ثلاث سنوات وبغرامة ١٠٠ جنيه وعلى الشافعى بسنتين ٠

وخرج الحاج أحمد رمضان زيان من السجن بعد أن فقد كل ثروته .

★★★

وعن طريق الحاج أحمد رمضان زيان تعرفت بالدكتور ياقوت السهوى الذى لعب دورا خطيرا فى الحركة الفدائية والذى كان يتستر تحت ستار وظيفته الحكومية لنقل المفرقعات والذى تبرع بمستشفاه المتواضع ليصبح مستشفى محمد فريد ٠

كما تعرفت عن طريقه أيضا بعبد الله حسين عوض أحد القيادات الوطنية للاسكندرية ٠

وما أكثر ما حدثنى الحاج أحمد رمضان عن محمد حسين الفرارجى وأحمد عبد السلام غالى وعلى الصاوى وعبد الرحيم سرور وعبد العزيز فخرى وأحمد نبيه قيودان وحسن خفاجى ومحمد فؤاد عثمان ، وأحمد حسنى فوزى وابراهيم صفوت « وكان مأمورا لقسم الحدرة » وعبد الرحمن سرى « وكان نائبا لمأمور قسم الحدرة » ٠

وما أكثر ما حدثنى أيضا عن عبد الواحد الوكيل ومحمد فريد وسليمان حافظ ، ومحمود فهمى النقراشى ٠

ولان ذاكرة الحاج أحمد رمضان زيان كانت قوية للغاية ، فقد

كان يحرص باستمرار على أن يذكر لى دور كل واحد من هؤلاء المواطنين الأفذاذ وما قدمه فى خدمة القضية الوطنية ٠

قال لى ـ مثلا ـ الحاج أحمد رمضان زيان كان البكباشى محمود زكى شكرى من ضباط الجيش المصرى وقد أخرج منه وأصبح ضابطا بالجيش التركى وأصبح من أعلام الحركة الفدائية ٠

وكان اليوزباشى محمد أبو زيد مقلد ضابطا بخفر السواحل المصرية وانضم الى القوات السنوسية في طرابلس مع صالح حرب (باشا)٠

ولعب دورا هاما فى تلك الحرب وفى الحركة الوطنية ٠

كما روى لى دور عبد الرحمن عزام ـ ولم يكن قد أتم بعد دراسة الطب ـ وكذلك دور الشيخ عبد الله بك شومان أحد زعماء القبائل فى نقل عبد الرحمن عزام الى طرابلس ٠

وكان الحاج رمضان زيان والدكتور اسماعيل صدقى قد وضعا خطة لتهريب عبد الرحمن عزام الى ليبيا ٠

كما روى لى قصة تهريب الشيخ عبد العزيز جاويش رغم أنف الانجليز ، والحكومة المصرية ٠

وقد تمت تلك العملية ـ على ماروى الحاج رمضان ـ بخطة وضعها هو وسليمان حافظ وعبد اللطيف الصوفانى وحافظ رمضان ومحمد العرارجى ٠

وكان الخطة فى البداية الاتصال بربان احدى البواخر الايطالية ليتولى نقل الشيخ عبد العزيز من جنوة الى الاسكندرية على أن يسلمه متنكرا الى الحاج أحمد رمضان زيان ، نظير خمسين جنيها ولكن الخطة فشلت ٠

وكان لابد من خطة أخرى : ثم ارسال أحمد العرارجى الى الاستانة ليحمل كل التعليمات الى الشيخ عبد العزيز وان يقوم عبده كيلانى الموظف بمراكب البوستة الخديوية بحجز مكانين فى الباخرة له ولزوجته ثم لا تسافر زوجته معه ولكن تظل الغرفة المحجوزة باسمها و ٠٠ و ٠٠

واستلم الحاج أحمد رمضان الشيخ من فوق الباخرة وخرج به ـ طبقا للخطة ـ من باب الخديوية من جهة سيدى العدوى ـ ميناء الاسكندرية ٠

ووضع الشيخ في عيادة د٠ محمد محفوظ طبيب العيون باعتباره مريضا ٠

وكتب الشيخ عبد العزيز ـ طبقا للخطة أيضا ـ كلمة للأستاذ أمين الرافعى لتنشر فى الاخبار ٠

ونشر أمين الرافعى الكلمة التى تؤكد أن الشـــيخ قد وصل الى مصر ٠

★★★

وكنت ومنذ مطلع صباى قد أغرمت بالقضايا العامة وخاصة تلك التى تجرى فى المحاكم وكنت أذهب الى دور الكتب خصيصا لأقرأ بعض تلك المحاكمات التاريخية وكانت الصحف تولى تلك القضايا أهمية بالغة وخاصة فى مراحل الاستجواب والدفاع والاتهام ٠

والمرافعة فى المحاكم عادة أشـبه بمباراة رياضية لا يجوز فيها أخذ الخصم غيلة كما لا يجوز الالتجاء الى سلاح غير شريف زائف أو مسموم ٠

والمباراة تلك يديرها قاض ، أو جملة قضاة ، ثلاثة أو خمسة حسبما ينص القانون ٠

وأذكر أننى قرأت ضمن ما قرأته عن تلك المبـــاريات أن محاميا فرنسيا مشهورا وقف يترافع فى قضية ما فنسب الى النائب العام المترافع أنه قد لجأ فى مرافعته الى استغلال الشهوات القذرة فعد قوله هذا مخالفا للقانون وقدم ذلك المحامى الى مجلس للتأديب وكان من بين ما قاله : أما شخص النائب المترافع فمنفصل كل الانفصال عن مرافعته : شخصيته محل اجلالى واحترامى ولا أبيح لنفسى أن أهاجمه ٠

ولكنى أهاجم مرافعته فهى ملكى ومن حقى أن امزقها أربـا أربـا وأن أطأها بقدمى ٠

وقد ادانته محكمة الاستئناف بباريس وقالت ان من حق المحـامى ان يدافع عن موكله ولكن ليس من حقه ان يهاجم فردت عليها محكمة النقض بأنه لا دفاع بغير هجوم ٠

★★★

ومن بين ما حفظته من مرافعة للأستاذ مرقص حنا : نحن المحامين نعالج آلام الناس ونرافقهم فى شقائهم ولهذا نرتدى الثوب الأسود ونقف فى هذا المكان المنخفض ، فاذا ما أعيانا التعب جلسنا على هذا الخشب الصلب فيزيدنا نصبا : فنحن حقيقة بؤساء ، رفقاء البؤساء ٠

ولكن رغم هذه المظاهرة الخداعة له ، فان الذى فى قلبه ايمان بالحق يرتفع من هذا المركز المتواضع الى السمو الذى لا سمو بعده ذلك لأن عماده كل الحق ، ولأن مأمورية المحامى تمثل حق الدفاع المقدس ٠

والقرائن لا تحتاج لسلطة ولا تحتاج لمظهر قوة ، بل هى جميلة جميلة بنفسها مهما كانت مظاهرها ولأن المحامى مأموريته التى تسمو به الى أقصى ما يعرف من معانى السمو وهى أن يوجه ضمير القاضى وأن يحدثه فيما يصح أن يتجه اليه عدله ، فحقيقة لا يوجد سمو آخر يدانى هذا السمو ٠

قلت هذا لا تفاخرا بموقف المحامى لأن الذى يدرك واجبه ليس فى حاجة الى تفاخر : ليعلم حضرة القاضى أنى أعاهد نفسى بالا أعرف لها كرامة الا اذا تقدمت الى ضميره بكلمة الحق ، وفى هذا السبيل فليوقفنى فى الكلام حضرة وكيل النيابة فى الوقت الذى يريد » ٠

★★★

ومن بين ما حفظته أيضا ما رواه هنرى روشبير عن سلفه العظيم « لاشو » ، اذ قبل ان يضطلع بمهمة الدفاع عن القائد بازين امام المجلس الحربى الأعلى فى قضية اتهامه بالخيانة العظمى فى حرب السبعين وكان مركز المتهم بالغا نهاية السوء والبلاد تغلى من أقصاها الى أقصاها غضبا وحقدا على الرجل الذى سلم الى العدو مائة ألف مقاتل بمعداتهم ، وأسلحتهم ٠

وقد قضى لاشو يترافع عن المتهم ثلاثة أيام وكأنما يضرب فى حديد بارد ، واذا بالنائب العام يسقط فيصفه فى رده على مرافعته بالمدافع عن المزورين وقطاع الطرق ٠

وهنا وثب لاشو وراح يدافع عن كرامته المجروحة وانطلق لسانه بما لم يسبقه اليه محام آخر ٠

واستطاع بعد دفاع مرتجل ملتهب ان ينقذ رأس موكله ٠

★★★

وحفظت أيضا عن ظهر قلب ــ ولعلى لا أزال حافظا عن ظهر قلب حتى الآن ــ قول ديسيز وهو يترافع عن لويس السادس عشر أيام الجمعية التأسيسية التى جمعت فى يدها كل السلطة وجعلت الاشارة الى الملكية جريمة قال ديسيز : اخاطبكم بلسان الرجل الحر ، انى أبحث بينكم عن قضاة فلا أجد غير متهمين ٠

أتريدون أن تجعلوا من أنفسكم قضاة للويس ، وأنتم خصومه ؟

أتريدون ان تجلسوا للحكم فى قضية لويس ولكم فيها رأى يجوب أوربا من أقصاها الى أقصاها ؟

أيكون لويس الفرنسى الوحيد الذى لا يحميه أى قانون ، ولا يتبع في محاكمته اجراء واحد صحيح ؟ أيجرد من امتيازاته كملك ومن حقوقه كمواطن ؟ •

أيخذله القانون حاكما ، ومحكوما ؟ يا له من مصير عصيب » •

ولا يجول في الذهن أبدا أن أحدا لم يمس ذلك المحامى الذى قال هذا الكلام فى مواجهة هؤلاء الخصوم الأشداء •

★★★

ومن بين المرافعات التى حفظتها مرافعـــة عبد الخالق ثروت باشا النائب العام مطالبا فيها برأس ابراهيم ناصف الوردانى :

ان الوردانى بجنايته قد عمد الى خرق القوانين السماوية والبشرية .

عمد الى قتل النفس التى حرم الله قتلها •

عمد الى ازهاق روح بريئة من غير ذنب •

عمد الى حرمان انسان من أقدس حق له فى هذه الدنيا •

عمد الى حرمان عائلة من معيلها وأمة من رجلها وحكومة من رئيسها ، وأطاع هواه وأطلق رصاصه •

الى أن يقول : ان جناية الوردانى لأشد ضررا ألف مرة من جناية كل مجرم قاتل أو سارق أو قاطع طريق فان هؤلاء جنايتهم فردية وجناية الوردانى على أمته ووطنه •

وهؤلاء يمكن الاحتراس منهم وتوقى أضرارهم ، بينما هو يأخـذ الناس في مأمنهم غيلة وعلى غرة منهم وما لهم منه واق •

يا حضرات القضاة : الآن الأمر بيدكم ان هى الا كلمة تخرج من أفواهكم لا تسألون عنها الا أمام ضمائركم وأمام الله سبحانه وتعالى وبها تبددون ظلمات أحاطت البلاد وتستأصلون جرثومة خبيثة يخشى منها على عقول النشء ، وأنا على يقين من انكم ستجيبون صوت الحق والعـدل والانسانية تستفزكم لما أصابها من جراء هذه الجناية الفظيعة فتحكمون بالاعدام على هذا الجانى » •

كانت المحكمة برياسة جناب المستشار دلبراوغلى وبحضور حضرات امين بك على وعبد الحميد بك رضا المستشارين ٠

وكانت القضية فى دور ابريل ١٩١٠ ٠

وكان من دفاع محمود بك أبو النصر عن الوردانى : لا أريد بالرحمة أن تتجاوزوا للمتهم عن شىء مما يستحقه عدلا لأننى لا أقول أن الرحمة فوق العدل بل أقول ان الرحمة هى أقصى وأسمى مرتبة من مراتب العدل فاذا طلبتها فانما أطلب العدل فى أرقى معانيه وأطلب العدل المجرد من كل مؤثر ذلك العدل الذى يقضى بقصاصين مختلفين اختلافا كبيرا على شخصين ارتكبا جريمة واحدة فى ظروف متشابهة لما تبين فيهما من اختلاف الطبائع وتغاير المقاصد ، وتباين الأسباب ٠

انى على ثقة تامة من أنكم ستقدرون لهذا المتهم ما يصلح تقديره لمثله وبدهى لديكم ان قليل العقوبة عنده يعادل كثيرها عند غيره من المجرمين العاديين ٠

رب ساعة فى السجن تعادل شهرا أو أياما ٠

العقوبات مقدورة وارقاها فى سلم العدل ما روعيت فيه أحوال الارادة صحة واعتلالا ، وقوة وضعفا وهو لا سبيل اليه الا باعتبار الشخصيات الذاتية لكل متهم ، والظروف الخصوصية لكل متهم فاذا اقتضى العدل أن تعاقبوا فلتكن العقوبة على هذا المبدأ القويم ٠

وكان دفاع أحمد لطفى بك رائعا أيضا : فى البداية ركز على اعتبار الواقعة مجرد شروع فى قتل لأن الوفاة لم تنشأ من الاصابة التى أحدثها المتهم وانما من العمليات الجراحية غير الضرورية وغير المقبولة عند بعض الأطباء وقد توجه الى المتهم قائلا : أما أنت – أى المتهم – فقد همت بحب بلادك حتى أنساك ذلك الهيام كل شىء حولك ٠

أنساك واجبا مقدسا هو الرأفة بأختك الصغيرة وأمك الحزينة فتركتهما يبكيان هذا الشباب الغض ٠

تركتهما يتقلبان على جمر الغضا ٠

تركتهما يقلبان الطرف حولهما فلا يجدان غير منزل مقفر غاب عنه عائله ٠

تركتهما على الا تعود اليهما وأنت تعلم انهما لا يطيقان صبرا على فراقك لحظة واحدة فانت أملهما ورجاؤهما ٠

دفعك حب بلادك الى نسيان هـــذا الواجب ، وحجب عنك كل شيء غير وطنك وأمتك فلم تعد تفكر فى تلك الوالدة البائسة وهذه الزهرة اليانعة ولا بما سينزل بهما من الحزن والشقاء بسبب ما أقدمت عليه ٠

ونسيت كل أملك فى الحياة وقلت ان السعـادة فى حب الواجب وخدمة البلاد واعتقدت أن الوسيلة الوحيدة للقيام بهذه الخدمة هى تضحية حياتك أى أعز شيء لديك ولدى أختك ووالدتك فاقدمت على ما أقدمت راضيا بالموت لا مكرها ولا حبا فى الظهور ٠

أقدمت وأنت عالم أن أقل ما يصيبك هو فقدان حريتك فى سبيل حرية أمتك ٠

بعت حريتك بثمن غال فاعلم أيها الشاب انه اذ تشدد معك قضائك ولا أخالهم الا راحميك فذلك لأنهم خدمة القـــانون وهذا هو السلاح المسلول فى يد العدالة والحرية ٠

واذا لم ينصفوك ، ولا أراهم الا منصفيك ، فقد أنصفك ذلك العالم الذى يرى أنك لم ترتكب ما ارتكبته بقصد الاضرار ولكن باعتقاد أنك تخدم بلادك وسواء وافق اعتقادك الحقيقـة أو خالفهـا فتلك مسـألة سيحكم التاريخ فيها وأن هناك حقيقة عرفها قضائك وشهد بها الناس وهى انك لست مجرما سفاكا للدماء ، ولا فوضويا من مبادئك الفتك ببنى جنسه ولا متعصبا دينيا خلته كراهية من يدين بغير دينه : انما أنت مغرم ببلدك هائم بوطنك فليكن مصيرك أعماق السجن أو جـدران المستشفى فـان صورتك فى البعد وفى القرب مرسومة على قلوب أهلك وأصدقائك وتقبل حكم قضائك باطمئنان واذهب الى مقرك بأمان » ٠

لم تكن تلك الكلمات مرافعة بقدر ما كانت رثاء من أحمد بك لطفى أبرز قضاة المحامين ٠

وكانت كلمات أخرى لأول نقيب للمحامين ابراهيم الهلباوى ما قرأتها ـ حتى وأنا أنقلها الآن ، شأنها شأن كلمات أحمد لطفى بك الا وترقرقت الدموع فى عينى ـ : كانت كلمات الهلباوى : خدمت نحو الخمســة والعشرين عاما محاميا ، ولم يخطر ببالى يوما أن أسأل أو أقرأ سبب اختيار الرداء الأسود حلة رسمية للمحامى الذى يتشرف بالدفاع بين يدى القضاء ولا سبب انتخاب اللون الأخضر للوسام الذى تزدان به صدور من عهد اليهم اصدار الأحـــكام النهائية أما الآن وقد أبعدت عنى هذه القضية كل راحة وجعلتنى مرآة لتلك القلوب المنفطرة كأم المتهم وشقيقته وباقى أهله قلت ان كان مختار هذه الألوان أراد باللون الأسود رمزا

للحداد والمصائب للمحامى الذى يمتل القائم هو بالدفاع عنـــه وباللون الأخضر الذى يتجلى به صدر القاضى الرمـــز الى الطاووس ذى الريش الأخضر وهو مثال ملائكة الرحمة فنعم الاختيار : كأننا نحن فى القاعة أمام أولئك القضاة المشبهين بملائكة الرحمة على سطح هذه الأرض ، تقوم على نوع ما بمأمورية شبيهة بمأمورية أولئك الاحبار فى هياكلهم الذين اتخذوا متلنا ثيـاب الحداد ، وهم يتضرعون الى مبدع السموات والأرض بأن يفيض على الأرواح الذاهبة الى دار الخلود سحب رحمته وغفرانه ٠

ونحن هنا نقول لكم انكم تذكرون أنه ليس دائما بمقدور لهذا الانسان الضعيف أن يحمى نفسه من الخطر ومن الزلل وأن يعيش معيشة الملائكة ، فتقبلوا دعاءنا فى طلب الرحمة للأحياء كما يتقبلها من أنابكم حكما فى عباده والذى علمنا انه كما ان من صفاته العدل فـان من صفاته الرحمة وعلمنا فوق هذا أن الرحمة فوق العدل : والآن لى كلمتان أوجههما الى المتهم بين يدى القاضى : الأولى أنى اذا كنت قاسيا عليه فى نعته فلأنى خاضع لقانون ليس دائما ـ من سوء البخت ـ ملتئما فى أحكامه مـع ما توصى به الذمة والضمير لأنه مضطر فى أحوال كثيرة رعاية لســلامة المجتمع البشرى وصيانته أن ينظر نظرة أخرى فى تعريف الحلال والحرام ونحن المحامين أحق الناس بالأدب ، والخضــوع لهذا القانون فاذا قبل الدفاع عذرك أيها المتهم وعرضه على قاضيك فعليك أنت أيضا ان تقبل قبولا حسنا عذر الدفاع فيما خالفك فيه من عقائدك السياسية ٠

الثانية : انى اذا أنزلتك منزلة المجرمين العاديين وطلبت لك الرحمة والغفران فلأن ذلك واجب أيضا يقتضيه الدفاع ولكن اذا أبت نفسك أن تعيش بين السلاسل والاغلال وان تعيش معاملا معاملة الأشقياء ، وقطاع الطريق فارفع نفسك عن هذا السبيل وتقبل نبال الموت تقبل البواسل فالموت آت لا راد له ، ان لم يكن اليوم فغدا ٠

اذهب الى لقاء الله الذى لا يرتبط الا بعدالته المجردة عن الظـروف والزمان والمكان اذهب مودعا منا بالقلوب والعبرات ٠

اذهب فقد يكون فى موتك بقضاء البشر عظة لأمثالك أكثر من حياتك اذهب فان قلوب العباد اذا ضاقت عليك فرحمة الله واسعة ٠

★★★

ولطاهر باشا نور النائب العام وقت نظر قضية مقتل السردار كلمات خالدة منها :

نعم قد جزعت الأمة لمصابها فى قائد جيشها لجناية ارتكبتها فئة من

الأغرار المفتونين الذين طاشت أحلامهم وعميت بصائرهم فخرجوا على ارادة أمتهم وانتحلوا لأنفسهم سلطة القضاء فى مهـــام لم يناطوا بها ٠ استفظعت الأمة هذا الجرم ، واستنكرته واشـــترك فى هـــذا الاستنكار والاستفظاع الصغير والكبير وعلى رأس الجميع مولانا المعظم جلالة الملك حفظه الله : ان مصر أم الحضارة والمدنية قديما والتى لا تنكر منزلتها فى عالم العلم والحضارة حديثا أمصر التى يضرب بحســـن ضيافتها الأمثال وشعارها : أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا : مصر مثال الهدوء والطمأنينة قد تمثلت فى البلاد الأخرى بسبب هذه الكارثة والحوادث السابقة عليها ٠ انها أمة هائجة ليس لأحد فيها اطمئنان على نفس أو مال ٠

وقال النائب العام أيضا : فات هؤلاء الاغرار ان الاستقلال لا يكفى لرفع مقامنا بل يجب أن نعرف كيف نصون ذلك الاستقلال ٠

لقد اطمأن ضميرى واقتنع بأن من قدمتهم للقضـاء العـادل لينالوا جزاء شرورهم هم الجناة السفاحون وأرجو ان ما اقتنعت بـه سيقنع ضمائركم فتمحون هذه الأخطار الخطرة وتردون عن البلاد بؤسا وشقاء كان المتهمون مجلبة له : نحن يا حضرات المستشارين أمام خطر داهم ان لم نقف فى سبيله سرنا الى الهاوية ، نرجو أن يكون وراء حكمكم العادل عبرة وذكرى لأمثال هؤلاء المتهمين حتى لا يعود صغار الاحلام والطائشون الى اللعب بالنار ، ولكن هذا العلاج وحده لا يكفى لاستئصال المرض من أساسه ٠

نعم ان قصاص القضاء العادل سيمكن البلاد من أن تسير فى طريق التقدم والارتقـاء ذلك الطريق الطويل الكثير العثرات فاذا سرنا بحكمة وأصالة رأى قطعنا فى وقت قصير قضى سوانا فى اجتيازه وقطعه قرونا ٠

والحكمة تقضى بالقضاء على هذا المرض الذى وان كان محصورا الآن فى فئـة من الأغرار ضـعيفى العقـول الا أنه يخشى أن تسرى عـدواه شبابنا الناهض ، الذى تفخر به البلاد ولنا فيه رجاء عظيم يخشى ان تسرى اليه هذه العدوى فتلتوى هذه الغصون الرطبة على الشر ، وهنـا الطامة الكبرى ٠

أطلب منكم يا حضرات المستشارين أن تستأصلوا اليوم هذه الجرثومة الفاسدة بأشد ما فى القانون فليس فى ذلك قسوة اذ نحن فى ظروف شديدة تستوجب ذلك » ٠

وقال شيخ المحامين ابراهيم الهلباوى وكان يترافع عن د٠ شفيق منصور : قبلنا هذه المأمورية القاسية مأمورية أن نكون لسان حال هؤلاء

التعساء ، ونحن نعتقد أننا أمام محكمة تصم آذانها عن كل ما هو خارج عن موضوع الدعوى ٠

تقدر ظروف الاتهام وظروف الحادث والأدلة كما تقدرها فى القضايا الأخرى ٠

هذا رجاء زاد تحقيقا عندما أعلن سعادة الرئيس فى جلسة أول أمس ان هذه المحكمة لا تعنى بشىء من السياسة وانها تقصر نظرها على المسائل العادية كما ننظر بقية القضايا ٠

زدنا ايمانا بأنها تحقق العدل فتعاقب بقدر الجرم ، وتبرىء من تعتقد فيهم البراءة انكم الآن ياحضرات المستشارين تعالجون مرضى أصيبوا بجنون الوطنية وأنا أريد أن أتكلم عن شيوع هذه الجرائم وهو يدعو أحيانا الى التشديد فى العقوبة وأحيانا يدعو الى التلطيف فيها فالجريمة التى وقعت والتى أخذت بعض الجرائد الانجليزية تندد بها علينا والتى أنتجت الانذار البريطانى الذى يقول أنا لا نستحق من أجلها أن نكون من الأمم المتحضرة : هذه الجريمة من واردات أوروبا ٠

ان أوروبا التى تمن علينا فى كثير من الأحيان بأن ما نحن فيه من حضارة هو من ناحيتها ، يجب أن تقبل أيضا الى حد ما أن الجرم السياسى هو من ناحيتها أيضا فلم يكن الجرم السياسى موضة فى هذه البلاد أبدا بل لقد أتى مرض القتل السياسى من الغرب مع مرض الزهرى تماما يجب أن تقبل أوروبا هذا أيضا فهى ملوثة فى جميع أرجائها بمثل هذه الجرائم وبأفظع منها ٠

أكبر صيحة نرفعها فى وجه معلمتنا أوروبا ٩٠٪ ممن جروا فى هذا السبيل هم الذين طوحت بهم المقادير وتعلموا فى ربوعها ٠

تلك جناية خلقية لا غربية ولا شرقية ٠

ويقول ابراهيم الهلباوى أيضا : معظم العلماء يتجهون الآن ، أيضا فى أوروبا التى نتعلم عنها الى نبذ عقوبة الاعدام ٠٠ ولو انى أمام محكمة فى أمة صغيرة وغير معروف للغرب أنها تعطى حكما وأمثلة للعدل وليس للعدل وطن لو استطعت لقدمت بين أيديكم من يزعم أن هذه العقوبة علاج خطر تنفر منه النفس الا فى الأوقات الخطرة ٠

★★★

الى أن يقول الهلباوى :

انتفعوا من قوة هؤلاء الشبان فقد ينفعون اذا تابوا وقد تصلح

المقادير من أمرهم خصوصا وأن عقوبة الجرائم السياسية تعتمد دائما على خطأ فى التقدير ·

هؤلاء البغاة يذكرون أنهم ارتكبوا الجريمة بحسن نية · هم كالمجنون الذى يتوهم خوفه من البرىء فيقتله ·

أطلب منكم وأنتم تزنون قدر العقوبة عليهم أن تزنوها بقدر فكر الجانى ··

أعفى القانون القاصر من عقوبة الاعدام لأنه عرف انه لا يقدر تمام التقدير الظروف كلها ·

هم مرضى : يجب أن يعرضوا على طبيب ينظر فى أمرهم ، دون غل ولا حقد : أنتم تعالجون مرضى الأرواح كما يعالج الطبيب مرضى الأجسام فمن أجل هذا أستطيع أن أقول ان هؤلاء المجرمين يستحقون عدلكم ·

هذه الدار تمثل رحمة الله ، فى الأرض فاطلبها منكم لهؤلاء الاغرار ·

★★★

ويقول ابراهيم الهلباوى بعد أن يشير الى أن مصر دفعت نصف مليون تعويضا فى هذا الحادث : اتفقت كلمة الأئمة على أن دفع الدية ينفى توقيع العقوبة ·

وقد دفعت مصر الدية فأرجو أن تضعوا ذلك فى اعتباركم : قيل لكم أمس ان هذه هى القضية الاولى من نوعها التى تعرض على القضاء المصرى وأنا أعتقد أن عودة القضاء فيها الى نظامه العادى قد وضعها فى أيدى قضاة ممن تتشرف بهم الأمم ، فيما يتعلق بصيانة المصالح فأؤكد لكم أن الطمأنينة قد عادت فى كثير من البلاد لا أقول ان الانجليز غير عادلين ففخر الأمة الانجليزية عدالتها ، ولكن اذا اعتز المصرى بعودة قضائه ، للنظر فى أموره كلها فانما هذا ترضية لشعوره واحساسه بالعبء الذى يلقى على عاتقه ·

يا حضرات المستشارين : لعل المتهمين جميعا يتقدمون لكم طالبين الرحمة مع اعترافهم بما حدث ·

★★★

أما وهيب دوس وكان أيضا محاميا عن د· شفيق منصور فقد قال : جئنا أمامكم يا حضرات المستشارين ندافع عن هؤلاء المتهمين تقديرا

هنا لشرف الدفاع رغم ما أرجف به المرجفون من تشويه جمال هذا الموقف الذى نقفه كمحامين نرتدى هذا الرداء ونخلع فيه عن أنفسنا كل رداء آخر قد يعطل من جهودنا فيما أعرناه التفاتا : يظن العامة : يا حضرات المستشارين ان اعتراف المتهم باقتراف الجرم ، يخفف عبء القضاء على القاضى ويهون له سبيل الحكم فى الدعوى ٠

لقد ضل العامة فى زعمهم ، وأمامكم الفرصة سانحة لخدمة العدالة بالقضاء على هذه الضلالة ٠

اذا انكر المتهم واقيمت عليه البينة كان عمل القاضى هينا فهو لا يتقيد الا بالعمل المادى وهذا قد اقيم عليه الدليل فلا يتبقى الا توقيع العقاب فيوقعه القاضى وهو قرير العين طيب النفس للخدمة التى أداها ٠

أما المتهم المعترف بجريمته فيتقدم لقاضيه وسريرته على كفيه يبسطها أمامه مطالبا بأن يحل نفسه محله ويتصورها محوطة بظروفه وأن ينزل الى دركه فى الفهم وفى مبلغ الحوادث فيه فيطالبه بكل هذا لأن القضاء لا يقوم الا بتفهم هذا جميعه ٠

ومن أجل ذلك ترك لكم ذلك المدى الواسع ، من أقصى العقوبة ، وأدناها والمفروض فى جميع الأحوال أن الفعل المادى واحد ولا يجىء الفرق فى الحكم الا لاختلاف ما يفهمه القاضى من جميع تلك العناصر المختلفة والاهواء المتباينة ٠

لهذا كانت مأموريتكم ياحضرات المستشارين فى حال المتهم المعترف أشد ، وأدق منها فى أى ظرف آخر حتى فى حالة الجريمة التى يعتذر المتهم عنها باحدى شهوات النفس الأولية له كالانتقام والغيرة والسرقة للفاقة والغضب لعدم ضبط العواطف ٠

ثم يقول فى النهاية : تذكروا ياحضرات المستشارين اذا ما وضعتم القلم على القرطاس وقبل أن يجرى به قضاؤكم أن هؤلاء الشبان قضوا أعواما انغمسوا فيها فى الجريمة دون أن يكون لهم فى ذلك مصلحة ٠

تذكروا ان لهم عائلات يلبسها حكمكم السواد وأمهات وأخوات تخفق قلوبهن حنوا وعطفا وتجزع نفوسهم هلعا واشفاقا ، وأن لهم عليكم دينا لا تملكون سداده ٠ اذا حم القضاء ٠

خاطروا بأنفسهم وتعرضوا للموت قتلا ، أو حكما فى سبيل مصر، بحسب معتقدهم والأعمال بالنيات وهذا دين يشغل ذمة كل مصرى

عليكم فيه نصيبكم فلعلكم موفونه فى حكمكم باقالتهم من عثرتهم وانكم باذن الله لفاعلون ٠

★★★

كانت المحكمة برئاسة أحمد عرفات باشا وعضوية كرشو ، ومحمد مظهر بك ٠

وربما كان كثير منا لقلة تجاربهم يسخطون عند قراءتهم لتلك المرافعات على ابراهيم الهلباوى ووهيب دوس رغم أن مرافعتهما كانتا أروع المرافعات : ربما لأن الهلباوى مثلا كان يصف المتهمين بالمجرمين والمتهم برىء حتى تثبت ادانته وما كان له ــ وهو المحامى عنهم ــ ان يصفهم بالمجرمين وقد يكون قد لجأ ، الى ذلك ليستدر عطف المحكمة وليؤكد موضوعيته لكن منذ متى كان المحامى يصف من يترافع عنه بالمجرم ٠

وربما كان أكثر ما جعلنا نسخط على مرافعة وهيب دوس بك أنه قال فى المجنى عليه ــ السردار ــ كلاما لم يقله النائب العام أسماه مثلا بالشهيد الذى يمثل الرجولة الحقة والمملوء حيوية ونشاطا طالما ملأ بها ميادين القتال ٠

وعلى أية حال فقد كان كلا من المحامين الهلباوى ووهيب دوس من مدرسة مغايرة للمدرسة التى كان ينتمى اليها غالبية المتهمين ٠

★★★

ويبقى بعد ذلك الحديث عن المرافعات فى قضية الجناية رقم ١٠٤ سنة ١٩٢٦ الخاصة بالاغتيالات السياسية والتى كانت مشكلة برياسة مستر كيرشو وعضوية كامل ابراهيم بك وعلى عزت بك وكانت النيابة ممثلة بمصطفى حنفى بك رئيس نيابة الاستئناف وقد جاء فى بداية مرافعته « فان كان الوردانى قد أعدم فقد بقى شفيق منصور ومن على شاكلته أحرارا طليقين يقتفون أثره ويعملون عمله وينشرون مبادئه الى أن انتهى بحادثة السردار تلك الحادثة الأليمة التى فجعت لها الأمة والتى اصطدمت بآمال مصر بل لست مبالغا ان قلت لكم ان تلك الرصاصات الطائشة التى أطلقها المتهمون على السردار انما هى رصاصات صوبت الى صدر مصر الى أن يقول : ان هؤلاء المتهمين أقلية ضئيلة بل أقلية تافهة لا تعبر الا عن رأيها وهو بذلك يعنى كل الذين اتهموا فى الجرائم السياسية منذ ابراهيم ناصف الوردانى الى المتهمين فى قضية الاغتيال السياسية ــ وعلى هؤلاء الأقلية التافهة أن تتحمل وحدها مسئولية أعمالها وعليها وحدها أن تتحمل تبعتها : واذا كانت هذه التحقيقات ، لم تثبت

وجود أية صلة بين هذه الفئة القليلة وبين أية هيئة سياسية فمن الانصاف أن تقرر هنا أن مجموع الأمة برىء من هذا الاجرام » ·

الى أن يقول : فى النهـــاية ستحكمون بادانة المتهمين أو براءتهم حسبما تستريح اليه ضمائركم الطاهرة ولكنكم ستقضون حتما بأن مصر بريئة من الاجرام والمجرمين وستظل سائرة فى طريقهـــا المشروع نحو غايتها المنشودة رافعة راية السلم حتى تتبوأ بين الأمم مركـــزا يليق بتاريخها الخالد المجيد » ·

★★★

وكان دفاع مكرم عبيد ، قطعة من الأدب القانونى الرفيع ·

وكان من بين كلمات هذا الدفاع ·

لقد أثارت هذه القضية بين الناس على تباين نزعـــاتهم وأهوائهم شديد اهتمامهم وكامن عواطفهم ، وهذا طبيعى لأن القضـــية سيـــاسية والسياسة كانت ولا تزال مسرحا لكل عاطفة وسوقا لكل شهوة ، وميزانا لكل ضعف وكل قوة ·

ولقد نتج عن هذا الخلط بين السياسة والقانون ان اختلطت فى القضية أسباب الحق بالباطل والعدل بالظلم ، والصدق بالكـــذب حتى أصبحت مجمعا لكل تناقض ·

ويقول مكرم عبيد ان الناس خشوا أن تجر هذه القضية ذات الأهمية الاستثنائية الى اجراءات استثنائية فى الاتهـام والتحقيق ومن طبيعـة الاستثناء أنه لا يعرف حدا لأنه لا يعرف قاعدة ، بل هو ضد كل قاعدة ولا يعبأ بعدل أو مساواة لأنه لا مساواة مع استثناء ولا يخضع لضمان لانه لا يرى ضمانا الا فى هدم الضمانات ثم ان الاستثناء هو الفكاك من كل قيد ·

ومن سوء حظ البشرية أن هناك نفوسا ، اذا لم تكبح تجمح واذا لم ترع ولا تستحى ، وهناك نفوس تجزع ونفوس تطمع وهكذا فالاستثناء مهما تلطفنا فى تسميته هو الظلم بعينه لأنه يفتح البـاب لكل شـــهوة ويتنافى مع كل مساواة ·

ولهذا قلت أن الناس قلقوا ، أوجست نفوسهم خيفة لأن كل ظلم مهما كان فرديا فهو ظلم مزدوج ، ظلم واقع على الفرد وظلم يهدد المجتمع » الى أن يقول : ليس أقسى على المتهم من هذا التجرد من شخصه ، هذا التنكر من أهله وجنسه فان دخل فالى سجن واذا خرج فالى قفص ·· يجب ألا ننسى أن المتهم الذي هو في السجن نمرة ، هو في بيته حياة ومحبة ،

يجب الا تنسوا ان المتهم الذى هو فى نظر النيابة اتهام هو فى الواقع نفسه أب وزوج وولد وأخ وصديق .

فلا تعجبوا اذن ياحضرات المستشارين اذا كلمتكم عن المتهمين كأشخاص وبشر فانتم والحمد لله لستم قضاة أوراق .. وانى لأرتجف من هول ما أنتم - أنتم قضاة نفوس بشرية أودع الله مصيرها ، فى كلمة تخرج من أفواهكم فانتم لسان الله وصوت القدر فاقضوا اذن بيننا وبين شفيق منصور ذلك المجرم الذى قضى الله عليه مرات عديدة قبل أن يقضى عليه » .

★★★

والجدير بالذكر أن الاحتلال البريطانى والحكومة المصرية فى قضية مقتل السير لى ستاك سردار الجيش المصرى والحاكم العام للسودان ، حاولوا اقحام بعض الوطنيين السودانيين فى القضية باعتبار أن القتيل الى جانب انه سردار الجيش المصرى فهو - فى نفس الوقت - الحاكم العام للسودان .

وكان من بين الذين اعتقلوا فى تلك القضية - قضية مصرع السير لى ستاك - من السودانيين أحمد محمد مطر وكان سنه وقتئذ ٢١ سنة وكنت قد التقيت بأحمد محمد مطر وروى لى بعض ما لم تشمله أوراق التحقيق ، مؤكدا ان الوطنيين المصريين والوطنيين السودانيين كانوا يعملون - وبالتعاون - فى كثير من المجالات الوطنية .

ومن بين ما ذكره أحمد حسين مطر فى التحقيق عندما سئل عما يعرفه عن جمعية اللواء الأبيض : قال - أحمد حسن مطر - انها مؤلفة من بعض شباب السودان أخذت على عاتقها أن تخدم وطنها حتى آخر لحظة من حياة أعضائها وأساسها فى أم درمان ولها عدة فروع فى جميع مدن السودان تقريبا وكان فى مصر ، وكالة لها يرأسها عرفات أفندى محمد عبد الله ومن أعضائها عثمان أمين محمد هاشم ومحمود أفندى محمد فرغلى ومعهم بعض الطلبة السودانيين لا أعرف أسماءهم وعلى ما أظن يوجد بعض أعضاء آخرين فى جهات مختلفة من القطر المصرى .

وعن فرع القاهرة للواء الأبيض قال أحمد حسن مطر أيضا - أنه مكون من شبان « صغيرين » لا يقدرون على عمل شيء ولكن مهمتهم تمهيد الطريق ، لمن يأتون بعدهم وذلك عن طريق الكتابة فى الجرائد .

ويذكر أحمد حسن مطر ، ان أعضاء الوكالة فى القاهرة كانوا يتحدثون باستمرار عن الأحكام التى صدرت على الجماعة الذين اشتغلوا

بالسودان مثل علي عبد اللطيف والملازم أول زغلول السوداني وصالح عبد القادر • وغيرهم وكانوا يظهرون اشمئزازهم من ذلك بالكتابة فى الصحف وكانت تهمة أحمد حسن مطر انه كان يتردد كل يوم على مكتب الحاكم العام وسردار الجيش المصرى قبيل الحادث بأيام مهما فهم خطأ أنه عندما كان يتردد كل يوم على هذا المكتب ـ كان يمد الجناة بتحركات الحاكم العام للسودان وسردار الجيش سير لى ستاك •

وقد كانوا فى التحقيق أيضا يحاولون الزج باسماء بعض السودانيين فى الحادث لتقديمهم الى المحكمة كشركاء فى عملية القتل •

هذا وقد استغرق التحقيق مع بعض الاخوة السودانيين أياما واستغرقت أقوالهم أكثر من مائتى صفحة من أوراق التحقيق •

★★★

وقد كان عبد الفتاح عنايت ، أول من اعترف فى ١١ فبراير ١٩٢٥ ، على زملائه •

فى المقدمة اعترف على شفيق منصور وكان بمثابة ولى آمره فى المدرسة •

والطريف أن النائب العام طاهر نور باشا ـ قد حرص على أن يذكر فى بداية جلسة التحقيق ما يلى: حيث أن التحقيقات التى حصلت فى قضية الاعتداء على حياة الماسوف عليه السير لى ستاك باشا لم توصل الى نتيجة مرضية رأينا ان نلفت نظر البوليس الى بذل الهمة والعناية التامة الموصلة لمعرفة الجناة الحقيقيين فى هذه الحادثة والقبض عليهم و ٠و

وقد استحضرنا عبد الفتاح عنايت ـ متهم مقبوض عليه ـ وسألناه الآتى : أخبرنا عن كيفية تدبير الجريمة وكيفية وقوعها ونصحناه الا يتهم ابرياء ، اذ يترتب على اعترافه مسائل خطيرة •

وروى عبد الفتاح أنه بعد انفشلت المفاوضات التى اجراها سعد باشا مع الحكومة البريطانية وفى مكتب شفيق منصور المحامى تم اجتماع حضره الاستاذ شفيق منصور ، ومحمود افندى اسماعيل واخى عبد الحميد وأنا ، تناول الحديث مسألة المفاوضات وقطعها فأحدنا ولا أتذكر ان كان شفيق منصور أفندى أو محمود اسماعيل أفندى قال مفيش طريقة بقى غير القتل السياسى وبما أن المسألة أصبحت معقدة خصوصا من جهة السودان وأنهم أخرجوا مثلا جزءا من الجيش فاتجهت الفكرة لاغتيال السردار بمناسبة عودته من أوربا الي مصر •

وحصلت مناقشة فى هذا الموضوع وكنت أنا معارضا لهذه الفكرة لما يترتب عليها من النتائج السيئة ، ولكنى خضعت لرأى الأغلبية ووافقت على قرار الجمعية ٠

وفي ذلك الوقت كنت أعرف أن هناك أفرادا آخرين يقومون بتنفيذ هذا العمل ويوافقونهم على هذا الرأى ولما تم الاتفاق على اغتيال السردار قلت لهم فين السلاح اللى يستعمل فى هذه الحادثة فقال الدكتور شفيق نشوف وميل على محمود أفندى اسماعيل وأعطاه نقودا لم أتبين عددها وقال ان هذا المبلغ مقدم وانفض الاجتماع ، على هذه الفكرة ٠

بعد ذلك سافر محمود أفندى اسماعيل الى الاسكندرية وأحضر السلاح معه وعدده أربعة مسدسات منها اثنان يظهر على شكلهما أنهما جديدان والآخران قديمان وأحضر السلاح لى أنا وأخى بالمنزل ، وبقى السلاح عندنا بالمنزل مدة وجيزة وبعد ذلك أخذه أخى عبد الحميد وأودعه بمنزل ابراهيم موسى الذى كان يسمى أمامنا باسم محمد على وهو الذى قام بعملية نشر الرصاص هو ومن معه من العمال الذين لا أعرفهم وبعد ذلك أحضر الى منزلنا محمود أفندى اسماعيل قنبلة بيضاوية الشكل مضلعة على مسافة سنتى ونصف كل ضلع من الآخر بحديد مطفى ، وبها حلقة من الطرف وحجمها أكبر من حجم بيضة النعامة بقليل ٠

وبعد أن مكثت بمنزلنا يومين أو أكثر أو أقل أخذها ابراهيم موسى كما أخذ السلاح سابقا ٠

وكان من بين ما قاله عبد الفتاح عنايت : كان من نظام الجمعية ألا يعرف العضو الا عضوا آخر أو اثنين على الأكثر حتى اذا وقع محظور للجماعة فلا تقع المسئولية على كل الجماعة بل على الأشخاص الذين يعرفون بعضهم ٠

وكان أخى عبد الحميد هو الرسول بين الجمعية ، التى يرأسها شفيق وبين أفراد الجماعة من العمال فى هذه الحادثة وبلغ أخى ابراهيم موسى بقرار الجمعية وقد طلب منى شفيق أفندى منصور أن أثق بمحمد على (ابراهيم موسى) ٠

وصرح لى أن اتكلم معه فى الموضوع : واتفقنا على ارتكاب الجناية يوم ١٩ نوفمبر عقب خروج السردار من الوزارة وبلغ اخى عبد الحميد الأفراد الذين اتفق معهم على ارتكاب الجناية بذلك وبأن يحضروا فى المحل المعين لارتكاب الجريمة ٠

ومحمود اسماعيل أفندى هو الذى رسم الخطة بالنقط التى يجب أن يتواجد فيها الجناة وكيفية هروبهم بعد ارتكاب الحادث وقد أحضرهم أخى فعلا فى محل الحادثة قبل ارتكاب الحادثة وعرفوا أماكنهم وان يهربوا بعد الحادثة بواسطة أوتوموبيل يستأجر دون أن يعرف السائق غرضهم ويهربون من جهة السيدة أى من الطريق المضاد للحادثة ٠

وكنا سبعة وهم ابراهيم موسى ، وأحمد حسن ، ومحمود راشد الذى أعرفه وأعرف أمياله لارتكاب الجرائم السياسية لانه يحمل سلاح دائما كلفت أخى باحضاره وقد حضر فى يوم الحادث ٠

وكانت مأموريته أن يستحضر أوتوموبيل أجرة لهرب الجناة واثنين من العمال لم أعرفهم بالاسم ، ولكن أعرفهم شبها اذا عرضوا على ولو انى لم أرهم الا يوم الحادث ، ولكنى متأكد أنى أستعرف عليهم ٠

والأربعة روفرفرات وزعت على العمال أى ابراهيم موسى وأحمد حسن والاثنين العمال الذين لا أعرفهم والقنبلة على المدعو أحمد حسن وأحمد حسن هذا كان واقفا على التلتوار الشرقى الذى يكون على يسار المتجه للقصر العينى وقد أحضر محمود راشد أوتومبيل ووقف فى نهاية شارع ناظر الجيش ، وأنا وقفت فى شارع الفلكى بين وزارة الحربية وبين بيت سعد باشا وأخى كان يمر بشارع ناظر الجيش : أى ثلاثة منا كانوا مكلفين بالرقابة أنا وأحمد حسن ومحمود راشد منتظر بالسيارة ليهرب مع الجناة فيها وابراهيم موسى مع العاملين الآخرين ارتكبوا الجناية ولما خرج السردار حوالى الساعة ١٫٣ ، أو الساعة ١ و ٤٠ ق باوتومبيله الذى كان معروفا للجماعة تصادف أثناء خروجه بشارع القصر العينى مرور الترام فخفف سائق الاوتوموبيل سيره فأطلقت عليه العيارات النارية وأول شخص أطلق عيارات نارية هو ابراهيم موسى وتتبعوا أوتومبيل السردار يطلقون عليه العيارات وأخيرا التجأوا الى أوتومبيلهم ، وبما أن هذا الشارع كان مطروقا بأشخاص كثيرين جرى أشخاص كثيرون نحو الضاربين رمى أحمد حسن القنبلة فى الشارع لمنعهم من تتبع الجناة وتصادف فى هذا الوقت مرور موتوسيكل كان راكبا عليه واحد انجليزى وفى السبت الملصق بالموتوسيكل انجليزى آخر فأطلق عليهما ابراهيم موسى النار أيضا ٠

ويقول عبد الفتاح عنايت : وأنا أؤكد بان عرفات المسجون الآن لم يكن معنا ولم أعرفه من قبل وقد عرفته فى السجن وكذلك أحمد حسن مطر لم يكن معنا ولم أعرفه الا من السجن ، وكذلك الشخص الذى استعرف عليه السواق فانه هو الذى ركب معه الاوتوموبيل وربما تكون أوصافه تقارب أوصاف محمود راشد الخ ٠

وعن قصة هروبه وشقيقه عبد الفتاح قال : كان قد قبض علينا أنا واخى بوجه الاشتباه وافرج عنا لعدم استعراف شهود الرؤية علينا فكرنا فى مبارحة القطر المصرى والتوجه الى طرابلس فلما استدعينا بعد الافراج عنا للنيابة لنعرض مع باقى الأشخاص المشتبه فى أمرهم على الشهود اتفقت مع أخى على أن يتوجه هو واتخلف أنا بالمنزل حتى اذا استعرف عليه وقبض عليه أنجو بنفسى واذا لم يستعرف نفر معا ٠

وهذه الفكرة طرأت على أنا وأخى منذ وقت الاعتقال الأول اتفقنا انه اذا أفرج عنا لا بد من مبارحة القطر المصرى وقد اخبرنى أخى بانه توجه للنيابة فى اليوم المحدد للعرض وأن الشهود لم يستعرفوا عليه ٠

وأخذنا نستعد للهرب وصممنا على ذلك نهائيا خصوصا بعد أن علمت من نجيب أفندى هلباوى الذى عرفته فى هذا العام فقط من مدة ثلاثة شهور وكان يتردد على فى منزلى بانه سيقبض على وأخى ثانيا ٠

ونظرا لأنه يعرف أخى الكبير الذى توفى أظهر عطفه علينا وانه مستعد لمساعدتنا فى الهروب ولما اطلعناه على فكرة هروبنا لجهة طرابلس رسم لنا خطة الهروب ٠

وبعد أن أخذنا ما يلزمنا من الكتب والملابس توجهت لمنزل محمود أفندى راشد الكائن بشارع باريس خلف سراى عابدين وقابلته هناك وطلبت منه المسدسات التى حفظت عنده بعد ارتكاب الجريمة وأفهمته بأنى عزمت على الهروب وأخى فسلمنى السلاح ٠

وكان نجيب أفندى الهلباوى منتظرنى على رأس الحارة فى الشارع ثم توجهنا الى محطة السكة الحديد وركبنا القطار الى الاسكندرية والذى قطع لنا التذاكر هو نجيب الهلباوى وفلوسنا كانت مشتركة مع بعضنا لأن كلا منا كان يصرف من عنده مرة على الجميع ٠

ونزلنا بمحطة سيدى جابر واخذنا ترام الرمل بالإسكندرية واخذنا عربة للوكاندة العثمانية والذى أرشدنا عنها هو نجيب الهلباوى وبيتنا فيها ليلتين تحت اسماء مستعارة حيث سميت نفسى محمد على ، واخى تحت اسم حسن عبد الله ،ونجيب الهلباوى باسم أحمد حسان ٠ و ٠و٠

وفى يوم الجمعة فى الصباح اشترينا ملابس كثيرة فغيرنا بها كالعرب ٠

وفى الليلة الثانية شعرنا بأن فيه مراقبة علينا فانتقلنا الى لوكاندة أخرى بالقرب من محطة المنشية ٠

وفى يوم السبت صباحا اخذنا القطار القاصد مريوط .

ووضعنا المسدسات تحت مقعد من المقاعد التى بالعربة التى كنا راكبين فيها بعيدة عنا نوعا بفكرة أننا لو ضبطنا تكون المسدسات غير موجودة معنا .

وقبل أن يصل القطار للمحطة النهائية وفى الطريق أوقف القطار بواسطة الرجال الهجانة وقبض علينا وحصل لى ذهول بسبب المفاجأة واستمر معى الذهول يومين ولازلت متأثرا من هذه الصدمة للآن .

ولما قبض علينا ووضعوا فى أيدينا الحديد ولم يحصل لنا شىء من الاهانات ولا وعد ، ولا وعيد واعترافى هذا صحيح ولم يكن تحت أى تأثير واذا كنت نسيت شيئا أقرره فى وقت آخر وتليت عليه أقواله فأصر عليها وأمضى .. عبد الفتاح عنايت .

ومرة أخرى قال عبد الفتاح ان والده محمد افندى عنايت كان موظفا بالحكومة ، بوظيفة مهندس وهو من أرباب المعاشات وأخوه أحمد مهندس خبير ، وعبد الخالق طالب بجامعة الطب بانسبروك بالنمسا منذ مدة سنتين وكان قبل الآن مدرسة للغة الفرنسية بمدرسة فى بلاد الأفغان وليس لنا أخوات بنات ووالدتى متوفية وقبل أن تتوفى والدتى تزوج والدى أخرى من مصر ، ويقيم معها الآن بالاسكندرية من أربع سنوات .

والمنزل الذى نقيم فيه بشارع البستان رقم ١٥ وكان مملوكا لوالدتى كتبته لنا والبيت عبارة عن دور واحد ، وتحته دور مسروق .

وقال أنه وأخوته يملكون ثلاثة بيوت فى الحارة ايجارها تقريبا من ١٦ الى ١٧ جنيها فى الشهر ، وتقيم معهم جدتهم لوالدتهم وخادمة قريبة من بعيد اسمها تفيدة منير صالح .

وشفيق منصور يعرف شقيقه محمود من أول مدة الحرب .

وقد مات أخى فى ١٩١٧ أو - ١٩١٨ ولما أخلى شفيق منصور من مالطة وعاد الى مصر ، وجاء يعزينا فى محمود وامتد التعارف بيننا وقد عين شفيق منصور ، مستشارا لنقابة العمال وذلك أنه فى عهد رئاسة سعد زغلول للحكومة حصل خلاف بين العمال عندما تعين عبد الرحمن نهمى رئيسا للنقابة فى الجزء الذى انشق على عبد الرحمن رأى أن يعين شفيق منصور مستشارا للنقابة متطوعا .

وشفيق منصور ديمقراطى يخدم الصغير مثل الكبير ويعتقد بأن استقلال البلاد لا يمكن الوصول اليه الا بالكفاح يعنى بالقتل

السياسى وكان يجاهر بهذا الرأى لمن يثق فيه من الاشخاص الذين يعتقد أنهم يحفظـون أسراره ويكونون من رأيه وأنصار هــذا الرأى أولا هو ومحمود أفندى اسماعيل أما الأشـخاص الذين يرتكبون الجرائم فهم قوة تنفيذية ٠

وعن الذين يترددون على منزله قال عبد الفتاح : طالب بمدرسة الحقوق اسمه عبد الكريم اسماعيل وواحد اسمه سليمان محمد موظف بوزارة الزراعة وفهمى غنيم طالب بمدرسة الحقوق وعمر محمد طراف طالب بمدرسة الزراعة العليا ٠

وأنا اتردد على منازلهم ولكن زيارتهم لى أكثر من زيارتى لهم ٠

ويقول عبد الفتاح أنه عضو فى الجمعية والأوامر كانت تصدر لنا من سفيق منصور ومن محمود اسـماعيل وان ابراهيم موسى يســكن فى الشرابية قبل كوبرى الليمون وان شفيق منصور لم ينصحهما ـ عبد الفتاح وعبد الحميد ـ بالهرب ٠

وعندما نجح عبد الحميد عنايت هذا العام فى البكالوريا دخل مدرسة المعلمين كما قال ان ايراده الشهرى جنيه ونصــف كما روى أيضا أن شفيق منصور هو الذى ملأ له استمارة الالتحاق بالمدرسة وهو ولى أمره بهـا ٠

وقيل لعبد الحميد عندمـا كان نجيب الهلبـاوى يقطع التذاكر للسفر الى اسكندرية ذهبت الى نقابة العمال ، وقال عبد الحميد هذا لم يحدث وانا لا اعرف نقابة العمال ، ولما قيل له : أخوك عبد الفتاح قال هذا : قال أخى مخطىء ٠

وقال عبد الحميد : أظـن الى عـرفنى بنجيب الهلبـاوى أخى عبد الفتاح ٠

وعندما قيل له هل تتردد على مكتب شفيق منصور ؟ قال لا ولما قيل له : قال عبد الفتاح بأنك ترددت على مكتب شفيق منصور ، فقال أخى عبد الفتاح كذاب وكذلك كل من ذكروا ترددى على مكتب شفيق منصور كذابين وقد نفى عبد الحميد تردد شفيق منصور على منزله ٠٠ وفى التحقيق كان عبد الحميد عنايت منكرا لكل شىء مؤكدا أنه لا يعرف شيئا الا عن مدرسته ودراسته ولم تزد اجاباته على كثير من الأسئلة الا بقوله : لا أذكر شيئا من هذا ، لم يحصل ذلك ، أخى كذاب كل هذا لم يحصل ، ولم يحصل شىء من ذلك مطلقا ، مفيش حاجة من دى ٠

وكذلك كان موقف ابراهيم موسى ، ومحمود اسماعيل وبقية المتهمين ما عدا عبد الفتاح عنايت ٠

ومن بين ما قاله ابراهيم موسى وكلامه يصلح أن يكون تأريخا لجزء من الحركة العمالية المصرية أنه قد التحق خراطا بعنابر السكة سنة ١٩١٠ واستمر تحت التمرين خمس سنين وهو يأخذ ستة عشر قرشا في اليوم خلاف العلاوة المائة والعشرين والعمولات التي يحصل عليها في بحر المدة ويكسب منها تقريبا جنيه ٠

ومن رؤسائه في العنابر قال محمد افندى على رئيس العنبر وحسن أحمد رئيس التشغيل وواحد افرنجى اسمه دومينكو أسطى شغل أيضا ٠

وعنده بنتان وولد والمنزل الذي يسكنه ملك لوالدته ٠

ونفى ابراهيم معرفة عبد الفتاح عنايت وعبد الحميد عنايت ، ومحمود راشد ٠

ولم أسمع عن أسماء هؤلاء الأشخاص أبدا « وقال ان « شيخه » سلامة حسن ويحضر عنده « الحضرات » وكان نائب شيخه في حضرة الشرابية الشيخ محمد ابراهيم وأظن أن صناعته مطبعجى في المطبعة الأميرية وقال أنه لم يسمع بحادث السردار الا في اليوم التالى وأن عمره ما مسك السلاح في ايده ٠

وبعد فترة اعترف عبد الحميد بعد أن حوصر باعترافات عبد الفتاح ٠

أما محمود اسماعيل فقد ذكر أنه موظف بوزارة الاوقاف وقد نقل الى البحيرة ثم نقل للديوان العام وأن لديه شهادة في البحر وأنه عمل فترة بخفر السواحل وخرج منها بسبب مرض أمه ، وفصلوه منها لغيابه وأنه حضر بعض معارك الجيش الانجليزى في العراق من يناير لغاية أكتوبر ١٩١٦ ٠

وكانت مهمته مترجما وأنه تعرف بـ شفيق منصور في عام ١٩٢٢ وكانت له قضية في الوزارة ونفى محمود اسماعيل معرفته بابراهيم موسى وعندما سئل هل تعرف النقراشي ؟ قال : شفته ولكن ماعرفوش ومفيش بيني وبينه اختلاط وقال أنه كتب كراسة عن تاريخ حياة شفيق منصور هو وواحد اسمه رامز « خوجه » في مدرسة صدق الوفاء لمساعدته في الانتخابات ٠

وقال أنه قرأ خبر اغتيال السردار فى المقطم ٠

ونفى ابراهيم راشد معرفته بأى من المتهمين ٠

وعندما سئل عن علاقته بعبد العزيز على قال : كان موظفا معنـــا فى القسم الميكانيكى بوزارة الاشغال وبعدها خرج ٠

وقد سئل : ما هو اللبس الذى تلبسه عادة فى المنزل قال لما اقلع هدومى ابقى بالقميص واللباس ٠

وقيل له من اين يعلم عبد الفتاح عنايت بذلك ؟ قال حتى دى كمان يعرفها ٠ انا مندهش خالص ٠

وكان التحقيق مع شفيق منصور بمثابة مباراة بين النائب العـام وبين استاذ فى القانون ، وعضو مجلس النواب ٠

وقد ذكر شفيق منصور أنه عضو باللجنـــة الادارية فى الحزب السعدى (الوفد يعنى) وقال شفيق منصور بعد تذكيره من النائب العام: هل ذهبت لتتغدى فى منزل أولاد عنـايت وأحضرت معك رأس خروف قال يجوز ويجوز أيضا أنه كان معنا فى الغداء محمود اسماعيل ٠

وعندما سئل شفيق منصور عن وجود بعض دوســـيهات لبعض المجرمين السياسيين قال : كانت فيه لجنة شكلتها الحكومة لاعادة النظر فى قضايا المجرمين السياسيين والافراج عمن ترى محلا للافراج عنهم ٠

وتشكلت اللجنة من بعض المحامين المصريين تحت رئاسة مرقص حنا باشا نقيب المحامين فى ذلك الوقت وعضوية مصطفى النحـاس وراغب اسكندر وأنا وعبد الحليم وعبد الرحمن البيلى وكلفنى مرقص باشا ان احفظ الدوسيهات عندى لوقت الطلب واعلنا فى الجرائد عن هذه اللجنة حتى يمكن لاهالى المعتقلين أن يمدونا بكل معلومات تخص اقاربهم ٠

ويثور شفيق منصور عندما يواجه باعترافات عبد الفتاح عنايت ويتهمه بالعقوق بل بالجنون ٠

ومرة اتهم شفيق منصور محمود اسماعيل بأنه ارتكب الحادث لأنه كان يكره سعد باشا وكان على ما يظهر يأمل فى أن يحصل من وزارته على شىء كترشيح شخص معين للانتخابات فى جهة شربين و٠و٠ ٠

★★★

وفى ٢٩ مارس ١٩٢٥ اعترف شفيق منصور اعترافا شاملا وان كان قد نفى عن نفسه تعرفه أو اشتراكه فى الجريمة قائلا أنه عندما عرض

عليه محمود اسماعيل الفكرة رفضها لانها ستكون ضد سعد باشا وان محمود اسماعيل اتهمه بأنه متردد دائما وأن شـــفيق منصور ، طلب منه وممن معه الكف عن هذا العمل البطال وأنه يجوز ان تكون هناك أيد أخرى تعمل لخضــهم على ارتكاب الجريمة وأنه ـ شـــفيق منصـــور ـ لا يستبعد ان يكون محمود اسماعيل واقع تحت تأثير اشخاص آخرين لأنه كان متحمسا جدا لهذه الحادثة وكذلك عبد العزيز على ٠

« وقد وعدنى محمود اسماعيل بأنهم لن يفعلوا شيئا وتركتهم بعد ان اطمأننت لهذا الوعد » ، روى شفيق منصور أنه كان جالسا بمكتب د٠ أحمد ماهر وزير المعارف ليشكره على أنه أمر بقبول سيف الدين طاهر وآخرين فى المدارس مجانا وحضر حسن سلامة مساعد النيابة وأخبرنا بحادث اغتيال السردار وأنه كان فى وزارة الحربية وفى أثناء حضوره لوزارة المعارف سمع بالحادث فدهشنا ، من هذا الخبر ٠

وتأكد لى وقتها بأن لابد أن لهؤلاء الأشخاص يدا فيها ٠

ثم خرجت مع وزير المعارف ووصلته لسان جيمس ورحت عــلى بيتنا وبعدما اتغديت ونمت وحضر أثناء ذلك عبد الحميد عنايت وأيقظنى من النوم وأخبرنى بأنه حاضر من محــل الحادث وأنه كان من ضــمن الموجودين فى الحادثة مع أخيه عبد الفتاح ومحمود راشد وعبد العزيز على وابراهيم موسى وعمال آخرين وأنا شتمته وطردته ، وقلت له ان هذا عمل سافل وأنا اخبرتك ان هذا عمل مضر وانكم قضيتم على البلد بهــذا العمل وقلت له لازم أبلغ عنكم دلوقت لأنكم خالفتم نصيحتى فأخبرنى بأن محمود اسماعيل أخبرهم بأنى وافقت على الاستمرار فى العمل فقلت له : ماجيتوش تسألونى ليه ؟ فأخبرنى بأنهم صدقوه واكتفوا بكلامه ٠ وكان فى نيتى التبليغ عنهم ولكن راعيت انهم أولاد صغار وطايشين وأن التحقيق لابد أن يصل يوما ما لمعرفتهم وهذا خطأ منى ٠

وقد ذكر شفيق منصور أن الحوادث السابقة على حادث السردار كان يشترك فيها أولاد عنايت : عبد الحميد وعبد الفتاح ومحمود راشد وعبد العزيز على وابراهيم موسى ومحمد فهمى الذى كان يشترك معهم ، فى بعض الأحيان ٠

وكان محمود اسماعيل هو الذى يساعدهم على ارتكاب الحوادث بالآراء ويقول أن عبد الفتاح ، وعبد الحميد كانا يحضران اليه بعد قيامهما ببعض الأعمال من باب الفخر لأنهما يعتبران أن هذا العمل لمصلحة الوطن الا ابراهيم موسى ومحمد فهمى وذكر أن عبد العزيز على ومحمود راشد قد زاراه فى مكتبه بعمارة الكريدى ليونيه مرتين أو ثلاث ٠

وعندما قيل لشفيق منصور فى التحقيق بأنه وعد بأن يساعد التحقيق فى حادث السردار وغيرها وأنه يحجم الآن عن ذكر من حرض على ارتكاب الجريمة التى قتل فيها حسن باشا عبد الرازق وزهدى بك سكت طويلا ــ محاضر التحقيق ــ وقال أنا فقدت نفسى وكفى .

ولكن عند انصرافه خاطب النائب العام قائلا : يا باشا صعب على أن أفضى باعترافى على شخص آخر ومع كل فسأفكر فى المسألة عندما أخلو الى نفسى واقدر النتائج التى تترتب على ذكر اسم هذا الشخص .

وقد ذكر عبد الفتاح عنايت مرة أن محمود اسماعيل قال له أنه أطلق النار على عدلى يكن باشا وحسين رشدى باشا وقد أخبرنا شفيق منصور أن محمود اسماعيل كان يريد عدلى ورشدى فأخطأهما وأصاب حسن عبد الرازق وزهدى .

وأكد عبد الفتاح مرة أخرى على أن راغب حسن ، وعلى ابراهيم كانا من ضمن الجناة وأنه لم ير محمود راشد فى المرة الأولى اثناء مروره وبعدين « مريت » ووجدتهم .

وعندما اعيد سماع أقوال محمود اسماعيل أول ابريل ١٩٢٥ لم يخرج من فمه الا : ماحصلتش .. مش صحيح هذا كذب لا ، لا ، لا . وعندما قيل له : ألم ينصحك شفيق منصور بأن تبتعد عن الأحزاب المعادية لحزب سعد باشا قال : أنا لست قاصرا وأنا لم أنضم فى أى وقت من الأوقات لحزب ضد حزب سعد وأنا لآخر لحظة كنت مع سعد باشا والأوراق التى ضبطت عندى تدل على ذلك .

وعندما سئل عبد العزيز على عن علاقته بمحمود راشد لم ينف تلك العلاقة وانما قال أنه كان بوزارة الأشغال سنة ١٩١٩ عندما حدث اضراب الموظفين واجتماع كل جماعة من الموظفين فى جامع رآنى مرة أصلى فى الجامع فاندهش من كون شاب مثلى يصلى فأعجب بأخلاقى وحصلت العلاقة بيننا .

ونفى عبد العزيز على ، أن تكون له علاقة بشفيق منصور أو أولاد عنايت سوى أحمد أفندى عنايت « لأننا كنا مع بعض فى مدرسة واحدة سنة ١٩١٧ » .

وعندما سئل : هل تخبرنا عن السبب الذى يدعو بعض الأشخاص كمحمد فهمى للاعتراف عليك ؟ اجاب : اما أن يكونوا مضللين لغرض فى نفوسهم أو بعقلهم خبل .

وطلب شفيق منصور فى ٢ ابريل ١٩٢٥ لقاء النائب العام فأحضر من السجن وطلب أن يكون لقاؤه بالنائب العام على انفراد وقال أنه اقتنع بخطئه فى الحوادث التى حصلت وأنه قد ضحى بنفسه فلا محل لذكر أسماء اشخاص آخرين خصوصا وانهم سيمتنعون طبعا عن الاستمرار فى العمل بعد الحكم عليه وأنه كان يظن أن هذه الاعمال تؤدى الى مصلحة البلد وأن خطاه فى حادث السردار هو التساهل أولا مع المتهمين ٠

وعندما قال له النائب العام ان مصلحة الوطن يجب أن تفضل على مصلحة الأفراد قال ان ، حنفى ناجى كان ضمن الأشخاص الذين دبروا حوادث سابقة بايعاز من الخديو السابق ٠

وكان أهم شخص ينفذ أغراضه شخص يدعى الحاج أحمد بمصلحة السكة الحديد حيث كان يدبر حوادث الاعتداءات وله تأثير عظيم على العمال وكان يفاخر بحضور بعض نواب الشرقية بأنه لولاه ولولا الحوادث التى حصلت ما كانت البلاد حصلت على ما حصلت عليه ٠

وأنه ـ شفيق منصور ـ سافر الى انجلترا خصيصا للسعى فى اخراج اللورد اللنبى ٠

وفى ٦ ابريل ٢٥ طلب عبد الحميد عنايت مقابلة النائب العام ٠ وقال له لقد ذكرت فى الجلسة الماضية ان عبد العزيز على كان حاضرا اجتماعين مع شفيق منصور وهو مظلوم فى هذه الحادثة وهو لم يحضر الاجتماعين اللذين حصلا للمؤامرة على قتل السردار وأنه لا يريد أن يحبس شخص برىء وأنه لا يدرى لماذا قرر ذلك شفيق بخصوص عبد العزيز على ٠

وعاد مرة أخرى شفيق منصور (٧ ابريل) يقرر أن ما استنتجه بخصوص عبد الرحمن وعبد الحليم البيلى غير صحيح وباطل وان كل ما قرره فيما يختص بهذه القضية أخيرا غير صحيح لأننى كنت تحت تأثير الخوف والفزع والتهديد بالموت من الكونستبلات والجاويشية الموجودين بالسجن ونفى أيضا ان يكون عبد العزيز على حاضرا الاجتماعين الخاصين بمؤامرة السردار وأنه لا يعرف عبد العزيز على الا بصفته موظفا فى بنك مصر ٠

وعندقفل المحضر أمر النائب العام باعادة شفيق منصور الى السجن وعاد ليؤكد أن كل ما قاله عن حادث السردار حقيقى وأن عبد العزيز على عاد للمناقشة فى موضوع ذكر أسماء الذين اشتركوا معه فى الحوادث السابقة وأن يخشى من ذكر اسمائهم أن يعتبر خائنا فى نظر مواطنيه ويكفى أنه ضحى بنفسه « فأمرناه ـ النائب العام ـ باعادته الى السجن » .

وقد جاء فى تقريرين قدمهما محمد نجيب الهلباوى (٣٢ سنة) مولود ب « أبا الوقف » مركز مغاغة مزارع ويقيم بالقاهرة ـ بتاريخ ٥ فبراير ١٩٢٥ الى حكمدار العاصمة وكما جاء فى أقواله أمام النائب العام جلسة ١٥ فبراير ١٩٢٥ أنه فى يوم حادث اغتيال السردار كان بينه وبين اليوزباشى سليم افندى زكى موعد بمصر الجديدة ليعطى له بعض معلومات تهم وظيفته وأنه قال له : يجب القبض على الجماعة بتوع السودان الذين حضروا مصر بسبب الحوادث التى حصلت هناك فقبل الفكرة وكلفنى عن طريق آخر أن أبحث فى الموضوع فلعلمى بأن شفيق منصور له يد فى جميع الحوادث السياسية التى حصلت كما أخبرنى بذلك بعد خروجى من السجن وكان متهما معى فى قضية القاء القنبلة على عظمة السلطان حسين فتوجهت مباشرة الى مكتب شفيق أفندى منصور حيث كانت الساعة السادسة مساء تقريبا ثم وجدت بالمكتب أشخاصا كثيرين من أرباب قضايا وأصدقاء وكان من ضمنهم محمود أفندى اسماعيل سكرتير بالقسم الزراعى بوزارة الأوقاف وعنايات الصغير وبعد أن جلست قليلا دخل فى أوده أخرى ونادى محمود اسماعيل وعنايت الصغير واختلوا مع بعض فأنا تبادر الى ذهنى الشك فى امرهم ٠

وفكرت فى أن أبحث وراءهم و٠و٠و٠

وقد دخل أيضا فى نفس الوقت حسن افندى كامل البشبيشى الى مكتب شفيق أفندى منصور وكنت عندما التقى بهم بعد ذلك احاول ان أعرف منهم أى شىء عن الحادثة فلم اعرف أى شىء ٠

ويروى الهلباوى القصة بالتفصيل وكيف أنه زين لعبد الفتاح وعبد الحميد فكرة الهرب الى الخارج بالرغم من معارضة شفيق منصور لفكرة الهروب وقال أنه هو الذى أوحى لهما بألا يذهبا معا الى العرض أياه « واحد منكم يروح الأول » وقال الهلباوى بعد أن عرف ان لهما يدا فى الحادث : أردت أن أعرف شركاءهم من العمال فاستحضرت أربع قنابل فارغة بواسطة البوليس ووضعتها عندى بالمنزل واستحضرت عبد الحميد وأفهمته بأنى أريد أن أرتكب حادثة بواسطة هذه القنابل ضد اسماعيل صدقى باشا موهما اياه بأن هذا العمل يصحح الغلط بارتكابهم الجريمة ضد السردار واستعلمت منه عن العمال الذين يمكنهم القيام بالعمل معى وطلبت منه أن يرشدنى فعلا عن محمد فهمى وأمين ميلاد اللذين كلفنى البوليس بالبحث عنهما لعلاقتيهما بالحادث وقدمت له جوابا مصطنعا منسوب صدوره من جماعة الاسكندرية الى بالاستعلام عن هذين الشخصين وهل يمكنهما العمل أم لا ؟ ٠

فقال لى : ان هذين الشخصين يستطيعان القيام بالعمل بدون ان يكون معهما ٠

وطلب منى أن يأخذ القنابل ليفرجهم عليها حتى يفرحوا بها و٠ و ٠

وكان ـ كما قال الهلباوى ـ يبلغ البوليس أولا بأول عما يصل اليه من المعلومات وقال أنه استأجر غرفتين فى بنسيون بالعتبة الخضراء بشارع دسوقى نمره ٢ باتفاق مع البوليس على أن يدور الحديث معه ومع عبد الحميد فى غرفة ويجلس أحد رجال البوليس فى الغرفة الأخرى ـ ليستمع الى الحديث ٠

وقد دار الحديث بينى وبين عبد الحميد على موضوع قتل اسماعيل باشا صدقى وهو كان يعارض فى هذا الرأى ويقول لى برهن على أن قتل صدقى باشا يصحح غلطتنا » ٠

ويروى الهلباوى كيف أعد خطة الهرب بالاتفاق مع انجرام باشا وكيف كان يتصل به كل ليلة من الاسكندرية كما أنه كان على صلة مستمرة بكبار رجال البوليس فى الاسكندرية ٠

وكنت ـ والهلباوى ـ قد اقترحت أن يتم القبض عليها فى محطة الاسكندرية ولكن انجرام باشا قال ان القبض على عبد الفتاح وعبد الحميد يجب أن يكون خارج القاهرة « حتى اذا وصلنا قريبا من العامرية وقف القطار وسط الطريق وهجم البوليس علينا مع قوة مسلحة وقبضوا علينا نحن الثلاثة فلما انزلنا من القطر وضعوا أمامنا ما ضبط فلم أجد معهما المسدسات فحاولت ان اكلم احد الضباط لأجل أن يفتش العربة جيدا لأن القضية يضيع منها دليل مهم وأخيرا أخبرت أحد الضباط فأخذنى الى العربة وقال لى : تعالى ورينى عفشك موهما لهما انى لم أقل له شيئا وقادنى بحالة بشعة فقال لى فى أى مكان كنت جالس فأريته كيسا فيه بصل أى عفش شخص آخر ثم قادونا الى نقطة هناك لا أعرف اسمها ٠

وفى الطريق قلت يا عبد الحميد « احنا وقعنا ومفيش مفر الا كونك تعترف وان لم تعترف فسأضطر لأقرر كل شىء لأنجو بنفسى فقال : أنا لا أعترف بشىء ٠

وقلت له : ان محمود اسماعيل اعترف بكل شىء حتى الحوادث التى سبقت هذه الحادثة من ١٩٢٠ ٠

ويقول نجيب الهلباوى عن نظام الجماعات السياسية أنها تتركب من شعب كل شعبه تتركب من خمسة أشخاص لكل خمسة رئيس وكل رئيس متصل برئيس الشعبة الأخرى فقط ، بمعنى ان كل شعبه تعرف

بعضها ولكنها لا تعرف أعضاء الشعبة الأخرى واتصال الشعب ببعضها يكون بواسطة الرؤساء وكل رئيس شعبة لا يعرف الا رئيس شعبة واحدة فقط ٠

وكل الشعب متصلة بجهة رئيسية غير معروفة للأعضاء ولا لرؤساء الشعب ٠

ويقول نجيب الهلباوى انه يعمل بالبوليس السرى من أكتوبر ١٩٢٤ بمقتضى جوابات تحت يده وانه عرف محمود اسماعيل بعد أن أفرج عنه – عن الهلباوى يعنى فى ١١ فبراير ١٩٢٤ – ويؤكد سليم زكى (٣٤ سنة) ما ذكره الهلباوى من أنه يعمل بالبوليس السرى وانه – أى سليم زكى – استدعاه من « أبا الوقف » ليتعامل معه ويذكر أنه – سليم زكى – كان بناء على تعليمات من انجرام ضمن القوة التى خصصت للقبض على عبد الحميد ، وعبد الفتاح فى الصحراء ٠

وانه عندما وصل القطار المقل لهما الى منتصف الطريق بين البرج والحمام أوقف القطار وفتش الركاب ٠

وقد قبض أولا على محمد نجيب الهلباوى وثانيا على عبد الفتاح عنايت وبعد مدة قبض على عبد الحميد عنايت كما ضبط الأسلحة ٠

وكان سليم زكى حريصا على ألا يظهر للمتهمين حتى أن القوة لم تنتبه الى وجوده فتركوه فسار على قدميه الى معسكر الحدود بناحية البلاج .

وكان سليم زكى يطلع على مذكرة خصوصية ويراجع التواريخ أثناء الادلاء بأقواله وقد أثبت النائب العام ذلك فى المحضر ٠

★★★

ولأن قضية مقتل السردار كانت ذات أهمية بالغة بالنسبة لمصر وبالنسبة للعمل الفدائى الوطنى المصرى ولأنها كانت بمثابة تصفية لذلك العمل خاصه وان قضية الاغتيالات السياسية التى أعقبتها لم تكن الا ذيلا لها وكانت معتمدة الى حد كبير على تقرير كتبه شفيق منصور قبل اعدامه ٠

لأنها كانت كذلك فقد أوليناها من جانبنا أهمية بالغة ٠

★★★

وكم كان يحلو لى بين حين وآخر أن أغرق فى ملفاتها وأوراقها وتقاريرها وتحقيقاتها لأننى من ناحية كنت راغبا فى دخول كلية الحقوق ولأنى من ناحية أخرى كنت مغرما بتاريخ العمل الفدائى فى مصر وقد

كانت أبغض شخصية فى هذه القضية الينا هى شخصية محمد نجيب الهلباوى الذى سلم سبعة رؤوس الى المشنقة نظير سبعة آلاف جنيه قبضها واشترى بها أو ببعضها أراضى فى بلدته « أبا الوقف » وكان محتقرا من بنى بلدته ·

وأكثر من مرة فكر بعضنا فى التخلص منه انتقاما لجريمته النكراء ولكن هذا البعض « استخسر » فيه الرصاصات التى تطلق عليه ·

وكان رأينا أن يعيش ليجد القصاص العادل من احتقار المواطنين وازدرائهم ·

وأكثر من مرة حاول أن يوضح موقفه وأن يؤكد انه انما أراد خدمة مصر ، بكشفه تلك العصابة التى كانت تقود الشباب الى الدمار ·

وكان الذين يوضـــح لهم الهلباوى موقفه هذا يبدون استعدادهم للمجىء به الينا لكى يبرهن على أن النقود لم تكن همه الأول لأنه كان قبل أن يأخذ المكافأة الخاصة بتسهيل مأمورية القبض على الجناة فى حادث مقتل السير لى ستاك باشا كان موسرا ، ولم يكن بحاجة الى المال ·

وقد كنا ندرس شخصيات تلك القضية دراسة تتناسب مع أعمارنا ومع تطلعنا للمشاركة فى العمل الفدائى ·

★★★

كنا ـ مثلا ـ نقدر شخصية عبد الحميد عنايت بالرغم من بعض الاعترافات ولم تكن نقدر أبدا موقف شفيق منصور المذبذب بين الاعتراف والانكار ·

وكنا نختلف الى حد كبير مع عبد الفتاح عنايت فى موقفه ·

وكنا نرى أنه أساء الى شقيقه والى المتهمين فى القضية باعترافاته التفصيلية وبأنه خضع لبعض تأثيرات البوليس ·

ولكنا كنا نغفر له فى النهاية بعد أن كفر عن ذنبه وقضى بالسجن ربع قرن من الزمان وخاصة عندما كان « عمنا » عبد العزيز يدعونا الى ذلك وكذلك شقيقه عبد الخالق عنايت وكذلك زوجة محمود اسماعيل ·

ومن الأمور التى وقفنا عندهـــا طويلا المواقف الشجاعة لمحمود اسماعيل وابراهيم موسى ومحمود راشد وكذلك موقف فاطمة بنت سعيد قريبة عبد الحميد عنايت وحافظ زهران ، كانت عذراء لم تتزوج وكانت تعيش على مقربة من منزل أولاد عنايت وهم أولاد خال والدتها ، نفت أنها

تعرف أحدا من الذين يترددون على منزل آل عنايت ولكن عندما قال لها عبد الحميد عنايت لا تخافى وقال لها أيضا أنت شفتى محمد فهمى النجار لما جه وسأل عنى قولى ولا تخافى قالت : أيوه شفته مرة من زمان ولما قيل لها هل تعرفينه اذا شفتيه قالت نعم : كفاية مرة واحدة أشوف الواحد وأعرفه ٠

وقد كان الكاتب فى مكتب شفيق منصـــور مخبرا فى البوليس وكان يعرف كما قال ــ فى شهادته ــ كل المشبوهين السياسيين وانه أبلغ البوليس عندما رأى عبد العزيز على وكان اســـم هـــذا المخبر ــ تصور ــ محمد أمين ٠

وكان مما قاله محمد أمين هذا ٠٠ قالوا لى على واحــد اسمه أمين ميلاد ، وبعدين فوجئت به يصلى فى الجامع ٠

من بين اعترافات محمد فهمى على « اننا كنا ماشيين فى ليلة من ليالى عام ١٩٢٢ أنا وعبد الحميد وابراهيم موسى عند كوبرى الليمـون ووجدنا عسكرى انجليزى قام ابراهيم موسى ضربه بالرصاص ٠

وقال أيضا أنه وابراهيم موسى وعبد الحميد عنايت ضربوا المستر روبسون بتاع مدرسة الحقوق ٠

ومن بين تقارير مصلحة مهمات الجيش المصرى بالقلعة ان القنبله التى ألقيت على سيارة صاحب المعالى السردار السابق من قنابل الجيش البريطانى عينة رقم ٥ ملز قنبلة يدوية ولم يمكن عمل فحص تفصيلى عن القنبلة فى محل الحادث من غير تحريكهـــا وعلى ذلك فقد صار اعدامها بواسطة قطن بارود وبعد اعدامها جمعت بعض شظاياها بما فيها جهاز الاشتعال الذى ثبت أن عدم اطلاقها كانت نتيجة عيب فى الكبسول ٠

وقد اختبرت الكبسولة فلم تنطلق وباختبـــار قنبـلة أمان جهاز الاشتعال وجدت صالحة للعمل ٠

وقد وقع التقرير مدير مصلحة المهمات وباشمهندس المفرقعات بالجيش المصرى وبتكليف من النائب العام تولى سيد مصطفى وكيل النائب العام بنيابة الاستئناف بسؤال العديد من المقبوض عليهم وتوجيه هذا الاتهام لكل واحد منهم : أنت متهم بأنك اشتركت فى مقتل معالى السردار لى ستاك باشا يوم ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ ؟

وقد أنكر كل هؤلاء التهمة وهم حسب توجيه الاتهام لهم يوم ٢٩ يناير ١٩٢٥ ٠

محمود أحمد اسماعيل وقد قال أنا برىء ، وانى كنت بالوزارة لغاية الساعة ٢ مساء ٠

شفيق منصور : هذا غير صحيح وسبق أن قبض على لهذا السبب وأفرج عنى ٠

أمين ميلاد ميخائيل : أبدا لم أشترك فى ذلك ٠

ابراهيم موسى : لا لم يحصل وأنا ليس لى دخل بالسياسة ٠

عصام الدين حفنى ناصف : هذه تهمة شخصية لأنى كنت من ١٣ يوليو لغاية ١٧ ديسمبر ١٩٢٤ فى سجن مصر فى حادثة الاعتداء على سعد باشا ٠

السيد أفندى عليان حسن محمد عليان : لم يحصل ٠

على محمد راضى : مدرس بمدرسة الاتحاد الوطنى ببولاق لم يحصل وأنا كنت بالمدرسة لغاية الساعة الواحدة والربع حيث كنت نوبتجيا ٠ وعلى أن أراقب الطلبة أثناء أكلهم فى غرفة الطعام بدلا من حضرة الشيخ على جلال المدرس بالمدرسة والذى أخذ فى النوبتجية عنى يوم الاثنين (١٧ نوفمبر) ٠

محمد على فهمى : أبدا لم أشترك فى القتل المذكور وكنت يومها فى الشغل فى نقطة اسمها الديبة فى منتصف المسافة بين عزبة البرج والديبة ٠

محمود راشد ومهندس تنظيم ٣٣ سـنة ساكن بعابدين ٠ لا لم أشترك فى هذه الحادثة وكيف أشترك فى حادثة تضر بلادى ٠

محمد على موسى : لا أعرف كلام من هذا القبيل ٠

محمد ابراهيم منصور : لم يحصل ولا أعرف السياسة ولا عمرى شفت حاجه زى دى ٠

أحمد حسن رجب : نجار : لا وليس لى أى سابقة فى الحكومة ولم أشترك فى الحادثة المذكورة ٠

محمد على سلامة : نجار لم يحصل ذلك أبدا ٠

عبد الحميد عنايت لا أبدا ٠

على ابراهيم محمد براد بالعنابر : لم يحصل أبدا ٠

من الأمور التى تبعث على الضحك أن محمد ابراهيم منصور ذكر فى التحقيق أنه كان يعرف واحدا مهندسا فى التنظيم اسمه محمد زكى الدباغ وآخرين ولما كنـــا تلامذة كنـــا نأخذ تاريخ مصر القديم وفيه الرعاع ورئيس الكهنة ٠

وكانوا يلقبون كل واحد منا بلقب : هو ـ الدباغ ـ كان يكتب لى رئيس الكهنة وكنت أكتب له : كاهن ٠ وعنـــدما قيل له : وجد عندك خطاب تاريخه ٣ ديسمبر ١٩٢٠ به علامة وعبارة مولاى أريد بارباروس الأعظم رئيس الكهنة فما هى تلك العلامة قال : « يا بارباروس الأعظم من المشهورين فى تاريخ مصر ٠

والعلامة دى علامة قباحة وعندما قيل له :

وجد عندنا خطـــاب من محمود تاريخه فبراير ١٩٢٠ يقـول فيه « الخدمات التى قمتم بها أثناء توليكم الرئاسة مما يجعل البابوية تقدها حق قدرها ؟ وأجاب : كل هذا هلس وأنا قلت انهم كانوا يســـموننى رئيس الكهنة ٠

وقد وجد عندى ورقة مكتوب عليها اســـم اللنبى فقال انها كانت للتسلية زى ما الواحد يقعد يكتب كده هو :

وسئل ، وما مناسبة كونك كتبت اللنبى قال : أهو كتبت وهو الواحد لما يكتب كده هو خلاص : الواحد قاعد يكتب هو من غير قصد سوى التسلية ٠

راغب حسن : لم أشترك فى الحادثة ٠

أحمد حسن أحمد : أبدا وفى التحقيق قال انه يسكن فى شارع العمرى فى طالون تبع قسم السيدة وهو نجار فى مصلحة التلغرافات وبيشتغل بأربعة جنيه فى الشهر ٠

وقد روى أحمد حسن أحمد أنه لم يسمع باسم ابراهيم موسى الا فى الجامع اللى جنب قهوة على موسى ولما حبسوه قالوا للمصلين فى الجامع الفاتحة ان ربنا يفك سجن ابراهيم موسى فسألت واحد من اللى جنبى عن ابراهيم موسى ده من فقال هو أخ على موسى صاحب القهوة ٠

محمد على موسى : لا أعرف وقد ذكر أنه أباه على موسى سمسار فى القضايا وهو بيودى قضايا شفيق أفندى منصور وكانت قد وجدت نوتة عند والده بها أسماء كثيرة بعضهم اتهموا فى القضية وعندمـــا

سئل محمد على موسى الذى كان يقوم بتسجيل الأسماء فى النوتة عن بعض تلك الأسماء قال أبويا اللى ملانى على الأسماء ده وعن عمه ابراهيم موسى ، قال أنه تابع لنقابة العمال ومركزها بوابة الحديد ٠

وقد وجد بأوراق القضية تقرير مفصل لعبد الفتاح عنـــايت عن الحادث وآخر عن محاولة الهرب الى ليبيا وكانت آخر كلمة فى التقرير الأخير : رأيت الهجانة يصطفون على جانبى القطار لما توقف وقبض علينا وأخذنا الى البرج حيث أصبحت فى عالم آخر غير العالم الدنيوى فاقد الفكر شارد اللب والعقل ٠

وهناك تقرير اضافى كتبه الهلباوى أراد به أن يؤذى محمد فريد وهو صديق له وكان أحد المتهمين معه فى قضية قنبلة السلطان حسين٠

والقصة أنه ذهب ــ ومن ورائه أحد ضباط البوليس ــ يطلب من محمد فريد أن يبيت عنده هو وعبد الحميد وعبد الفتاح عنايت فى بيته الى الصباح حتى يتمكنا من ارتداء ملابس العريان فى طريقهما الى ليبيا ٠

وبالرغم من أن محمد فريد أبدى استعداده أن يأخذهما لبلده عند أحد الأصدقاء وأنه يخشى اذا ما باتا عنده أن يغضب منه محمود اسماعيل بالرغم من ذلك قال الهلباوى لعبد الحميد وعبد الفتاح ، ان محمد فريد رفض ايواءكما وقد قال عبد الفتاح تعليقا على رفض محمد فريد : دول جماعة كلهم كلاب : أولاد كلاب ولو أن عبد الفتاح عنايت عرف الحقيقة وأن محمد فريد فضل فى البداية الهرب بطريق البحر وأنه لم يتأخر عن ايوائهما لما قال هذا القول الكريه عن محمد فريد ٠

ولا يبقى بعد كل ذلك فى هذا الفصل ، الذى طال واستطال حتى كاد أن يصبح كتابا مستقلا بذاته وربما كان عذرى فى ذلك ان جوهر حياتى كلها كان جزء لا يتجزأ من تلك المدرســـة التى صاغت حياتى صياغة جديدة والتى بلورتها وأعادت تكوينها من جديد : لا يبقى لى سوى أن أتحدث عن أستاذين كان لهما أكثر من غيرهما التأثير المباشر فى بداية حياتى وربما لولاهما لتغيرت تلك الحياة تماما من أولها الى آخرهـــا أولهما ــ بلا جدال ــ الدكتور حسن نور الدين لقد انقلبت حياتى رأسا على عقب بعد أن عرفت ذلك الرجل واذا كان أمين الرافعى الذى لم أره ولكننى تأثرت به كان أستاذا لى فى الصحافة فان حسن نور الدين كان أستاذا لى فى العمل الوطنى السرى والعلنى تحت الأرض وفوق الأرض ٠

وقد كان يتميز بشـــخصيته الجذابة كما كان معروفا بتضـــحياته الجسيمة وايمانه القوى بمصر واصراره على المشاركة فى تحريرها ٠

ومن الأمور التى حببت الرجل الى نفسى والى قلبى : انه كان زاهدا تماما فى الدنيا لم يبق له فى هذه الدنيا قبل أن يتزوج وينجب من أمل الا أن يجند الشباب الوطنى للعمل لخدمة الوطن .

وقد لا يتصور أحد مما بلغ بهذا الأحد سعة الخيال . ان رجلا كهذا الرجل قدم فى سجل خدمة الوطن الكثير يمكن أن يضحى بوقته وجهده وربما بماله أيضا لكى يخلق شابا وطنيا يحمل رسالة الحرية والاستقلال .

لا أحد يتصور كيف كان هذا الرجل يقضى معنا وربما مع كل واحد منا على انفراد الساعات الطويلة وهو يزرع فيه الروح الوطنية الحقيقية يقص علينا قصص البطولات الفذة .

يروى لنـا ما عـرفه عن مصـــطفى كامل ومحمد فريد مركزا على التضحيات الجسيمة التى قدمها محمد فريد كما يركز على أيامه الأخيرة وكيف كان وهو ابن الباشوات الذى ملك مئات الأفدنة وعشرات الالوف من الجنيهات والعديد من العمارات الشاهقة ولا يجد ما يقتات به وكيف كان يذهب الى بعض الحدائق العامة ليحصل على بعض الحشائش ويقوم بغليها فى الماء لكى يشرب عصيرها ساخنا فى تلك الشهور التى تتجمد فيها كل شىء فى برلين .

كان حسن نور الدين دائم الحديث عن ابراهيم ناصف الوردانى الشاب الوطنى الذى أحب بلده والذى كان على علاقة وثيقة به وكيف ضحى بروحه لقاء ما يؤمن به .

ولم أسمع من د . حسن نور الدين نقدا للوردانى بل لقد كان يدعونا باستمرار الى زيارة قبره قبل أن نقدم على عمل ما .

ولست أنسى ما حييت أول يوم دعانى فيه الى بيته حيث كنت أتوقع الشر .

وكنت أخشى أن يكون فى الأمر مكيدة فيستحيل ـ هكذا صور لى خيالى الطائش ـ أن رجلا مثل الدكتور حسن نور الدين يدعو مثلى ـ ولم أكن قد دخلت الجامعة ـ بعد ـ الى بيته وأذكر أننى صارحته بما دار فى ذهنى يوم أن ذهبت اليه فى بيتـــه لأول مرة فاذا به يبتسم ولم يكن يضحك أبدا كأنما كان يحمل هموم الدنيا فوق رأسه ويقول لى : عندما رأيتك تخطب لأول مرة فى جمعية الشبان المسلمين وجدتك تتحدث من قلبك والذى كنت تريد أن تقوله دخل الى قلبى مباشرة .

وتتبعتك من بعيـد وبعثت وراءك من يأتى الى بأخبارك ويأتنى

بتقرير عنك ولم يكذبنى قلبى : دعوتك مباشرة لزيارتى فى بيتى لكى نتحدث بعيدا عن أعين رجال البوليس ٠

★★★

وقد كنت فى بداية شبابى أخشى رؤية الدم ، ومرة كنت فى شارع (الأمير فاروق) بالقرب من العتبة الخضراء ورأيت شابا أصيب فى حادث سيارة ولم أكد أرى الدماء تنزف من رأسه حتى أغمى على واحتار الناس بين من أصيب فى الحادث وبين من أصيب لأنه رأى المصاب فى الحادث ٠

ومرة كان أحد الأصدقاء يروى لنا كيف أنه كان يقوم بعملية « برى » قلم رصاص بموس حام فاذا بالموسى يقطع عقلة صباعه حتى لقد تناثرت العقلة بعيدا عنه وبينما كان يقوم برواية القصة التى مضت عليهـا سنوات وسنوات أصبت بحالة اغماء طويلة ٠

وعبثا حاول الصديق اسعافى وهو يقول : يا عم خلاص دا حكاية انتهت من خمس ست سنين ٠

د ٠ حسن نور الدين هو الذى جعلنى انتقل من تلك الحالة الى حالة أخرى على العكس تماما ٠

وقد كان أعد غرفة فى بيته بالحلمية نتدرب فيهـا على استخدام السلاح ٠

وكانت مبطنة بحيث لا يسمع أحد فى الخارج صوت الرصاص ولم تكن هذه الغرفة تفتح الا فى حالة الضرورة القصوى ويخيل الى أن عملية (التبطين) تلك كانت مؤقتة ، بحيث يمكن خلع ما بها من أغطية واعادتها الى الحالة الطبيعية ٠

وكنا نتمرن على حمل السلاح لكى نكون مستعدين عنـدما تجىء الفرصة لنستخدم السلاح حيث يجب أن يكون استخدام السلاح ٠

وليس من حقى أبدا أن أتحدث عن العلاقة التى كانت تربط محمود العيسوى بالدكتور حسن نور الدين وانما يكفى أن أقول اننا كنـا نرى العيسـوى فى منزل نور الدين كما كان يرانا واننـا كنا نلتقى بالدكتور حسن نور الدين مرارا وتكرارا فى مكتب أستاذنا عبد المقصود متولى فى ميدان عابدين المواجهة تماما للشرفة الملكية ؟؟ ٠

وأول مرة قبض فيها على حسن نور الدين كانت فى عام ١٩١٢ وكان يدرس الطب بالاستانة ثم عاد الى مصر يصحبه محمد رزق أحد أعضاء

البعثة الأزهرية فى باريس التى ألفهـا الشيخ عبد العزيز جاويش ، وما أن نزل من الباخرة حتى قابله فى الميناء محمد امام واكد ، وطلب منه أن يصحبه لقضاء مهمة عاجلة ، وذهب معه وتركه محمد امام واكد ، وغاب فى أحد المنازل وقتا طويلا ٠

« وبعد بضعة ايام على هذه الواقعة قبض علينا ووضعت الأغلال فى أيدينا ، وتمت حراستنا بالبنادق والسنكى أنا وزميلى بتهمة الاشتراك فى مؤامرة اغتيال الخديو واللورد كتشنر ومحمد سعيد باشـا رئيس الوزراء آنذاك ٠

وقدمنا الى المحاكمة بتهمة شهادة الزور لأننا أنكرنا أقوالنا بعد أن اعترفنا بمقـابلة امام واكد ٠ وحكم على كل منا ابتدائيا بالحبس ستة أشهر ٠

وأثناء محاكمتنا استدعينا رسميا للتحقيق فى قضية المنشورات، مع أننا كنا مسجونين ، وهذه المشورات طبعت فى تركيا وفيها تحريض على الثورة ٠

وقد أحضرها الى مصر أحمد مختار الطالب بالكلية الحربية بالآستانة والذى أصبح ـ فيما بعد ـ سكرتيرا للأمير محمد على ٠

وقد فتشت منازلنا فى تركيا بواسـطة البوليس المصرى تحت اشراف محمد بك بدر الدين ٠

وكان كامل باشا رئيس الوزارة التركية الصدر الأعظم من ذوى الميول الانجليزية ، فوافق على هذا الاجراء ، ولم يعثروا على المنشورات ٠

وكنا متهمين أيضا بأننا على اتصال بجماعة النهليست وهم الثوار الروسيون بالآستانة ، لأن سفير انجلترا فيها قدم احتجاجا لدى البـاب العالى ذكر فيه ان المصريين يكونون فى تركيا مركزا ثوريا ضد الحكم الانجليزى فى وادى النيل ٠

وانتهى التحقيق وحكم على أحمد مختار بالسجن ١٠ سنوات ٠

وفى حرب البلقان أغلقت كلية الطب فسافرنا الى بلجيكا لأنهـا بلد محايد ، ثم أعلنت الحرب العالمية الأولى ووصل الألمان الى بروكسل، فغادرناها فى ٢٢ أغسطس ١٩١٤ الى مصر مخترقين المانيا ، النمسا ، المجر ، رومانيا ، تركيا ٠٠ وسـمح لنا بالالتحاق بالمدارس العليـا المصرية ٠

وفي أثناء الدراسة قبض علينا وساقونا الى سجن الاستئناف بعد أن عزل الانجليز الخديو عباس حلمى وعينوا بدلا منه السلطان حسين ·

وكانت بداية سجننا فى ١٧ ديسمبر ١٩١٤ ·

ثم أفرجوا عنا بعد أن انتهت حفلة الارتقاء ـ جلوس السلطان ـ واستدعانا جورج فليبدس وهددنا بأننا سنكون في أول قائمة المعتقلين اذا ما حدث فى مصر أى شيء ، فطلبنا مغادرة البلاد حتى يستريحوا ، ونستريح ·

ولكنهم رفضوا ·

وصدر أمر باعتقال رجال الحزب الوطنى في معتقل الجماميز فى أغسطس ١٩١٥ وكان من بينهم حافظ عفيفى بك ومصطفى الشوربجى بك وزكي على بك والأستاذ عبد المقصود متولى وعبد الملك حمزة ، ود · محمد عوض محمد ، وأنا · ومكثنا فى معتقل الجماميز ٢٨ يوما ثم نقلنا الى الاسكندرية للتحقيق معنا فى حادث القاء القنبلة على السلطان حسين وبعد أن قضينا في سجون الأقسام ١٥ يوما على الأسفلت، أرسلونا الى سجن الحضرة ومكثنا فيه ٣ أشهر الى أن انتهى التحقيق فنقلونا الى سجن طرة ، ثم الى مقر آخر فى الجيزة (كان فيما بعد مستشفى الرمد بالجيزة) ·

وفى أول أكتوبر ١٩١٦ أرسلونا الى مالطة ، وبقيت معتقلا هناك فى قلعة قديمة حتى أكتوبر ١٩١٩ وكنا نعامل فى مالطة كأسرى حرب ونلبس ملابس الجنود ، ولكل منا « نمرة » لأننا ضمن فئة أسرى الأعداء وتضم نحو ثلاثة آلاف من النمسويين والأتراك والعرب والبلغار ·

وكان معنا من المصريين فى مالطة حامد العلايلى ، ود · محمد عوض محمد ، ود · محمد صبرى منصور ، ود · شفيق منصور والاستاذ الصباحى وكان سعد زغلول معتقلا في مالطة · لكن فى أحد مبانى الضباط هو وحمد الباسل باشا واسماعيل صدقى باشا ومحمد محمود باشا ·

وقد ظلوا معتقلين ١٥ يوما ثم رخص لهم بالسفر للمفاوضة ·
وسافرت الى بلجيكا سنة ١٩٢٠ وبقيت هناك حتى أغسطس ١٩٣٩ ·

وركبنا الباخرة « كوثر » فى أول سبتمبر ١٩٣٩ من مرسيليا وكانت معنا السيدة الجليلة أم المصريين ·

وفى ٣١ أغسطس ١٩٤٣ وفى الساعة الثانية والنصف بعد منتصف

الليل ، هاجم البوليس منزلنا بناء على تقرير سرى من مصدر يقول ان شخصا « اسمه حسين ، أسير حرب أو معتقل ، شكله يدل على أنه أوربى ، يتكلم لغات أجنبية ، يدخل ويخرج من منزل حسن نور الدين باحتراس شديد » ٠

ووضعونى فى قسم الدرب الأحمر على الأسفلت بدون طعام أو شراب رغم كبر سنى ٠

ثم نقلونى الى قسم الخليفة ووضعونى مع المجرمين « المرحلين » الى الطور ٠

ثم عدت الى سجن الأجانب بعد أن ساءت صحتى ٠

ومكثت عشرة شهور فى السجن ، ثم قدمت الى محكمة جنايات عسكرية عليا بتهمة طبع منشورات تحض على الثورة ٠

وفى ٢١ يونيو ١٩٤٣ برأتنى المحكمة بعد دفاع مجيد قام به عبد الرحمن الرافعى ، وابراهيم رياض ، وفتحى رضوان ٠

وبعد الحكم ببراءتى بخمسة أيام نقلونى الى معتقل المنيا حيث مكثت هناك ١٤ شهرا ثم أفرج عنى قبل اقالة الوزارة الوفدية بشهرين٠

ولكن وضعونى تحت الرقابة العسكرية ، بدعوى اننى خالفت شروط الرقابة » ٠

هذه صفحة واحدة من صفحات أستاذنا د٠ حسن نور الدين ٠

★★★

والى جانب حسن نور الدين ، وجد لى ، ولغيرى من شباب مدرستنا الفدائية أستاذ جليل آخر لم أتعرف به الا مؤخرا ، أو بعبارة أدق ، لم يفتح لى قلبه الا بعد امتحانات دقيقة وعنيفة امتدت الى أكثر من ثلاث سنوات ٠

كان عبد العزيز على صامتا لا يتكلم ٠

يجلس فى أى اجتماع ويستمر الاجتماع ثلاث ساعات أو أربع ساعات فلا ينبس ببنت شفة كما يقولون ٠

وكان الواحد منا يزوره لساعة أو ساعتين دون أن يتحدث الا عن الجو ، وعناوين الصحف اليومية والأموات الذين غادروا دنيانا فى نفس

اليوم الذى تتم فيه الزيارة ، وفى بعض الأحيان كان البعض يتصورونه عييا غير قادر على الكلام ٠

غير أنهم يفاجأون به عندما يتحدث ، يجدونه قاموسا فى السياسة المصرية أحداثا وأشخاصا ، ويجدونه صاحب رأى ثاقب وفكر مستنير ، كما يجدون حديثه شيقا ٠

تعرفت اليه ثلاث سنوات بعد أن جمعنا غداء عند أستاذنا حسن نور الدين الذى كان قد حدثنى عنه مرارا وتكرارا ٠

استمرت العلاقة ــ علاقة المعرفة ــ ثلاث سنوات ، فلا أنا أفتح له قلبى ، ولا هو يفتح لى قلبه ، رأيته من ذلك النوع من الرجال « يقتل القتيل ويمشى فى جنازته » أو « يوديك البحر ويجيبك عطشان » ٠

لم أسمعه مرة واحدة يتحدث عن عمل قام به أو شارك فيه ، بل لم يتحدث الرجل مرة واحدة عن نفسه على الاطلاق بالرغم من أنه ــ كما أعرف جيدا ــ أستاذ من أساتذة الوطنية ، وعملاق من عمالقة العمل الفدائى ٠

وطوال تلك السنوات الثلاث حاولت أن أجعله يفتح فمه ٠

وأخيرا وبعد جهد شاق وعنيف بدأ يتحدث معى بصراحة بعد أن التقينا معا أكثر من مرة فى بعض سجون مصر ٠

لم يترك الرجل معى شاردة ولا واردة فى العمل الفدائى الا ذكرها لى كأنه توقع أن أكون كاتبا ، بل انه عندما فكر فى كتابة مذكراته اختارنى أنا لمشاركته فى كتابتها ٠ وكان قد سجل بعض الأحداث فى أوراق صغيرة بدت كأنها تحتوى على ألغاز ، وعندما تتاح الفرصة لى لكتابة ما ذكره لى عبد العزيز على ، فان ألوف الصفحات التى تضمنتها تحقيقات كثيرة لقضايا سوف تفقد قيمتها ٠ فقد كانت التحقيقات معه باستمرار تصل الى طريق مسدود ، وفى بعض الأحيان كانت تنتهى باعدام واحد أو اثنين أو ثلاثة أو حتى سبعة ، ولكن تبقى الحقيقة غائبة ٠

علامات الاستفهام التى جرى وراء الاجابة عليها عشرات من خيرة رجال النيابة العامة فى مصر ، فى أكثر من ثلاثين سنة لم يتم الاجابة الا على بعضها ، أما البقية ــ وهى الأغلبية المطلقة ــ فقد بقيت كما هى ، ألغاز فى ألغاز ، ذلك لأن المفتاح كان فى يد عبد العزيز على ٠

وعبد العزيز على ضنين بالمفتاح لا يريد أن يعطيه لأحد أيا كان هذا

الأحد : ثلاثة أرباع حوادث الاغتيالات التى وقعت ـ مثلا ـ فى الفترة من ١٩١٨ حتى ١٩٢٤ وكان ضحاياهـــا بعـــض الانجليز ، وبعض الشخصيات المصرية البارزة لا تزال غامضة : من الذى قرر الاغتيالات ومن الذى اختار الذين سيقومون بالتنفيذ ؟ من الذى قاد عملية الضرب؟ من الذى كان مهمته « ستر » القائمين بالضرب ؟ عشرات من الأسئلة لم توجد الاجابة عليها ، فالمتهمون ـ الا فيما ندر ـ ينكرون ، حتى الذين أجبروا على الاعتراف كانت اعترافاتهم غير دقيقة ، ناقصة ، مضـــللة ، غير كافية ، كلمة صح ، وعشرات الكلمات خطـــأ . وكل تلك الأسئلة وعلامات الاستفهام عرفتها بدقة وبايضاح كامل من عبد العزيز على .

وقد كان مما يعجب عبد العزيز على فى ، أنى دارس وحافظ للوقائع وقادر على الجدل حتى فيما لم أشترك فيه من أحداث ، واننى باحث عن الحقيقة عند كل من اعتقد أن لديه ذرة معرفة عنها .

طال الجدل بينى وبين أستاذى عبد العزيز على حول دور د . شفيق منصور فى قضية السردار : أهو الذى أبلغ السلطات قبل الحادث بأربع وعشرين ساعة حتى لا يقع الحادث لأنه عدل ـ فى اللحظة الأخيرة ـ عن اقتناعه به ؟ وما هى السلطات التى أبلغها بامكانية حدوث اعتداء على سردار الجيش المصرى والحاكم العام للسودان ؟ .

أم أنه لم يقم بالابلاغ وانما اكتفى بدفع بعض الفدائيين على المشاركة فى الاغتيال ؟ لو أن شفيق منصور كان قد أبلغ قبل الحادث ، ما كان هناك داع لتخبط البوليس فى التحقيق ، ولما كان هناك داع لكى يبعث سليم زكى فى استدعاء ـ الفدائى القديم الذى كفر بالعمل الفدائى ـ محمد نجيب الهلباوى من بلدته : أبا الوقف لمساعدته على معرفة الجناة، ولما كان هناك داع لوضع خطة هرب عبد الفتـــاح وعبد الحميد عنايت ومعهما السلاح المستعمل فى الجريمة .

وكان من رأى عبد العزيز على ، أنه وان جاز عدم قيام شفيق منصور بابلاغ الجهات المسئولة بالحادث قبل وقوعه ، الا أن المسئولية الملقاة عليه هى الخاصة باعترافاته المطولة ، فهو فدائى قديم ، عمل أول ما عمل فى مجموعة ابراهيم ناصف الوردانى ، ثم انه سياسى محنك ، ودارس للقانون ، بل دكتوراه فى القانون ولا يعقل أن رجلا بمثل هذه الدرجة من المعرفة والدراية والتجربة والثقافة يعترف على نفسه ، وعلى الآخرين بينما لا يعترف عامل بسيط ، لا يعرف كيف يفك الخط هو ابراهيم موسى ، رغم ان الدولة كلها جندت الكثيرين من رجالهـــا لدفع ابراهيم موسى ـ تحت التهديد ـ أو الرغبة فى الافراج ـ ليدلى باعترافه فلم يفتح فمه على الاطلاق ، لا بالنسبة لنفسه ، ولا بالنسبة للآخرين .

وكان أستـــتاذنا عبد العزيز يطلب منى ألا أتحامل على عبد الفتاح عنايت . الذى اعترف على نفسه وعلى شقيقه ٠

وكان اعترافه هذا هو الذى ساعد البوليس والنيابة على معـــرفة الكثير من أسرار القضية بل كان ذلك الاعتراف هو الذى دفع بعبد الحميد ـ وشقيقه عبد الفتاح ـ الى المشنقة ٠

وكان عبد العزيز على هو الذى حبب الى أن أتعرف بالبريد ـ على د٠ عبد الخالق عنايت ـ الذى هرب الى النمسا وعاش فيها بل لقد كان عبد العزيز على هو الذى بعث برسالة الى د٠ عبد الخالق عنايت يطلب منه مراسلتى ٠

من الأسرار التى أزاحها عبد العزيز على أن العمل الفدائى المصرى فى ثلاثة أرباع حجمه ـ لو كان الأمر يقاس بالحجم ، حجم العمليات ـ كان فى الفترة من ١٩٠٨ الى عام ١٩٢٤ يجرى تحت عباءة الحزب الوطنى دون أن يعرف قادة ذلك الحزب عن ذلك العمل شيئا٠

بل ان بعض هؤلاء القادة ـ فى بعض الأحيان ـ قد استرابوا فى نشاط بعض الأعضاء وكادوا يستبعدونهم من حضـــور بعض الاجتماعات السياسية الدقيقة خشية ان يتأثر مستقبل الحزب ٠

ذكر لى ـ مرة عبد العزيز على ، أنهم فكروا ـ ذات مرة ـ فى تهريب محمد فريد من السجن عندما حكم عليه فى قضـــية « كتاب وطنيتى » للأستاذ على الغاياتى ٠

وذكر لى أيضا أن عبد الحميد سـعيد وعبد اللطيف الصـــوفانى والطبيب الجراح اسماعيل صدقى ، كانوا فى مقدمة الذين عملوا عـلى تكوين خلايا وشعب سرية للعمل الوطنى وفق نظام دقيق معتمدين على طلاب المدارس العليا ٠

روى لى ـ مثلا ـ أستاذنا عبد العزيز على ـ أنه أصدر منشورات سياسية كثيرة فى الفترة من ١٩١٠ الى ١٩٤٣ باسم « لجنة شباب الحزب » وباسم « حفنة الدماء » ، وباسم « العيـــون الساهرة » وباسم « لجنة مصر بين شقى الرحى » ٠

وكان كاتب هذه المنشورات كلها شخص واحـــد هو عبد العزيز على ٠

وأوضح لى أن المراد من تعدد الأسماء والصفات هو ارباك البوليس وايهامهم بأن هناك أكثر من جماعة تقوم بهذا العمل ٠

وذكر لى ـ عبد العزيز على ـ ان بعض المنشـــورات أيضا حملت اسم « اليد السوداء » بينما لم تكن هناك أبدا جماعة بهذا الاسم ٠

وعن شعبة أولاد عنايت التى لعبت أخطر الأدوار فى حادث اغتيال السير لى ستاك سرادار الجيش المصرى والحاكم العام للسودان ، قال عبد العزيز على : أنه هو الذى شكلها وأعطى لها هذا الاسم تكريمـــا لصديقه أحمد عنايت الذى كان زميلا له فى مدرسة التجارة العليا والذى كان شقيقا أكبر لمحمود عنايت أحـــد رجالات الرعيل الأول فى الحركة الفدائية ٠

وقد نجح فى تجنيد عبد الخالق وعبد الحميد وعبد الفتاح ٠

وقد اهتم عبد العزيز على بعبد الخالق الذى أقسم اليمين على المصحف والمسدس أن يظل فداء لمصر ، وأن يحرص كل منا ـ عبد العزيز على وعبد الخالق عنايت ـ على الآخر ٠

ويذكر أنه عندما تقرر سفر عبد الخالق الى الخارج لدراسة الطب جمع شقيقه عبد الفتاح وعبد الحميد قائلا لهما : عبد العزيز هو شقيقكم الاكبر فاحرصا عليه وعلى سلامته ٠

وكان فى نفس الخلية محمود اسماعيل ومحمود راشد وشـــفيق منصور وعبد الحميد وعبد الفتاح عنايت وابراهيم موسى وعلى ابراهيم وراغب حسن ، وأنهم قرروا اغتيال السردار باعتباره من أكبر الموظفين البريطـــانيين فى مصر ، وليكون ذلك الاغتيـــال ضربا للاحتـــلال فى مقتل ٠٠ !!

وقال عبد العزيز على ، أنه قضى وعبد الحميد ومحمود اســـماعيل أياما فى مراقبة نشاط الرجل وتسجيل تحركاته وتم ـ بناء على ذلك ـ وضع الخطة ٠

أمام وزارة الدفاع وعلى مقربة منها يقف عبد العزيز على ومعه دراجة ويلتقى مصادفة بعبد الفتاح عنايت فيتبادلان الحديث للتضليل ٠

فاذا استقل لى ستاك سيارته قام عبد العزيز على بدراجته مندفعـا وبسرعة حتى نهاية الشارع الموازى لوزارة المعـــارف الى شارع القصر العينى حيث يقف على ناصيته ابراهيم موسى حاملا مسدسا أخفاه فى حزمة من الفجل والأرغفة ٠

وكان بعض زملائه يتناولون ـ للتمويه ـ الفجل والطعمية ، يسرع عبد العزيز على ، نحـوهم بدراجته أن السير لى ســتالى قادم خلفه فى سيارته ٠

وكان محمود راشد يقف بسيارة جديدة فى المواجهة يدير موتورها لحظة رؤيته لعبد العزيز على ، ويبقى فى حالة استعداد كامل لالتقاط ابراهيم موسى وراغب حسن ٠٠ و ٠٠ و الخ ، الخ ٠

وكان عبد العزيز على — على ما روى لى — قد تناول قبل تنفيذ خطة اغتيال السردار بيوم واحد : تناول الغذاء فى منزل أولاد عنايت ، وكان الغذاء « فته ولحمة رأس » ٠

وقد استعرض الأعضاء — أعضاء الشعبة المكلفون بالتنفيذ — العملية كلها منذ البداية حتى النهاية وواجبات كل واحد فى تلك العملية وأثناء الغداء حضر د٠ شفيق منصور وكان بادى الخوف والانزعاج وحاول اثناءهم عن الاغتيال مبصرا اياهم بالأخطار الجسيمة التى تهددهم جميعا اذا هم أقدموا على تلك العملية فى هذا الوقت بالذات ، وأكد لهم أن البوليس سيقبض علينا جميعا اذا ما وقعت تلك الجريمة ، ذلك أن الظروف غير مواتية لمثل تلك العملية ، وأن البوليس قد بدأ يشك فينا ٠٠ و ٠٠

وكان د٠ شفيق منصور منهارا للغاية حتى كاد يبكى وهو يطلب من الأعضاء العدول عن الاغتيال ٠

ولذلك فأننى — عبد العزيز على — أبرىء د٠ شفيق منصور تماما من مسئولية دم السيرلى ستاك ٠

وأقول أنه قد ظلم ظلما بينا فى تلك القضية وكان قضاته له من الظالمين اذ لم يقم دليل ما على أنه شارك بالقول أو بالفعل فى الاعداد لتلك الجريمة أو فى تنفيذها ، بل أنه حتى لو كان يعلم بها فى البداية، الا أنه تراجع فى النهاية وأصر على عدم المشاركة فيها ٠

ولو كان د٠ شفيق منصور بالصورة التى صورها خصومه ، لبادر الى التبليغ عنهم ، أو لقام بتحذير الحكومة من ارتكاب الجريمة خاصة وقد كان وقت ارتكاب الجريمة فى مكتب د٠ أحمد ماهر وزير المعارف ومكتبه على بعد أمتار من مسرح الجريمة ٠

وليس صحيحا — عبد العزيز على — ان د٠ شفيق منصور كان بمكتب د٠ احمد ماهر لمراقبة الحادث ٠

وانما كان هناك لاثبات وجوده بمكتب وزير المعارف أثناء ارتكاب الحادث ، وذلك يعفيه من المسئولية ٠

لو أن العدالة كانت قد أخذت مجراها فى تلك القضية بالذات ، لما أعدم د٠ شفيق منصور ٠

وكانت – اذا ما تشدد معه قضاته – الأشغال المؤبدة أو المؤقتة من نصيبه ٠

***

وعن سر عدول عبد الحميد عنايت عن اعترافه على عبد العزيز على. قال عبد الحميد : أنه كان قد أصيب بخوف شديد بعد أن قبض عليه فى الصحراء الغربية ، وبعد ان واجه باعتراف شقيقه عبد الفتاح ، ولأن البوليس كان يملى عليه بعض الاعترافات ، فقد كان يطاوعهم ويقول ما يقولونه ، حتى جاءت اعترافاته غير صادقة تماما ٠

كما أنه هو قد أضفى على تلك الاعترافات جزءا من خياله ، فيما يتعلق باعترافه على عبد العزيز على بالذات ٠

ويقول عبد الحميد : أنه لم ينم ليلته ، كان شبح شقيقه أحمد يطوف ، وكانت وصية أخيه عبد الخالق تهجم على فكره باستمرار ٠

وفى الصباح الباكر طلب عبد الحميد مقابلة انجرام بك وكيل حكمدار العاصمة وطاهر باشا نور النائب العام ٠

وكتب بيده اقرارا بأن كل الاعترافات التى ذكرها على عبد العزيز على غير صحيحة ٠

وأنه أدلى بتهمة الاعترافات نتيجة للضغوط االتى « مورست » عليه وأن ضميره قد استيقظ ولن يظلم بريئا ٠

وبذلك العدول عن الاعتراف ، انقذت رقبة عبد العزيز على من الاعدام ٠

وأذكر من بين ما رواه لى د٠ عبد الخالق عنايت ، ان عملية شنق شقيقه عبد الحميد وزملاؤه لم تفارقه أبدا وهو فى منفاه بالنمسا ٠

وقد كان ما يشغل تفكيره ان ينتقم من الخائن محمد نجيب الهلباوى الذى أودى بحياة سبعة من خيرة أبناء مصر من بينهم شقيقه ، بل أحب أشقائه اليه ، لقاء سبعة آلاف جنيه تقاضاها ثمنا لتلك الخيانة ٠

وقد حضر الى مصر فى عام ١٩٢٧ خصيصا للانتقام من محمد نجيب الهلباوى ، فلما لم يعثر عليه فى القاهرة ترك تلك المهمة لزميله وأستاذه عبد العزيز على ، وكان قد أحضر معه زجاجة صغيرة للغاية أصغر من عقلة الاصبع الصغير ، بها أشد أنواع السموم فتكا ، فتركها لعبد العزيز على حيث يتم التخلص من الهلباوى بتلك الطريقة ٠

ويقول عبد العزيز على أنهم منعوا د٠ عبد الخالق من السفر بعد أن حان موعده لأن الملك فؤاد كان على وشك السفر الى أوربا ٠

وقد خشوا على حياته من عبد الخالق ، ولم يسمحوا لعبد الخالق بالعودة الى النمسا الا بعد عودة الملك من تلك الرحلة ٠

وقد فطن عبد العزيز على الى خطورة غياب عبد الخالق عن أداء الامتحان النهائي فى الطب ، فبعث برقية الى مدير جامعة « انسبروك » معتذرا باسم عبد الخالق عن عدم الحضور فى الموعد المحدد ٠

وقد قدر مدير الكلية الظروف الخاصة بعبد الخالق ، وموقف السلطات منه ، فسمح له بأداء الامتحان فيما بعد ، وقد نجح فى ذلك الامتحان بتفوق ٠

أما عن متابعة تنفيذ وصية عبد الخالق عنايت ، بضرورة الانتقام من الهلباوى ، فقد سعى عبد العزيز على كثيرا وحاول اكثر من مرة التخلص من محمد نجيب الهلباوى ٠

ولكنه كان قد هاجر القاهرة بعد حصوله على السبعة آلاف جنيه وأقام فى بلدة « أبا الوقف » بالصعيد مبتعدا عن الناس ، بل لقد سجن نفسه فى بيته لا يزور ولا يزار ، ربما خوفا من انتقام الجماهير منه ، ولذلك كان من الصعب جدا على عبد العزيز على أو على من بقى – على قيد الحياة – من الشعبة اغتيال محمد نجيب الهلباوى الخائن ٠

وكان من نعم الله على عبد العزيز على – حقا وصدقا – أن رزقه بانسانة عظيمة مثله ، كتومة مثله ، صابرة مثله ، مؤمنة مثله ، شاركته حياته كلها ، المليئة بالمتاعب فلم تتضجر ، أو تتأفف ٠

وانما كانت نعم الرفيقة : لم يكن عبد العزيز على يتحدث واياها فى أمر من أمور عمله الفدائي ولكنها باحساسها الوطنى المرهف كانت تعرف مهمته ، وكانت باستمرار ترعاه وترعى صحته ، وتراعى ظروفه الخاصة ٠٠

ما قالت له يوما أن لى حقوقا يجب ان أحصل عليها ، أو لم تطمع فى يوم من الأيام ان يكون لها مثل ما للزوجات من ملابس أو مصوغات وانما كانت قنوعة الى أبعد حدود القناعة ٠

وفى المرات العديدة التى كنت التقى به فى منزله – وفى بعض الأحيان كان المرض يلازمه – كانت تهمس فى أذنى قبل أن أدخل اليه أن أحاول التخفيف عنه ، وأن أذكره بدوائه ، ومواعيد ذلك الدواء ٠

ولم يكن عبد العزيز على قد امتحن زوجته بعد ان تزوجها كما فعل صديقه محمود اسماعيل وانما امتحنها حتى قبل ان يتقدم لخطبتها ٠

وجد فيها خامة طيبة جيدة يمكن تشكيلها على النحو الذى يريد كزوجة فدائى ، روحه على كفه فى كل ساعة فى كل دقيقة ٠

مرة – كما قالت هى لى ، أخذها – بالأمر – وهى مخطوبة له ، لتزور خالة صديقه عبد الخالق عنايت وهناك تناولا الغداء مع عبد الخالق وخالته ٠

وبعد الغداء أخذها هو وعبد الخالق واتجهوا الى منطقة نائية فى سفح جبل المقطم ، حيث تسلق الثلاثة الجبل وراحا – عبد الخالق وعبد العزيز – يدربانها على الرماية بالمسدس ، ثم عاد الثلاثة كأنهم عائدون من رحلة الى حديقة الحيوان أو الحديقة اليابانية بحلوان ٠

ومرة أخرى وكان الانجليز يفتشون المارة بحثا عن السلاح ، وكان هو بحاجة ماسة الى مسدسين سوف يستلمهما من مكتب د٠ شفيق منصور : أخذها معه – وكانت لا تزال خطيبته – وأعطاها المسدسين فوضعتهما فى صدرها وخرجا من المكتب ولا من شاف ولا من درى ٠

مرة ثالثة ، وكان قد فشل فى اغتيال محمد توفيق نسيم باشا وكان دوره ان يلقى بقنبلة على سيارة نسيم باشا ، بعد ان يلقى عليه زميل له قنبلتين أخريين ، ضمانا للتأكد من نجاح عملية الاغتيال ، فان فشلت العملية الأولى لن تفشل الثانية ٠

وكانت القنبلة التى يحملها معدة للانفجار ولم تكن القنابل وقتذاك قد تطورت وتقدمت ، ولكنها كانت لا تزال فى المرحلة البدائية ٠

وحمل عبد العزيز على القنبلة بين يديه – وهى مهيأة للانفجار بين دقيقة وأخرى – واتجه بها الى منزل خطيبته عزيزة محمد لبيب وطلب منها اخفائها الى أن يجيىء أحد زملائه المتخصصين فى الأمر فيرفع عنها المادة التى تنفجر ٠

وأعطاها أيضا المسدس الذى كان يحمله للمساعدة فى ارتكاب الجريمة التى لم تقع ٠٠

وقامت عزيزة بواجبها خير قيام لم تخف ، ولم ترتجف ، ولم تصرخ ، وأنما وضعت المسدس فى مكان أمين وأخفته تحت كرسى ، ووقفت تحرس القنبلة والمسدس ، الى أن جاء محمود راشد ليؤدى واجبه فى « ابطال » مفعول القنبلة ٠

وليلة زفاف عزيزة الى عبد العزيز على ، كانت ليلة خاصة ، ذات احتفال خاص ، لم يوجه عبد العزيز على الدعوة الى أحد الا شقيقه وعبد الخالق عنايت ، محمود راشد ، محمود اسماعيل ، محمد حمدان ، أحمد رفعت ، واعتذر شفيق منصور · وابتسم عبد العزيز على عندما قلت له : لعلكم ليلتها عقدتم اجتماعا هاما بحثتم فيه طريقة اغتيال شخصية انجليزية ، قبل أن تزف اليك عروسك ·

***

وكانت أول بشارة له بانجاب نجله الأول جائته في سجن الاستئناف ومأمور السجن ابراهيم صفوت من أبرز أعضاء جمعية التضامن الأخوى، دخل عليه زنزانته ليبشره بمولد ابنه ·

واجتمع زملاؤه المعتقلون السياسيون الموجودون في الزنازين الأخرى حوله يباركون له مولد ولى العهد ·

واستأذنوا جميعا المأمور لكى يحتفلوا بتلك المناسبة احتفالا خاصا : قرأ أحدهم القرآن الكريم ، وردد بعضهم الاناشيد الوطنية وكان من بين شهود تلك الحفلة يوسف العبد وعبد الرؤوف العبد وأحمد وفيق والشيخ الغاياتى وعثمان الطوبجى بالاضافة الى أعضاء شعبة محمود راشد ، وعبد الفتاح وعبد الحميد عنايت وابراهيم موسى ومحمد فهمى ·

***

تلك هى مدرستى الأولى والأخيرة ، التى تعلمت فيها الوطنية والتى تغذيت بلبانها : مدرسة من طراز فريد ، لا تعرف أبدا الا التضحية ونكران الذات ·

ما تعود أحدا من تلاميذها ان يأخذ ، كل واحد يعطى ما يستطيع بل أكثر ما يستطيع :

كان ــ مثلا ــ ابراهيم موسى وهو الفقير المعدم أبو الزوجتين ووالد الثلاثة ، الذى لا يملك قوت يومه ، يغضب كثيرا عندما يحاول أحد أفراد المجموعة ممن أفاء الله عليه بالمال الوفير أن يعطيه ولو أجر اليوم الذى سيتغيب فيه عن العمل لأنه يقوم بعمل فدائى ذلك أنهم ــ فى عنابر السكة الحديد ــ كانوا يخصمون من كل عامل أى يوم يغيبه حتى ولو كان أقرب الناس اليه قد مات ·

وفى تلك المدرسة تعلمت الرجولة الحقة ·· « أنت تضحى بروحك » أنت الذى يجب أن تدفع الثمن ، ولذلك فان اقحام آخرين معك حتى ولو كانوا شركاء لك فى الجريمة ، أمر تأباه الرجولة الحقة ·· تحمل ما لا طاقة لك به من تعذيب دون أن تتألم ·

حذار أن تتصرف تصرفا صغيرا ٠

أموال الدنيا كلها اذا وضعت تحت قدميك لتقول ما لا يجب أن تقوله ، ارفسها برجلك ، لا تحاول أن تنظر اليها ٠٠ مصر ، هى الأب والأم والأخ والأخت والزوجة والصديقة ، لا قبلها ولا بعدها أحد ٠

وليس فوق حبها أى حب ٠

الولاء لها عبادة ٠

والاخلاص فى سبيل قضيتها الهدف الأول ، بل الأوحد ٠

فى قضية كقضية مقتل أحمد ماهر ، وجد اثنان أو ثلاثة أو أربعة ـ اذا شئنا ـ كانوا يستطيعون أن يكونوا أغنى الأغنيــاء وكانوا ـ لو أرادوا ـ يستطيعون أن يحصلوا على مناصب مميزة لو أنهم تحدثوا ، لو أنهم نطقوا بكلمة واحدة ولكنهم لم يفعلوا ، ولن يفعلوا ، بل ولم يترددوا دقيقة واحدة فى ألا يفعلوا وكنت واحدا من هؤلاء ٠

على أننى لم أتأثر بتلك المدرسة وحدها ، وانما رحــت أبحث عن مدارس أخرى فى الخارج : مدارس مشابهة فى التضحية والفداء ٠

فالفداء قضية عالمية لا تفرقة فيهـــا بين شرق وغرب ، بين أوربى وأفريقى ٠

وكانت أحب الشخصيات الى ٠٠ التى تمنيت لو رأيتهـــا ٠٠ لو جلست اليها ، بل التى كانت تجيئنى فى احلامى ، بل فى يقظتى ٠٠ شارلوت كورداى ٠٠ تلك الفرنسية الشابة الحلوة التى قتلت « مارا » ـ من رجال الثورة الفرنسية ـ لجرائمه الكثيرة ٠

قتلته حتى تعيد الى الثورة الفرنسية نقاءها وبعدها عن الدماء ٠

قتلته لأنه سجن نواب الشعب ٠

ولأنه حاول أن يكون دكتاتورا ، ولم تعترف على أحد ٠ قالت أنها لم تفض بخطتها لأحد ٠

قالت أنها عندما قتلته كانت تعتقد أنها تقتل حيوانا ضاريا يلتهم فرنسا ، وليس مخلوقا بشريا ٠

كانت شارلوت من أسرة عريقة ولكنها فقيرة ٠

عملت فى سن مبكرة لتخفف الأعباء عن والدها ٠

عاشت فى كتف راهبة كريمة صالحة ، كتبت مرة الى صديقة لها: لقد سلمت فرنسا الى هؤلاء الأوغاد الذين يسومونها سوء العذاب ٠

أنى ارتعد خوفا ، ان اؤلئك الذين كان مفروضا عليهم أن يمنحونا الحرية قد ذبحوها لأنهم مجرد سفاكين .

كان « مارا » قمة الارهاب فى الثورة الفرنسية ..

أنه يذبح أصدقاءه وزملاءه وكأنه يذبح بعض الدجاج : قامت شارلوت قبل أن تقوم بارتكاب جريمتها باحراق جميع الأوراق والرسائل التى قد تكون سببا فى ايذاء أصحابها فيما لو قبض عليها .

وكتبت الى والدها رسالة اعتذار لأنها سافرت دون أن تستأذنه كتبت تقول : رحلت دون أن أراك تفاديا لما يسببه ذلك من ألم لى .. لا أطيقه .

ان السماء قد أبت علينا متعة العيش معا .

كما أبت علينا غير ذلك من المتع .
ولعلها تكون أشد رفقا بوطننا .

وداعا يا أبى العزيز ، قبل أمى نيابة عنى ، ولا تنس .. »

ثم كتبت نداء الى المواطنين الفرنسيين محذرة اياهم لأن الخلف استبد بهم ولأن زعماء الأحزاب وغيرهم من الأوغاد قد آثروا مصالحهم الشخصية على الصالح العام : ففيم اذا أيها الضحايا المساكين يقتل بعضكم بعضا .. أى فرنسا : ان سعادتك رهن باحترام القانون ، ولكنى لا أخالف القانون اذا قتلت « مارا » . أنه اذا استحق سخط العالم أجمع فقد خرج من حظيرة القانون : أى وطنى ، ان الكوارث التى تنزل بى تمزق قلبى اربا اربا ..

لست أملك الا ان أهبك حياتى .

وأنى أشكر السماء على ما وهبنى من نعمة التصرف فيها .

فليكن رأسى محمولا على الأسنة فى شوارع باريس ايذانا بانطلاق اصدقاء القانون جميعا .

سيعترف العالم الذى أخذ بثأره أننى استحق تقدير الانسانية : أيها الفرنسيون : لئن أخفقت فيما انتويت فأننى على الأقل قد هديتكم الى سواء السبيل .

أنكم لتعرفون أعداءكم فانهضوا وسيروا واضربوا ضربتكم الحاسمة .. !!

★★★

في صبيحة السبت ١٣ يوليو ١٧٩٣ اتجهت شارلوت الى منزل « مارا » وحال الحارس بينها وبين الدخول اليه ، وكذلك حالت عشيقة « مارا » سيمون • وعادت شارلوت الى فندقها لتكتب رسالة الى مارا قائلة : أنها ستصل الى منزله في الساعة الأولى بعد الظهر ، وأنها ترجو أن يسمح لها بمقابلته ولو دقيقة واحدة لأنها ـ كما قالت ـ ستهيىء له الطريق لتقديم خدمة كبرى الى فرنسا •

ولم تذهب في الموعد ، وانما اتجهت في المساء مرتدية فستانا ناصع البياض وغطت بشال من الموسلين صدرها وعقدته من الخلف عند وسطها لتخفى بين ثناياه الخنجر • وتلقاها مارا في منتصف الثامنة والنصف •

ودخلت ـ بعد جهد ـ الى الغرفة التي كان يقيم فيها وبها حمامه الخاص •

وراحت تروى له قصة سبعة عشر نائبا أعلنوا العصيان في « كابان » ووعد بأن يبعث بهم الى المقصلة بعد أيام ••

وهنا أخرجت الخنجر وأغمدته في صدره ، وسقط جثة هامدة •

وحكم عليها بالاعدام •

ولحظة اعدامها اتجهت الى محاميها « شونودبلاجارد » لتشكره في رقة متناهية ولتطلب منه ـ بعد أن قضى القضاة بمصادرة ما تملك ـ أن يتولى عنها تسديد الديون المستحقة عليها للسجن معتمدة في ذلك على كرمه •

وبلغ لامارتين القمة وهو يصف شارلوت كورداى ، وبلغت شالورت كورداى القمة بتلك الكلمات التي وصفها بها : اذا كان لنا أن نبحث عن لقب لهذه الفتاة النبيلة التي أرادت الخلاص لوطنها والعذراء الكريمة التي صرعت الطغيان بيمينها ، لقب يجمع بين عاطفتنا الحماسية نحوها وحكمنا القاسي على فعلتها ، فان علينا أن نوحد بين تعبيرين متناقضين في لغة البشر هما : الاعجاب والنفور ، فنسميها ملاك الاغتيال •• !! »

وبعد ذلك الحديث عن مدرستي الأولى والأخيرة المدرسة الفدائية ، انتقل الى أوراق كتبتها في السجن ، أنتقل الى أيام في حبسخانة روض الفرج كانت أسود من قرون الحروب كما يقولون •

الفصل الثانى

فى حبسخانة روض الفرج ، أيام
وليال أسود من قرون الخروب

من بين ما كتبته ـ وبالحرف الواحد ـ عن يوم ٢٦ فبراير ١٩٤٥ فى مذكراتى التى استولى البوليس السياسى عليها أكثر من مرة ، واستولت عليها ادارات السجون أكثر من مرة ، ولكنى أصررت على كتابتها مثنى وثلاث ورباع الى أن استطعت تهريبها الى أخ صديق لا يعرف البوليس السياسى طريقه لأنه ـ فى الظاهر ـ فوق مستوى الشبهات وان كان ـ فى الحقيقة ـ شعلة من نار الوطنية ٠

ومن النسخة التى بقيت لدى الأخ الصديق أنقل هذه الصفحات كما كتبتها كلمة بكلمة وحرفا بحرف ولو أمكن تصويرها لما تأخرت لأن خطى لا يقرأ ٠

٠٠ على أية حال فيما يلى ما كتبته :

الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر ٠ ميدان العتبة الخضراء قلب القاهرة النابض الذى لا يتوقف أبدا عن الحركة ليلا ولا نهارا ٠ العتبة الخضراء المركز التجارى للعاصمة وكذلك المركز الرئيسى للمواصلات ٠

الذين يريدون شراء ما يريدون شراءه بأسعار مقبولة ، يجيئون الى العتبة الخضراء ٠٠ معظم التراموايات والاتوبيسات تمتلىء بالركاب القادمين من شتى أنحاء القاهرة « لتفرغهم » فى العتبة الخضراء ٠

والذين يريدون ركوب التراموايات والأتوبيسات من نقاط البداية حيث الزحام قليل نسبيا يحرصون على أن يفعلوا ذلك من العتبة الخضراء ٠

والذين – مثلى – يريدون الحصول على الصحف والمجلات بأقل من ثمنها الحقيقى يجيئون الى هنا حيث يستطيعون بعد الساعة الواحدة ظهرا وقبيل صدور الصحف المسائية أن يحصلوا على الصحيفة بمليمين أو ثلاثة ، وعلى المجلة ذات القرشين الصاغ بخمسة مليمات ، كما أنهم يستطيعون مقايضة الصحف فى العتبة الخضراء ، وفى العتبة الخضراء وحدها : الأهرام بالمصرى ، والمصرى بالكتلة ، والكتلة بالأساس ٠

مئات من الموظفين يخرجون من دواوينهم وكأنهم هاربون من رهبة السجن وقسوة السجان ٠

ألوف الطلاب يحاولون الحصول على مقاعد فى الترام أو الأوتوبيس وكأنهم يخوضون معارك حقيقية والقلق يسيطر على وجوه الجميع ، الركاب والسائقون والكمسارية ٠

وسط هؤلاء جميعا وقفت ، قلقا ، شاردا ٠٠ لماذا ؟ لا أدرى ٠٠٠ ابتسامة صفراء طبعت نفسها بالقوة على شفتى وأنا أحاول أن أطردها كما يطرد السائل اللحاح ، أحمل تحت ابطى مجموعة من الصحف والمجلات ربما لو اقتصدت ثمنها لتمكنت من حلاقة ذقنى الطويلة فى الصباح عند الحلاق ، أو ربما لتمكنت من أدفع بطربوشى الذى سقط تحت أرجل المتظاهرين من الطلبة هذا الصباح مرات عديدة والذى كان فى أمس الحاجة الى أن تتولى بعض أموره المكواة ٠٠٠٠ ولست أدرى لماذا وقفت طويلا حتى لقد فاتنى أكثر من ترام يمر أمام بيتى وأنا أحدق النظر فى وجوه اخوتى من أبناء الريف الذين قدموا الى القاهرة ، اما لشراء بعض الحاجيات ، واما لزيارة بعض الأضرحة ، واما لهذا أو لذاك ، أو لزيارة بعض أقاربهم فى القاهرة ان كان لهم فيها أقارب : أية مرارة يشعر بها هؤلاء القوم وهم يرون القاهرة لاهية عنهم وعن مشاكلهم وقضاياهم « وهم » هنا فى القاهرة يأكلون أفضل مما يأكل الفلاحون ، ويلبسون بالقطع أفضل مما يلبسون ، ويعيشون فى بيوت بها أسره وكهرباء وأغطية ونوافذ ، وهى أمور لا تتوافر لديهم الا نادرا ٠

تصورت نفسى فيما لو لم يكن الله قد حبانى بنعمة التعليم ، ووهب لى أما وأبا ينفقان كل ما يملكانه ليوفرا لى حياة أفضل ٠

تصورت نفسى واحدا من هؤلاء الذين يجيئون الى القاهرة لليلة أو لليلتين ، ثم يعودون مبهورين بما رأوا ، ولا أمل لهم الا أن يعيشوا فى مصر أم الدنيا ولو أدركوا الحقيقة ، لعلموا أنهم أسعد حالا ، حتى من ذلك الذى يجلس فى قصر عابدين ٠ لقد وهبهم الله القناعة وراحة البال والستر ، وهذا – فى رأيى – فيه الكفاية وزيادة ٠

ويجيىء ترام ليس به درجة أولى فأركبه ، فان من طباعى الغريبة ـ وهى فعلا شئت أم أبيت غريبة ـ اننى لا أفضل الركوب فى تراموايات أو أوتوبيسات بها درجة أولى ودرجة ثانية ٠

فاننى اذا ركبت فى الثانية ، لن يعدم من يقول : شوف البخيل اللى موش راضى يدفع أربعة مليم فرق بين الدرجة الأولى والدرجة الثانية ٠

وان ركبت فى الدرجة الأولى لن أكون سعيدا حينما أجلس على كرسى أو كنبة محشوة بالقطن وآخرين يجلسون على مقاعد خشـــبية بدون حشو ٠

على أية حال انها طبيعة وليس للمرء أن يغير منها طالما هى لا تضر احدا غيره ٠

وفى الترام ٠٠ أستطيع أن أقرأ بعض ما حملته من صحف ٠

وأحيانا ـ لاستغراقى فى القراءة ـ قد تفوتنى المحطة التى أريد النزول بها ، وقد أفاجأ بأننى وصلت الى نهاية الخط ، والكمسارى يقول : آخر الخط يا حضرة ٠٠

ولم يكن يضايقنى عندما أقرأ صحيفة فى ترام أو أوتوبيس أن يتطلع جارى الى الجريدة أو المجلة التى اقرؤها ، فقد لا يكون قادرا على شراء ما أحمل ، ثم ما الضرر فى أن يقرأ ويعرف بعض الأخبار ٠

عند سوق الفاكهة بروض الفرج ، وقبل منزلى بمحطة واحدة من محطات الترام نزلت لأشترى بعض الأرغفة وما يلزم من خضروات ٠٠ بصل وفجل وبقدونس ٠٠ الخ وأعرف فائدة جديدة للصحف عندما أجد نفسى مجبرا على لف كل ما اشتريته فيما أحمله من جرائد ٠

وفى بعض الأحيان كان يتوقف تاكسى أو سيارة أمامى وبها زميل من زملاء الكلية ، الذين يحلو لهم العبث « والتريقـــة » على خلق الله ليقول لى : مش عاوز شيال ؟ وأتقبلها على مضض وكاننى لا أشـــترى وانما أسرق أو أنهب ٠٠

وأنا حقيقة أحب دائما أن أبدو كما أنا فى صورتى الطبيعية دون زيف أو تضليل أو تزويق ٠

كان باستطاعتى أن أكلف أحد الصبية بشراء كل ما أريد ، وتوصيله الى المنزل ، ولكننى أرفض ذلك ، فما دمت قادرا على القيام بعمل ما بنفسى فلماذا لا قوم به ؟ ٠

هذا بالاضافة الى أن هذا الصبى ، فضلا عما سيأخذه منى من بقشيش سوف يستفيد من السمسرة ومحاسبتى على ما اشترى بأثمان مضاعفة ٠

دخلت باب منزلى بشارع أبو الفرج ١٥٦ ، لا ألتفت يمنة أو يسرة ، فهكذا تعودت ٠

اننى اذا تحدثت الى هذا أو ذاك من الجيران أو من أصحاب المحلات التى تعلوها الشقة التى أقطنها ، سوف أضطر الى الاجابة على عشرات من الأسئلة ٠٠٠ هم قتلوا أحمد ماهر يا بيه ؟ حرام والله ٠ ألا هو اللى قتله ده مجوز ولا مش مجوز ؟ عنده أولاد ولا ماعندوش ٠٠ ؟ ٠

وأتناول المفتاح الذى وضعته فى الصباح تحت عقب الباب فقد يجيىء قبلى من يشاركوننى السكن ٠٠ صحيح أنهم لا يأتون الا فى المساء ٠

ولكن من يدرى ، ربما تعب أحدهم فى عمله ؟ أو اضطرت الظروف أحدهم لكى يجيىء الى البيت ليأخذ شيئا ٠ ولكن ألا تخاف أن يسرق أحد البيت ما دمت تضع المفتاح فى هذا المكان المطروق وكثيرا ما يراك بعض السكان فى الذهاب وفى الاياب وأنت تفعل ذلك ؟ ٠

ولا يهمك يا عم ٠٠ هو البيت فيه ايه حيتسرق ٠٠ السرير ؟ والا شوية الكتب اللى مافيهمش حاجة تقرأ ٠٠ لا رواية ، ولا قصة ، ولا مجلة فيها صور تفتح النفس ٠ عال : الحمد لله كل شىء على ما هو ، كما تركته فى الصباح : فردة الشراب اعتلت السرير ، الجاكتة الجديدة التى مضى على تفصيلها شهر ونصف فقط غطت المكتب ، الكتب الجامعية كونت سريرا آخر تحت السرير ٠ ليس هذا مهما ٠

لقد تعودنا على ذلك وألفناه ، كما تعودت الفوضى علينا وألفناها ٠

ولأننى كنت جوعان ، فقد بدأت أتناول بعض الطعام ، أو ما يمكن أن يوصف مجازا بأنه طعام ، أتناوله وأنا أقرأ وبين لحظة وأخرى أتطلع الى ورقة كبيرة كتبت بخط جميل ، لم تحظ ببرواز ، وانما علقت على الجدار وفوق المكتب الضيق بأربعة دبابيس ، وقد جاء فى تلك الورقة أو اليافطة : « كل شاب يعيش مع شبح امرأة جميلة الا الشاب الموعود فانه يعيش مع شبح المجد المنتظر » ٠

وكانت تلك العبارة قد أعجبتنى من رواية كتبها أو ترجمها توفيق الحكيم وجاءت على لسان بطل الرواية فحرصت على أن أضعها أمامى فى

كل وقت ، رغم ما كانت تثيره من الأقاويل ، بل والتريقة في بعض الأحيان ، كما كانت تثير على ثائرة بعض قريباتي وصديقاتي اللائي كن يقرأنها أثناء بعض الزيارات اللاتي كن يقمن بها للمنزل حتى قالت واحدة منهم : هوه عاوز يا جماعة يقول أنا ماليش في حكاية الستات دي ، أنا محجوز تماما كما تفعل الفتاة غير المخطوبة عندما تضع في اصبعها دبلة اشارة الى أنها مخطوبة • يعني بصريح العبارة : ماحدش يفكر في أنه يخطبه أو يفكر حتى في الزواج منه •

وربما كانت العبارة صالحة لمرحلة ما قبل آمال •• وكانت آمال تلك قد شاطرتني في مرحلة من مراحل الصبا وبداية الشباب بعض أحلامي وآمالي ، استطاعت أن تدخل الى قلبي ، ليس من الباب الذي تعودت الفتيات الدخول فيه الى قلوب الشبان وانما من باب آخر هو باب العمل الوطني •

لماذا تعملون وحدكم •• ؟ أليس للمرأة نصيب في كفاحكم ؟ هل تتصور أنني لا أعرف ما تقوم به ؟ أنا أستطيع أن أذكر لك الأيام التي خرجت فيها ليلا لتقوم بعمل ما ؟ كما أستطيع أن أذكرك بالليالي التي سهرت فيها لاعداد بعض المنشورات ، كما أستطيع أن أذكرك - أيضا - بكيفية توزيعك لتلك المنشورات ؟ انني لا أحبك كما تحب أي فتاة أي شاب ، ولكنني أريد أن أكون شريكة لك ، معاونة لك ••

جربني •• لا تقل لي شيئا عمن تكونه أنت وعما تفعله ، ولكن الذي أريد أن أقوم به ، بل أسعد أن أقوم به ، هو أن قوم بعمل ما •• حتى ولو كان ذلك العمل الذي يقوم به الأسطى عبد الله الذي يذهب الى بيوت بعض زملائك ليحلق لهم وينقل لهم بعض رسائلك عندما يتعذر عليك الاتصال بهم لأن أعين البوليس مفتوحة عليكم •

وتذكرت موعدا من آمال في الساعة الثالثة لكي أعرف منها أخبار التحقيق في القضية ، فقد كانت في موقع تستطيع فيه - لو أرادت - أن تعرف كل شيء عن التحقيق •

ويدق الباب دقات عنيفة متواصلة لم تحدث من قبل ، أتكون هي قد عرفت شيئا مهما أرادت ابلاغي به ؟

لقد كانت معي ليلة الحادث في السينما ، فيلم : غرام وانتقام •

وكانت تعرف مدى القلق الذي انتابني بعد الحادث وتأكدي من وفاة أحمد ماهر ، وكانت قد ساورتها الظنون بأن لي يدا في الحادث

خاصة وأننى استأذنت لدقائق فلم أعد الا قبيل نهاية الفيلم بقليل ؟ أيكون بعض زملائى فى الجامعة ممن يسكنون على مقربة من منزلى قد راق لهم أن نخرج سويا عصر ذلك اليوم لنشهد اجتماعات سياسية معينة ٠

ولأن البيت بلا تليفون فقد آثروا أن يحضروا بأنفسهم لمصاحبتى الى ذلك الاجتماع ٠

وكانت الاجتماعات السياسية العامة قد تكثفت فى تلك الأيام التى سبقت الحادث ، والتي تلته ٠

وكنا نحن الذين نقود الجامعة من مختلف الأحزاب والهيئات ، نتبادل الرأى فى بعض الأحيان فى منزل بشارع شبرا يملكه زميل لنا ٠

وقد يكون صاحب الدقات العنيفة هو البقال المجاور أو أحد صبيانه يدعوننى الى مكالمة عاجلة من شخص معين ٠ كان عم سيد البقال يعرف أنه وحده الذى أعطيت رقم تليفونه واشترطت عليه ألا يطلبنى الا فى الضرورة القصوى ٠

وتلاشت الأفكار التى عبثت بخاطرى لثوان معدودة بعد أن رأيت أمامى بضعة ضـــباط يدخلون الغرفة شاهرين مسدساتهم فى وجهى طالبين منى أن أرفع يدى الى أعلى ٠

وتطلع قائد المجموعة واسمه الصاغ حسن بك ـ وقد عرفت الاسم من نداداتهم له واحترامهم الشديد لتعليماته ـ تطلع الى الغرفة المنكوشة والأوراق الملقاة هنا وهناك وابتسم فى سخرية ٠

وعلى الفور راوده حلم جميل فى الترقية : ألم يســـتطع بتحرياته ومعلوماته التى استقاها من رئيسه ، واستقاها رئيسه من رئيسه الى أن يصل الأمر الى وزير الداخلية ، ورئيس مجلس الوزراء ٠

استطاع بتلك التحريات الوصول الى هــذا الوكر الارهابى الخطير الذى كان مقرا لعصابة من أخطر العصابات التى أقلقت الحكومة والشعب لسنوات وشهور ، وقامت بالعديد من الأعمال الاجرامية الخطيرة ٠

ولست أدرى حقيقة ، لماذا ابتسمت ثم ضحكت ، ولو رآنى بعض أهلى أو بعض أصدقائى وأنا أبتسم أو أضحك لأنكروا ذلك على ، أو على الأقل لاتهمونى بالجنون فهذا الذى يحدث الآن ـ الابتسام والضحك ـ لم يحدث منذ فترة طويلة ٠

انها حقا المرة الأولى التى أبتسم وأضحك فيها بحق وحقيق ٠

وسرعان ما غابت الابتسامة والضحكة عندما رأيتهم ــ بتعليمات من الصاغ حسن بك ــ يشقون المرتبة والوسادة ويخلعون الكراسى ويكسرون اطارات صورتين أو ثلاث علقت على الجدران ٠

وبدا لى أنهم يحاولون استنطاق الجدران والتحـــدث الى السقف وأرضية الغرفة ٠٠ وقفت جامدا وأنا أراهم يفتشون الكتب ويبحثون عما كتب بداخلها من ملاحظات ٠ وكانت المفاجأة المذهلة لى أنهم كانوا يأخذون كل ورقة وكل صورة ويحررون كل خطاب ، حتى لقد ضاقت أيديهم بما يحملون فبعثوا يطلبون جوالا فارغا من أحد تجار العلف وما أكثرهم فى روض الفرج ٠

على أن أفضل ما عملوه حقا ، أنهم لم يتجاوزوا باب الغرفة التى أقيم بها ٠

لم ينتقلوا الى بقية الغرف ٠

لم يحاولوا معرفة من يقيم بها ٠

لقد كانت تحرياتهم السريعة ، أننى أقيم فى هذه الشقة مع بعض الأقارب والأصدقاء ولكننى مستقل بالمعيشة والاقامة ، وكان ذلك مما ملأ قلبى بقدر من الراحة والاطمئنان ٠

فى مثل هذه الحالات ، وبالنسبة لى على الأقل تتضـــاعف المأساة لو مست الشبهات أحدا من الذين حولى : صديقا ، أو زميلا ، أو حتى أحد الجيران ٠

أنت تستطيع أن تتحمل وزر ما فعلت ، ووزر ما لم تفعل أيضا ٠

ولكن أن تمتد آثار جرائمك ــ أو ما يظن أنها جرائمك ــ الى غيرك فهذا من الأمور غير المحتملة ٠

فما ذنب الذين ساقتهم ظروفهم الى التعرف اليك أو حتى الى أن تكون قريبا منهم ، أو يكونوا هم من ذوى قرباك حتى يدفعوا الثمن ، ويساقوا الى السجون أو النيابة للتحقيق معهم ٠

مسألة هامة كانت باستمرار مثار اهتماماتنا ٠

ولذلك كان الواحد ما يحرص على أن يسكن وحده ٠

وربما لولا آمال لما كنت قد خرجت عن هذه القاعدة ، التى التزمت بها حتى قبل أن أقوم بعمل شيىء ما يمكن أن يثير الشبهات ٠

وبعد أن انتهوا من مهمهتم ـ فأحالوا قطن المرتبة ، وقطن الوسادة ، الى كومة عالية وبعد أن أحالوا الكرسيين أو الثلاثة ـ وهى كل ما فى الغرفة من أثاث ـ الى قطع صغيرة لا سبيل الى اصلاحها بأية طريقة من الطرق ٠

وبعد أن حملوا معهم كل ما فى الغرفة من كتب وصحف ومجلات وأوراق فلم يكن هناك من وقت لقراءة كل شيىء ، وقد يكون ببعض الكتب شفرات يمكن التوصل منها الى ما يفيد التحقيق ٠

بعد أن اطمأن الصاغ حسن بك ومن معه الى أنه لا يوجد فى الغرفة ما يمكن أن يفيـــد المحققين طلب منى أن أرافقـــه الى قسم روض الفرج لدقائق ٠

وعبثا حاولت الاعتذار عن الذهاب معه فى هذا الوقت بالذات لأن لدى موعدا ما ولكن قال لى فى صراحة : أنت مطلوب للتحقيق ، وخير لك أن تخرج على قدميك من أن تخرج على أكتاف اعتادت أن تحمل أمثالك من الخارجين على القانون ٠

ونزلت على قدمى ، وكان منظر الجنود الذين أحاطوا بالمنزل من جميع نواحيه واحتلوا مدخله وأسطحه ، قد جعل عشرات من المـــارة والجيران يتجمعون ومشـــاعر مختلطة متضـــاربة قد تملكتهم وأنطقت بعضهم ٠٠ والله أفندى غلبـــان ، لا بيهش ولا بينش ، داخل فى حاله وخارج فى حاله ، عمره ما رفع عينيه ٠

وآخر يقول : آه من السهتان ٠٠ دا ميه من تحت تبن ٠٠ دا يقتل القتيل ويمشى فى جنازته ٠٠ يغور فى ستين داهية ٠٠ أنا عارف الحكومة كانت تايهه عن اللى زى دول ازاى ٠٠ ؟ ٠

وتجد من تطل من الشباك وكأنها بتحييك وتقول : شـــد حيلك ، السجن للرجالة ٠٠ وتجد أخرى تبـــكى : يا حسرة قلب أمك عليك ، الله يكون فى عون أمه ، هى عامله ايه دلوقتى » ٠٠

ويقودنى الصاغ حسن ومعه زميل له وقد وضع كل فنهما يده فى يدى حتى لا أهرب ٠

وأمامى وخلفى وعن يمينى وشمالى سار جنود يحملون أســـلحتهم متأهبين لكل حركة ٠

ثم قذفوا بى داخل العربة البوكس وارتمـــوا فوقى حتى كادوا يخنقوننى ٠

كل ذلك خوفا من أن أهرب أو من أن يخطفنى أحـــد وقد سارت سيارة فى مقدمة الركب وأخرى فى المؤخرة ٠

وبالجملة كان الموقف رهيبا للغاية ، وكنت أنا فى ذهول ما بعده من ذهول ، لم أكن أملك حتى مساءلة نفسى لماذا كل هذا ٠٠ ؟ كنت قد أسلمت نفسى لله ٠

ليفعلوا بى ما يشاءون فما دمت بريئا فان رحمة الله لابد أن تشملنى ان لم يكن اليوم ، ففى الغد ، أو بعد الغد ٠٠

دخلت قسم بوليس روض الفرج للمرة الأولى فى حياتى ، رغم أنى أقيم فى المنطقة منذ أكثر من عامين ، وأدخلونى فورا غرفة المأمور ٠ كان رجلا طيبا للغاية استقبلنى كما يستقبل الأب الرحيم ابنا غائبا وطلب منى الرجل ـ عبد المجيد الزميتى بك ـ وقد حفظت اسمه ، بل لا يمكننى أن أنسى اسمه ، أو أنسى استقباله لى ـ أن أجلس وتلطف فطلب لى قهوة . ويستمع المأمور الى تقرير سريع من الصاغ حسن عما وجده فى بيتى أو ما يمكن أن يطلق عليه مجازا « بيت » ،

وتدور محادثة طويلة مع النائب العام ومأمور القسم بعيـــدا عن مسامعى ٠

ويقول لى عبد المجيد الزميتى فى أسف بالغ : لقد أصدر النائب العام أمرا باعتقالك بتهمة الاشتراك فى مقتل الدكتور أحمد ماهر ٠

وتدور بى الدنيا فجأة وأتساءل فى لهفة وجزع ودون أن أدرى : أحمد ماهر ٠

وأتذكر فجأة الكلمة التى كتبتها فى جريدة الكتلة فى اليوم التالى لتاليف الدكتور أحمد ماهر للوزارة تحت عنوان « أمل قوى فى حكم قوى » ٠

وأتذكر موجة السخط والغضب التى استقبلنى بها زملائى فى الجامعة ، وأصدقائى فى الحزب ، وفى الجماعة : تكتب عن أحمد ماهر ؟

طيب يا أخى استنى شويه ، طول عمرك تقيل ومحايد ٠

اشمعنى المرة دى خرجت عن تقلك وعن « مبادئك » ٠

وعبثا حاولت أن أقول ان المعنى الذى سعدت به عندما شكل أحمد ماهر الوزارة ، أن الرجل الفدائى الذى اعتقل فى عام ١٩٢٦ بتهمـــة

اغتيال العديد من الشخصيات البريطـــانية قد ولى الوزارة وفى وجود لورد كيلرن صاحب مأساة ٤ فبراير ٠

ويضحك أحد الزملاء فى سخرية قائلا : وأنت انشاء الله حنشوفك على رأس الوزارة سنة كام ان شاء الله ؟! ٠

وتذكرت يوما طلبت فيه ــ أو اشتركت فيه ــ فى طلب د٠ أحمد ماهر رئيس الوزارة ليحضر الى الجامعة ٠ تذكرت يوما حدثنا فيه أحمد ماهر كشباب أو بمعنى أدق كقيادات للجامعة كما حدث أعضاء الهيئـة السياسية التى كان قد ألفها عن سياسته المقبلة تذكرت كل ذلك بالجملة ثم عدت فتذكرته بالتفصيل ٠

تذكرت ــ مثلا ــ الأزمة التى تعرضت لها وزارة د٠ أحمد ماهر بسبب الموقف من ترشيح على البرير ، وكيف جثا الجنود على أرجلهم أمام الحرم الجامعى استعداد لاطلاق الرصاص على الطلبة داخل الحرم الجامعى ، وكيف جثوت بدورى تحت قدمى مأمور الجيزة أستاذنه فى تأجيل اطلاق الرصاص لدقائق ، حتى أحصـــل على اذن من رئيس الحكومة بخروج المظاهرة ٠

وكيف جاء أحمد ماهر الى الجامعة بعد دقائق غير مصحوب بحرس ٠ وجادل الشباب بالحســـنى فلم ينجح فى اقناعهم ، وكيف اقترحت على الزملاء الطلبة ــ رغم نقدى المر للموقف من ترشيح أحد أبناء الجنوب ــ أن يترك لرئيس الوزارة معالجة هذا الموقف الذى نشـــأ من ترشيح على البرير ٠

تذكرت يوما دعا فيه أحمد ماهر لفيفا من الزملاء الجامعيين كنت واحدا منهم لمناقشتنا فى مسألة دخول مصر الحرب الى جانب الحلفـــاء ، كما دعا لطفى السيد ، واسماعيل صدقى ، وحسين هيكل ، وشريف صبرى ٠ وكيف ظل يجادلنا ساعة كاملة فما استطاع أن يقنعنا بفكرته ، وما استطعنا اقناعه بالعدول عنها ٠

تذكرت رأيى الذى كنت أبديه باستمرار فى الاغتيال السياسى ، وكيف أنه لا يمكن أن يؤتى ثمراته ذلك أن البلاد بعد كل اغتيال سياسى ستسير من سيىء الى أسوأ ، وينتقل فى اثره ــ الاغتيال السياسى ــ من حكم بغيض الى حكم بغيض الى حكم أكثر بغضا ٠ تذكرت ذلك كله فى ثوان ٠٠

وأفقت من ذكرياتى تلك التى لم تعد تجدى شيئا على يد الشاويش مصطفى وهى تجرنى الى الحبسخانة التى أبقوا على اســـمها من أيام

الأتراك حتى تبقى الحقيقة الوحيدة قائمة وهى أننا أسرى فى أيدى الانجليز وصنائعهم ، كما كنا أسرى أيضا فى أيام الأتراك ويستقبلنى الشاويش مصطفى أو الدكتاتور مصطفى كما كانوا يسمونه فى الحبسخانة وان كان هو لا يفهم معنى كلمة ديكتاتور فكان يسأل عنها كل من يثق به من المسجونين ٠

استقبلنى الشاويش مصطفى ببعض ما تيسر من الفاظ السخرية والاستهزاء : اتفضل يا سيدى ٠٠ ولو ان السجن مش قد المقام ٠٠ مقام قتلة رئيس الوزراء ، كان لازم يعملوا لكم سجن مخصوص فى البرلمان ولا فى لاظوغلى ٠٠ كده والا ايه يا روح ٠٠٠

ولا أستطيع أن أكمل بعض ما سمعته من ألفاظ نابية لا يمكن أن تسطر على الورق ٠

وهأنذا أدخل السجن الحقيقى لأول مرة ، كان ما مضى من سجون كان ترفا ما بعده ترف ٠ سجن قسم أول أو قسم ثانى المنصورة ، أو حتى قسم السيدة زينب ، بالنسبة لسجن روض الفرج ــ الحبسخانة ــ نعمة ، الفارق بين السجون فى المنصورة والسيدة زينب وبين سجن روض الفرج مثل الفارق بين شبرد ، أو سميراميس ، والكونتيننتال ، وبين ليمان طره .

وكانت أحلامى زمان ــ زمان قوى ــ أن أعيش بين المجرمين الحقيقيين لحظات أدرس أحوالهم عن كثب ٠

أتعرف الى آلامهم وآمالهم ان كانت بقيت لهم آمال ٠

فمن يدرى ، لعل فيهم مظلوما أساهم فى رفع الظلم عنه ٠

ولعل منهم من يستحق الرأفة فأعمل على الرأفة به ٠

وها هى الظروف تسوقنى الى السجن سوقا ٠٠ جئت الى السجن الحقيقى لا مصلحا ولا باحثا ، بل مجرما قاتلا ينفر منه المجرمون « العائدون » الى الاجرام ، ويهرب منه باقى المسجونين المحترفين ٠

ولكن ماذا عن السجن الرهيب (الحبسخانة) التى كان سوء حظى قد ساقنى اليه ؟

خمسة عشر مترا طولا وعشرة أمتار عرضا ، والارتفاع أكثر من خمسة أمتار ٠

فى وسط السقف العالى ٠٠ العالى جدا ، لمبة صغيرة فى حجم الزيتونة لا تنير الا ما حولها ٠

ودورة مياه بدون باب لا تنفع لقضاء أى « حاجة » على الاطلاق ، وتنبعث منها أخطر الروائح الكريهة ٠

وباب حديدى عليه قفل غليظ يحمل مفتاحه جندى أشد غلظة ، وقلبه لا يلين ٠٠ بل ان الحديد قد يلين ولكن قلب هذا الحارس لا يلين ٠

ذلك مصيرى الذى انتهيت اليه عصر اليوم السادس والعشرين من فبراير الحزين ١٩٤٥ ٠

وقد ضاعف من سوء منقلبى واسوداد مصـــيرى أننى كنت طرازا غريبا من الشباب ، أو الذين هم فى عمر الشباب وان لم يتمتعوا بالشباب طوال ستة عشر عاما مضت كاملة غير منقوصة لم آكل لحوما بل لم آكل طعاما لا يتوافر لعامة الشعب ، فقد كنت حرمت على نفسى كل ما حرم على عامة الشعب ٠ لم أرتد يوما كرافتـــة ملونة وانما كنت باستمرار أرتدى كرافتة سوداء حزنا على وفاة الحرية والديمقراطية فى بلدى المسكين، وان كان بعض الخبثاء من أصدقائى وزملائى يقولون أننى أفعل هـــذا من باب التوفير والاقتصاد حتى لا أشترى كرافتات جديدة ٠

رفضت ــ مثلا ــ دخول الكلية الحربية أو كلية البوليس ، وعصيت بذلك الرفض أبى وأمى لأول مرة ، حتى لا أقف « زنهار » أمام من هم أعلى منى رتبة ٠

لم أذهب الى مسرح أو الى سينما الا فى المهمات ولأسباب أخرى لا علاقة لها بالمسرح أو السينما ، بل لم أحضر حفلة غنائية من الحفــلات العامة أو الخاصة لأننى لست فى حالة تسمح لى بالفرح والابتهاج ٠

ولأننى ــ وهذا هو المهم بل الأهم ــ أضن بوقتى أن يضيع فى مثل هذه الأمور ٠

قراءة كتاب عندى أفضــل مائة مرة من قضاء ساعة أو ساعتين فى حفلة غنائية ، أو أية حفلة على الاطلاق ٠

وعندما قذف بى الشاويش مصطفى الى أعماق السجن ، وقفل الباب بشدة وعنف ، بعد أن وجه الى أقسى ما عنده من شتائم وسخائم ، تلقانى الجالسون فى الحبسخانة بالضحك والسخرية ٠

وقال بعضهم : آه ٠٠ زميل جديد يتلقى عنا بعض ما بالسجن من حشرات ٠

وقال آخر : فين القفة اللى حتحط فيها البق والقمل وما خفى كان أعظم ٠

وقال ثالث : مافيش معاك سيجارة معمرة كده ولا كده ، ولا أى سيجارة حتى انشا الله تكون كوتاريللي ولا حتى سيجارة لف ؟

على أية حال ، لقد مضت ساعة وأنا فى صدمة ، لا أرى شيئا حولى ، لأننى لا أرى شيئا على الاطلاق لشدة الظلمة ولم أكن بقادر على أن أتبين ما كان يقال همسا ، فقد خفتت الأصوات ، أو هكذا خيل لى ، فلم أعد أسمع شيئا ٠

أحسست ببرودة قاتلة تنبعث من الأرض التى أجلس عليها ومن الجدار الذى استندت اليه على مقربة من الباب على أمل أن يجيىء المأمور نفسه ليفرج عنى بعد أن يعتذر لى عن الخطأ الذى وقع بالنسبة لى ٠

خلعت جاكتتى وجلست فوقها وابتعدت عن الجدار بعض الشيىء حتى لا تصيبنى الصواريخ ـ صواريخ البرد ـ وليست أية صواريخ أخرى ـ التى تخرج منه ، وكل ما فعلته كان بدوى جدوى ٠٠ وأخيرا ٠٠ بعد ساعة تقريبا ، تبين لى سبع جثث ملقاة على الأرض فى صورة أشباح ٠

ثلاث فى ناحية وأربع فى ناحية أخرى ، ولم يطل ترددى ، فانضممت الى الثلاث لكى يصبحوا أربعا فأنا من أنصار التوازن حتى فى السجن ذلك أننى لو انضممت للأربع لأصبحوا خمسا ، ولتحول السجن الى أغلبية والى أقلية ٠

واكتشفت أن أحد الثلاثة معروف الوجه لدى ٠

لقد رأيته أكثر من مرة فى منزل محمد محمود جلال بك ، وقد قبلنى أكثر من مرة عندما خطبت فى ذكرى مصطفى وفريد ٠

وأيقنت أن وجوده معى فى السجن سوف يخفف عنى بعض ما ألاقيه فهو يكبرنى سنا وتجارب ، ولابد أن مثل هذا الزلزال قد عصف به من قبل والمصائب تجمع المصابينا ٠

ولكنى كنت واهما ، صحيح أنه هو محمد أفندى الذى عرف بصمته وهدوئه ودماثة أخلاقه ، ولكن ماذا دهاه ؟ انه لا يتحدث حتى الى من بجواره ، يلوذ دائما بالصمت ، لقد أشاح بوجهه عنى وكأننى مصاب بجرب خطير ٠

وأقسى ما يصيب المرء فى محنته أن يتنكر له أصدقاؤه أو زملاؤه أو حتى معارفه ، انهم بذلك يضاعفون آلامه ، ويضربون المثل على نذالتهم أو على جبنهم ٠

وبعد بضع ساعات خيلت اليه انها دهر ، وجدت أحمد صـــديقى الوفى يناقش الشاويش مصطفى ، والشاويش مصطفى يقول له : يابنى أنا ما اعرفش حاجة خالص ٠٠ يدوني الواحد ويقولوا لى دخله الزنزانة ، أدخله الزنزانة ، ما اعرفش أسماء ، الأسماء هناك عند البيه المأمور ٠

ورغم تيقنى من أن الذى يتحدث مع الشاويش مصطفى هو أحمد ، الا أننى لم أستطع أن أهب من مرقدى لأنادى عليه فالتحدث من خارج السجن الى داخله ممنوع ، وكذلك التحدث من داخل السجن الى خارجه ٠

كنت أريد أن أقول لأحمد : اقلب الدنيا رأسا على عقب من أجل الافراج عنى ، اتصل بزعماء الأحزاب وقادة المعارضة وكبار الصحفيين وقل لهم : انبى مظلوم ، وانبى أقاسي فى السجن الأمرين ٠ وكنت قبل ذلك أود أن أقول له : قل لآمال لا تقلق ولا تنزعج وكلها ساعتين أو ثلاثة وسأخرج ٠٠

وكان أحمد عندما زار البيت وقابله المعلم جادو الفسخانى الذى يقع فى مدخل البيت وقال له : أخــذوه من الدار للنـــار يا ولداه ، ولم يقل له عم جادو من هم اللى أخذوه دول : القلم السياسى ، النيابة ، وزارة الداخلية ٠٠ فانطلق الرجل الشهم يبحث عنى فى المحافظة ، فى النيابة ، وفى كل الأماكن التى يحتمل أن أكون قد نزلت ضيفا غير مكرم عليهـــا ٠

وأخيرا فكر فى أن يجيىء الى القسم ذلك لأنه بعــد أن ازدحمت السجون بالمعتقلين فى القضية ولم يعد بها أماكن خالية ، راحوا يملأون سجون الأقسام بالمعتقلين الجدد ، وان كان أحمد لم يذهب به الخيـــال مذهب القائل بأنه يمكن أن أكون أنا بالذات أحد المتهمين بالاشتراك فى اغتيال أحمد ماهر ٠

وبينما كان أحمد يتناقش مع الشاويش مصطفى ، وصلت آمال ٠ كانت قد غضبت منى لأننى لم أذهب الى موعدى معها ٠٠ ولانها تعلم أننى مشهور بدقة المواعيد ـ وخاصة معها ـ فقد اعتقدت أن فى الأمر شيئا ما ، وقال لها الجيران ـ بعد أن رأت ما رأت فى غرفتى ـ ان جنودا كثيرين جاءوا الى المنزل وقضوا به فترة طويلة ، ثم نزلوا وأنا معهم ٠

وهم ـ أى الجيران ـ لا يعرفون ما حدث بعد ذلك ٠

وان كانوا فى شك من أمر أولئك الذين جاءوا لأنهم كانوا يعاملونه ـ أى يعاملوننى ـ معاملة طيبة ٠

وهذا من الأمور التى لا تحدث أبدا من البوليس ٠

ولذلك فهم يظنون أن عصابة قد خطفتنى بعد أن ارتدى أعضاؤها ملابس الضباط والجنود ٠٠

وفهمت آمال الموقف جيـــدا ٠ تذكرت جيدا ـ أيضـــا ـ حالة الاضطراب التى تملكتنى فى السينما ، وبعد السينما ٠٠ ذهبت الى صديقة لها ومن منزلها ـ حيث يوجد تليفـــون ـ أجرت عدة مكالمات تليفونية وعرفت أنه قد قبض على ، وأننى موجود الآن فى قسم روض الفرج ٠

وجاءت وقابلت المأمور الذى أبدى لها أسفه لما حدث لى خاصة وأنه أحد المتتبعين لنشاطى فى الجامعة وفى الصحافة ٠

وطلبت أن يسمح لها بمقابلتى ، وقال لها عبد المجيد بك المأمور : رغم ان التعليمات مشددة بعدم الاقتراب منه ومتابعة كل من يســأل عنه ، الا أننى أسمح لك بأن ترى وجهه فقط ، لا تكلميه ولا يكلمك ٠ ويفتح الشاويش باب السجن ، ينادى عليه يخرج الى الباب ، تطمئنى عليه ، واوعى يا أستاذة تكلميــه أو تقـــولى له حاجة ، دا دولة رئيس الوزراء كلمنى دلوقتى ونبه على بعدم اتصـــال أى مخلوق بالمتهم ده بالذات ٠

وبعث المأمور فى طلب الشاويش مصطفى وأفهمه بكل ما يحدث ٠ وفى الطريق الى السجن قال الشاويش مصطفى : اوعى تفتـكرى بأنى حأعمل حاجة من اللى قال عليها المأمور ، ساعة ما تقع الطوبة فى المعطوبة أروح أنا فى داهية ويلقى الشاويش مصطفى على آمال درسا هاما فى الأوامر المشددة ، وكيف أنه هو نفسه مأمور السجن ، ولم ينس مصطفى أن يلقى أيضا محاضرة عن وظيفة الحارس والنزاهة والشرف اللذين اتصف بهما منذ أن عين حارسا للحبسخانة ٠

وتستطيع آمال بذكائها الوقاد أن تنهى وبسرعة محاضرة الشرف والنزاهة بورقة من ذات الخمسين قرشا ـ نصف جنيه ـ تصـــور ٠٠ تدفعها الى الرجل الشريف النزيه الشاويش مصطفى ، وعندئذ سجدت الأوامر الصارمة ، وتقلصت التهم الخطيرة ، وتبددت ســحب النزاهة والشرف ٠

وفتح الباب ، وقرن الشاويش مصطفى لأول مرة اســـمى بلقب « استاذ » ٠ وكنت قد أحسست بها عندما دخلت السجن ، وعنـــدما تحدثت مع المأمور ، بل كدت أسمع مناقشاتها مع المأمور ومع مصطفى ٠ أما كيف حدث ذلك ؟ فامر لا أستطيع له فهما ولا توضيحا ٠

هل كنت فى حلم وأنا يقظان ٠٠ ؟ وهل فهمى لها ولشخصيتها يمكن أن يقودنى الى ذلك الخاطر السريع ؟ هل ؟ هل ؟ وما كنت أعرف أن ثمن الزيارة رخيص الى هذا الحد ، خمسون قرشا صاغا لا غير ، يا بلاش ٠ ولم أجدها متهالكة أو ضعيفة ، بل كانت قوية عنيدة ، رأسها مرتفع الى السماء ، قالت : أو لم تقل انك تريد أن تدفع الثمن ؟ ألم تكن تقول ان السجن لا يمكن أن يلين للمواطن المخلص قناة ؟ ثق أننى معك وأننى لن أتخلى عن اظهار براءتك ٠

صحيح أنه لا يجوز أن أترافع عنك ، ولكننى سأكون وراء أى محام يدافع عنك ، وما أكثر المحامين الذين سيتزاحمون للدفاع عنك ٠

وسرعان ما يقفل الشاويش مصطفى باب الرحمة لأن نوبة الشرف والنزاهة والحرص على تنفيذ التعليمات قد عاودته ، بعد دقيقتين فقط لا غير ، كل دقيقة بخمسة وعشرون قرشا ٠٠

ولا أحد يستطيع أن يقدر مدى تأثير تلك الزيارة فى نفسى ٠ أمدتنى بعزم قوى وأمل جديد تغلب على مياه الرشح التى ملأت أرض السجن وعلى الرطوبة التى « نشعت » على جدران السجن وتحولت الى مياه مثلجة ٠

حتى الأسفلت الذى لم ير النور منذ ربع قرن مرة واحدة أحسست بقدرتي على تحمله ٠

ودورة المياه التى لم تعرف النظافة منذ أن تركها البناءون وكانت رائحتها تملأ خياشيمى ، وجدت شجاعة فى تقبلها ٠ ان أى مأمور لا يمكن أن يكون قد زار تلك الحبسخانة من يوم انشائها الا اذا كان قد صمم على الانتحار ٠

وليس هناك مأمورون يفكرون فى الانتحار ٠

وكانت آمال قد أحضرت معها بطانية أنيقة ، وكأنما تصورت أننى مسجون فى مينا هاوس أو الكونتننتال فجعلت منها تكأة أقف عليها لأننى لا أستطيع الجلوس ، ولأننى لم أفكر أبدا فى النوم ، وكيف أفكر فى النوم وأنا أعانى ما أعانى منه ٠

ولأننى لم أكن أستطيع تحمل برودة الجدران ـ شهر فبراير وفى حبسخانة روض الفرج ـ طويلا ، فقد كنت أقف على رجل واحدة حتى تستريح الأخرى ثم أقف على تلك التى استراحت لتستريح الأولى ٠

وهكذا قضيت الليل بأكمله ٠

لم أكن أفكر أبدا في المشنقة التي تنتظرني كما لم أكن أفكر في الغد المشئوم ، كل الذي شغلني في تلك الليلة ، كيف أقضي ليلتي تلك على هذا المنوال الذي سبق أن ذكرته ٠

كنت في واد ، ومن معي في الحبسخانة في واد آخر ٠

لا سؤال ولا حتى توجيه أية كلمة من هنا أو من هناك ، كل امرىء منهم مشغول بنفسه وبالبرد القاتل الذي بلغ ذروته في تلك الليلة على نحو غير مسبوق ٠

ولو قلت أنني استعجلت كل ثانية وكل دقيقة وكل ســاعة من ثوان ودقائق وساعات تلك الليلة وشقيت بكل واحدة منها شقاء لم أره في صباى حتى وأنا مريض بالحمرة في مستشفى الحميات بطنطا بين الموت والحياة ٠

ولا يمكن أبدا أن أنسى تلك الليلة مهما توالت الأيام والســنون لأنها كانت أفظع وأقسى ليلة في حياتي ، لا لبرودة الجو كما يتبادر الى الذهن وانما لسخونة الأحاسيس والمشاعر واضطراب الفكر ٠

وأقول وبدون أية مبالغة من جانبي أنني كنت في تلك الليلة شيئا آخر غير ما كنته من قبل ٠

واني لأومن أن كل الكائنــات قد ذاقت النــوم لساعات أو لدقائق الا أنا ٠

والا تلك الهوام التي كانت تتساقط على من السقف وتزحف الى كل مكان في الجسد وكأنما أبت الا أن تسارع في الحفاوة بمقدمي السعيد أو غير السعيد ٠

وفي السادسة صباحا لاحظت حركة غير عادية في السجن وما حوله ، جرادل تتحرك وتحدث أصواتا لها ضجة في وسط هذا السكون ، صيحات من الجنود وهم يأمرون المساجين « الرسميين » والمساجين المؤقتين بسرعة تنظيف الطرقات قبل أن يجيىء البيه المأمور ٠

وفي الساعة السابعة صباحا ، بالتمــام والكمال فتح الشاويش مصطفى ــ وكانت قد أوحشتنا صيحاته وشتائمه القذرة ــ باب الحبسخانة قائلا : زنهار ، ووقف جميع المسجونين بالقرب من الباب فما يمكن للبيه المأمور أن يقترب من داخل الحبسخانة والا اكتوى بمــا بها من روائح

على الاطلاق · وخص المأمور أحدث المسجونين ــ الذى هو أنا ــ بتحية الصباح ، وسألنى عما اذا كنت فى حاجة الى أى شيىء : أكل ، أغطية أدوية ·

وشكرته قائلا : ان شاء الله مش حنحتاج لحاجة من دى · كلهــا ساعتين ثلاثة وتتضح الأمور ويفرج عنى ، ألسنا فى بلد يقولون ان فيه حريةوبرلمان ودستور ؟ ولم يملك الرجل الطيب ازاء هذه الأمنية الطيبة ، الا أن يقول فى أبوة حانية : كله على الله ، يفعل الله ما فيه الخير ، كل واحد ونصيبه ، وان شاء الله يكون نصيبك الخير انشاء الله ··

وتتصل آمال ب على ماهر باشا ــ وقد كان هذا الباشــا يبـدى اهتماما بحركة الشباب ــ وتروى له ما حدث ، فيقول لها : أنت تعلمين جيدا أننى أؤمن بمبدأ الفصل بين السلطات · والأمر الآن فى يد السلطة القضائية ، وأنا لا أريد التدخل فى أمر من أمور تلك السلطة ·

وتتصل بأستاذى عبد الرحمن الرافعى وتروى له القصة فيقول لها : على الشباب أن يتحمل المحنة صابرا ·

كما تتصل بالكثيرين ممن كانت تأمل فى مساعدتهم ولكن آمالها كلها قد خابت ·

وعندما علمت بأمر تلك الاتصالات ابتأست وحزنت فما يجوز لها أن تتصل بأحد من هؤلاء دون أن تستشيرنى على الأقل وبعثت اليهــا ــ عن طريق الشاويش عبد العاطى وهو بديل الشاويش مصطفى ــ برجاء الامتناع عن الاتصال بأحد ·

وحمدت الله لأن المساعى التى قامت بها آمال قد فشلت ·

وتساءلت عن السر فى هذا الفشل ، هل يمكن أن نكون قد تطورنا وتغيرنا خلال الـ ٢٤ ساعة الماضية فلم تعد للوساطات والرجوات قيمة عندنا وكنت قد علمت أنهم قضوا فى دراسة الأوراق التى وجدوها فى غرفتى وأنهم استنتجوا منها أمورا كثيرة : خطابات عبد الرحمن الرافعى بك الى كثيرة ومتعددة وتتناول كثيرا من الأمور ·

ومحمود العيسوى يعمل فى مكتب عبد الرحمن الرافعى ·

صورة أو أكثر لى ولمحمود العيسوى وبعض شباب الحزب الوطنى فى بعض الاحتفالات التى أقيمت بمنزل محمد محمود جلال بك ·

وأوراق أخرى رأوا فيها ما يفتح آفاقا جــديدة فى التحقيق ·· أو هكذا خيل لهم ·

وتيقنت ان المسألة ستطول وأن السجن لن يكون ساعات وانما سيمتد الى أيام وأسابيع ومن يدرى ؟

وبدأت أتأقلم مع الجو وأوثق علاقاتى بزملائى الجدد • الشيخ حفنى : زعيم من زعماء الأزهر ، تغلب الفكاهة على كل أحاديثه •

روحه المرحة تضحك الثكلى ، لا يعرف التملق ولا الرياء ، أنه ينتمى الى حزب الأحرار الدستوريين ولكنهم فى الحزب لا يحبونه وان كانوا فى احتياج اليه ، وهو دائم النقد لكل ما يجرى فى البلد وفى أحزاب الحكومة •

ولكن ليس بسبب هذا النقد جيىء به الى السجن ، لقد جاءوا به اليه لأن أحد المتهمين قد كتب اسمه فى أوراق لديه •

وكان صبره واصطباره متاليين ، ولم يكن واحد منا يستطيع أن يجاريه فى انتقاداته للحكومة ولو لم تكن شخصيته معروفة لبقية الزملاء لظننا أنه من النوع الذى يزج به فى السجون خصيصا لمعرفة ما يقوله المسجونون فيما بينهم •

وقد كان الشيخ حفنى على ثقة مطلقة بانه سيخرج بسرعة وأن وزراء الأحرار الدستوريين لن يسكتوا على جريمة اعتقاله حتى لو اقتضى الأمر التهديد بالاستقالة من الوزارة : ان اعتقال حر دستورى بأمر وزير الداخلية السعدى أمر لا يمكن السكوت عليه من جانب شركاء السعديين فى الحكم : الأحرار الدستوريين ، أو هكذا كان الشيخ حفنى ـ أيضا ـ يتصور ••

أما محمد أفندى الذى أنكر وجودى فى البداية والذى عاد ليعتذر عنه ، فهو مدرس ثانوى من أشد أعضاء الحزب الوطنى حماسة وثورة ، وهو فى القائمة السوداء منذ سنوات عديدة ، فما أن يحدث حادث ما ـ مهما كان شخصية الفاعل وانتماؤه أو عدم انتماؤه الحزبى ـ الا ويعتقل محمد أفندى ، ولذلك فهو باستمرار يضع بيجامته وسجادة الصلاة والمسبحة وقبلها المصحف الشريف فى حقيبة صغيرة بجوار الباب الخارجى لشقته فلا يكاد البوليس يدق الباب ويتأكد من وجوده حتى يسارع بأخذ الحقيبة قبل أن يقوم البوليس بازعاج الزوجة والأولاد •• زوجة محمد أفندى وأولاده •

أما زكريا •• فهو من أبناء مصر الفتاة ، لم يكمل تعليمه لأنهم كانوا فى الحكومة ـ أية حكومة ـ يطاردونه فى المدارس الحكومية والمدارس الأهلية •

أنشأ مصنع نسيج متواضعا ليأكل منه ونجح المصنع نجاحا هائلا، ولكنهم فى الحرب العالمية الثانية ضايقوه وحجزوا الغزل عنه حتى اضطر الى أن يقفل المصنع ٠

وليتهم اكتفوا بذلك ، بل راحوا يطاردونه باستمرار ويقبضون عليه باستمرار أيضا ٠

ولأنه كان نزيل السجون باستمرار ، فان زوجته لم تطق الحياة معه وطلبت منه الطلاق فطلقها وتركت له ابنة تعيش على الأيام التى يعيشها والدها معها مطلق السراح وهى ـ أيامه خارج السجن ـ لسوء حظه وحظها قليلة للغاية ولقد شدتنى حقيقة ، شخصية زكريا ٠٠ فاذا كانت هناك أحلام تراود الشيخ حفنى فهى أحلام النيابة أو الوزارة أو مشيخة أحد المعاهد الدينية الكبيرة ، وتلك الأحلام مشروعة بلا جدال ، واذا كان حزب الشيخ حفنى فى الحكومة اليوم فانه بعد غد سيكون فى المعارضة ، وسوف « يشوف » الشيخ حفنى فى أيام المعارضة تلك النجوم فى الظهر ، ولكن بعد العسر يسرا ، والفجر يتبع ظلمة الليل ٠

ومحمد أفندى هذا الرجل الصوفى دينا ووطنية يجرى وراء حلم بعيد ، أن يتحرر بلده من قيود الاستعمار ، وهو مدرس له وظيفة وأولاده الذين ارتضوه أو لم يرتضوه مناضلا من نوع خاص ٠ أما زكريا ذلك الذى لم يكمل تعليمه والذى لا ينتظر كرسيا فى مجلس النواب أو كرسى لوزارة ، فأية عاطفة قوية تلك التى تمتلىء بها نفسه السمحة الطيبة ٠٠ ؟ انه يحب بلده وحزبه حبا لا مثيل له ، وربما لا يحس بالتضحيات التى يقدمها زكريا الا واحدا أو اثنين أو ثلاثة من أبناء الحزب ، حزب مصر الفتاة ، بل انه فوق تلك التضحيات ، كان يدعم الحزب بما تبقى عنده من أموال ٠

كان زكريا الشاب المثالى يحب بلده ، ويضحى فى سبيل حزبه فى صورة مثالية لا مثيل لها ، ولذلك فقد كان زكريا من أحب المسجونين ـ معى فى السجن ـ الى قلبى ، خاصة عندما يذكرنى بأحلامه القديمة فى أن يدخل الجامعة ويصبح مهندسا تفخر به البلاد ٠

أولئك كانوا رفاق الخير فى السجن ٠٠٠

أما رفاق الشر ، فقد كان أمرهم عجبا ، وكان أمرنا معهم أعجب من العجب ذاته ٠

الذين لم يرضخوا لأوامر الحكومة وتعليماتها فى كثير من الأحيان ، والذين رفضوا الاحتلال الأجنبى وقاوموا رجاله وصنائعه ، لم يستطيعوا

الا الرضوخ لتعليمات وأوامر زملائهم فى السجن من المجرمين العتاة ، ولم يجـــدوا لديهم القـــوة لمقـــــاومة الارهاب الذى فرض فى داخل الحبسخانة ٠

علمونا الجبن على آخر الزمن ، كما قال الشيخ حفنى ٠ كنا نخشاهم ، بل نخاف منهم ، والا تحولت الحبسخانة الى مذبحة رهيبة ٠

كنا نعطيهم ما يطلبونه من مال ومن طعام ، رهبة لا رغبة ٠

وأيسر ما كنا نتحمله هو الاستماع الى قصصهم الســـــخيفة التى لا تنتهى ، والويل كل الويل لمن يظهر عليه الملل منا ٠

ولقد « أرونا » منذ اللحظة الأولى العين الحمراء كما يقولون ٠

من لحظة لأخرى نسمعهم يقولون : وفيها ايه يعنى لو عملناها جناية يحقق فيها الطوبر باشا نفسه ، مادام حبس بحبس ، يبقى اســـمنا عملنا حاجة بدل ما احنا محبوسين كده « أونطة » على ذمة الحاكم العسكرى ، « الحاكم العسكرى قال !! » ٠

ونسمع أحدهم يقول لزميله : تعرف لو اتكلمت بعد كده كلمـــة واحدة ، أنا حاخرج عنيك بصباعى ده ، بدل ماخرجها بالمعلقة ، هو احنا لاقيين معالق وماستخدمنهاش ٠

ومرة تشاجروا مع أحد الحراس ، وليته كان الشاويش مصـــــطفى فقد كان الذى تشاجروا معه زجلا طيبا للغاية ، ويظهر أنهم اختاروه لأنه طيب ٠

وأخرج أحدهم من مكان خفى « موسى » قطع به بطن زميله وأخرج أمعاءه ، ثم طلبوا الاسعاف والمأمور ، وقاموا باتهام الحارس ، بالاعتداء على زميلهم ٠

وبعد فترة من الزمن ومفاوضات غير شاقة وغير عنيفة اصطلحوا مع الحارس الذى سهل لهم دخول علبة سجاير ،

وتعهد بأن يفعل ذلك مرة فى كل وردية له ٠

وسرعان ما عادت أمعاء الجريح الى مكانها وكأنها لم تكن الى وقت قريب بين أيدى زملائه ٠٠ الأربعـــة الأشــــقياء المجرمون زملائى فى الحبسخانة : أولهم عبده ملك الكاوتش ، وكان الكاوتش فى بعض سنوات الحرب العالمية الثانية أغلى من وقود السيارة ، بل أغلى من السيارة ذاتها ، فالسيارات موجودة بكثرة أو بقلة ، ليس هذا هو المهم ، لكن المهم بل

الأهم أن كل سيارة بحاجة الى كاوتشوك والكاوتشوك غير موجود بالأسواق بأى ثمن ٠

وعندما يحصل المحظوظ على فردة كاوتشوك من وزارة التموين وبالتسعيرة يصبح مادة لصحف المعارضة ، تتحدث عنه أياما طويلة وكان « عبده » (ملك الكاوتش) هذا بحق وحقيق ٠

كان الملك عبده متخصصا فى سرقة السيارات ذات الكاوتش الجيد ، الذى لم يستعمل الا قليلا ، يأخذ العربة الى مكان غير آهل بالسكان ، ويجردها من « الكاوتش » ، ويتركها كما هى فى العراء ٠

وفى بعض الأحيان كان أصحاب السيارات التى مرت بامبراطورية عبده ملك الكاوتش يتركونها حيث هى لأنهم لا يستطيعون نقلها الى حيث يريدون ٠

ولم تستطع سلطات الحكومة رغم ما بذلت من جهد أن تقبض على عبده متلبسا بجريمة واحدة ٠٠ الحكومة تعرف أن الجانى هو عبده ملك الكاوتش أو رجاله ، ولكن لا أحد يستطيع أن يقيم الدليل على ذلك ٠

وأخيرا لجأت الحكومة بعد أن ضاقت ذرعا بخطورة امبراطورية عبده هذا الى سجنه على ذمة الحاكم العسكرى ، وليتها ما سجنته فقد كانت الأمور تجرى فى غيابه بأفضل مما كانت تجرى فى وجوده ٠

وأهم من ذلك كله أن عبده هذا كان يستجيب لرغبات ضابط بوليس ، أو عضو مجلس نواب مزنوق فى فردتين كاوتش ليعطيهما له بالمجان « جدعنة » يعنى كما يقول وقد كان عبده ملك الكاوتش هذا يبدو مسالما للغاية ، وديعا الى أبعد حدود الوداعة ٠

تقول له : مش حرام يا ملك تحرق قلوب الناس على الكاوتش ؟ ٠

فيقول لك : وهو ده معقول ، يا عم أنا مالى ومال العربيات والكاوتش وأنا مش لاقى واحدة أعمل منها قباقيب ٠ ولكنك عندما تهمس فى أذنه قائلا : وآخر كلام بقى يا ملك ٠ يقول لك : فى وداعة ـ ما بعدها من وداعة أيضا ـ وهو أنا قلت لهم يسيبوا عربياتهم بدون حراسة ٠

★★★

وثانى العتاة المجرمين كان المعلم وصفى « بتاع مخدرات قد الدنيا ولكن ولا واحد قدر يمسكه ـ كما قال عنه زميله عبده ملك الكاوتش ـ ٠

وكان المعلم وصفى يعيش فى ضواحى المطرية دقهلية ، يتاجر فى المخدرات على خفيف ٠

وكان معروفا عنه التقوى والورع ، فلا أحد يعرف حكاية المخدرات هذه أبدا الا أولئك الذين كانوا يعاونونه ٠

وكانت الحفلات التى يقيمها المعلم وصفى أو الحاج وصفى ــ كما كان يحب أن ينادى ــ مضرب الأمثال فى الفخامة والضـــخامة ، وكان يدعو لها ــ للحفلات ــ كبار رجال الدولة فى الناحية ، ولم يكن بيته الكبير الذى يطـــل على بحيرة المنزلة يغـــلق أبوابه أبدا للفقير وللمحتـــاج وابن السبيل ٠

وفى رمضان بالذات كان بيت المعلم وصفى مفتوحا طوال أيام شهر رمضان حيث تعد الموائد لكل من يريد من أبناء الناحية وكان بعـد أن اتسعت تجارته وبدأ الناس يتهامســون سرا عن الثروة الطـــائلة التى هبطت فجأة على المعلم وصفى ٠

وكان عمله الرسمى صاحب مكتب نقليات ، وخشى أن ينفضح أمره ، فنقل عمله الى القاهرة ، وترك مهمة جلب المخدرات لصبيانه ٠

واتسع نطاق عمله فى القاهرة ٠

وبدأت أنظار البوليس تتجه اليه كواحد من أخطر تجار المخدرات ٠

ولما عجزوا عن ضبطه فى احدى القضايا ، ألقوا به فى السجن على ذمة الحاكم العسكرى أيضا أكثر من مرة ٠

وفى كل مرة كان يدفع ألوفا مؤلفة من الجنيهـــات للافراج عنه ، فيفرجون عنه ثم يعودون به مرة أخرى ، وكأنما المقصود بتلك الاعـادة الحصول على ألوفه المؤلفة ٠

ما علينا ٠٠ المعـــلم وصـــفى هذا كان لا يهش ولا ينش فى الحبسخانة ، ولم نسمع له صوتا ، ولكن نفوذه كان قويا للغاية وخاصة بالنسبة لعبده ملك الكاوتش ٠

ويظهر أنه فى الفترة التى كان يسجن فيها المعـــلم وصفى كان الرسول بينه وبين رجاله عبده الى أن سجن الاثنان معا وفى مكان واحد فكانت الكارثة الكبرى ٠

ثالث الأربعة ٠٠ كما كان يقول هو عن نفسه : أستاذ نشل له مدرسته التى تخرج فيها الكثيرون الذين يدينـــون غالبيتهم له بالوفاء والولاء ، وكان له صبيانه وتابعوه وتابعو تابعيه ، وكل عملية تتم ــ سواء كانت بعلم الاستاذ أم بغير علمه ــ علم الاستاذ كما كان يجب أن يطلق

داخل السجن أو خارجه ــ فيها نسبة محجوزة للاستاذ عرف بهـــا الاستاذ أو لم يعرف ·

وقد كان وهو داخل الحبسخانة ــ ولست أدرى كيف ؟ يحاط علما بكل عمليات النشل الكبيرة التى تقع فى البلاد من أقصاها الى أقصاها ·

وفى بعض الأحيان كان بعض رجال البوليس يوسطونه لرد بعض الأشياء المسروقة لأهميتها أو لأهمية أصحابها ، فكان يعد بذلك شريطة ألا يحاول البوليس تتبع رجاله أو يحاول معرفة الجنـــاة والا فانه يحل نفسه من وعده باعادتها وكان « الأستاذ » يغدق أموالا وفيرة وهو فى السجن على كل السجانين وعلى كتبة السجن ·

ولم أجد الشاويش مصطفى رقيقا مع أحد كما هو مع « الأستاذ » ·

ويظهر أن الأستاذ كان « كاسر » عين الشاويش مصطفى بشـــكل لافت للنظر ·

ويبقى من الأربعة الكبار ·· منصور بك ·· ومنصور هذا « بك » ١٠٠٪ يرتدى أفخم ما يرتديه البكوات والباشوات حتى فى السجن رغم قذارة السجن ، لم يكن يرتدى الا الروب دى شامبر من أحدث المودات ·

وكان طعامه الخاص يأتيه من عند الحاتى كل يوم فى الساعة الواحدة ظهرا : الغداء وقبل الخامسة مساء : العشاء ولم يكن أحد يستطيع أن يمنع عنه الأكل الخاص فهو معتقل وليس بسجين ، ولم يصدر ضده حكم ما ·

كل ما فى الأمر أن حريته مقيدة من الحاكم العسكرى العام ·

منصور بك هذا يسكن فيللا فى الزمالك وعنده موظفين « بياخد كل واحد منهم أكثر من مائة جنيه فى الشهر ·

وهو كما قال لى عندما يكسب ألف جنيه فى الشهر يعتبر هـــذا الشهر شهر نحس ·

وهو يتكلم الفرنسية بطلاقة وكأنه أحد خريجى السوربون ·

وقد كان يغشى المنتديات الراقيـــة ويدعو ، ويدعى ، الى كثير من حفلات الهاى لايف كما كانوا يسمونها ·

وقد تعرف الى واحدة من فتيات المجتمع الارستقراطى (اقبال هانم) ·· وظل أسبوعا كاملا يضع مخططا للاستيلاء على قلبها وأسبوعا آخر للاستيلاء على أكبر محل مجوهرات فى شارع فؤاد لكى يقدم الشبكة ·

وهو ليس « بعبيط » حتى يقدم لها مما سرق ، وانما كان يجرى عمليات بيع وشراء فى الداخل حتى يموه على البوليس فى مصر فلا يستطيع معرفة الجناة .

وقد روى لى بالتفصيل كيف ابتكر طريقة جديدة قام بتنفيذها فيما بعد للاستيلاء على محل المجوهرات .. استأجر حجرة فى أحد الفنادق التى تعلو المحل وأغلقها على نفسه وزملائه حيث كانوا يحفرون كل ليلة جزء من السقف الى أن نجحوا فى الوصول الى المحل من سقفه وأخذوا كل ما بالمحل من مجوهرات ثمينة تاركين الأشياء العادية لصاحب المحل .

لم تكن اقبال هانم تعلم مصدر الأموال التى تهبط على زوجها منصور بك ، كانت تعرف أن له محل استيراد وتصدير .

وقد أحبت اقبال هانم منصور بك حبا جارفا وعاشا معا فى تبات ونبات الى أن قبض عليه بقرار من الحاكم العسكرى اذ لم يتمكنوا من اعداد الأدلة التى تدينه ، وكانت عملية الاعداد تلك من أشد ما يمكن بالنسبة للبوليس فان ذكاء منصور بك كان حادا ، وكان اختياره لمعاونيه ينم عن عبقرية فذة ، فكان لا يعتمد الا على من يتميز بالذكاء الحاد والاخلاص التام له .

ثم ان العمليات التى كان يقوم بها كانت قليلة ونادرة .

لم يكن ـ كما قال ـ جشعا ، يكتفى بلقمة كبيرة ولا يقوم بأخرى الا بعد أن يتيقن أن البوليس قد نسى اللقمة الأولى .

وكان مسرفا للغاية لا يضن على رجاله ولا على الذين يسهلون له مهمته بأى مبلغ من المال .

وعندما ألقى به فى غياهب السجن لم تتأثر أعماله ، خاصة وأن زوجته اقبال هانم أشرفت من بعيد على بعض العمليات بارشاد منه .

ولا أريد أن أطيل فى الحديث عن الكبار الأربعة الذين أعلنوا الأحكام العرفية فى « الحبسخانة » وكنا نحن الأربعة الضحايا .

★★★

ثم حل ضيف جديد على الزنزانة فى اليوم الثالث لوصولى اليها .

كنا نحن المسجونين السياسيين نتمنى لو كان الضيف الجديد سياسيا لتكون لنا الأغلبية فى الحبسخانة .

وكان المجرمون العاديون يتمنون لو كان الضيف الجديد معتادا على الاجرام لنصبح نحن أقلية ويصبحون هم أغلبية ٠

لقد استولى الفزع والقلق على نفوسنا ولم نعد بقادرين على أن نتحدث في بعض الأمور السياسية التى تهمنا أو على الأقل نشكو لبعضنا فظاعة وفظاعة ما نلاقيه ٠

ويدخل القادم الجديد تسبقه دستة من الجنود وتتبعه دستة أخرى وكلهم بدون استثناء قد شهروا أسلحتهم وصوبوا اليه بنادقهم وقد بدا عليهم الخوف والفزع خشية هروب الضيف الجديد ٠

كان طويل القامة حتى أنه لم يدخل باب الحبسخانة الا بعد انحناءة خفيفة ٠

كان عريض الكتفين وكانهما لوحان من الخشب الزان ٠

وكانت له لحية بيضاء طويلة وغليظة أضفت عليه هيبة بالغة ٠

لقد ظننا أن حراس الضيف الجديد ليسوا حراسا عليه بل هم كتيبة شرف ترافقه ٠

ويشترط الضيف الجـــديد بمجرد دخوله الزنزانة دخول بضعة بطاطين جديدة ، فيجيئون بها على عجل ٠

ويتطلع الى وجوهنا جميعا وجها وجها حتى يقع على وجه منصور ، وينهض الأخير مسلما ويقبل يده في احترام شديد قائلا : أهلا عم السيد ٠ ويسأل الضيف الجديد « عم السيد » هل تعرفنى ٠٠ ؟ فيقول منصور : وهوه فيه حد ميعرفكش يا عم السيد دانت أبونا : سيدنا وتاج راسنا ، ويضحك عم السيد ويتطلع الى السياسيين ويقدم نفسه قائلا : محسوبكم السيد العشرى مجرم معتاد ٠

ويبدى عم السيد اهتمـــــاما خاصا بى ، وربما لأننى كنت أصغر الموجودين سنا ويسألنى عما اذ كانت هذه أول مرة أسجن فيها فأقول له : اذا قسنا الأمر بفظاعة السجن وقسوة المساجين فانها المرة الأولى التى أجد نفسى فيها فى مثل هذا السجن ٠

وأما اذا قسنا الأمر بعدد المرات التى دخلت فيها السجن ، فان وجودى هنا فى هذه المرة لا يكون أول مرة بل سبقتها مرات أخرى كانت السجون فيها فنادق من الدرجة الأولى اذا قيست بما نحن فيه الآن ٠

وأعطـانى عم سيد نســخة من مجلة الاثنين مشيرا الى صورة له تتوسط صفحة كاملة كتبت عنه ٠

وعرفت ـ فيما بعد ـ أن هذا العـدد من مجـلة الاثنين كان هو رأس ماله فى الحياة ٠

وحاولت على ضوء النور الباهت أن أقرأ ما جاء فلم أستطع ، فاذا بعم السيد وقد حفظ كل ما جاء فى الصفحة كلها يعيـد على مسـامعى بصوته بعض ما جاء فى تلك المجلة ٠

كان عم السيد مؤدبا مهذبا للغاية ، قد تعود ـ رغم السجن ـ على معاشرة المسجونين السياسيين فى السجون ٠

وقد عرف جيدا أية أهداف وطنية عظيمة يسعى لتحقيقهـا هؤلاء القوم ، ولذلك مثلا لم يكن يتناول الطعـام الا بعد أن يقـوم زملاؤه السياسيون بتناول طعامهم ٠

لم يكن يحدث صوتا فى سجنه أو يستخدم عبـارة جارحة حتى لا يخدش أسماع المسجونين السياسيين ٠

وبالرغم من ذلك الأدب واللطف الذى تميز به عم السيد الا أنه كان مع رجال البوليس عنيفا للغاية ٠٠ !!

ولأنه قد درس تماما لائحة السجون،فقد كان يحرص تماما على تطبيق اللائحة فى أقسام البوليس على كل المسجونين السياسيين والمجرمين ، وقد فوجئنا به فى اليوم التالى لوصوله قبيل الساعة الحادية عشرة بدقائق ، يدق على باب السجن دقات عنيفة وفتح الشاويش مصطفى ذلك الباب ثائرا هائجا محذرا ذاك الذى يدق الباب بعنف وشدة ، فلمـا وجده عم السيد العشرى تحولت قوته وثورته وهيجـانه الى هـدوء ممزوج بالاستكانة ٠٠ فيه ايه يا عم السيد ؟ احنا فى الخدمة ٠٠ قول بس انت عاوز ايه واحنا فى الخدمة ٠

وقال عم السيد : عاوزين نخرج طابور الصباح السـاعة ١١ صباحا ٠

وقال عم مصطفى بكل خضوع : حاضر ، أنا حاعرض الموضوع على البيه المأمور ٠٠ وبعد دقائق وصل المأمور بشحمه ولحمه وقال لعم السيد : ايه يا عم السيد حكاية طابور الصباح ده اللى انت بتقول عليه ؟ وقال عم السيد : لائحة السجون بتنص على ان فيه طابورين للمسجونين ،

واحد فى الصباح والآخر فى العصر وقال المأمور : احنا مش فى سجن عمومى ، احنا فى قسم بوليس . وقال عم السيد : سجن عمومى مش سجن عمومى .. السجن هو السجن واللائحة هى اللائحـــة . وقال المأمور : بس انت عارف فيه معاكم مسجونين ســياسيين تهمهم خطيرة وممنوع الاتصال بهم .

وقال عم السيد : برضه اللائحة مافرقتش بين مسجون سياسى ومسجون غير سياسى ، محكوم عليه والا تحت التحقيق .

وفى النهاية رأى المأمور أن يخرج المجرمون المعتادون للاجرام فى طابور الصباح لمدة ربع ساعة .

وهنــا أصر عم الســـيد بأنه وزملاءه لن يخرجوا قبل أن يخرج المتهمون السياسيون ، وحذر عم السيد وأنذر اذا لم تنفذ اللائحة على الجميع .

ووعد البيه المأمور ببحث الأمر مع الجهات المختصة .

ولأول مرة نخرج ربع ساعة فى فناء السجن ، صحيح ان الفناء قد أخلى من البشر وبقينا وحدنا فيه لمدة ربع ساعة ، ولكن فرحتنا بهـــذه الدقائق كانت لا تصف .

لقد رأينا النور لأول مرة .. بل لقد رأينا الشمس من بعيد .

وكنا قد حرمنا من النـور ومن الشمس ، وشكرنا عم سيد الذى أتاح لنا تلك الفرصة النادرة التى لم تكن لتتاح لنا لولا شخصية عم سيد ولولا اصراره الغريب العجيب على تنفيذ اللائحة الخاصة بالسجون على المسجونين السياسيين .

وقد نقل عم سيد فيما بعد الى مكان آخر فى السجن حتى لا يفسد أخلاق المسجونين السياسيين أمثالنا .

وعم السيد هذا هو أكبر معمر عرفته السجون المصرية ، عاصرها منذ عام ١٩٠٨ حتى عام ١٩٤٥ بل وما بعد هذا التاريخ ، وظل معاصرا لها ، ضيفا عليها الى أن لقى ربه .

أذكر أن عم سيد روى لى قصته وهى أغرب قصة ــ فيما أرى ــ فى تاريخ الاجرام . قال عم سيد : كنت صبيا لجزمجى ، أشعر بالقوة وبالفتوة ، آكل بشراهة ، وألعب بعنف .

وتشاجرت مع زميل لى فقطعت أصابعه بآلة حادة كانت معى .

وحكم القضاء العادل على بالسجن ثلاث سنوات ٠

وفى السجن قضيت الأسابيع الاولى بخير حتى ساق القدر جنديا جبارا عنيدا لا يقدم لنا الطعام الا على حذائه ، ولا سبيل الى التفاهم بيننا وبينه الا بيده ورجله أما اللسان فللشتائم فقط ! قلت له ذات يوم : يا شاويش محمود انت راجل واحنا برضه رجاله ، مش حرام عليك تعاملنا بالقسوة دى ، هو احنا مش بنى آدمين ٠٠٠ ؟ » وكانت اجابته ركلة قوية بقدمه ٠

وكان لابد أن يلقى مصيره ، مصير كل ظالم مستبد ٠

لقد ذبحته فى سهولة ويسر وكأننى أذبح دجاجة ٠

وأصبحت الأعوام الثلاثة ثمانية بعد أن أضيف اليها خمسة أعوام كانت من نصيبى فى قضية مقتل الشاويش اياه ٠

وكنت سعيدا بهذا الحكم العادل ٠٠

وبعد عام ساقت الأقدار الى كارثة جديدة بل مفخرة لى :

ضابط متعجرف لا يعرف شفقة ولا رحمة ، يعاملنــــا كالمواشى ، يربطنا فى السلاسل ثم يتركنا فى الصحراء المحرقة ساعات طويلة ، فاذا تقدم أحد منا بالشكوى كان الجلد والضرب نصيبنا جميعا ٠

وحذرته أكثر من مرة ولكنه لم يأبه بهذا التحذير ٠

ورميته بحجر ضخم خلص الدنيا من شروره وآثامه ، كنت مسلوب الارادة عندما قال لى القــاضى : يا سيد امشى كويس وحكم على ببضــع سنوات أخرى ٠

وبدأت أصلى وأصوم وتحسنت أخلاقى وهدأت أعصابى الثائرة دائما ولكن القدر أراد أن يداعبنى مداعبة ثقيلة جديدة : كانت الحرب العالمية الأولى قد أعلنت وكان بيننا ضابط تركى مصرى الأصل اسمه شكرى بك، وكان قد أسر وعامله الانجليز أسوأ معاملة ٠

ووضعت فى خارج السجن وفى داخله خطة لتهريب شكرى بك ، وكادت الخطة تنجح لولا أن أحد المساجين من زملاء شـــكرى بك أفشى الخطة ٠

وقد قمت بنفسى بالانتقام الواجب ممن أفشى الخطة وأخذت فيــه ما أخذت والعدد فى الليمون كما يقولون ٠

وبذلك قضى على أن أمضى فى السجن خمسا وثلاثين سنة وأفرج عنى ..

وعندما اختير عبد الحميد عبد الحق وزيرا للشئون الاجتماعية وكانت لديه رغبة قوية فى اصلاح السجون .

وأنشأ لجنة لاصلاح السجون اختارنى خبيرا لتلك اللجنة بمراتب قدره ستة جنيهات ، أجلس مع باقى أعضاء اللجنة وفيهم الوزراء ووكلاء الوزارات وكبار الموظفين جنبا الى جنب فى ميدان الاصلاح .

وكنت باستمرار أبدى رأيى بصراحة فى كيفية اصلاح السجون والحاجة الماسة فى تلك السجون الى الاهتمام بالجوانب الاجتماعية وضرورة الاهتمام بالسجين عندما يخرج من السجن حتى لا يعود اليه مرة أخرى .

ويذكر عم السيد كيف فصل من وظيفته بعد أن ترك عبد الحميد عبد الحق لوزارة الشئون الاجتماعية والغاء لجنة اصلاح السجون .

« وذهبت الى البرلمان أشكو الظلم الذى وقع على يوم افتتاح البرلمان ، وبدلا من أن يبحثوا شكايتى قبضوا على ووضعونى فى قسم عابدين .

وانتهز فرصة مرور الموكب الملكى الذى يمر كل يوم مرتين أو أربع بالقرب من قسم عابدين فأقف فى شباك السجن هاتفا ضد الظلم والعدوان .

وعندما تكررت الشكوى منى أثناء مرور الملك نقلونى الى قسم بوليس بعيد عن مرور الموكب .

وكان قسم بوليس روض الفرج هو مقرى الأخير والذى أتعشم أن يكون مثواى الأخير .

★★★

وأعود الى ما حدث لى فى ذلك السجن الرهيب :

لقد طلبت أن يحقق معى ولكن أحدا لم يحقق معى بدعوى أن دورى لم يأت بعد .

أغرب ما مر بى فى داخل ذلك السجن الرهيب أن أحدا من الزملاء والأصدقاء لم يزرنى سوى أخى أحمد الرفاعى الذى أحرص على ذكر اسمه هنا تقديرا وتكريما وعرفانا بجميله على .

كثير من الزملاء والأصدقاء تنكروا لى .

مزقوا خطاباتى اليهم كما مزقوا الصور التى تضمنى واياهم ، أنكروا معرفتى بهم ومعرفتهم بى .

ولن الومهم على ذلك ، فقد كانت الاجراءات التى اتخذت فى تلك القضية من أغرب وأشد وأعنف ما تم من اجراءات فى أية قضية سياسية أخرى .

لقد قبض على مئات من المواطنين ولم تكن هناك من علاقة تربطهم بالمتهم فى تلك القضية ، وانما هو الشك والشك وحده .

قبضوا مثلا على أحد أبناء الأزهر الشريف في تلك القضية لأنه كان له نشاطه فى الأزهر ، وقد وجدوا عند تفتيشه نوته صغيرة بهـا أسماء أكثر من ٢٠٠ شخصية .

وقد قبض على هذه الشخصيات جميعها بدون استثناء .

وجيء بهم من الزقازيق فى قطار خاص مسلح .

وقد فوجىء وكيل النيابة بهذا العدد الذى قبض عليه .

واكتشف وكيل النيابة أن من عادة هذا الشيخ أنه عندما يذهب الى مكان عام ما .. الى حفلة مثلا .. فانه يسجل أسماء الذين حضروا فى هذا المكان أو فى هذه الحفلة .

وقد دعى الى حفلة كبيرة في الزقازيق أقيمت بمناسبة زفاف أخت زميل له .

وقد سجل أسماء كل الذين حضروا هذا الحفل .

وعندما قبض عليه ووجدت تلك الأسماء ضمن النوتة الخاصـة ، تصور رجال البوليس أنهم عثروا على كنز خطر .

وأنهم توصلوا الى معرفة أسماء أعضاء التنظيم الذى اغتال رئيس الوزراء أحمد ماهر .

ونشرت الصحف فى مكان بارز أن البوليس توصل الى وثيقة هامة وخطيرة سوف تكشف أسرار العصابة التى قامت باغتيال رئيس الوزارة .

وعندما روى المتهم لوكيل النيابة قصة هوايته الغريبة تلك واقتنع وكيل النيابة بصدق الرواية أفرج عن كل من جاءوا فى القطار دون أن يسألهم بعد أن تساءل ساخرا : أمال فين العريس والعروسة ..

أغرب ما فى الموضوع أن الذين جيء بهم فى قطار خاص .. بعد الافراج عنهم لم يجدوا قطارا خاصا ولا سيارات خاصة فى العودة ، لقد تركوا وشأنهم ليعودوا على النحو الذى يختارونه للعودة .

وكانت مشكلة بالنسبة لمن قبض عليه ولم يكونوا قد أخذوا معهم الى القاهرة مالا ، على اعتبار أن توصيلة البوليس من الباب للباب ·

وقد قبض على كل من يمت بصلة الى والد العيسوى أو والدة العيسوى من قريب أو من بعيد وأذكر أن بعض اخوته لأمه جيىء به الى حيث نقيم ، اذ كان لابد لعلبة السردين أن تمتلىء عن آخرها وكان بعض هؤلاء يقسمون بأنهم لم يروا العيسوى مرة واحدة فى حياتهم · ولقد بذلت محاولات رخيصة مع هذا البعض لكى يتبرأ على صفحات الصحف من العيسوى ، ولكنهم لم يفعلوا جميعا ، بالرغم من أنه قيل لهم ان هذا التبرؤ هو ثمن الافراج عنهم ·

لقد وجد هؤلاء ــ ومعظمهم من الفلاحين ــ أن مثل هذه العملية رخيصة وسمجة ولا تليق بهم ، فاذا كان هؤلاء لا يعرفونه فى الأوقات العادية فكيف يتبرأون منه وهو فى محنته ·

على أننى لم أكن أوجه اللوم لوزارة الداخلية بسبب كل الذى فعلته معنا ، كما لم أوجه اللوم أيضا لمن تخلوا عنا فى محنتنا من الأصدقاء والزملاء ، فقد كان الموقف حقا عصيبا للغاية وكنا نحن أشبه ما نكون « بالجربانين » الذين يجب الابتعاد عنهم بكل طريقة ·

وكانت الحكومة ممثلة فى وزارة الداخلية واقعة فى أزمة عنيفة ، فعلى رأس الوزارة زميل وصديق قديم بل أخ عزيز للمجنى عليه ، وكلا من وزير الداخلية والمجنى عليه كانا من أقطاب المدرسة الفدائية ووزير الداخلية ·

وقد سبق له أن تولى وكالة وزارة الداخلية فى أيام وزارة سعد زغلول وعرف كل صغيرة وكبيرة عن العمل الفدائى ، لا كوكيل لوزارة الداخلية وحسب وانما كفدائى قديم ·

وقد قدم الى المحاكمة فى قضية الاغتيال السياسية هو وأحمد ماهر ، وقد تمت براءتهما ·· وها هو ذا أحمد ماهر يقتل بيد واحد من تلك المدرسة الفدائية ووزارة الداخلية وعلى رأسها فدائى قديم لا تستطيع أن تتوصل الى حقيقة ما حدث بالنسبة لعملية الاغتيال · تقارير البوليس السياسى تقول أنه كان لمحمود العيسوى شركاء أعدوا معه الجريمة قبل وقوعها ، شركاء كانوا معه فى البرلمان وقت وقوع الحادث وكانت مهمة أحدهم ــ أنا ــ أن ينزع « سكينة الكهرباء » من مبنى البرلمان ليعم الظلام ويتمكن الجانى من الهرب وكانت تقاريرهم تقول أيضا ·· أننى

لم اذهب ليلة الحادث الى السينما الا لاثبات وجودى فى مكان عام برفقة آخرين يمكن استدعاؤهم للشهادة لاثبات الواقعة ٠

وكانت تقاريرهم تقول أيضا ٠٠ أننى خرجت من السينما بعد دخولى بدقائق ولم أعد الا قرب نهاية الفيلم بعد أن كنت ذهبت الى مسرح الحادث وهو قريب نسبيا من مكان السينما ٠

والمتهم محمود العيسوى لا ينطق ، واذا نطق فهو يؤكد أنه وحده هو الجانى ، وما من شريك له فى تلك الجريمة ٠

وعبثا حاول معه رئيس الحكومة ، بل حاول معـــه من هو أهم من رئيس الحكومة ــ الملك يعنى ــ ووعده بالعفو اذا نطق وقال من أين له بالمسدس ومن هم شركاؤه ؟ ٠

ولكن أصر على أنه وحده هو القاتل ٠

وكان لابد من القيام بعملية ارهاب شديدة للوصول الى مفتـــاح للقضية ٠

وقد استخدمت بعض الصحف ــ بكل أسف ــ أسلوبا مبتذلا فيما يتعلق بما كانت تنشره عن المتهم وأهله ، فأمه مثـلا غســالة تقيم فوق السطوح ، وهو جاحد لها ، لم يفكر يوما فى مساعدتها ٠

ووالده « شهريار » مزواج ، له فى كل يوم زوجة ، وله مع كل زوجة قصة ٠

وتطيل تلك الصحف فى الحديث « المفبرك » عن أسباب طلاق الأم من الأب ٠

وكانت تلك المقولات تهز كيان محمود العيسوى من الداخل ٠

كانت أقسى ألف مرة من خلع الأظافر وتسليط أقوى الأضواء على عينيه وتجهيز المشنقة والمجيء بعشماوى شخصيا وكانوا يتعمدون اطلاع العيسوى على ما ينشر عنه رغبة فى انهياره ٠

ولكن المتهم الأول ظل قويا متماسكا وكان بعض الزملاء الذين كانوا يذهبون الى محكمة الاستئناف للتحقيق معهم أو مواجهتهم بالمتهم يرونه صلبا للغاية كما كانوا يتسمعون بعض الأخبار التى تروى فى همس بالغ عندما يعودون من المحكمة وأذكر مرة عاد فيها الشيخ حفنى من محكمة الاستئناف بعد تحقيق أجراه معه عبد الرحمن الطوبر باشا النائب العام ،

وقال لى : سوف أخرج اليوم ، وسوف يخرج بعدى محمد أفندى ، وسوف يفرج أيضا عن زكريا أفندى ، ولن يبقى أحد ســـواك ، فكل الدلائل ضدك كما قيل لى اليوم من بعض المحامين ٠

ثابت أنك كنت مع العيسوى فى مكتبه يوم الخميس ٢٢ فبراير ١٩٤٥ ٠

وثابت من خطك أنك أهديته فى ذلك اليوم كتابك « وحى الوطنية » وكتبت تاريخ الاهداء ٠٠ وكانت كلمات الاهداء فى حد ذاتها تؤكد أنك تلميذ له وأنه أستاذك ٠٠ وهذا ما أكد للبوليس اشتراكك فى العملية ٠

وروى لى الشيخ حفنى ما قام به حزب الأحـــرار الدستوريين اثر اعتقاله ، وكيف هددوا باحداث أزمة وزارية ٠٠ فكيف يقبضون على أحد زعماء الطلبة من الحزب دون أن يقوموا بتحريات مضبوطة ٠

وفى التحقيق اليوم ـ هكذا قال الشيخ حفنى ـ لم أنفى أبدا علاقتى بمحمود العيسوى ، قلت اننى أعرفه كما أعرف كل شباب الحزب الوطنى ، فنحن نعمل معا فى حقل سياسى واحد ٠

وكما أعرف كل شباب الأحزاب وهم يعرفوننى كما أعرفهم وليس فى ذلك من ضرر أبدا ٠

قلت لهم : هل من المعقول أن أشارك فى قتل رئيس الوزراء الذى يشكل وزارة يشترك فيها وزراء من حزبى ويقرون وأنا معهم ســياسة الحكومة فى دخول الحرب الى جانب الحلفاء ٠

وقيل لى : لقد أصدر اليوم الطوبر باشا قراره بالافراج عنك بدون ضمان ولا أظن أنهم سوف يعتقلونك على ذمة الحاكم العسكرى كما يفعلون مع البعض ٠

وابتسم الشيخ حفنى وهو يقول لى : يعنى يا عم صبرى ما لقتبش الا الحزب الوطنى تعتنق المبادىء بتاعته ، دا حتى المحامين بتوع الحزب مفيش واحد منهم عمل معارضة فى حبسك ٠ وقلت للشيخ حفنى : هذا قدرنا أن نؤمن بمبادىء حزب يقف فى المعارضة دائما ، حتى عندما قبل رئيس الحزب الحكم خرجنا عليه ولم نعترف برئاسته للحزب ، أما حكاية مفيش محامين عملوا معارضة فى أمر حبسى فذلك لأنهم جميعا فى السجون ومع ذلك فأنا واثق من أننى كما قلت سأبقى هنا لفترة طويلة من الزمن بمعارضة أو بدون معارضة ، بقرار من النائب العام أو بقرار من الحاكم العسكرى ، ثم يا عم الشيخ حفنى ماتنساش ان ماليش وزراء ولا شيوخ ولا نواب يدافعوا عنى ٠٠ دا قدرنا يا عم الشيخ ٠٠ !!

ووعد الشيخ حفنى أنه بمجرد خروجه سوف يتحرك من أجل الافراج عنى ، وقلت له : أنا أحلك من وعدك ، لا داعى لأن تجلب على نفسك المتاعب وكفاية عليك كده ، واتركنى وقدرى ٠

وبعد ساعة جاء عم مصطفى يفتح الباب والابتسامة تعلو شفتيه وقد علا صوته ـ على خلاف عادته ـ وقال لى : مولانا الشيخ حفنى يتفضل يخرج : افراج ، مبروك يا مولانا ، متنساناش فى الحلاوة ٠

وقفز كل من فى الجبسبخانة . مجرمين عاديين أو سياسيين يعانقون الشيخ حفنى ويقبلونه ويباركون له ، وهو يقول : عقبالكم جميعا ٠

ولملم أوراقه وهدومه بسرعة وهو يقول : نشوف وشكم على خير ٠

ويقول له بعضنا : طيب استنى يا مولانا لما تتغدى ٠٠ فقال بسرعة مذهلة : لا يا جماعة ، أنا عاوز آكل فى البيت ، كفاية بقى الأكل القرديحى بتاعكم ده ٠

وضحك عم سيد وهو يقول : خلاص يا مولانا بقى فيه بتاعنا وبتاعكم ، سبحان مغير الأحوال ٠٠ !!

وقبلنى الشيخ وهو يودعنى قائلا : سأزوركم كل يوم انشاء الله ، وقلت له : يا مولانا بطل وعود بقى ، الدنيا تلاهى كما يقولون ، وسوف تنشغل بالطبع بالخارج عمن فى الداخل ، المهم انت راجل طيب تستاهل الافراج ٠

وصاح منصور بك من مكانه النائى وهو يقول : حاسب على ألفاظك شوية يا أستاذ ، يعنى احنا ما نستاهلشى ٠

ثم ضحك ، وضحكنا ، ولكنه ضحك كالبكاء كما يقول الشاعر العربى اياه ٠

وبعد نصف ساعة وجدتهم عن طريق الشاويش مصطفى يطلبوننى لمقابلة ألبيه المأمور ، وقال عم السيد : لازم افراج انت كمان ، وقلت له : مش كده على طول ، دى لازم زيارة واحد مهم ومش عاوزين يوروا له ازاى احنا عايشين عيشة تأباها المواشى فجعلوا الزيارة فى مكتب المأمور ٠

ولقيت صديقا قديما من زملاء الجامعة ينتمى الى الهيئة السعدية ، وقلت له : ايه اللى فكرك بنا ياسى عمر ٠ وقال : انت تعلم عواطفى نحوك ، وتعلم فى نفس الوقت أننى لن أتأخر أبدا عن زيارتك ٠

كما أنك تعلم أيضا أنني من أوائل المؤمنين ببراءتك ، وقد ألححت في زيارتك منذ اليوم الأول لاعتقالك ولم يسمحوا لى الا اليوم · وأحس عبد المجيد بك الزميتى المامور أن الصديق الزميل يريد أن يقول أشـياء خاصة فانسحب بهدوء قائلا للضيف : يا عمر بك المكتب مكتبك ، أنا عندى جولة تفتيش سريعة ، عن اذنك ، وأخذ اذنه معه كما يقـولون أو بمعنى أدق كما يجب أن يقولوا ·

وبدأ عمر يتحدث عن أمور كثيرة جرت فى الجامعة وفى الحكومة · وذكر لى أسماء من اعتقلوا من الأصدقاء والزملاء ولم تكن الصحف تنشر أسماءهم بل لم تكن فى الغـالب تشـير الى التحقيق الا فى سطرين أو ثلاثة ·

وقال لى : يا أخ صبرى فيه مهمة كلفونى بها وهى مهمة ثقيلة ، وكان تكليفى بها هو ثمن موافقتهم على زيارتى لك ، وقد قارنت بين الأمرين ، اما أن أزورك وأؤدى المهمة ، واما ألا أقبل المهمة وبالتالى لن أتمكن من زيارتك ، وقد فضلت الأمر الأول : جئت اليك أرجـوك ·· وقلت له : لا تكمل ياعمر أنا أعرف المهمة التى جئت من أجلها اليوم ·· الاعتراف مع الوعد بالعفو ·

وقال عمر : كيف عرفت ؟ قلت : أنا أعرفهم جيدا فى البوليس السياسى ، وأعرف فى نفس الوقت أساليبهم ، وأنا أريد أن أسألك كأخ وصديق لم تفرق بيننا فى يوم ما الآراء السياسـية ·· هل تثق فى براءتى وابتعادى عن الجريمة أم لا ؟ قال : لا أشك فى ذلك ، ولولا الثقة التامة فى براءتك لما جئت زائرا ·· أنت تعرف منزلة الباشا عنـدى ، انه كان مثل أبى ·

قلت : اذن فيم يكون الاعتراف ؟ هل أكذب ؟ هل أسـيىء الى آخرين لم يسيئوا الى ؟

وقال لى عمر وهو يضمنى الى صدره ، قواك الله ، انك لم تتغير ·

قلت ولن أتغير ·· قل لمن أرسلوك أننى على أتم الاستعداد لمقـابلة عشماوى ، تمهيدا للموت ، ولكننى لست على استعداد لأن أعترف على أحد لا بالحق ولا بالباطل ·

واكتشفت أن وراء الساتر شخصا يتحرك وأنه من ضباط البوليس السياسى وقلت غاضبا لعمر : أو كنت تعرف ذلك ؟ قال : صدقنى لم اعرف · وقلت : صدقتك والا كان على الدنيا الفناء

واستبقانى الضابط بعض الوقت بعد أن استأذن من عمر ، ودار بينى وبين الضابط حديث غاضب للغاية ، هو يقول : نحن نعرف أنك شريك ، وأنا أقول له : أثبت أننى شريك .

هو يقول لى : لقد رأوا واحدا مثلك يخرج من مبنى البرلمان وقت الهرج والمرج الذى أعقب الحادث ؟ وقلت له : أتحدى من يقول ذلك . وقال لى لقد كنت مع العيسوى قبل الحادث بثمان وأربعين ساعة بل بأربع وعشرين ساعة فما قولك ؟ قلت : أتحقق معى ؟ اذا كنت تملك هذا الحق ، افتح محضرا وأنا أجيب رسميا .

وقال لى : خسارة شـبابك انت ذاهب الى الجحيم . ونحن نريد انقاذك .

وقلت : كتر خيركم يا سـيدى ، جزاكم الله خيرا ، أنا مش عاوز منكم تنقذونى ، اذا كنت بريئا فالله وحده هو الذى سينقذنى . وان كنت غير برىء فلن يمنعنى الله من العقاب .

قال لى : أيكفيك أن تسمع من النقراشى باشا الوعد بالعفو ؟ انه مستعد أن يكتبه لك رسميا على ورق مجلس الوزراء عند مقابلتك له .

قلت : لا تحاول معى مثل هذه اللعبة الرخيصة ، لست أنا الذى أسيىء الى أحد أيا كان هذا الأحد .

قال : ولكنهم اعترفوا عليك ، ألقوا مسئولية الاستعداد لرفع سكينة الكهرباء عليك !

وقلت : اذا كان هذا صحيحا وأنا واثق من أنه ليس صـحيح ، فانى أقول ليسامحهم الله .

وأنهيت من جانبى المقابلة مؤكدا أنه ليس لدى ما أعترف به وحتى اذا كان لدى ما أعترف به فلن أعترف لا فى الحاضر ، ولا فى المستقبل ، وعلى البوليس السياسى أن يكف عن ارسال أى رسول ، فسوف يظل موقفى كما هو .

وعدت الى زنزانتى واللهفة تبدو على وجوه جميع الزملاء .

وكانوا قد توقعوا الافراج عنى وخاصة بعـد أن طالت المقـابلة وأحسست بمـا يدور فى أذهانهم فقلت لهم : اطمئنـوا ، فلا افراج ولا وعد بالافراج ، ولا أمل فى الافراج ، وما على الا أن أتأهب للبقاء هنا أطول فترة ممكنة فهذا قدرى وأنا راض به .. كل الرضا .

على أنهم فى البوليس لم يكفوا عن ارسال الرسل رغبة فى دفعى الى الاعتراف وبعد تيقنهم من فشلهم بعثوا الى بمن يؤكدون أنهم قد عثروا على أدلة قوية ضدى ، وأنهم اذا كانوا لم يحققوا معى حتى اليوم ، فمرده أنهم يجمعون الأدلة ضدى لمواجهتى بها مرة واحدة ٠

وراحت حرب الأعصاب تزداد كل يوم قوة وعنفا ٠

ولكننى كنت قد أعددت نفسى لتحمل كل وسائل تلك الحرب ٠ فلم أدعها تؤثر فى من قريب أو من بعيد ٠

ولذلك لم يجدوا بدا فى النهاية من وقف ارسال الرسل وان لم يتوقفوا عن مضاعفة الحرب النفسية حتى لقد بلغت بهم القسوة حدا جعلهم يسوقون الى أخبارا مؤداها أن المتهم محمود العيسوى قد جر رجلى الى القضية ٠

وقد اعترف على وأنه أبدى استعدادا لمواجهتى بكل اتهام ٠٠ كل ذلك لدفعى الى الاعتراف ، أو الاساءة الى محمود العيسوى بأية طريقة ٠

ولا أريد العودة الى الحديث عما نالنى فى الحبسخانة من تعذيب ٠ فمهما قلت ، ومهما كتبت فاننى لن أملك بأية حال من الاحوال المقدرة الكافية على تصوير ذلك الجو الكئيب العنيف ٠

ويكفينى القول بأننا كنا نعتبر الحبسخانة أشبه ما تكون بجهنم الحمراء ٠

ولولا الايمان بالله والثقة بالنفس لما قدر للواحد منا أن يخرج حيا من هذه الحبسخانة ٠

ويكفى أن أقول : أننى فى طرف عشرة أيام فقط تحولت الى هيكل عظمى ، ولو رآنى كل من يعرفنى لأنكرنى لأنه لم يستطع أن يكتشفنى ٠

لقد وصلت بنا الحال الى أن تحولنا جميعا الى أشباح لا نملك القدرة على التفكير ٠ بل ولا على الحركة ٠

وربما كان ذلك الذى عانيناه فى الحبسخانة مقصودا لذاته حتى اذا ما استدعينا للمثول أمام النائب العام كان كل واحد منا مؤهلا ، للانهيار من الداخل ٠

الفصل الثالث

النائب العام (الطوير باشا يفرج عنى والحاكم العسكرى العام (النقراشى باشا) يعتقلنى من جديد

كانت النيابة العامة قد فرضت حظرا على النشر فيما يتعلق بقضية اغتيال المرحوم أحمد ماهر باشا كما أنها ـ النيابة ـ كانت قد جعلت التحقيق فى تلك القضية سريا تطبيقا للمادة ١٩٣ من قانون العقوبات ولذلك فان الصحف لم تتمكن من نشر أى خبر من أخبار تلك القضية ٠

لم يعرف القارىء العادى للصحف المصرية ماذا قال المتهم الأول ولم يعرف أيضا أى اسم من أسماء الذين قبض عليهم وحقق معهم ، أو قبض عليهم ولم يحقق معهم ٠

كما أن أحدا من المحامين لم يكن قد سمح له على الإطلاق بدخول قاعة التحقيق ، رغم أن المتهم من المحامين وكان يجب على نقابة المحامين أن تنتدب أحد أعضاء مجلس النقابة أو من يراه مجلس النقابة ليحضر التحقيق ٠

وحتى تم احالة المتهم الى المحكمة العسكرية العليا لم تنشر الصحف أية أخبار عن التحقيق اللهم الا أن المتهم ـ مثلا ـ جيىء به من السجن ـ أى سجن لا أحد يدرى ـ حيث تولت النيابة التحقيق معه وأعيد الى السجن فى الساعة التاسعة أو العاشرة مساء فى حراسة مشددة ٠

ومرة نشرت احدى الصحف فى ١٩٤٥/٣/٢ أن التحقيق قد انتهى بالنسبة لقضية اغتيال د٠ أحمد ماهر باشا ، فبادر مصدر مسئول بنفى ذلك الخبر مؤكدا على سرية التحقيق ، وان التحقيق لا يزال قائما ٠

وكان من الأمور التي تقلقني فيما يتعلق باتهامي أو سجني في تلك القضية ، ليس الاعدام الذى ينتظرني ، كما كان يؤكد لى بعض رجال البوليس ، ولا الأشغال المؤبدة ، ولا التعذيب الذى ألاقيه كل يوم بل كل ساعة في « الجبسخانة » ، وانما الذى كان يقلقني حقيقة وقع خبر الاعتقال على أبى ، وأمي ، خاصة وأن الجريمة خطيرة ، والعقوبة فيهـــا أخطر •

وقد كان أبى ـ وكذلك أمي ـ يتقبل ـ مثلا ـ أمر اعتقالي أو سجني ـ وليس بين السجن والاعتقال أى فوارق ـ في مظاهرة من المظاهرات أكون قد اشتركت فيها أو دبرت أمرها •

وقد كانت أمي ـ وكذلك أبى ـ تستسيغ مثلا أن أعتقل أو أسجن بتهمة توزيع منشور من المنشورات •

ولكنهما ـ الأب والأم ـ كان من العسير عليهما أن يتقبلا سجني أو اعتقالي بتهمة اغتيال رئيس الحكومة •

ولأنني كنت أعرف جيدا مدى ما يحمـلانه لي من حب أنساهمـا مصالحهما الشخصية وجعلهما يضحيان في سبيلي بكل ما يملكان •

ولأنني كنت أعرف جيدا مدى اشفاقهما على وخوفهما على صحتي ، فقد كنت قد اتفقت مع بعض الزملاء أنه في حالة اعتقالي لمدة طويلة يتم محاصرة الوالد والوالدة حتى لا يصلهما أى خبر عن الاعتقال •

ويمكن تدعيم ذلك الحصار بارسال بعض بطاقات بريدية باسمي من أية عاصمة عربية ، بيروت أو القدس •

وكنت على ثقة مطلقة من أن الزملاء ـ ولديهم امكانات هائله ـ قد فعلوا ذلك عندما طال اعتقالي في قضية اغتيال د • أحمد ماهر •

ولكنني كنت على ثقة مطلقة أيضا من أن هذه الكذبة البيضاء لن تنطلي أبدا على أبى وأمي لأنني أعرف جيدا مدى شفافية قلبيهما •

ان قلوب كثير من الآباء والأمهات وخاصة أولئك الذين لم تشغلهم أمور دنياهم ، والذين بقوا على فطرتهم السليمة ، تحمل أجهزة رادار قوية لا تستطيع مثل تلك الأكاذيب البيضاء أن تؤثر أبدا فيها •

عرفت فيما بعد ان أبى أحس ـ بقلبه الشفاف ـ أنني في محنة ، وكذلك أمي •

ولأن كلا منهما كان يخشى على مشاعر الآخر ، فقد أخفى ما بداخله .

وكان أبى ــ وقد عرفت ذلك فيما بعد ــ يخرج ــ بعد أن يتعذر عليه النوم ــ من البيت بدعوى أنه يفضل القيام ببعض الصلوات قبل أن يؤذن المؤذن لصلاة الفجر ، وكان يجلس تحت شجرة الجميز التى تقع فى قطعة أرض نملكها ، ويبكى وحده ، الى أن يسمع مؤذن الفجر فيذهب للصلاة ، ويعود الى المنزل مع مطلع الشمس ، دون أن ينام دقيقة واحدة ، وذلك الخروج كان المراد منه ألا تشعر أمى بالضائقة التى يعيش أبى فيها ، وبقلقه الشديد على ٠

ولم يكن أبى يعرف ان نفس المشاعر التى أحس بها ، ونفس الظنون والأوهام التى راودته قد راودت أمى ، وأنها بدورها كانت تتحين الفرص ــ فرص كونها فى وحدة ــ فتبكى بكاء مرا ٠

وأن كل ما كانت تخشاه ان يضبطها زوجها وهى تبكى فينكشف سرها ٠ الأب ــ وياله من أب عظيم حقا ــ كان يحس بالمحنة التى يقاسى منها ابنه ما يقاسى ، والأم ــ ويالها من أم عظيمة حقا ــ كانت تحس بالمحنة التى نزلت بابنها ٠

ولأن كلا منهما يحب الآخر ويود أن يبعده عن الأحزان والآلام ، فقد كان يحرص على أن يخفى عن الآخر ما به ٠

وأذكر أننى عندما عدت اليهما بعد الافراج عنى وكنت ظننت أن الخطة التى دبرت لاخفاء الحقيقة عنهما قد نجحت نجاحا تاما ، خاصة وقد عدت اليهما ومعى هدايا كثيرة من لبنان وفلسطين و ٠٠ و ٠٠

وقد طال حديثى معهما عن تلك الرحلة الطويلة ٠

وما لقيته فيها من متاعب السفر الشاق ٠

وعندما ذهب والدى لصلاة العشاء ، قالت لى والدتى : بقى مش عيب تكذب على أمك ، أيه الكلام الفارغ اللى انت عمال تقوله من الصبح ، يا ابنى قلب الأم دليلها ٠

وقلت لها : اذن كنت تعرفين كل شيىء ، قالت : منذ اليوم الأول ، وقد أخفيت الأمر على والدك ٠

وبينما كانت أمى تقوم باعداد العشاء ، وقد جاء والدى من المسجد حرص على الاختلاء بى ، وهو يقول لى نفس كلام أمى : بقى مش عيب عليك تكذب على والدك ٠

وأسأله : اذن كنت تعرف كل شيىء ؟ فيجيب بالايجاب ٠

ويؤكد أنه ظل طوال تلك المدة الطويلة يبكى وحده حزنا على ابنه حرصا على مشاعر أمه ·

وكانت ليلة لا انساها ·· كان أبى يتمالك أعصابه ، أما أمى فقد فقدتها تماما ، حتى أنها ظلت تعانقنى أكثر من ساعة دون أن تتيح لى فرص الابتعاد عن حضنها ، وكانت تبكى وتضــحك ثم تبكى لتضحك وتضحك لتبكى وهى دائمة التوجه الى الله العلى القدير بالشـــكر الذى أخرجنى من السجن ، وكانت بين حين وآخر تقول فى همهمه : الله يصبر أمه ، الله يصبر أمه · وكان والدى يقول لها : مابلاش الكلام دلوقتى ، وكانت تقول : أصلكم رجاله ماتعرفوش قلب الأمهات ·· وكانت تعنى بما تقوله أم محمود العيسوى ·

ولا أريد أن استطرد فأخرج عن التسلسل التاريخى لتلك القضية الهامة والخطيرة ، فأعود الى ما بدأت به هذا الفصل من أن الصحف لم تكن تنشر أية أخبار عن التحقيق ·

وكل ما نشر لا يتعدى : عشرة آلاف جنيه لمن يبادر فورا بالادلاء بمعلومات جدية تؤدى الى ضبط ومحاكمة كل من له اتصال بالجريمة فى حادث اغتيال أحمد ماهر باشا ·

كان المتهم يحضر الى التحقيق وتبدو عليه دلائل الخور والاعياء ·

وفى أوائل مارس ١٩٤٥ ـ قالت الأهرام ـ مثلا ـ أنه تمت مواجهة المتهم ببعض الأشخاص ، ثم أعيد المتهم الى السجن فى الساعة التاسعة مساء ·

أما سائر المعتقلين فقد نقلوا الى سجون أقسام البوليس ·

ولكن بعض الصحف ـ البعض لا الكل ـ سمحت لنفسها بأن تخرج على التحقيق ، وتشبع هوايتها فى نشر ما يثير عن المتهم وأسرته ·

فمرة أم العيسوى تسكن فى غرفة فوق السطوح ، وهى تعمل غسالة فى البيوت لأن العيسوى يضن عليها بالمساعدة ·

ومرة والد العيسوى « شهريار » يتزوج أربعا فى وقت واحد ثم يطلق بعض الأربع ليتزوج ما يكمل الأربع ·

وقد انتقلت العدوى الى مراسـلى بعض الصحف الأجنبية فراحوا يسرحون فى الخيال وهم يتحدثون عن والد المتهم ووالدته ، وربما كانت الأهرام والمصرى أكثر الصحف اتزانا فيما يتعلق بأخبار المتهم وأسرته ·

قالت مثلا : الأهرام : انهم في البوليس لم يهتدوا الى سكن للمنهم ، وتبين أنه كان ينزل ضيفا على بعض أقاربه ، وأنهم كانوا يضيقون به ٠٠ والد الجانى حائك ملابس بلدية فى حى الحسين يقول عن ابنه : ان ابنه سيىء الخلق ، شرس الطباع وأنه ـ الأب ـ اضطر الى أن يتبرأ منه ويقطع علاقته به ٠

مرة أخرى تقول الأهرام : ان الوالد كان من الأثرياء لكنه أفلس بسبب كثرة زواجه والمشاكل التى نجمت عن كثرة تعدد زوجاته ٠

وأنه ـ الوالد ـ طلق أم المتهم عندما كان ولدهـا منه لا يتجاوز السادسة من عمره ، وأن ابنه كان يتأهب للحصول على الدكتوراه فى القانون ٠ وفى مرة ثالثة يقول الأهرام : ان والدة الجانى وأخاه منهـا يقطنان غرفة صغيرة ٠

وأن أخاه يشتغل فى مصنع لصناديق الورق وان البوليس عندما فتش جيوب الجانى تبين أن كل ما معه لا يزيد على ٢٢ قرشا ٠

أما ما نشر فى بعض الصحف الأخرى فلن أشـير اليه لأنـه مثير للأعصاب ، وقد علمت أن البوليس السياسى كان يتعمد توصيل الصحف التى تشتمه وتسب أمه وأباه رغبة منهم فى اثارته ودفعا له على الاعتراف خاصة بعد أن يتأكد أن الشعب لم يعتبره بطلا قوميا كما تصور العيسوى وقت أن ارتكب جريمته وانما يعتبره لصا وقاتلا وخارجا على ارادة والديه اللذين هما من أحط الطبقات و ٠٠ و ٠٠

وأعرف أن العيسوى كان يستاء من ذلك الذى كان ينشر عنه ٠

وأن ما مر به من تعذيب أيسره خلع أظافره ومحاولة اصابته بالعمى عن طريق توجيه أقوى الأضواء الى عينيه طوال الليل ٠

كل صور التعذيب التى تعرض لها العيسوى وكانت وقتئذ مبتكرة ، كانت أهون عليه مما كان ينشره البعض عن أبيه وأمه وأخوته ٠

وكان يقول للنائب العام : دعهم يقولون عنى ما يشاؤون لأننى قد ارتكبت الجرم ٠

ولكن ما ذنب أبى وما ذنب أمى ، وما ذنب أخوتى وكان الطوير باشا بما اتصف به من هدوء يقول له : لا سـلطان لى على ما ينشر فى الصحف ما دام لا علاقة له بالتحقيق ، وكان العيسوى يقول له : ولكننى أمانة فى عنق النيابة ومن واجب النيابة ان تحمينى ، الى أن تقدمنى الى المحكمة ، فينتقل أمر حمايتى للمحكمة ٠٠ وكان الطوير باشـا يقول للعيسوى ٠٠٠ لا تنس أننا فى ظروف استثنائية و ٠٠ و ٠٠

ولكن كيف كانت تصل الينا اخبار التحقيق ، وكيف كان يصل الينا ما ينشر فى الصحف .. ؟ لذلك كله وسائل عديدة لا أعتقد أن المجال يتسع لها ، وحتى لا نعلم المسجونين وذويهم كيف يهربون المعلومات لو كان قد بقي للمسجونين ولذويهم ما لم يتعلموه بعد .

بعض الاخوة فى الخارج كان يستخدم أرغفة الخبز قبل أن تصل الى الفرن ، فيضع بهـا ما يمكن توصيله دون أن يحترق مع الأرغفة فى الفـرن .

وبعض الاخوة كان يتعاون مع الذين يقضون عقوبة « المراقبة » أى الذين يفرج عنهم فى الصباح ، ولا يعودون للقسم الا فى المساء لكى يناموا فقط .

وكان التعاون مع هؤلاء سهلا للغاية وخاصة أنه كان يعهد اليهم فى الصباح الباكر بغسيل أرضية السجن والطرقات .

وكانت الرسالة تصل عن طريق الحوار بين أحد من هؤلاء الذين يقضون عقوبة المراقبة وبين زميل آخر بحيث لا يستطيع جنود البوليس الذين يراقبونهم فهم ما يدور بينهم وكان يسمون المتهم الأول فيما يجرى بينهم من أحاديث « القنصل » ، والقنصل يعنى الراجل المتكبر وذلك لابعاد الشبهة .

وكانت الصحف التي تصل الينا مهلهلة للغاية مما يعنى أنها قديمة وكانت تلف فيها بعض الأطعمة ، وكانت عملية قراءة تلك الصحف من أشق العمليات ، هذا بالاضافة الى ما كان يجيىء به الينا « الوارد » القادم الجديد الى السجن .

وكانت الرسائل تصل الى المجرمين فى الجبسخانة فنفهمها نحن ، وقد يفهمونها هم ، ولكن للأمانة كانوا ــ المجرمين ــ حريصين للغاية على مستقبلنا فلم يحاول أحد منهم النيل منا بأية طريقة .

وكان محمد أفندى قد أفرج عنه .

كما نقل زكريا أفندى الى قسم الزيتون ، حتى لا يشق أمر زيارته على أهله الذين كانوا يقطنون الزيتون .

وتلك منة من منن الشيخ حفنى الذى بذل قصارى جهده للافراج عن محمد أفندى ، وعندما عجز عن الافراج عن زكريا أفندى ، بذل قصارى جهده لنقله الى قسم الزيتون .. أما أنا فلم يستطع ان يفعل شيئا لى لأن « حكايتى حكاية كبيرة جدا » ، ولا أمل فى الافراج عنى قبل بضعة

أشهر على الأقل • على أن الشيخ حفني رغم كل ما فعله من أجل محمد أفندى وزكريا أفنـدى ورغم ما فعله من أجلى ، لم يشأ ان يزورنا حتى لا يلفت النظر اليه فيعيدونه الى السجن من جديد •

وقد أحسست بالوحدة فى الحبسخانـة ، لم يبق من المسـجونين السياسيين الا أنا ، وبالتالى فان الاهتمام بتوصيل الأخبار الى قد قل الى حد كبير •

فقد كان لمحمد أفندى من يبعث اليه بالأخبار ، وكان لزكريا أفندى من يبعث اليه الأخبار ، وقد انقطعت مصادر تلك الأخبار عنى فأصبحت في شبه عزلة ، خاصة وأن الأوامر قد صدرت لتضييق الخناق خاصة وقد جاءت توصيات بل أوامر القلم السياسى بخصوصى ، أنى مجرم خطير ، ولى دور كبير فى الحادث •

وأن هناك نية لتهريبى خارج السجن لأن عندى معلومات خطيرة قد تكشف بعض الذين لم يقبض عليهم بعد •

وقد كانت القضية قد وصلت الى منعطف خطير بعد أن أصر محمود العيسوى على أنه وحده هو المسئول عن الجريمة ، وأنه ارتكبها دون معاونة من أحد ، بل دون أن يعرف بنيته على ارتكابها أحد •

وكان محمود النقراشى باشا كفدائى سابق وكوزير للداخلية ، بل كوكيل للداخلية فى عام ١٩٢٤ يرى أن مفتاح القضية فى المسدس الذى استخدمه العيسوى في ارتكاب الحادث ، فلو أمكن معرفة صاحب المسدس لتم حل اللغز ، ولخرج بالقضية من الطريق المسدود الذى وصلت اليه •

وكان واضحا بالنسبة للنقراشى باشا ــ وقد صارحنى بذلك أحد المحيطين به فيما بعد ــ ان المسدس الذى استخدمه العيسوى هو لواحد من قيادات الوفد •

وأنه لو أمكن توجيه الاتهام الى تلك القيادة لأمكن أن توجه الى الوفد ضربة قاتلة لن يستطيع القيام بعدها •

وقد قابل النقراشى باشا العيسوى أكثر من مرة فى مكتبه بمجلس الوزراء •

كما قابله فى مكتب النائب العام •

وكان السؤال الوحيد الذى يوجهه النقراشى الى العيسوى : من أين لك بالمسدس ؟ •

وعندما كان العيسوى لا يرد على سؤال النقراشى ، كان النقراشى يقول : مافيش فايده : انتهت المقابلة ·

وكانت قيادة البوليس السياسى تعرف جيدا أننى أعرف صاحب المسدس وأنه ما دام العيسوى لم يعترف ففى الامكان أن أعترف ·

ولذلك استخدموا معى كل وسائل الترغيب ، فلما فشلت ·· لجأوا الى التهديد بكل الوسائل ، فلم يصلوا الى ما يريدون ·

وكان تحقيقهم غير الرسمى معى ينصب على أمرين اثنين لا ثالث لهما ·

أولهما : هل كنت فى البرلمان ساعة وقوع الحادث ؟

ومن الذى أعطى المسدس للعيسوى ؟

وعندما كانوا لا يصلون الى أية معلومات تفيدهم ، كانوا لا يتطرقون الى أية أسئلة أخرى ·· وكانت مراكز معظم المتهمين فى القضية قد صفيت ، ولم يبق الا بضعة منهم كان لا بد من تصفية مراكزهم أيضا حتى يمكن تقديم القضية الى المحكمة ، أو على الأقل يجرى تحديد المتهمين الرئيسيين ووضعهم تحت الاختبار لفترة من الزمن ·

وكان البوليس يعمد الى الافراج عن بعض المتهمين خاصة ممن كانوا على مقربة من العيسوى فى الأسبوع السابق لارتكابه الجريمة وذلك لمعرفة من يترددون عليهم فى منازلهم وفى مكاتبهم بعد الافراج عنهم ·

وكان هؤلاء المتهمون يعرفون ذلك أيضا ، فلم يكونوا يسمحون لأحد بالتردد عليهم لا فى منازلهم ولا فى مقار أعمالهم ·

وكان ذلك يجعل مهمة البوليس السياسى صعبة للغاية أكثر مما هى صعبة ··· !!

وذات صباح لم تطلع له شمس — كما يقولون فى ريف مصر — فوجئت بهم يطلبوننى فى غرفة المأمور وبسرعة : لم يقولوا لى هناك شيئا الا أننى مطلوب من قبل النيابة وأنه لا بد من أن أكون هناك بمكتب النائب العام فى الساعة التاسعة صباحا ·

وسمعت الضابط النوبتجى — نائب المأمور — يكتب فى أوراق أمامه : خرج المتهم فلان الفلانى من سجنه وبيده قيد من حديد فى صحبة اليوزباشى فلان الفلانى والملازمين الأول والثانى فلان وفلان وفلان أيضا ، وكذلك جنود الحراسة فلان وفلان ، وبصحبة الجميع الأسلحة اللازمة مسدس رقم كذا مع اليوزباشى ، ومسدس رقم كذا مع الملازم أول فلان ،

وبندقية عيار كذا مع فلان ، ومع علان كذا ٠٠ وكذا ٠٠ وكل الأسلحة جاهزة للاستخدام وبها ١٢٠ طلقة و ٠٠ و ٠٠

وقد تنبه على الجميع من قبل نائب المأمور البكباشى فلان الفلانى باهمية المأمورية وخطورة المتهم والتهم المنسوبة اليه و ٠٠ و ٠٠ » وقد وقع الضباط جميعا على الأمر الادارى باخراجى من السجن ، وكذلك فعل الجنود أيضا وذلك على نحو غير مسبوق من قبل فتلك كانت تعليمات النيابة والقلم السياسى ٠

وقال لى رئيس القـوة : ايدك قلت : لماذا ؟ قال : لأضع فيهـا الكلبشات ٠ قلت : ولازمته أيه ٠٠ احنا كويسين كده ٠٠ سيبها على الله ٠

وكاد رئيس القوة أن يترك يدى بدون كلبشات ، ولكن نظرة من نائب المأمور جعلته يفيق الى نفسه ومنعا للاحراج مددت يدى حيث وضعت بها الكلبشات ووضع رئيس القوة الكلبشـات فى يده هو الآخر حتى لا أتمكن من الهرب ٠

ولا أستطيع أن أقول أننى رأيت الشارع ، أو رأيت أحدا من المارة فى الشوارع التى قطعها الركب وكان مكونا من ثلاث أو أربعة سيارات وان كنت متأكدا من ثـلاث فقط رأيتهـا بعينى رأسى ، السـيارة التى تسبقنى ، والسيارة التى تلحق بى ، وبطبيعة الحال السيارة التى ركبتها ، وكانوا قد أركبونى فى المقعد الخلفى للسيارة وبجانبى ضابط من جهة اليمين وآخر من جهة الشمال وأمامى والى جانب السائق جنديان يصوبان بندقيتهما الى فى وضع استعداد ٠

وأدخلونى فى مكتب لا أعرف صاحبه ، ولا أعرف مكانه فقد كانوا يسبقوننى ويلاحقوننى ويحيطون بى بكثرة رهيبة ولم أتمكن من معرفة ما حولى ، وأجلسونى فى ذلك المكتب الأنيق وتخلى الحراس عنى ٠٠٠ ومبالغة فى اكرامى جاءوا لى بشاى وقهوة ولم يكن ينقصنى الا أن يقوموا بافطارى ٠ وكانت أول قهوة وأول شاى أشربه منذ ستة عشر يوما ، ثم جاءوا الى بجرائد الصباح كلها ٠ المهم أنهم أكرمونى اكراما زائدا عن الحد كما يقولون ٠

وجاء الباشا صاحب المكتب وكانت الساعة قد بلغت الثامنة والنصف تماما ،وأحسست بوصوله من صـيحات الجنود ، وحركات الأقـدام ، « والهيصة » التى حدثت لحظة دخوله الى مكتبه ٠ وبدأ صاحبنا يتحدث عن خطورة الجريمة التى وقعت ، وضرورة الوصـول الى الجنـاة ، وعن

تحرياتهم عنى التى دلت على أننى شاب مصرى وطنى مخلص يحب بلده حبا جما ، ويعتنق مبادىء الحزب الوطنى عن ايمان وعقيدة و ٠٠ و ٠٠٠

وراح الباشا ــ وقد عرفت فيما بعد أنه أحد وكلاء وزارة الداخلية ــ يمتدحنى ويشيد بى وقلت له وأنا أحاول أن أنهى عملية النفاق الرخيصة تلك : ماذا تريد بالضبط يا باشا ، لندخل فى الموضوع مباشرة ولا داعى أبدا لكل هذه المقدمات ٠

ورأى أن يدخل الى الموضوع مباشرة بعد ان تأكد له ان الثمرة قد نضجت وأن أساليب التعذيب قد آتت ثمارها ، وأننى مقدم فعلا على الاعتراف للخروج من المحنة التى أنا فيها ٠

قال فى البداية : نريد أن نعرف من كان موجودا بمكتب الأستاذ عبد المقصود متولى ليلة الجمعة ــ أى يوم الخميس ٢٢ فبراير ١٩٤٥ ــ ، ومن خرج من المكتب الى الشارع بعد ذلك مع العيسوى وقلت : أولا أنا لم أكن بمكتب الأستاذ عبد المقصــود متولى فى تلك الليلة ، وبالتالى فأنا لا أعرف من كان به ومن خرج مع العيسوى ٠ قال : وذهابك الى مكتب عبد الرحمن بك فى تلك الليلة قبل الذهاب الى مكتب الأستاذ عبد المقصود متولى ٠ قلت : لا أخفى أننى ذهبت الى مكتب الأستاذ عبد الرحمن الرافعى ولم أجده ولم أجد أحدا بمكتبه وكنت قد تركت نسخة من كتابى « وحى الوطنية » باهداء منى الى الأستاذ محمود العيسوى وكان قد طلبه منى بعد ان قمت باهداء الأستاذ عبد الرحمن الرافعى وبعض العاملين فى مكتبه ممن أعرفهم من الأساتذة المحامين نسخا من الكتاب ٠

وماذا عن المسدس الذى كان مع العيسوى والذى أطلق منه الرصاص؟ وماذا عن تواجدك بمبنى البرلمان ساعة وقوع الحادث ؟ وماذا عن هدفك من التواجد هناك ؟ ٠٠٠ وعشرات من الأسئلة كانت تنطلق من فم الباشا كطلقات المدافع وكنت أجيب باستمرار : لا أعرف ، لا ٠٠ لم أكن موجودا ، الى آخر تلك الاجابات التى لا تفيد من قريب ومن بعيد ٠

ويطلب الباشا ، باشا آخر أعلى منه مركزا ، فقد كان يتحدث اليه باحترام شديد ، ويقول له فى التليفون بعد التحيات : يظهر ان مافيش فيه فايدة ٠

ثم يقول ردا على سؤال لم أتبينه تماما : لأ : سعادة النائب العام هو اللى عاوزه ، ما اعرفش ، يمكن عاوز يعمل مواجهة بينه وبين الجدع اياه ٠

وانقلبت الأحاديث الحلوة الى عكسها تماما ، وبدأ الشخط والنطر والتهديد بالمصير المؤلم الذى لا رحمة فيه ولا شفقة ٠

واصرار رئيس الوزراء على نصب المشانق في ميدان عام لكم كلكم ، دا أحمد ماهر مش هفيه ، دا رئيس الوزراء · هكذا قال الباشا في نهاية اللقاء العاصف ·

وأمر العسكرى الواقف على باب مكتبه باستحضار القوة · وبدأ وضع القيد الحديدى من جديد بعد أن كانوا قد خلعوه فور دخولى مكتب الباشا الوكيل ·

وبنفس الطريقة نقلونى الى محكمة استئناف مصر ، حيث مكتب عبد الرحمن الطوير باشا ·

ولم يعرف أحد من المارة من يكون ذلك المتهم الذين يبالغون في حراسته ، وما هي تهمته ، والى أين يذهبون به ؟

وكانت التعليمات الصريحة الواضحة ألا يتصل أحد بى على الاطلاق ، وأدخلونى مكتب النائب العام مباشرة حتى لا تكون ثمة فرصة أمام أحد لكى يرانى أو يتحدث الى · وعلى كنبة طويلة مريحة بمكتب النائب العام أجلسونى وفكوا القيود من يدى ·

وبعد دقائق وصل الشيخ حسن البنا المرشد العام للاخوان المسلمين وأجلسوه بجانبى ، ثم جيىء بفريد أبو العز الطالب بكلية الصيدلة حيث أجلسوه بجانبى أيضا ، فأصبحت محاطا بالاثنين ·

وبطبيعة الحال ، وكما هو متبع في مثل هذه الحالات ، لاسلام ولا كلام فأية كلمة أو اشارة محسوبة ويمكن ان يؤولها رجال البوليس تأويلات شتى ضارة ، وبالرغم من أننا نحن الثلاثة يعرف بعضنا البعض الآخر جيدا ، الا أن صمتنا رهيبا واكتئابا أكثر رهبة خيمعلينا نحن الثلاثة·

ثم دخل النائب العام عبد الرحمن الطوير باشا ·· كان يبدو هادئا للغاية ،نام نوما مستريحا لا شيء يشغله ويملأ عليه تفكيره ·

وفور وصوله وصلت القهوة المخصوصة ومعه حضرة الكاتب بقلمه وأدواته وأوراقه البيضاء الكثيرة ·

وسأل الباشا : المتهم موجود · وقالوا له : نعم يا افندم ، نوانى وحيدخل على سعادتك ·

وانتقل الأستاذ حسن البنا من مكانه حيث كأن يوجد مكان يسمح بجلوس القادم الجديد الى آخر الكنبة من الجهة الأخرى بجانب « أبو العز » وذلك خشية أن يجلس العيسوى بجانبه ولم أجد الشيخ حسن البنا يوما ما منفعلا قلقا ، كما وجدته في ذلك اليوم ·

وجيء بالعيسوى ، محمود العيسوى عوض الله المحامى ، الحاصل على دبلومين من كلية الحقوق ، جامعة فؤاد ، والذى يتأهب للحصول على الدكتوراه ·

أوقفوه أمام النائب العام ، لا أقول أنه كان شاحب الوجه ، ولا كان شارد النظرات ، ولا أقول أنه كان جامد الوجه ، ولا كان منهوك القوى ، كما كانت الصحف اليومية تصفه بين يوم وآخر ، وانما أقول : ان محمود العيسوى قد ذهب ولم يبق منه الا هذا الهيكل النحيف النحيل الذى لا يدل على أنه كان ، فوق هذا الهيكل ، يوما ما لحما ودما ومظاهر حياة ·

لم أر عينين للعيسوى ؛ فقد انكمشتا الى الداخل فى عمق بعيد ويخيل الى أن هذا البريق الذى تبقى فيهما والذى يدل على أنه كان فى هذين الجحرين - من قبل - عينان تريان ·

هذا البريق الذى كان وحده يحرك هذا الهيكل وتطلعت بسرعة الى يديه ، فلم أجد من أظافره الا بقايا ، وصدقت ما سمعته عما فعلوه بأظافره حيث كانوا ينزعونها نزعا وقارنت - والأسى يملأ قلبى - بما أصبح عليه العيسوى المتهم فى قضية أحمد ماهر ، وما كان عليه المتهمون بقتل السير لى ستاك سردار الجيش المصرى والحاكم العام للسودان أثناء التحقيق · ولم تكن المقارنة فى صالح الحكم الوطنى المصرى ·

فى قضية السير لى ستاك ، كانت سيطرة الانجليز سيطرة مباشرة وكانوا يحرصون على ان يبقى للعدالة - أيا كانت صورها - احترامها ·

وكانت سيطرة الانجليز فى قضية مقتل أحمد ماهر باشا سيطرة غير مباشرة ·

ولذلك تركونا أو دفعونا الى عدم احترام العدالة ·· الانجليز هم المسئولون فى كل من الحالتين ، ولكننا فى الحالة الآخيرة مسئولون آكثر لأننا نحن الذين نعذب اخوتنا ومواطنينا بأيدينا وبأوامر منا ·

وقد تكون أوامرنا هى ترديد لأوامر المستعمر ·

وقد تكون أوامرنا هى ترديد لأوامر المستعمر ·

ولكن - كما يقولون فى الريف المصرى أيضـــا - الاسم لطوبة ، والفعل لأمشير ، أى أن المسئولية علينا ، بينما نحن بالدرجة الأولى مجنى علينا لا جناة ·

كل ذلك ورد فى ذهنى فى ثوان معدودة لم تستغرق نصف دقيقة · وفوجئت بالعيسوى يقول بصوت قوى وكان لم يبق منه الا صوته : فين

الكرسى اللى حاقعد عليه ، أنا اشترطت للمجيىء هنا ان يكون فيه كرسى أقعد عليه ٠٠٠

وقال الأستاذ عبد الرحمن الطوير باشا : بس يا محمود ٠ وانفعل العيسوى قائلا : أنا مش محمود أنا الأستاذ محمود ، أنا معايا الليسانس اللى سعادتك حاصل عليه وأزيد عنك دبلومين فى القانون وفى الشريعة الاسلامية ٠

وقال الطوير باشا : أنا بقول يا محمود زى ما الواحد ما بينادى على ابنه مش معقول الواحد حيقول لابنه يا أستاذ ٠٠ !!

وقال محمود العيسوى بلهجة صارمة : دا فى البيت مش فى مكتب النائب العام ٠

وأحس الطوير باشـــا أن المناقشة مع العيسوى ستطول ، فأمر باستحضار كرسى للأستاذ محمود العيسوى كما قال ٠

وجيىء بالكرسى وجلس شبح محمود العيسوى ٠

ودار حوار طويل أسئلة وأجوبة ومقاطعات وتوجيه اتهامات ٠

وسيجيىء ذلك كله بالتفصيل فى حينه ٠

كل ما أذكره هنا أن الطوير باشا بدأ بفريد أبو العز فلم تكن هناك أى تهمة موجهة اليه ٠

وقال الطوير باشا وهو يحاول أن يضفى على الجو فى مكتبه نوعا من الهدوء الطبيعى : أنا أفهم ان واحد زى صبرى أبو المجـد طالب فى الحقوق يشتغل بالسياسة ، لكن ما أفهمش أبدا واحد زى أبو العز فى كلية الصيدلة يشتغل فى السياسة ؟ وقال العيسوى وهو يحاول ان يضفى على المناقشة نوعا من الســخرية : فى الصيدلة يا باشا يقدروا يصنعوا القنابل والمفرقعات ودى بعض الأحيان تبقى سياسة ٠ وقال الطوير باشا : الحكاية دى ماجاتش فى فكرى أبدا ٠٠

ونفى العيسوى أن يكون قد التقى بأبى العز ، وكذلك نفى أبو العز أن يكون قد التقى بالعيسوى من قبل ٠ وجاء دور الشيخ حسن البنا ٠٠ وحاول القيام ولكن الطوير باشا طلب منه أن يبقى فى مكانه جالسا حيث هو ٠ سئل الشيخ البنا ، هل تعرف العيسوى ؟ قال : نعم ، رأيته فى المعتقل حيث كنا معتقلين معا ٠

ودخلنا فى مناقشات عنيفة معا لم نصل فيها الى نتيجة ٠

وانقطعت الصلة بيننا منذ ذلك الوقت ٠

وقال العيسوى : انه يعرف الشيخ حسن البنا من بعيد كصاحب دعوة ورئيس هيئة وانه لم يفكر يوما ما فى ان ينضم الى الاخوان المسلمين لأنه حزب وطنى ٠

وهو ـ العيسوى ـ يرى أن صيغة الحزب الوطنى هى الصيغة الملائمة فى هذه الأيام لتحرير البلاد من الاستعمار الأجنبى ٠

وقال العيسوى : ان له تحفظات على أسلوب جماعة الاخوان المسلمين ، ولكن هذه التحفظات لا تنفى أبدا تقديره للشيخ حسن البنا ولجماعة الاخوان ٠

وحول علاقة العيسوى بالاخوان المسلمين ، وبناء على سؤال واضح من الطوير باشا ، قال محمود العيسوى : لا توجد أى علاقة على الاطلاق منذ ان كنا فى المعتقل و ٠٠ و ٠٠

وقرر الطوير باشا الافراج فورا عن الشيخ حسن البنا ، وفريد أبو العز أفندى ما لم يكونا محبوسين على ذمة قضية أخرى ٠

واتخذ التحقيق بمعرفة الطوير باشا أسلوبا غير ذلك الأسلوب الذى أتبع مع من سبقانى : الشيخ حسن البنا ، وفريد أبو العز ٠

وكان الطوير باشا بين وقت وآخر يتطلع الى أوراق أمامه ويطيل النظر فيها ولعلها كانت تقارير البوليس ، ومما أذكره اجمالا عن التحقيق معى ، ان العيسوى نفى نفيا قاطعا ان تكون لى به أى علاقة ، وعندما قال له الطوير باشا ، ولكن البوليس وجد بمكتبك كتابا اسمه «وحى الوطنية» من تأليف صبرى أبو المجد أهداه اليك بعبارات تنم عن اعجابه بك وتتلمذه على يديك ٠ وقال العيسوى : هناك كثيرون يبعثون الى بكتب من تأليفهم وليس شرطا ان يكونوا يعرفوننى والطالب صبرى أبو المجد يتردد كثيرا على أستاذنا عبد الرحمن الرافعى وله به صلات وثيقة تشبه البنوة الروحية ٠ وقد سمع بلا جدال عنى وآثر أن يتعرف الى عن طريق اهدائه أحد كتبه لى ٠

وقال الطوير باشا ـ ولم يكن صحيحا ما قاله ولكنه أراد أن يوقع بينى وبين العيسوى ـ ولكنه يقول أنه يعرفك ؟ وقال العيسوى فى سخرية بالغة : ربما لكى ينال جزءا من الفخر من العمل الذى أقدمت عليه ٠٠ !! وسألنى أيضا الطوير باشا عن ترددى على مكتب الأستاذ عبد المقصود

متولى .. فقلت ان الأستاذ عبد المقصود متولى هو أحد أعضاء الهيئة الادارية للحزب الوطنى الذى يشرفنى الانتماء اليه .

وقد أوصى بى عنده خيرا شقيقه الدكتور عبد الغفار متولى الذى تبنانى منذ طفولتى ، ووجهنى الوجهة الوطنية التى اتجهت اليها . وأنا أتردد على مكتب الأستاذ عبد المقصود متولى لأتلقى على يديه دروسا فى الوطنية ولأنه يعطينى كتبا فى التاريخ الوطنى لمصر لا تتوافر الا عنده ، بل انه يوجد عنده من الكتب التاريخية ما لا يوجد فى دار الكتب .

ومنذ اللحظة الأولى من بداية استجواب الطوير باشا لى ، بدا لى أنه متعاطف معى ، وأنه يحاول جهد استطاعته أن يساعدنى . وقد أحس الكاتب ذلك منه فكان لا يكتب الا ما يمليه عليه الطوير باشا وفى بعض الأحيان كان الطوير باشا يصوغ كلامى بعبارات تختلف الى حد كبير عما كنت قد تفوهت به وذلك لكى يبعد أية شبهة يمكن أن توجه بالنسبة لى .

وكنت أتحاشى النظر الى وجه العيسوى كما كان هو يتحاشى النظر الى .

وحتى هذه اللحظات كان العيسوى مصرا على أنه قام بعمل وطنى كبير .

وأنه أنقذ شعب مصر من حرب هجومية كان الشعب سيدفع فيها الكثير والكثير .

بل لقد كان — فى أثناء تواجده بمكتب النائب العام — يبدو فخورا بما أقدم عليه ، لم يندم أبدا على ما فعله حتى ولو دفع حياته ثمنا للجريمة التى ارتكبها .

وأذكر من بين ما أذكر — وأنا هنا أعتمد على الذاكرة لا على محضر التحقيق — أن الطوير باشا قد سألنى ضمن ما سألنى عنه عن قيامى بالاحتفال باحياء ذكرى أمين الرافعى فى جمعية المساعى المشكورة واعتقالى لليلة واحدة فى أعقاب ذلك الاحتفال .

كما أطلعنى على خطاب كان قد بعث به الى أستاذى عبد الرحمن الرافعى يعتذر عن عدم الحضور لعذر طارىء ويعتبرنى — رغم أننى كنت وقتذاك فى مدارج الصبا — نائبا عنه وكان الخطاب ضمن المضبوطات التى عثر عليها فى غرفتى يوم القبض على .

وقد اعترفت بتنظيمى الاحتفال وبانفاقى عليه من مصروفى الخاص .

وقد تساءلت في نهاية اجابتي عن ذلك الموضوع : وماذا في الاحتفال بذكرى رجل لم ينصفه التاريخ ، فقمت وأنا الصبي المميز بمحاولة انصافه نيابة عن غيري من الناس ٠

كما أذكر من بين الأسئلة العويصة التي وجهها الى الطوبر باشا : هل تعمل بالسياسة ؟ وقلت له على الفور : كلا ٠٠ أنا لا أعمل بالسياسة وانما أعمل بالوطنية ، السياسة عندنا أصبحت الجرى وراء الحكم بأى ثمن ، أما نحن فلا نجرى وراء الحكم ، وانما نحتقره ونزدريه ٠

ومنعني الرجل من أن أسترسل في الكلام حتى لا أقع في خطأ جسيم ٠

وهكذا كان دور الرجل العظيم معي ٠٠٠

ولكن ٠٠ لماذا كان موقف النائب العام عبد الرحمن الطوبر باشا متعاطفا معي الى الحد الذى كان يساعدنى فيه على الاجابة السليمة ، ولا يملي على الكاتب من الكلام الا ما فيه مصلحتي ، حتى الكلام الذى يحتمل الشك كان يحوله الى ما فيه مصلحتى ؟ سؤال طرحته على نفسى والرجل ينشغل عنا بمكالمة طويلة ، قلت : ربما كان سبب التعاطف أننى الوحيد من بين عشرات المتهمين الذى لم يتحدث أحد معه في الافراج عنه ٠٠ !! وربما لأننى الوحيد الذى لم يقدم أحد من المحامين معارضة في أمر حبسه ؟ وربما لأنه لم يقتنع بكل التحريات التى قدمها البوليس السياسي ضدى ؟

ربما يكون بذكاء القاضي وضميره الحي الوثاب ، قد أيقن أننى بعيد عن مسرح الجريمة وأن تحامل البوليس السياسى على مرده البحث عن كبش فداء ، وقد وجدوا في هذا الكبش ؟

وربما كان — وهذا مهم للغاية — سبب ذلك التعاطف والعطف ، دعاء الوالدين ، فما أكثر ما كانت أمي تدعو لى « بأ نيكفينى الله شر حاكم ظالم » ٠

وما أكثر ما كان أبي يقول لى : ربنا يقف معاك في اليوم الصعب ٠

ولم يكن هناك حتى هذا اليوم ، يوم أصعب من هذا اليوم الذى أقف فيه على مفترق الطرق ، فاما الاعدام أو الأشغال الشاقة المؤبدة ، واما البراءة ٠

على أننى — وهذا مهم للغاية أيضا — لم أندم على انكارى معرفتي بالمتهم وانكارى التردد على مكتب عبد المقصود متولى مع العيسوى وخاصة الليلة — ليلة الجمعة — السابقة على حدوث الاغتيال ٠٠ لم أندم على ذلك الانكار ٠٠ لأن العيسوى نفسه هو الذى بدأ بانكاره معرفتى ٠

وربما لو كنت قد كذبته فى قوله بعدم وجود معرفة سابقة بينى وبينه أعطى دليلا للنيابة على صحة أقواله فى أشياء أخرى فأسيىء — من حيث لا أدرى — الى موقفه ·

ولو أنه كان قد اعترف بوجود معرفة بينى وبينه لما أنكرت أبدا تلك المعرفة ·

ولو أنه كان استدعانى كشاهد نفى لما تأخرت أبدا عن الادلاء بشهادتى ·

ثم اننى رأيت ان اعترافى أو عدم اعترافى بوجود صلة لى به لا تقدم ولا تؤخر بالنسبة له ، وان كانت تقدم بالنسبة لى كثيرا اذا تضعنى فى دائرة الجريمة ·

وما دام المتهم قد اعترف بالجريمة وبأنه وحده دون سواه الذى قام بها ، فلن يفيده انكارى أو عدم انكارى معرفته · ولا يخامرنى شك — أقول هذا شهادة أمام الله وأمام التاريخ — أن العيسوى عندما أقدم على ما أقدم عليه كان الباعث وطنيا مائة بالمائة ، وأنه — العيسوى — عندما أقدم على ما أقدم عليه كان يعرف أنه يضحى بحياته فى سبيل الهدف الذى ابتغاه وهو عدم دخول مصر حربا هجومية تعرض شعب مصر وأراضى مصر ومدن مصر وقراها للدمار ·

وقد يكون العيسوى قد أخطأ عندما لم يدرس الموقف جيدا ، بل انه بالفعل أخطأ خطأ فاحشا عندما لم يدرس الموقف السياسى المصرى والدولى وخاصة الموقف العسكرى لمصر وللحلفاء ولدول المحور دراسة واعية متأنية ·

وربما لو كان قد قام بتلك الدراسة لعرف أن الحلفاء منتصرون حتما ·

وأن دول المحور فى طريقها الى الانحدار حتما أيضا ·

وقد كنا نحن الذين نعرف محمود العيسوى جيدا نعرف اندفاعه وما أكثر ما حذره بعض أصدقائه المقربين من خطورة ذلك الاندفاع ·

أنهى عبد الرحمن الطوير باشا مكالمته الطويلة وقال لى مقومة أب حنون : لا ترى النيابة فى موقفك ما يسيىء اليك ، ولذلك قررنا الافراج عنك بدون كفالة ما لم تكن معتقلا على ذمة أية قضية أخرى · ولم ينس الرجل بعد أن أقفل المحضر أن ينصحنى بالمذاكرة حتى لا تضيع منى سنة دراسية ·

وقلت للطوير باشا : لقد أفرجت عنى جزاك الله خيرا ٠

ولكننى ألحظ ان امام بك ، والجزار ، وتوفيق السعيد واقفون أمام مكتبك ـ وكنت أراهم فى كل مرة يفتح فيها باب مكتب النائب العــام لأمر من الأمور ـ ولا أشك لحظة واحدة فى أنهم يبيتون لى أمرا » ٠

وابتسم الطوير باشا فى مرارة قائلا : أنت تدرس القانون وتعرف ان البلد محكومة بقانون الطوارىء وأن هناك حاكما عسكريا عاما يستطيع اعتقال من يريد اعتقاله ولا سلطان لى عليه ٠ سلطتي هنا فى هذا الأيام لا تتجاوز مكتبى ٠

أنهم لا يستطيعون اعتقالك داخل مكتبى ٠

وان كانوا يستطيعون اعتقالك فور خروجك منه » ٠

وكانت صدمة عنيفة لى أنستنى لذة الافراج عنى بقرار من النائب العام وخرجت من مكتب النائب العام لأجدهم يتلقفوننى كما تلقفونى فى الصباح الباكر ، وان كنت قد رفضت القيد الحديدى وأصررت على عدم وضعه فى يدى ٠

ورفعت صوتى حتى يسمعه النائب العام ٠

وأشار امام بك الى رئيس القوة اشارة معناها : بلاش القيد الحديدى « الكلابشات » ٠

وأعادونى الى نفس الحبس الذى خرجت منه فى الصباح ٠

ولكننى كنت انســـانا جديدا غير ذلك الانسان الذى خرج هــذا الصباح من هذا الحبس ٠

فى الصباح كنت سجينا بأمر النيابة العامة بتهمة الاشتراك فى مقتل أحمد ماهر باشا رئيس الوزراء والآن أنا سجين بأمر الحاكم العسكرى العام لخطورتى على الأمن العام ٠

فى الصباح كان حبل المشنقة قريبا من عنقى ، والآن ابتعد تماما ذلك الحبل ، وأقصى ما يفعله الحاكم العسكرى أن يبقينى فى الاعتقال طالما بقيت الأحكام العرفية معلنة ٠

فى الصباح كانت النيابة العامة هى المسئولة عنى المتحكمة فى أمرى هى وحدها التى تملك البت فى أية زيارات يطلبها بعض أهلى ، وهى وحدها التى تحرسنى ولو بقوات من البوليس ٠٠ اننى فى حمايتها ٠

أما اليوم ... فكل ما يتعلق بى ، بأمنى ، بسلامتى ، بحمايتى ، بأكلى وشربى ، بزيارات الغير لى ، من اختصاص الحاكم العسكرى العام. دولة محمود فهمى النقراشى باشا .

وقد استغربت أن يتم الافراج عنى بقرار من النائب العام ، وان يتم اعتقالى فورا بقرار من الحاكم العسكرى العام ؟ متى وقع الحاكم العسكرى العام هذا القرار ؟ أغلب الظن ـ هكذا قدرت ـ أنهم فى البوليس السياسى يوقعون العديد من مثل هذه القرارات مسبقا وعلى بياض ، ثم يضعون الأسماء التى يريدونها على تلك القرارات فيما بعد ، اذ لا يعقل أن يفرج النائب العام عنى فى الساعة الثانية بعد الظهر وأن يصدر الحاكم العسكرى العـــام قرارا باعتقالى فى الساعة الثانية بعد الظهر فى نفس اليوم ، فى نفس الوقت .

ووصـــلت اشارة تليفونيـــة الى مأمور القسم تنبىء أن خطابا سريا مستعجلا جدا من المحافظة الى القسم ومطلوب ارسال كونستابل لاحضاره بسرعة .

واختلفت الروايات فى أمر ذلك الخطاب : الراسخون فى العلم يقولون أنه اعتقال جديد ، والمتفائلون بطبيعتهم يقولون : بل افراج عن متهم قديـم .

وعاد الكونستابل من المحافظة بعد أن أقسم بأغلظ الايمان أنه دفع بقشيشات كثيرة وأنه من فرط سروره كان يسرع بالموتسيكل حتى كاد يصاب فى أكثر من حادثة ويصيب أيضـــا آخرين فى أكثر من حادثة . وكان الخطاب السرى العاجل يحمل اعتقالا جديدا لمتهم قديم هو أنا .

وكان من أول مظاهر تغيير صفة الاعتقال أنهم كانوا قد استولوا على ما معى من نقود لحظة اعتقالى وقاموا « بتحريزها » ، اذ كان مبلغا من المال لا يتناسب أبدا وميزانية طالب جامعى من أسرة فقـــيرة ، ابن فلاحـــين مصريين .

كان المبلغ مائة وخمسين جنيها مصريا .

وقـــد سئلت أكثر من مرة فى البوليس وفى وزارة الداخلية ومن النائب العام عن هذا المبلغ الضخم الذى أحمله ، وكان الشك قد جرى فى نفوس كثير من المسئولين حول هذا المبلغ ، وتصوروا أنه ثمن المشاركة فى الجريمة ، أو أن له دخلا بالعصابة التى ارتكبت الجريمة .

وكنت أقول لهم باستمرار : المبلغ نتيجة بيع قطعة من الأرض مملوكة لأمي تقع في الحوض الفلاني بزمام البلدة الفلانية ، المساحة كذا ، والثمن كذا ، والبائع كذا ، والعقد مكتوب بتاريخ كذا ٠

ولكن الشك دائما هنا ـ باستمرار ـ يفسر لصالح البوليس والنيابة العامة وليس ـ كما هو الحال في كل مكان من الدنيا ـ لصالح المتهم ، فقد كان واجبا عليهم ان يصـــدقوني أولا ، ثم يقوموا بالتحريات اللازمة ليتأكدوا من أن ما أقوله صدق أم كذب ٠

المهم : لقد عاد المبلغ الى : صحيح أنني لم أتسلمه اذ لا يزال ضمن الأمانات في القسم ، ولكن أبيح لي أن أستلم منه ما أريد ، وقد عرف بعض الضباط والشاويشية ذلك ، فكنت استدعى بين يوم وآخر الى مقابلة الضابط النوبتجي أو الشاويش النوبتجي حيث أقابل باحترام زائد ، سعادتك ، وأي خدمة ، واحنا محاسبيك ، و ٠٠ و ٠٠٠

وفي النهاية يقول لك الضابط النوبتجي : حصل النهاردة فصل بايخ وأنا باستلم العهدة ، تسلمت الظرف الي فيه فلوسك ولم أعد المبلغ لأنني أئتمن زميلي ولكنني بعد أن قمت بعده الآن اكتشفت أنه ناقص خمسة جنيهات ، وأسأل عما هو مطلوب مني فيقال لي : بس تكتب على الظرف انك تسلمت خمسة جنيهات بتاريخ اليوم وتحط توقيعك الكريم ٠

وأكتب وأوقع ٠

وهل أستطيع الا أن أكتب والا أن أوقع ٠

وعرفت الحكاية دي في القسم فتكررت أكثر من مرة ٠

وفي احدى المرات وصل المبلغ المفقود الى عشرين جنيها وطلبت أن يوضع المبلغ في خزينة البك المأمور بعد أن كاد ينفد ٠

واستجاب المأمور بعد أن عرف الحكاية وأنني لم أستلم مليما واحدا من المبلغ الذي كان وقت القبض على ١٥٠ جنيها فأصيب بهزال شديد حيث وصل الى ٨٥ جنيها مصريا لا غير ٠

مظهر آخر من مظاهر تغيير الصفة ـ صفة الاعتقال ـ أنهم سمحوا لي بقلم وورق أبيض لكي أكتب ما أريد كتابته بشرط ان يسلم الورق بالعدد ومختوما بخاتم القسم ، والا أتصرف فيه بعد الكتابة الا بعد عرضه على المأمور شخصيا ٠

المظهر الثالث والأخير من مظاهر تغيير صفة الاعتقال أنهم سمحوا الطباخ الأخ الصديق أحمد رفاعي أن يحضر لي الطعام ثلاث مرات في اليوم ،

مرة فى العاشرة صباحا وأخرى فى الواحدة بعد الظهر وثالثة وأخيرة فى الساعة الرابعة والنصف بعد آن آخذوا على الطباخ تعهـــدا كتابيا بأنه مسئول عن سلامة الأكل ، وخلوه من الرسائل ، وأنه اذا ما ضبط أحد شيئا من الممنوعات ضمن عمود الأكل فانه يعاقب بالحبس .

وكان موقف أحمد الرفاعي مني موقفا رائعا لا ينسى . لقد قام الرجل العظيم بهذا الذى قام به طيلة فترة اعتقالى ، بل انه عندما كان يسافر فى العيد الى بلدته « طناح دقهلية » كان يوكل هذه المهمة الى الطباخ ، ويغدق عليه النقود والهـدايا حتى لا ينقطع مرة واحدة عن المجيىء الى القسم بالطعـام .

كان هذا موقف صديق زميل ، تزاملنا معا فى البكالوريا وفى كلية الحقوق ، وهو موقف لم يقم به أى أخ شقيق .. !!

ورغم الافراج عنى بأمر النائب العام فى قضية اغتيال أحمد ماهر باشا الا ان الخوف من الاعتقال من جديد كان يلازمنى باستمرار ، فما أكثر من أفرج عنهم ثم أعيد اعتقالهم بأمر النيابة من جديد بدعوى ظهور معلومات وبيانات وتحريات جديدة يمكن ان تدينهم .

وكنت أنا على ثقة مطلقة من أن البوليس السياسى ــ ولديه الشك فى أمرى ــ لن يتوانى أبدا عن الحاق تهم جديدة بى .

ولو أن الشكوك لم تكن تساوره بشأنى لما اعتقلنى على ذمة الحاكم العسكرى العام .

وقد كنت أتتبع التحقيق بشوق ولهفة وأتنسم أخباره من قريب ومن بعيد .

وقد كان بعض الضباط من ذوى المشاعر الوطنية الطيبة أثنـــاء سهرهم فى القســم يطلبوننى بعد منتصف الليل بعيدا عن الأعين لكى نتسامر ، ولكى أعرف منهم بعض أخبار التحقيق وفى بعض الأحيان كانوا يدعوننى لقراءة بعض الصحف الجديدة ، أى التى يكون ــ مثلا ــ مضى على صدورها يومان أو ثلاثة .

وفى حالة واحدة ، وفى وردية أحد ضـباط البوليس ذوى الميول الوطنية الوطنية الثورية كان بعض الزملاء يجيئون قرابة الفجر لزيارة هذا الضابط ولرؤيتى لدقائق معدودة .

وبلا جدال ، كانت تلك اللحظات التى أخرج فيها من الجب الى مكتب الضابط النوبتجى من أسعد اللحظات بالنسبة لى .

وكم كنت أود لو طالت ، لقد كانت تنقذنى ـ ولو مؤقتا ـ من الجب الخطير اياه ··

وعلى فكرة ·· عندما كنت أكتب فى هذا الجب ، لم أكن أرى الورق والقلم ، وانما كنت أكتب « عميانى » ·· !! ولذلك فان الكتابة فى معظم الأحيان ـ لعدم وجود الضوء ـ لم تكن تقرأ ، وكنت أعالج هذا النقص بأن أكتب فى الورقة الواحدة سطرين أو ثلاثة حتى يسهل قراءة ما أكتب ·

وقد كنت أكتب خواطرى الشخصية بكل صراحة ووضوح وذلك بتفكير مثالى للغاية ، حتى ان مأمور القسم كان يقول لى وهو يرثى لحالى : مسكين ، ستعيش معذبا ، وستموت معذبا ومعذبا (بفتح الذال وكسرها) انت يابنى تعيش فى ملكوت خاص ، بنيته انت وحدك ، تعيش فيه وحدك ، لا أحد يمكن أن يطرق عليك باب هذا الملكوت أبدا ·

وكان يقول لى باستمرار : انت خيالى ، تصلح أن تكون روائيا عظيما ، لكنه يستدرك قائلا : وأخشى عندما تكتب أية رواية أن يقول الناس مغرق فى الخيال ·

على أننى بعد أن تأكدت أن بقائى فى السجن سيطول ، وأنه لم يعد مرتبطا بقضية اغتيال أحمد ماهر باشا وانما هو مرتبط بتقديرات البوليس السياسى ، رحت أحاول التعود على حياة السجن : لم أعد أضيق بها ذرعا . بل لقد وصل بى الأمر ، أننى أقنعت نفسى بأن بقائى فى السجن أهون كثيرا من خروجى منه ، فأنا هنا فى السجن أشبه بمن رفعت عنه الواجبات الوطنية ، انه ليس مطالبا بأن يعمل شيئا غير السجن ·

والناس الذين فرض على التعامل واياهم فى السجن قد فهمتهم وفهمونى وتقبلتهم على علاتهم ، وتقبلونى ، وأصبحنا أشبه ما نكون بأسرة واحدة ·

وكان البرد الذى كان يؤذينى الى حد كبير داخل السجن ، قد تقلصت أخطاره الى حد ما ولم أعد بحاجة الى « تكويم » كل ملابسى والبطانية الوحيدة التى أملكها لأقف أو أجلس عليها حتى لا يدخل رصاص البرد الى أعماقى وكنت قد اقنعت نفسى أيضا بأن من حق عينى أن تستريحا من عناء القراءة بعد كل ما بذلتا من جهود وبعد ما أصابها الكلال من كثرة الكتابة ، أن تبتعدا عن القراءة والكتابة بعض الوقت ولم أعد أقارن حياتى فى السجن بحياة أحمد ، أو محمد ، أو عمر ، خارج السجن ، حتى لا تكون المقارنة مجحفة بى ·

وانما رحت أقارن حياتي في السجن بحياة محمود العيسوى ذاته على الأقل ، بالنسبة لى لا يزال لدى أمل فى الخروج واستئناف الحيـاة العادية ، أما هو فقد انقطع لديه الأمل وأصبح كمريض ميئوس من شفائه أجمع الأطباء على أنه لم يبق له فى الحياة الا أياما معدودة يقضيها بأية طريقة كانت ٠

وكنت أعرف جيدا دقة مشاعر العيسوى ، وأعرف أن ما يلقاه فى سجنه من تعذيب وارهاب بغية دفعه الى الاعتراف يهون عليه .. ولكن الذى لا يهون عليه حقا وصدقا ، هى الآلام التى كان هو سببا في الحاقها بالآخرين خاصة أمه . ووالده . واخوته ، وأقاربه ٠ وكان يقول : ان الآلام التى لحقت بزملائه وأصدقائه بسبب ما ارتكبه هى آلام طبيعية ، عادية ، يجب أن يتحملها راضين أولئك الزملاء والأصدقاء فتلك طبيعة حياتهم السياسية وهذا ما يجب أن يعدوا أنفسهم له ، باعتبارهم عاملين فى الحقل الوطنى ، مطالبين بالتضحية فى كل وقت وحين ٠ وما أكثر ما وقعت بنا كوارث بسبب أشخاص لا نعرفهم ، وبسبب أحداث وقعت لا علاقة لنا بها : ألم يكونوا يعتقلوننا عند وقوع أى حادث سياسى قامت به مجموعتنا أو لم تقم به ؟ ٠٠ ألم يكونوا فور القبض على أية مجموعة سياسية ، لأى سبب من الأسباب كانوا يقبضون علينا أيضا وهم يعلمون جيدا أنه لا علاقة لنا بهذه المجموعة على الاطلاق ؟

كنت قد حفظت جيدا مثلا كانوا يرددونه فى قريتنا « اللى يشوف بلاوى الناس يهون عليه بلوته » وكنت ولم أبلغ الخامسة عشر من عمرى قد قرأت قصة مترجمة لكاتب أجنبى لا أذكر اسمه جيدا وهى قصة : جبل الشقاء وتبادل المصائب ومضمونها : أنه طلب من كل مواطن أن يذهب الى جبل بعيد اسمه : جبل الشقاء ويرمى عنده بآلامه وأحزانه ، وبعد أن قام الجميع برمى آلامهم ومتاعبهم عند ذلك الجبل ، عادوا الى أرضهم ودورهم ٠ ثم طلب منهم مرة أخرى أن يذهبوا الى الجبل ليحمل كل واحد قدرا من المتاعب التى تركت هناك ٠٠٠ وعاد الجميع وليس فيهم واحـد رضى بنصيبه الجديد وطلبوا الى الالـه ان تعود اليهم مصائبهم وآلامهم القديمة لأنهم تعودوا عليها ، ولأنهم قد أصبحوا بها راضين ٠

والقصة رمزية بطبيعة الحال وتهـــدف الى الرضـــاء بما هو مقدر ومكتوب ٠

وفى اعتقادى أنه ما من آلام أو متاعب يستحيل تحملها ، المهم هو ان يكون لديك استعداد لعملية التحمل تلك وأن تكون فى الوقت ذاته

مقتنعا بأن عدم رضائك على ما بك من متاعب وآلام لا يقضى عليها بل لا يخففها ، وربما كان الرضا سبيلا الى القضاء عليها أو التخفيف منها ٠

وأنقل هنا بعض فقرات مما سجلته في سجنى فى تلك الأوراق اياها التى لم تكن لتقرأ الا بصعوبة لأننى ـ كما سبق ان قلت ـ كتبتها في ظلام دامس ٠ كتبت تحت عنوان ١٠ مارس ١٩٤٥ : لست أدرى لماذا لم أعد أفكر فى خارج السجن بعد ان انقطعت أخباره عنى تماما أو كادت ، وبعد ان ابتعدت « آمال » عن القاهرة الى حيث يقيم أهلها ، مجبرة ، وحرصا على مصلحتها كما أكد لها أهلوها ؟ربما لأننى كفرت بذلك الخارج تماما ، وخاصة بعد ان تبين لى ان الكثيرين ممن أعرفهم قد تحولوا الى أناس من القش بل ان القش له فائدة ، وهؤلاء ليست لهم أية فائدة ٠٠ على الأقل بالنسبة لى ؟ ربما لأننى أيقنت ان ما بالخارج من مباذل ، ومهازل ، ومخاز ، أكثر بكثير مما بالداخل ؟ على أية حال ٠٠ فرغم ما أقاسيه من تعذيب ، وارهاب ، واذلال ، فأنا راض به اليوم ، رضاء المؤمن لا رضا المقتنع ٠٠ !

فكرت اليوم فى ان أبعث برسالة شخصية الى محمود فهمى النقراشى باشا رئيس الوزراء ووزير الداخلية باعتباره فدائيا قديما لقى الأمرين ، مثلما نلقى نحن اليوم ٠

اننى لا أعترض أبدا على ان يأخذ التحقيق مجراه ، وأن يعتقل من ترى جهات التحقيق اعتقاله ، فالجريمة نكراء ، والضحية شخصية مرموقة أدت واجبها تجاه بلدها وشعبها كأروع وأفضل ما يكون الأداء ٠

وأنا لا أعترض أبدا على أن يتضاعف عدد المعتقلين فيصل الى المئات أو الى الألوف ما دام فى ذلك مصلحة للعدالة ٠

وأنا أيضا لا أعترض على وضع المعتقلين منفردين فى زنازين بعيدا عن بعضهم ، وحتى لا أعترض على فرض أشد الحراسة عليهم ، ومنع الاتصال بهم ما دام كل ذلك أيضا لمصلحة العدالة ٠٠ ولكنى لا أرى موجبا أبدا للابقاء على من أفرجت عنهم النيابة داخل السجون ، ويمكن للحكومة لو أرادت ان تبقى عليهم معتقلين ان تنقلهم الى معتقلات تحترم فيها آدميتهم ما دامت الجريمة قد ابتعدت عنهم ، وما دامت النيابة قد أبعدتهم عن مسرح الجريمة ٠

وودت ـ مثلا ـ ان أقول لرئيس الحكومة ـ الفدائى القديم ـ ماذا فعلت أنا لكى أبقى فى هذه « الزنزانة » القاتلة دون ذنب اقترفته أو

جريمة ارتكبتها ، فلا أتابع دروسى ، ولا أتمتع بحريتى ، بل أكثر من ذلك كله أوضع فى مكان واحد مع أعتى عتاة المجرمين الذين اعتادوا الاجرام .

وودت ــ مثلا ــ أن أقول لرئيس الوزراء ــ الفدائى القديم ــ : أكان ممكنا أن أبقى حيث أنا لو كنت قريبا لوزير ، أو قريبا لنائب أو لشيخ من نواب وشيوخ العهد الممتازين أو المقربين الى الحكم ؟ هل جريمتى مثلا أننى رفضت أن أوسط أحدا فى أمرى وتركت الأمور تجرى بالنسبة لى كما تجرى بالنسبة لبقية المتهمين الذين لا حول لهم ولا طول ، بل لا علاقة لهم بمن لهم حول أو طول .

اننى ــ مثلا ــ لم أجرم مرة واحدة فى حق أحد ، ولم أغتصب يوما حقا لأحد ، بل اننى ــ وهذا سجلى ــ لم أنحرف لحظة واحدة عن الخط الوطنى الذى اتخذه متصوفو الحزب الوطنى .

أحببت شعبى وبلدى حبا يفوق كل حب ، أخلصت لهما الى أبعد حدود الاخلاص حتى لم أعد أرى فى حياتى الا هما ، والا مصالحهما ، ولم أعد أعمل الا للمشاركة فى تحريرهما واستقلالهما .

غيرى من الطلاب الحزبيين قد يعتقلون أو يسجنون فى بعض المظاهرات فتنفق أحزابهم عليهم فى سجنهم أو فى اعتقالهم ، تدفع عنهم الغرامات أو الكفالات التى يقضى عليهم بهم وبعد عام ، أو عامين ، أو ثلاثة أعوام على الأكثر ــ هكذا تقول دورة الحكم فى مصر ــ تعود الأحزاب التى ينتمى اليها هؤلاء الطلاب الى الحكم فينعمون بالحكم ، ويستعوضون أضعاف أضعاف ما فقدوه ...

أما نحن فاننا نعتقل فى كل العهود ، ولا أمل فى أن يلى حزبنا الحكم فى يوم ما .

نضحى بكل ما نملك بما فى ذلك التضحية بحريتنا ، ولكن لا تعويض أبدا عن تلك التضحيات .. وحتى لو جاءت تلك التعويضات فسوف نرفضها ... !!

اننا لم نعاد الهيئة السعدية ولا الكتلة الوفدية ولا الأحرار الدستوريين ، بل اننا لم نعاد ولن نعادى الوفد المصرى .. لنا عدو واحد لا ثانى له ، عدو رئيسى لا سبيل الى مهادنته .

وجوده ــ أى الاحتلال ــ على أراضينا هو الذى يقلب حياتنا الى جحيم .

ثم انه لا هدف لنا فى هذه الحياة — ونحن لا نزال فى بدايتها — الا محاربة ذلك الاحتلال بكل وسيلة من الوسائل .

أما الحكم الذى تتقاتلون من أجل الوصول اليه فنحن راغبون عنه ، لا نسعى اليه ، حتى ولو سعى الينا فلن نقبله . المصـــالح الشخصية والحزبية التى تسير الكثيرين من الساسة المصريين ، بكل أسف — ليس لها وجود عندنا ، بل لا أمل لنا فيها ، لا فى الحاضر ولا فى المستقبل ، فلماذا اذن يجرى اعتقالنا بل سجننا على تلك الصورة المزرية بالكرامة الانسانية .

فكرت — مثلا — فى أن أطلب الى محمود فهمى النقراشى باشا رئيس الوزراء ووزير الداخلية و الفدائى القديم أن يزور الجبسخانة فى روض الفرج ليرى كيف يعامل ابن من أبناء مصر ، أحد عشاقها ، المدمنين لهذا العشق .

وفكرت فى أن أبعث برسالتى تلك الى الصحف ، لعل واحدة منها ، تجرؤ على نشر بعض ما فيها . ولكننى تذكرت أخيرا أن من حول النقراشى باشا رئيس الوزراء ووزير الداخلية والفدائى القديم لن يسمحوا بوصول تلك الرسالة اليه ، وذلك داء وبيل من داءات الحكم عندنا . ثم تذكرت أخيرا — أيضا — أن الرقابة مفروضة على الصحف ولذلك فان واحدة من صحفنا العديدة لن يســـمح لها بنشر تلك الرسالة . وكان العدول عن ارسال الرسالة الى رئيس الوزراء ووزير الداخلية والفدائى القديم والى الصحف المصرية .

وفكرت — أيضا — اليوم ١٠ مارس ١٩٤٥ — فى أولئك الذين تعودوا أن يلعبوا على كل الأحبال ويأكلوا على كل الموائد ، وأن يلبسوا — كما يقولون — لكل حالة لبوسها .

أولئك الذين لا يسكتون عن أخطاء الغير وحسب وانمـا يحيلون الأخطاء الى انجازات ، رغبة فى تملق هذا الغير .

أولئك الذين برعوا فى المداجاة ، والكذب والنفاق والرياء ، وأصبحوا معتادين عليها يقومون بها وكأنهم يأكلون ويشربون ، ويتنفسون .

أولئك الذين ينطبق عليهم المثل البلدى المعروف « فى الوش مراية وفى القفا سلاية »

أولئك الذين ينهشون لحوم الناس ، فان قابلوهم راحوا يستقبلونهم بالأحضان والقبلات ••• أولئك الذين يستقبلونك فيطرون مواهبك ، ويملأون أذنيك بأحلى الكلام ، فان ابتعدوا عنك لدقيقة واحدة ، أصبحت المواهب التى كانوا يشيدون بها نقائص ، وغدوت فى نظرهم أمام الآخرين عاطلا من كل خصلة طيبة ، بل معدوم الكفاءة والضمير •

هؤلاء ماذا يدفعهم الى ذلك •• منفعة شخصية ؟ ، ان منافع الدنيا كلها لا قيمة لها أمام احتقار الآخرين لأولئك وأولئك •

أم انها العادة •• كثيرون من ذوى النفوس الرخيصة تعودوا ــ حتى ولو بدون هدف ــ أن ينافقوا ، ويقولوا كذبا ، لأن النفاق والكذب ــ مثلا ــ أصبحنا جزءا لا يتجزأ من كيانهم •

ولماذا يسكت الناس عن أولئك وأولئك ، لماذا لا يواجهونهم بأخطائهم ؟

لماذا لا ينظفون ألسنتهم •

ربما لأن الناس تعودت أيضا أن تجد لذة فى أن ينافقهم الغير ؟ ربما لأن الناس يحبون سماع كلمات الثناء والاطراء حتى ولو كانوا يعرفون جيدا أنها كلمات كاذبة صادرة عن كذابين •

وتحت عنوان : ١٢ مارس ١٩٤٥ (وبالحرف الواحد أيضا) •

استرددت اليوم صحتى الى حد ما ، وكانت صحتى قد تدهورت فى الأيام الماضية الى حد كبير حتى لقد خاف زملائى فى « الحبسخانة » ان تكون نهايتى قد اقتربت • لقد كنت أضربت عن الطعام ••• لا لتحقيق أى مطلب من المطالب التى يطالب بها عادة السجناء ، ولكننى أضربت « قرفا » مما حولى وما آلت اليه الأمور فى بلدى : لم يعد هناك من خبر واحد يسر ، أو يمكن أن يبعث على السرور ولو بعد بضعة شهور ، أو حتى بضعة أعوام •

وحاول زملائى اثنائى عن الاضراب ، فلم أستجب لمحاولاتهم كنت أشبه بالمريض الذى يمتنع عن تعاطى الدواء •

وبعد أن أطلت التفكير فى الموضوع وجدت أن الاضراب لن يجدى ما دامت أجساد المسئولين الكبار قد « نحست » من النحاس ، لا من النحس • وما دام القوم فى الخارج لا يحسون بأحد •

كلهم ــ كما هو الحال فى يوم الحشر ــ « لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » •

حب الذات قد أعمى الجميع فلم يروا شيئا مما يقاسى منه الكثيرون ، انغلاقهم على أنفسهم جعلهم لا يفكرون الا فى أنفسهم ، وكأنما الدنيا قد انحصرت فيهم وفيهم وحدهم ·

ابتدأت الحياة فعلا تدب الى جسدى بعد أن كاد الموت يدب فيه · شعرت لأول مرة ومنذ أيام بأننى بين الأحياء بعد ان بعثنى الله من جديد ، ورغم عودة الحياة والبعث والنشور الا أن السعادة لم تقترب منى لحظة واحدة ، بل ان الشعور بالرضا ، بل حتى الشعور بالحياة لم يساورنى لثانية واحدة الى ان وصل مجموعة من الشباب مقبوضا عليهم لمشاركتهم فى احدى المظاهرات التى قامت فى الخارج تعبيرا عن الضيق الذى نزل بهم من موقف الحكومة المصرية وموقف الحكومة البريطانية من الاتفاق على موعد لبدء مفاوضات الجلاء ·· كان أحد هؤلاء الشباب صاحب صوت جميل ، بدأ يغنى بعض الأناشيد القومية وبدأ زملاؤه معه يغنون وكأنهم « كورس » ·

وارتفعت أصوات الشباب حتى جذبت انتباه الكثيرين فى الخارج ولم نجد الشاويش مصطفى ينادى عليهم كما كان ينادينا عندما يسمع أى صوت ينبعث من الحبسخانة : اخرس يا واد انت وهوه ؟ اللى حيرفع صوته حانحطه فى زنزانة لوحده ·

بل لقد تجرأ الشاويش مصطفى ففتح الباب ــ باب الحبسخانة ليستمع الى الشباب ويستمتع بمنظرهم ·

ووقف أمام الباب جمع غفير من الجنود وضيوف السجن ، ودمعت عيناى فرحا وغبطة لأول مرة منذ دخلت هذه الملعونة « الحبسخانة » فلأول مرة أجد السجانين والمسجونين كأنهم أسرة واحدة ، يجمعهم صوت الوطن ونداء الواجب ·

لم يعد هناك فارق بين سجين وسجان ·· الجميع أبناء وطن واحد ، وذلك يؤكد أن معدن شعبنا نفيس للغاية ·

وأتساءل ·· لماذا لا نكون كذلك باستمرار ؟

لماذا ننتظر مثل هذا الصوت المدوى ·

ولماذا لا يبدى هؤلاء الجنود مشاعرهم الوطنية كما نبديها نحن الشباب ؟

ألأنهم موظفون يحال بينهم وبين اظهار تلك المشاعر ؟ أنا لا أنادى بأن ينخرط مثل هؤلاء الجنود فى تلك الأحزاب · انما أنادى بأن يعطوا

الحق ، بل أن يحرصوا هم على أن يكون لهم الحق فى اظهار مشـاعرهم الوطنية فى المناسـبات القومية ، انهم ملك الأمة وهم جزء منهـا لهم ما لغيرهم من حقوق ، وعليهم ما على غيرهم أيضا من واجبات ٠

وكذلك الأمر بالنسبة لكل الموظفين ٠٠ لماذا نحرم عليهم العمـل بالسياسة ؟ لماذا يحاسب الواحد منهم ـ اداريا ـ اذا ما ضبط وهو يقرأ صحيفة معارضة ؟

ربمـا لأن الانجليز كانوا يحرمون على الموظفين المصريين العمـل بالسياسة ، واحتفظنا نحن بهذا التفكير الكريه ٠

ان كل مواطن مصرى مطالب بأن يكون له رأى فى قضايا بلاده ، يجب ان يعبر عنه عن طريق القنوات الشرعية ٠

انني أطالب بأن ينضم الموظفون الى الأحزاب اذا رغبوا فى ذلك شريطة أن يتخلوا عن الحزبية فور دخولهم مكاتبهم ، لأنهم يجب أن يكونوا للجميع ، ويجب أن يتعامل هؤلاء الموظفين من الجميع ٠٠ جميع المواطنين بالعدل والاستقامة والنزاهة وعدم التحيز لهذا المواطن أو ذاك ٠٠٠ أو للمنضمين الى هذا الحزب أو المنضمين لذلك الحزب » ٠

ولا أريد أن أطيل فى النقل عن آرائى وأفكارى من تلك الأوراق التى كتبتها فى السجن ، لأن معظم ما بها من أفكار وآراء يقترب تماما من جمهورية افلاطون ٠ كانت آرائى وأفكارى مثالية لا يمكن تطبيقها ، بل لا يمكن لأحد غيرى الاقتناع بها اذ كنت ـ وهذا فى قمة عيوبى ـ أعتبر الناس أو أحاول ان أعتبر الناس جميعا ملائكة ٠ ويجب أن تعيش فى مجتمع ملائكة ٠ ومن أجل ذلك كان خروجى من جمهورية الملائكة الى دنيا البشر قد أصابنى بذهول ٠٠ ذهول من يسقط من السـماء الى الأرض ٠٠ !!

١٥ مارس ١٩٤٥ (وبالحرف الواحد أيضا) ٠٠

هذا يوم العيد ،عيد الاستقلال ، اليوم الذى صـدر فيـه دستور ١٩٢٣ ٠

اليوم الذى تطلق فيه الحكومة عددا هائلا من المدافع ، لا أعرف عددها بالضبط ٠

اليوم الذى تقيم فيه الدولة حفلة كبرى فى قصر الزعفران يدعى اليها كبار رجال الدولة ، والسفراء والوزراء المفوضون فى مصر ، وكل ذى شخصية فى هذا البلد ٠

اليوم الذى يلقى فيه ـ عادة ـ رئيس وزراء مصر كلمة فى الاذاعة يضمنها ـ عادة أيضا ـ الانجازات الهامة والخطيرة التى تمت فى عهده الميمون ، ولابد أن يقتصر الحديث عن الانجازات الهامة والخطيرة التى تمت فى عهده الميمون ٠٠ !! أما العهود التى سبقته فليس فيها انجازات هامة ولا خطيرة وليست بميمونة على الاطلاق ٠٠

اليوم الذى يتوجه فيه كل ذى حيثية فى مصر من المسئولين والمسئولين السابقين وحملة الألقاب من « صاحب المقام الرفيع » الى « بك » من الدرجة الثانية ، الى قصر عابدين العامر لتسجيل أسمائهم فى سجل التشريفات ، مرتدين الردنجوت أو الملابس العسكرية الرسمية والويل كل الويل لمن لم يذهب لقيد اسمه ٠٠٠ انهم فى القصر يعتبرونه خارجا على القصر ، أو على أقل تقدير يتسم بقدر كبير من الجليطة وقلة الأدب ، وعدم مراعاة الاتيكيت والبروتوكول و ٠٠٠ و ٠٠٠ الى آخر ما لديهم من اوصاف ٠

وقد كان هذا العيد الوطنى والقومى الكبير والخطير ، أول عيد أقضيه فى « الحبسخانة » ٠

وقد شعرت اليوم كله باحساس غريب انتابنى من الصباح ، حتى بعد أن نمت ، اذ ظل ذلك الاحساس يطاردنى فى النوم فى صورة أحلام مزعجة ٠

وكنت أتساءل ومنذ الصباح الباكر قائلا بينى وبين نفسى ، فأنا لا أملك الا أن أسائل نفسى ونفسى وحدها : أتسائل مع المتنبى : بأية حال عدت يا عيد ؟

اننا نضحك على أنفسنا باستمرار ٠

نتصور أننا مستقلون ، بينما واقع الحال أننا محتلون ٠٠ نتصور أن أمورنا فى أيدينا وأننا ـ فعلا ـ أصحاب القرار فى كل ما يتعلق بنا ، وأننا نقيم فى دولة مستقلة ذات سيادة ٠٠ ولا شىء من ذلك على الاطلاق ، فأمورنا ليست بأيدينا أبدا ، وما كانت بأيدينا أبدا منذ ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ يوم دخول القوات البريطانية المحتلة أرض العاصمة ٠

وما كنا فى يوم من الأيام ومنذ ذلك التاريخ أيضا بأصحاب قرار ، وما كنا نقيم أبدا فى دولة مستقلة ذات سيادة ٠

فالسيادة كل السيادة ـ حتى بعد أن تحولنا من خديوية الى سلطنة ومن سلطنة الى مملكة ـ فى أيدى ممثلى بريطانيا فى مصر ، أيا كان أسماؤهم

أو صفاتهم : كرومر ، المعتمد البريطانى . جورج لويد المندوب السامى البريطانى . لورد كيلرن سفير بريطانيا فى مصر .. وقد سبق لى - وأعتبر ذلك نقطة سوداء فى تاريخى - ان طالبت بتوفير الطلقات التى تطلقها تلك المدافع اياها فى القاهرة والاسكندرية وبور سعيد والسويس والاسماعيلية و .. و .. فى هذا اليوم وفى غيره .

وأن نقتصد ما ننفقه فى الحفلات التى نقيمها فى أمثال تلك المناسبات وأن نوفر أيضا الأوقات التى نقضيها فى « التبريكات » والتهانى .

وأن نكون - ولو مرة واحدة - واقعيين مع أنفسنا .

وأن نعطى أنفسنا قدرها الحقيقى فنصور أوضاعنا السياسية تصويرا صحيحا ، لا نجرى وراء الأوهام والشعارات .

وقد كانت المرارة التى شعرت بها فى هذا اليوم - ١٥ مارس ١٩٤٥ - شديدة وقاسية على النفس جدا ، أكثر من المرارة التى شعرت بها فى أى عيد آخر : نحن فى عيد الاستقلال ، وأنا هنا كمواطن مصرى مطلوب منى فى هذه « الحبسخانة » أن أهلل وأصفق واحتفى بعيد الاستقلال . أى عيد هو بين الأعياد . ألست مواطنا مصريا أفرجت عنى الجهة المسئولة - النيابة - ثم أبقانى الحاكم العسكرى العام فى السجن برغم قرارها ؟ أما من محكمة الجأ اليها لأشكو ذلك العسف والاضطهاد الذى نزلا بى ؟ بل أما من مسئول آخر غير الحاكم العسكرى العام أبعث اليه بشكايتى حتى لا يكون الخصم هو الحكم ... وعشرات من الأسئلة طرحتها على نفسى دون أن أجد أى اجابة مقنعة أو حتى شبه مقنعة ، اللهم الا أن هناك حقيقة واقعة ظاهرة كالشمس ، واضحة وضوح الظلم الذى لحق بنا ، اننا رغم رايات الاستقلال .. وشعارات الاستقلال ، ورغم القول بأننا محكومون حكما دستوريا سليما ، ورغم .. ورغم .. لا نزال دولة محكومة بالحديد والنار و .. و

وقطع على تفكيرى الأسود هذا .. وصول ضيف جديد الى زنزانتنا ، كان ضيفا من نوع جديد لم يسبق لمثله أن حل علينا .

ضيف يرتدى أغلى الحلل ، يضع فى عنقه رباط عنق يزغلل العيون ..

متميز بكرشه الكبير وكأنما يعطونه درجة جديدة أو رتبة أعلى كلما كبر كرشه ، ولذلك فهو يتعهد كرشه بما لذ وطاب من الطعام والشراب لكى يحرز قصب السبق فى ميدان الكروش .

هذا بالرغم من شبابه الواضح الجلي ، اذ يبدو أنه لم يتجاوز الثلاثين من عمره ٠

دخل الحبسخانة وفي يده سيجار ضخم ، ولم يستطع الشاويش مصطفى أن يأخذه منه ، لأن له هيبة تخيف المأمور لا الشاويش مصطفى وحسب ٠

كان الرائحة التي يستعملها من ذلك النوع الذي يصيب كل من يقع في دائرة نفوذها بالاغماء ٠

وكان خلفه أحدهم ، أفندي هائل ، يلبس أفخر مما نرتدي نحن عشرات المرات وقد حمل له حقيبته ، التي لو رآها صويحبات يوسف لقطعن أيديهن ٠٠ !!

وقبل ان يغلق عم مصطفى الباب قال له بلهجة الأمر : ما تقفلش الباب روح هات لي البيه المأمور ، وعلى الفور جيئ بنائب المأمور فقال له بلهجة الأمر أيضا : مستحيل أبدا أدخل هذه الزريبة الحقيرة ولو ارتكبت عشر جرائم ٠

قل لوزير داخليتك ، أن فلانا ٠٠ وذكر اسمه لا يمكن أن يدخل هذه الزريبة لساعة واحدة ٠

وقل له أيضا : ان الدنيا دول ، وغدا تأتي حكومتنا فنفعل به مثل ما يفعل بنا ٠

ومضى في تهديداته عنيفا غاضبا ثائرا حتى وقف قسم روض الفرج على رجل واحدة كما يقولون ٠

وجرت مباحثات ، ومفاوضات ليست أبدا كالمباحثات أو المفاوضات المصرية البريطانية ٠٠ كانت قصيرة للغاية ، لم تستغرق أكثر من بضعة دقائق ، عاد بعدها المأمور نفسه ، بشحمه ولحمه ، ليعتذر لوصفي بك : وهذا اسمه ـ : آسفين خالص ، دول ماعرفوش سعادتك ٠

اتفضل عندي دقيقتين ثلاثة لغاية ما نخلي عرفة خاصة من غرف القسم لسعادتك ٠

وانشاء الله مش حتطول عندنا يمكن ليلة أو ليلتين بس ٠ وقال وصفي بك : لازم يكون في الأوده سرير ، ولازم تيجي ملايات الفرش من عندنا من البيت ، ولازم يكون فيه راديو ، ولازم الجرايد تجيني و ٠٠ و ٠٠

وكان المأمور يجيب قائلا : حاضر ٠ حاضر ٠ وكأنما يتلقى تعليمات من وزير الداخلية لا من واحد من المساجين ٠

وبينما كان القسم كله يعمل لتنفيذ تلك الأوامر ، وكان هو قد جعل من حقيبته تكأة يجلس عليها : تطلع الينا من على ، وكأنما يقول فى نفسه : أيه الحشرات اللى حطونى معاها فى سجن واحد دى ··· ووقعت عينيه على عينى فاذا به يسألنى : مش انت فلان ؟ قلت : نعم فلان · قال : وايه اللى وقعك فى البلوة دى · وقلت : نصيبى ·

ولم أشأ أن أقول له : ان الذى أوقعنى فى البلوه دى هو الذى أوقعك فى نفس البلوه ، لأننى تبينت من تحركات المأمور ونواب المأمور انه لن يبقى طويلا معنا · وجاء نائب المأمور يدعوه الى البقاء فى حجرة البيه المأمور ليشرب فنجانا من القهوة لأن العملية ــ عملية اعداد الحجرة ــ ستتطلب بعض الوقت ولبست دقائق كما تصورنا ، لأنه لا يوجد لدينا سرير يصلح لسعادتك ونحن نحاول أن تنقل الى سجن الأجانب حيث يوجد هناك أكبر قدر من الراحة ·

وطلب من نائب المأمور أن يبقى معى بعض الوقت وأنه يفضل البقاء هنا على الذهاب الى سجن الأجانب ، لأن سجن الأجانب رغم ما يتمتع به نزيله من رفاهية لا توجد فى أى سجن آخر ، الا أن اجراءات الزيارة فيه شديدة ، ولأن مأموره انجليزى ينفذ التعليمات السائدة فى السجن بكل دقة · وهذا ما لا يريد وصفى بك ·

وصفى بك ــ كما فهمت ــ يريد أن يكون مسجونا وألا يكون مسجونا فى نفس الوقت ·

يريد ان يحصل على شهادة بالاعتقال والسجن فى أيام حكم الأقلية ، تنفعه عندما تجيىء وزارة الأغلبية ، تضاف الى رصيده الرسمى ، وتعطيه الحق فى العلاوات والتعويضات ·

ووصفى بك هذا ·· كان من كبار رجال وزارة التموين ، وقد امتلأ كرشه طوال ثلاث سنوات من سنوات الحرب بكل خيرات وزارة التموين وبكثير من صفقاتها الكبيرة ·

وقد اشترك فى مظاهرة ضد الوزارة القائمة عندما سمع أنهم سيقدمونه الى المحاكمة ·

وفضل ــ لذكائه ــ أن يدخل السجن متهما سياسيا بدلا من أن يدخل لصا ومزورا ·

أما سر هذا الجبروت الذى يملكه وصفى بك ، وسر هذه الثقة الكبيرة التى كان يتمتع بها وصفى بك ، فهو أنه كان على علاقة وثيقة بالبوليس السياسى وبالسفارة البريطانية فى نفس الوقت ·

وقد صدر أمر الاعتقال من الحاكم العسكرى العام ، دون أن يمر بالبوليس السياسى · وجاءت الى جانب توصـية البوليس السياسى به ، توصية أخرى فى صـورة تليفون من أحد أتباع مستر سمارت المستشار الشرقى للسفارة البريطانية فى مصر ، وهذا كل ما فى الموضوع ·

روى لى وصفى بك ـ ولست أدرى لماذا ـ كيف أن حكومة النقراشى باشا ضعيفة للغاية · وكيف ان الخلافات محتدمة بين الهيئة السعدية والكتلة الوفدية وبين الأحرار الدستوريين الذين يشكلون معا الوزارة ·

وأكد لى أن الوزارة لن يطول عمرها بأية حال ، وان طال فلن يتعدى ثلاثة أو أربعة أشهر على أكثر تقدير ·

وأن الحكومة البريطانية تدخلت وبقوة حتى لا يقدم النحاس باشا الى المحاكمة وان مستر انتونى ايدن وزير الخارجية البريطانية قد زار مصر لهذا الخصوص ·

وقد أكد لورد كيلرن لبعض الوفديين وأنصـارهم وفى المقدمة أمين عثمان باشا أن اللجان التى ألفتها وزارة النقراشى باشا للتحقيق فيما جاء بالكتاب الأسود ، وفى الاتهامات التى وجهها مكرم عبيد باشـا للوفد وللنحاس باشا سوف تضع تقاريرها على الرف أو فى الأدراج ·

كما روى لى أيضا ·· أن الحرب قد اقتربت من النهاية ·

وأن الجيوش الألمانية سـواء على الجبهة الروسية أم الجبهات الأخرى قد بدأت تتقهقر ·

وأنه منذ أن دخلت الولايات المتحدة الأمريكية بكل ثقلها فى المعركة ، والمعركة تتحول بسرعة خطيرة الى صالح الحلفاء ·

ورغم عبـارات العطف والرثاء التى كان يبديهـا وصفى بك تجاه محمودالعيسوى الى جانب الاشادة برجولته وحرصه الشديد على ألا يجر أحدا غيره الى ساحة المحكمة ، الا أنه كان يحمله نتيجة التسرع باغتيال أحمد ماهر ، فأحمد ماهر باشا ـ كما كان يقول وصفى ـ أرحم مائة مرة من النقراشى باشا الذى لا ينفع معه التفاهم ·

وقد نقل لى وصفى بك ـ من زاوية فكره الخاص ـ تفاصيل ما يجرى فى التحقيق ، مؤكدا ان القضية ستنتهى بعد أسابيع قليلة وسوف يقدم العيسوى وحده الى المحاكمة ، اذا ما استمر صامدا أمام الضغط الذى يواجهه ·

وكانت جرأة وصفى بك فى القول وعدم اهتمامه بمن حوله من رجال البوليس تؤكد أنه « مسنود » الى حد كبير وان الأيام سيقضيها فى السجن اذا لم تكن ساعات فهى ليست أكثر من « عملية مظهرية » تؤكد بها الدولة أنها قوية وعلى استعداد لأن تضرب كل من يحاول المساس بأمنها واستقرارها وكرامتها وان كانت الدولة ـ ممثلة فى رئيس الوزراء ووزير الداخلية ـ على ثقة مطلقة من أنها لن تستطيع ان تنال الا من يريد الانجليز النيل منهم • وقال لى وصفى بك : لقد حاول النقراشى باشا مع العيسوى محاولات كثيرة من أجل أن يشرك الوفد فى عملية الاغتيال ملوحا له بالعفو ان هو اعترف أن الذى دفعه الى ارتكاب جريمته نشر البيان الذى أصدره الوفد يوم الحادث •

وان هو ـ العيسوى ـ اعترف بأن شخصية وفدية هى التى أعطته المسدس الذى ارتكب به جريمته • ولست أدرى لم قال لى وصفى بك هذا الكلام •

وذكر لى وصفى بك أيضا : ان النقراشى باشا استدعى المتهم أكثر من مرة الى مكتبه برئاسة مجلس الوزراء حيث طلب منه ان يذكر من أين جاء بالمسدس الذى ضرب به رئيس الوزراء •

فلما رفض العيسوى اجابة طلب رئيس الوزراء ، صرفه رئيس الوزراء ، ثم استدعاه مرة أخرى وطرح عليه نفس السؤال ، فلما رفض العيسوى أيضا ما طالبه به رئيس مجلس الوزراء ، أعاده النقراشى باشا الى السجن من جديد •

وروى لى وصفى بك أيضا ، أن بعض الذين اعتقلوا فى سجن الأجانب مثل : فتحى رضوان ، و د• حسن نور الدين قد سئلوا أكثر من مرة ، فنفوا علاقتهم بالمتهم •

واكتشفت أن وصفى بك يريد أن يقوم بتوصيل بعض الرسائل الى ، لعل البوليس السياسى يستطيع أن يعرف منى بعض التفاصيل •

وقد بينت له بصراحة ووضوح أننى لا أعرف شيئا عن الحادث •

واننى أعرف جيدا أن محمود العيسوى قد اعترف بأنه وحده هو المسئول عن الجريمة التى ارتكبها •

وأنه لا داعى أبدا للف والدوران من قبل البوليس السياسى واذا كانت الحكومة تريد عودة الهدوء الى الساحة السياسية فعلى النيابة أن تبادر بتقديم القضية الى المحكمة ، وتفرج فورا عن كل المعتقلين السياسيين ليعودوا الى المشاركة فى الدفاع عن وطنهم والى العمل فى تحرير بلادهم •

ووجد وصفي بك أنه لا أمل في على الاطلاق ، فبادر الى الانتقال الى غرفة مأمور القسم ، وقد عرفت فيما بعد أنهم أخلوا غرفة من غرف القسم له ، وضعوا له فيها سريرا ودولابا وبضعة كراسى وكأنه ضيف لا معتقل ... !!

وفى الساعة الحادية عشرة : أصر بعض المساجين من زملائنا على الخروج الى طابور الصباح والا أحالوا السجن الى جحيم ، وذلك بعد ان علموا بأنباء الرفاهية التى ينعم بها وصفي بك .

وسمح لنا بالخروج في فناء السجن بعد ان كانوا قد حرمونا من طابور الصباح لفترة من الزمن ، وجدنا وصفي بك يجلس فى فناء السجن في الشمس على كرسي وثير ، وقد ارتدى روبا من الحرير يكفى ثمنه لاطعام كل من فى الحبسخانة بضعة أيام .. !!

حاول وصفي بك أن يتم حديثه معى ، ولكننى اعتذرت حتى لا يوقعنى في خطأ يحسب على .

وما دام الحديث عن وصفي بك مستمرا ، فاننى أذكر أنه بعد ثلاثة أيام فقط أفرج عن وصفي بك بعد أن حمل لقب سجين سياسى وهو لقب سوف يؤهله فيما بعد للحصول على ترقيات وعلاوات كثيرة .

وقد قرأت فيما بعد أنه فور خروجه من معتقله أو سجنه أو الفندق المتواضع الذى كان ينزل فيه ، ذهب فورا الى رئيس حزبه حيث جرى تصويره مع زعيم الحزب .

ونشرت صورته مع رئيس حزبه في احدى الصحف الحزبية لتسجيل الحدث السياسى الذى وقع له .

وأعود فأقول ــ وأنا أنقل من أوراق يوم ١٥ مارس ١٩٤٥ ــ ان معاملة وصفي بك تلك المعاملة الاستثنائية قد بعثت الكآبة الى نفسى : اننا نشكو من الاستثناءات فى دنيا الوظائف حيث يرقى الكثيرون الى درجات لا يستحقونها لأنهم محاسيب لبعض الوزراء أو الكبراء ، وقد أصبحت تلك الاستثناءات أشبه ما تكون بالأمور الطبيعية .

ولم أكن أتصور يوما أن الاستثناءات سوف تنتقل الى السجون والمعتقلات وكنت ــ من قبل ــ أفهم مثلا أن ينقل بعض المسجونين أو المعتقلين الى سجن الأجانب باعتباره أرقى السجون فى مصر ، أو ان يعامل واحد من المسجونين أو المعتقلين معاملة تختلف الى حد ما عن معاملة الآخرين كأن يجيئه طعامه من الخارج و أن يحظى باغطية أكثر من اللازم ،

أو أن يفتح له باب الزنزانة التى يسجن فيهـا ، أو أن يرتدى ملابسه العادية ، أو ٠٠ أو ٠٠ اما أن تحول غرفة من غرف السجن أو القسم الى لوكاندة من نوع ممتاز ليقيم فيها أحد خصوم الحكومة ، بينما الآخرون ينامون على الأسفلت لا يرون ضوءا ولا يحصلون على أدنى رعاية ٠ فذلك استثناء لم أكن أتصوره فى يوم من الأيام ٠

٦ ابريل سنة ١٩٤٥ :

كان مقررا الاحتفال بذكرى الأربعين لمصرع الدكتور أحمد ماهر فى دار الأوبرا الملكية ، ولا أحد يمكن أن يصدقنى ــ وخاصة من عباقرة البوليس السياسى ــ أننى حزنت لمصرع أحمد ماهر لأكثر من سبب فمن ناحية ٠٠ أنا أدين الاغتيـال السـياسى بالنسبة للمـدنيين ، مصريين وأجانب ، وأنا أرحب به بالنسبة لجيش الاحتلال ٠

ومن ناحية أخرى ، أنا أحترم أحمد ماهر وأقدر فيه شجاعته ، وأذكر له ماضيه الفدائى عندما كان يعمل تحت الأرض مع فتية آمنوا بوطنهم ، ولم يريدوا جزاء ولا شكورا ٠

ومن ناحية ثالثة لم أكن أبدا أرى ان اغتيال أحمد ماهر يمكن أن يمنع وقوع كارثة الدخول فى الحرب ٠

وأقسم لو كنت خارج السجن لبذلت جهدى للمشاركة فى تأبين أحمد ماهر ، ولبعثت على الأقل بكلمة أو كلمات إلى بعض الصحف راجيا نشرها فى تلك المناسبة الحزبية ٠

ولست أدرى لماذا حرص القوم فى البوليس السياسى على تسريب عدد الأهرام الصادر فى ٦ ابريل ١٩٤٥ وبه صفحات عن ذلك الاحتفال ؟ ربما ليشعرونا بأن الرأى العام فى خارج السجن ساخط على الجريمة ٠

وليقولوا لنا ــ بدليل مادى واضح ظاهر ــ أن كل البلد تعظم أحمد ماهر وتقدره ، وقد فرحت بهذا العدد كما يفرح الطفل الصغير المحروم من الشيكولاته عندما تقدم اليه قطعة كبيرة لم يحلم بها فى يوم من الأيام لأنها فوق طاقته وأكثر من حاجته ٠

وقد كان عدد الأهرام رقم ٢١٦٠ أول صحيفة آراها بعد ان طوانى السجن الرهيب

وقد استهوتنى المانشتات التى جاءت فى الصفحة الأولى عن خطة ايزنهاور لشطر المانيا ، وعن زحف دبابات الجنرال باتون فى قلب المانيا ،

وتسللت مئات من دبابات الجيش الثالث الأمريكى خلال الثغرات التى تبلغ خمسين ميلا فى خطوط ألمانيا الوسطى ٠

وأقرأ أن وحدات الجنرال باتون قد تقدمت الى « مولهاوزن » على مسيرة ١٣٦ ميلا جنوبى برلين فى وجه مقاومة طفيفة ، وأن الحلفاء على بعد ٣٥ ميلا من « بريمن » وأن الألمان انسحبوا من « هانوفر » ، وأن الروس طوقوا مدينة « فيينا » واستولوا على « براتسيلافا » ٠

ووقفت طويلا ازاء ما نشيت آخر يقول : روسيا تنقض ميثاق الحياد مع اليابان ٠

وفى الخبر ٠٠ أن الرفيـق مولـوتوف وزير خارجية السوفييت استدعى المستر « ساتو » سفير اليابان لدى الاتحاد السوفييتى وصرح له بأن ميثاق الحياد المعقود بين الاتحاد السوفيتى واليابان فى ١٣ ابريل ١٩٤١ قد طرأ عليه منذ ذلك الحين تغير كثير ، اذ قامت المانيا بمهاجمة الاتحاد السوفييتى ، وقامت اليابان بمد حليفتها ألمانيا بيد العـون فى حربها ضد الاتحاد السوفييتى بالاضـافة الى أن اليابان فى حرب مع الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وهما حليفتان للاتحاد السوفييتى ازاء هذه الظروف فقد ميثاق الحياد المعقود بين اليابان والاتحاد السوفيتى مغزاة ، وأصبح استمراره ضربا من المستحيل ٠ فلهذه الأسباب وبناء على البند الثالث من الميثاق الذى يبيح لكل من الفريقين انهـاء الميثاق عـلى أن يعلنه بذلك قبل انتهاء مدته وهى خمس سنوات ، بعام واحد ، فان الحكومة السوفيتية تعلن الحكومة اليابانية باعتزامها انهاء ميثاق ١٣ ابريل سنة ١٩٤١ ٠

وقد أدى نقض الميثاق الى استقالة الوزارة اليابانية حيث قدم الجنرال كويسكو رئيس الوزارة استقالة وزارته الى الامبراطور ، وجاء فى سبب الاستقالة ــ وهو سبب وجيه ــ انها تقدم استقالتها لتخلى الطريق لوزارة أخرى أشد منها قوة ٠

وقد تولت الحكم وزارة جديدة برياسة الأميرال سوزوكى ٠

وقامت الوزارة الجديدة بادخال تغييرات فى القيادة العسكرية لاعادة الثقة الى الرأى العام اليابانى ٠

وقد تساءلت وأنا أقرأ هذا الخبر الخطير ٠ ماذا لو كانت اليابان أو ألمانيا هى التى ألغت ميثاق الحياد ؟ ٠ ماذا سيقول عن ذلك الالغاء ؟ ان كل طرف ينظر الى الأمور باستمرار من زاويته هو ، ومن مصالحه هو ،

اما القانون الدولى ، أما العلاقات بين الدول والشعوب ، فذلك كله من الأمور التى ليس لها اعتبار .

وفيما يتعلق بحفل تأبين أحمد ماهر ، فقد لوحظ أن أحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكى لم يحضر ، وأرسل برقية اعتذار قال فيها :

انني اذا لم أستطع أن أبكي الفقيد معكم فلقد بكيته وحدى ، ان أحمد ماهر كان مثلا عاليا فى الوطنية والذكاء ، وستظل أعماله ومآثره مدى الحياة ، كتابا خالدا لمن عاش رجلا ، ومات بطلا .. » .

وكانت قد تألفت عقب الاغتيال لجنة لتخليد ذكرى الفقيد العظيم ، بلغ مجموع التبرعات التى وصلتها حتى ٦ ابريل ١٩٤٥ ، ٥١٣٧٣ جنيها القوائم الثلاث الأولى فقط ..

وكان من بين ما قاله محمود فهمى النقراشي باشا : كان أساس رأيه - أحمد ماهر - فى الأمور الفهم والاقتناع ، فاذا فهم أمرا واقتنع بنفعه ، سخر له مواهبه العامرة بالفضائل من ايمان واخلاص وشجاعة ومضاء .

وأغلى تلك المواهب ، صلة بينه وبين الله العلى القدير ، الذى أحاطه على الدوام بسابغ عنايته وعظيم توفيقه .

ولقد كان يعتقد رحمه الله أن الفعل والرأى اذا لم يدعمهما الايمان والاخلاص حلت بالانسان الخيبة والبوار .

ولقد بلغت به شجاعته واصراره على رأيه أنه كان يقف فى بعض الأحيان فى عزلة عن جانب من الرأى العام ثم يمضى يعالج اقناعه ما وسعه الأمر .

وكان يرى ان واجب الزعيم ان يستهدف آمال بلاده وأمانى أمته ، ولكنه يتولى هو قيادتها الى تلك الأمانى والآمال ، غير حافل بما يصيبه من وراء ذلك من ظلم أو اجحاف .

ويقول صديقه ، وصفيه ، وزميله النقراشى : انه - أحمد ماهر - كان يرى أن الحرية الشخصية والكرامة الانسانية صنوان لا يفترقان .

وكان رحمه الله حريصا على أن يوفر الحرية لخصومه ، بقدر ما يوفرها لنفسه .

وكان يرى أن الرجل الحر ، هو قبل كل شىء من يشعر بحق الناس فى الحرية ، يتقاسمونها سواسية بينهم .

وقد كان أحمد ماهر مثالا رفيعا للحاكم العــادل الطاهر المستقيم وفوق ذلك الوطنى المخلص الأمين ، والسياسى البارع المكين ٠

أما د٠ حسين هيكل باشا فقد قال من بين ما قاله : تسلم أحمد ماهر منبر الصحافة فى وقت لم يكن هــذا المنبر مقيدا ولم يكن يحده غــير القانون ، وغير ما يفرضه الكاتب على نفسه من حدود يرى فى تجاوزها من سوء استعمال الحرية ما لا يرضاه لنفسه ٠ وكانت أحداث ذلك الوقت تدفع القائمين بالأمر الى التفكير فى اتخاذ التشريع أداة لتضييق الحدود التى تتمتع فيها الصحافة بحريتها المطلقة تقديرا منهم لأن ما يحدث من سوء استعمال لهذه الحرية يفسد اتجاه الرأى العام ويجنى على الحرية نفسها ٠

لكن قدسية هذه الحرية وحرص الصحافة عليها ، وما للصحافة من قوة تستطيع أن تدافع عن حريتها ، جعلت هؤلاء القائمين بالأمر يفكرون فى الاستعانة بالصحفيين أنفسهم لتنظيم حريتهم ٠٠٠ لهذا تألفت لجنة كان المرحوم ماهر باشا وكنت معه من أعضائها ٠

وكان أحمد ماهر من أكثر الناس شدة على نفسه فى التزام حدود الواجب حين يكتب ثم كان مع ذلك من أشد الناس دفاعا عن حرية غيره وأكثرهم اخلاصا لحرية الصحافة ، لأنه كان يرى أن ما يحدث من سوء استعمال الحرية يرجع الى تسامح القائمين بالأمر مع طائفة من الصحف دون أخرى ٠

فلو أن حدود القانون العام طبقت على الجميع بالعدل والمساواة لنظمت الحرية نفسها ولما نفت العملة الزائفة العملة الطيبة من سوق الصحافة ٠

ويقول د٠ هيكل عن د٠ ماهر : كان الدكتور ماهر من أكثر الناس شدة على نفسه فى التزام حدود الواجب حين يكتب ذلك لأنه كان عالما مهذبا واسع العقل عظيم التقدير لفكرة الواجب ، لا يريد بالنقد الهدم ، بل يريد الاصلاح ما استطاع ٠

وهو لذلك لم يكن يؤاخذ النــــاس على نياتهم بل كان يؤاخذهم بأعمالهم ٠

وكان يؤمن بأن هــــذا الاتجاه هو الذى يخلق القوة المعنوية فى الشعب ٠

ويؤمن بأن هذه القوة المعنوية تستطيع الكثير بل تستطيع كل شىء ٠

وهو ــ أحمد ماهر ــ لم يكن يريد بالنقد الهـدم ، بل كان يريد الاصلاح ما استطاع ، لذلك كان اذا عرض الى تصرف بنقد ما كان يقترح مع النقد العلاج الناجع للأمر الذى لم يوافق على ما عالجه به أولو الأمر ٠

ويؤكد د٠ هيكل على أن اذا كان د٠ أحمد ماهر ، فى البرلمان منبرا ، فقد كان فى الصحافة كذلك ، على أنه كان فوق منبر البرلمان ــ كما هو فوق منبر الصحافة ــ شديد الحرص على ان يبدأ بعرض الرأى الذى يخالف رأيه ، وأن يعرضه عرضا نزيها ، وأن يبين أوجه القوة ، ليتناوله بعد ذلك بالنقد وليأتى على ما يؤيده بالحجج حجة بعد حجة حتى ينقضها جميعا ، وأنه كان ينزع فى مناقشاته منزعا علميا يعنى بالآراء والوقائع أكثر مما يعنى بالألفاظ والعواطف ٠

ويرجع د٠ هيكل كل ما يتمتع به د٠ ماهر الى واسع علمه والى ممارسته التدريس زمنا غير قليل ، والى عقله المنظم ومنطقه السليم ، وايمانه بأن الحرية لا تخرج بصاحبها على النظام ، وان قوة الاقناع بالحجة أعظم من كل قوة ٠

وبمثل أحمد ماهر تعتز الصحافة ، ويعتز كل ميدان عمل فيه ، وما أكثر هذه الميادين ٠

وكانت كلمات مكرم عبيد كلمات باكية ــ رغم انهما اختلفا الى أبعد حدود الاختلاف ، وتصارعا الى درجة لم يشهد ميدان السياسة المصرية لها مثيلا ــ وقد جاء فيها : نحن الذين بكينا أحمد ماهر فقيدا ، ورثيناه فاستبقيناه بيننا مجاهدا وشهيدا فلو أن ميتا من أبناء هذا الجيل كانت مصر فى حاجة الى رثائه ، لأنها فى هذا الوقت بالذات أحوج ما تكون الى استبقائه ، لكن هذا الميت هو أحمد ماهر ٠

عاش أحمد ماهر ومات ولكنه لم يمت لأنه استحق الموت ، بل لأن الموت استحقه ٠

فلم يكن الموت حقا أو دينا عليه ، بل كان دينـا له على الأحياء وكان حقه ٠

مفتاح السر فى شخصية أحمد ماهر ، انه كان واقعيا أو عمليا الى أبعد الحدود وعاطفيا خياليا الى حد محـــدود ، وكان المميز الأول له بين زعماء الحركة الوطنية أنه أقام من عقله ميزانا بين سامى الخيال وواقع الحال ، فكان رجل الحق والحقائق فى وقت ما ٠٠٠ ذهبنا ــ أنا وزميلى أحمد ماهر ــ الى لندن بعد انقطاع المفاوضات مع المستر هندرسون لنحـــاول وصل ما انقطع ٠

وكان من حسن الطالع ان التقينا بجلالة ملك العراق العظيم المغفور له الملك فيصل فأعرب عن رغبته في تأييد وجهة النظر المصرية لدى الحكومة البريطانية ·

وقال مكرم أنه التقى وماهر بجلالة الملك فيصل وأنه ـ ماهر ـ ترك مهمة الكلام لمكرم ، واكتفى بدور المستمع الى أن سأله الملك فأفاض طويلا ·

وقال فيصل في ختام اللقاء : لو لم يتكلم أحمد ماهر لحسبته رجلا عاديا ، ولقد بدا لى من حسن تقديره وطريقة تفكيره ما يجعلنى أنصحكم باتباع نصحه فى جميع مفاوضاتكم ومداولاتكم فهو رجل نزيه الرأى متزن التقدير ·

ويقول مكرم ان من ميزات أحمد ماهر أنه كان يرعى التوازن الدقيق بين ما هو كائن ، وما يجب أن يكون ·

وانه كان يقيم التوازن العادل بين تفكيره وتفكير غيره ، فكان يرى الحقائق من ناحيتها ويقدر الاتجاهات من وجهتها ·

ولأحمد ماهر ـ هكذا قال مكرم ـ مقدرة على تفهم رأى غيره من الأحزاب وكان ذلك سببا من أكبر أسباب ائتلافه مع الأحزاب المختلفة ، ولكنه وان لم يكن متعصبا لرأيه فقد كان مؤمنا به ، ولأنه كان مؤمنا كان بعيدا عن التذبذب ، ولأنه لم يكن متعصبا ، كان بعيدا عن التحزب ·

ويقوم مكرم : كان أحمد ماهر من السياسيين المصريين ، واقعيا أكثر منه خياليا ، وفى ذلك ما يعلل انه كان في معاملته لأصدقائه ، ولخصومه ، طبيعيا ، لا يصانع ولا يتصنع ، ولا يترفع ولا يتواضع ومن عجب أنك حين تلقاه لأول وهلة لا تبدو لك سيماء زعامته ولا حتى مظاهر وطنيته فهو يكره الظهور والتظاهر ·

واذا تحمس ـ وقلما يتحمس ـ ففى غير فورة ، واذا ثار ـ وقلما يثور ـ ففى غير ثورة ·

كل ما يعنيه اذا خطب أن يهز المشاعر ، دون أن يبالى اذا اهتزت ، أو لم تهتز له المنابر ·

أحمد ماهر الشجاع الذى أماتته شجاعته ، هو بعينه أحمد ماهر الشجاع الذى أحببنا شجاعته ·

وهو هو أحمد ماهر الوطنى الصميم وأحمد ماهر الصديق الحميم وأحمد ماهر الخصم الكريم الذى فقدناه فى وقت يفتقد فيه الرجال ·

فاذا لم يكتب لنا فى سبيل النضال ما كتب له من شرف القتل ، فليكتب لنا على الأقل مثله شرف القتال ٠

لقد مات سعد ، ومات أحمد ماهر ولكن مصر الخالدة الحية ، حية فى الموتى من أبنائها كما هى حية فى المجاهدين من أحيائها ٠

★★★

وكان من بين ما قاله حسين سرى باشا : قد يكون نجاح الشخص فى حياته مرهونا بصفة أو صفتين من صفاته ٠

ولكن نجاح الرجل السياسى ، معقـــود بصـفات كثيرة ، قد تبدو متناقضة أو تلوح معارضة ، اذا نظرنا اليها واحدة واحدة ، والواقع من الأمر أنها أسلحة موجودة يستعملها السياسى الموهوب بمهارة ، طـورا يحجب بعضها وطورا يبرز بعضها ، وتارة يحد من بعضها لحساب بعضها وتارة أخرى يلعب بها جميعا كل بقدر لكى يصل الى هدفه من النصر ٠

وقد جمع أحمد ماهر بين هذه الصفات جمعا منسقا ، ولعب بها لعبا موفقا ، فكان نصيبه من النجاح والاعجاب محققا ، فقد وهب الله له الجرأة والشجاعة والتريث والاندفاع والقوة والشدة ، والرفق واللين ، والظرف والعطف ، والحزم والعزم والسياسة والكياسة يصطنعها كلها أو بعضها بمقدار وتبعا لما يشتهى ويختار ٠

وعن الثائر أحمد ماهر يقول : اذا كان للنصر نشوة ، وللحكم نشوة ، قد تبعد برجل الثورة فيما بعد عن طريق الثورة ، فان ماهر بقى بقلبه للثورة جذوة ، وظل بسلامة خلقه لتعاليمها حصنا حصينا ، وعـــلى أهدافها حارسا أمينا ، فما استهواه النصر ، ولا أبطره الظفر ، وما فسد طبعه الحكم وما غشى منه على البصر أفلا تنظرون الى ماهر ، كيف ترك حزبه ، ولم يشأ أن يترك رأيه ، بل استأنف الجهاد فيما اعتقده الحق والصواب ٠

★★★

أما حافظ رمضان باشا ــ وكان قد استقال من وزارة أحمـــد ماهر باشا احتجاجا على قبول الوزارة اعلان الحرب على دور المحور ــ فقد قال ان وصف المصاب بفقد ماهر ، نكبة نكباء وألم مقيم ثم قال : كان بودى أن ألقى ماهر باشا الليلة وجها بوجه لأكرمه ، بدل أن أرثيه ، ومن أحق بالتكريم منه وقد وضع الأساس ودعم البناء وهذب الفكرة ، ألم يكن حقا علينا أن نكرمه بدل أن نرثيه ؟

ولكن ليس على الصديق المؤمن حرج من أن يكرم ، ويرثى معا ٠ أما التكريم فله هو ٠٠ تكريم لآثاره الخالده ومواقفه المشهورة ٠

أما الرثاء فلنا نحن لأننا فقدنا فيه وطنية عالية ، وخلقا كريما ، ونفسا صافية ، وتكريم الراحلين تكريما لآثارهم الخالدة ، ومواقفهم المشهورة ٠

ويقول حافظ رمضان : لقد كنت في صف المعارضة وكنت زعيما لها منذ عهد المغفور له سعد زغلول باشا ، واني لمدرك تماما موقف الدكتور ماهر باشا كمعارض ، وكرجل برلماني في الصف الأول ٠

وعن اصالة رأى الفقيد وقوة حجته في المعارضة قال : كان يحاول دائما ان يقنع خصومه بالحجة والبرهان والاقناع دون أن يحمل لهم أى حقد أو ضغن وظهرت آثاره الكريمة في ظروف كثيرة من بينها أنه عندما أبرمت المعاهدة وكان هو أحد موقعيها ، أعطى للمعارضين حرية الخطابة والقول حتى لقد كان يخيل الى الناس أنه على رأس هؤلاء المعارضين » وقال ، حافظ رمضان باشا أنه كان في وزارة حسن صبرى باشا وكان أخاه ماهر باشا رئيسا لمجلس النواب ورأيته في احدى جلسات المجلس يترك كرسى المعارضة ويقف في صفوف النواب كمعارض للوزارة فكان هذا اليوم مثلا صريحا من مواقفه ٠

فانه عندما يؤمن بشيء ، يروح في عقيدة الواثق يدافع عنه متمسكا به متحمسا له ، ثم عاد الى كرسى الرياسة وأدار دفة المناقشات بعدها معطيا ومانحا من حرية القول والخطابة لخصومه على ما لم يطمح فيه مؤيدوه أنفسهم ٠

وما أن ولى الحكم حتى رفع الرقابة ليعطى للمعارضة قوتها ، وليكون عهد حكمه كله أشهرا حرما ٠ فكنت تراه يخطب بمفرده وسط الجامعيين تارة ، والعمال تارة أخرى ، وبين الموظفين وغيرهم دون أن يعطى لنفسه أدنى اعتبار بأنه رئيس حكومة ٠

كان أحمد ماهر باشا يقدس الحرية ويصونها مهما يكلفه الأمر من بذل وتضحية فأعاد بذلك ذكرى الأولين من حماة الحق ، وأعداء الباطل ٠

فالحرية عنده عقيدة تقترن بايمانه بالله ، لم يحتكرها ولم يجعلها وقفا على نفسه وأنصاره ، وانما أطلقها من اسارها وجعلها نهبا للناس جميعا تشيع في أشخاصهم وأعمالهم ٠٠

ويستشهد حافظ رمضان بكلمة لأحد الحكماء القدماء وهى : ان البشر والانسانية خلقا معا فحيثما وجدت الانسانية بفضائلها ، وجدت على أثرها البشرية بأنانيتها وهكذا وجد أحمد ماهر مثالا للانسانية يرتفع بها الى

القمة ، ووجد في مقابل هذا ذلك الجرم الشنيع مثالا للبشرية يهوى بها الي جرف سحيق .

★★★

أما بهى الدين بركات الذى يعرف الفقيد منذ خمسة وثلاثين عاما .. فقد ذكر أنه ما كاد يمضى في دراسته عامين ، حتى جاءته أوامر وزارة المعارف التي بعثته للدراسة في فرنسا لاعداد أساتذة للحقوق بأنها عدلت عن اعداد هؤلاء الأساتذة وانها تريد اعداد أساتذة لمدرسة التجارة كأنها بذلك أرادت أن تتحدى مبعوثيها بأن تنقص من شأنهم مما جعل بعضهم يرفض تغيير دراسته ولكن أحمد ماهر - زميل بهى الدين بركات في البعثة - رأى أن يقابل التحدى بتحد مثله ، فهو يتم دراسته الأولى وينال منها أعلى الدرجات ، وهو يتابع الدراسة الثانية ويتمها وينال منها أعلى الدرجات كذلك .

فهو لم يدرس للوظيفة ولكنه يدرس لنفسه ، وهو على ثقة من أن نبوغه وعبقريته سيجدان مكانا لهما حيث وجد .

فلما عاد الى مصر بعد ذلك لم يحاول ان يجد عملا مما يطمع اليه سواه بل قبل أن يشتغل موظفا بعقد مؤقت في مدرسة التجارة كأنه يرى بعين بصيرته ان هذا ليس عمله النهائي وأن العناية الالهية ادخرت لماهر باشا شيئا آخر .

ويذكر بهى الدين بركات باشا كيف كان أحمد ماهر في أول مجلس نيابى يقاطع المتكلم بجملة قصيرة ، وكثيرا ما كانت تحول دفة المناقشة أو نفسه كل تأثير يحدثه الخطيب لأن مقاطعته كانت أبعد ما تكون عن تلك المقاطعات الصبيانية التي يثيرها الغضب في بعض النواب فيحتجون على المتكلم ولكنها مقاطعة فنية نتيجة ادراك عميق وفهم صحيح لروح المجلس ومعرفة دقيقة بطرق تحويل الرأى فيه وكسب المعركة التي اقتحمها من اقصر طريق ..

وكما كان ماهر باشا - بهى الدين بركات باشا - مقاطعا ماهرا فقد كان كذلك خطيبا برلمانيا رائعا ، لم يكن يعرفه الا من شاهده أو سمعه .

ويذكر بهى الدين بركات كيف كان من عادة أحمد ماهر ان يبدأ بشرح وجهة نظر مخالفه في الرأى .. يشرحها ويبين وجهة القوة فيها ، ومدى اقتناع أصحابها بصحتها ، حتى أنك تخال أنه سينتهى لا محالة بالتسليم لها ، وان أصحاب هذا الرأى لن يجدوا دفاعا عن رأيهم أقوى وأصرح من هذا الدفاع .

فاذا ما وصل بك الى هذه الدرجة من الاقتناع ، وجدته يأخذ في شرح عيوب هذا الرأى ويفصل المآخذ التى تؤخذ عليه ، ويبين كيف أن

الرأى الآخر ، أدنى الى الحق ، وأقرب الى الحكمة ، وأفضل للصالح العام وأفعل في مناصرة الحرية ، وفي صيانة حقوق البلاد وحريتها حتى لا يبقى شك كثير أو قليل في صواب هذا الرأى الذى انتهى اليه ٠

وأنه كان نتيجة لازمة لما قام به من درس وفحص ومقارنة وتحليل ٠

ولقد سمعته مرة يرد على اعتراض من كانوا يغضبون منه ويدهشون كيف أن أحمد ماهر المقاطع الأول في المجلس يمنع المقاطعة وهـــو رئيس المجلس ٠ فكان يقول : نعم أنا كنت أقاطع ، ولكنى لم أكن أغضب من الرئيس عندما يمنعنى أو يعترض على ٠

تلك العبارة على بساطتها تفسر لنا سر عظمة أحمد ماهر البرلمانى فهو يفهم الحياة على حقيقتها ٠

هو يرى ان النظام ضرورى ، ولكنه يرى أن الحياة ليست جمودا بل حركة وان من المصالح الكبرى ما يجعل الناس يحيـــدون عن الطريق المستوية ولكنهم فى ذلك يخطئون اذا لم يستعدوا للتضحية بالجزاء الطبيعى للمخالفة ، فالحياة أخذ وعطاء ، ومن رام مجدا بغير كفاح ، فانما يطلب محالا ٠

وكان من بين ما قاله صديقه حسن النحاس : كانت له فى أيام محاكمته مواقف ، جعلت المحامين عنه يرجونه أن يخفف من حدته ، حتى لا يوغر الصدور عليه ٠

ويذكر أن أحمد ماهر باشا روى له ذات يوم واقعة لقد ذهب الى الشهادة يوما ما فى احدى القضايا السياسية فانقلب مدافعا عن المتهم ، ملقيا على نفسه التهمة ونتج عن ذلك براءة المتهم ٠

ومضى حسن النحاس يقول : ان خصوم أحمد ماهر لقوا منه من الرعاية ما لم يكونوا ينالون من أصدقائهم سواء فى مجلس النواب وهو رئيســه أم فى وزارة المالية وهو وزيرها حيث شمل بعنايته التسويات العقارية الخاصة بالخصوم السياسيين قبل سواهم ٠

وكان أول استبدال وقع عليه لموظف هاجمـــه فى الصحف بأعنف صنوف التهجم والايذاء ٠

وأنه حدث بينه وبين نائب معارض وهو وزير للمالية تراشق حاد ، وكان للنائب ملف عنده ، قلما لقيه بعد الجلسة نبهه الى أن ما حدث فيها لن يؤثر فتيلا فى نظرته الى هذا الطلب ، وعمه فى اليوم التالى الى تنفيذه ٠

وقال الأستاذ النحاس : أنه سأل أحمد ماهر باشا مرة ، لماذا يمد يد المساعدة لأحد ممن يهاجمونه ؟ فأجاب : بأن بينه وبين ذلك الشخص ودا قديما ، وأنه انما تطاول عليه ليسد رمقه بما يتناوله أجرا لذلك ·

وأنه يرضى بأن يبقى ذلك الرجل موصول الرزق ، ولو كان على حساب راحته فان نقصه شيء بعد ذلك أكمله له ·

وقال أنه ــ أحمد ماهر ــ دعى الى حفل فى نادى القضاة فلم يقبل الدعوة الا بعد الاستيثاق من أنه لن توجه اليه فيه كلمة مدح أو عبارة ترحيب ·

وهدد أحمد ماهر بالاستقالة من رئاسة مجلس النواب اذا أصرت هيئة المكتب على ترقية قريب له لم يكن رؤسائه يرون ترقيته ·

وكانت آخر كلمة قالها حسن النحاس : لقد كان الاغريق القدماء يرمزون لكل فضيلة بتمثال ، ولكنكم عندما تقيمون تمثالا ، لهذا الرجل العظيم ستودعونه كل فضائل الانسان ، وسيمر الناس والأجيال من بعد على ذلك التمثال ليقدسوا هذا الرجل الذى عاش سيدا ومات شهيدا ·

وفى مقدمة القصائد التى قيلت فى مناسبة الأربعين لذكرى أحمد ماهر ، قصيدة الأستاذ عباس العقاد وكان مطلعها :

لم أصدق وقد رأيت بعينى ... وسمعت الطلق المريب بأذنى
ماهر فى الفدى يجنى عليه ... ويد ــ قيل من بنى مصر ــ تجنى
اشبه الصدق بالأباطيل ... ويلك : أمسك جاوزت غاية ظنى

الى أن يقول :

لم أصدق وقد رأيت بعينى ... أنة النيل فى حداد وحزن
حزنت غير أنها ليس تدرى ... ألقيا تجمعت أم لدفن
أعمق الصمت صمتها وهى حيرى ... بين صدق الأسى ووهم التجنى
ترقب النعش قادما يتأنى ... وتمنت لو طال ذاك التأنى
أوجع الشكر شكر ساعة هول ... فى نعيم يدمى العيون ويضنى
المسجى يا أيها الجمع هذا ... افتدرى من ذا يكون ؟ أجبنى
انه أحمد الذى كان فينا ... منذ يوم رضوان كل مهنى
من يصدق هذا يصدق عظيما ... من بلاء الدنيا يشيب ويفنى

ثم يقول عباس محمود العقاد :

لم أصدق والأربعون أمامى ... كل ساعاتهن ساعة بين
كم تمثلته وأحسب أنى ... ان أخفق رأيته نصب عينى
مقبلا ضاحك الأسارير طلقا ... ثابت الجأش لا يلم بوهن

فجعت مصر فيــه بالقــائد الأسبق والأوحـــد الذى لا يثنى
والذى أنفق الشباب جهـادا فى خطار على الحياة وسجن
والذى اجـــزل العطـــاء لمصر هبـة منــه لا تشـــاب بضن

الى أن يقول :

كيف كيف العزاء هيهات هيهات عزاء فى ذلك الخطب يغـــنى
رحـــم الله ماهـــرا وجـــزاه فى خلود الأبرار جنات عـدن

وقال محمود حسن اسماعيل :

دعوها كما شـاءت على خدهـا تجـرى
ولا تسالوهــا سرهـــا فهى لاتـــدرى

معـــذبة كانت أنيننـــا على الحشـــا
وكــانت حنينـــا فهى من عـــالم الطير

وشبت حـــواليها الغصـــون فأزمعـت
وطـــارت ومن وكـــر هشيم الى وكـــر

ترامت عـــلى جـــو يفح ظلامـــه
ويلهث فى أجـــوازه ســـابح الـــذر

حطت بأغصــــان الضـــلوع فراعهـــا
هنالـــك أيك انبتوه من الجمـــــر

فـــلاذت بأهـــداب العيون وانهـــا
لأرحب للهم الســـــجين من الصـــــدر

فيا عاذل الأبطـــال ان ســـح جفنهم
رويـــدك ، ان الدمـــع اغفاءة الصـــبر

وللهـــول ساعات يكـــاد جحيمهـــا
وان كان نارا يفجر المـــاء فى الصخـــر

ولم تسمع الدنيـــا قديمـــا ولا رأت
عجـــائبهـــا شيئا أمـــر أمر من القـــدر

ولو أنها تـــروى شنائـــع عارهـــا
لمـــا نطقت الا بمـــا حـــل فى مصر

سرى نبأ فيها ولو كان صاعقا
لما هزها من هوله هزة الحشر
تعود أهلوها اذا طم كارثة
يلوذون بالصبر الجميل وبالسحر
فما بالهم اذ ذاك غيل صوابهم
وذاق فداحة الموج من عاصف البحر

الى ان يقول محمود حسن اسماعيل :

غدا بعده الوادى حزينا مفزعا
جريح الربى والغصن والعطر والزهر
وسارت وراء النعش مصر وما بها
ما الروع ما بالها لعين من الحشر !
فصبرا على البلواء يا آل ماهر
فمنكم ترجى للاسى نفحة الصبر

أما قصيدة كامل الشناوى فقد جاء فى مطلعها :

بكيت حتى لقد ابكيت فاتشد   لا بل بكاء . بكاء آخر الأبد
نبكى الشهيد سرى فيالليل مصرعه   فلم تبت مهجة الا على كمد
تلمس النوم أجفانا يلوذ بها   فلم يجده غصت الأجفان بالسهد
واقبل الفجر مذعورا على نبأ   ما كان ، لا كان ، فى وهم ولا خلد
وكان فى النفس شك ثم بدده   أن العرين خلا من طلعة الأسد
لهفى عليه صريعا في حمى حرم   غذاه بالروح بل بالروح والجسد
كم تحت قبته أو فوق ساحته   أقام للحق ركنا ثابت العمد
يصول لله ، لا للجاه ملتمسا   رضى الضمير فلم يجنح الى اللدد
تقبل الطعنة الحمقاء مبتسما   كأنها فكرة ، أو رأى معتقد
وكان ـ لولا انقضاء العمر ـ يدفعها كمثل عادته بالرأى والسند
وواجه الغادر الجانى يصافحه   فصافح الموت ، لم يفزع ولم يحد

الى أن يقول كامل الشناوى :

لهفى عليه وقد القى لقاتله   يدا تحييى ، وغطى رأسه بيد
شهيد مصر فلا يكفيه أن له   فى كل قلب لهيبا غير متئد
ما ضر لو أن فى ماضيه شائبة   تعزى النفوس بصبر عنه أو جلد

أقام خلف منيع من شمائلـــه ... فلم يداج ولم يحقد ولم يحـــد
يمضى الى المثل العالى فيبلغـــه ... وليس يثنيه عنه خوف منتقـــد
وكان فى الرأى فردا لا يطاولـــه ... جمع ويقضى برأى غير منفـــرد
تزهو به مصر اعجـابا ونبصره ... جم التواضـع لا يزهو على أحـــد

ثم يخاطب كامل الشناوى الفقيد أحمد ماهر قائلا :

شهيد مصر لقد كللت هامتهـــا ... بالمجد فى يومها الماضى ويوم غـد
أسرفت فى حبها فانهض لتنصرها ... تبكى عليك بقلب غير مقتصـــد
تلفتت تسأل الأقدار عن عـــوض ... فلم تجبها فصاحت آه يا ولـدى

ولعل من أجمل ما قيل فى أحمد ماهر ــ نثرا ــ ما قاله كامل الشناوى نفسه ، اذ قال :

كان أحمد ماهر من طراز الرجال سهلا ممتنعا ، وسر هذه السهولة الممتنعة فى التناسق بين مواهبه وسجاياه فأنت تلمس فى كل تصرفاته ذكاءه وألمعيته وايمانه وسعه أفقه ورقه شعوره ودقة ملاحظته وبعد نظره وشجاعته وصراحته وتمسكه بالمثل العالية ، لم تطغ فيه صفة من هــذه الصفات على الأخرى فكانت كل صفاته أبرز « صفاته » ·

كان أحمد ماهر شخصية معبرة لا مفسره فلم يكن سبقها لأحـد من الأبطال أو الزعماء بل كانت تسبق نفسه ، وكانت قوته الموجبة أكثر من قوته السالبة فترك فى كل ميدان من ميادين العمل أثرا بارزا ·

كانت سياسة أحمد ماهر فى الحكم أن يقهر الظلم بالعدل وأن يغلب الكراهية بالحب ، وأن يقمع الحزبية بالقومية ، فلم يكد يتولى الوزارة حتى طرح حزبيته وحلق فى الأفق بجناحين من المصرية والقومية فحطم السلاسل التى كان الرأى العام يربط فيها ·

وأباح لخصومه ان يعقدوا الاجتماعـات ويلقـــوا الخطب وينشروا البيانات وينظموا وسائلهم لمحاربته والطعن فى سيـــاسته حتى قـال القائلون ان المعارضة تحكم ·

وما لبث أن جرد نفسه وهو الحاكم العسكرى من سلاح الحاكم العسكرى فلا اعتقال ولا استغلال ، ثم جرد الرقيب من قلمه ·

ورد على الصحافة حريتها ، وجاءه أحد أصدقائه ينبهه الى خطورة اجراء رفع الرقابة على الصحف فقال رحمه الله : مادمت حاكما عسكريا فلن أمنع خصومى من ابداء آرائهم فما الفائدة من وجود الصحافة اذن ؟

أنها لن تكون الا التهمة الباطلة ، فهل يرضيك ان تلصق بنا تهمه باطلة ؟

وقال الصديق : انك تمنح حرية الرأى لمن لا يملك الرأى ، فبعض هذه الصحف الحزبية لا تملك الرأى الذى تنشره ·

وأجاب الرجل العظيم : أنا لا يعنينى من هو صاحب الرأى ، ولكن يعنينى أن أوفر الحرية لجميع الآراء · وقال له أحد الزملاء : أقرأت ما نشر فى صحيفة صباحية وما رددته صحيفة مسائية · فقال : نعم قرأت وسأرد عليه · فقال الزميل : ليس لهذا من رد الا اغلاق الصحيفتين · فضحك رحمه الله وقال : ان الحاكم العادل لا يملك ذلك ، أنا أريد أن أكون حاكما عادلا ولن أدافع عن نفسى الا بالحجة والمنطق ·

★★★

ويذكر كامل الشناوى ، وكيف وقف أحمد ماهر فى وزارة الوفد عام ١٩٣٧ يتحدث ثلاث ساعات فى وجوب تخلى النحاس باشا عن الحكم ·

وتجمهر الشباب الوفدى للاعتداء عليه ، ونصحه بعضهم بأن يخرج من باب خلفى فأبى ·

وقابل الشباب وحده يحاول أن يقنعهم بالبرهان والدليل على حين كانوا يصيحون بحناجرهم ، يحيا ويسقط ··

وفى عهد وزارة الوفد الأخيرة كان فى سينما ستوديو مصر وحيته الجماهير ، فلم يرق ذلك لرجال البوليس فملأوا دار السينما بجمهور آخر من الهتافة ·

وخرج اليهم أحمد ماهر ليقول لهم : انكم تهتفون بحياة فلان ولا تستطيعون أن تقيموا دليلا واحدا على الهتاف بحياته ، أما أنا فأهتف بسقوطه وأقيم على ذلك ألف دليل · اسمعوا : يسقط فلان لأنه استغل نفوذه ولأنه ظلم ولأنه لوث نزاهة الحكم ولأنه دخل الوزارة فقيرا فأصبح فى عداد الأغنياء ·

ولأنه جاء الحكم عن طريق الاعتداء على السلطة الشرعية وقبل ان يسرد رحمه الله بقية الأدلة ، كان الهتافون يلتمسون طريقهم الى باب الخروج ·

وفى سنة ١٩٤١ نادى أحمد ماهر بوجوب اعلان مصر الحرب على المحور ، وقابلت البلاد هذه الدعوة بالسخط الشديد ، وكان كامل الشناوى مع الساخطين رغم حبه لأحمد ماهر · وذهب كامل الشناوى ليقول لأحمد ماهر : هل تحب الصراحة يا باشا ؟ ·

وقال أحمد ماهر : لا أحب سواها .. وقال كامل الشناوى : ان دعوتك هذه غير مفهومة ولا أريد ان أقول شيئا آخر .

فقال : هل أنت مستعد ؟ قلت : نعم . قال : اذا لم نحارب فهناك فرضان لا ثالث لهما : اما أن تنتصر انجلترا وحلفاؤها ، واما أن ينتصر المحور . فاذا انتصرت انجلترا ولم نعلن الحرب بجانبها فقد ضاع أملنا في المستقبل وكتب علينا أن نظل على هذه الحالة من الهبوط والهوان ، فلن ينسى الانجليز لنا اننا تخلينا عنهم فى محنتهم وآثرنا الأمن والعافية.

واذا انتصر المحور فاننا لن ننجو من ويلات الحرب ، فان الجيوش المتحاربة ستجعل من مصر ميدانا لها تصب فيه قذائفها برا وبحرا وجوا.

ولم يمنع المحور من ضرب القاهرة الا تهديد تشرشل بضرب روما ، ولم يمنع الجيش الزاحف من دخول مصر الا عجزه عن الوصول وستحقق لك الأيام ذلك ، وقد حققته فعلا ، واذا نجونا من تخريب المنتصرين فلن ننجو من تخريب المنهزمين .

وأى أمل لنا فى انتصار ألمانيا ، وهى تنظر الى المصريين نظرتها الى العبيد .

واذا حاربنا فهناك فرضان أيضا لا ثالث لهما : أن تنتصر انجلترا وفى هذه الحالة يكون طبيعيا ان اسوى مشاكلى مع حليفتى بالحجة والا فان قوة جيشى المنتصر ستنهض دائما حجة قوية فى وجه من يسلبنى حقى .

أما اذا انتصرت ألمانيا فانها ستعاملنى معاملة الشعوب المناضلة لا الشعوب المتواكلة ، فاذا لم يكن ذلك فانى استطيع ان اتخذ من جيشى المنهزم عناصر قوية لتاليف عصابات تحارب الفاتح وتقض مضجعه .

ويقول كامل الشناوى : ان أحمد ماهر قال له قبل أيام من مقتله : انا نؤمن بان هذا العمل ــ دخول مصر الحرب ــ سيقضى على الجهل والخوف وهما من غير شك علة تأخرنا .

وما دام هذا ايمانى فليكن ما يكون .. وما الذى سيكون ؟

هل سأقتل ؟ وهل يخشى المؤمنون من الموت فى سبيل ما يعتقدون، انما يخشى على نفسه من يعيش لنفسه ، وأنا والله لا أريد أن أعيش الا لبلدى ..

وأضاف الأستاذ كامل الشناوى أن أحمد ماهر رأى أن من المصلحة الا ينشر عن الموضوع أى شىء الا بعد أن يصدر البرلمان قراره .

وكان ذلك ـ فى رأيى ـ الخطأ القاتل ، فلو أن أحمد ماهر فتح باب الحوار فى الموضوع وطال فيه الأخذ والرد والحوار والنقاش ، قبل أن يعرض على مجلس الشيوخ والنواب ، ربما اقتنع العيسوى بأنه لا فائدة ترجى من اغتيال رئيس الوزراء ما دامت وجهة نظره تلك التى أفصح عنها لكامل الشناوى .

كان المنطق الى جانب د. أحمد ماهر وكان الحق الى جانبه أيضا ما دام ان الجيش المصرى لن يحارب خارج الأرض المصرية وربما كان الظلام القاتل الذى أحاط موضوع اعلان مصر الحرب على المحور من الأسباب التى جعلت الظلام يعم المواطنين جميعا ، فلم نعرف ـ نحن الجماهير ـ متطلبات تلك الحرب ولا تكاليفها ولا أعبائها . بل لم نعرف الفوائد المرجوة من دخولنا تلك الحرب .

غيبة الحوار الصريح الواضح المفتوح ـ فى رأيى الشخصى ـ كانت من أهم الأسباب التى جعلت محمود العيسوى يقدم على جريمته ، بدليل انه ـ كما أعرف جيدا ـ لم يقرر الاغتيال الا بعد أن صدرت صحف الصباح وليس فيها أى كلام عن الموضوع الذى سيبحثه المجلسان فى المساء .

وزاد الطين بلة أن جريدة البلاغ المسائية نشرت بيانا لحزب الوفد المصرى يعلن معارضته لدخول مصر الحرب مما دفع العيسوى الى التفكير جديا فى اغتيال أحمد ماهر باشا بعد أن قرأ جريدة البلاغ مباشرة .

والذى لا شك فيه ـ والحديث لا يزال عن أحمد ماهر وشجاعته ـ ان أحمد ماهر كان من أشجع السياسيين الذين عملوا بالسياسة فى مصر على الاطلاق فلم يعرف من فى مثل شجاعته على الاطلاق .

ولعله الفدائى الوحيد الذى سجن قبل أن ولى الوزارة .

وسجن بعد أن تولى الوزارة ، ولعله السياسى الوحيد الذى صاح فى مواجهة مصطفى النحاس باشا أثناء المباحثات الخاصة بتشكيل وزارة ٤ فبراير ١٩٤٢ قائلا : لقد جئت على الحراب البريطانية ، وكان كل زعماء مصر موجودين فى ذلك الاجتماع الذى كان يرأسه الملك فاروق .

كان أحمد ماهر هو الذى صاح فى وجه مصطفى النحاس متهما اياه بأنه جاء الى الحكم على أسنة رماح الانجليز .

وكان هو الذى احتج احتجاجا رسميا على ٤ فبراير ١٩٤٢ بل هو وحده الذى أصدر بيانا هاجم فيه رئيس الوزارة ـ مصطفى النحاس

باشا ــ والحاكم العسكرى العام ــ مصطفى النحاس باشا ــ وهو وحده الذى كتب الى رئيس مجلس الوزراء يتحداه أن ينشر نص الخطاب الذى وجهه السفير البريطانى فى القاهرة الى الملك فاروق بضرورة تشكيل وزارة وفدية يرأسها النحاس باشا · وفيما يلى نص هذه الرسالة التى تعتبر وحدها أقوى دليل على شجاعة الرجل العظيم د· أحمد ماهر :

القاهرة فى ١٩٤٢/٢/٢٦

حضرة صاحب المقام الرفيع

ذكرت فى كتابى اليكم بتاريخ ١٤ فبراير ١٩٤٢ ، انكم منذ وليتم الحكم لم تسمح لأحد من معارضيكم أن يعلن رأيا أو يصحح واقعة أو يرد على حملاتكم الظالمة بحكم الرقابة الصحفية ، وطالبتكم بما يقضى به أول الواجبات عليكم وهو أن تسمحوا لغيركم بمثل ما يسمح لكم به وأنتم خارج الحكم ، فذكرتم فى ردكم أنكم كنتم تنكرون باسم الأمة مجلس النواب السابق الذى تدعون أنه زيف عليها ، ولو كان ما تدعون حقا لاقتضى منع رفعتكم من الخطابة والنشر · على أنه من بين الحكومات السابقة التى شملها اتهامكم ، من ظفرت بثقة نوابكم وتأييدهم فى المجلس السابق فهل أنتم تجدون حقا حين تطعنون على الحكومات التى استحقت تأييدكم وثقة نوابكم ؟ · أمن يدعى الحرص على سلامة تمثيل رأى الأمة يرضى لنفسه أو لتلك الأمة ان تدعى الى انتخابات تحت سيف الحكم العرفى المسلط دون أن يسمح للمعارضة ان تبين سبب هذه الانتخابات كما ترى وكما هو الحق وكيف جرت الحوادث بفرض الحكومة القائمة واملائها من سلطة أجنبية ، املاء أضر باستقلال البلاد ونال منها ·

هل ترون المجلس الذى يولد فى هذا الجو المظلم والحقائق محبوسة بفعلكم عن الناخبين مجلسا يمثل ارادة الأمة ؟

وما دمتم تريدون أن تحتكروا لأنفسكم تمثيل الأمة والكلام باسمها والتعبير عن رأيها · فما الذى يخيفكم ان يعلن لها ما حصل من اعتداء مسلح على استقلالها ؟

ألستم تدعون كل يوم أنكم أنقذتم الموقف ومنعتم الكارثة · فلم لا تريدون نشر حقيقة وقعت ليزيد تعلق البلاد بكم وتأييد الأمة لكم ان صح ما تدعون ؟ لم تخشون بيان الوقائع مجردة عن كل تعليق ، ولعلمكم أنها تنطق وحدها بأنكم مشتركون فى تدبير هذا الاعتداء المسلح على استقلال البلاد ، وأن ذلك كان الطريق الذى قد وصلتم منه الى كراسى

الحكم .. كتابى اليكم يبين نقطا لا يرتقى اليها الشك أعود فاذكرهـا مختصرة :

ويذكر أحمد ماهر من بين تلك النقاط ما كان خاصا باجراء الانتقابات مع وجود الحكم العرفى . ويخاطب د. ماهر النحاس باشا قائلا : أين كانت وطنيتكم يوم عارضتم قيام الأحكام العرفية وملأتم الدنيا صراخا بانها اجراء ظالم لا مبرر له ؟ وتدعون بعد ذلك انه ليس أحرص منكم على حرية الانتخابات وحرية الرأى . فهل خيل لكم أن بالعقول مسا ، حتى تصدق دعواكم ؟ تقولون أنكم ببقاء الحكم العرفى توقفون الفتنة ، أية فتنة هذه التى تخشونها ، والفتنة لا تقوم الا فى ظلكم وحماكم ، ولا ذكر لها الا بين أتباعكم .. ونذكركم بالعدوان الذى وقع على رجال المعارضة ، فتقولون بانها حادثة فردية أوكل الى النيابة أمرها . والحوادث كثيرة ، متعددة تسترونها بالرقابة الصحفية عن الجمهور ولو سمح بنشرها ـ وأنتم تعلمونها ـ اذن لزاد الرأى العام علما بمبلغ جرأتكم على الحق وأنتم اليوم المسئولون عن الأمن العام . لقد حوصر قصر الملك فلم يسمح للناس بعلم ذلك فماذا يكون ما تخفونه مما يقع على الأفراد الى جانب هذا . وعاودتكم الأدوار القديمة بهواجس الدسيسة من أعراض عذاب ضميركم بذكرى ولايتكم للحكم ، وهى ذكرى أليمة ستبقى جاثمة على صدوركم أثقل من أدوات الحرب التى أحاطت بالقصر الملكى وأملت أسمكم املاء لولاية الوزارة بالانذار المسلح المشئوم ولنا أن ننتظر من مثل هذه الأعراض صورا أعجب من هذا وأغرب فهى جزاء الله العاجل لكل من اجترأ على حقوق البلاد جرأتكم وانكم لتعلمون أنى اذ أقول هذا انما أورد ما سبق لى أن حكمت به على قبولكم الحكم فى تلك الظروف القائمة حكما صريحا فى مواجهتكم وبحضور جمع من عظماء مصر فى القصر الملكى لم ينكره واحد منهم واسمعتكم انكم جئتم الى الحكم على أسنة الحراب البريطانية و .. و ...

ثم يقول د. أحمد ماهر : اذا كنتم تعتقدون أن رأيى باطل . فلماذا لا تسمحون بنشره على الجمهور وتفندونه ؟ يقولون لو أن الأمر يتعلق بشخصكم لنازلتمونا فى الميدان والظروف والأسلحة التى نختار لننظر أيها أعز قبيلا وأولى بكم أن تقولوا لولا أن الأمر يتعلق بشخصنا لنازلناكم .. الخ .

ويقول أحمد ماهر مخاطبا النحاس : انشر نص الانذار البريطانى يا صاحب المقام الرفيع ، وتعال ننزل الى الميدان نعرض أمرنا على الناخبين .

وسترى أنه لا قبيل لك من المصريين بل لترين قبيلك صفوف الدبابات والحراسة الانجليزية التى حملتك الى الحكم حملا ، وأملت اسمك املاء لم يسجل تاريخ الحكم أخزى منه ولا أذل · لم يطر بزوال السلطان لبى كما تدعون ، بل الصحيح ·· أنه من أجل الحكم وسلطانه طار لب رفعتكم فقبلتم الحكم على أسنة الرماح البريطانية وعلى حساب استقلال البلاد وزين لكم أن تستروا تلك المأساة بكتابين تبادلتموها مع السفير البريطانى تدعون أنكم رددتم بهما على مصر حقوقهـا وصنتم كرامتها وانقذتم استقلالها الذى أضاعوه · فكيف ضيع الاستقلال ؟

ألا تسمحون للرأى العام بالاطلاع على تفاصيل هذه المأساة ليعرف أمرها ويتحاشى فى المستقبل الوقوع فى مثلها ·

ثم ليعرف لكم هذا الفضل الكبير الذى شاء تواضعكم ان يخفى مقوماته وتعلن نتائجه ·

كيف يؤمن الناس بالانقاذ وأنت تكتم عنهم الكارثة التى انقذت البلاد واستقلالها منها ·

نحن نرى انك طرف فى مأساة العدوان على الاستقلال وان وجودك فى الحكم أكبر دليل عليه ·

وان الكتابين لعبة تنم عن شيء واحد هو محاولة ستر الحقائق عن الجمهور ·· بل نرى فيهما فوق ذلك دليلا مؤكدا للعدوان واقراره من جانبكم · فلماذا لا تذاع الوقائع كاملة ؟ لماذا لا تنشرون محضرا كاملا من جلسة الاستشارة فى سراى عابدين ؟ لماذا لا ينشر نص الرد الذى أشير به من الحاضرين ورفعتكم من بينهم على جلالة الملك ؟ أنشر كل هذا أولا وتعال بعد ذلك نحتكم الى الجمهور ·· !!

انت اليوم تستر عملك بالحكم العرفى ، وأنت أول القائلين بأنه لا يتحقق فى ظلاله حرية ولا تصح انتخابات عامة ، فكيف تدعو معارضيك الى ما نكلت عنه مع فارق أنهم سمحوا لك من حرية الرأى بما حرمته عليهم تحريما مطلقا أرأيت بعد ذلك أن مانعك الوحيد من اجابة طلباتنا الحقة لم يكن صالح الوطن وانما هو صالحك الشخصى فى اخفاء مسئوليتك والسبيل الذى وردت به الى الحكم ·

وينهى د · أحمد ماهر باشا رسالته الشجاعة الى مصطفى النحاس باشا قائلا : استتر بالحكم العرفى قليلا أو طويلا فان حكم التاريخ لا فرار منه ولا يتعدى بعد ما أوغلت فيه من ظالم التهم وباطل الدعاوى ·

زجعث في آخر خطابك تقول ، أنك لا تميل الى أن تطيل جدالنا » .
وبذكر أحمد ماهر قوم نوح حين اخذتهم حجة الحق فحاروا فيه . قالوا يانوح قد جادلتنا فاكثرت جدالنا فائتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين .

« وقد جاءهم من الله ما كانوا يستحقون وأنجى الله نوحاً والذين معه وكانوا يتقون » .

تلك أشجع رسالة وجهت الى أى رئيس للوزراء يملك فى يده سلطة الحكم العرفى وقوة الجيش والبوليس و ... و ..

رسالة شجاعة بعث بها رئيس حزب الهيئة السعدية الى رئيس الوزراء والحاكم العسكرى العام وكان يمكن أن يعتقل أو يسجن صاحبها ، ولكن النحاس باشا لم يشأ أن يعتقل ماهر كما اعتقل مكرم بعد ذلك . وكان أحمد ماهر ــ بعد تلك الرسالة الشجاعة على أتم الاستعداد .... لا للسجن ولا للاعتقال وحسب ، وانما للاعدام . لقد كان بحق أشجع السياسيين المصريين .

واترك حفل الأربعين لذكرى الرجل البطل ، أحمد ماهر لأقول اننا فى الحبسخانة وبعد الاحتفال بتلك الذكرى كنا نترقب انتهاء النيابة العامة من التحقيق ، وتحديد مراكز المتهمين ، ان كان هناك متهمون آخرون غير محمود العيسوى خاصة وان الأحداث الحربية ، كانت تتوالى بسرعة .

الحلفاء يحققون كل يوم انتصارات عظيمة والمحور (ألمانيا واليابان) يتراجع يوما بعد يوم ولكن اعتقادا كان قد رسخ عند الكثيرين أن هتلر ــ فى اللحظة الحاسمة ــ سيفتح المخزن رقم ١٣ ، ليخرج منه سلاحا جديدا خطيرا يضمن له النصر النهائى فى الحرب .

البـــاب الخـامس

الفصل الأول

وانتهت فجأة الحرب فى أوروبا ولم يفتح الألمان المخزن رقم ١٣
نهايات : هتلر وموسولينى وهيملر وجوبلز وايفا وكلارا ..

ابتداء من ٢٦ فبراير ١٩٤٥ أصبحت مصر فى حالة حرب مع الرايخ الألمانى وامبراطورية اليابان بعد أن وافق مجلس النواب على سياسة الحكومة بأغلبية ٢١٤ صوتا ولم يدل الوزراء الأعضاء فى مجلس النواب أصواتهم لأنه لا يجوز لهم أن يقترعوا على الثقة بأنفسهم .

كما وافق مجلس الشيوخ أيضا على سياسة الحكومة فى تقرير الحرب الدفاعية بين مصر ودولتى المحور ـ المانيا واليابان ـ ولكن باغلبية ٦٦ صوتا ضد ٤١ صوتا .

وقد كان الوفديون فى جانب معارضة القرار .

وقد جرى التركيز فى قرارى مجلس الشيوخ والنواب على أنها حرب دفاعية لا هجومية ، بالرغم من أن الكثيرين يقولون بأنه لا فارق بين الحرب الدفاعية والهجومية .

وقد اعتبرنا نحن شباب الحزب الوطنى ذلك الاتجاه نتيجة لاغتيال أحمد ماهر باشا ، لأننا نعرف أن الحرب الدفاعية لا داعى لعرض أمرها على البرلمان ، اذ تنص المادة ٤٦ من دستور ١٩٢٣ على أن الملك هو القائد الأعلى للقوات البرية والبحرية ـ لم تكن لدينا قوات جوية وقت وضع الدستور ـ وهو الذى يولى ويعزل الضباط ، ويعلن الحرب ويعقد الصلح ويبرم المعاهدات . على أن اعلان الحرب الهجومية لا يجوز بدون موافقة البرلمان .

ومما لاحظناه أيضا أن المرسوم الملكى الخاص باعلان الحرب على دولتى المحور ، لم ينص على أنها حرب دفاعية . وانما اكتفى باعلان الحرب فقط ٠

وفى نفس اليوم الذى أعلنت فيه مصر الحرب أعلنتها السعودية مستثنية الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة فهى ـ كما جاء فى قرار المملكة العربية السعودية ـ لا تحارب ولا تحارب (بفتح الراء فى الأولى وكسرها فى الثانية) ٠

وقد تغير الموقف الدولى وبسرعة لصالح الحلفاء ، فقد احتلوا كولونيا ووصل الروس الى مصب الأودر الأسفل ،

وبداؤا الزحف على برلين بقيادة المارشال زوكوف ٠

وانهارت المقاومة الألمانية فى الراين والسار ٠

وبدأ الألمان الانسحاب من الالزاس ٠

ثم احتل الحلفاء ــ بعد أيام ــ فرانكفورت ٠

وبدأت قوات مونتجمرى الزحف الى برلين ، بعد أن احتلت ــ كونجسبرج وتم أسر ٣٧ ألف جندى ألمانى فيها فى ٩ أبريل ١٩٤٥

واحتل الجيش التاسع الأمريكى هانوفر ثم اتجه الى هامبورج ٠

ووصل الأمريكيون الى مشارف برلين ، وأصدر هيملر أمرا باعدام كل من يتراجع من الجنود الألمان ، و ٠٠ و ٠٠

وفى ٢٨ ابريل ١٩٤٥ عرضت القيادة الألمانية التسليم لبريطانيا وأمريكا دون قيد أو شرط : فرفض الحلفاء ذلك مصرين على أن التسليم يجب أن يكون لروسيا وأمريكا وبريطانيا معا ٠

وكان هتلر فى ٢٦ أبريل قد أصدر أمرا بمقتضاه أن تكون المعركة حاسمة فى الشرق دون أن يشير الى الغرب ٠

وهذا يعنى أيضا أنه كان يود التفرقة بين الانجليز والأمريكيين وبين السوفييت ٠

وجاءت أولى بوادر التسليم عندما اذاعت محطة ألمانية تسمت باسم « راديو بافاريا الحر » على نفس موجة ميونيخ القديمة أن ديترفون ــ حاكم بافاريا الهتلرى ــ والبالغ من العمر ٧٦ عاما قد قرر « الكف عن القتال الذى لم يعد له معنى أمام قوة الأمريكيين وحلفائهم » ٠

« وأنه لم يعد أمامنا فى هذه الساعة الا أن نلتمس بكل ثبات وايمان زعامة جديدة تعمل على وقف اهدار الدماء وتقصير أمد الكارثة المؤلمة التى نزلت على رأس الشعب الألمانى حتى لا تتضاعف بنشوب الحرب بين الألمان واخوانهم الألمان فاستمسكوا بالنظام حتى تمكنوا زعامة جديدة فى البلاد من أن تعيد الحياة الى مجراها العادى ، بأقصى درجة ممكنة » .

وفى نفس اليوم ـ ٢٨ ابريل ـ قال : بول سكوت برانكين مراسل رويتر فى سان فرانسيسكو ان هيملر ـ نائب هتلر ـ بعث الى بريطانيا والولايات المتحدة برسالة يقول فيها ان هتلر يحتضر وينتظر أن يلفظ أنفاسه الأخيرة فى خلال ثمان وأربعين ساعة من ارسال طلب الاستسلام !!

ولن نطيل فى الحديث عن نهاية الحرب المفاجئة بأكثر من القول بأنه فى الساعة الثانية والدقيقة الواحدة والعشرين من بعد ظهر يوم ٧ مايو ـ حسب التوقيت الفرنسى ـ أعلن رسميا أن ألمانيا النازية قد سلمت بغير قيد أو شرط للولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وروسيا معا ، فى دار مدرسة صغيرة هى مركز قيادة الجنرال ايزنهاور بجوار مدينة ريمس الفرنسية التى تقع على مسافة ٨٥ ميلا شمال غربى باريس .

وقد وقع وثيقة التسليم باسم الحكومة الألمانية النازية الكولونيل جنرال جوستاف بودل وباسم قيادة الحلفاء رئيس أركان حرب القيادة العليا لقوات الغزو باسم الجنرال ايزنهاور والجنرال ايفان شيلو باروف باسم الاتحاد السوفييتى ، والجنرال فرانسوا سيفى باسم فرنسا .

ولم يحضر ايزنهاور توقيع صك الاستسلام ولكنه استقبل على أثر توقيع التسليم كل من الجنرال بودل وزميله الجنرال الأميرال هايسى جورج فرايد بيزخ .

وكان صك الاستسلام من ١٥ صفحة وقد عنى عناية خاصة بكل التفاصيل .

وقد أعلن بودل بعد أن سمح له بالكلام : انى بتوقيعى هذا أضع مصير الشعب الألمانى والقوات المسلحة الألمانية فى أيدى الظافرين » .
ولم يستسلم من الغواصات الألمانية سوى مائة غواصة فقط ، استسلمت فى الموانى .. فى حين قام البحارة الألمان بتخريب ما يقرب من مائتين وعشرين غواصة .

ولم يعترف الألمان فى نشيكوسلوفاكيا باستسلام الأميرال دونتز وأعلنت القيادة الألمانية فى بوهيميا انها ستواصل القتال الى أن تؤمن مخرجا حرا من البلاد ·

كما جاء فى البيان بالنص : ان النبأ الذى أذيع قبل ظهر اليوم من محطة اذاعة فلتسبورج التى يحتلها العدو بأن حكومة الرايخ قد استسلمت بدون قيد أو شرط الى حكومة الاتحاد السوفييتى أيضا لا ينطبق مع الواقع ، بل هو مجرد دعاية معادية ترمى الى تحطيم عزم الألمان على المقاومة ·

ان حكومة الرايخ لم توقف القتال سوى مع الدول الغربية أما فى منطقتنا فسيستمر النضال حتى يتم انقاذ الألمان فى الشرق والى أن يكفل طريق ارتدادنا الى بلادنا ·

وكان وزير الخارجية الألمانية الكونت برن فون كروسيك قد وجه الى الشعب الألمانى خطابا قال فيه : أتلفت الى الشعب الألمانى فى هذه اللحظة الفاجعة فى تاريخنا بصفتى الوزير الأول فى حكومة الرايخ التى عينها أميرال الاسطول دونتز لمعالجة مهام الحرب ، لأقول ان ألمانيا قد سلمت لقوة أعدائها الساحقة القاهرة بعد أن قاتلت قتالا باسلا نحو ستة أعوام ، حفلت بصعوبات لا نظير لها ، وليس من شك فى أن مواصلة هذه الحرب معناها اراقة الدماء فى حماقة وبغير جدوى ·

فالحكومة التى تشعر بمسئوليتها عن مستقبل الشعب قد اضطرت الى أن تعمل بما يقتضيه انهيار جميع القوى الجسدية والمادية وتطلب الى العدو وقف القتال ·

وانه من انبل واجبات اميرال الأسطول وحكومته بعد التضحيات الرهيبة التى تطلبتها الحرب العمل فى مرحلة الحرب الأخيرة على انقاذ أرواح أكبر عدد من أبناء البلاد وبهذا وحده يمكن تفسير السبب الذى من أجله لم تنته الحرب فى الحال فى الغرب وفى الشرق فى وقت واحد ، وأنا لنضع حدا لهذه الساعة التى تعد أشد الساعات التى مرت بالشعب الألمانى ، وبالرايخ ·

واننا لننحنى فى هذه الساعة فى خشوع ووقار عميقين أمام قتلى هذه الحرب ، فلقد وضعت تضحياتهم أثقل الالتزامات على كواهلنا ثم ان عطفنا ليشمل جميع الجرحى والذين أصيبوا بالثكل والحرمان وغير ذلك من الآلام بسبب هذه الحرب ·

ويجب ألا يخامر أحدا منا شىء من الشك أو الوهم بشأن

صرامة الشروط التى سيعرضها أعداؤنا على الشعب الألمانى ، فمن واجبنا الآن أن نواجه مصيرنا مواجهة صريحة ، وفى غير ما تردد ولا يمكن أن يشك أحد فى أن المستقبل سيكون شاقا لكل واحد منا وأنه سيتطلب تضحيات منا فى كل ناحية من نواحى الحياة ··· ويمضى وزير الخارجية الألمانية قائلا ·· ويجب علينا أن نحمل هذا العبء وأن نقف مخلصين الى جانب التعهدات التى قطعناها على أنفسنا ·

على أنه من واجبنا أيضا ألا نقنط ونسقط فى مهاوى الهمـوم ، ولنعمل على الاحتفاظ بشىء واحد من هذا الانهيار وهو الوحدة ، وقد تجلت آراء الجماعة الوطنية فى أسمى معانيها خلال سنى الحرب ظهرت روح الزمالة فى جبهة القتال وفى استعداد الكل لمساعدة الآخرين فى جميع المحن التى أصابت الوطن ·

وستكون العـدالة فى أمتنا القانون الأعلى والمبـدأ الذى يرشـد الجميع ·

ويجب علينا أيضا ان نعترف بالقانون على أنه أساس جميع العلاقات بين الشعوب ··

يجب أن نعترف به وان نحترمه من أعماق نفوسنا ·

وسيكون لاحترام المعاهدات مثل القداسة التى يتطلبنا الخـاص بأن نكون تابعين لأسرة الشعوب الأوربية وهى الأسرة التى نريد أن نكون عضوا فيها حتى نجند جميع القوى البشرية والمادية والأدبية فى العمل على رأب الجراحات الرهيبة التى أحدثتها هذه الحرب ·

وعند ذلك نستطيع أن نرجو أن تزول هذه الكراهية التى يشعر بها لعالم كله الآن نحو ألمانيا وان تحل فى مكانها روح التوفيق بين الشعوب وهى الروح التى لا يستطيع أن يعيش العالم بغيرها ·

★★★

ويعلن الأميرال دوتنز الفوهرر الألمانى الجديد فى ٨ مايو أن مهمته انقاذ أرواح الألمان من التهلكة « وأن علينا نحن الألمان أن نجابه الحقائق المريرة فى الموقف الراهن ، وقد اختفى الحزب النازى ولم يعد هو والدولة كتلة واحدة فانهارت بذلك الأسس التى بنى عليها الرايخ ·

★★★

ولقد أصبحت دفة الحكم فى ألمانيا بعد أن تم احتلالها فى يد قوات الاحتلال فأما بقائى فى الحكم مع الحكومة التى شكلتها أو عدم بقائى فذلك أمر متروك لهذه القوات وسيتوقف هزيم المواقع ابتداء من السـاعة

الحادية عشر من اليوم الثامن من مايو ، وقد جعل الجنود الألمان الذين حنكتهم المعارك الكثيرة يتخذون الآن سبيلهم المريرة الى الأسر .

وبهذا يبذلون آخر تضحية في سبيل حياة نسائنا وأطفالنا وفي سبيل مستقبل شعبنا » .

ويمضى الأميرال دونتز في بيانه الدامي قائلا :

ولا يسعنا في هذه الساعة الا أن ننحني اجلالا لبطولتهم التي تجلت في ألف موقف وموقف وأن ذكرى من سقطوا في الميدان ومن وقعوا في الأسر من ابنائنا لحاضرة في قلوبنا دائما .

ولقد وعدت شعبنا الباسل من رجال ونساء وأطفال أن أمهد له السبيل الى حياة محتملة بالقدر الذي أستطيعه في الأوقات العصيبة القادمة .

ولست أدري ماذا استطيع أنا ان أفعل في سبيل مساعدتكم في هذه الأوقات العصيبة ، فان علينا أن نواجه الحقائق ، وليس لنا الا أن نمضي في هذا السبيل ، متعلقين بأمل واحد هو أن يجيىء العهد الذي يحيا فيه أبناؤنا حياة حرة آمنة في ظل السلام بأوربا .

ولست أريد أن أتخلف عنكم في هذا الطريق الشائك .

فاذا دعاني الواجب البقاء في الحكم فسأحاول أن أساعدكم على قدر ما أستطيع .

واذا اقتضاني الواجب أن أعتزل أعتزلت في سبيل الشعب ، والرايخ » .

★★★

ولكن الحلفاء لا يبقون على حكومة الاميرال دونتز وانما يبادرون باعتقاله رغم أنه بمحاولته السلمية تلك قد انقذ مئات الألوف من أرواح الألمان ومن أرواح الحلفاء أيضا اذ كانت أداة الحكم الألمانية تملك المقاومة باصرار أياما بل أسابيع وأشهرا وهذا يزيد من ضحايا كل الأطراف المتحاربة .

كما تم اعتقال جورنج بناء على تعليمات من الجنرال لوسيوس كلاى نائب الجنرال ايزنهاور وبصفته الحاكم العسكري لألمانيا ، كما تم اعتقال القادة النازيين الكبار وتم سجنهم بعد الاعتقال على أن يعاملوا أسوأ معاملة ولا يحصلون الا على احتياجاتهم الضرورية .

ويذيع ملك بريطانيا على شعبه ، وعلى شعوب التاج البريطاني خطابا يقول فيه : انه يستشعر راحة كبرى اذ يرى هذه السنوات التي

اكتنفت بالظلام الدامس وغصت بالخطر الداهم وشب أطفال هذه الأمة فى أحضانها القانمة ٠

وقد انصرمت الى غير رجعة والحمد لله ، وكم يكون رجاؤنا موهوبا للخيبة وكم يكون هذا الدم الذى سال من جراحات اعدائنا قد جرى عبثا اذا لم ينته النصر الذى قضوا فى سبيله الى سلام باق على الأرض. دعامته العدالة ولحمته المودة فلنتوجه بأفكارنا جميعا الى هذه الغاية فى هذا اليوم الذى يلتقى فيه النصر العادل بالأمس المزهو ٠

فاذا كان الغد فان علينا أن نستأنف الجهاد مرة أخرى وقد جمعنا أمرنا على ألا نقدم على أمر غير خليق .بأولئك الذين أسلموا أرواحهم من أجلنا وأن نقيم دعائم عالم جديد بعد ذلك ٠٠ العالم الذى تمنوه لأبنائهم ولنا ٠

واستطرد ملك بريطانيا العظمى قائلا : دعونا نحيى الأحياء الذين جاءوا لنا بالنصر ونذكر لهم فضلهم بكل فخر ، وانى باسم تاجكم الذى أحمله أتوجه من أعماق فؤادى بالشكر لجميع القوات المسلحة فى البر والبحر والجو ، وللمدنيين الذين حملوا أثقل الأعباء دون أن ينوءوا بها أو يضيقوا ذرعا ٠

ولقد كنا نحس فى أحلك الساعات أن شعوب أوربا المعزولة المستبعدة تتطلع الينا ٠

وكنا ندرك أننا اذا أخفقنا أو تعثرنا تهاوى آخر سد قائم فى وجه الطاغوت الناشب فى العالم ، وانهار على عروشه وذهب أدراج الرياح ٠

ولكننا لم نتعثر ولم نخفق بل تغلبنا بثقتنا بأنفسنا وبثقة كل منا بالآخر واستمساكنا بايماننا بحلفائنا الأمجاد ، وبالعروة الوثقى التى تشدنا اليهم ٠٠ وهذا ما هدانا سبيل النصر » ٠

أما تشرشل فقد وجه خطابا أعلن فيه ــ فى ٨ مايو ــ انتهاء الحرب قائلا : ستنتهى الأعمال العدائية بصفة رسمية بعد دقيقة واحدة من منتصف الليلة ولكن تبادل النيران بدأ يتوقف منذ أمس ابقاء على الأرواح وسيتم تحرير قناتنا العزيزة (المانش) اليوم ٠

وهكذا أدركت الحرب الألمانية نهايتها بعد أن ظلت المانيا تتأهب لها سنوات طويلة ٠٠

الى أن يقول : ولسنا نملك فى هذه الساعة الا أن نتوجه من هذه الجزيرة ومن جميع أنحاء الامبراطورية البريطانية بآيات الاعتراف بالجميل من أعماق قلوبنا الى جميع حلفائنا الأمجاد ٠

وقد نهب لأنفسنا فى هذه الساعة هنيهة للابتهاج والراحة على ألا نغفل لحظة واحدة عن المهمة الباقية أمامنا وما تتطلب من جهد فان اليابان لا تزال قائمة ولا تزال خياناتها ومطامعها باقية ولا يزال الجرح الذى أصاب بريطانيا العظمى والولايات المتحدة وغيرهما من الأمم فيها وجرائمها البغيضة الآثمة تدعونا الى الاقتصاص منها واقامة الحد عليها وعلينا الآن أن نوجه كل قوانا ومرافقنا لانجاز مهمتنـــا فى الداخـل والخارج معا ·

فالى الأمام يابريطانيا ولتحيا قضية الحرية وليحفظ الله الملك » ·

***

ولم يكد تشرشل ينهى اذاعة خطابه حتى أخذت فـــرق الحـرس الاسكوتلاندية تعزف بموسيقاها احتفالا بانتهاء الحرب فى أوروبا ·

***

وكان هارى ترومان قد وجه كلمة باسم الولايات المتحدة الأمريكية فى الساعة الرابعة من مساء نفس اليـــوم ـ ٨ مايو ـ قال فيها : هذه ساعة رهيبة تليها ساعة مجيدة ·

وكلنا نتمنى لو كان الرئيس روزفلت لا يزال حيا ليرى هذا اليوم·

لقد أخبرنى الجنرال ايزنهاور أن قوات ألمانيا قد استسلمت للأمم المتحدة ، وأن اعلام الحرية تخفق اليوم على أوروبا بأسرها ·

وقال : هارى ترومان أيضا : ان العمل الذى ينتظرنا ليس أهم ولا أقل خطورة ولا أقل صعوبة من المهمة التى أنجزناها ·

وانى أهيب بكل أمريكى ان يظل محتفظا بمركزه الى أن يتم كسب المعركة الأخيرة والى أن يحل ذلك اليوم يجب ألا يتخلى كل رجل عن مركزه وألا تعرض النصر للخطر » ·

ويتلو هارى ترومان النداء التقليدى فى هذه المناسبة : الآن ·· أعلن أنا هارى ترومان رئيس الولايات المتحدة الأمريكية أن يوم الأحد ١٣ مايو ١٩٤٥ سيكون يوما خالدا ·

وأهيب بالشعب الأمريكى أن يشترك بأسره فى التقدم بالشكر الى الله على هذا النصر الذى مكننا من احرازه كما أطلب من مواطنى أن يخصصوا ذلك اليوم لذكرى أؤلئك الذين استشهدوا لتمكيننا من الظفر بهذا النصر ··

***

وتحتفل مصر بيوم النصر فى ١٩٤٥/٥/٨ فيهنىء الملك فاروق الأمم المتحالفة وتطلق المدافع من مواقع قلاع القاهرة والاسكندرية وبورسعيد ، ٤١ مدفعا ٠

ويذيع محمود فهمى النقراشى باشا كلمة بداها بقولـه : وأخيرا دقت ساعة العدل الالهى ، بعد أن ظلت الشعوب سنين ترقبها آناء الليل وأطراف النهار ٠

ختم رئيس الوزراء كلمته بقوله : وانا لنتقدم الى حليفتنا العظمى والى سائر الأمم المتحدة بتهانينا الحارة بهذا اليوم العظيم ٠

والآن أيها المصريون فلنساهم بنصيبنا الحق فى وضع النظام المنشود للعالم الجديد يحدونا روح من الاخلاص ورائـــد من التضامن والكرامـة والشرف ٠

★★★

ويذيع لورد كيلرن خطابا من محطة الاذاعة اللاسلكيـة للحكومـة المصرية يقول فيه : « ان بريطانيا لتذكر ثبات مصر ، وأمانتها ، وحزمها فى تلك الساعة الرهيبة وخدماتها التى قدمتها لقضية الحلفاء ثم ان مصر ليست بأقل منا تذكرا لما هى مدينة به للاسلحة البريطانية ومن تعاون الجميع فى الدفاع عن هذه الحرية ٠

وقد ازدادت الصداقة التى تربط الشعبين البريطانى والمصرى قوة وصلابة وتركزت على أساس ثابت متين ، بعد أن بلتهـــا الحرب بمحنها وويلاتها القاسية ٠

ولا يزال فى الشرق الأقصى عدو قوى عنيد يواصل مقاومة قضية الحلفاء ، واذا كنا نبتهج لتقويض دعائم الطغيان النازى فاننا يجب أن نعلم ان القتال يجب أن يستمر فى الشرق وستظل مصر ما استمر هذا القتال قاعدة لها أعظم أهمية بالغة بالنسبة الى مجهود الحلفاء الحربى ٠

وكان صوت الشعر مرحبا بالسلام ، قويا مدويا ٠٠ وكـــان من أوائل الشعراء الذين رحبوا بفتح برلين الشاعر عزيز فهمى حيث قال ضمن ما قال :

قضى الصبح اذ لاحت بـــوادره ، ... وودع الليل بعد السـهد ساهـره
جلاه فى غلس الاسحـار كوكبـــه ... لما انجلى الليل وانجابت دياجـره

الى أن يقول :

نعاك (برلين) برق جل موقعـه ... فى العالمين ولم تشفق مصـــادره
وخفف الحزن عنا عذابا يخففـــه ... نصر الحليف وما زلنا نـؤازره
أمانة حملتها مصر راضيـــة ... والسيف متصلت والموت شاهـره

وقال الشاعر على الجارم عن « عودة السلام » :

سكن السيف غمده بعد أن صـال عنيفـا مناجزا عربيـدا
ما أحمر الأصيل الا دمـــاء بقيت فى يد السماء شهودا
طائرات ترى الصواعـق لا تخشى الها ولا تخـاف عبيـــدا

الى أن يقول :

ذهب الموت بالحقـــود فماذا لو محوتم قبـل الممـات الحقودا
شـــهوات نازية تمحض الأر ض وتجتـاح أهلهـــا لتسـودا
ويســوى جماجم النـاس أبرا جا ليبغى الى السماء صعودا
قد رأينا الأسود تقنع بالقـــو ت فليت الرجال كانت أسودا

ويختتم على الجارم قصيدته الرائعة بقوله :

ليت شعرى ماذا سنجنى من النصر وهل تصـــدق الليـالى الوعودا
وهل الأربع الروائع « كانت حلما له فلا سيدا ترى أو مسودا
وهل انقـــادت الممالك للعـــد ل مواثقنـــا ، وعهـــودا
وهل الحق صار بالسلم حقـــا واذابت لظى الحـــروب القيودا
وهل العرب تسترد حماهـــا وتناجى فردوسهـــا المفقـــودا
وترى فى السلام مجدا طريفا جاء يحيى بالأمس مجدا تليـــدا
بذلت مصر ، فوق ما يبذل الطو ق وقد يسعف النديد النديدا
فى فيافى صحرائها لمع النصر وولى روميـل يعـدو طريـدا
فهى اذ تنثر الورود تناغـــى أملا ضاحكا يقـود الـــورودا
وهى ترجو لا بل تريد وأجـــدر بابنة النيل وحدها أن تريـــدا

★★★

ومن حق قارىء تلك المذكرات أن يعرف شيئا عن تلك الحرب التى اكتوى العالم كله بنيرانها .

فى أول سبتمبر ١٩٣٩ غزت القوات الألمانية بولندا .

وفى ٣ سبتمبر أعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب على ألمانيا .

وفى ٢٧ سبتمبر سقطت وارسو « عاصمة بولندا » .

وفى ٣٠ نوفمبر بدأت الحرب الروسية الفنلندية وكنا نتندر بما كنا نقروءه عن تعثر القوات الروسية أثناء تغلغلها فى فنلندا ، الدولة الصغيرة ونقارن بين قوة ألمانيا وقوة روسيا .

فى ١٧ ديسمبر ١٩٣٩ أغرق الألمان البارجة جراف سبى .

وفى ١٢ مارس ١٩٤٠ تم توقيع معاهدة صلح بين روسيا وفنلندا .

وفى ٩ أبريل دخلت القوات الألمانية الدانمرك والنرويج ٠

وبعد ذلك بستة أيام نزلت القوات البريطانية الى النرويج وانسحبت منها فى ٢ مايو ٠

وفى ١٠ مايو غزت ألمانيا بلجيكا وهولندا والدانمرك ولوكمسبرج٠

واستقال رجل السلام تشمبرلين وجيىء بونستون تشرشل رجل الحرب فى بريطانيا ٠

وفى ١٤ مايو استسلمت هولندا وبعد ذلك بثلاثة أيام دخل الألمان بروكسل ٠

وفى ١٦ مايو وصل الألمان الى المانش واحتلوا بولونى وبعد يومين استسلم الجيش البلجيكى ٠

وفى ٢٩ مايو بدأ الجلاء عن دنكرك ، وكان الجلاء عن دنكرك من الأحداث المؤلمة التى هزت الحلفاء ٠

وفى ١٠ يونيه دخلت ايطاليا الحرب الى جانب ألمانيا ضد الحلفاء ٠

وفى ١٤ يونيو دخلت القوات الألمانية باريس عاصمة فرنسا وكانت قد اعتبرت مدينة مفتوحة حتى لا تدمر ٠٠

وبعد ثلاثة أيام أصبح المارشال العجوز بيتان رئيسا لفرنسا ٠

وبعد خمسة أيام وقعت الهدنة الألمانية الفرنسية فى كومبين ٠

وفى الجبهة الشرقية ــ فى ٢٨ يونيو ١٩٤٠ ــ احتلت روسيا بسارابيا وشمال بوكوفينا ٠

وفى ٨ أغسطس بدأ الألمان حربهم الجوية الخاطفة ضد الجزر البريطانية ٠

وفى شمال أفريقيا (فى ٥ سبتمبر) استولى جرازيانى ــ القائد الايطالى ــ على سيدى برانى فى أول قتال يدور فى الصحراء ٠

وفى ٢٢ سبتمبر ١٩٤٠ دخلت القوات اليابانية الهند الصينية الفرنسية ، وبعد خمسة أيام ، انضمت اليابان الى محور روما برلين ٠

وفى ٢٨ أكتوبر هاجمت ايطاليا اليونان ٠

وفى ٢٠ نوفمبر انضمت المجر الى المحور ، وبعد ثلاثة أيام انضمت رومانيا ٠

وفى اليوم التالى ـ ٢٤ ـ انضمت سلوفاكيا ٠

وفى ٩ ديسمبر بدأ روميل هجومه فى الصحراء الغربية :

***

هذا فى عام ١٩٤٠ ٠

***

أما فى عام ١٩٤١ :

فى ١٠ فبراير أعلنت بريطانيا الحرب على رومانيا ٠

وفى أول مارس انضمت بلغاريا الى المحور واستقبلت القوات الألمانية ٠

وفى ٢٥ مارس انضمت يوغوسلافيا الى المحور وقامت ثورة فى يوغوسلافيا فى اليومين التاليين ولكن يوغوسلافيا عادت فوقعت بيان عدم اعتداء مع روسيا وهاجمت ألمانيا يوغوسلافيا واليونان ٠

وفى ١٣ أبريل وقعت اليابان وروسيا معاهدة عدم اعتداء لمدة خمس سنوات ٠

وفى ١٤ أبريل دخلت قوات المحور الأراضى المصرية من ليبيا وطوقت طبرق ٠

وفى ١٦ ابريل هاجمت ثلاثمائة طائرة من المحور لندن فى أطول غارة جوية ٠

فى ٢٧ ابريل سقطت أثينا ٠

وفى ٦ مايو أصبح ستالين رئيسا للوزارة السوفيتية ٠

فى ١٠ مايو وصل هيس نائب هتلر الى سكوتلندا ٠

وبدأ فى ٢٠ مايو غزو جزيرة كريت ٠

فى ٣١ مايو فر رشيد عالى الكيلانى بعد أن فشلت ثورته ضد بريطانيا فى العراق ٠

٨ يونيو : البريطانيون يبدأون حملة لغزو لبنان وسوريا ٠

١٨ يونيو : وقعت ألمانيا وتركيا معاهدة عدم اعتداء لمدة عشرة أعوام ٠

٢١ يونيو : ارتكبت ألمانيا أكبر غلطة فى الحرب اذ هاجمت الاتحاد السوفيتى وبدأ روزفلت ـ الرئيس الأمريكى ـ فى مساعدة روسيا ٠

فى ٢٥ أغسطس احتل البريطانيون والروس ايران ، وقبل المجلس الوطنى الايرانى الشروط البريطانية السوفيتية ٠

١٩ سبتمبر : احتل الألمان كييف كبرى المدن الروسية ٠

٣ أكتوبر : قال هتلر : لقد قضمنا ظهر روسيا ولن تقف على قدميها بعد الآن ٠٠ وكان واهما ٠٠

٧ ديسمبر : اليابان تهاجم بيرل هاربر وتلحق بأمريكا خسارة فادحة ٠

وفى اليوم التالى ـ ٨ ديسمبر ـ تعلن الولايات المتحدة الحرب على اليابان ٠

وفى ١١ ديسمبر تبادل الألمان والايطاليون اعلان الحرب على الولايات المتحدة ٠

٢٥ ديسمبر : يستولى البريطانيون على بنغازى وتستسلم هونج كونج ٠

***

فى عام ١٩٤٢ : ومع أول أيامه توقع ٢٦ دولة تصريح الأمم المتحدة ٠

وفى اليوم التالى (٢ يناير) تستولى اليابان على مانيللا ٠

وبعد ستة أيام تنزل القوات اليابانية فى بريطانيا الجديدة ، وبوجانفيل وغينيا الجديدة بالمحيط الهادى ٠

وفى ٢٩ يناير يسترد الألمان بنغازى ٠

وفى ١٥ فبراير تسقط سنغافورة فى أيدى اليابانيين وكذلك رانجون فى ٨ مارس ٠

فى ٢٦ مايو يبدأ روميل فى الهجوم فى الصحراء الغربية ٠

فى ٢٦ مايو ـ أيضا ـ يوقع مولوتوف وايدن تحالفا انجليزيا روسيا لمدة ٢٠ سنة ويزور ـ بعد ثلاثة أيام ـ مولوتوف واشنطون ٠

وفى ١٨ يونيو يزور تشرشل واشنطون ٠

وفى أول يوليو سقطت اسباستبول بعد مقاومة رائعة سجلت للشعب السوفيتى ٠

وفى ٤ يوليو صد الجيش البريطانى قوات روميل عند العلمين ٠

وفى ٢٣ أكتوبر يبدأ الجيش البريطانى الثامن الهجوم من العلمين ٠

وفى ٧ نوفمبر : ينزل الحلفاء فى شمال أفريقيا ٠

وفى ١١ نوفمبر يدخل الألمان منطقة فرنسا غير المحتلة ٠

وفى ٢٧ نوفمبر يغرق الفرنسيون أسطولهم فى طولـــون حتى لا يقع فى أيدى الألمان ٠

فى يناير ١٩٤٣ نجح الروس فى فك الحصار عن لينينجراد ٠

وفى ٢٣ يناير استولى الجيش الثامن على طرابلس ٠

وفى ٧ مايو سقطت بيزرته وتونس وبدأ الجيش الثامن فى ٣ سبتمبر يهاجم ايطاليا ٠

فى ٨ سبتمبر أعلن استسلام الحكومة الايطالية ٠

وفى أول أكتوبر سقطت نابولى ٠

وفى ١٣ أكتوبر أعلنت الحكومة الايطالية الحرب على ألمانيا ٠٠

***

ووصل الجيش الأحمر فى ٣ يناير ١٩٤٤ الى الحدود البولنديـــة القديمة ٠

وفي ٢٧ يناير تحررت لينينجراد بعد ان ظلت محاصرة عامين ونصف٠

وفى ١٧ فبراير سحق الجيش الأحمر أحد الجيوب الألمانية وقتل ٥٢٫٠٠٠ جندى ألمانى وأسر ١١٫٠٠٠ جندى ألمانى فى موقعة واحدة ٠

وفى ٤ مارس قامت القلاع الطائرة الأمريكية بضرب برلين فى أول غارة أمريكية على العاصمة الألمانية ٠

فى ٢ ابريل : الجيش الأحمر يدخل الأراضى الرومانية ويصل الى الحدود التشيكية ويسترد فى ١٠ أبريل ميناء أوديسا الذى ظل الألمان محتفظين به منذ أكتوبر عام ١٩٤١ ٠

فى ٤ يونيو تم تحرير روما بواسطة قوات الحلفاء ٠

٦ يونيو بدأ الحلفاء غزو الأراضى الفرنسية ٠

١٨ يونيو تم تطويق ٢٥٫٠٠٠ جندى ألمانى في شبه جزيرة ستربورج وتم اقتحام خط مانرهايم ٠

٤ أغسطس : الروس فى ضواحى وارسو ٠

٢١ أغسطس مؤتمر دومبارتون أوكس ٠

٢٣ أغسطس : رومانيا تستسلم للحلفاء بدون قيد أو شرط ٠

وفى ٥ يناير ١٩٤٥ يدخل الأمريكيون مانيلا وبعد يومين تسقط وارســو ٠

٢٦ مارس : قوات الحلفاء تدخل فرانكفورت ٠

١ مايو تدخل القوات الأمريكية ميونيخ ٠

٢ مايو : وفاة هتلر واعلان الأميرال دونتز خلفا له ٠

٣ مايو : ستالين يعلن نبأ الاستيلاء على برليـــن ٠٠ وفى نفس الوقت يعلن نبأ استسلام مليون جندى ألمانى فى ايطاليا ٠

وفى ٥ مايو يتم تحرير بـراغ عاصمـــة تشيكوسلوفاكيا بواسطة الثوار و ٠٠ و ٠٠

***

ولعل أجمل ما قرأت فى حياتى عن الأيام الأخيرة للحرب العالميـــة الثانية ما كان بقلم ونستون تشرشـــل رئيس الوزارة البريطانية أيام الحرب ٠

كان تشرشل قد أشاد بالمقاومة الألمانية الباسلة الطويلة وتلـــك ـ بلا جدال ـ شهادة لها قيمتها ، من أعنف خصوم الرايخ الألمانى ـ وقد أضاف تشرشل الى ذلك قوله « انها لم تكن متوقعة على جميع الجبهات »٠

ويشير تشرشل الى أن الحلفاء ـ حتى فى الأيام الأخيرة للحرب ـ كانوا يفتقرون الى عتاد المدفعية بينما كان العدو يملك كميـــات كبيرة وهائلة وكافية من العتاد والمؤن وان كان فى أمس الحاجة الى الوقود ٠

وعلى الرغم من هزائم هتلر فى الراين ، وعلى نهر الأودر ، الا أن الوحدات الألمانية كانت كاملة وكانت روحها عالية ٠

ويقول تشرشل : ان القيادة الألمانية العليا ما كان تخشى الحلفاء الا من ناحية السيطرة الجوية التى كنا نتمتع بها وتستطيع أن توجه ضرباتها الى حيث تشاء ٠

وكان من صالح الألمان ـ هكذا قال تشرشل ـ لو انسحبـــوا من

شمال ايطاليا وارتدوا الى أماكنهم الدفاعية المتبقية في الجبال حيث كان في استطاعتهم أن يصمدوا أمامنا بقوات قليلة وأن يبعثوا بما يتوافر لديهم من قوات الى الجبهات الأخرى ٠

ويؤكد تشرشل ان الكارثة التى لحقت بالقوات الألمانية كانت تلك التى تحققت في جنوبى نهر البو ، وقد استطاع الجيش الثامن أن يستفيد من تلك الكارثة فيهاجم القوات الألمانية بالغارات الجوية ومدافع النيران ٠ ويرى تشرشل ان أنباء طيبة جاءت في اليوم الرابع عشر من أبريل وكانت خاصة بانتصارات كبيرة للحلفاء فى جميع أنحاء الجبهات تقريبا ٠

ويقول : ان انسحاب فيتنا،منجهون متحديا أوامر هتلر بعدم الانسحاب قد أفادت الحلفاء وقد اندفع الجيش الثامن نحو نهر البو ، بعد أن مهدت له الطائرات الطريق ، ونجح فى قطع خط الرجعة على الوف من الجنود الألمان الذين وقعوا فى الفخ حيث انقطعت بهم السبل فوقعوا أسرى مخلفين وراءهم معدات ثقيلة ٠

ويقول تشرشل : انه فى الخامس والعشرين من أبريل صدرت الأوامر للمقاومة باعلان الثورة فى ايطاليا والقيام بهجمات واسعة النطاق٠

ويقول تشرشل : فى هذه الأثناء جاء (وولف) الى سويسرا بعد أن منحه (فينيجهوف) السلطات الكاملة للتفاوض ٠

كما وصل رسولان آخران مفوضان الى قيادة الكساندر ووقعا فى التاسع والعشرين من أبريل وثيقة الاستسلام غير المشروطة بحضور بعض الضباط البريطانيين والأمريكيين والروس ٠

وفى ٢ من مايو استسلم نحو مليونى ألمانى كأسرى حرب وانتهت باستسلامهم الحرب فى ايطاليا كلها تلك التى استغرقت عشرين شهرا ٠

وكانت ـ تشرشل ـ خسائرنا كبيرة الا أن خسائر العدو كانت أفدح ٠

ويروى تشرشل ٠٠ أنه رغم ذلك الاستسلام فقد بدا أن موسولينى كان لا يزال محتفظا بأحلامه وخيالاته حتى اللحظة الأخيرة فقام فى نهاية مايو بزيارة لشريكه الألمانى ثم عاد الى مقر قيادته على بحيرة جارو وقد انتعشت فى خاطره أحلام الأسلحة السرية التى ستؤدى الى النصر ، ولكن سرعة زحف الحلفاء من جبال الابنين قد قضت على هذه الأحلام ٠

ويقول تشرشل أيضا ٠٠ ان موسولينى قرر فى الخامس والعشرين من أبريل أن يحل ما بقى من قواته المسلحة وان يطلب الى كردينال ميلانو

ورئيس اساقفتها ان يرتب له اجتماعا مع أعضاء اللجنة السرية العسكرية لحركة التحرر الوطنى فى ايطاليا ٠

وقد دارت محادثات فى قصر الكاردينال ظهر ذلك اليوم لم تنته الى نتيجة ايجابية حيث خرج موسولينى غاضبا ٠

وفى الساعة السادسة مساء سار موسولينى على رأس قافلة تضم معظم الباقين من زعماء الفاشية الى دار الشرطة فى كومو بعد أن ارتدى معطفا وخوذة من التى يرتديها الجنود الألمان ٠

ولكن دوريات المقاومة أوقفت القافلة وتعرف أفرادها على موسولينى فوضعوا أيديهم عليه ونقلوه الى السجن كما اعتقل آخــرون من بينهم عشيقته السنيورة كلارا وحمـل الدوشى فى اليــوم التالى فى السيارة الى خارج البلدة ٠

ويقول تشرشل ٠٠ أنه بعد أن اتجه جورنج الى الجنوب ، وبعد أن ترك هيملر دار المستشارية عقد من تبقى من القــادة النــازيين مؤتمرا حاولوا بعده التفاوض مع الروس وحدهم الا أن جوكوف طلب الاستسلام بلا قيد ولا شرط وقد اكتفى بورمان بعد أن بعث الى الأميرال دونتز البرقية التالية : ٠٠ لقد عينك الفوهرر أيها الأميرال الأكبر خلفا له بدلا من مارشال الرايخ السابق جورنج وسيصلك الخطاب الرسمى اذ هــو فى الطريق اليك وعليك أن تتخذ فورا جميع الاجراءات التى يتطلبها الموقف٠

وقد حاول هيملر ـ من ناحيته ـ التفاوض مع البريطانيين والأمريكان على أن يتم التسليم لهما دون السوفييت ، فلم تنجح محاولته ٠

فكرر المحاولة عن طريق الكونت برنادوت رئيس الصليب الأحمر السويدى فرفضتا ـ بريطانيا وأمريكا ـ الصلح المنفرد ٠

ويقارن تشرشل بين ما غرق فى البحار عن طريق الغواصات فى الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية ، فيقول : فى الأولى وعن طريق الغواصات وحدها غرق ما حمولته أحد عشر مليونا من الأطنان من البواخر زيدت فى الحرب العالمية العانية الى أربعة عشر مليونا ونصــف المليون من الأطنان ٠ ومجموع الخسائر فى البواخر فى الحرب العــالمية الأولى اثنا عشر مليونا وسبعمائة وخمسون ألفا من الأطنان وفى الثانية واحد وعشرون مليونا ونصف المليون من الأطنان وقد تحملت بريطــانيا وحدها من تلك الخسائر فى الحرب العالمية الأولى ٦٠٪ وأكثر من ٥٠٪ فى الثانبة ٠

***

ويبقى الحديث عن نهايات زعماء النازية والفاشية ، كعظة لكل دكتاتور يحكم شعبه بالحديد والنار ويعتدى بالقوة الغاشمة على شعب آخر ، أو شعوب أخرى بغية احتلالها واذلالها ٠

وقد رويت قصص كثيرة عن نهاية هتلر ، أقربها الى ذهنى وعقلى تلك الى تقول انه بعد أن تطورت أمور الحرب لصالح الحلفاء اجتمع زعماء ألمانيا فى مؤتمر عقد بدار المستشارية فى ٢٠ بريل أعلن فيه هتلر أنه قرر البقاء فى برلين مهما تكن النتائج ٠

وفى هذا الاجتماع طلب جورنج من هتلر ان يعينه خلفا له فأمر هتلر بتجريده من كل مناصبه ٠

وكان الروس قد طوقوا برلين وكان هيملر وجورنج قد غادرا برلين حيث اتجه جورنج الى الجنوب ٠

ولم يبق مع هتلر الا بورمان وجوبلز ٠

وبدأت القوات الروسية تقاتل فى شوارع برلين ٠

وفى الساعات الأولى من صبيحة يوم التاسع والعشرين من أبريل كتب هتلر وصيته الأخيرة واستمر يؤدى أعماله العادية فى الملجأ الذى اتخذه لنفسه أسفل دار المستشارية ووصلته نهاية موسولينى فأحس هو باقتراب نهايته أيضا ٠

فى اليوم الثلاثين من ابريل صافح أفراد حاشيته وانسحب الى غرفته الخاصة حيث أطلق على نفسه الرصاص وكانت بجواره ايفا براون عشيقته التى كان قد تزوجها وقد تناولت السم ٠ وتم احراق الجثتين فى فناء دار المستشارية ٠

أما نهاية هيملر ٠٠ الرجل الذى كان اسمه يبعث الرعب فى جميع أنحاء أوربا بل فى العالم كله اذ كان رئيس الجستابو الألمانى الذى يتحكم فى مصير الشعب الألمانى أكثر مما يتحكم هتلر ذاته ، فبعد أن فشلت لعبته فى طلب الاستسلام للأمريكيين والانجليز دون السوفييت هرب متنكرا واضعا على احدى عينيه ربطة سوداء لبس فوقها نظارة ، غير أن بعض جنود الحلفاء قد قبضوا عليه وساقوه الى مقر قيادة الجيش الثامن وكان هو الذى يتولى ارشاد من قبضوا عليه الى مقر القيادة ٠٠ وفى مقر قيادة الجيش الثامن خيروه بين أن يرتدى سروالا وقميصا ويلتحف بطانية أو يرتدى ملابس الميدان البريطانية فاختار الأولى ٠

وتم تفتيش هيملر بدقة متناهية حتى أنهم فتشوا ما بين أصابع

يديه وقدميه وشعره وأذنيه وتحت أبطه ، بل فتشوا ـ وبدقة متناهية ـ كل قطعة جزء من جسمه ٠

وقد رفض أن يستجوبه من هو أقل منه رتبة ، وعندما سيق الى التفتيش مرة ثانية وأصر الطبيب الذى يقوم بعملية التفتيش على أن يفتح فمه على مقربة من النافذة حتى يستوثق من الرؤية ، وأدخل الطبيب يده فى فم هيملر ـ بتصريح هيملر ـ فاذا بهيملر يحرك رأسه ويعض بسرعة لثته ، فتداعت قواه وسقط على الأرض ، ومات بعد ربع ساعة ٠

وكان هيملر قد نجح فى أن يحتفظ تحت لثته بزجاجة صغيرة طولها قيراط بها مادة سياتور البوتاس أو السيتاتيد وهى من أقوى أنواع السموم ، ولم تكتشف تلك الزجاجة فى المرة الأولى من التفتيش ٠

وبعد وفاة هيملر اكتشف الأطباء وجود زجاجة ثانية فى ملابسه ٠

★★★

أما نهاية جوبلز ٠٠ أكبر داعية للنازية ولهتلر ٠ فقد اختار طريقة فريدة فى بابها للتخلص من الحياة ، حياته هو وحياة زوجته وأولاده فى نفس الوقت ٠٠ قام جوبلز بقتل أولاده الستة بالسم ثم أمر رجال حرسه بأن يطلقوا النار عليه وعلى زوجته ٠

لقد أراد قادة النازية هتلر ، وهيملر ، وجوبلز أن يتخلصوا من حياتهم وحياة زوجاتهم وأبنائهم بتلك الطريقة البشعة حتى لا يقعوا فى أيدى الحلفاء فيفعلون بهم ما هو أفظع وأبشع من الانتحار ٠

هل كان هتلر وهيملر وجوبلز على حق فى لجوئهم الى تلك الطريقة للتخلص من الحياة ؟ الثابت أن الحلفاء كانوا سيفعلون بهم أثناء التحقيق والمحاكمة تمهيدا للاعدام ما يعتقدون أنه تكفير لهؤلاء الثلاثة عن جرائمهم فى تلك الحرب ٠

ولكن ربما لو كانوا قد عاشوا بعد الهزيمة ومثلوا أمام المحققين لعرف العالم صفحات هامة وخطيرة من صفحات التاريخ حرقت مع جثث هتلر وهيملر وجوبلز وآخرين من تخلصوا من حياتهم من قيادات الحزب النازى قبل أن تصل اليهم قوات الحلفاء ٠

أما بورمان ٠٠ نائب هتلر ٠٠ فلم يعرف أحد أى مصير كان نصيبه ٠٠ ؟ هل انتحر ولم يكتشفوا جثته ٠٠ ؟ هل قتل متخفيا ولم يعرف أحد أن القتيل هو بورمان ٠٠ ؟ أم أنه نجح فى الافلات من قبضة الحلفاء وتمكن ـ فيما بعد الهزيمة ـ من الهرب الى احدى دول أمريكا اللاتينية ، حيث عاش هناك ٠٠ ؟ لا أحد يعرف شيئا عن مصير بورمان

الذى تحول الى أسطورة ، بل الى لغز لم يستطع أحد أن يقوم بحله حتى الآن .. !!

★★★

وقصة القبض على موسولينى وأعدامه ، قصة مثيرة للغاية ، وكما هى العادة فاننا قد قرأنا وسمعنا روايات كثيرة عن تلك النهاية الأليمة لموسولينى ، والتى تعطى صورة حقيقية لشخصيته ، التى تختلف الى حد كبير عن شخصية هتلر وهيملر وجوبلز . وان كان بعض انصار موسولينى يقولون ان موسولينى قد ظل الى آخر دقيقة واثقا فى أن هتلر سوف يستخدم سلاحا سريا يفاجىء به العالم عندما تقترب الحرب من نهايتها وهناك من يقول انها القنبلة الذرية حيث كانت كل من أمريكا وألمانيا فى سباق مثير حول الانتهاء منها قبل الآخر .

وهناك من يقول أنه سلاح سرى دفن سره مع هتلر .. وقيل . وقيل ..

على أية حال فان الرواية التى أذيعت عقب اعدام موسولينى تتلخص فى أن ثوارا ايطاليين ألقوا القبض على السنيور موسولينى بجوار بحيرة كوم بينما كان يحاول اجتياز الحدود السويسرية ، ومع السنيور موسولينى السكرتير السابق للحزب الفاشستى وآخرين وكانوا قد تخفوا فى زى جنود ألمان وحملوا معهم كميات كبيرة من الذهب والعملة البريطانية وقيل أن ضابطا ايطاليا كان يسير هو وعشرة من جنوده وقد تقدموا الى كوخ يقيم به بعض الجنود الألمان و .. و ..

وكان التل الذى أقيم عليه الكوخ يشرف على قرية دونجو ، وعندما اقترب الضابط وجنوده من الكوخ ظن موسولينى ان قوة ايطالية جاءت لانقاذه فغمرته السعادة بفيضها وراح فى نزق الأطفال يطوق عشيقته بذراعيه فى غبطة وجنون .

وعندما أدرك أن القادمين ليسوا سوى قوة جاءت للقبض عليه اشتد به الهلع والفزع وارتجف مذعورا .

وقد قام الضابط الذى كان يتولى قيادة الجنود العشر باجراء محاكمة سريعة قضت باعدام موسولينى وعشيقته .

وقد نفذ فيهما الحكم فورا .

وكان موسولينى قد حاول عقب الحكم عليه بالاعدام مساومة الضابط ومن معه على اطلاق سراحه وابقاء حياته مقابل امبراطورية عظيمة يعطيها لهم ..

ولم تنفع عملية المساومة اذ كان واضحا أن قرار اعدام موسولينى كان قد صدر من جهة أعلى خشية أن يقوم الألمان باختطاف موسولينى ٠

كان تنفيذ حكم الاعدام فى موسولينى وعشيقته رميا بالرصاص ٠

وكان آخر ما قاله موسولينى قبل ان يطلقوا عليه الرصاص فى الكوخ : كلا ٠٠ كلا ٠٠ وقد نقلت جثة موسولينى وكذا جثة عشيقته وستة عشر وزيرا من وزراء الفاشسيت الى مدينة ميلانو حيث بزغت شمس الفاشية ٠

وقد طرحت الجثث فى ميدان عام حيث تزاحم الشعب على ركلها والبصق عليها فى زراية واحتقار ٠

وقال بعض الذين شاهدوا جثة موسولينى ان وجهه كان مشوها ممتقعا ، وقد اخترقت رصاصة الجزء الأيسر من جبهته ونفذت من رأسه فتناثرت خلايا مخه وكان الشحوب والاكفهرار يغمران وجه موسولينى الذى كان يرتدى سترة عسكرية خالية من الشعارات الدالة على رتبة صاحبها كما كان يرتدى سراويل لركوب الخيل مما يستعمله جنود الميليشيا الايطالية ٠

وقد أصرت سيدة ايطالية عجوز كان موسولينى قد أمر بقتل ابنها على خطف بندقية من يد أحد المحاربين حيث أطلقت الرصاص على الجثة ٠

وقيل أن جثة كلارا عشيقة موسولينى البالغة من العمر خمسة وعشرين ربيعا احتفظت بآثار جمالها رغم الموت ورغم كثرة الأيدى التى تناولتها بالايذاء ٠٠ !!

وفى صبيحة اليوم انزلت الجثتان ونقلتا فى عربة الى حيث يدفن الموتى ٠٠ أو هكذا قيل ٠٠ !!

وهناك قصه مثيرة للغايه جاءت على لسان جيوفانى باتستادى

تيزارى ذلك الذى كان مشهورا باحلامه الصادقة منذ حداثته فكان لا يرى رؤيا الا تحققت حتى لقد أطلقت عليه جدته وهو لا يزال صبيا يلهو فى أزقة ميلانو لقب : الفلكى قارىء الطوالع والنجوم ٠

وقد تحققت أحلام تيزارى فيما عدا حلم واحد كان يتردد عليه فى منامه بين حين وآخر دون أن يتحقق ، بل دون أن يفقه له تيزارى أى معنى ذلك الحلم الخاص بمنحنى فى ريف ايطاليا متمم لطريق زراعى أمامه باب من الحديد ينفذ منه المارة الى حديقة غناء وسور قصر عظيم وراءه أشجار حور جميلة كتلك التى تشاهد بكثرة فى سهل لومبارديا فى شمال ايطاليا وفى كل مرة كان يرى تيزارى هذا الحلم كان يتعجب منه وله ٠

وكان يسائل نفسه باستمرار « ما معنى هذه الرؤية المتكررة التى أراها فى أحلامى منذ صباى حتى اليوم » . وقد مضت السنون تباعا حتى اعتنق تيزارى الشيوعية سرا فى مدة الحرب ، وما كادت هزائم موسولينى تتوالى حتى اشتدت حركة المقاومة الوطنية السرية ونظمت تنظيما دقيقا وجهزت بالأسلحة الحديثة ، ونسى تيزارى اسمه الأول وأصبح لا يعرف بين الناس الا باسم الكولونيل فالريو .

وقد وصل الرجل فالريو ـ تيزارى سـابقا ـ بنشاطه وكفاحه وبطولته الى أن أصبح فى الصف الأول من جمـاعات المقـاومة السرية المسلحة .

وعن قصة القبض على موسولينى واعدامه .. يقول الكولونيـل فالريو :

تلقيت رسالة أسر موسولينى وعشـيقته كلارا وبعض زعمـاء الفاشية وقررت القيادة العليا لقوات المقاومة باجماع الآراء أن تكلفنى بأن أشرع فورا فى تنظيم بعثة تذهب معى الى دونجو لكى ننفذ فى ذلك المكان مرسوم لجنة التحرر الوطنى فى شمال ايطاليا ضد المسئولين عن الكارثة التى صارت اليها البلاد فطلبت من قائد العصابات فى منطقة لومبارديا فصيلة مؤلفة من ١٢ جنديا وضابطا اختيروا من عصابات كرسبى وجراتشى وكاباتينى وكانوا يرتدون ملابس عسكرية أمريكية ألقتها طائرات الحلفاء على شـمال ايطاليا بالمظـلات وكانوا مسلحين بمدافع ستين بيريتـا السريعة وكان يقودهم المفتش ريكاردى وهو رجل كنت أعرفه من قبل فهو رجل قوى البنية أحمر الشعر يعتنق الشيوعية وقد حارب فى الحرب الأهلية الأسبانية ضد المتطوعين الفاشيين الذين كانوا ينتصرون لفرانكو .

ويروى فالريو كيف وصل الى موسولينى وكيف خدعه حتى حمله على النزول هو وخليلته الى سيارات أعدت لنقلهما بحجـة أنه أتى لتحريرهما وانقاذهما من الأسر .

وكان ـ فالريو ـ قد انتابه خوف شديد ، لم يكن الخوف من قرب تنفيذ الاعدام فى سيد ايطاليا السابق وفى عدد كبير من الفاشست بل كان يخشى من أن يحدث شىء يعوق تنفيذ مهمته الهامة الخطيرة .. !!

ثم يقول الكولونيل فالريو ـ تيزارى سابقا ـ ووصلت السيارة التى كنا فيها فجأة الى منحنى من الطريق واذا بى أجد أمامى ذلك المنظر الذى شاهدته فى رؤيا ترددت أكثر من مرة منذ أكثر من خمسة وعشرين عاما ، انها هى البقعة بعينها ، يالله فهذا هو سور القصر ، وهـذه هى

البوابة الحديدية التى تتجه الى حديقة غناء ، وهذه هى أشجار الحور وراء السور ، واذا بى أجدنى مدفوعا بقوة لا ارادية الى أن أوقف السيارة ٠

ويقول الكولونيل فالريو ـ تيزارى سابقا ـ نظر الى موسولينى نظرة التساول وكان يظن أنى لم أخرجه من معتقله الا لأنقذه من الأسر ، فأشرت اليه اشارة لكي لا يتحرك من موضعه ، ووضعت اصبعى على شفتى طالبا منه الصمت ، ثم قلت له هامسا : انى اسمع ضجيجا سأذهب لأرى ما يحدث ٠ ثم نزلت الى السيارة ودرت حولها كأنى انصت الى صوت بعيد وعدت راكضا وقلت لموسولينى وخليلته همسا أيضا : انزلا حالا ـ انزلا معا وقفا عند ركن هذا السور فأطاع موسولينى سريعا ، وكان يبدو عليه انه ليس مطمئنا تماما الى ما يحدث ٠

كانت تبدو على الدوتشى علامات الشيخوخة والتردد والوهن والتعب وكان الخوف قد طغى على نفسه كذلك كان يحس بمخلب القدر ، وهو يوشك أن ينشب فيه اظافره ٠

وعندما وصل هو وخليلته الى ركن الجدار « ركزت مدفعى السريع فجأة وقلت : انى أنفذ ارادة الشعب الايطالى ، وأطلقت النار ٠

وفى تلك اللحظة اندفعت كلارا نحوى تقول : انك لن تفعل هذا ٠٠ فكانت أول من أصابه الرصاص ثم أصيب الدوتشى فى طرفة عين بعدها وسقطا معا على الأرض وكان ظهر كل منهما للآخر ٠

ويقول الكولونيل فالريو : كنت قد أطلقت خمس رصاصات ولكنها لم تقتلهما تماما ثم فسد المدفع السريع ، وأبى الانطلاق ، فأسرع نحوى أحد الرجال المرافقين لنا واعطانى مدفعه فأطلقت خمس رصاصات أخرى كانت السهم الأخير فى حياة الرجل وخليلته ٠

وانحنيت على الأرض لأجمع الخرطوش الفارغ ثم أسرعت الى دونجو لاتمام المهمة التى كلفتنى بها القيادة العليا لمتطوعى الحرية وهى اعدام من بقى من الزعماء الفاشيين الذين كانوا ينوون الفرار الى المانيا وكانوا ستة عشر زعيما ثم نقلت جثثهم فى سيارة لورى صغيرة وفى طريقى الى المكان الذى ابيت فيه عرجت على المشهد الريفى الذى رأيته أكثر من مرة فى احلام الليل ثم نقلت جثة الدوتشى وخليلته وعدت أدراجى ولكن الشعب أبى الا أن ينفذ حكم الاعدام شنقا فى جثة موسولينى وغيره ، ومن هذا اليوم ـ بعد أن انتهت مهمتى ـ لم يعاودنى مناظر السور القصير والباب الحديدى والقصر وأشجار الحور التى تطل أغصانها من وراء السور ، لم تعاودنى مرة أخرى ٠

***

ويجب أن يكون معروفا ومفهوما جيدا أننا ومنذ نعومة أظفارنا ، لم نكن نصدق أبدا أية وعود بريطانيا ، وبعد أن كبرنا ونمونا وعشنا الحرب العالمية الثانية ، لم نكن نصدق أيضا أية وعود أمريكية أو فرنسية ، ولم يكن عدم التصديق فى تلك الوعود مرجعه أننا نكره الشعوب الأمريكية والفرنسية والانجليزية أو أننا لا نثق فيها ، وانما مرد عدم التصديق هذا أننا لكثرة ما استقبلنا من وعود بريطانية طوال أيام الاحتلال البريطانى لنا منذ بدايته فى ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ ولأن بريطانيا لم تنفذ واحد من الوعود السبعين التى أطلقنها بأن موعد الجلاء عن مصر قد حان ، لم نعد نثق أبدا فى أى ساسة بريطانيين .

وانتقلت عدوى عدم الثقة الى الأمريكيين والفرنسيين :

كنا على ثقة مطلقة من أن وعود ساسة بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية فى أثناء الحرب العالمية الثانية فى اعطاء الشعوب حق تقرير مصيرها بأنفسها ليس الا نوعا من الخداع الذى تمليه ضرورات الحرب والرغبة فى كسب مودة الشعب الصغيرة وفى الحصول على مساعدتها .

وما أكثر ما اتهمنا بأننا ضد الديموقراطيات وأننا من انصار الدكتاتوريات و .. و .. وكانت تلك الاتهامات لا أساس لها من الصحة .

نحن ـ مثلا ـ لم نؤيد موسولينى عندما هاجم الحبشة ، بل حاربناه بكل ما نستطيع واعلن وقوفنا الى جانب شعب اثيوبيا .

وأكثر من ذلك دعونا الشعب المصرى الى مساعدة أثيوبيا ونحن ـ مثلا ـ لم نؤيد هتلر فى التهامه لتشيكوسلوفاكيا أو لبولندا بل أعلنا وقوفنا الى جانب التشيك والسلوفاك والبولنديين ودعونا شعوب العالم الى مناصرتهم فى الحصول على استقلالهم . فليس الأمر اذن أمر ديموقراطيات أو دكتاتوريات فان فرنسا الديمقراطية قد ابتلعت تونس والجزائر ومراكش وسوريا ولبنان وكذلك انجلترا أم الديموقراطية قد التهمت مصر والسودان وفلسطين والعراق وشرق الأردن فهل هذه هى الديموقراطية .. ؟ وفى ماذا يختلف التهام هتلر لبولندا والتشيك والسلوفاك وغيرها وغيرها من الدول والشعوب عن التهاب الانجليز لمصر والسودان والعراق وفلسطين .. ؟ وهل تكون الدكتاتوريات قاصرة على هتلر وموسولينى لأنهما احتلا هذه الأقطار الأوربية والأسيوية ، ولا تكون انجلترا وفرنسا دكتاتورية اذا ما احتلت هذه البلدان الأفريقية

الآسيوية ؟ • أمر غريب جدا •• وما يبعث على غرابته أكثر وأكثر أن الدول الكبيرة عادة تنظر الى الأمور بنظرات مغايرة • حسب مصالحها هى حيث تقوم بتحليل الحرام وتحريم الحلال حسبما ترى وتهوى •

وقد كنا معذورين للغاية نحن شباب مصر اذا نحن لم نحسن الظن يوما بوعود بريطانيا أو فرنسا أو حتى الولايات المتحدة الأمريكية التى كان تعاملها معنا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية فيما عدا ما يتعلق بفلسطين – يتسم من جانبها بالحرص الشديد على ارضائنا وتأبى الأقدار الا أن تؤكد لنا أننا كنا على حق فى عدم ثقتنا بنيات الحلفاء ، وبوعودهم البراقة التى حرصوا على اعطائها لنا نحن شعوب الشرق الأوسط ، طيلة سنى الحرب العالمية الثانية ••

لقد كنا متخوفين من أن يتلاعب الحلفاء بمصيرنا بعد الحرب العالمية الثانية ، كما تلاعبوا بنا بعد الحرب العالمية الأولى •

وقد ظهر أننا كنا على حق فى كل تخوفاتنا فما أن وضعت الحرب – فى أوربا – أوزارها وتحررت فرنسا حتى بادرت القوات الفرنسية بالتدخل فى سوريا ولبنان من جديد •

بدأت الحكومة الفرنسية تضغط على الحكومتين السورية واللبنانية حتى تعقد معهما محالفة جديدة تضمن بها لفرنسا قواعد وامتيازات فى سوريا ولبنان الأمر الذى يتعارض مع سيادة كل من الدولتين •

وأغرب ما حدث فى هذا الموضوع ان الحكومة الفرنسية بعثت بجنود سنغاليين لكى تعيد احتلالها لسورية ولبنان •

وقد قام الشعب فى سورية وفى لبنان بثورة عارمة ضد القوات الفرنسية •

وقد سقط مئات القتلى من اللبنانيين والسوريين فى تلك الثورة •

وبادرت القوات الفرنسية التى لم تقف أمام جحافل الألمان فى بداية الحرب العالمية الثانية أكثر من أسبوعين سلمت بعدها العاصمة الفرنسية بدون قتال ، بادرت بقمع الثورة اللبنانية والسورية وراحت قاذفات القنابل تلقى بوابل من قنابلها على دمشق وخاصة القصر الجمهورى ومجلس النواب •

ووقف الشعب العربى فى كل مكان الى جانب الشعب العربى فى سورية ولبنان – ودعيت الجامعة العربية – وكانت قد انشئت حديثا – الى الاجتماع فى القاهرة •

وخشى البريطانيون فى أن تؤثر أحداث سورية ولبنان على مجريات الحرب فى الشرق الاقصى ، حيث تأكد لشعوب تلك المنطقة ان الحلفاء ليسوا جادين فى تنفيذ عهودهم وقد انذر تشرشل الجنرال ديجول وأمر حكومته أن تعطى تعليمات لقائد القوات الفرنسية فى سورية ولبنان بأن لا تقاوم أوامر القائد العام البريطانى فى الشرق الأوسط ، بل أكثر من ذلك راحت القوات البريطانية تنزع السلاح من أيدى الفرنسيين والسنغاليين ٠

وما حدث فى سوريا ولبنان ، حدث مثله فى الجزائر ، ذلك أن الحكومة الفرنسية راحت تشدد قبضتها على الجزائريين محاولة الانتقام منهم لأنهم بدأوا يعملون على تحقيق الاستقلال ٠

وقد حصدت القوات الفرنسية فى الجزائر ثلاثين ألف جزائرى فى أيام ثلاثة ٠

وهكذا ظهر — ولما يجف دماء الحلفاء والألمان فى أوربا ، ولما يجف مداد وعود البريطانيين والفرنسيين والأمريكيين ، بأن لكل شعب من الشعوب الحق فى تقرير مصيره — ظهر لشعوب الشرق الأوسط بل لكثير من شعوب العالم أن وعود الحرب غير وعود السلم ٠٠ وعود الحرب عادة أشبه بأحلام الصيف ، لا سبيل أبدا الى تحقيقها ٠٠ !!

★★★

ومن بين ما أذكره هنا — والذكرى تنفع المؤمنين — أنه بعد أن القى رئيس الوزراء محمود فهمى النقراشى باشا بيانا فى مجلس الشيوخ عن أحداث سوريا ولبنان أعلن فيه وقوف مصر شعبا وحكومة الى جانب شعب سورية ولبنان ، وبعد أن أعلن النقراشى باشا أنه دائم الاتصال بالحكومة الفرنسية — عن طريق الوزير الفرنسى المفوض فى مصر — لحل المشكلة حلا وديا ولابلاغ الحكومة الفرنسية قلق الحكومة المصرية ، والشعب المصرى من جراء ما يجرى فى سورية ولبنان ٠٠

بعد هذا البيان حاول أعضاء مجلس النواب مناقشة الموضوع فى المجلس ولكن الحكومة اعتذرت عن المناقشة الى أن يتم بحث الموضوع فى مجلس الجامعة العربية. هذا فى الوقت الذى كان فيه مجلس العموم البريطانى يناقش المسألة برمتها يوميا تقريبا حيث يلقى انتونى ايدن وزير الخارجية بيانات رسمية باستمرار ٠

★★★

وكانت الدورة الأولى لمجلس جامعة الدول العربية قد بدأت فى ٥ يونيو ١٩٤٥ فى البهو الرئيسى لسراى الزعفران فى المكان الذى تم فيه توقيع ميثاق الجامعة العربية فى ٢٢ مارس الماضى ٠

١٩٨ ورقة ، ١٢ سطر ، ٢٣ × ٣ر١٤ سم ٠

وحضر الاجتماع وفود من ســـورية ولبنان والعراق وشرق الأردن والسعودية ووفد مصرى برئاسة محمود فهمي النقراشي باشا ٠

وقد تلا عبد الرحمن عزام بك أمين الجامعة رسالة الملك فاروق ٠ وقد جاء فيها : حضرات أعضاء مجلس جامعة الدول العربية : أحييـكم أحسن تحية ، وأنى أعلم عظم المهام الملقاة على عاتقكم ، وعظم الرسالة التى تضطلع بها جامعة الدول العربية ، وأنى واثق من أنكم ستتغلبون على الصعاب بالشجاعة والحزم والأناة فتخرج جامعة الدول العربية من هذا النضال عالية الرأس موفورة الكرامة : لقد أصيبت سورية العزيزة فى الحوادث الأخيرة اصابة مفجعة أحزنتنى وأحزنت شعبى ، ويعزينى فيها أنى أعلم أن النضال هو الحق الشرعى ٠

ولذا فلنعمل لاستقلال سورية ولبنان وسيادتهما الكاملين ولنعمـل لاستقرار الأمن والسلام لهما ٠

★★★

وأذكر ـ والذكرى تنفع المؤمنين ايقما ـ أن النقراشي باشا فى كلمته قال : أرى لزاما على قبل كل شيىء أن أقف خاشعا لأحيي ذكرى الذين استشهدوا من اخواننا أبناء سورية العزيزة فى سبيل الذود عن استقلال وطنهم ، وفى سبيل الذود عن الحرية والكرامة الانسانية ٠ وقد اشاد النقراشي بموقف بريطانيا التى تدخلت لايقــاف القتال فحـالت دون استمرار سفك الدماء ، كما أشاد بالولايات المتحدة التى لم تتوان قـط عن تأييد سورية ولبنان فى استقلالهما واستنكار استعمال القوة فى حل قضيتهما ، ونحن ـ النقراشي باشا ـ شاكرون لروسيا على موقفها الذى بلغنى اياه البارحة سعادة وزيرها المفوض ، وهذا الموقف يؤكد ايمان الدول العظمى جميعا بأن القوة لم تعد الوسيلة المقبولة لاقامة العلاقات بين الشعوب والدول ؛

ويعلن النقراشي باشا استنكارنا لما اتخذته الحكومة الفرنســية المؤقتة من استعمال القوة ضد سوريا ولبنان ، كما نعلن اســـتنكارنا لاستخفافها بالمبادىء التى اجتمع مندوبو الدول المتحدة فى مؤتمر سان فرنسيسكو لجعلها أساسا لنظام الأمن والسلام الدولى ونرجو ـ النقراشي ـ أن يكون ما حدث مع فرنسا تنبيها للدول العظمى بالخطر الذى يهـدد السلام من جراء استعمال القوة فيعملوا على وضع النظم الكفيلة بتلافيه مستقبلا » ٠

ويقول سعد الله الجابرى رئيس مجلس نواب سورية وممثل سورية فى الجامعة : فى الوقت الذى لم تجف فيه بعد دماء الملايين من الضحايا

البشرية للقضاء على تحكم القوة ، وفى الوقت الذى لم تنته فيه بعد الدول المتحدة من الاحتفال بالنصر على طغيان النازية والفاشية ٠٠ فى هذا الوقت القيت نيران الفرنسيين على مدن سورية الآمنة وعلى عاصمتها العريقة المقدسة وأحاطت بها من الجو ومن البر وبعثت فيها عساكرهم تقتيلا وتمزيقا ونهبا وتخريبا ٠٠ كل ذلك لا لذنب الا لأن سورية تريد حريتها ، وتأبى التنازل عن سيادتها وحقها وكرامتها نحن ما تمنينا هذا ولا سعينا اليه ، ولكن جاءنا بالرغم منا ، ولقد تلقيناه مختارين بنفس راضية لأنها نفس مشبعة بالحق والقوة .. بنفس لم يضللها الغرور ، ولكن لم يساورها مع ذلك ضعف ٠ لقد صبوا علينا قنابلهم من مختلف الأسلحة ونحن عزل من كل سلاح وسلطوا مدافعهم على المدن الآمنة ولم يفرقوا فى أهدافهم بين الرجال والنساء والأطفال ، وبين الدور والمستشفيات والمعاهد والمعابد ، وليس من غاية يرمون اليها الا التشفى والترويع » ٠

ويشير الشيخ يوسف ياسين نائب وزير الخارجية السعودية الى ما بذله جلالة الملك عبد العزيز آل سعود لدى الجنرال ديجول لتتوقف قواته عن ضرب السوريين وكيف ذكر له فى رسالة بعث بها اليه ٠٠ « أن فرنسا التى ذاقت مرارة الاحتلال وما انطوى عليه من المآسى هى أجدر الناس بأن تقدر شعور السوريين واللبنانيين » ٠

وأوضح عبد الحميد كرامى رئيس وزراء لبنان تاريخ الانتداب الفرنسى فى سوريا ولبنان كما ذكر أنه كلما الححنا فى المطالبة بحقوقنا زاد الفرنسيون مماطلة وتسويفا حتى جاء يوم النصر فاذا بالحكومة الفرنسية تجعل من يوم انتصار الديمقراطيات على الطغيان يوم استفزاز ونكاية بالشعب اللبنانى الهادىء وحكومته ٠

ويشير كرامى الى نزول القوات الفرنسية الى أرض لبنان ، واحتجاج الحكومة اللبنانية على ذلك ٠

ويواصل مجلس الجامعة اجتماعاته ، وتدوم الجلسة الثانية ٤ ساعات ، ومما يذكر أن عبد الحميد كرامى كان قد قطع على نفسه عهدا بالا يضع فوق رأسه غطاء احتجاجا على اعتقال الفرنسيين اياه دون تمكينه من أخذ غطاء رأسه ، وكان قد ضاع غطاء رأسه يوم الاعتقال ٠

★★★

وقد خسر ديجول عطف الرأى العام كما أن بعض الوزراء الفرنسيين قد اعلنوا احتجاجهم عليه ، بل لقد خسر ديجول عطف العالم كله وأرسلت مصر بعثة طبية الى سورية ٠ وبعد اجتماعات ستة ٠٠ تنتهى الاجتماعات بالسطور التالية ــ وكانت تلك السطور من وجهة نظرنا نحن الشباب بداية سيئة للغاية ــ نظر مجلس الجامعة فى التدابير التى تتخذها الدول

العربية منفردة لا مجتمعة لدفع الاعتداء الفرنسي ولصيانة استقلال سورية ولبنان وسيادتها كاملتين وابلاغ دول الجامعة العربية التوصيات التى قررها فى هذا الشأن ٠٠ قرر المجلس اعتبار دورته الحالية مستمرة وتأجيل اجتماعاته الى جلسة مقبلة يدعو اليها رئيسه » ٠

★★★

والغريب أن عبد الرحمن عزام بك الأمين العام للجامعة ، قد علق على اجتماعات مجلس الجامعة بأن جامعة الدول العربية قد اجتازت امتحانها بتفوق وشرف فبرهن مجلسها على كفاية وفطنة فى السياسة الدولية ٠

وبرهنت دول الجامعة على كامل تضامنها واستعدادها للتضحية وثبت أن العواصف لا تقتلع نباتا يقوم على ارادة الشعوب وحكمة الملوك والأمراء ، واخلاص الرؤساء والزعماء ٠

وقد أنهى عزام بك بيانا صحفيا له بقوله : نحن نخاصم الاستعمار والفتح واتخاذ القوة وسيلة لفض النزاع بين الدول والشعوب وفى هذا لا نناضل عن حقنا وحدنا بل حق الناس جميعا ٠

وها نحن نبسط يدنا للناس كافة للتعاون على تقرير الاخاء والسلم للجميع حتي لفرنسا نفسها ، على هذا المبدأ وهى التى كانت صديقة هذه الأمة منذ أجيال ٠

وأغرب ما حدث أن ١٣ سياسيا فرنسيا أعدوا منشورا سياسيا ضد سياسة ديجول كان أوضح بكثير من بيان الجامعة العربية وأكثر تنديدا بسياسة ديجول ٠

وقد قيل ان زعماء الأمة العربية قد بحثوا فى اجتماعات مجلس الجامعة العربية امكانية توقيع عقوبات اقتصادية وسياسية وثقافية من الدول العربية على فرنسا على ألا تنفذ المقاطعة الا بعد فشل مباحثات التسوية الودية ، المقترحة بين الحكومة الفرنسية وحكومة كل من دولتى سورية ولبنان ٠

وكان من أهداف الحكومة البريطانية وحكومة الولايات المتحدة الامريكية فى الشرق الأوسط أن ترثا فرنسا فى مستعمراتها القديمة ، ولذلك كان الضغط شديدا وعنيفا من قبل الحكومة البريطانية وحكومة الولايات المتحدة على الحكومة الفرنسية لسحب قواتها العسكرية من

سورية ولبنان وقد كان : هربت الجالية الفرنسية من سورية الى تركيا، وبدأت القوات البريطانية تحل محل القوات الفرنسية و ٠٠ و ٠

***

وبدأ الصراع بين ديجـول وبين الحكومة البريطـانية ، وكأنما لم يشترك البريطانيون والفرنسيون فى حرب واحدة ضد هتلر وكأنما لم يقم البريطانيون بالجهد الأكبر فى تحرير فرنسا بعد ان استولى عـلى الجزء الأكبر منها هتلر ٠٠ !!

***

وكنت أحفظ جيدا كلمات لونستون تشرشل قالها ليلة انتهاء الحرب فى أوربا من بينها : ان افراح الأعياد ضرورية للروح الانسانية الا أنه يجب أن نضفى عليها القوة والمرونة لكى يعـــود كل رجل وامرأة الى العمل الذى يجب أن يعمله فما زال علينا فى القارة الأوربية أن نتأكد من أن الأهداف النبيلة والبسيطة التى خضنا غمار الحرب من اجلها لن يكون مصيرها التجاهل فى الأشهر التى تلى النصر وان كلمات الحرية والديمقراطية والتحرير لن تفقد معانيها الحقيقية كما فهمناها ٠

ولن يكون كبير جدوى من عقاب الهتلريين على جرائمهم اذا لم تقم كلمة القانون والعدالة ، اذا قدر للحكومات الجماعيـة أو البوليسبة أن تحل محل الغزاة الألمان ٠

اننا لا نطالب غنما لأنفسنا ولكننا نرى لزاما علينا أن نتأكد من أن المثل التى حاربنا من أجلها ستلقى ما يجب أن تلقاه من اعتراف عـلى مائدة الصلح عملا لا قولا ، سأكون غير جدير بثقتكم (والكلام موجه للأمة البريطانية) وبكريم عواطفكم ، اذا لم أواصل النداء لكم قائلا : الى الأمام دون تردد ودون خوف ودون لين ودون هـــوادة الى أن تكملوا واجبكم كله والى أن يصبح العالم كله آمنا مطمئنـــا وخاليـــا من كل شائبة ٠٠

وللأمانة أقول اننى قرأت ما قاله تشرشل أكثر من مرة ولكننى لم ألحظ توجهه بالكلام عن القارة الأوربية الا بعد أحـــداث ســـورية ولبنان ٠

كنت أظن أن كلام تشرشـــل وكذلك ترومان موجه الى شـــعوب العالم ، ولكن بعد أحداث سورية ولبنان أيقنت أن العدل الذى يريده تشرشل هو العدل فى أوربا وحدها وأن الحرية التى يطلبها هى حرية شعوب أوربا لا حرية شعوب أفريقيا وآسيا ٠

وأيقنت بأنه لا مانع من أن يحتل الغزاة الجدد ــ غزاة ما بعـــد

الحرب العالمية الثانية ـ محل الغزاة الألمان اذا ما كانت الأراضى التى تحتل غير أوربية : ٠٠ أفريقية ، آسيوية مثلا ٠

وآمنت أيضا بأن المثل العليا التى حارب تشرشل من أجلها لا تعنى الا المثل العليا التى يجب ان تطبق فى أوربا وأوربا وحدها ٠٠ !!

آمنت بأن الأهداف النبيلة والبسيطة التى خاض البريطانيون والفرنسيون الحرب من أجلها انما كانت لأوربا وحدها دون بقية شعوب العالم ٠

بل آمنت فيما بعد ـ وبعد أيام من تحقيق النصر ـ أن الحلف الذى خاض الحرب العالمية الثانية : البريطانى الأمريكى الروسى ، لم يكن حلفا مقدسا وأن التناقضات التى بين النظامين البريطانى والأمريكى وبين النظام السوفييتى لم تبرز بعد أيام من توقيع المانيا وثيقة استسلامها وانما برزت قبل ذلك بأسابيع حيث كانت القوات السوفييتية تحاول أن تحتل أكبر جزء من المانيا وأن تصل الى برلين قبل أن تصل القوات البريطانية والأمريكية ٠

وقد عبر ونستون تشرشل عن مخاوفه بخصوص عالم ما بعد الحرب اذ قال بصراحة ووضوح : كان القلق من المستقبل وغيره من مشاعر الخوف تملأ جوانحى وأنا اتنقل بين الجماهير المحتفلة بالنصر الذى استحقوه عن جدارة بعد تلك المصائب التى اجتازوها ٠

وبدا لمعظمهم أن خطر هتلر قد اختفى بعد أن استسلم العدو الهائل الذى قاتلوه أكثر من خمس سنوات دون قيد أو شرط ٠

وكل ما بقى هناك أمام الدول الظافرة الثلاث هو أن تضع سلاما عادلا ودائما تحرسه منظمة عالمية لكى يدخل العالم فى عصر ذهبى من الرخاء وازدهار ٠

ولكن كان هناك جانب آخر من الصورة فاليابان لم تستسلم بعد والقنبلة الذرية لم تخلق بعد وكان العالم يعيش فى اضطراب وارتباك فقد اختفت تلك الوشيجة العظيمة من الخطر المشترك التى كانت تربط بين الحلفاء بين عشية وضحاها ٠

أما أنا ـ تشرشل ـ فقد رأيت ان الخطر الشيوعى قد حل محل الخطر النازى مع فارق واحد هو عدم وجود روح التحالف والزمالة ضده ٠

ويقول تشرشل : لقد سعيت دائما لتوثيق أواصر الصداقة مع

روسيا ولكنني أشعر كما تشعر أنت ـ والكلام موجه الى الرئيس ترومان ـ بالقلق العميق من سوء تصويرهم لقرارات يالتا ، ومن موقفهم تجاه بولندا ، ومن نفوذهم الطاغي في البلقان كله باستثناء اليونان ومن المشكلات التي يخلقونها في فيينا ومن الدمج بين السيطرة الروسية وبين البلاد التي تقع تحت احتلالهم أو اشرافهم ومن الأساليب الشيوعية التي تقع في بلاد عدة وفوق ذلك قدرتهم على الاحتفاظ بجيوش ضخمة على هذا النحو في الميدان الى مثل هذا الأمد الطويل ، ويتساءل تشرشل بصراحته المعروفة ٠٠ ماذا سيئول اليه الوضع بعد سنة أو سنتين عندما تذهب الجيوش البريطانية والأمريكية من القارة ولا تكون الجيوش الفرنسية قد نظمت أمرها بعد فلا تبقى لنا سوى بعض فرق معظمها فرنسي مائتين أو ثلاثمائة فرقة آثرت روسيا الابقاء عليها في الخدمة الفعلية ٠

ويصرخ تشرشل بأعلى صوته قائلا : ان ستارا حديديا يسدل الآن على الجبهة الروسية فنحن نجهل ما يدور وراء الستار ٠

الستار الحديدي يعود ليسدل من جديد على مئات الأميال من الأراضي ٠

وهكذا سيقوم حزام عريض يفصل بيننا وبين ألمانيا ، وفي هذه الأثناء سينحصر تفكير شعبنا في توقيع العقوبات على المانيا التي تحطمت ودمرت وسيكون في وسع الروس بعد وقت قصير أن يتقدموا اذا شاءوا الى بحر الشمال والمحيط الأطلنطي » ٠

ولا تعليق لي على ما قاله تشرشل وخاصة في الجزء الذي نقلناه عن رسالة بعث بها الى هاري ترومان رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، فكلام تشرشل واضح وضوح الشمس ٠

لقد عبر عن خشيته من حليفه الاتحاد السوفييتي وعما يمكن أن يحدث في أوربا الشرقية وفي البلقان ٠

والذي أريد أن أقوله هنا ـ في هذه المذكرات ـ دون أن استبق الحوادث فمازلت مصرا على تتبع الأحداث وفقا لتواريخ حدوثها ـ ان ما كان يخشاه تشرشل قد وقع ، بل بأكثر مما توقعه تشرشل ذاته ٠

لقد بدأ السوفييت مثلا يجندون بعض عملائهم للاطلاع على اسرار القنبلة الذرية في كندا ٠

وقد اعتقل ـ في مارس ١٩٤٦ ـ بعض هؤلاء العملاء من قبل الحكومة الكندية ومن بينهم الميجور سوكولوف الملحق الجوي الروسي المساعد في

السفارة السوفييتية بكندا ، وكاملين مارى ونسر الموظفة بمكتب المندوب السامى البريطانى فى كندا والتى مكنت الجواسيس الروس من الاطلاع على أوراق سرية هامة ·

والجدير بالذكر ان الكولونيل نيكولاى زابوتين ــ وهو الذى كان ينظم حركة الجاسوسية بتعليمات خاصة من موسكو ــ هو الذى أفشى هذه المؤامرة للحكومة الكندية وطلب حمايته من أى انتقام قد يتعرض له بعد افشائه تلك الأسرار ·

وقد اعتقل أيضا ــ فى هذه المؤامرة ــ الدكتور آلان نوى ماى العالم الانجليزى فى الطاقة ·

★★★

وقد ازدادت الخلافات بين الاتحاد السوفييتى وبين انجلترا والولايات المتحدة خاصة حول جلاء السوفييت عن منشوريا وتسليمها الى حكومة شان كاى شيك ·

وكذلك عدم جلاء السوفييت عن المناطق التى احتلوها فى ايران بالرغم من مرور الموعد المحدد فى الاتفاقية الثلاثية بين الانجليز والأمريكان والسوفييت التى عقدت مدة الحرب ·

وكان الانسحاب قد حدد فى تلك الاتفاقية بمرور ستة أشهر على انتهاء الحرب ·

وكذلك كانت الخلافات شديدة وقوية بين الحلفاء السابقين حول البلقان واسبانيا ، وعادت العلاقات بين الروس والأمريكان والانجليز ــ حلفاء الأمس ــ الى ما كانت عليه قبل نشوب الحرب العالمية الثانية ، من الشدة والعنف ·

★★★

وقد كان فى مقدمة ما أثار اهتمامنا نحن الشباب ، وخاصة أولئك الذين كانوا يعيشون فى السجون مثلى محاكمة المارشال بيتان ·

وربما كان اهتمامنا بتلك المحاكمة يعود الى ان المتهم كان ــ وهو مارشال فرنسا العظيم صاحب وبطل أشهر المعارك الفرنسية بل العالمية : معركة فردان ــ كان فى التسعين من عمره ·

وربما كان لكراهيتنا للانجليز وكل ما يمت بصلة الى الانجليز ، وقد كان الانجليز فى مقدمة الداعين لمحاكمة المارشال بيتان ·

وربما لأنه كان سجينا مثلى ، محروما من حريته والمحرومون من شىء يتعاطفون عادة مع زملائهم وأقرانهم ·· جىء بالمارشال فيليب بيتان من سجن فى قلعة مونروج ومعه المارشالة زوجته ·

وكانوا يطلقون عليها المارشـالة لأنها وهو امتزجا وأصبحا كيانا واحدا ٠

وكانت المحاكمة قد بدأت مع صباح ٢٣ يوليو ١٩٤٥ فى قصر العدالة التاريخى الجميل ٠٠ دخل القاعة المارشال مرتديا ثوب مارشال فرنسا ، على صدره الميدالية الحربية ٠

يحمل فى يده ملفا من الأوراق ، وقفازا من الجلد الأصفر ٠

وكانت يده ترتعد ٠

لبث برهة واقفا أمام المقعد المخصص له حيث توجهت اليه عدسات المصورين ٠

وجلس الشبح ولكـن يده لا تزال ترتعـد ، وراح يعبث بأنامله فى أوراقه ٠

ووقف الى جانبه حارس شاكى السلاح وخلفه محاموه الثلاثة : باين وايزرونى ، ولومير ٠ وأقبلت هيئة المحكمة بعد دقائق قليلة ولكنهـا ـ الدقائق ـ كانت ثقيلة للغاية على نفس المتهم ٠

جلس رئيس المحكمة وحوله المحلفون البرلمانيون من اليمين والمحلفون التابعون للمقاومة من اليسار ٠

ثم وقف الرئيس لونجينو قائلا : هذه أكبر قضـية فى التاريخ ويهمنا أن تتم فى جو من الهدوء والنظام ٠

ـ ونسى أن يقول ٠٠٠ والعدالة ـ والمتهم الماثل أمامنا اليوم قد أثار خلال سنوات طويلة عواطف شتى تقلبت من الحماسة التى تصل الى حد التقديس والحب الى البغض والكراهية الى العداء العنيف ٠

ولكن كل هذه الأهواء والعواطف يجب أن تطرح خارج باب هذه القاعة فليس لدينا هنـا غير عاطفة واحدة ذات ثلاثة أوجه : الحقيقة والعدالة وحب الوطن ٠

وانى أفتتح الجلسة ٠٠ أيها المتهم : قف واذكر لنا اسمك وصفتك ، ووقف المتهم ليذكر اسمه وصفته « مارشال فرنسا » ٠

وبادر الأستاذ باين بقوله : الجهة الوحيدة التى لها حق محاكمة المارشال بيتان هى مجلس الشيوخ وذلك بموجب دستور ١٨٧٥ ٠

ووقف المدعى العام مورينه قائلا :

ان بيتان نفسه هو الذى الغي الجمهورية . وكان أول تصرف دستورى له الغاء المادة المتعلقة بانتخاب رئيس الجمهورية من الدستور .

ولذلك فلا يمكن اعتباره ـ بناء على ذلك ـ رئيسا للجمهورية . ورفضت المحكمة بسرعة طلب الدفاع الخاص برد المحكمة .

واستغرق المدعى العام نصف ساعة من الوقت فى تلاوة قرار الاتهام وفى المقدمة ، انه ـ بيتان ـ جعل الهزيمة النهائية أساسا لسياسته .

وأنه عاون الغاصب على استبعاد وطنه وأنه ساعد آلة الحرب الألمانية بالأنتاج واليد العاملة وتجنيد ابناء وطنه تجنيدا عاما لمصلحة الرايخ .

وعلى اثر مناداة الشهود بالاسم وقف المارشال بيتان والقى بيانا قال فيه :

ان الشعب الفرنسى ممثلا فى جمعيته الوطنية قد سلمتى زمام السلطة فى ١٠ يولية ١٩٤٠ وانى ما أتيت الى هنا لأقدم لكم حسابا ولكن لأقدم الحساب لهذا الشعب .

ان المحكمة العليا بهيئتها الحالية لا تمثل الشعب الفرنسى هذا الشعب الفرنسى الذى لا يعترف مارشال فرنسا رئيس الدولة بهيئة سواه .

انى لن أتكلم بعد اليوم ولن أجيب على أى سؤال توجهونه الى .

وسيجيب المحامون الذين وكلتهم على الاتهامات التى لابد أن تلوث فى النهاية مخترعيها .

انني قضيت حياتى فى خدمة فرنسا .

واليوم وقد قذفوا بى فى غياهب السجن ، وأنا فى سن التسعين أريد أن أتوجه الى فرنسا مرة أخرى .

فلتذكرى يا فرنسا الماضى ، أنا الذى قدت جيوشك فى مواكب النصر فى ١٩١٨ .

ولما بلغت سنا يحتم على الخلود الى الراحة لم أضن بشخصى عن المضى فى خدمتك .

أنى استجبت لندائك مهما بلغ منى الكبر ، أو نال منى الفناء وفى

يومك العصيب لما مرت بك الفاجعة التى لا عهد لك بمثلها ، ولبيت وجهك نحوى ..

ما طلبت لنفسى شيئا .

ولا راودتنى شهوة بل توسلوا الى أن آتى وها أنا بين احضانك .

على أنه فرض على أن أرث مأساة لم تكن من صنع يدى .

والمسئولون الحقيقيون استخفوا من ورائى لينقذوا أنفسهم من غضب الشعب .

فلما طلبت الهدنة كان ذلك بموافقة جميع قوادنا العسكريين .

وانى فى هذا قد أديت واجبا أنقذت به فرنسا .

نعم ان الهدنة أنقذت فرنســـا وأدت الى نجاح الحلفاء لأنها جعلت البحر الأبيض حرا .

واستبقت الامبراطورية .

وان السلطة التى تسلمتها كانت سلطة شرعية اعترف بها العالم كله من قداسة البابا الى بروسيا الحمراء ..

بهذه السلطة جمعت الشعب الفرنسى الذى فى سبيله ضـــحيت بمجدى الشخصى وقبلت أن أعيش على رأس بلد يحتله الأجنبى .

هل فى نيتكم أيها القضاة أن تفهموا دقة موقف الحاكم فى مثـل هذه الظروف .. ؟

كل يوم يوضع السكين فوق العنق فأمكننى ان أكافح الالتزامات التى كان يفرضها العدو .

سيقول التاريخ كلمته وسيبين أنى انقذتكم من شر مستطير .

كلما تجاسر خصومى على مؤاخذتى عن أمر لم يكن منه بد ، اضطرنى الاحتلال لأن الين مع العدو .

ولكن كان اللين من أجلكم .

وانا متذرع بالصبر حتى تشرق شمس الحرية .

ومع ذلك رغم قيود العـدو ، فما تنـــازلت عن شىء ضرورى فى وجود الوطن .. بل على العكس فى خلال أربع سنوات استطعت بعملى

ان أصون فرنسا وأن اضمن للفرنسيين أرواحهم وخبزهم ، وللاسرى منا البقاء من أجل الوطن ٠

فعلى أولئك الذين يوجهون الى التهم ٠٠ على الذين جلسوا لمحاكمتى أن يسألوا أنفسهم ويراجعوا ضمائرهم ان كانت موجودة ، ما الذى كان يحيق بهم لو لم أكن حيا ؟ ٠٠ كان الجنرال ديجول خارج أراضينا يواصل القتال ٠

وكنت أهيىء فرنسا للخلاص ، فحفظت فرنسا حزينة ولكنى أبقيتها حية ٠

ماذا كان يجدى الجهاد لو أنهم جاءوا الينا لتحرير أرض كلها خرائب ومقابر ؟ ان العدو بسبب وجوده فوق أرض الوطن يعد المسئول وحده عن حرياتنا المقيدة وعن منعنا من التحرر طوال مدة حكمه ٠

اننى أعددت نظما جديدة فالدستور الذى نيط بى وضعه قد أعد ولكننى لم أتمكن من اصداره ٠

ورغم الصعوبات الجسام ، لا توجد فى هذه البلاد سلطة استطاعت أن تنقذ شرف الأسرة كما فعلت وقد منعت تنازع الطبقات بتنظيم العمل فى المصنع والحقول ٠

ان فرنسا التى تحررت تستطيع أن تغير الانماط ٠

وفى وسعها أن تبنى شيئا جديدا ٠

ولكن البناء لا يقوم الا على الأسس التى وضعتها ٠

وأنا من ناحيتى ما فكرت فى شىء غير الوحدة وايجاد السلام والوئام بين الفرنسيين ٠

قلت لكم هذا ٠٠ يوم ان سجننى الألمان الذين اتهمونى بأنى ما انقطعت عن مقاومتهم ، وتحطيم جهودهم ٠

واذا كان البعض لعملى جاحدين فان ملايين الفرنسيين الذين وهبونى ثقتهم مازالوا لى ذاكرين وللعهد حافظين ٠ فأنتم اذا حكمتم على ستحكمون على هؤلاء الملايين من الرجال فتفجعونهم فى آمالهم ، وعقيدتهم ، وبذلك تستبقون الفرقة والشقاق بين أبناء الوطن ٠

ان حياتى لا قيمة لها ، وان شخصى قد وهبته لفرنسا ٠

وفى هذه الساعات الرهيبة لا ينبغى أن أتوقف عن النصيحة ٠

أحكموا على بالموت ٠٠ لكن فلأكن آخر من تحكمون عليه من أبناء هذا الشعب ٠

وحذار ان تقبضوا على فرنسى بتهمة أنه أطاع الأوامر الصادرة منى .. انى أنذركم أيها القضاة على ملأ من العالم كله .

وأسجل عليكم أنكم اجتمعتم هنا لتحكموا على رجل .. رجل برىء ثم يزعمون أنكم تمثلون العدالة .

على أن هذا البرىء سيتلقى الحكم باطمئنان لان مارشال فرنسا لن يطلب العفو من أحد .

أما حكمكم فانى أترك الجواب عليه لله الكبير المتعال .

والآن أضع نفسى وديعة فى يديك يا فرنسا » .

★★★

وأذكر أنه ما كاد نص كلمة بيتان يصل الى فى سجنى . حتى ضحكت من نفسى على نفسى . نشكو نحن الشباب الذين نواجه حياتنا العامة لأول مرة من برش السجن ، وحشراته ، وهوامه ، نشكو من وجودنا مع المجرمين العتاة ، ومن قلة الطعام ، وانعدام الضوء ، واقفال الجبسخانة التى لا تفتح الا لأمر خطير ..

ان ما نشكو منه اذا قورن بالنسبة لما يشكو منه الآخرون كمارشال فرنسا العظيم يمثل الفرق بين « قرصة نملة » وبين مواجهة الاعدام .

★★★

وأقول ــ للأمانة ــ ان كلمات بيتان قد استطاعت أن تخدرنى فلم أعد بعد اليوم أشعر بعذاب السجن ، بل لقد تحول عذاب السجن بالنسبة لى ليصبح أشبه ما يكون بمعاكسات الأطفال .. !!

وكان بيتان قد أرسل الى هتلر ــ من سجنه ــ فى ٥ ابريل ١٩٤٥ خطابا يقول فيه : انه علم أن السلطات الفرنسية شرعت فى محاكمته غيابيا وان هذه المحاكمة ستبدأ فى ٢٤ ابريل ، ويقول فيه أيضا انه حصل على تفويض من الجمعية الوطنية الفرنسية فى ١٠ يوليو ١٩٤٠ وأنه قام بالتزامات هذا التفويض بقدر ما سمحت الفرص التى تركت له وأنه بصفته رئيسا للدولة وهو فى بوردو فى يونيو ١٩٤٠ رفض أن يغادر فرنسا وقرر البقاء فى منصبه فى فيشى لأنه سمع دقات ساعات رهيبة خاصة بمصير وطنه .

ولكن حكومة الرايخ منعته فى ٢٠ أغسطس ١٩٤٤ من الذهاب الى فرنسا .

وبغض النظر عن مقتضيات الشرف فلا استطيع ــ بيتان ــ أن اترك الاشاعات تنمو حول اسمى وهى الاشاعات التى تزعم بسوء نية انى اعتصمت ببلاد أجنبية فرارا من المسئولية .

وفي فرنسا وحدها استطيع أن ادافع عن تصرفاتي ·

واني أتحمل وحدي نتيجة الأخطار التي قد تصادفني من جراء هذا القرار » ··

ويطلب بيتان من هتلر أن يســمح له بالذهاب الى بلده : « انكم لتقدرون أهمية قراري بالنسبة لشرفي كرئيس للدولة ، ولكي أدرأ الأذى عن أولئك الذين تعاملوا معي من أبناء وطني ·

هذا غرضي ، ولن تمنعني أية قوة من التمسك بطلبي ·

وأخشى ما أخشاه وأنا في هذه السن أن يقف حائل دون قيامي بواجبي ، هذا الواجب الذي لابد أن أؤديه الى النهاية » ·

ولم يجب هتلر على رسالة بيتان وانما أصدر قرارا باطلاق سراح بيتان وأمر بنقله وحاشيته ، الى الحدود البافارية · ولكن في هذا الوقت تداعي النظام النازي وغير رئيس الحرس المرافق للمارشال الأوامر الصادرة اليه فنقله الى الحدود السويسرية ·

وجاء بيتان الى فرنسا طوعا واختيارا ·

وأذكر ·· أن الجمهور المتواجد في القاعة قد رحب بكلمات بيتان وقاطع كلمات المدعي العام فأمر رئيس المحكمة باخلاء القاعة حتى يتمكن بول رينو من أداء شهادته ·

وقال بول رينو ان المارشال بيتان قد أمر بسجنه بجرة قلم ، يوم ان كانت السلطة المدنية والعسكرية في يده ·

وأنه قد حكم عليه من غير دفاع ويستمر بول رينو في شرح الظروف التي أدت الى محاكمته والى هزيمة فرنسا ·

وينهي بول رينو شهادته أو مرافعته ضد بيتان بمعنى أدق ، بأنه لا يوجد في التاريخ رجل أذل أمة كما فعل بيتان بفرنسا ولا يوجد في التاريخ رجل خان وطنه كما فعل بيتان ··

وقامت أزمة بين نقيب المحامين الفرنسيين الذي وصف الشــاهد بول رينو بأنه وقح سليط وبين الشاهد ·· وبطبيعة الحال وقفت المحكمة الى جانب الشاهد ··

والجدير بالذكر أن معظم الصحف البريطانية كانت ضد المارشال بيتان منذ اليوم الأول في المحاكمة بل قبل أن تبدأ المحاكمة ·

وهكذا كانت الصحف الأمريكية بطبيعة الحال ٠٠٠

وأذكر أن صحيفة نيويورك تايمز قالت ان محاكمة بيتان تختلف عن محاكمة مجرمى الحرب الألمان ، فمجرمو الحرب متهمون بأنهم قتلوا افرادا ٠

أما بيتان فقد قتل المبادىء التى قام عليها صرح الدولة الديمقراطية الجديد ، خاصة المثل الانسانية العليا ٠

وان كانت الصحيفة الأمريكية قد ذكرت بصريح العبارة أن المحكمة التى تحاكم المارشال بيتان ليست فوق مستوى الشبهات ٠

أما جريدة الديلى هيرالد فقد كتبت ـ فى اليوم الأول للمحاكمة ـ مقالا عنيفا تحت عنوان : الرجل الذى لم يفهم ٠

وجاء فى ذلك المقال أن بيتان قد عجز عن فهم عزم البريطانيين على المضى فى الصراع ٠

كما أنه لم يفهم الجنرال ديجـــول ، ولم يفهم روح المقـــاومة الفرنسية ٠

وكل ما فهمه هو أن الطريق الوحيد لانقاذ فرنسا هـــو التسليم للقوة الغاشمة التى بدت له فى صـــورة ارادة الهية لا سبيل الى مقاومتها ٠

وتتوالى شهادة كبار رجال فرنسا ومعظمهم من المســئولين عن الكارثة التى ألمت بفرنسا وكان يجب أن يحاكموا هم بدلا من أن يحاكم بيتان قال دلادييه ٠٠ اننى لن أدع الحقد يتسلط على ، فى شهادتى فأنا هنا أمام الشعب الفرنسى وأمام التاريخ وقد جئت لخدمة الحقيقة ٠

لن أقول غير الحق يا حضرات المستشارين ، ولن أشهد الا عن أمور عشتها ، أو مسائل سمعتها ، بمن يوثق فى شهادتهم وسأصرح بأسمائهم وهم أناس اتصلوا بى خلال السنوات الأربع الأخيرة التى قضيتها فى مختلف السجون ٠ وذكر دلادييه ٠٠ أن المارشـــال بيتان كان يتمتع بنفوذ أدبى كبير خصوصا لدى ضباط الجيش الفرنسى وكان موضع ثقة الشعب الفرنسى بأسره ٠

وذكر دلادييه ٠٠ عبـــارة قالها الدوق دى بروجلى : ان من يعلن الحرب هو الذى يستفيد منها ، وشرح دلادييه تلك العبارة ٠

وكان دلادييه هو رئيس الوزارة الفرنسية التى أعلنت الحرب على المانيا ٠

ويقول دلادييه : أنه قد عين المارشال بيتان سفيرا لفرنسا في مدريد وصادف هذا التعيين ارتياحا كبيرا ، لأنه ـ بيتان ـ كان يتمتع بنفوذ أدبي منقطع النظير وان كان ليون بلوم قد انتقده على ذلك في مقال نشرته صحيفة بوبيلير في ٣ مارس ١٩٣٩ قائلا : لا يصح ان يعين سفيرا أكثر جنود فرنسا نبلا وأرقهم احساسا . وقال دلادييه انه أراد بذلك التعيين أن يضمن حيدة فرنسا في حالة الحرب حتى لا نضطر لأن نفتح جبهـــة جديدة ولو فعلت لانهارت بضربة واحدة . ولا شك أن بيتان قد نجح في مهمته فأدى لبلاده خدمة ما كان غيره ليقدم على ادائها .. !!

وسئل مسيو دلادييه من الدفاع : هل تعتقد أن المارشال خـــان وطنه .. ؟ وأجاب دلادييه .. في رأيي أنه خان الواجبات التي القيت على كاهله .

وبعد طلب مزيد من ايضاح .. قال دلادييه انني افترض في المارشال حسن النية ولكني اعتقد ـ دلادييه ـ ان المارشال بيتان قد خان منصبه وقد يخون المرء عن قدرة على الخيانة ، وقد يخون عن عجز وقصور ، ولكن المارشال بيتان قد خان واجبه كفرنسي .

أما المسيو لوبران رئيس الجمهورية الفرنسية .. فقد ذكر أن المارشال بيتان كان عضوا في الوزارة في ١٨ مايو ١٩٤٠ وكان الجيش الفرنسي قد أصيب بضربات قاصمة .

وكانت الأحوال تسير من سيىء الى أسوأ .

وقد جاء المارشال بعد أن تفاقمت المحن لينقذ ما يمكن انقاذه ، وأنه عين نائبا لرئيس الوزراء وقت ان كانت الوزارة وفرنسا موشكة على الضياع ، ولذلك أرادوا تضميد الجراح بتعيين الجنرال فيجان رئيسا لهيئة أركان الحرب .

وذكر أن صوت المارشال فوش ما يزال يرن في أذنه عندما كان يقول له : اذا مر بك يوم عصيب واحتجت الى الرجال فاطلب فيجان وانك ان فعلت فلن تعرف الهزيمة ..

ويذكر المسيو لوبران كيف جاء الجنرال فيجان في التاسعة من مساء يوم ٩ يونيو وألقى في مجلس الوزراء بيانا حزينا فقررنا مغادرة باريس وأخذ الوزراء طريق الفرار في وادي اللوار الذي كان موصدا .

وأما أنا ـ لوبران ـ فقد انتقلت الى انجيـــه حيث اتفق على عقد مجلس الوزراء في الأيام المقبلة .

وفى اليوم الحادى عشر انعقد فى انجيه مجلس الوزراء حيث ألقى علينا الجنرال فيجان بيانا مفجعا ثم اقترح طلب الهدنة وقد رفض بيتان اقتراح فيجان وانقسم الرأى فى مجلس الوزراء ولم ينته الى قرار ..

وفى صباح ذلك اليوم حضر تشرشل وايدن .. وطلب منى تشرشل ألا نتخذ قرارا الا بعد الحصول على موافقة الحكومة البريطانية .

وفى يوم ١٣ من يونيو انعقد مجلس الوزراء للمرة الثالثة حضره تشرشل وهاليفاكس وبيفربروك وطلبنا من تشرشل مددا سريعا فأبدى أسفه لما أصاب جيش فرنسا .

وذكر أن طلب المدد لن يتحقق ولكنه يعد بالنصر .

ويؤكد لفرنسا أنه سيأتى وقت يمد لها فيه يد المساعدة فتسترد شرفها واستقلالها وكرامتها .

وأشار لوبران الى بيان مكتوب القاه بيتان فى اجتماع مجلس الوزراء جاء فيه : عندما يصاب بلد كفرنسا بمحنة لا ينبغى أن يفر رجاله بل عليهم أن يظلوا بجانبه يدافعون عنه فى جسده ونفسه وروحه . ونحن لا نستطيع ان نقول على موقف حليفنا وهو موقف لا يحسد عليه ومستقبله تكتنفه السحب والغيوم ، يجب علينا أن نحمل آلام الوطن هذا واجب تنتظره فرنسا من أبنائها وبغير هذا لا سبيل لاخراجها من الهوة التى وقعت فيها .

ويقول الرئيس لوبران : تلك كانت سياسة المارشال بيتان التى تمسك بها فى جميع المناقشات التى دارت فيما بعد .

ومضت المناقشات والعدو يتقدم حتى صار مقر الحكومة فى خط النار وهدفا للصواعق التى تلقيها الطائرات فانتقلوا الى بوردو .. !!

ثم جاءت الأخبار بأن الجيش الألمانى اجتاز اللوار وأصبح من الصعوبة بمكان تموين الجيش الفرنسى .

ان الفرنسيين يهيمون فى الطرقات على وجوههم ، وأخذ الرأى فى مجلس الوزراء وكانت أغلبية الأعضاء فى جانب الرأى القائل بطلب الهدنة .

وطلب رينو رئيس الوزراء الفرنسى – وكان من الرأى القائل بالاستمرار فى القتال – اسناد مهمة الحكم الى المارشال بيتان الذى يشاركه الجميع الرأى .

وكان على – لوبران – أن أذعن وقدم المارشال بيتان قائمة بأسماء

وزارته ، وبدأت محادثات الهدنة واستعانوا بوساطة سفير اسبانيا وأجابت المانيا فى التاسع عشر من شهر يونيو .. و .. ووقعت الهدنة .

ورأى مجلس الوزراء أن شروط الهدنة ليست مهينة لفرنسا .

ووقعت الهدنة واخترنا فيشى مقرا لحكومة فرنسا اذ توجد بها فنادق وفيلات تتسع لادارات الحكومة واقامة رجالها .

ويقول المسيو لوبران ان ثلاثة من أعضاء البرلمان البارزين زاروه فى ٧ يوليو طالبين منه أن يستقيل لأنه - كما قالوا لى - أكرم بى وأنه يمكننى أن أسافر أولا ثم أستقيل ، فنحن - كما قالوا أيضا - فى ظروف عصيبة واستقالتك ستساعدنا على مواجهتها .

وهناك أشياء كثيرة لا يجب أن نقولها لك .

ويقول لوبران انه رفض الا أن تسحب الجمعية العمومية السلطة منه .

وقال لوبران فى ١٠ يوليو ١٩٤١ اجتمعت الجمعية الوطنية وقررت نقل سلطات الجمهورية الى مارشال فرنسا .

وقال لوبران أيضا : فى اليوم التالى زارنى المارشال بيتان وقال لى : أيها الرئيس جاءت الساعة المؤلمة .

كنت أنت دائما من خدام فرنسا وأنت ذاهب الآن بسبب الوضع الجديد الذى اختارته الجمعية الوطنية ، وأؤكد لك أنى لست خليفة لك بل نحن حيال نظام دستورى جديد فأجبته : لا تحزن أيها المارشال : كنت طول حياتى رجلا سياسيا خادما للقانون حتى ولو كان ضد شعورى وعواطفى .

واليوم وقد رأت الجمعية الوطنية رأيا فأنا عند رأيها وكل شيء انتهى .

وذكر لوبران : أن المارشال بيتان كان يتحمل المسئولية عن تصرفات كثيرة ليس هو صاحبها وينهى المسيو لوبران شهادته بكلمة مؤثرة قال فيها : يحزن قلبى ويهن من عزيمتى أن أرى المارشال العظيم هنا فى هذا الوضع .

لقد رأيت المارشال وقد نصبت له مواكب الشرف والفخار .

رأيته فى خريف سنة ١٩١٨ والرئيس ريمون بوانكاريه يسلمه

عصا المارشالية بجوار تمثال جده الأكبر المارشال ناى الذى أطلقوا عليه لقب أشجع الشجعان ٠

رأيته فى عيد ١٤ يوليو يخترق شارع الشانزليزيه ومعه فى صف واحد المارشال جوفر والمارشال فوش وثلاثتهم كانوا نجوم فرنسا اللامعة الذين كسبوا لها الحرب ٠ ورأيته فى موقف حزين فى بلغراد حين كنت أمثل فرنسا فى جنازة الملك الكسندر وكان يمشى معنا ممثلو دول العالم بأسره وكانوا جميعا يتطلعون الى المارشال بيتان فى اجـــلال وتحيـــة واحترام ٠

ثم رأيته هنا فى قفص الاتهام ٠

وأذكر أن المحاكمة كانت عنيفة بالنسبة لرجل فى مثل سن بيتان وفى مركزه أيضا ، ولقد أصيب فى أحد ايام تلك المحاكمة بحالة شديدة من الاعياء ، فى ٢٩ يوليو ١٩٤٥ لم يستطع المارشال أن يحضر المحاكمة فسمح له رئيس المحكمة ، بأن يقيم الصلاة فى الجلسة ٠

وقد ظن الكثيرون ان حياة المارشال ستنتهى قبل أن تنتهى المحاكمة٠

وقد صرحت زوجته أن قرينها الشيخ قد لا يحتمل المحاكمة الى نهايتها ٠

وكانت غالبيه الصحف الفرنسية قد ضاقت ذرعا بأنباء المحاكمـــة واعتبرت بعض الصحف أنها محاكمة أفلاطونية أتاحت لأعلام السياسة من رجال العهد الماضى أن يتحدثوا عن أنفسهم ويبرروا أعمالهم ومهمـــا كانت المزايا الشخصية لبعض هؤلاء فليسوا هم الذين يستطيعون ادارة محاكمة بيتان فقد ساعدوا فى انتهاب مقاعد الحكم وليس من حقهم اليوم ان يستجوبوا المارشال ليظهروا بمظهر الاعداء ٠

وطالبت صحف فرنسية كثيرة بأن يتحدد موضوع القضية : هل المارشال بيتان أخطأ أو أجرم ؟ عندما قبل الحكم فى ظل الاحتلال الألمانى أم لا ؟ ٠٠

تلك هى القضية التى يجب أن يجرى الحوار حولها ٠ لا أن تدور ، وتدور ، حتى تضيع أصول القضية ٠٠ ؟

جاء فى شهادة جول جنينى الذى كان رئيسا لمجلس الشـــيوخ الفرنسى أنه كان من أنصـــار نقل مقر الحكومة من بوردو والى أفريقيـــة الشمالية ، لأنها ـ كما قال ـ أرض فرنسية ، وكان يمكن منها استخدام الأسطول بطريقة فعالة ٠

وقال جول جنينى عن طلب الهدنة أنها ليست جريمة او غلطـــة

لا تغتفر وأن طلب الهدنة كان بتدبير عسكرى قام به الجنرال فيجان وتدبير سياسى قام به المسيو لافال ٠

ويتضح من المحاكمة أن اليهود كانوا وراء محاكمة بيتان ، وأن كثيرين من الشهود كانوا يعبرون عن حقد يكنونه للمارشال الذى لم يستمع لنصائح بعض اليهود ٠

وكان أقسى الشهود الذين شهدوا ضد بيتان ليون بلوم الاشتراكى اليهودى والذى لم ينس لبيتان مطاردته لليهود فى فرنسا والذى ذكر أن أول عمل لحكومة المارشال بيتان محاولة تطهير فرنسا من اليهود ٠

لم يكن لكلام ليون بلوم فى هذه النقطة أى ظل من الحقيقة ٠

ومما يبعث على السخرية ان الادعاء قدم - للشهادة - امرأة أيطالية اسمها بيتى كانت تعمل سكرتيرة لشركة ايطاليا الجديدة للأنباء ،

وكانت هذه السكرتيرة عشيقة لأحد الايطاليين ٠

وقد ذكرت أنها سمعت عشيقها يقول فى حديث تليفونى : فليذهب رينو الى لندن ويرأس وزارة فرنسية فى المنفى وحسبنا ان تتالف هنا وزارة يكون فيها بيتان ولافال ٠ وكان من بين شهادة بيتى هـذه قولها : انني خدمت فرنسا ، واشتغلت بعد ذلك عضوا فى المقاومة السرية فشكرها رئيس المحكمة قائلا : تعنين أنك اشتغلت على الوجهين ٠

وكانت أكثر الشهادات هى شـهادة الجنرال فيجان الذى قال انهم يستدعونه اليوم كشاهد وغدا سيستدعونه كمتهم ٠٠

وقد ذكر فيجان أن الحرب قامت والمارشال بيتان فى أسبانيا وأنا فى بيروت ولم يحدث أننا تبادلنا رسالة واحدة ٠

وقال : لو كنا ذوى نزعات ميكافيلية لهان الأمر ، وكان علينا أن نرفض المشاركة فى المسئولية يوم أن دعينا لذلك ونرفض الحالة السيئة تزداد ضعفا على ابالة ولكنا لم نفعل هذا فلبينا نداء الواجب ٠

وإعتقد أنى بعد تجاربى الطويلة لست بحاجة الى أقزام يلقون علينا دروسا فى الشرف والوطنية والمرء لا يكون شريفا الا اذا جرب الشرف ٠

وأول تجربة فى مضمار الشرف التحلى بالشجاعة وأن نقول الحق على أنفسنا ٠

ودافع فيجان عن القرار الذى اتخذه باعتبار باريس مدينة مفتوحة فقال انه لو لم يتخذ هذا القرار لحولها الألمان الى خرائب لأنه لم يكن لدى الجيش الفرنسى شىء يدافع به عن عاصمة وطنه ٠

وقد اتخذت ــ فيجان ــ هذا القرار على مسئوليتى وأشار فيجان الى كلمة وجهها تشرشل له ولزملائه :

« انى معجب بشجاعتكم يا معشر الفرنسيين ويؤسفنى أن الجيش البريطانى لا يستطيع أن يقوم معكم بهذا الشوط الآن : أى موتوا وحدكم يا فرنسيون وفى سبيل من ٠٠ فى سبيل الامبراطورية البريطانية طبعا » ٠

ويشير فيجان الى أن رئيس الوزراء ــ بول رينو ــ ذكر أنه اتفق معى على أن نسلم الجيش ونرحل معا ٠ ويقول انه احتقر رئيس الوزارة احتقارا مريرا ٠

ويقول فيجان بصريح العباره انه والقائد العام قررا طلب الهدنة لاسباب عسكرية بحتة بعد ان استنفذ كل الوسائل الممكنة دفاعا عن فرنسا ، وبعد أن نضب معين الفرق الموجودة تحت قيادته وانه لو كانت هناك بارقة أمل ولو ضئيلة ما فكر فى الهدنة قط ٠

ويذكر أنه قدم طلب الهدنة الى الحكومة التى كان المارشال بيتان عضوا فيها فآزره المارشال الذى لم ينظر للمسألة الا من الوجهة التى نظر منها وهى الناحية العسكرية البحتة وهو عالم بها وخبير ٠

وذكر أن الجنرال يبدى رأيا عسكريا ولكن الحكومة هى المختصة وحدها بمسألة استمرار الحرب أو عدم استمرارها ٠

وذكر الجنرال فيجان أنه وبعد طلب الهدنة كان صدره يتمزق خاصة وأنه هو الذى قرأ على الألمان فى الحرب الأولى شروط الهدنة فى ريموند بأمر من رئيسه المارشال فوش ثم دارت الأيام وقام هو بطلب الهدنة مع الألمان ٠

ولو كان هناك سبيل لتجنب ذلك لبذلت المستحيل لكى اتخلص ــ فيجان ــ من الألم وعذاب النفس ٠٠

ويمضى فيجان قائلا : الاجماع كان ينعقد على أية حال ان الجيش الفرنسى عليه الاستمرار فى المقاومة ولكن الخلاف كان حول مسألتين : فريق رينو يرى التسليم وفيجان وبيتان يريان طلب الهدنة والتسليم مهين للشرف ولماضيها العسكرى ، وقد حاولوا اقناع المارشال بيتان بأن يصدر أمره لى بالتسليم بصفته وزيرا للحربية ولو فعل لعصيت أمره ٠

ويفرق فيجان بين التسليم وبين طلب الهدنة فيقول : التسليم

يتضمن الشروط العسكرية التى تملى ولا يتضمن المسائل السياسية . والتسليم يعنى ألا يكون لفرنسا حكومة أو جيش .. أما الهدنة - كما يقول فيجان - فهى فترة استعداد .

ويقرأ الدفاع رسالة من الأميرال ليهى الذى كان سفيرا للولايات المتحدة فى باريس فى الفترة من يناير ١٩٤١ الى أبريل ١٩٤٢ بعث بها الى المارشال وقد بدأت الرسالة بابداء الأسف والحزن لما آل اليـــه أمر المارشال وأنه - كقائد عسكرى - يستحيل عليه أن يتدخل فى شــئون فرنسا الداخلية ويذكر ليهى .. أنه رأى بيتان فى تلك الفترة - يناير ١٩٤١ - أبريل ١٩٤٢ متفانيا فى خدمة الشعب الفرنسى .

ولقد طالما عبرت لى عن آمالك فى سحق الغزاة النازيين . ويقــول ليهى : لقد رأيتك فى مناسبات كثيرة تعرقل سياسة المحور وتقدم لقضية الحلفاء خدمات لا تنسى .

وحتى فى الأوقات التى رفضت فيها بعض طلبات قدمتها اليـــك كان هدفك تفادى الضـــغط والايذاء اللذين يمكن أن يستلطهما الغزاة على شعبك ، لذلك آمنت وما زلت أؤمن أن غايتك المثلى كانت رعـــاية الشعب الفرنسى وحمايته ويستحيل على أى عاقل أن يتصور أنه كانت لك غايات أخرى .

ويؤكد ليهى أيضا أن نشاط بيتان فى مدة الاحتـــلال كان يرمى لتخليص فرنسا .

وأمل - ليهى - أن يدرك الشعب الفرنسى هذه الحقيقة ويقدرها حق قدرها .

وانتقل أخيرا .. بعد أن طال طوافنا بتلك المحاكمة التاريخيـــة - أهم محاكمة فى فرنسا بعــد محاكمة لويس الســـادس عشر - الى النهاية .. كلمات النائب العام مسيو مورنيه فى مرافعته وكانت من أقسى ما وجه لمارشال فرنسا ومنها أن مارشال فرنســـا : ذلك الاسم الذائع الصيت كان ستارا يخفى خيانة عظمى ارتكبت ضد فرنسا .

وكانت كلمات النقيب باين شيخ المحامين فى فرنسا أقوى رد على كلمات مورنييه ، يذكر فى البداية تاريخه العســـكرى ، وكيف أنقــذ بيتان فرنسا من خطر جسيم عندما راحت وحدات من الجيش الفرنسى فى ١٩١٧ تتظاهر وهى تغنى بنشيد الدولة وتهدد البــلاد بخطر عظيم لولا أن بيتان استعمل نفوذه الأدبى لانقاذ فرنسا .

ويشير نقيب المحامين الى بيتان عندما اعتزل الخدمة ولم يقبل أن يكون عضـــوا فى الشركات بل قبع فى بيته الصـــغير فى بلدة

فى فرنسا الوسطى وكان يقضى بعض أيـام الشـتاء فى شقة متواضعة بباريس لعلها لا تصلح الا لسكن ملازم صغير ٠

ويقول نقيب المحامين أن الذين دعتهم المحكمة للشـــــهادة هريو . نويس ماران ، ليون بلوم رؤساء احزاب برلمانية كبيرة ، دلادييه وزير الدفاع لمدة سبع سنوات ، بول رينو ٠٠ و ٠٠ وهؤلاء هم الذين جهزوا الحرب ، وأعلنوها ، وأداروها وخسروها والعالم كله يعتبرهم مسئولين عن الهزيمة « اتيتم الى هنا بالمتهمين الحقيقيين ليشهدوا ضد رجل عظيم. فماذا قالوا : لم يشهدوا ٠٠ بل ترافعوا مدافعين عن أنفسهم ٠٠ فهل نوجد عقول تستطيع ان تبرىء هؤلاء من مسئولية الهزيمة لتلقى التهمة على رجل عظيم كان قد تقاعد ، ودعى لوزارة الحربية فى الثمانين فلم يعمل فيها غير بضعة أشهر ٠٠ !!

وقد راح النقيب باين يفند كل ما جاء على لسان المدعى العام ، وشهود الاثبات ٠ وكان من بين ما قاله : ان الحقد السياسى الذى يأكل قلبى رينو ولويس ماران وأمثالهما من الشهود طغى على عقولهم حتى قيلت ضمائرهم ان يتهموا فرنسا بأنها خانت شرفها حيال انجلترا بغرض الايقاع بالمارشال والحق أنهم خانوا فرنسا ، ودفاعا عن أنفسهم يتهمونها فى شرفها على ملأ من العالم كله ٠

وكان من بين ما قاله عن أؤلئك الذين رحلوا من فرنسا : هاجر فرنسيون ليحاربوا مع الجنرال ديجـــول وهؤلاء أحييهم باسم المارشـــال بيتان ٠

ولكن آخرين تعرفون أسماءهم حزموا حقائبهم وملأوها بالمال ومعهم نسوة شرعيات وغير شرعيات ومعهم الخليلات والسكرتيرات والمجوهرات، وأولئك هم الذين وقفوا فى هذه القاعة يتهمون بالخيـــانة أشرف رجال فرنسا ٠

استحلفكم بالله أيها القضاة الا تلوموا هؤلاء الذين وجدوا لزامـا عليهم أن يبقوا فى فرنسا والذين احتملوا مرارة العيش فيها تحت راية الغزاة ، أولئك الذين كانت مهمتهم حماية أهل فرنسا ، وقد بقوا اخوانا للذين هاجروا ٠٠ لا تصدقوا أبدا أن هؤلاء الذين أقاموا فى فرنسا كانوا أقل وطنية أو رغبة فى التضحية ممن سافروا لامتشاق الحسام ٠

ويذكر النقيب أن الهدنة كان لها حسنات الى جانب السيئات ، منها ـ الحسنات ـ أنها تركت جنوب فرنسا بغير احتلال ، كما تركت لنـا الأسطول والمستعمرات وحكومة فرنسية وارادة فرنسية وجيشا فرنسيا

كان نواة للمقاومة التى أجلت الاحتلال فافترضوا أننا لم نطلب الهدنة ٠٠ فهل كان هناك شيء آخر غير التسليم بلا قيد ولا شرط ٠

ولو حدث هذا لكسب الألمان الحرب ولتغير وجه التاريخ ٠ بل أكثر من ذلك ٠٠ لولا الهدنة لقبض الألمان على ملايين الفرنسيين وجندوهم أو زجوا بهم في المعتقلات وما كان ليقوم هؤلاء فيما بعد بالمقاومة الفرنسية ٠٠ لولا الهدنة لاستولى الألمان على ثروة البنوك التى نقلت قبل توقيع الهدنة بيومين بناء على تعليمات المارشال فى قطار خاص من باريس الى فيشى ومن فيشى بعدئذ الى بوردو الى ارجيليس قرب جبال البرانس ، وهذه تقدر بعدة آلاف المليارات من الفرنكات ٠

وبعد الهدنة ما كان هناك شيء يمنع قط الألمان من احتلال مراكش والجزائر ولو احتلها الألمان وقتئذ أى فى سنة ١٩٤٠ ما كان ليقعوا فيما وقعوا فيه من خسارة حرب الصحراء بعدئذ ٠

ولو احتل الألمان مراكش والجزائر لحاربوا فى الصحراء بجيوش المانية صميمة ولأمكنهم فى سنة ١٩٤١ ان يحتلوا ليبيا بأسرها وان يدخلوا مصر فاتحين وان لو احتلت مصر لوقع الشرق الأوسط كله فى قبضة الألمان وتهددت الجبهة الروسية نفسها بخطر كبير : ووقعت مشادة بين الأستاذ ليمير — من هيئة الدفاع عن المارشال — وبين النائب العام انتصر فيها رئيس المحكمة للنائب العام ، ولكن ليمير قال : ان من حقه أن يقول ما يريد كما كان من حق النائب العام أن يقول ما يريد ، والنائب العام هنا ليس فى خدمة الحكومة بل فى خدمة الصالح العام والواجب المقدس ٠

ويشير الى أن الجنرال ديجول كتب كتابين أهداهما للمارشال بيتان : الرجل الذى يعتز به الجيش ، وتفخر به البلاد ٠ وتساءل ليمير : أكان ديجول حينما طبع الاهداء فى مؤلفين على هذا النحو من دعاة المحور ٠٠ !!

ويعود النقيب باتان فى جلسة ١٤ اغسطس ١٩٤٥ لاستكمال مرافعته فينفى ما قيل من أن بيتان كان يتعاون مع ألمانيا ٠٠ وردد كلمة لمترينخ فى ١٠ أغسطس ١٨٠٩ وردت فى رسالة الى فرانسوا امبراطور النمسا عقب انتصار نابليون بونابرت فى واجرام ، كانت تلك الكلمة : اننا لن نجد السلامة الا فى ظل فرنسا المنتصرة ، ولن نغير قيادتنا ، ولكننا لن نحارب تبعا لكل ضرورة فعلينا أن ندخر قوانا للظروف الملائمة وان نعمل من الآن حتى تحين الفرصة بالاساليب اللينة وطريقتنا ان نخدع العدو ونحالفه حتى نقدر على الحياة الى أن يأتى اليوم الذى نعرف فيه طريقنا ٠

وقال : أما اليهود الذين حاولوا فى هذه المحاكمة أن يكبلوا المارشال بالسلاسل والأغلال من أجل بعض القوانين الخاصـــة بهم فهم يتجنون ويخلطون بين الاجراءات التى اتخذها الالمان وبين سياسه المارشـــال شخصيا ولا يمكن أن يتحمل بيتان تصرفات الألمان المحتلين .

وينهى النقيب باتان مرافعته العظيمة بكلمات عظيمة من بينها مثلا .. « انتم يا حضرات القضاة حيال مأساة فرنسا .. مأساة يحتم عليكم الواجب والشرف ان تخففوا من حدتها لا أن تزيدوها اشتعالا . ان الشعب الذى حمى مارشال فرنسا فى الليالى السوداء يتحتم عليه ان يقف هنا ليحمى المارشال من ظلم الانسان حتى يقال عنه فى الملأ كله انه شعب وفى لا ينسى خدمات المخلصين .

اذا شئتم بعد كل هذا أن تطفئوا نور الحق الذى أضأناه فى هذه القاعة المقدسة ، اذا شئتم رغم أنف فرنسا ان تطاوعوا النائب العام ، الذى طالب باعدام مارشالنا فافعـلوا ما طاب لـكم وسنرافق بطلنا الى ساحة الاستشهاد وستحضرون معنا فى هذه الساحة .

ستحضرون أيها القضاة بملابسكم الحمراء وصدوركم الموشـــاة وايمانكم التى اقسمتموها ألا تحكموا بغير العدل وسيحضر رجال البرلمان وفى ايديهم الأمانة التى حملوها من شعب فرنسا .

وستحضرون جميعـــا يا من تطلبـون الموت للمارشـــال وستنفطر ضمائركم الساكنة الآن حينما ترون كيف يموت مارشـــال فرنســـا ، وستسائلكم هذه الضمائر ، أعدلا يموت بطل عظيم على هذه الصورة .. ؟ وعندئذ يندفع لهيب الثورة : ثورة الضمير الذى سيحضر لعنة الله على من يحكم بالموت ومن كان سببا فى هذا الحكم .

انى أحذركم أيها القضاة .. أحذركم العواقب .. لأن لعنة الضمير هى أقصى ما يصيب البشر من عقاب ولن يكون ثمة مفر من هذا العذاب لأنكم لا تستطيعون ان تلقوا تبعة الحكم على غيركم .

وانى اذ أصور لـكم من الآن هـــذا المشهد الرهيب أود أن تزنوا حكمكم بميزان لا يتطرق الخلل اليه . ومع هذا لا أستطيع ان أتصور قط أنكم تحكمون بالاعدام ، لأن هذا لا يتأتى الا عن فساد فى الضمائر والذمم ، وانى أنزهكم عن هذا الفساد .

الى أن يقول النقيب بايان : تصوروا الضربة التى تقع وتنزل على فرنسا فى حاضرها ومستقبلها اذا أنتم وقعتم فى هذا الخطأ الجسيم ،

انكم تفجعونها فى العالم كله وعلى مر العصور وسيقف الشعب عندئذ ويضرب صـــدره بقبضة يده ولقد تمتد هـــذه اليد لتهوى على رءوس من كانوا ســـببا فى المأســـاة ، ونحن ننتظر منـكم عدلا يليق بشرف فرنسا ..

ننتظر منكم عدلا يرد لفرنسا الاعتبار بعد أن أهانها الذين عقدوا هذه المحاكمة .

ننتظر هذا العدل الصـــحيح وذكريات ماضـــينا المجيد تداعب رءوسنا .

نعم فى هذه الدقائق تتجمع الذكريات المجيدة فى نفوسنا ونفوسكم أيضا لتصور لوحة كريمة لهذا الوطن الخالد ، والويل كل الويل لمن يخدش هذه اللوحة أو يشوهها بعمل قاتم ..

ويصرخ النقيب بأعلى صوته : آه يا وطنى ، يا فرنســـا الحبيبة المعهودة ، متى يقف هذا السيل من دم أبنائك الغـــالى الذى سفكه نفر آخرهم ابناؤك أيضا ..

متى ينتهى الصراع والخصام ويحل السلام والوئام . انتم لستم الا قضاة ، وأنتم هنا تحاكمون رجلا .

ولكن لن تحكموا أبدا على هذا الرجل بل لتحكموا على فرنســـا بالموت .

***

وفى الساعة الرابعة صباحا من ليلة السادس عشر من أغســـطس ١٩٤٠ تحكم المحكمة على بيتان بالاعدام ، وبالتحقير الوطنى وبمصادرة أمواله .

ونظرا لكبر سن المتهم تعرب المحكمة عن رجائها بعدم تنفيذ حكم الاعدام فيه .

وبعد ثمانية وأربعين ساعة تصدر وزارة العدل بلاغا جاء فيه : ان الجنرال ديجول رئيس الجمهورية الفرنسية المؤقتة اســـتبدل الحكم باعدام فيليب بيتان بعقوبة السجن المؤبد .

***

وقد كان فى مقدمة الآثار التى نتجت عن انتهاء الحرب فى أوربا أن بدأ بعض المصريين الذين كانوا قد اعتقلوا أو حجزوا أو كانوا مقيمين برغبتهم فى المانيا أو فى بعض الدول الخاضعة لسيطرتها يعودون الى مصر .

وكانت قد جرت مباحثات بين الحكومة الألمانية والحكومة المصرية على تبادل المصريين الموجودين فى ألمانيا بالألمان الموجودين فى مصر ، على أن يتم التبادل فى تركيا ·

وقد تم اتخاذ خطوات تنفيذية وغادر ١٠٤ من المصريين فيينا ·

ولكن لما وصلوا الى الحدود التركية البلغارية جرى احتجازهم هناك الى أن يصل الفريق الألمانى من مصر ·

وقد ظل المصريون معتقلين فى بلغاريا الى أن دخلت القوات السوفيتية بلغاريا واتصلت الحكومة المصرية بالحكومة السوفيتية طالبة السماح للمصريين بمواصلة السفر الى مصر فوافقت الحكومة السوفيتية بعد أن أجرت معهم تحقيقات دقيقة حتى تتأكد من أنهم لم يكونوا ممالئين للمحور ثم سلمتهم للسلطات البريطانية التى أفرجت عنهم فيما عدا خمسة اعتقلتهم فى معسكر الميزه بالقرب من صيدا بلبنان ·

وكان الأستاذ عبد الرحمن الرافعى قد تقدم بسؤال الى رئيس الوزراء عن موضوع هؤلاء الخمسة ، هم : د· الطبيب ناصر ، والضابط البحرى يوسف فراج والأستاذ أحمد ثابت والأستاذ اميل عطية وهبى والمهندس اللاسلكى محمد أنور الصدر ·

وقد طلب الأستاذ الرافعى من رئيس الوزراء ان يتفضل بالسعى لاطلاق سراحهم واعادتهم الى مصر ·

وقد رد رئيس الوزراء ووزير الداخلية ـ محمود فهمى النقراشى باشا ـ مؤكدا أن خمسة من المصريين هم الذين ذكر أسماءهم الأستاذ الرافعى قد اعتقلوا فى معسكر المدنيين بلبنان بعد ان استجوبتهم السلطات المختصة هناك ·

وقد اتصلت وزارة الخارجية المصرية لدى علمها بنبأ الاعتقال بالجهات المختصة فى لبنان ·

وقامت المفوضية المصرية فى بيروت بالسؤال عنهم وتوفير وسائل الراحة لهم ·

وقد قرر صرف ستة جنيهات شهريا لكل واحد منهم استكمالا للغذاء الذى يقدم لهم فى المعتقل وسدا لحاجاتهم الشخصية ، ثم زيد المبلغ الى عشرة جنيهات ·

وقد أرسلت لهؤلاء المعتقلين أموالا اضافية من ذويهم فى القاهرة ·

والمعروف أن السلطات البريطانيـــة فى لبنـــان هى التى اعتقلتهم واستجوبتهم ..

وكان الصدر وفراج من بحارة الباخرة زمزم التى أغرقتها المانيا فى المحيط الهادى بطوربيد لأنها كانت تنقل مواد غذائيـــة لخـــدمه الحلفاء .

وقد اعتقلت السلطات الالمانيـــة أولئك البحـــارة فى فرنســـا ثم نقلتهم الى المانيا . وكان الصدر قد امتنع عن مزاولة العمل فى الحقول طبقا لأوامر السلطات الألمانية ، فالحق بمحل لتصليح الراديو فى برلين، وكان الدكتور الطيب ناصر يدرس فى سويسرا ،.وقد أنشأ جمعية وطنية مصرية وأجرى نشاطا كبيرا فى أوربا .

وقيل انه كان يقـــوم بمفاوضات على مستوى عال من الايطاليين باسم مصر من بينها مفاوضات مع الكونت شيانو وزير الخارجية الايطالية قطعها ـ كما قال د. الطيب ـ ثلاث مرات بسبب السودان .. !!

وقد روى الدكتور الطيب ناصر بعد عودته الكثير من المغامرات التى كانت تنشرها الصحف عقب عودته مباشرة .

وفى أثناء قيام الأستاذ زكى دياب وكيل نيابة الاستئناف بالتحقيق معه . قال د. ناصر ، انه كان قد ألف جمعية وطنية مصرية عام ١٩٣٧ فى سويسرا من اغراضها العمل على استقلال مصر والسودان وتحقيق وحدة وادى النيل..

وانه انضم الى هذه الجمعية كثير من الشباب المصرى الذى كان يتلقى العلم فى أوربا وقتئذ .

وقد ابعد فى ١٩٤٢ من سويسرا ، ورغب فى العودة الى مصر فلما تقرر تحقيق رغبته اضطر للسفر الى ايطاليا وهناك ـ فى ايطاليا ـ طلب اذاعة بيانات وتصريحات سياسية واشترط اصدار تصريح رسمى مشترك من الحكومة الألمانية والحكومة الايطالية يتضمن احترامهما لاستقلال مصر والسودان .

وفعلا ـ كما يقول ـ صدر هذ التصريح من ملك ايطاليا ومستشار الرايخ الالمانى . وقال أيضا د. ناصر أنه عمل على وقف المنشورات التى كانت تلقيها طائرات المحور على مصر بتوقيع الحاج أمين الحســينى مفتى فلسطين ورشيد عالى الكيلانى لأن فى مصر من هم أكثر منهمـــا وطنية واخلاصا ولا يجوز معاملة مصر معاملة الأعداء .

ويقول د٠ الطيب أنه كان حائلا قويا فى منع الطائرات المحورية من الاغارة على مصر ، والقاء القنابل على أراضيها ، وأنه احتج على هذه الغارات وطلب اخراجه من ايطاليا ما لم يوضع حد لهذه الغارات ٠

ويقول أنه صدرت الأوامر المشددة بوقف تلك الغارات ٠

ويقول د٠ الطيب أيضا أنه كان يحتفل بالمناسبات القومية وكانت الأعلام المصرية تخفق الى جانب الأعلام النازية والفاشستية ٠

★★★

وبعد استسلام ايطاليا فى سبتمبر ١٩٤٣ لم يوافق الألمان على عودته الى مصر وانما أجبروه على الرحيل الى المانيا تحت حراسة ضابطين ألمانيين من ضباط فرق الهجوم وفرضت عليه الاقامة الجبرية في قرية بادشنراد ٠ ويقول د٠ الطيب أنه عندما كان فى ايطاليا أقام علاقة قوية بينه وبين كلارا بيتشي عشيقة موسولينى ٠

وقد أهدته صورة لها بعد أن كتبت عليها « الى الشخص الذى لايمكن أن أفارقه » ٠

وقد حاول مقابلة موسولينى ٠

ولكنه لم يستطع فى البداية ثم تمت المقابلة بل تكررت بفضل كلارا أربع مرات ــ وعن طريق كلارا ــ كما يقول د٠ الطيب ناصر ــ وهو من جرجا ــ وبناء على تعليمات من موسولينى وفق بالاجتماع بشيانو وزير خارجية ايطاليا وفون روبنتروب وزير خارجية ألمانيا قبل معركة العلمين للاتفاق على عدم ضرب المدن المصرية بقنابل الطائرات ٠ وأجرى مفاوضات مع الكونت شيانو ولكنها قطعت بسبب موقف ايطاليا من السودان ٠

ويقول د٠ الطيب أن شخصية هتلر ليست جذابة وأنه عندما قابله اكتشف قوته وصلابته واصراره وتأكد له أن من حوله ينظرون اليه كآلة لا يخطيء ولا يجرؤ أحد على مناقشته ٠

وعن مقابلته لهتلر ، قال الدكتور الطيب : أن هتلر كان حاقدا على مصر ، وكان يحملها تبعة عدم انتصار ألمانيا فى الحرب وأنه كان ينتظر من المصريين بعد أن أصدرت الحكومتان الألمانية والايطالية تصريحهما المشترك بضمان استقلال مصر والسودان أن ينتشروا داخل البلاد حتى يمهدوا لقوات المحور دخول مصر ، وطرد الانجليز منها ولو أن المصريين فعلوا ذلك ٠

هكذا قال هتلر ٠٠ لتغير مجرى الحرب ٠

ويقول د٠ الطيب أنه عندما حاول أن يدافع عن موقفه غضب هتلر

ووقف ايذانا بانتهاء المقابلة ويقول د. الطيب ، أن الألمان غضبوا منه عندما ألح فى العودة الى مصر وبعثوا اليه باحدى السيدات الألمانيات الجميلات التى تظاهرت بحبها له .

ولكنه اكتشف ـ وهو طبيب ـ أنها قد دست له السم فى كأس قدمتها اليه .

ويقول د. الطيب أن موسولينى يتمتع بشخصية جذابه عكس هتلر تماما ، وكل من يجلس اليه يرتاح للحديث معه ، وموسولينى يفسح صدره للحوار ويترك لمن يتحدث اليه ـ عكس هتلر ـ فرصة ابداء الحجج والبراهين الأمر الذى يؤكد أنه ديموقراطى ، هذا بينما هتلر لا يقبل النقاش ولا الحوار وانما يفضل باستمرار أن يلقى أوامره وتعليماته على أن تنفذ دون مناقشة .

ويقول د. الطيب ، أن هتلر كان يحقد على مصر وعلى المصريين ، وأنه ـ هتلر ـ قد منعه ـ منع د. الطيب ـ من الاذاعة بعد .ن حاول الدفاع عن مصر والمصريين عندما التقى به ، وحمل مصر تبعة عدم انتصار المانيا .

***

ومما يجدر بنا أن نذكره هنا أيضا .. أن حسين حسن أحد عمال الباخرة المصرية زمزم قد قضى فى الأسر نحو أربع سنوات متنقلا بين معتقلات برلين وبريمن .

ويذكر أنه عندما أغرق الألمان الباخرة زمزم أنقذوا بحارتها ، ونقلوهم على الباخرة الألمانية ريدر ثم نقلوهم الى بارجة ألمانية نقلتهم الى فرنسا حيث أقاموا فى بوردو أياما ثم نقلوا فى قطار لنقل البهائم الى برلين .

وروى حسين حسن أن الطعام الذى كان يقدم اليهم كان عبارة عن الجزر أو البطاطس المسلوقة فى الماء .

ويقول أنهم كانوا يعاملونهم أسوأ معاملة فى الاعتقال لأنهم أصدقاء الانجليز .

وقد تحسنت المعاملة بعد أن تدخل الصليب الأحمر ولم تكن المعاملة الحسنة تتم الا فى الأيام التى تصل الى المعتقلين المصريين المؤن من الصليب الأحمر .

ويقول حسين حسن ، انهم أجبروهم على العمل فرفضوا فى بداية الامر بوضعهم أسرى ثم قبلوا تحت وطأة الحاجة ، فكانوا يشتغلون فى حفر الخنادق وردمها .

وكان المعتقل الذى لا يؤدى التحية العسكريه على الطريقة النازيه مدير السجون يعاقب بالوقوف اثنتى عشرة ساعة بجوار الديدبان ويتناول الخبز والماء فقط ٠

ويقول حسين حسن ، أنهم لم يكونوا يعرفون الأخبار الا من خلال الأسرى الانجليز الجدد ٠

وكان بعض الأسرى الانجليز يغافلون الحراس ويصنعون أجهزة راديو لالتقاط الأنباء من ميادين القتال ، ومن عواصم الدول ٠

وقد علمنا ــ عن طريق تلك الأجهزة البسيطة ــ بأنباء فشل الألمان فى معركة العلمين ، ومعركة ستالينجراد ٠

وبعد رحيل هتلر ، بدأ الحديث عنه فى كل مكان . وكان مما نشر ــ على لسان خادم له اسمه ارنور كاينبرج ــ أن هتلر كان يحب ايفا براون التى عقد عليها زواجه قبل سقوط برلين فى قبضة الروس بيومين ولكنه كان يعاملها بعنف وقوة ، وقد استطاعت هذه الرفيقة الحسناء أن تجعل قلب الزعيم الألمانى يخفق بالحب ٠ ويقول ارنور ، ان ايفا كانت صاحبة أجمل شعر فى المانيا ، وقد حرم عليها هتلر المساحيق منذ أن انتقل بها من عملها فى محل المصور هوفمان الى داره الخاصة فى برخستجادن ، ومرة فاجأها وكانت تضع المساحيق على وجهها فأخذها من يدها الى الحمام وغسل لها وجهها قائلا : أنه لا يحبها بالمساحيق . انه يكره أن يقابلها وعلى شفتيها ذلك الأحمر السخيف ٠ ولم يكن هتلر يسمح بأن يعاملها كست بيت الا أمام اصدقائه المقربين جدا ، أما فى حديثه عنها مع حاشيته فلم يكن يسميها الا بالآنسة براون ٠ وبالرغم من أن هتلر كان نباتيا الا أن براون كانت تحب أكل اللحوم ، وكان هتلر لا يشرب الخمر ولكن ايفا كانت تدمن الخمر وخاصة الويسكى ــ السكوتش فى النهار ، والشمبانيا فى الليل ــ ولم يكن مسموحا لها أن تدخن فى حضرة الفوهرر ٠

وكان هتلر يغدق عليها الهدايا فى عيد ميلادها (٦ فبراير) وقد أهداها فى آخر عيد ميلاد لها عقدا من الماس قيمته ٨٧٥٠ جنيها أى ١٢٥ ألف مارك ألمانى واذا كان الشىء بالشىء يذكر فان موسولينى ــ أستاذ هتلر ــ كان يميل الى النساء منذ أن كان طالبا وفى حياة موسولينى العديد من النساء اللاتى تعلق بهن من بينهن جيوفانا التى كانت تكبره سنا ولكنها كانت جميلة وكانوا يطلقون عليها ساحرة دوفيا ، ثم هيلين الشقراء وقيل أنه ألف مقطوعات موسيقية جميلة فى هواها عندما التقى بها فى سويسرا ، ثم هناك الكونتيسة (اليولة) التى

تعرف اليها فى أيام عظمته الأولى ، وكذلك مدام دى فونتانج وكانت فرنسية الأصل قابلت موسولينى لأول مرة فى قصر البندقية لتقدم له صورة رسمها له والدها . وقيل أنه بعد أن أراد الابتعاد عنها حاولت الانتحار بالسم ، وظنت أن سفير فرنسا فى روما هو الذى أفسد ما بينهما من علاقة فأطلقت عليه النار . وقد أحب دونا راشيل وأنجب منها ثم تزوجا فيما بعد ، وأخيرا - لا آخرا - كانت كلارانيناتشى التى أعدمت .

● ● ●

وقد كان فى مقدمة الذين سلمتهم القوات السوفيتية التى احتلت معظم المانيا الى قوات الحلفاء الصول الطيار محمد أفندى رضوان سالم من سلاح الطيران المصرى والذى اتهم بالهروب عام ١٩٤٢ بطائرة من سلاح الطيران المصرى الى الحدود المصرية الغربية حيث انضم - كما قيل - الى قوات روميل - وتم نقله بعد تقهقر تلك القوات الى ايطاليا ثم المانيا .

وكان قد سبقه بيوم واحد الطيار أحمد سعودى حسين الذى كان يجرب - كما قيل أيضا - الطائرة ٩٠٢٩ ولكنه لم يعد الى المطار .

وقد أجرى تحقيق حول اختفاء الطيار سعودى جاء فيه على لسان قائد الأسراب محمد عبد الرازق أن هذا الضابط كثير الاعتداد بزبجولته ولا يكترث بالحياة .

وقد حدثت له حادثة منذ شهرين على الطائرة « هارلكن » تعتبر من أشد حوادث الطيران تأثيرا على أعصاب الطيار وقد نجا منها بأعجوبة .

وأعتقد - محمد عبد الرازق - أن هذه الحادثة قد تكون أثرت عليه الى حد كبير .

وقد كان فى المدة الأخيرة يظهر كثيرا من تأثره لنقله من أسراب الهارلكن الى الأسراب الأخرى لكثير من إخوانه الضباط حيث كان يعتقد أنه لا لوم عليه فى هذه الحادثة .

وكانت الأوامر فى ٨ يوليو ١٩٤٢ قد صدرت الى مطار الماظة باختبار الطائرة رقم ٩٠٢٣ من طراز جلادينوز ، وقام بعملية الاختبار الصول طيار محمد رضوان سالم وبدلا من العودة اتخذ الطيار الطائرة وسيلة للهرب الى خطوط المحور ، لعله ينجح - فيما قال - فى انقاذ المدن المصرية من الغارات الجوية الألمانية .

وبعد التفاهم مع روميل الذى كانت جحافله المظفرة تدق فى العلمين أبواب الاسكندرية وكان محافظ الاسكندرية - بتعليمات من الحكومة المصرية - يتأهب لتسليم العاصمة الثانية .

وكانت بيانات واذاعات برلين وروما تؤكد على نوايا قوات المحور بقيادة روميل من مطاردة فلول الجيش الالمانى فى سهول الدلتا ، وفى صحراء مصر الشرقية •

ولما لم يعد الطيار سعودى من رحلته التى قام بها رأى الصول طيار محمد رضوان سالم القيام برحلته على أن يطير طيرانا منخفضا وبجوار الساحل •

وقد تعقبته مدفعية الساحل ولكنه نجا منها باعجوبة حتى لقد تعرض - كما قال - للموت عشرات المرات ، ولكنه لم يتقهقر وأصر على بلوغ هدفه •

وكانت الطائرة تنتفض وتهتز الى أن اقتربت من مطار مرسى مطروح وظنت قيادة المطار أن طائرة الصول محمد رضوان موالية ، فأضاءت لها نورا خاصا تحذيرا من الهبوط لأسباب اضطرارية •

ولكنه لم يحفل بتلك الاشارة وقرر الهبوط حتى لا تتضح جنسية طائرته فيتعرض لخطر محقق •

واختار ركنا خاليا من مطار مرسى مطروح •

وهبط الى الأرض ونزل من الطائرة وكان يتوقع أن الضباط والجنود الألمان سيحيطون به حالما ينزل •

ولكن كم كانت دهشته حينما رآهم بعيدين عنه يشيرون اليه بأيديهم ولا يقتربون منه ، فاضطر أن يتجه نحوهم ، وما كادوا يرونه ويعرفون أنه مصرى حتى استقبلوه استقبالا طيبا •

وبعد قليل - كما قال أيضا - أدرك أن الركن الذى اختاره من المطار هو ركن ملغوم ، وأنه سار على الموت أمتارا ، ومع ذلك فان عناية الله حفظته •

ونقل رضوان فورا الى قائد الموقع فى منطقة مرسى مطروح والتف حوله الضباط الألمان •

وراحوا يمطرونه بوابل من أسئلتهم الكثيرة حتى لقد سألوه : كيف يحلق المصريون ذقونهم •

كما سئل عن الأثار المصرية والاجراءات التى اتبعت لحمايتها •

وقد اتضح له أن الألمان كانوا ينوون نقل الآثار المصرية الى بلادهم

خشية أن تقع فى أيدى البريطانيين فيما لو اضطر الألمان الى الانسحاب من وادى النيل وعاد الانجليز اليه ٠

وكان الألمان يعدون هذه الآثار - كما اعتقد رضوان أيضـــا - بمثابة رأسمال كبير يمكن الاستفادة به عند أية ضـــائقة مالية تنزل بهم ٠٠ !!

ويقول رضوان ، أنه كان يخشى أن يكذب عليهم فيكتشفون كذبه ويلحقون به الأذى ٠

ويقول رضوان : انهم فى مقر قيادة روميل نقلوه بطائرة خاصـــة الى ألمانيا بعد أن اكتسب - كما قال أيضا - ثقتهم ٠

وقام بمهمة الترجمة بين بعض الأعراب فى الصحراء الغربية وبين قوات روميل وقد طلب منه عمل أحاديث دعـــاية للمحور بمحطة اذاعة برلين ففعل اكتسابا أيضا لثقتهم ٠

وقال أنه مرض بحمى الملاريا فنقل الى أحد المستشفيات الايطالية فى روما ٠

ثم نقل - بعد شفائه - الى فراسكانى حيث عمل تحت قيادة المارشال فون كسلرنج وعرض عليه أن يتولى تدريب المجندين العرب تحت اشراف مفتى فلسطين ورئيس وزراء العراق السيد رشيد عالى الكيلانى ٠

وفعلا ذهب الى ألمانيا وقام بتدريب كثير من العرب فى براندبرج وأمضى هناك ستة شهور ، ثم عاد الى تونس لقيادة المتطوعين العرب ٠٠ ويقول أنه بعد أن تأكد من أن قوات الحلفاء انتصرت على قوات المحور وأن مصر أصبحت بمنجاة من غزوهم تقدم بتقرير للقيادة الألمانية مؤكدا فيه أن هؤلاء الجنود الذين يقوم بتدريبهم ضررهم أكثر من نفعهم والتمس اعفاءه من هذه المهمة ٠

وأعادوه الى ألمانيا فى حراسة الجستابو ٠

وقال أنه جرى بينه وبين المفتى حوارات كثيرة ، كان من رأيه أن مناصرة الألمان ضد الانجليز بمثابة استبدال سيد بآخر ٠

ويقول رضوان أنهم وضعوه فى السجن ، ثم نقلوه الى معتقل للأسرى البريطانيين ٠

« وبعد أن لاقيت صـــنوف العذاب ، وجدت خير وسيلة أن أدعى الجنـــون للتخلص من اعتقـــادهم بأنى أفكر تفكيرا حسنا لاعتقادى أن

مستشفى الأمراض العقلية أقل وطأة من السجن ، وفعلا نقلونى الى مدينة برسلاو حيث وضعونى فى المستشفى الى أن جاءت القوات الروسية فنقلتنى الى مدينة هار حيث ظللت بمستشفى الأمراض العقلية بها ، ثم أرسلت الى مدينة ميونيخ ووضعت هناك ـ هكذا قال رضوان ـ بإحدى الثكنات العسكرية ، وعندما اقتربت قوات الحلفاء من المدينة هربت حيث آوانى ألمانى اسمه سيمون ونتر وتمكن من تزوير أوراق شخصية استعنت بها فى التخلص من الجستابو الى أن دخلت القوات الأمريكية المدينة فقدمت نفسى لها وطلبت عرضى على السلطات البريطانية ثم أرسلت فعلا الى انجلترا .

وقد استجوبنى رجال المخابرات فى بريطانيا ثم أرسلت بالطائرة من انجلترا الى القاهرة حيث أودعت سجن الأجانب حوالى عشرين يوما ثم نقلت الى السجن الحربى .

عدت الى مصر يوم ٣ يوليو ١٩٤٥ حيث حقق معى فى اليوم التالى » .

وقد قدم محمد رضوان سالم الى مجلس عسكرى عال رأسه اللواء حسن محمود باشا ، وكان أعضاؤه : الأميرالاى محمد فهمى بك ، وقائد اللواء الجوى أحمد عبد الرازق بك ، وقائد الأسراب محمود صدقى ، والبكباشى محسن شاكر ، وتولى اليوزباشى ابراهيم سامى مهمة نائب الأحكام ، وقام قائد الجناح صالح محمود صالح بمهمة المدعى العام .

وقد قال المدعى العام فى أول جلسة للمجلس العسكرى بتاريخ ٢٢/١١/١٩٤٥ ان حادث هروب المتهم هو أول حادث من نوعه ، وأنه لذلك يجب وضع حد لمثل هذه المسائل وذلك بأخذه بالشدة ... « لقد لوث المتهم بأفعاله التى ارتكبها سمعة الجيش المصرى الذى يجب أن ينزه عن مثل هذه الجرائم ، وأن الجيش المصرى الذى ظفر بهذه الظفرة الطيبة وحاز اعجاب الحلفاء ، لجدير بأفراده أن يكونوا قدوة فى الطاعة والنظام وحسن الأمثولة .

وقد طلب الدفاع عن المتهم الأستاذ فتحى رضوان ـ ضم ملف قضية عزيز على المصرى ولكن المحكمة رفضت الطلب .

وقد دفع الأستاذ فتحى رضوان ببطلان قانون الأحكام العسكرية الذى يحاكم بمقتضاه المتهم وأنه لا يزيد ـ فى قيمته ـ عن كتاب القراءة الرشيدة ـ وأنه ليس له من صفة رسمية أكثر من كونه قد طبع فى المطبعة الأميرية وطالب هيئة المحكمة أن ترفع عن نفسها وعن رجال

الجيش جميع الأغلال التى وضعها سردار الجيش المصرى منذ بداية عهد الاحتلال البريطانى لمصر ·

وقد هاج المتهم فى احدى فترات الاستراحة ودخل فى مشاجرة مع المدعى العام ، قائلا : أنت تتهمنى يا صالح بك أننى كنت جاسوسا ، أنا لست بجاسوس » وحاول أن يخنق نفسه بيديه ، لولا أن تداركه حارسه ، وجمع من الضباط وأقاربه ، وقد طلب شقيقه الكشف الطبى عليه لاثبات اختلال قواه العقلية ·

ولكن الطبيب الذى قام بالكشف الطبى عليه أثبت أنه ممالك لكل قواه العقلية ·

والطريف ·· أن المدعى العام قد ذكر فى مرافعته ان المتهم لم يسلم العهدة التى كانت عنده عندما كان صولا ·

وأنه أحدث بالطائرة خسائر مادية قيمتها ٤٥٤٧ جنيها ، ٤٤٨ مليما ، وطالب المدعى العام باعدامه ·

وقال محاميه : الأستاذ فتحى رضوان ، ان المتهم قبل وقوع الجريمة صعد بطائرته فى جو السويس وطارد الطائرات الألمانية التى كانت تلقى بقنابلها على ميناء السويس ·

ولما عاد من المطاردة حققوا معه فى سلاح الطيران وأوقعوا عليه جزاء باعتبار أن سلاح الطيران الملكى لم يكن مأمورا بالاشتباك مع الطائرات المغيرة ·

ومعنى ذلك أن سلاح الطيران المصرى لم يكن مشتبكا فى حرب مع الألمان والطليان أثناء هروب الصول ·

وقد استمع المجلس العسكرى الى شهادة اسماعيل صدقى باشا ، ود · محمد حسين هيكل باشا فى جلسة سرية ·

وفى ١٩٤٥/١١/٢٧ أصدر المجلس العسكرى العالى حكمه بانزال المتهم من رتبة صول الى رتبة عسكرى وطرده من خدمة صاحب الجلالة الملك وسجنه ١٥ عاما مع الأشغال الشاقة · ولما كان قانون الأحكام العسكرية ألا يسجن بالسجن الحربى الا الذين يحكم عليهم بمدة لا تزيد على ثلاث سنوات ، فقد تم نقل المتهم الى السجن العمومى بالقاهرة

ليقضى فيه العقوبة ، ثم نقلوه الى مستشفى الأمراض العقلية بالعباسية (الخانكة) ومكث بها ثلاثة عشر عاما الى أن انتقل الى رحمة الله فى عام ١٩٦٨ ٠

وبعد ذلك كله ننتقل الى الحرب فى الشرق الأقصى التى ازدادت حدة بعد استسلام الألمان والايطاليين فى أوروبا ، وبعد الحدة فى القتال كانت المفاجأة الكبرى قنبلتى هيروشيما ونجازاكى وقد أنهيتا الحرب فى الشرق الأقصى أيضا ٠

● ● ●

الفصل الثانى

قنبلتا هيروشيما ونجازاكى
تنهيان الحرب فى شرق آسيا

قبل أن أنتقل الى الحديث عن انتهاء الحرب في شرقى آسيا ، بعد انتهاء الحرب في أوروبا وقبل أن أنقل بعض يومياتى في السجن التى كتبتها وقتئذ ، وبالنص • أذكر ان صحيفة أخبار اليوم كانت قد استفتت عددا من الكتاب والصحفيين عما سيتمخض عنه عام ١٩٤٥ ونشرت توقعات هؤلاء الكتاب فى عددها الصادر فى ١٩٤٥/٣/٣ ، وقد حرصت على أن أبدأ بهذه التوقعات هذا الفصل لا لأننى أؤمن بالتنبؤات ، ولكن لأننى أؤمن بالدراسة المتأنية الفاهمة والمتفهمة لكل الظروف الداخلية والخارجية •

قال الأستاذ أنطون الجميل ـ رئيس تحرير الأهرام ـ لا أعتقد بالتنبؤات ولا أحب المتنبئين •

وقال الأستاذ محمد التابعي ـ صاحب ورئيس تحرير مجلة آخر ساعة ـ أتوقع انتهاء الحرب فى أوروبا وأقصد بالحرب هنا الحرب النظامية ، أما حرب العصابات فقد تبقى مدة طويلة •

وقال أيضا ـ الأستاذ التابعى ـ انه يتوقع اضطرابا فى الحالة الاقتصادية العالمية كما يتوقع استشراء الغلاء فى العالم كله ، بل ان الغلاء الحقيقى ـ التابعى ـ سيبدأ بعد انتهاء الحرب • كما توقع الأستاذ التابعى ، وقوع اضطرابات سياسية عديدة فى أوروبا وبعض بلدان الشرق الأوسط •

أما الأستاذ توفيق الحكيم ، فقد قال بأسلوبه الفلسفى العميق :

الحرب هي الحرب وستبقى أوروبا مشتعلة بها ، وستكون ألمانيا في عزلة عن العالم ، وستقوم بها - بألمانيا - حروب العصابات وراء خطوط القتال أو في الجهات التي يعتصم بها الجيش الألماني بالجبال .

وسيستمر - توفيق الحكيم - تقدم جيوش الحلفاء في أراضي ألمانيا ولن يقع في أوروبا تغيير كبير حاسم .

وستبقى الحالة في اليابان كما كانت عام ١٩٤٤ مع قليل من الانتصارات غير الحاسمة يحرزها الحلفاء ، أما الحالة في مصر فستبقى كما هي .

وكانت توقعات الأستاذ أحمد قاسم جودة ، قد تميزت عن غيرها بالدقه المتناهية فهو مثلا يتوقع انهيار ألمانيا ، وقد استعمل كلمة الانهيار في الوقت الذى كانت فيه كل الدلائل توحي بأن ألمانيا حتى لو انهزمت فانها لن تنهار .

وقال الأستاد أحمد فاسم جودة باستمرار حرب العصابات في بعض المناطق الجبلية بألمانيا .

وتوقع الاستاذ جودة انقلابا في أسبانيا ضد الجنرال فرانكو ربما يعيد الملكية اليها .

وهناك احتمال - أحمد قاسم جودة - بانتهاء الحرب اليابانية هذا العام ، وقد كان الأستاذ أحمد قاسم جودة أول من قال بانتهاء الحرب في اليابان في عام ١٩٤٥ وذلك - كما قال - خلافا لآراء أولئك الذين يتوقعون امتدادها بعد هذا العام .

وأتوقع - أحمد قاسم جودة تعزيز الحركات الاستقلالية في الدول الصغيرة ومنح الهند استقلال أوسع من الاستقلال الذاتي بكثير .

وبلغت توقعات الأستاذ أحمد قاسم جودة قمة التألق عندما توقع فوز حزب العمال في بريطانيا في الانتخابات البرلمانية وتسلمه زمام الحكم على الأسس الاشتراكية .

ولو سئل كليمنت أتلي رئيس حزب العمال البريطاني عن توقعاته بالنسبة للانتخابات البريطانية لما قال مثل ماقال الأستاذ أحمد قاسم جودة ، فلقد كان تشرشل وحده هو الذى يكتسح الرأى العام العالمى ، لا الرأى العام البريطاني وحسب ، وكانت علامة النصر التى كان

يستخدمها برفع أصبعيه ، علامة مميزة له تبعث الأمن والطمأنينة والثقة في النصر في جميع أرجاء العالم ٠

أما الأستاذ مصطفى أمين ، فقد توقع أن تنتهي الحرب في صيف ١٩٤٥ وأن تندمج بعض الأحزاب المصرية وأن تجتمع عصبة أمم عربية وان يزداد الارتباط بين الدول العربية وان يختفي من المسرح بعض الوجوه السياسية ، وان تبرز أسماء مصرية جديدة ، وتنضم بعض الشخصيات البارزة الى حزب سياسي معروف ، وتتحد مصر في المطالبة بغاياتها الوطنية الى باقي الموضوعات التي تدخل في باب الأمنيات لا التوقعات ٠

★★★

وبعد تلك الاشارة الى التفكير السياسي السائد لدى بعض كتابنا مع مطلع عام ١٩٤٥ ، أعود الى ما كتبته تحت : ٩ مايو ١٩٤٥ :

كان انتهاء الحرب في أوروبا فجأة أكبر مفاجأة لأولئك الذين كانوا يعتقدون ان هتلر يملك ناصية الحرب ، وان لديه في المخزن رقم ١٣ سلاحا رهيبا سوف يغير من كل الموازين العسكرية ٠

وكانت اذاعة برلين باللغة العربية تركز باستمرار على خطورة المخزن رقم ١٣ مؤكدة ان ما فيه سوف يذهل العالم كله ، وسيقضي في ساعات على قوة الحلفاء العسكرية ٠٠

وكان انهيار ألمانيا ومصرع هتلر وتوقيع الألمان وثيقة الاستسلام من أهم الأسباب التي أدت الى انهيار محمود العيسوي قاتل أحمد ماهر وقد علمت أنه عندما وصلته أنباء الهزيمة ـ وقد حرص القلم السياسي في وزارة الداخلية على تسريب الخبر اليه بسرعة وبطريقة مبالغ فيها ـ بكى بكاء حارا ، كما لم يبك في حياته ٠

والسبب أنه كان يعتقد ـ والمرء لا يسأل عن اعتقاده ـ ان ألمانيا سوف تنتصر في تلك الحرب ، وسوف يعرف المصريون أهمية الصنيع الذى قام به من أجل تجنيب مصر ويلات الحرب وعدم الدخول في حرب هجومية الى جانب الحلفاء بل لقد كان يتصور ان المصريين فيما بعد سيقيمون له تماثيل في كل المدن المصرية لأنه حال بين مصر وبين اعلانها الحرب الهجومية على ألمانيا واليابان ٠

وأحب أن أقول ارضاء للضمير الوطني وقد سبق ان أشرت الى هذا المعنى أكثر من مرة في هذه المذكرات ان عداوتنا للاحتلال البريطاني

لأرضنا لم تكن تمتد لتصبح عداوة للشعب البريطاني الذى كنا نقدر فضائله وامتيازاته ودوره فى حماية دول أوروبا ٠

كما أن تعاطفنا مع المانيا ، لم يكن أبدا يعنى رضاءنا على النازية أو الفاشستية كنظام حكم ، فنحن ديموقراطيون كارهون لكل أنواع الدكتاتوريات وقد كنا نصفق للمقاومة الباسلة التى كان يقوم بها السوفييت فى قتالهم للألمان ٠

بل اننا أصبنا بحزن شديد غداة هزيمة فرنسا ودخول القوات الألمانية العاصمة الفرنسية باريس ٠

بل أكثر من ذلك كنا ضد الغارات الجوية على الجزر البريطانية ٠

ولم نكن نرغب فى ان يحتل الألمان أبدا تلك الجزر ٠

وقد كنا مؤيدين لكل حركات التحرير التى قامت فى اوروبا فى الحرب العالمية الثانية ضد قوات الغزو الألمانى والايطالى سواء فى فرنسا أم فى يوغوسلافيا ، فى ألمانيا أم اليونان ، فى رومانيا وبلغاريا وبولندا وكان كل ما يعنينا فى هذه الحرب مصيرنا ٠

وأقولها مرة أخرى بصدق وأمانة ، اننى أنزه شعب مصر فى ان يكون ممالئا للنازية أو الفاشية أو نصيرا لهما أو حتى راضيا عنهما ٠

كان شعب مصر فى فبراير ١٩٤٥ بالذات غير راغب فى الحرب ، لا مع المحور ، ولا ضد المحور وأذكر أن السفارة البريطانية فى القاهرة قد أجرت استفتاء ، أو ما أسمته استطلاع رأى ، حول دخول مصر الحرب الى جانب الحلفاء ، وكانت المفاجأة التى أذهلت تلك السفارة ان أكثر من ٥٠٪ من أبناء المدن الكبيرة كانوا ضد دخول مصر الحرب وذلك للعديد من الأسباب من بينها مثلا : ايمان الشعب المصرى بأن ألمانيا غير راغبة فى الهجوم على المدن المصرية والمنشآت المصرية ، وأنه عند دخول مصر الحرب ضد ألمانيا فان ألمانيا ستعمد الى ضرب المدن المصرية والمنشآت المصرية ٠

ومن أهم تلك الأسباب أيضا اعتقاد كثير من المصريين ان فكرة دخول مصر الحرب الى جانب الحلفاء المقصود من تنفيذها الغاء أرصدة مصر الاسترلينية ، وفتح المجال لاستنزاف موارد مصر من البشر والأموال فاذا أضفنا الى ذلك اعتقاد المصريين الى أبعد حدود الاعتقاد بأن مصر لا ناقة لها ولا جمل فى هذه الحرب ولذلك فمن مصلحتها ان تبتعد عنها الا اذا دفعت الى ذلك دفعا ٠٠ !!

ومنذ قيام النازية في ألمانيا ، وقيام الفاشية قبلها في ايطاليا ، فانه لا يوجد أى مصرى قد عمل في خدمة النازية أو الفاشية أو هما معا بأجر أو بدون أجر ٠

انني أنفي وجود أى عميل مصرى لألمانيا النازية أو ايطاليا الفاشية٠ وأنا على ثقة مطلقة أيضا أنه عندما يقوم الحلفاء بفرز أوراق ألمانيا النازية وايطاليا الفاشية ، لن يجدوا اسما لمصرى واحد كان عميلا لهذه الدولة أو تلك ٠٠

تعاطف الشعب المصرى مع الشعب الألمانى في الحرب العالمية الأولى وفى الحرب العالمية الثانية مرده أن الشعب الألمانى لم يوجه يوما ما اساءة واحدة للشعب المصرى ، ولم يشترك مرة واحدة في أية مؤامرة استعمارية دبرت ضد مصر ٠

وهذا هو الفرق الجوهرى بين الحب الأصيل ، وبين العمالة التى يقبض أصحابها ثمنا لها ٠٠ !!

وقد كنت فرحا للغاية لزوال كابوس الحرب لاعتبارات كثيرة في مقدمتها ، ان الحرب أكلت الأخضر اليابس ، لا في أوروبا وحدها وانما في كثير من أرجاء العالم ٠

وقد تأثرنا نحن الى حد كبير بسبب تلك الحرب ، فشح القوت ، وقلت الموارد ، وتأثر الاقتصاد الوطنى الى حد كبير ٠

هذا بالاضافة الى أن معظم مرافقنا طيلة تلك الحرب كانت في أيدى بريطانيين : حتى التليغرافات والتليفونات والجمارك والموانى والمنائر والسكك الحديدية والمستشفيات وشركة مصر للطيران وغيرها ، وغيرها كانت في خدمة البريطانيين ٠

مستر سسل كامبل ـ مثلا كان يسيطر على شركة ماركونى ٠

مستر وب مسيطر على مصلحة التلغرافات والتليفونات ٠

مستر كاسل في الجمارك هو الذى يقرر ما يصدر من البضائع والمحصولات المصرية الى الخارج ٠

اللواء ويلز باشا مدير مصلحة الموانى والمنائر هو الآمر الناهى في كل ما يتعلق بالموانى والمنائر المصرية ، وفى المقدمة ميناء الاسكندرية٠

.. وبمعنى أدق كانت مصر كلها بمن فيها وما فيها لخدمة المجهود الحربى للحلفاء .

وأكثر من ذلك .. بعد اعلان الأحكام العرفيـة تم وضـع موانى البلاد وطرق مواصلاتها وتجارتها الخارجية وقناة السويس تحت امرة القوات البريطانية ولخدمة القوات البريطانية .

وكان أكبر عدد من المعتقلين السـياسيين فى مصر طيلة تلك الحرب قد تم اعتقاله بناء على أوامر من السفارة البريطانية .

وقد تاثرت مدن مصر وقراها من جراء الغـارات الجوية الألمانية والايطالية و .. و ..

أى أننا كنا فى حالة حرب فعلية وان لم نكن قد أعلنا الحرب على ألمانيا أو ايطاليا واليابان .

وقد كان معنى تحقيق السلام فى أوروبا ــ على الأقل ــ أن الجسور ستعود الى ما كانت عليه بين مصر وأوروبا كما كانت قبل الحرب العالمية الثانية .

وأن مئات الألوف من القوات البريطانية وقوات حلفـاء بريطانيا الذين يعيشون على أرضنا ومن خيراتنا ، سوف يعودون الى بلادهم أو على الأقل سينتقلون الى ميادين القتال فى آسيا حيث لا تزال اليابان فى حرب ضروس ضد انجلترا وأمريكا .

وأشياء كثيرة سوف تتغير بلا جدال بعد استسلام ألمانيا فى مقدمتها أيضا ــ وعلى سبيل المثال لا الحصر ــ ان قبضة انجلترا على مصر ستخف بعض الشىء .

وأننا لن نسمع بعد اليوم عبارة « ضرورات الحرب » التى حرمتنا من حريتنا ومن استقلالنا ومن خيراتنا ، أو هكذا تصورنا .. !!

ومن بين ما أملناه ــ بعد انتهـاء الحرب فى أوروبا ــ أن قنـاة السويس سوف تعود لتؤدى دورها كشريان رئيسى بين دول العالم ، وسوف نجنى نحن الكثير من فتح تلك القناة كما كانت .

ومن بين ما أملناه أيضا ــ بعد انتهاء الحرب فى أوروبا ــ أننـا سنبدأ العمل على تغيير العلاقة التى تربطنا ببريطانيا حيث أثبتت الحرب ان المعاهدة المصرية البريطانية لم تعد تصلح ان تكون هى الأساس .

ومن زاويتى الخاصة ، دار بذهنى خاطر مؤداه ان انتهاء الحرب فى

أوروبا يمكن أن يؤدى الى انتهاء الأحكام العرفية أو على الأقل الى تخفيفها ·

وقد يؤدى ذلك الى الافراج عنى لأن اعتقالى تم بأمر من الحاكم العسكرى العام ·

على أن هذا الخاطر الذى دار بذهنى لم يستمر طويلا ، فما لبث أن اختفى وتلاشى ذلك أن تحركاتنا السياسية ، وخاصة فيما يتعلق بمثل هذه الأمور — بطيئة للغاية ولا يعقل — مثلا — أنه بمجرد انتهاء الحرب فى أوروبا يتم الغاء الأحكام العرفية فى مصر واطلاق سراح المسجونين السياسيين ·

نحن بعكس كثير من الدول الأوروبية التى تتحرك سياسيا بأقصى سرعة :

كانت بريطانيا — مثلا — فى الحرب العالمية الثانية محكومة بوزارة ائتلافية يشترك فيها المحافظون والعمال والأحرار ·

وبمجرد توقيع وثيقة استسلام ألمانيا رفع العمال أصواتهم قائلين : يكفى أن نحكم بوزارة ائتلافية ، لابد من اجراء انتخابات نيابية جديدة ·

وحاول تشرشل ان يؤجل ذلك الأمر الى ما بعد انتهاء الحرب فى آسيا ضد اليابان ، ولكن حزب العمال البريطانى لم يقبل وأصر على ضرورة اجراء انتخابات ·

وقدم وزراء حزب العمال استقالتهم من وزارة تشرشل حتى يحرجوه ليستقيل ويحدد وقتا لاجراء انتخابات جديدة ·

وقد غضب تشرشل من تصرفات حزب العمال واستقال ·

وعهد اليه الملك بتأليف وزارة جديدة تجرى انتخابات جديدة ·

وأصر تشرشل على ان تجرى الانتخابات بسرعة وعبثا حاول حزب العمال البريطانى ان تجرى الانتخابات فى أكتوبر غير ان تشرشل أصر على اجرائها بسرعة ·

وقد تغيرت أمور كثيرة فى أوروبا بعد انتهاء الحرب هناك ، غير أننا ، ونحن البعيدين عن ميدان القتال لم نتأثر بانتهاء الحرب ، بل مضينا « ننعم » بالأحكام العرفية و « نسعد » بالرقابة على الصحف

وكأنما الأحكام العرفية لم تعلن الا مع بداية الحرب ، وكأنما الرقابة على الصحف لم تفرض الا عند اعلان الحرب ٠٠ !!

وكل ما أستطيع أن أذكره هنا ، ان بعض الزملاء من الشباب قد بدأوا يتصلون بى فى سجنى لمعرفة رأيي فيما يجب اتخاذه من خطوات فيما يتعلق بانتهاء الحرب اذ لابد للشباب ـ كما قالوا ـ من أن يتحرك على الأقل لتغيير أساس العلاقة بين مصر وبريطانيا ، لأن معاهدة ١٩٣٦ لم تعد تصلح ان تكون أساسا ٠

وقد كانت وجهة نظرى التى أبديتها على حذر شديد ، أن الامتحانات الجامعية على الأبواب وأنه لا داعى لانشغال الطلاب بمثل هذا الأمر ، اذ يجب عليهم أن يتفرغوا لأداء الامتحانات وكنت قد أيقنت أننى محروم من أداء الامتحان بدعوى أننى لم أحضر النسبة التى يجب أن يحصل عليها كل طالب فى الأقسام ٠

٢٨/٥/١٩٤٥ ٠

سمعت ان صبرى أبو علم باشا زعيم المعارضة كان قد قدم استجوابا لرئيس مجلس الوزراء بشأن الأحكام العرفية ، وقد نوقش هذا الاستجواب اليوم فى مجلس الشيوخ ، وقد جاء فى بيان صبرى أبو علم باشا « أعلن هذا المجلس فى ٢٧/ مارس ١٩٤٥ رأيه الاجماعى فى وجوب المبادرة الى الغاء الأحكام العرفية والحرب الأوروبية على أشدها ، حدث بعد ذلك ان أعلنت نهاية الحرب الأوروبية فى ٨ مايو ١٩٤٥ واحتفلت مصر بيوم النصر ورفعت له الزينات ، وأطلقت له المدافع ، وأعلنته يوما عاما للفرح ٠

انتهت الحرب ماديا فى أوروبا فزالت بذلك آثارها المادية وأخذنا نشهد مواكب الأسرى يعودون الى بلادهم بعد الطبل والزمر ٠

ثم شهدنا قعقعة السلاح فى أوروبا وقد أخذت تخف أو تنتهى ٠

وأخذنا نشهد بوادر السلم ٠

وكانت كل الدول الكبرى أو معظمها متأهبة لمواجهة يوم النصر فما لبثت الحرب الأوربية ان وضعت أوزارها حتى تقدم وزير الخارجية فى حكومة مستر تشرشل الى مجلس العموم ببيان جاء فيه ما نصه : ان لائحة الدفاع ١٨ (ب) المشهورة التى خولت الحكومة سلطة القبض على أى شخص بمجرد الاشتباه فيه دون محاكمة قد ألغيت ، كما ألغى

عدد من لوائح أخرى تتعلق بالدفاع عن المملكة وهى التى قيدت الحريات فى بريطانيا مدة الحرب الأوربية ·

ثم توالت بعد ذلك أنباء الغاء الأحكام العرفيــة ، والغــاء آثارها المتعلقة بالحريات فى كثير من البلدان حتى حكومة السودان ذاتها قرأنا أنها ألغت البنود التى قيدت بها الحريات الشخصية أثناء الحرب ومن أولها الرقابة على الصحف ·

ولكن ما هو الموقف فى مصر ·· ؟ ويجيب صبرى أبو علم باشــا على تساؤله ذلك بقوله : لقد أعلنت الأحكام العرفية فى مصر فى ٢ سبتمبر ١٩٣٩ بناء على طلب حليفتنا بريطانيا العظمى ، بل ان الحليفة ــ كما ذكر صبرى أبو علم باشا ــ لم تطلب أكثر من فرض الرقابة على الصحف ، وفى الضروريات العسكرية ليس الا ·

ويمضى صبرى أبو علم فى ذكر الوقائع التاريخية الخاصة باعلان الأحكام العرفية ، وفرض الرقابة على الصحف وما قاله على ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء وقتئذ ، ثم ينتقل ــ فى النهاية ــ مطالبا بالغــاء الأحكام العرفية لأنها ــ الأحكام العرفية ــ تعطل بعض أو معظم أحكام الدستور ، فتنقل الحريات العامة باجمالهــا وتجعلها وديعــة فى ذمة الحكومة القائمة فاذا ما انتهت الأحوال والأسباب التى اقتضت اعلان الأحكام العرفية ، وجب على الأمين على الودائع ان يردها الى أهلها ·

وسخر صبرى أبو علم باشا من أن حكومتنا جعلت التاسع من هذا الشــهر ــ يوم النصر ــ عطلة رســمية والذى لم يكن كذلك فى انجلترا بل كان يوم عمل ·

ويذهب صبرى أبو علم الى القول بأنه يجب الغاء الأحكام العرفية سواء رضيت انجلترا أم لم ترفض ؟ ويشير صبرى أبو علم الى ما ذكرته صحيفة أجنبية تصدر فى مصر ، من أنه لا يتصور أبدا ان تكون اعــادة حرية الصحافة الى الصحف المصرية لها تأثير فى الحرب اليابانية ·

وقال صبرى أبو علم : ان الرقابة على الصحف يجب أن تلغى وكذلك الافراج عن المعتقلين السياسيين يجب أن يتم : ان هذا الاستجواب هو مطالبة برد الحياة الى الدستور فى أبواب الحريات العــامة والمطلوب من حضراتكم (الشيوخ) أن تقولوا : هل أنتم مع الحرية ، أم عليها ؟ ·

وكان من بين رد رئيس مجلس الوزراء قوله : ان الظروف لاتسمح الآن برفع الأحكام العرفية وان كانت تسمح بتخفيف أعبائها ٠

والحكومة ملزمة بأن تراعي في تطبيق الأحكام العرفية اقتصارها على المسائل العسكرية وما يمت اليها بصلة وثيقة ، وعلى شئون التموين وسيكون رائدنا ـ محمود فهمى النقراشى باشا ، رئيس مجلس الوزراء ـ بذل أقصى الجهد فى تخفيف تلك الأحكام تدريجيا مسايرين فى ذلك تطورات الظروف الدولية والسياسية والاقتصادية حتى اذا جاء اليوم المنشود الذى يتيسر فيه انهاء حالة قيام الأحكام العرفية كان انتقال شئون الحكم الى مجراها العادى أمرا هينا لا طفرة فيه ٠

ويشير أمين عثمان باشا الى حديث للنحاس باشا أدلى به لصحيفة التيمس البريطانية قبل اقالة وزارته بأسبوع ذكر فيه : أنه بعد انتهاء الحرب فى أوربا ستصبح مصر على جانب كبير من الأهمية فيما يتعلق بالأعمال الحربية فى الشرق الأقصى ٠

ومما لاريب فيه ـ مصطفى النحاس باشا ـ أننا نأمل أن تنتهى الحرب ضد ألمانيا بسرعة لأن انتهاءها سيسرى عن مصر الى حد ما ، مثلها فى ذلك بقية العالم ٠

والغريب ان التصريح الذى استند اليه أمين عثمان باشا لم يفده فى تبرير وجهة نظره من ضرورة رفع الأحكام العرفية ٠

وعندما قال : هل القول بأنه اذا أخطأ شخص وجب أن نخطىء مثله حتى فى ذلك الوقت الذى لم يكن فيه أمل قريب فى الصلح لاحظ رئيس المجلس أن أحدا لم يثر هذا الموضوع فقال أمين عثمان باشا : انه يريد ان يصل الى نقطة أخرى ، هى أنه مادامت الحليفة قد اتخذت فى بلادها اجراءات تكفل حرية الأفراد والجماعات يجب ألا تكون أقل منها لأن اعلان الأحكام العرفية انما كان بناء على طلب الحليفة ٠

وقد ورد فى حديث أنطون الجميل (بك) فى المجلس تعقيبا على مناقشة ذلك الاستجواب قوله : لما كانت جميع الأحزاب قد تناوبت تباعا مقاعد الوزارة ، ومقاعد المعارضة فما من حزب الا وطالب بذلك وهو فى المعارضة ، وما من حزب الا وطولب بذلك وهو فى الحكم على أن الحالة ظلت على ما هى عليه مع تعديل خفيف جنوحا الى التشديد أو ميلا الى التخفيف حسب الظروف الطارئة أو حسب أمزجة القائمين بالأمر ٠ لذلك ما من حزب الا ويستطيع المتكلم اليوم الاستشهاد بالكثير من أقوال رجاله على وجوب الالغاء ٠

وعندما هم الشيخ المحترم انطون الجميـل (بك) الانتقـال الى الحديث عن بقيـة الحريات ، قال رئيس الوزراء : يمـكن ان أوفر على حضرة الشيخ المحترم اذا ما صرحت له بأنه لا يوجد فى معتقل الزيتون الآن الا سبعة وهؤلاء نبحث الآن حالاتهم وينتظر الافراج عنهم تباعا ولا يوجد شخص معتقل فيما عدا معتقلى الطور ، أو المحبوسين فى أقسام البوليس للنظر فى استبعادهم الى جبل الطور وفيما عدا هؤلاء لا يوجد معتقل ٠٠ !!

★★★

ولو أننا كنا فى عهد الحريات ٠

صرخت من سجنى قائلا : لا ، لا يا رئيس الوزراء ، يوجد كثيرون فى أقسام البوليس معتقلون بأمرك بعد أن أمرت النيابة بالافراج عنهم أنا واحد منهم ٠٠

ولكننا كنا فى عهد لا تحترم فيه الحريات ٠

وكان من بين ما قاله على ماهر باشا أنه يفضل الحرية على الأمن ، وعلى الحياة نفسها ، فلما قال له النقراشى باشا : كيف تفضل الحرية على الأمن أجاب قائلا : أعنى ان الحرية هى فوق كل شىء ، تفضـل على النعيم وعلى الأمن بل وعلى الحياة ذاتها : ان الحرية لا تقبل المسـاومة ولا تقبل التجزئة : نحن لا نطلب منكم الغاء الأحكام العرفية وانما نطلب اطلاق الحريات جميعا : نريد الحريات العامة ، الحرية الفردية بكل أنواعها ، حرية الاجتماع ، حرية الصحافة كاملة ، لا تتقيد الا بما يمس الشئون الحربية ٠٠

وقال عبد الرحمن الرافعى : ان الأحكام العرفيـة كانت أحكاما استثنائية اقتضتها أحوال شاذة وان الذين طالبوا باعلانهـا قد ألغوها فى بلادهـم ٠

ومن جهة أخرى فنحن قادمون على تقرير مصيرنا ولا يصح مطلقا أن تقدم الأمة على تقرير مصيرها وهى غير متمتعة بالحقوق التى كفلها لهـا الدستور لأننا اذا كنا بين أنفسنا نتنازع بعضنا بعضا فى الحقوق التى قررها الدستور ، فكيف نطالب الدول بحقوق البلاد العامة ٠

وكان النقراشى قد ألقى بيانا فى مجلس الشيوخ والنواب أكد فيه اطلاق الحريات العامة وان الأحكام العرفية ستكون محصورة فى أضيق حدودها فلا تتعدى الأمور العسكرية وشئون التموين ، وما له اتصـال بأموال رعايا الدول المعادية والبلاد التى كانت محتلة ٠٠ كما أعلن أيضا ـ

محمود فهمى النقراشى باشــا ـ انتهــاء الرقابة على الصحف والنشرات الدورية وغيرها من المطبوعات التى تصدر فى المملكة المصرية ، الا فيما يتعلق بالمسائل العسكرية ، وتكون ادارة النشر فى كل وقت تحت تصرف رؤساء التحرير ليرجعوا اليها عند الاقتضــــاء وبوجه خاص فى أحوال الشك والشبهات ٠ و ٠٠ و ٠٠

ويقول الشاعر محمد الأسمر مهنئــا النقراشى بخطوة رفع الرقابة عن الصحف :

بنــى وطنى مــن كل حزب رويــدكم
اذ القول أمسى وهــو غــير مقيــــد

بنى وطنى لاتسمعونــا الذى مضى
فلا خــــير فــى هــذا الكلام المردد

ولا خير فى اللفظ الطريد يريشــــه
أخ لأخيـــه مثل ســـهم مســدد

فما الصحف ساحات لغضبان شاتم
ولكنها فى الحق ساحات مســجد

بنى الصحف صونوها تصنكم ولا تكن
يراعاتها فى كفكم سـيف معتــد

فمن سل سيف البغى يقتل مجده
فان شئت أغمــده وان شــئت جــرد

لعمرك ما حــرية الصــحف رميهــا
لــذاك وهـــذا بالكلام المفنــد

ولكنهــــا الاخـــلاص فيمــا تقوله
الا فاقرئى يامصر صحفك واشهدى

حمــدنا « لمحمـــود » جميل صنيعه
يحطم من أغـــلال صعب مصـــفد

فمن فك عنه القيد فليمض راشدا
الى العقـــل والانصـــاف وليتقيــد

وكان مجلس النواب قد ناقش بدوره استجوابا للنائب المحترم حنفى الشريف بخصوص الرقابة على الصحف ، ألقى بعده النقراشى باشا البيان

الذى سبق الاشارة اليه والذى كان ـ البيان ـ موضع ترحيب الأعضاء جميعا حيث أكد النائب المحترم عبد العزيز الصوفاني ـ حزب وطني ـ ان ما عملته الحكومة اليوم هو عمل مجيد ، وأنا أقرر هذا كنائب حزبى واقول ان الحكومة قد خدمت نفسها ، وخدمت البلاد بهذا القرار وانى أتمنى من كل قلبى الا تستخدم تلك الحرية الجديدة : الا فى خدمة البلاد ، وان تبتعد الصحافة عن التنابز بالألقاب ٠

وقال كامل الشناوى ـ النائب المحترم ـ انه باسم الصحف يشكر الحكومة على خطواتها الجريئة الوطنية وأعتقد ان القرار الذى اتخذته هو أساس جديد للنهضة القادمة لأنه لايمكن ان تتم نهضة الا فى ظل الحرية ، وقد كان هذا الظل متقلصا فيما مضى ! ٠

★★★

وقد استنكرت أحزاب الحكومة موقفا لحزب الوفد ولهيئته العامة لأنه بعث برسالة الى السفير البريطاني بخصوص بعض المطالب الوطنية ٠

وكان حزب الوفد باسم رئيسه مصطفى النحاس باشا قد بعث الى الملك برسالة فى ١٠ مايو ١٩٤٥ راجيا الغاء الأحكام العرفية ذلك ان بريطانيا العظمى التى طلبت اعلان الأحكام العرفية فى مصر ، قد بادرت بالغاء لائحة الدفاع المشهورة التى كانت تخول للحكومة سلطة القبض على الأشخاص لمجرد الاشتباه بدون محاكمة ٠

وقد جاء فى تلك الرسالة :

« ولما كانت انتخابات مجلس النواب الحالى قد جرت فى ظل الأحكام العرفية مما دعا الوفد المصرى الى مقاطعتها وعدم التقدم اليها ٠

ولما كانت الظروف التى انتخب فيها مجلس النواب الحالى قد تغيرت، وأصبحنا أمام ظروف جديدة تقتضى الرجوع الى الأمة ٠

لذلك كان من الطبيعى ان يكون الرجوع اليها باختيار ممثليها فى ظروف تكفل فيها كل الحريات وتتولاها وزارة محايدة » ٠

وكانت الهيئة الوفدية بعثت بعريضة الى الملك وقعها مصطفى النحاس بوصفه رئيس الوفد المصرى والهيئة الوفدية ونائب سمنود سابقا ٠

وقد جاء فيها : لقد غيرت الحرب من أوضاع العالم وخلقت مشاكل جديدة وواجهت الأمم بمعضلات لا عهد لها بها فى النواحي الاقتصادية

والاجتماعية والسياسية ولابد لمصر من مواجهة هذه الأوضاع الجديدة محشودة كل قواها الأدبية والمعنوية فى ظل العدالة والحرية .

ولما كان مجلس النواب الحالى قد اختير فى ظروف الحرب وفى ظل الأحكام العرفية وقبل أن تتكشف مشاكل ما بعد الحرب وتبرز فى الميدان الأحوال الجديدة التى فاجأت الأمم الجديدة فى الميدانين الداخلي والخارجي.

وترى العريضة ان استمرار الهيئة الوفدية ، غير ممثلة فى مجلس النواب فى الوقت الذى يوضع فيه بنـــاء المستقبل ويبت فيه فى مصير البلاد ابعاداً لأغلبية الأمة عن حمل مسئولية العمل لصالح البلاد .

وقد أشارت رسالة رئيس الوفد ـ مصطفى النحاس باشـا ـ الى السفير البريطانى اللورد كيلرن سير مايلز لامبسون سابقا ـ الى الرسالة التى بعث بها الوفد الى الملك والى الخطوات التى اتخذتهـا الحــكومة البريطانية بالغاء اللوائح التى تمنح الحكومة سلطات خاصة لمنع المواكب والاجتماعات ، وكذلك اللوائح التى تحد من حريات الأشــخاص المشتبه فيهم ونشاطهم .

ويشير النحاس باشا الى تعضيد مصر ، قضية حليفتها بريطانيا ، قضية الحرية والديمقراطية بكل قواها حتى فى أحلك ساعات الحرب ، وهذا هو الوقت المناسب الذى يجب ان تجنى فيه مصر أولى ثمرات النصر فترى عودة الحريات اليها وهى عزيزة على كل مصرى بمقدار ما هى عزيزة على كل بريطانى .

ويقول النحاس باشا : ان المعارضــة الوفدية ستثير الموضوع فى مجلس الشيوخ فورا ، ونأمل يا صاحب السعادة أن لا يتضح عندئذ أن الحكومة البريطانية لم تكن قد أبلغت الحكومة المصرية انه لم تعد هناك حاجة لبقاء الأحكام العرفية فان هذه الحريات التى فيها حرية النشر ذات أهمية قصوى فى هذه الآونة عن ذى قبل .

وأخطر ما جاء فى رسالة مصطفى النحاس الى السفير البريطانى فى مصر قوله : «يجب على الذين يقودون مصر ان ينيروا الرأى العام من جهة وان يتأكدوا من رغباته بعد هذه الانارة من جهة أخرى والا دب الشك وتأصلت الريبة الى درجة أن القرارات التى تتخذ فى المؤتمرات العالميـــة وبيننا وبين حليفتنا لن يقبلها الرأى العام مهما اشتملت عليه من فائدة ويبذر بذور الشك والريبة قد نحصد محصولا وافرا من عدم الثقة ومن الغل بيننا وبين الانجليز ، وبيننا وبين البلاد الأخرى » .

وبمناسبة الحديث عن رفع الرقابة على الصحف فيمـا عدا الأمـور العسكرية ، أذكر واقعة كتبها الصحفى كريم ثابت قال فيها : انه كان يكتب فى جريدته ـ المقطم ـ كلمة فى الشئون الداخلية ، فلمـا فرضت الرقابة حار فى أمره ، وكان الرقباء أكثر خبرة منه ، فخطر لى ـ كريم ثابت ـ أن أكتب مقالة يدرك القارىء من موضوعها ان الرقابة تقيدنى ، وكان لابد ان يكون موضوع هذه المقالة لايمتد اليه قلم الرقيب وبعد شىء من التفكير ظننت أننى وفقت الى هذا الموضوع ، وقررت أن أكتب كلمة فى زيادة عدد الشحاذين فى مصر ٠

ولما كتبت المقال وسلمته لسكرتير التحرير قال ضاحكا : أظن ان حضرة الرقيب مش راح يعارض فى ده كمان ٠

ولكن ما كادت المقـــالة تعرض على حضرة الرقيب حتى كتب على هامشها : تؤجل لحين عرضها على الجهات المختصة ٠

دهشت ٠ ودهش سكرتير التحرير وظننت أن حضرة الرقيب يمزح ٠٠ فزررنا الجاكتة ، ودخلنا عليه بأدب ، وقلنا له بعد التحية ٠ يا أستاذ؟ فقال : أظن علشان مقال الشحاذين ٠٠ المقال والله كويس ، ولكن أعمل ايه فى التعليمات ؟

فقلت له : أنت تتكلم جد يا أستاذ ٠

فقال : والله جد ٠

قلت : ده المقال عن الشـــحاتين ، فاية علاقة للشحاتين بالحرية ؟ قال : أهي التعليمات كده ٠ قلت : تسمح تتصل فى أمره بالرئيس المختص فى وزارة الداخلية ٠ قال : سأكلم شعير بك ، وفعلا اتصل بشعير بك فكان رده لابد من ارسال المقال اليه وهنا تحولت الدهشة الى عجب ، وقلت : سأذهب الى وزارة الداخلية بالمقال لاحضر الكونسولتو بنفسى واكتشف سر هذا التردد ، وعلى أى أسباب يبنى ٠

وفى وزارة الداخلية عقدوا مجلسا لمراجعة المقال الخطير ؛ مقالى عن « الشـــحاذين » وبعـــد ما قرأوه قالوا لى : أين الحكمة يا أستاذ من كتابة هذا المقال ؟ قلت : مقال اجتماعى خطر لى فى أن أكتبه ٠

فاخرجوا كشف التعليمات وقالوا : اسمع يا أستاذ ، هنا فقرة صريحة تقول انه ممنوع نشر شىء ينتقص من هيبة الحكومة ؟ فقلت : أعرفها ٠ قال : اذن ٠٠ قلت : اذن ما ؟ هل الشحاتين يؤثرون فى هيبة الحكومة ؟ قال : يا أستاذ احنا مش قدك ، اعمـل معـروف ٠ قلت :

حقيقة لا أتهكم • قالوا : اذن شوف يا سيدى ، كونك تقول ان الشحاتين زادوا ، ده كلام معناه ان محافظ القاهرة كان مقصرا فى عمله ، وعبد السلام الشاذلى باشا الوزير الآن هو اللى كان محافظ ، فالطعن فى المحافظ طعن فيه والطعن فيه لا يجوز لأن ذلك ينتقص من هيبة الحكومة باعتباره وزيرا • قلت : ياسلام • قالوا : يا أستاذ بقى انت مش فاهم • قلت : يعنى مافيش فايدة ؟ قالوا : والله متأسفين • وكأنهم أرادوا أن يعزونى فودعونى وهم يقولون : الموضوعات كثيرة يا أستاذ بس بلاش الموضوعات اللى فيها وخز ابر •

***

ويقول كريم ثابت : أما المرة التى انتقمت فيها من الرقابة انتقاما شامتا ، فكانت عند مرور الرئيس روزفلت والمستر تشرشل بمصر بعد مؤتمر يالتا ، وزيارة جلالة الملك فاروق لهما ومجيىء جلالة الملك عبد العزيز آل سعود الى مصر للاجتماع بهما وكذلك جلالة الامبراطور هيلاسيلاسى •

فقد صدرت التعليمات بعدم اباحة نشر شىء عن هذا كله الا عندما تسمح الجهات الرسمية عن تلك الزيارات والمقابلات •

وكان الوقت ظهرا ولكن قيل لنا أنكم لا تستطيعون أن تذيعوا كلمة من هذا كله قبل الساعة الثانية مساء •• وغادرت المكتب المختص وبيدى جميع البيانات •• ولكن ما الفائدة فجريدتى تصدر بعد الظهر قبل الساعة الثانية بخمس ساعات ومعنى ذلك انها ستصدر خالية من هذه الأخبار العظيمة التى يتوق الناس الى الاطلاع عليها والأوراق بيدى فما العمل •

فى هذه اللحظة خطر لى خاطر ، لماذا لا أؤخر صدور « المقطم » الى الساعة الثانية مساء وقررت أن أنفذ الفكرة ، ولكنى خشيت أن يفكر فيها غيرى ، فلما عدت الى مكتبى قلت لهم : لا فائدة من نشر شىء من هذا فاستمروا فى عملكم كالمعتاد ولتصدر الجريدة خالية من كل شىء •

وفى نحو الساعة الثانية – كريم ثابت – جاءوا يبلغوننى ان الجريدة معدة للطبع ، وكم كانت دهشتهم عظيمة عندما قلت لهم : أوقفوا الطبع ففى الآلات خلل يجب اصلاحه •

ورجوت من زملائى المترجمين ألا يبرحوا مكاتبهم ووزعت عليهم البيانات التى أعطيت لى ظهرا لترجمتها • وشرعنا من تلك اللحظة فى اعداد عدد جديد من الجريدة بتلك البيانات كلها •

وفى الساعة النامنه والنصف مساء أذنت لهم فى توزيع الجريدة ٠ فاطلع القراء على أنبـاء تلك الزيارات والمقابلات التاريخيـة قبـل الساعة التاسعة ٠ وقال بعض اخوانى الصحفيين انه سبق صحفى ، أما أنا فقد أردت أن أنتقم من الرقابة عن سنى الحرب كلها ٠٠ وازداد سرورى لما علمت بعد ذلك ان أحدهم اتصل بالمكتب المختص شاكيا من أننى أذعت البيانات التى وزعت علينا ، فكان الرد أن كريم ثابت احترم التعليمات لأن الساعة الآن التاسعة مساء ٠

● ● ●

والجدير بالذكر ان الحديث عن الحريات العـامة لم ينقطع حتى بعد أن أصدرت الحكومة بيانهـا الخاص بقصر الأحكام العرفية على حالات محددة كالموضوعات الحربية والتموين و ٠٠ و ٠٠ وكذلك بيانها الخاص برفع الرقابة على الصحف الا فى الأمور التى سبق ان أشرنا اليها ٠

ففى مجلس الشيوخ وبتاريخ ١٩٤٥/٧/١٧ نوقش الاستجواب المقدم من صبرى أبو علم باشا زعيم المعارضة الوفدية فى المجلس حول منع الاجتماعات فى بورسعيد ٠

وكان قد سبق مناقشة هذا الاستجواب الاجابة على سؤال للشيخ المحترم حنفى أبو الفضل بك عن عدد معتقلى الطور ، وقانون المشبوهين والمشردين . وكان رد رئيس الوزراء ان عدد الذين أمضوا فى الاعتقال ، بعد ثلاث سنوات وستة أشهر ٩٨٧ معتقلا ، وأن لجنة تألفت للتقصى عن شئونهم ، وفحص كل ما يتعلق بشئون المعتقل من النواحى الاجتماعية والصحية والنظامية ، وقدمت تقريرها ٠

وقد أخذت الوزارة فى تنفيذه وأنه قد تم الافراج عن ٨٦٤ معتقلا وان ما اتخذ من تدبير اقتضته الضرورة بسبب الظروف الحربية فى طريق الزوال قريبا ٠

أما القـانون الخاص بالمشردين والمشبوهين فقـد أنجزته الحـكومة وهو فى طريقه الى البرلمان ٠

وليتنا كنا معتقلين فى الطور على الأقل لنحظى بالرعاية الاجتماعية والصحية التى أشار اليها رئيس الوزراء والتى أصبحت من حق المعتقلين فى الطور ، وهى ليست من حقوقنا بطبيعة الحال نحن الذين « ننعم » بالجبسخانة فى روض الفرج ٠ وبقرار من محمود فهمى النقراشى باشا رئيس مجلس الوزراء ٠

وقد تساءلت وأنا أقرأ اجابة رئيس الوزراء عن المعتقلين في الطور ألا من شيخ محترم أو نائب محترم يفكر فينـا نحن الغلابة المساكين الذين لا يحس بمآسينا أحد ؟

المهم أن صبرى أبـو علم باشـا أشـار في اسـتجوابه الى منع الاجتماعات المحدد لها يوم الأحد ٨ يوليو ١٩٤٥ بمدينـة بورسعيد ، أو أى يوم آخر يحدد لهذا الغرض وكذلك التنقلات الى هذه المنطقة بقصد تنظيم الاجتماعات أو عقدها أو الاشتراك فيها ٠

كما أشار الى الأوامر الخاصة بحظر نشر أى خبر أو مقال يتعلق بالدعوة الى عقد أو تنظيم الاجتماعات المشار اليها في المادة السابقة الى أن يقول متسائلا : هل أصـبح أهل بورسعيد غير أهل لأن يتمتعوا بمـا يجب أن يتمتع به القطر المصرى كله من اباحـة حرية الاجتماعات والنشر ؟ هل أصبحت منطقة بورسـعيد منطقة محرما عليها أن تتمتع بحقوق الأفراد وحريتهم ؟ ويشير صبرى أبو علم الى اذاعة بيان رئيس الوزراء أو تصريحه الخاص باطلاق الحريات العامة ٠٠ الذى كان يطالعنا في ظلمات الليل من آلة المذياع ٠ ويتساءل أيضا : هل أريد ألا يصل صوت المذياع الى بورسعيد ؟ أم كان المذياع يغلق عندما يصل الى آذان أهالى بورسعيد لأن الطبيعة قد قضت بأن تكون بجوار بورسعيد القناة أو تمر بها من وقت لآخر سفينة من السفن الحربية ؟

ثم انتقل أبو علم باشـا الى القول بأنه ظهر ان الهدف من تلك التعليمات اياها الخاصة ببورسعيد الحيلولة بين رفعة النحاس باشـا وأنصاره في بورسعيد بالذات ، والا فكيف يفسر هذا المنع لأفراد قدموا من بلادهم الى القاهرة ، وكيف تركوها ؟ تركوها تعج بالجنود ، وتمشى في شوارعها الهجانة والمدافع الرشاشة ،٠٠ تركوها ميدان حرب وقالوا أنها أشبه بدمشق حين سلط عليهـا ديجول جنـوده وقنابله وقاطعه الشيخ عباس الجميل قائلا : هذه العبارة تستحق التصفيق ٠

وقال صبرى باشا : صفق ٠ ما الذى يمنعك ؟

وقال عباس الجميل : اذا قبلت معنى تصفيقى لك فاننى أقبله ٠

وقال صبرى باشا : اننى أقبل كل تحد يأتينى في هذا الموضوع ومن حضرة الشيخ المحترم الأستاذ عباس الجميل بالذات الذى ذهب الى بورسعيد يستجدى التوقيعات لمنع الزيارة ويستحضر المستندات ليستند عليها الأمر العسكرى ٠٠ أقبل هذا التحدى وكنت لا أريد ذلك، ولكنه قد أراد لنفسه ما أراد فسمع ما سمع ٠

وصفق الأعضاء ، الأعضاء من المعارضة بطبيعة الحال ٠

ويقول صبرى أبو علم باشا : أنه عندما ذكر ان استجوابه الخاص بالأحكام العرفية فى جلستى ٢٨ مايو ، ١١ يونيو ١٩٤٥ كان متصلا بكرامة المجلس ، وكان مفخرة لجميع هيئاته وقد حمل الحكومة على تغيير خطتها التى أعلنتها فى يوم ٢٨ مايو ، ولا يزال من حق المجلس وكرامته متصلة مطالبة الحكومة أن تكون عند وعدها لتصان كرامة التصريحات الحكومية ، وتنفذ كل وعد نقطعه لممثلى البلاد ، ومن حقه — حق المجلس — ألا تتلاعب به الحكومة فى تصريحاتها ، وأن يلزمها أن تقف عند حدها ، ولا تعتدى على الحريات العامة خطوة خطوة تحت تفسيرات لا قيمة لها ولا يمكن أن يقبلها ، ثم قال : ان لهذا المجلس كرامة ، وكرامة هذا المجلس التى نورثها ، لأبنائنا ان تطالب الحكومة بألا تلقى وعودا فى هذه القاعة حتى اذا ماخرجت منها تبخرت تلك الوعود فى الهواء ٠٠ اذن فلتقولوا كلمتكم ، ولتكن كلمة الحق والحرية٠

وقال رئيس الحكومة : دعا بعض أهالى بورسعيد الى عقد اجتماع عام بالمدينة حددوا له يوم الأحد ٨ يوليو ١٩٤٥ ليحضره ويخطب فيه رفعة مصطفى النحاس باشا ٠

وقد رأت الحكومة منع ذلك الاجتماع لما يترتب عليه من احتكاك يخل بالأمن والنظام العام فى الظروف الحاضرة ، خاصة وأن منطقة القناة لها أهمية خاصة بالنسبة للمجهود الحربى وواجب الحكومة أن تمنع الأسباب التى قد تؤدى الى عرقلة المجهود الحربى أو المساس به ٠

وقال الشيخ عباس الجميل ان النحاس باشا اختار يوم الأحد بالذات لأنه يوم عطلة العمال وأن بورسعيد أرسلت تستنكر زيارة النحاس باشا لها وأنه بناء على ذلك منع رئيس الوزراء الاجتماع ٠٠ !!

وقال الدكتور عبد الخالق سليم انه كان يفضل ان يسمح لرفعة النحاس باشا أن يذهب حيث يشاء على ان تؤدى الحكومة واجبها وهو أن تحافظ على الأمن اذا دعا الأمر ذلك وأعرب عن أسفه لأن الذى يمنع رئيس الوفد هو النقراشى باشا و ٠٠ و ٠

***

وقريب من موضوع الحديث عن الحريات العامة ، بل هو فى صميم الموضوع ، ما ذكره الأستاذ ابراهيم فرج المحامى بوصفه السجين رقم ١٩١٢ ، وكلام الأستاذ ابراهيم فرج — كما رأيت وقتذاك —

يجب ان يطبع ويوزع على جميع الوزراء الذين في الحكم والوزراء الذين خرجوا من الحكم حتى يعرف الجميع أية مهانة تنزل بالمسجون السياسى فى كل العهود من كل الوزراء مهما كانت انتماءاتهم الحزبية ، فالحزب الحاكم ـ مثلا ـ يبيح لنفسه أن يستبد بخصومه ، وهؤلاء الخصوم عندما يصلون الى الحكم يحلو لهم الاستبداد بخصومهم الحكام السابقين ٠

وهكذا دواليك ٠٠ حكومة اليوم تندد بخصومها ، وخصومها ـ حكام الغد ـ يندددون بخصومهم حكام الأمس ٠

ولو أن كل وزير أيقن بأن الفلك دوار وان الدنيا لا تدوم لأحد ، ولو أنها دامت لغيرك ما انتقلت اليك ٠

ولو أن كل وزير أيقن بأنه ليس مخلدا فى الحكم وأنه لابد ـ طال المدى أو قصر ـ عائد الى المعارضة وسوف يرى الأمرين من الحكومة مثل ما أذاق هو المعارضة ـ في أيامه ـ الأمرين ، بل الأكثر من ذلك ٠٠ لو كان هناك أقسى من الأمرين ٠

على أية حال ٠٠ يروى الأستاذ ابراهيم فرج ما حاق به هو شخصيا ـ وهو من أقرب المقربين الى مصطفى النحاس باشا ـ عندما سجن ، تنفيذا لأمر النيابة بحبسه احتياطيا في جريمة من جرائم النشر مشيرا الى تلك القطعة المستديرة من الصاج التى يحملها المسجونون وبكل واحدة منها رقم المسجون وكيف عليه أن يضعها على صدره لتميزه عن غيره ، وكيف أنه ـ ابراهيم فرج ـ رفض ان يضعها على صدره واكتفى بوضعها في جيبه ٠

وعلق الأستاذ ابراهيم فرج على ذلك بقوله : أى هوان لمصر ، وسمعة مصر ، حكاما ومحكومين أن يساق المشتغلون بالصحافة من رجال الفكر والمبادىء والمدافعون عن الحرية الى السجون العمومية ليعاملوا فى تلك المباءات معاملة تنبو عنها الانسانية بل الكرامة الآدمية ، ويحشروا وسط الحشرات الآدمية والحشرات الحيوانية ، لا يجدون رعاية مما تقتضيها مكانتهم ومبدئهم ورسالتهم الوطنية الا على قدر ما تتسع له عقول القائمين على هده السجون ويالها من عقول ٠٠ !! ، ومراحيض بلا أبيار ولا أبواب بل حفر متجاورة ما كنا لنغشاها قط لولا ان نجحنا فى اقناع المسئولين في السجن باخلائها من شاغليها حين نضطر اليها اضطرارا ٠

انها كارثة على الخلق والحياة ومباءة للأوبئة والأمراض : ان العذاب في سبيل الرأى والدفاع عن الحق ، حلو المذاق ، وللحرية ثمن نؤديه

راضين مغتبطين ، وللجهاد تكاليف ندفعها من حريتنـــا وراحتنـــا ، ولن يثنينا عن مواصلة الكفاح اعتقال أو سجن أو تضحية مهما عظمت ٠

ويقول ابراهيم فرج : ان حبس الصحفيين فى جرائم النشر نظام لا مثيل له فى العالم ٠ وقد حدث فى فرنسا آن حكم من محكمة الجنايات على أحد كبار الصحفيين فظلت جريدته تصدر باسمه ويرسل اليها المقالات مذيلة بتوقيعه ، ويدير الجريدة بنفســـه وهو نزيل المعتقل المخصص لرجال الفكر وحملة القلم ٠

لا يرضينا أن تكتفى الحكومة بنقل صديقنا العزيز الأستاذ حامد طلبه صقر الى سجن الأجانب لتوفر له بعض الراحة فليس بعض الشر أهون من بعض ، فكله شر على كل حال ٠

وكان ابراهيم فرج قد هاجم مكرم عبيد باشا لما كان ينشره فى جريدة الكتلة عن أعمال لجنة التحقيق مخالفا قرار النيابة وقرار مجلس النواب بحظر النشر ٠

أخذ الأستاذ ابراهيم فرج على جريدة الكتلة اقحام اسم عبد الرحمن الطوير باشا فى مقالات تنشر بالكتلة لأن سعادته هو النائب العمومى الأمين على الدعوى العمومية والتى يحركها ويرفعهـا بنفسه أو بواسطة أحد وكلائه ٠

ويتساءل ابراهيم فرج ؟ كيف يكون موقفنـا وموقف الصحف الوفدية من سعادته عنـدما نتصـدى للرد على تلك التقارير وتفنيدها وتظهر زيفها ؟ ٠

لا شك ان سعادة النائب من رجال القانون ، ويدرك تماما انه لا هو ولا مكرم باشا ولا الوزراء مجتمعين يملكون ان يوجهوا اتهاما الى وزير سابق ، لأن الاتهام والتحقيق بالنسبة للوزراء من حق مجلس النواب وحده ٠٠ ومن البديهى أن التحقيقات التى يجريها الطوير باشا لا قيمة لها بالنسبة للوزراء وليست دليلا ولا شبه دليل وهى مهما بالغنا فى قيمتها لا تعدو مجرد بلاغ مقدم الى مجلس النواب وهو الهيئة الوحيدة المختصة بالتحقيق والإتهام ٠

لذلك نأخذ على مكرم باشا هذا الجموح فى اقحام سعادة الطوير باشا فى حملة غريبة يديرها فى جريدته ٠

ونعتقد أن الطوير باشـــا لم يستـــتأذن فى نشر اسمه فى صحيفة

الكتلة ، ولعل سعادته ، رغم ما نعرفه عنه من جم الأدب وجم الحياء يمنع مكرم باشا بشدة من الزج به فى معرض حملة القذف والافتراء على الشرفاء الأبرياء ·

وتقرر الصحف الوفدية الاحتجاب فى أول أغسطس ١٩٤٥ بسبب ما يلقاه من اضطهاد فى الوقت الحاضر وبسبب عدم التسوية بينها وبين الصحف الأخرى » ·

ونسينا أن نسأل الأستاذ ابراهيم فرج : ألم يحدث لحكومات الوفد أن زجت بكبار الصحفيين فى سجن طرة وقرة ميـــدان ؟ ولا جواب ، ولا بيان ! ·

والطريف أن السراى الملكية كانت قد دعت الأستاذ عبد القـادر حمزة رئيس تحرير البلاغ ، والأستاذ حامد طلبـه صـــقر رئيس تحرير الوفد المصرى لحضور الحفلة التكريميـة الملكية لأوائـل الناجحين فى عام ١٩٤٥ وقد اعتذر الأستاذ حمزة عن الحضور ببرقية أرسلت الى كبير الأمناء جاء فيها : أرجو أن ترفعوا الى مقام حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم اعتذارى عن عدم امكان حضـــورى حفلة الطلبة غدا لصدور الأمر بالقبض على اليوم » ·

وكذلك اعتذر الأستاذ طلبه « بســـبب وجـوده بالســـجن رهن التحقيق فى قضية صحفية » ·

***

وكان الحلفاء بعد استسلام ألمانيا قد تفرغوا لحربهم ضد اليابان ، حيث نقل الحلفاء المعركة من أوروبا الى آسيا وتخصص الطيران الأمريكى فى ضرب اليـابان حتى لقد كانت أعداد وفيرة من الطيران تقـدر بألفى طائرة تهاجم الجزر اليابانية معا ·

وأكثر من مرة هاجم ألوف من طائرات الدول المتحالفة اليـــابان فى وقت واحد ·

ومرة قذف أسطول الحلفـاء بأكثر من ألف طن من القنابل دكت المطارات والمصانع الحربية فى منطقة طوكيو ·

وتوالت انذارات ترومان ، وتشرشـــل ، وكاى شـــيك للشعب اليابانى لكى يتخلص من « العصابات العسكرية » التى تتحكم فى ارادته·

ومنذ ١٩٤٥/٨/٥ بدأ الموقف الحربى يتحـرج بالنسبة لليابان الى أن كانت الضربة القاضية فى ٦ أغسطس ١٩٤٥ حيث أغارت أكثر من أربعة آلاف طائرة على جزر اليابان ·

وأعلن الرئيس ترومان فى ٦ أغسطس ١٩٤٥ ان مستر تشرشل والرئيس الراحل فرانكلين روزفلت كانا قد اتفقا على صنع قنابل ذرية فى الولايات المتحدة الأمريكية • وقبيل عام ١٩٣٩ كان العلماء يعتقدون ان استخدام الطاقة الذرية ممكن من الناحية النظرية ولكنهم لم يهتدوا حتى ذلك العام الى طريقة عملية لاستخدام تلك الطاقة • وفى غضون عام ١٩٤٢ علمنا أن العلماء الألمان كانوا يبذلون قصاراهم للاهتداء الى طريقة يتمكنون بواسطتها من اضافة الطاقة الذرية الى سائر الأسلحة الخاصة التى اخترعوها لاستعباد العالم ولكنهم فشلوا •

وقال ترومان : الا أن الانجليز والأمريكان قد أخذوا ابتداء من عام ١٩٤٠ فى استخدام الطاقة الذرية ، وقد استخدموا ١٢٥٫٠٠٠ رجلا فى صنع القنابل الذرية فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ويبلغ عدد هؤلاء الرجال اليوم ٦٥٫٠٠٠ رجلا •

وقال ترومان : اننا على أتم استعداد لسحق كل ما يتبقى من طاقة اليابان الانتاجية وسنمضى فى تدمير أحواض اليابان ، ومصانعها ، ومواصلاتها ، الى أن نقضى على قدرتها على الاستمرار فى المقاومة ، ولقد كان غرضنا ــ هكذا قال ترومان ــ من الانذار الذى أصدرناه فى بوتسدام فى يوم ٢٦ يوليو الماضى تجنيب الشعب اليابانى التدمير الشامل ، ولكن قادة ذلك الشعب رفضوا ذلك الانذار ، واذا لم يقبلوا شروطنا الآن فعليهم أن يتوقعوا فيضا من الدمار الجوى ، وسيعقب الهجوم الجوى هجوم بحرى وهجوم برى على نطاق لا عهد لهم بمثله •

وكان من بين ما قاله ترومان : ان طائرة أمريكية ألقت أخيرا على قاعدة الجيش اليابانى فى هيروشيما أكبر قنبلة عرفت حتى الآن فى تاريخ الحرب وهى قنبلة ذرية تزيد فى قوتها ٢٠٫٠٠٠ طن من المواد المتفجرة المعروفة ، ولهذه القنبلة قوة نسف تزيد ٢٠٠٠ طن عن قوة القنبلة البريطانية المعروفة باسم « جراند سلام » والتى كانت حتى اليوم أقوى قنبلة •

وقال ترومان : ان مصنعين عظيمين ، ومصانع كثيرة أصغر منهما مخصصة الآن فى الولايات المتحدة لانتاج القنابل الذرية والعمل فيها يجرى منذ مدة تزيد على عامين ونصف •

اننا بهذه القنبلة قد أضفنا زيادة عظيمة وجديدة فى التدمير لمعاونة قواتنا المسلحة التى تزداد قوة •

ثم أذيع نص المذكرة اليابانية وقد جاء فيها ·· اطاعة للأمر السامى الذى أصدره صاحب الجلالة الامبراطور ، وهو الذى يعمل دائما لتعزيز قضية السلام العالمى وتخالجه الرغبة الصادقة فى وقف الحرب بسرعة لانقاذ الجنس البشرى من الكوارث التى ستصيبه باستمرار الحرب مدة أخرى ، طلبت الحكومة اليابانية منذ بضعة أسابيع من الحكومة السوفيتية عندما كانت علاقة الحياد بينهما سائدة ، أن تسعى فى اعادة السلم بين اليابان والدول المعادية لها · وقد فشلت ــ لسوء الحظ ــ هذه الجهود التى بذلت فى سبيل السلم ·

وطبقا لرغبة صاحب الجلالة الامبراطور فى اعادة السلم العام و ·· و ·· قررت الحكومة اليابانية ما يأتى :

ان الحكومة اليابانية مستعدة لقبول الشروط التى وردت فى التصريح المشترك الذى أصدره رؤساء حكومات الولايات المتحدة فى ٢٦ يوليو مع العلم بأن هذا التصريح لا يشتمل على طلب ما يضر بحقوق جلالته كحاكم صاحب سيادة ·

وتأمل الحكومة اليابانية أملا صادقا فى ان يكون هذا التفاهم جيدا وهى شديدة الرغبة فى أن يذاع بسرعة دليل واضح على ذلك ·

وكان نداء بوتسدام قد أشار الى اجتماع رئيس للولايات المتحدة ، ورئيس الحكومة الوطنية للجمهورية الصينية ، ورئيس وزراء بريطانيا العظمى ؛ والى أنهم ــ الثلاثة ــ وافقوا على أن يمنحوا اليابان فرصة لانهاء الحرب بشروط فى مقدمتها ، أن تتخلص اليابان نهائيا من نفوذ وتأثير أولئك الذين خدعوها وأساءوا قيادة الشعب اليابانى بدفعه الى غزو العالم ، وأن سيادة اليابان ستقتصر على جزر هونشو ، وهوكايو ، وكيوشو ، وشيكوكو وما شابه ذلك من الجزر الصغيرة التى تختارها ·

وبعد أن يتم تجريد القوات اليابانية خارج اليابان المسلحة من السلاح يسمح لها بالعودة الى بلادها على أن تستخدم فى الحياة السلمية المنتجة ·

ويسمح نداء بوتسدام لليابان بصيانة مصانعها وحياتها الاقتصادية وترميمها على أن يستثنى من ذلك المصانع الحربية ؛ وسيسمح لليابان باستئناف علاقاتها التجارية مع العالم ، على أن تنسحب قوات الاحتلال المتحالفة بمجرد تحقيق هذه الأهداف ·

وتقام فى اليابان حكومة مسئولة مسالمة يرتضيها الشعب اليابانى·

وهذه القنابل فى شكلهـا الحالى تصنع الآن وهناك أنواع أخرى أقوى منها يجرى العمل فى تحسينها ٠

وقال مستر كلمنت اتلى رئيس الوزارة البريطانية فى بيان أصدره من رقم ١٠ دوننج ستريت ان مشكلة اطلاق النشاط عن طريق انقسام الذرات الدقيقة قد حلت وقد ألقى ســلاح الطيران الأمريكى قنبلة ذرية على اليابان ٠

وكان ترومان قد أعطى : بعض التفصيلات عن الدور الذى لعبتــه بريطانيا فى هذا النجاح العلمى العجيب الذى ظهرت «الآن» نتائجه المثمرة فقبل تعديل الحكومة أعد مستر تشرشـــل بيانا ذكر فيه الأبحاث التى جرت فى الجامعات البريطانية وعلى الأخص فى جامعـــات اكسفورد ، وكمبردج ، ولنـــدن ، وليفربول ، وبرمنجهـــام ، وتولت وزارة انتاج الطائرات تنسيق العمل معتمدة فى ذلك على مشورة نخبـــة من العلماء يرأسها مستر جورج طومسون ٠

وكان وزير الحربية الأمريكية قد ذكـر أن ١٢٠٠ طائرة محملة بالقنابل المتفجرة والمحرقة حشدت الآن ضد اليابان وســتقوم قوات مدمرة بمهاجمة جزر اليابان فى موجات قوامها ٤٠٠٠ طائرة يوميا وتلقى نحو ٢٧٠٠٠٠ طن من القنابل شهريا على الأهداف اليابانية ٠

وفى نفس اليوم (١٩٤٥/٨/٦) أغارت أكثر من ٥٨٠ قلعة طائرة ضخمة على مصانع أوبى وضربتها بنحو ٣٨٥٠ طنا من القنابل ٠

وأوبى مركز صناعى هام تقع على بحر اليابان الداخل ويبلغ عدد سكانها ٨٣٠٠٠ نسمة ٠

وتم ــ فى هذا اليوم أيضا ــ اغـراق ٢٢ سفينة يابانيــة كبيرة و ١٥ سفينة يابانية صغيرة ٠

وقوى الاعتقاد فى الولايات المتحدة ان الحرب اليابانيـــة ستضع أوزارها خلال العام الحالى ١٩٤٥ أو الشهور الأولى من العام القادم ١٩٤٦ ٠

وربما كانت هذه التكهنات لم تضع فى اعتبارها الخسائر المادية التى أحدثتها القنبلة الذرية التى ألقيت فى هيروشيما ٠

ثم ظهر فيما بعد ــ بعد ساعات قلائل ــ ان القنبلة الذرية قد قلبت الأوضاع الاستراتيجية رأسا على عقب ٠

وأطلق البعض على القنبلة الذرية « معجزة العصر » وقيل أن حجمها لا يزيد على حجم البيضة وأنها ـ القنبلة الذرية ـ تستطيع أن تدمر مدينة يسكنها ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة .

وقال مستر اتـلى : لو ألقى الألمان قنبلتين ذريتين على لنـدن ، لزالت من الوجود . ووصف اختراع القنبلة بأنه أعظم اختراع فى تاريخ الحرب ، بل فى تاريخ الانسانية جمعاء .

وقال أحد علماء الطبيعة فى جامعة أكسفورد : ان الانسان باكتشافه هذا الاختراع قد امتلك عنان القوة التى تجعل الشمس متقـدة وقد سخرها لأغراض مدمرة تدميرا مخيفا وأطلق هذا العالم على العصر الذى نعيشه ، عصر القوة الذرية .

وقال ناطق بلسان الفاتيكان : ان اعلان نبـأ استخدام القنبلة الذرية قد أحدث أثرا أليما فى نفس البابا واعتبرت الدوائر المسئولة فى الفاتيكان ان القنبلة الذرية خطوة أخرى فى سبيل اسـتخدام وسائل التدمير بدون تمييز .

وفى ٨ أغسطس ١٩٤٥ أعلن الاتحاد السوفييتى الحرب على اليابان بسبب رفض اليابان الاستسلام لتقصير أمد الحرب وتقليل عدد الضحايا والمعاونة على التعجيل باستعادة أوضاع السلم العام .

وألقيت قنبلة أخرى فى نجازاكى فى ٩ أغسطس وارتفعت أعمدة الدخان ٢٠ ألف قدم فى الجو .

وبدأت القوات الروسية تغزو كوريا وتواصل التوغل فى منغوليا مستخدمة أكثر من مليون جندى سوفييتى .

وفى ١٠ أغسطس أعلن راديو طوكيـو أنه ينتظر اذاعة شـديدة الوقع فى النفوس وقال ان هذه الاذاعة عبارة عن رسالة ينتظرها العالم الذى أنهكته الحرب بفارغ الصبر .

ثم أذاعت وكالة الأنباء اليابانية ان اليابان مستعدة لقبول شروط التسليم التى أعلنها مؤتمر بوتسدام مع العلم بأن التصريح لا يشمل طلبا يمكن أن يضر بحقوق صاحب الجلالة الامبراطور بوصفه حاكما صاحب سـيادة .

وقد أرسلت الحكومة اليابانيـة مذكرة بهذا المعنى الى حكومتى سويسرا والسويد لتبليغها الى الولايات المتحدة وبريطانيـا والصين والاتحاد السوفييتى .

ونعود الى الوراء قليلا ــ لمجرد العظة ــ فنذكر أن حادثة كانت قد وقعت بين القوات الصينية واليابان بالقرب من بكين فى ٧ يوليو ١٩٣٧ أفضت الى احتلال اليابان للعاصمة الصينية القديمة ٠

وفى ١٢ نوفمبر ١٩٣٧ احتلت اليابان ميناء شنغهاى الصينى ٠

وفى ١٧ سبتمبر ١٩٤١ هاجم اليابانيون ميناء بيرل الأمريكى ٠

وفى ١٥ فبراير ١٩٤٢ استولى اليابانيون على سنغافورة واجتاحوا سيام والملايو وجزر الهند الشرقية وبورما ٠

وفى ٩ مارس ١٩٤٢ سقطت رانجون فى أيدى اليابانيين ٠

ثم بدأت عجلة الحرب اليابانية تتراجع عندما استولى الأمريكيون ــ فى يناير ١٩٤٤ ــ على جزر مارشال وهذه أول مرة يتم فيها غزو الأرض اليابانيـــة ٠

وفى يونيـــو ويوليو ١٩٤٤ اســتولت قوات الجنرال أرثــر على سيبان وجوم ٠

وفى أكتوبر ١٩٤٤ نزلت الجنود الأمريـــكية فى الفلبين بعد أن هزمت القـــوات اليابانية فى معركة بحرية اســـتمرت ثلاثة أيام فى بحر الفلبين ٠

وفى مايو ١٩٤٥ استردت القوات البريطانية رانجون ٠

وكما سبق أن ذكرنا تطورت الأمور فى جبهات الحرب لصالح الحلفاء وجند اليابان الى أن أعلن راديو طوكيو وقف جميع الأعمال الحربية فى كل جبهات القتال ٠

وأسند الى الجنرال ماك آرثر منصــب القــائد العام لقوات الاحتلال المتحالفة فى اليابان ٠

أما الميكادو هيروهيتو ، امبراطور اليابان الثامن والعشرون بعــــد المائة ، وكان وقتذاك فى الرابعة والأربعين من عمره فقد كان ــ من الناحية النظرية ــ الها للشعب اليابانى ، كما أنه كان أغنى رجل فى العالم ، لأنه يملك اليابان كلها ٠

والميكادو لا يلبس أى ثوب مرتين ·

وتحفظ ملابسه لتبقى ميراثا للأسرة المالكة ·

وقلما يظهر الميكادو أمام رعاياه ·

واذا حدث وأراد السفر الى جهة ما ، غطيت نوافذ القطار بالستائر حتى لا يراه أحد ·

واذا تجول فى الشوارع بسيارته آخليت الادوار العليا من السكان ·

ولم يؤخذ للميكادو آيه صورة الا الصور الرسمية ، وهو الحاكم المطلق فى اليابان ولكنه فى الواقع لا يملك سلطة مباشرة ، انه معبود اليابان وموضع تقديسها ·

وقد راحت حكومة اليابان تدرس الشروط التى عرضها عليها الحلفاء ·

وفى ١٤ أغسطس قبلت اليابان شروط الحلفاء ، وأعلن مستر كلمنت اتلى رئيس الوزارة البريطانية نبأ التسليم النهائى لليابان · وأطبق الجيش الأحمر على عاصمة منشوريا وذلك عن طريق « هسنكنج » وأمر الجنرال ماك أرثر بوقف القتال ، وأذاع الميكادو — على غير العادة — رسالة الى الشعب أعلن فيها قبول البلاغ النهائى الذى أصدره مؤتمر بوتسدام ·· وقد جاء فى رسالة الامبراطور :

« الى رعاياى الصادقين المخلصين ، بعد تفكير عميق فى سير الأمور فى العالم بوجه عام ، وفى الأحوال الواقعة فى امبراطوريتنا اليوم ، قررنا تسوية الموقف الحالى بالالتجاء الى تدبير غير عادى وقد أمرنا حكومتنا بأن تبلغ حكومات الولايات المتحدة وبريطانيا والصين وروسيا ، ان امبراطوريتنا قبلت نصوص التصريح المشترك ·

وقال الامبراطور هيروهيتو : ان السعى والاجتهاد فى سبيل رخاء الأمم وسعادتها وكذلك العمل لتحقيق الأمن والرفاهية لرعايانا هو التعهد الصريح الذى ارتبط به أجدادنا الأباطرة · والحقيقة اننا أعلنا الحرب على أمريكا وبريطانيا عن رغبة خاصة فى ضمان الاحتفاظ بحقوقنا وايجاد الاستقرار فى شرق آسيا ، ولم يدر بفكرنا قط ان نعتدى على استقلال أمم أخرى أو التوسع فى الأراضى ·

على ان الحرب قد دامت الآن نحو أربع سنوات ، وعلى الرغم من أن كل فرد قد عمل أقصى جهده ، فقاتلت القوات الحربية والبحرية

ببسالة ، وجاهد موظفونا في الدولة . وخدم الملايين من شعبنا باخلاص ، فقد تطور الموقف الى حالة ليست بالضرورة في مصلحة اليابان ، وفي الوقت نفسه أصبح الاتجاه العام في العالم ضد مصالحها .

وعلاوة على ذلك شرع العدو في استخدام قنبلة جديدة على أعظم جانب من القسوة وهي قنبلة تحدث من العطب مالا يمكن تقديره وتذهب بأرواح الكثير من الأبرياء ، فاذا واصلنا القتال فلن ينتهي فقط بالسقوط النهائي ويمحو الأمة اليابانية ، بل سينتهي أيضا بمحو الحضارة الانسانية ويمضي الميكادو — امبراطور اليابان — في رسالته الحزينة الشجاعة قائلا : وبما أن الحالة كما وصفنا ، فكيف نستطيع انقاذ الملايين من رعايانا ، وكيف نكفر عن أعمالنا أمام أرواح أجدادنا الأباطرة ؟ هذا هو السبب الذي جعلنا نأمر بقبول تصريح الدول المشترك ، ولا يسعنا الا أن نعرب عن أسفنا الشديد للأمم المتحالفة لنا في شرق آسيا التي لم تكف عن معاونة الامبراطورية في تحرير آسيا » .

كانت رسالة الامبراطور هيروهيتو الى شعبه والى العالم كله تتسم بالجرأة والشجاعة بما يتفق وتقاليد اليابان العريقة .

فلم يعتذر مثلا — عن حرب خاضها .

ولم يركع أمام الغزاة الفاتحين المنتصرين كما ركع أقطاب النازية والفاشية ، ثم لم يشأ أن يغمط حق أبنائه رجال القوات المسلحة اليابانية والشعب الياباني وتضحياته الباسلة في سبيل الحرب .

ولم ينسأ الامبراطور — وتلك شجاعة منه كبرى — في هذا الوقت العصيب ان يتخلى عن الشعوب التي تحالفت مع الشعب الياباني من شعوب شرق آسيا .

وفي نفس الوقت — وبكبرياء ياباني سام وعال — أكد الامبراطور أن السبب الرئيسي في هزيمة اليابان استخدام القنابل الذرية التي تحدث من العطب مالا يمكن تقديره وتذهب بأرواح الكثير من الأبرياء .

وبعبارة موجزة ، كان تسليم الحكام اليابانيين — عكس تسليم حكام الشعب الألماني — بكبرياء وشرف ، وكان الاتحاد السوفييتي قد انتهز فرصة هزيمة اليابان أمام القوات البريطانية والأمريكية فأعلن استمرار القتال — رغم اعلان اليابان التسليم — الى ان يسلم اليابانيون أسلحتهم فعلا .

وقالت القيادة السوفييتية ـ الجنرال انطونوف رئيس أركان حرب الجيش السوفييتي ـ ان القوات اليابانية لم تتلق بعد الأوامر بوقف الأعمال الحربية وكذلك ليس هناك تسليم في الحقيقة من القوات اليابانية ، وتسليم اليابان يعتبر نافذا فقط من اللحظة التي تلقى فيها القوات اليابانية سلاحها بأوامر مباشرة من الامبراطور .

وقد بكى الأسرى اليابانيون بكاء مرا عندما سمح لهم بسماع خطاب الامبراطور .

وقال كانتارد سوزوكى رئيس الوزارة اليابانية فى رسالة وجهها الى الشعب اليابانى : ان اليابان خسرت الحرب لأن العدو استعمل قنبلة من نوع جديد .. !! وأن اليابان ستواجه مستقبلا شاقا ولكنها ستفتح طريقا جديدا فى المستقبل . وأننا سنواجه الموقف وواجبنا الآن هو الدفاع عن سياستنا القومية .

وذكر رئيس الوزراء أن الامبراطور لا يرغب فى جعل بلاده أرضا محترقة ، ونحن اليابانيين ليس لنا الا أن نبكى ونعتذر للامبراطور والامبراطور لا يعنف الشعب على الرغم من فشله فى الحرب .

وقال سوزوكى : انه اجتهد فى الوصول الى الصلح بطريق روسيا ، ولكن هذا السعى انتهى بالفشل باعلان روسيا الحرب على اليابان وبذلك ضاع كل أمل وكان لا مناص من قبول تصريح بوتسدام .

ثم قال رئيس الوزارة : ان العطب العظيم الذى أحدثته القنبلة الذرية غير مجرى الحرب تغييرا تاما .

وبالرغم من كل ذلك أعلن راديو موسكو أن الجنود اليابانيين لا يزالون يقاتلون ولم يبلغوا بعد ـ ١٧ أغسطس ـ أوامر بوقف القتال .

وشكل الامبراطور وزارة جديدة برئاسة البرنس ناروهيكو هيجاشى كوتو ، وأصدر الامبراطور أمرا امبراطوريا الى ضباط وجنود الجيش اليابانى يطالبهم فيه بالاحتفاظ بوحدتهم المتينة وبنظامهم الدقيق فى أثناء حركاتهم الاستسلامية .

وهكذا أثبت اليابانيون أنهم شعب نظامى فى الحرب وفى الهزيمة أيضا .

وأعلن أن وزير الحربية اليابانية لورتسيكا اناتى قد انتحر .

وكان أول انتحار عقب تسليم اليابان ، وان كان لايعرف عدد الذين انتحروا داخل اليابان من اليابانيين أو خارجها من اليابانيين أيضا ، لأن الهزيمة كانت مرة للغاية على كل يابانى ·

والانتحار من الأمور المألوفة عند اليابانيين وخاصة العسكريين منهم عندما لا يتحقق لهم النصر الذى وعدوا به الامبراطور ·

وأعلن أيضا عن وصول مندوبى اليابان الى مانيلا قادمين من طوكيو بعد أربع ساعات و ١٧ دقيقة من الطيران فى طائرة يابانية محروسة بقاذفات قنابل ميتشل وطائرات مقاتلة وكان من بين أولئك المندوبين اللفتنانت جنرال كاوامى ناكاشيما نائب رئيس أركان حرب الامبراطورية اليابانية وناتسيو أوكوساكى رئيس قسم الأبحاث بوزارة الخارجية اليابانية ، وماريو أوكاوا بوزارة الخارجية ، وعدة ضباط برتبة كولونيل .

وكان الجنرال كاوامى يرتدى بدلة خضراء داكنة اللون ، ورباط عنق أسود وفى نطاقه سيف ضخم وقد وضع على رأسه قبعة خضراء ، وفى قدميه حذاء أسود طويلا غير لامع ، وكان الكثيرون من اليابانيين بدون أربطة للرقبة ، ووضع أحدهم منديلا أبيض اللون حول رقبته ، وارتدى المدنيون بدلات بيضاء ·

وقد حيا رئيس المندوبين اليابانيين الكولونيل دوسون الأمريكى وهو من ضباط أركان حرب الجنرال آرثر ·

وكان الوفد اليابانى يسير وعليه سيماء الكمد الى السيارات التى كانت تنتظرهم خارج المطار ·

وفى دار صغيرة فى ديوى بوليفارد بمانيلا أعطبتها الحرب ، أقام الوفد اليابانى ·

ومن هذه الدار كان اليابانيون يستطيعون أن يروا منظر ميناء المدينة البديع والأسطول الأمريكى الهائل الذى لا يزال راسيا ومستعدا للعمل الى ان يتم التوقيع على وثائق التسليم ·

وقيل ان اليابانيين الذين وصلوا للتمهيد للتسليم ، قد طلبوا عند دخولهم دار البلدية فى مانيلا أن يسمح لهم بأن يحملوا مسدساتهم فى غرفة الاجتماع ، ولكن طلبهم هذا رفض ·

وقد سمح لهم ان يحتفظوا بأوسمتهم ونياشينهم ·

وقد وقف اللفتنانت جنرال ريتشارد سندرلند رئيس أركان حرب

الجنرال ماك أرثر وقفة عسكرية (زنهار) عند وصول الوفد الياباني داخل غرفته ، وقد وقفوا جميعا صفا واحدا أمامه وراح المترجم يقـدمهم واحدا واحدا ٠٠ فينحنى كل واحد يتم تقديمه أمام الجنرال سندرلند وهو ـ سندرلند ـ يرد التحية بهز رأسه ٠

وبعد الانتهاء من تقديم أوراق الاعتماد صدرت الأوامر الى كبار المندوبين اليابانيين بأن يتبعوا الجنرال سندرلند الى اجتماع يعقد فى غرفة المجلس الأعلى ، وجلس المندوبون الستة فى غرفة الاجتماع الى مائدة طويلة سوداء مواجهين فى جلوسهم الضباط الأمريكيين ، وكان وصولهم الى تلك المائدة بعد ثلاث ساعات فقط من وصولهم الى المطار ٠

وجـرى الحديث مع المندوبين الأمريكيين والمندوبين اليابانيين فى اجتماعين خصصـــا لهذا الغرض حول الوســـائل التى ستتبع لتنفيذ الاحتـــلال ٠

وقد أبلغ اليابانيون ان الجنرال ماك أرثر سوف يكون القائد العام لقوات الحلفاء فى اليابان ٠

وبدأت ـ بعد اعلان تسليم اليابانيين ـ تظهر أولى نتائج قنبلتى هيروشـــيما ونجازاكى ـ بصفة رســـمية ـ لقد قتلت القنبلتين حتى ٢٢ أغسطس ١٩٤٥ ـ سبعين ألف يابانى وجرحت ١٢٠ ألف ٠

ونقول حتى ٢٢ أغسطس ١٩٤٥ ، ذلك لأن عدد القتلى كان يزداد يوما بعد يوم : بينما كان ضحايا قنبلة نجازاكى وحدها ـ وأيضا حتى ٢٢ أغسطس ١٩٤٥ ـ عشرة آلاف قتيـل و ٢٠ ألف جريـح ٠٠ وهذا الاحصاء غير دقيق ـ كما قالت الجهات اليابانية الرسمية ـ لأن الكثيرين من المصابين يموتون فى كل يوم من تأثير الحروق التى أصابتهم ٠

كما أنه لم تستخرج جثث كثيرة حتى الآن ـ ٢٢ أغسطس ١٩٤٥ـ من تحت الأنقاض ، وقد أصبح فى هيروشيما أكثر من مائتى ألف نفس وفى نجازاكى أكثر من ٩٠ ألف نفس بغير مأوى ٠

ومضت الوكالة اليابانيـــة للأنباء تقول : وكثيرون ممن أصيبوا بحروق لايستطيعون البقاء على قيد الحياة بسبب ما تحدثه القنبلة من التأثير السيىء على الجسم ٠

وقد ظهر أولا على الذين أصيبوا بحروق صغيرة أنهـــم فى صحة جيدة ، ولكنهم ضعفوا بعد أيام قليلة لسبب مجهول ومات الكثيرون منهم ٠

وحتى ٢٧ أغسطس ١٩٤٥ كان الروس لا يزالون يواصلون زحفهم مستغلين فرصة تسليم اليابان ٠

وواصلت القوات الأمريكية نزولها فى الجزر اليابانية ، واستسلم الشعب اليـابانى لقضـــائه وقدره ، على أنه قد لوحظ أنه استســلم للأمريكيين وللانجليز ٠

وأنه كان يرفض ـ حتى بعد اعلانه قرار التسليم ـ التســـليم للسوفييت الذين دخلوا الحرب ـ كما يقول بعض اليابانيين ـ لكى يجهزوا على الجريح ٠٠!!

وعلى ظهر البارجة الأمريكية ميسورى الراسية فى ميناء طوكيو ٠ وقعت وثيقة استسلام اليابان ٠

وألقى الجنرال ماك أرثر القائد الأعلى لقوات الحلفاء خطابا قال فيه: انى أعلن بأن غرضى الثابت بحسب تقاليد البلدان التى أمثلها هو ان أسير فى مباشرة مسئولياتى بروح العدل والتسامح مع اتخاذى فى الوقت ذاته جميع التدابير اللازمة للتحقق من أن شروط التســليم تنفذ ويعمــل بها كاملة وبسرعة واخلاص وبمنتهى الدقة ٠

واذا كنا قد اجتمعنا هنا نحن ممثلو كبريات الدول المحاربة لعقد اتفاق محترم يعاد بمقتضاه السلم الى نصـــابه ، فالقضايا المنطوية على آراء وعقائد متباينة قد تقررت فى ميادين القتال العالمية ٠

ولذلك فلم يبق من مجال لبحثها أو مناقشتها هنا ، كما أنه لا يتفق مع مكانتنا أن نجتمع هنا ونحن نمثل ـ كما هو شأننا ـ أكثرية شعوب الأرض ، بروح عدم الثقة والحقد والكراهية ، بل الأحرى بنـــا غالبين ومغلوبين على الســـواء أن نسمو الى ذلك المقام الأعلى من الكرامة الذى يعود وحده بالفائدة على الأغراض المقدســـة التى نحن على وشـــك أن نحققهـــا ٠

وقال ماك آرثر :

لقد عهد الينا بمقتضى تصريح بوتسدام أن نحرر الشعب اليابانى من العبودية وأن يتصدى هو لتنفيذ هذا الأمر بمنتهى السرعة ٠

وستتخذ تدابير أخرى ضرورية لشل نشاط اليابانيين الحربى ٠

ان الحرية تتخذ الآن خطة الهجوم ، وقد أظهر الأمريكيون فى الفلبين ان شعوب الشرق والغرب تستطيع ان تسير جنبا الى جنب فى احترام متبادل ولمنفعة متبادلة .

وقال ماك آرثر فى نهاية كلمته .. فلنأمل ان يعود السلم الآن الى العالم .

ولنضرع الى الله بان يصونه دائما .

وكان الجنرال ماك آرثر قد دعا المندوبين اليابانيين للتوقيع على وثيقة التسليم ، وبعد توقيعها ، تقدم الجنرال ماك آرثر بنفسه فوقعها .

ومن ثم نودى على ممثلى الحلفاء واحدا فواحدا للتوقيع : بعد الولايات المتحدة ، الصين . وبعد الصين ، بريطانيا العظمى . فالاتحاد السوفييتى ، فاستراليا ثم كندا وفرنسا ثم هولندا ونيوزيلندا .

وأدلى الأميرال سيستر بينمنتز القائد الأعلى للأساطيل المتحالفة فى الباسيفيكى ببيان قال فيه : ان النضال الطويل القاسى الذى بدأته اليابان غيلة وغدرا فى ٧ ديسمبر ١٩٤١ قد انتهى ، فقد قاتلنا متحدين وتغلبنا .

والآن نتحول الى مهمة اعادة التعمير والاصلاح العظيمة ، وانى لواثق بأننا سنتمكن من ان نطبق عليها ما طبقناه على مشكلة كسب النصر من الاتحاد وسعة الحيلة ودقة التفكير .

وأعلن الامبراطور فى منشور جديد أنه على جميع أفراد الشعب ان يوقفوا القتال حالا وان يلقوا أسلحتهم وان ينفذوا بأمانة جميع ما تنص عليه وثائق التسليم والأوامر العامة الصادرة من مقر القيادة اليابانية الامبراطورية .

وفى ٩ سبتمبر ١٩٤٥ دخل ماك آرثر طوكيو ..

وأعلن عن انتحار خمسمائة ضابط يابانى بعد انتهاء حفل كوكتيل أقيم فى سنغافورة للوداع بعد ان أذيع نبأ استسلام اليابان .

وكان أول احتجاج رسمى لليابان على الاتحاد السوفييتى فى ١٠ سبتمبر بسبب حوادث السلب والنهب والاعتداء على الأعراض والفظائع الأخرى التى ارتكبها الجيش الأحمر . كما جاء فى نص

الاحتجاج الذى قدمته الحكومة اليابانية لدى قيادة الحلفاء ولدى الحكومة السوفيتية » ٠

وأعلن عن انتحار الجنرال هيوكى توجو الذى كان رئيسا للوزارة اليابانية فى الوقت الذى هاجم فيه اليابانيون بيرل هاربر ٠

وقد أطلق توجو النار على نفسه من مسدس كان يحمله عندما جاء ضباط الأمن الأمريكيون لاعتقاله فى داره بسوجاماشى الواقعة فى ضواحى طوكيو ٠

وقال الطبيب الذى عالجه بأنه قد لايموت ، ثم عاد بعد فترة يعلن أنه ليس من المستطاع انقاذ حياته ٠ وظهر أن الرصاصة اخترقت جسمه اختراقا تاما ٠

وكان الجنرال قد فتح نافذته الكبيرة مرتين قبل ان يطلق النار على نفسه ، وابتسم ابتسامته الفولاذية وقال : أنا توجو ٠

ثم أقفل النافذة بشدة ، ولكن أحد المصورين استطاع التقاط صورته بسرعة وهو فى النافذة ٠

ولما تقدم الضباط الأمريكيون وبعض مراسلى الصحف نحو الباب الخارجى سمعوا طلقا ناريا فبادروا الى كسر الباب الخارجى ودخلوا الصالة ثم اضطروا الى كسر باب آخر ، ولما دخلوا الغرفة وجدوا توجو ملقى على كرسى كبير والدم ينزف بغزارة من جرح فى الجهة اليسرى من صدره تحت القلب مباشرة ٠

وكان على مقربة منه منضدة وعليها مديتان حادتان ملفوفتان فى قماش أبيض ٠ والظاهر أنه لم يجد متسعا من الوقت للانتحار بالطريقة اليابانية المعروفة ٠

وكان الجنرال ماك أرثر قد أصدر أمرا باعتقال الجنرال توجو ٠٠

وقال راديو طوكيو ، آن الجنرال توجو قال بعد ان أطلق النار على نفسه : انى آسف لشعوب شرق آسيا الكبرى وانى أتحمل المسئولية كلها ، ان الحرب فى شرق آسيا كانت عادلة فلما نفدت جميع قوانا سقطنا فى النهاية ٠

ولم أرد ان أقف أمام المنتصر لكى أحاكم كشخص مغلوب ٠

وقد أردت أن أقتل نفسى بضربة واحدة وفكرت أولا فى استعمال سيفى ولكنى استعملت مسدسى خشية ان أفشل فأبقى حيا ٠

ثم طلب توجو قدحا من الماء وتمتم والقدح عند شفتيه ثم قال : أشعر بأني في حالة حسنة ، أشعر بأني في حالة حسنة .

وكان توجو قد كتب رسالة قبل ان ينتحر جاء فيها : لقد أطلقت الرصاص على نفسي في الصـــدر بدلا من الرأس لأني أردت أن يتعرف الشعب الياباني على تقاطيع وجهي ويعلم أنني أقدمت على هذه التضحية واختتم توجو رسالته بكلمتي : يعيش الامبراطور .

وقد أجريت لتوجو عملية نقل دم في مستشفى ميدان في يوكوهاما، وبذل الأطباء الأمريكيون جهـودا شـــاقة ومضنية لانقاذ حياة عدوهم اللدود توجو .. !!

وقد قيل أنه نام نوما جيدا وتناول طعام الفطور في الصباح بعد يومين رفض فيهما تناول أي شيء .. !!

وأذيع نبأ انتحار سبكا هيكو كوتيرومي وزير الشـــئون الاجتماعية في وزارة الجنرال توجو .

وكان اسمه السادس في قائمة مجرمي الحرب .

كما انتحر أيضا الجنرال أوشيروكوا الذى كان قائمـا بأعمـال رئاسة هيئة أركان حرب الجيش الياباني بأن أطلق الرصاص على قلبه في مقر القيادة العسكرية العامة .

كما انتحر أيضا كونهيلوا هاشيدا وزير المعارف اليابانية في وزارة توجو ـ أيضا ـ بعد ان تناول السم في داره .

وكان اسمه السابع في قائمة مجرمي الحرب . وكان خامس كبار اليابانيين الذين أقدموا على الانتحار وثالثهم في خلال أربع وعشرين يوما بدأت في ١٤ سبتمبر ١٩٤٥ .

وقد علق الجنرال ماك ارثر على بعض نفـاد الصبر الظـاهر في الصحف بسبب افتراض ما سمي بالسياسة الناعمة نحو اليابانيين بقوله: ان شروط التسليم ليست ناعمة وسوف لا تنفذ بطريقة القفاز الأملس وان رحلة الاحتلال العسكرى تجرى بطريقة موجبة لتمام الرضا ، فان أكثر من نصف قوات العدو الموجودة في اليابان ذاتها قد سرحت الآن .

والبرنامج بكامله يكون تاما قبل منتصف أكتوبر ولا حاجة بأحـد لأن يخامره أي ريب في شـــأن تنفيـــذ شروط التســـليم كلها تنفيذا حازما كاملا .

ان اليابان قد انتهت واضمحلت تماما اقتصاديا وصناعيا كما هو شأنها عسكريا ٠

وهي في حالة انهيار كامل ٠

وانه من الصعب فوق العادة على في بعض الأوقات أن أبدى تلك الدرجة من الصبر التى لا مشاحة أنها تلزم اذا كانت السياسات البعيدة التى تقررت يجب أن تنفذ بنجاح خشية حدوث رد فعل يكون منه ضرر على صبر العالم ٠ انى ـ ماك آرثر ـ أضبط نفسى بقـــدر طاقتى وانى مرتاح بوجه عام للتقدم الذى يجرى » ٠

وكانت جريدة البرافدا السوفينيـة قد حذرت من دعـاة الحرب اليـابانيين قائلة : انهـا رعـونة لاتغتفر ان اعتقـدت الدول المنتصرة ولو للحظة عابرة بصحة المناورات اليابانية الخداعة ٠

وقد تساءل أوتوليسيوس الخبير الامريكى فى الشئون اليابانيـة عما اذا كان الحلفاء قد أخطأوا فى الابقـــاء على العاهل اليابانى كملك مستقل ؟ وقد ذكر فى بحث ممتع له أن اليابانيين يعبدون عاهلهم كجزء من ديانة الشنتو ـ الدين القومى لليابان ـ وان الحكومة اليابانية تعتبر هذه الديانة واجبا يخضع لفروضه جميع الأديان ٠

وذكر ان الأمبراطور هو أساس الدولة اليابانية بأسرها ، وجميع النظريات التى تقوم عليها ، وهو جوهر النظام الفاشيستى الخاص الذى يسود اليابان ٠

ويعد الامبراطور العائق الأكبر الذى يحول دون تطور الديمقراطية اليابانيـــة والذى يحتمى وراءه طبقات العسكريين ورجال الصـــناعة اليابانيين الذين يسيطرون على جميع أراضى الامبراطورية ٠

وفوق هذا فان الامبراطور هو مصـــدر ذلك التعصب الأعمى الذى يسيطر على عقلية اليابانيين ٠

كما أنه الملهم لسياسة اليابان للغزو والفتوحات ، تلك السياسة التى بلغت ذروتها ابان هذه الحرب عندما شنت اليابان هجومها لغزو بقية أرجاء العالم ، وتنصيب امبراطورها امبراطورا على العالم بأسره ٠

وعلى هذا فانه مادام الامبراطور على قيد الحيـــاة ، وطالما ان عبادته لازالت مستمرة فان سياسة اليابان المقدسة لفتح العالم والسيطرة عليه باقية ، ذلك لأن هذه الرسالة تعد بمثـابة جزء رئيسى من الخرافة التى

تقوم عليها عبادة الامبراطور ، ومن ذلك يتحقق أنه لا الهزيمة المؤقتة ولا التحول الزائف سيقضيان على هذه الرسالة القضاء النهائى ٠

ويقول الخبير الأمريكى ان شنتو ديانة تفتقر الى النظرية والأساس والخلق لأنها لاتفرق بايضاح بين الخير والشر وتترك هذه الديانة لليابانيين مطلق الحرية فى السير فى الطريق الذى يخدم مصالحهم مستخدمين الوسائل التى توصلهم الى غاياتهم ٠

وتلقن هذه الديانة اليابانيين أنهم وجزرهم قد ولدوا من الآلهة وأنهم على صلة قرابة بالآلهة ، أو بعبارة أخرى « عائلة مقدسة تتفرع من السماء وتسكن فى أرض الاله وهى جزء من امتداد السماء » ٠ وتفرض ديانة شنتو على اليابانيين الطاعة والولاء : طاعة رب الأسرة التى تحولت على مر الأيام الى طاعة زعيم القبيلة ، ثم تطورت هذه الطاعة بدورها الى الولاء والطاعة العمياء التى يشعر بها اليابانى نحو رئيس الأسرة الوطنية اليابانية أو الامبراطور ٠

ويمضى الخبير الأمريكى فى دراسته قائلا : ان اليابانيين كأرجال النحل أو النمل ، لا يقدرون تماما روح الفردية ، لذلك فانهم يعدون أنفسهم جزءا من النظام العام ٠

والامبراطور يحظى بما تحظى به ملكة النحل بين أرجال النحل ٠ والامبراطور ــ فى اعتقاد اليابانيين ــ من نسل اله الشمس وهى أعظم الآلهة اليابانية ، وقد أمرت آلهة الشمس نسلها بأن يحكموا الجزر اليابانية فى سلسلة متتابعة لا تنقطع لدى الأجيال السرمدية ٠

ومن الوثائق التى وجدت فى مكتب سجلات الجيش اليابانى تبين ان اليابان خسرت فى الحرب خمسة ملايين رجل بما فى ذلك المرضى والجرحى : خسر الاسطول مثلا : ١٩٧٫٠٠٠ قتيلا ، وخسر الجيش ٣١٠ ألف قتيل ، وقد دفن فى بورما ١٣٠٫٠٠٠ قتيلا تولى الجيش البريطانى الرابع عشر دفنهم والجدير بالذكر ان اليابانيين لم يعترفوا بخسارة أى جندى الا بعد اعلان أعدائهم أنهم دفنوه ٠٠ !!

وقالت الوثائق أيضا ٠٠ ان أكثر من نصف خسائر الجيش اليابانى كانت فى بورما ٠

وفى معركة أوكيناوا فقد اليابانيون ما يقرب من ٩٠ ألف جندى ٠

وفى الفلبين فقد اليابانيون مايقرب من ٣٠٫٠٠٠ ألف جندى ٠

وقد نقل على لسان يوشيهيشاكوزو رئيس جمعية التنين الاسود الذى بلغ من العمر ٧٢ عاما وكانت كلمته كالقانون يخضع لها الالوف من شباب اليابانيين المتحمس ٠٠ ان جمعية التنين الأسود التى يرأسها لا علاقة لها بحوادث القتل السياسى التى اتهمت بها تلك الجمعية ٠ وقال : ان ما ينسب الى جمعيته لا أثر له الا فى مخيلة الصـــحفيين وواضـــعى الشرائط السينمائية ٠

ورغم ذلك النفى الا أن كثيرين أكدوا ان الجمعية ـ جمعية التنين الأسود ـ مسئولة ـ مثـلا ـ عن قتل رئيس الوزارة هارا بعد معاهدة واشنطون ١٩٢٢ ، ومسئولة عن قتل رئيس الوزارة لينو كاى ,وكذلك عن قتل اينوى والكونت هاما جويهى والكونت دانا (١٩٣٢) ، الكونت سليتو ناكاباشى وواتافاى (١٩٣٦) ٠

وكانت جمعية التنين الأسود قد أبت التسليم بالهزيمة مؤكدة ان الجنس اليابانى هو سيد الأجناس وان الهدف الذى يرمى اليه كل صبى يابانى هو السيطرة على شرق آسيا ٠

ثم بعد ذلك السيطرة على العالم كله ٠

وقد دعت جمعية التنين الأسود أعضاءها القـــدامى وجميع ذوى العقول النقية من السكان الى كتابة رسالة امبراطورية بحروف من النار فى الزوايا البعيدة من الكون ٠

***

وقبل أن ننهى الحديث عن الحرب والقنبلة الذرية واستسلام اليابان نذكر ان العالم الايطالى لويس بوليارينى المقيم فى بيونس ايرس والذى أنفق أكثر من عشرين سنة فى دراسة تقسـيم الذرة قال : ان القنبلة الذرية ليست اختراعا حديثا فقد ثبت علميا ان رجال الدين من قدماء المصريين قد نصبوا فخاخا ذرية فى كثير من مقابر الفراعنة تسببت فى قتل كارنارفون وغيره من علماء الآثار الذين فتحوا مقبرة توت عنخ أمون ٠٠ ويرى أيضا لويس بوليارينى أنه يعتقد أن رجال الدين كانوا يضعون فى مقابر الفراعنة قبل اغلاقها مقادير صغيرة من الأورانيوم وعنصرا من العناصر ذات القوة الاشعاعية ، وكان هذا التركيب يقتـل كل من يحاول دخول المقبرة ويظل محتفظا بقوته مدة ألف سنة ، ثم يفقد قوته على مر الأجيال ٠

وقيل أيضـا ـ والحديث عن القنبلة الذرية ـ ان الفضـــل فى

اكتشاف تلك القنبلة يرجع الى رجل مات فى ١٩٣٥ ، وهو اللورد راذار فورد ، وبفضل أبحاثه فى تركيب الذرة استطاع الحلفاء أن ينتجوا القنبلة الذرية . وكان قد تخصص فى دراسة تكوين الذرة .

وكان للدكتور مصطفى مشرفة العالم المصرى العبقرى مساهمات فى البحوث العلمية العالمية فى تركيب الذرة وله أبحاث خاصة أشار اليها العلماء أمثال سير جيمس جينز . وسير أوليفر لودج فى مؤلفاتهم الأصلية عن الذرة وعن القنبلة الذرية ، وكان دكتور مشرفة بك قد قال : ان أول من قال بمقدار الطاقة المختزنة فى الذرة هو ألبرت أينشتين عام ١٩٠٥ فقد حسب أن الجرام الواحد من المادة تحتوى بواطن ذراته على ٢٥ مليون كيلو وات / ساعة أو ما يكفى لرفع درجـــة الحرارة لأكثر من مائتى ألف طن من الماء ـ من درجة الصفر الى درجة الغليان .

وقد شغل تركيب الذرة علماء الطبيعيات والرياضيات منذ أواخر القرن الماضى . وكان للأبحاث التى قام بها اللورد راذار فورد وأعوانه فى انجلترا ، أهمية خاصة فى الكشف عن أسرار العالم الذرية .

وكان هذا اللورد ـ راذار فورد ـ يستخدم الجسيمات المتبقية من عنصر الراديوم والتى تعرف باسم جسيمات « ألفا » كمقابل يطلقها على ذرات المواد فتهشم تلك الذرات ، ثم يدرس الكائنات التى تنتج عن هذا التهشم ، وبذلك توصل العالم الى اباحة الكتابة عن الأجزاء التى يتألف منها بناء الذرة .

ويمضى د . على مصطفى مشرفة بك عميـد كليـة العلوم وقتذاك ـ ١٩٤٥ ـ فيقول : وقد وجد ان هذه الأجزاء متشابهة فى الذرات المختلفة ، وهذه الأجزاء هى البروتون والاليكترون والنيـــوترون والديلون وبعض جسيمات أخرى شبيهة لها . وقد أدت التجارب الى امكان تحويل ذرات العناصر الى ذرات أخرى وبذلك تحقق حلم قديم للكيميائيين .. الا أن هذه الأبحاث ظلت محصورة فى دائرة أكاديمية ، كما أن كميات المواد المستخدمة فيها كانت ضئيلة بحكم طبيعة التجارب ، وكل بحث أكاديمى صائر يوما ما الى تطبيق عملى .

وقد ابتكرت وسيلة جديدة لتحويل المادة الى طاقة وليس هذا بغريب ، فالطاقة التى تصـــل الينا من الشـــمس منشؤها تحـول مادة الشمس الى أشعة .

وقد قدر ما يتحول من مادة الشمس فى الدقيقـة الواحـدة الى

أشعة هو ٢٥٠ مليون طن ولا يصل الينـــا منها الا جزء قليل من هذه الطاقة ، ولكن مجرد وصولها دليل على تحويل المادة الى طاقة ٠

والطاقة ـ كما يقول د ٠ مشرفة ـ كل حركة اما موجودة بالفعل أو بالامكان وجودها والماء الثقيل الذى يستعان به فى صنع القنبلة الذرية قد كشفه الأستاذ يورى ٠

وللذكرى أيضـــا نقول ان عالمنـــا الكبير د٠ مشرفة قد ذكر فى سبتمبر ١٩٤٥ ان استخدام الطاقة الذرية هو حدث اقتصادى وعمرانى ستكون له نتائجه ، فالقدرة الكهربائية التى يمكن تحويلهـا من خزان أسوان لا تزيد على نصف مليون كيو وات فلو استطاع العلم استخلاص ولو جزء صغير من هذه الطاقة الذرية لتضاءلت أمامها أضخم المشروعات الهندسية ٠

وبعد : هل اخطات عندما حرصت فى مذكراتى على أن اشير وفى بعض الأحيان اشارات موجزة الى بعض الأحداث الخطيرة التى وقعت وأنا داخل السجن كمواطن مصرى والمصريون جميعا داخل سجن كبير فرضت عليه الأحكام العرفية ؟ وأبادر الى القول الى أننى لو لم أفعل ذلك لكنت مقصرا للغاية فكل تلك الأحـداث التى وقعت فى عامى ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥ ـ بالذات ـ ساهمت الى حد كبير فى اعادة تشكيل جيل الأربعينات من جديد وبعد ذلك ننتقل الى القضية الكبرى الى محاكمة محمود العيسوى أخطر محاكمات القرن العشرين فى مصر من وجهة نظرى على الأقل ٠

● ● ●

الباب السادس

من أخطر المحاكمات فى التاريخ :
صراع عنيف أطرافه : رئيس محكمة عسكرية عليا نائب عام ، عميد كلية الحقوق ، محام قاتل

لم أر محمود العيسوى ــ قاتل أحمد ماهر يرحمه الله ــ وأنا فى السجن • وهو فى السجن أيضا الا مرة واحدة وفى مكتب عبد الرحمن الطوير باشا النائب العام ، عندما تمت عملية المواجهة بينه وبينى •

وكنت أتتبع أحواله فى سجن الاستئناف أو فى سجن الاجانب عندما انتقل اليه بعد أن أعلن اضرابه عن الطعام لسوء معاملته بضعة عشر يوما ، وكنت أعرف جيدا ، أية معاملة سيئة يعامل بها فى السجن بعكس سجن الاجانب حيث كانت المعاملة بكل أسف ــ طيبة للغاية ، انسانية الى أبعد الحدود ولست اريد أن أمشى وراء الشائعات التى كانت ترد الينا مع زملائنا المسجونين العاديين من المجرمين العتاة ، أو من عساكر السجون ، عندما كنا نلتقى بهم ، أو يلتقون فى الحبسخانة ، انما اكتفى هنا بوصفه عندما رأيته فى تلك المرة الوحيدة :

كان هيكلا عظميا يرتدى بدلة لم تتغير ابدا : كانت لا توجد له أظافر لأن أظافره كلها قد خلعوها من أصابعه •

ومع ذلك كنا نقرأ عن المعاملة الطيبة التى يعامل بها محمود العيسوى فى السجن ، كنا نبتسم فى سخرية موقنين بأنه اذا كانت كل أخبار الصحف كتلك التى كانت تنقل عن حسن معاملة محمود

العيسوى فى سجنه فانه لن تكون فى تلك الصحف أية أخبار صحيحة .

واذا كنا نحن المتهمين الثانويين الذين لا توجه الينا أية اتهامات ، وأفرج عنا النائب العام ، وبقينا معتقلين تحت ذمة الحاكم العسكرى ، كما يقولون ، نعامل تلك المعاملة السيئة ، فكيف يعامل المتهم القاتل، المعترف بجريمة قتل رئيس الوزراء .

من المقالات التى دسها الى بعض الزملاء داخل السجن مقالا نشر فى أخبار اليوم بتاريخ ١٩٤٥/٦/١٦ تحت عنوان : قاتل أحمد ماهر ،كيف يعامل فى سجنه تشير اليه ، لغرابته ، وطرافته ، لو جاز لنا أن نصف ما جاء فيه بالغرابة أو الطرافة .

فى البداية ، نفى المقال الذى يعرف له كاتب أن يكون المتهم « يغمس فى كل يوم فى ماء مثلج ثم يخرج منه ليلقى فورا فى ماء مغلى فضلا عن « صلم أذنيه واقتلاع أظافره » .

وبعد أن يشير المقال الى ما كان متبعا مع المساجين فى العصور الوسطى من وضع المتهم على الخازوق ومن الكى بأسياخ الحديد المحمى، وذبح الأهل والولد أمام العينين ، والرقاد على فراش من الشوك أو المسامير يذكر المقال أن ما توفره مصلحة السجون فى مصر من الراحة النسبية لهؤلاء المتهمين الخطرين يدخل فى باب العجب فمن أول واجباتها أن تحرص على حياة المتهم بعد الحكم عليه الى أن يتم تنفيذ العقوبة المقررة لجريمته .

ويذكر المقال أن طعام قاتلى لورد موين كان يعرض على التحليل الطبى خشية أن يدس لها السم فى طعام من الخارج .

وقد اضطرت ادارة السجن الى أن تلقى فى النار كميات ثمينة من التفاح النادر والشيكولاته المصرية خشية من أن يكون فيها سم دسه بعض الذين يهمهم اسكات المتهمين قبل الأوان .

وقد حلل القسم الطبى معجون أسنان مرسلا لمحمود العيسوى تحليلا دقيقا ، عندما أضرب عن الطعام عشرة أيام بسبب طلبات له تخالف لائحة السجون ، وافقت النيابة على تحقيق هذه الطلبات ومنها الانتقال الى سجن الأجانب حرصا على صحته .

ويقدم لمحمود العيسوى ثلاثة أرطال من اللبن يوميا ونصف رطل من العسل وكمية من شرائح اللحم الضأن وأربع بيضات واربع برتقالات

وارز وفول وعدس وشوربة خضار وجبن وكمية من الخضر الطازجة مثل الجرجير والفجل والكرات والخيار واذا طلب المتهم أصنافا أخرى فان ادارة السجن مكلفة ان تقدمها اليه ولا سيما السجاير والشاى » ٠

وأقسم بالله العظيم غير حانث . أن كل تلك الاشياء التى ورد ذكرها لم تقدم للعيسوى ولا لغيره ٠

وربما كانت المرة الوحيدة التى قدم فيها الشاى ، أو القهوة ، أو البيض ، كانت فى صبيحة اليوم الذى كان محددا لاعدامه !!

ويمضى المقال المضحك قائلا : واذا شكا المتهم من أى عارض فأطباء السجن يخفون لعيادته فى الليل أو فى النهار ويوفرون له من مواد التطبيب ما يعز وجوده ٠

وتتولى ادارة السجن الغسيل وكى الملابس ٠

ويتولى حراسة غرف هؤلاء المتهمين جنود بالتناوب يجب عليهم أن ينظروا كل ربع ساعة على الأقل من ثقب فى باب الغرفة للتأكد من حالة شاغليها وتستمر هذه الحراسة بهذا الاسلوب ليلا ونهارا ٠ وهذه الاخيرة - هى الحقيقة الوحيدة التى وردت فى المقال ٠

ويظهر أن كاتب المقال ترجم مقالا عن السجون فى الولايات المتحدة ونشر فى أخبار اليوم على أنه عن السجون فى مصر !!

وأنقل هنا فقرات من مقال نشرته أخبار اليوم فى يونيو ١٩٤٥ بعنوان : على هامش محاكمة المحامى القاتل بقلم أحمد الصاوى محمد :

● جاء انجليزى وانجليزية يمثلان الاذاعة البريطانية ٠٠ جاءا متأخرين ومع ذلك أفسحوا لهما الصف الأول ، فتقبلت ذلك على أنهما ضيفان ، ومع ذلك لم يحترما حقوق الضيافة ٠ بل خرجا علينا بعد ساعات قليلة بفضيحة كبرى اذاعاها فى العالم أجمع ٠ بل أنها أذيعت فى نفس محطة الاذاعة الرسمية للحكومة المصرية ، وأذيعت بالانجليزية والفرنسية ، فقد سمعتها بهاتين اللغتين ٠

● أما تلك الفضيحة فهى وصف والد المتهم ، ذلك الشيخ عيسوى الذى تزوج أربعين مرة من أربعين امرأة ! ٠ وبالطبع قد يفرح بهذه الاذاعة التراجمة العربان أمام مينا هاوس والكونتننتال لأنها قد تجذب

الى مصر الأمريكيات السائحات العجائز .. ولكن ماذا يقول العالم عن شرائعنا ومجتمعنا وأخلاقنا ؟ . حقا ان عيار محطة الاذاعة المصرية نفسها مفلوت ، وكأنها مسخرة علينا لتفضحنا تارة برذائل نادرة فينا وتقلقنا تارة ببرامجها الحقيرة .

القاضي الأول : لا تتبين من وراء نظارته عبوسا ولا ابتساما ، انه هنا مجرد عن الهوى ، انه لا يرى الأشخاص وانما يرى الأشياء .

● ودخلت بطارية كاملة من رجال النيابة وراء عميدهم الأستاذ الطوير باشا ، فلما وقف يتكلم لم نكد نسمعه ، كنا نتوقع أن يمزق صوت النائب العام حجب السكون وأجواز الفضاء ، فهو ممثل الاتهام ومع ذلك فلا تأمنوا لهذا الهدوء ! .. انه يظل ينشب أظافره في عنق المجرم حتى يزجه في غياهب السجن أو يعلقه على المشنقة .

في حين وقف الدكتور على بدوى بك ، ممثل الدفاع ، نحيفا ، ضئيلا ، وفي ثوبه أسد هزير ! .. تجلت على شفتيه للحال عذوبة المنطق ، وكانت ابتسامته تمثل دبلوماسيته : يا للنضال الهائل بين الاتهام والدفاع مع انه في صميم العدالة تعاون مطلق على اظهار الحق ! ..

● وفي القفص الحديدى محام أيضا .. كان مقبلا على الشباب والحياة والأمل ، كان يمكن أن يكون يوما في كرسى الرئيس أو على منصة النائب العام ، كان يمكن أن يكون زوجا وأبا ، ولكن لم يعد له من هذا كله شيء ، لم تعد له امتيازات المحامين ، ولا الرجاء في عزة القضاء ، بل لم تعد له حرية الشحاذ ، أو الطائر ، أو الحيوان .

● رأيته مرة أو مرتين ضاحكا ، بدل البكاء ، بعد كل ما سال على يديه من الدماء !؟

★★★

وفي ٢١ يوليو ١٩٤٥ تختار أخبار اليوم صورة الأسبوع ، لوالدى المتهم ، الأم ، والأب ، وتحت الصورة : يحضر الأب الجلسات يتابع ما يدور فيها والأم تنتظر في الخارج بمقهى مجاور لدار الحكمة ، نزولا على رغبة ولدها العيسوى ، وقد التقط مصورنا لهما هذه الصورة يوم الجلسة السرية عندما عاد اليها الأب يخبرها بسرية الجلسة .

وفي ٢٨ /١٩٤٥/٧ تنشر أخبار اليوم ، صورتين للعيسوى أثناء المرافعة ، وأثناء المداولة وثالثة بعد صدور الحكم .

وتحصل أخبار اليوم — كما قالت — على معلومات لم تستطع — كما

قالت أيضا نشرها ، أثناء نظر القضية بنـاء على أمر المحكمة العسـكرية العليا • وبين تلك المعلومات أو التى أسمتها أخبار اليوم معلومات ••

● كان محمود العيسوى مؤمنا ، بألمانيا وانتصارها ، وعنـدما قبض عليه كان مطمئنـا الى أن الألمان سيحاولون انقـاذه ، كما أنقذ موسولينى ، وكان يقول لحراسه أن لدى الألمان أسلحة سرية سيحاولون استعمالها لاختطافه •

● أثناء التحقيق أشيع أن المتهم هرب من السجن وان جماعة من الشبان ارتدوا ملابس ضباط وصحبوه فى سيارة بحجة الذهـاب الى النيابة ثم هربوا ـ واضطرت الصحف الى أن تنشر فى اليوم التالى أن النيابة حققت مع العيسـوى ، حتى يعرف النـاس أن القاتل لا يزال مسجونا •

● كان العيسوى يزداد أملا فى أثناء محاكمته وكان يقول انه اذا حكم عليه بالسجن فسوف تقوم حرب جديدة وسـيفرج عنه الألمان أو تجد عفوا عاما عن الجرائم السياسية ، ولكن عندما جاء جميع الشـهود الذين استشهد بهم كذبوه بدأ يفقد أعصـابه ومعتقداته فى طريقه الى الاعدام •

● بهت العيسوى حين ضج الجمهور بالهتاف بحياة العدالة بعدما صـدر حكم المحكمة باحالة الأوراق الى المفتى وانهارت قواه وزاغ بصره عندما صاحت الجماهير بصوت كالرعد الى الجحيم يا عيسوى ، ففى تلك اللحظة عرف أن الرأى العام يعتقد أنه مجرم قاتل •

وبطبيعة الحال ، لم يكن فيما ذكرته أخبار اليوم ما يمت الى الحقيقة بصلة ، فلا كان العيسوى يعتقد أن الحكم عليه سيتسبب فى قيام حرب جديدة • فمثل هذا التفكير لا يمكن أن يجول فى خاطر أى مجنون ، .ولم يعتقد العيسوى فى لحظة واحدة أن الألمان يمكن أن يفكروا فى اختطافه، وأقولها أن العيسوى لو كان يريد الهرب بعد ارتكاب الجريمة لما تأخر فى القيام بمحاولة الهرب خاصة وقد كان بعض الذين شهدوا حادث القتـل يظنون أن القاتل هو سليمان عزت ، كان العيسوى ـ لو أراد يستطيع أن ينكر الحكم أنه القاتل ، اذا ما قبض عليه • أما الهتاف ضد العيسوى عقب الحكم عليه فلم يكن ليؤدى الى أنهيار العيسوى ، فليس الهتاف بأخطر على العيسوى من الحكم بالاعدام •

لقد كان العيسوى يعتقد الى آخر دقيقة فى حياته أنه أقدم على عمل

بطولى ، وان لم يعترف به الناس فى هذا الجيل ، فسوف يعترفون بـه بعد ذلك الجيل ·

كان لعيسوى – وتلك ميزته – يرى أنه أنقذ شعب مصر من حرب هجومية . كان سيدفع ثمنها الألوف من أبنائه بالاضافة الى ما سوف ينال مصر من تخريب ودمار ، عندما ندخل الحرب ضد ألمانيا · والمرة التى انهار فيها – حقيقة – محمود العيسوى هى اللحظة التى عرف فيها أن ألمانيا سلمت ، دون أن تفتح المخزن رقم ١٣ ·

ونحاول – فى هذه الصفحات – تفصيل بعض ما حدث فى محاكمة محمود العيسوى عوض الله ·· ننقل بعض ما جاء فى بعض الجلسات ·

فى جلسة ١٩٤٥/٧/١٠ ، وقد حضرها والد المتهم محمود العيسوى ووالدته نرأس الأستاذ محمود منصور بك تلك الجلسة ومثل النيابة عبد الرحمن الطوير باشا النائب العام · وأبدى الأستاذ على بدوى – فى بداية الجلسة – دفعا بعدم اختصاص المحكمة ووجه رئيس المحكمة الكلام الى الحضور ان بعض الصحف ومحطة الاذاعة المصرية قد ذكرت معلومات غير صحيحة عن والد المتهم مما لا علاقة له بما يدور فى هذه الجلسة ·

ونودى على المتهم فوقف وأجاب بأن عمره ٢٦ سنة وصناعته محام ، ومولود فى مصر ، وبدأ الأستاذ على بدوى كلامه فشكر المحكمة على تصريحها ، وقال ان مراسلى الصحف الأجنبية روجوا قصصا خيالية عن والد المتهم نظرا لاعتقادهم الخاطىء بأن الشرق ما زال مهدا للحريم · وقد تحريت الأمر فعلمت أن والد المتهم لم يتزوج الا بعدد من النساء يمكن لأى أوروبى أن يتزوجه فقد تزوج منذ ٥٠ سنة بسيدة ثم طلقها بعد ست سنوات من زواجه بها ، ثم تزوج فى سنة ١٩١٨ بوالدة المتهم وقد طلقها سنة ١٩٢٣ ثم تزوج زوجته الأخيرة ، ونبين من ذلك أنه لم يكن فى عصمته أكثر من زوجة واحدة فى أى وقت من الأوقات وبذلك يكون ما نسب الى والد المتهم فى هذا الأمر محض اختلاق ·

وانتقل الأستاذ على بدوى الى الحديث عن الدفع بعدم اختصاص المحكمة العسكرية راجيا أن تفسح المحكمة صدرها له ، فقد سبق أن أبدى هذا الدفع فى قضايا مماثلة ورفض ولكن لكل قضية ظروفها ثم ان وجهات النظر تختلف أيضا ·

وقال ان هذه الدعوى قدمت للمحكمة باعتبارها محكمة عسكرية ، واعتمد الاتهام فى ذلك على المادة ٢ من الأمر العسكرى رقم ٣٨٩ التى نقرر انه اذا وجد ارتباط بين عدة جرائم بعضها عسكرى وبعضها

غير عسكرى فانها تقدم جميعا الى المحكمة العسكرية ، كما اعتمد على الفقرة الثانية من المادة الأولى من الأمر رقم ٣٨٢ التى نصت على تقديم جرائم معينة من قانون العقوبات الى المحاكم العسكرية اذا ارتكبت على موظف أثناء تأدية وظيفته أو بسببها أو بسبب تنفيذ الأمر العسكرى الخاص باحراز وحيازة السلاح ·

ويدفع الأستاذ على بدوى بأنه لا يوجد ارتباط بين احراز السلاح وجريمة القتل فى تلك القضية · ويذكر أن الارتباط بين احراز السلاح وجريمة القتل غير موجود لان الارتباط يستلزم وحدة الغرض مع الاتصال المادى الذى يجعل القضية وحدة لا تتجزأ · ويذكر أن المتهم قد ذكر فى التحقيق انه اشترى المسدس من سنتين من أجل الدفاع عن نفسه لأن له خصوما فى بلدته الأصلية بنى غربان من عائلة حسن وقد أيده أبوه فى ذلك ولو أنه قال ن هذه الخصومة قد لا تدعو الى اغتيال ولده بحسب تقديره ، وهذا لا ينفى ان الغرض من احراز المتهم للسلاح انما كان يقصد حماية نفسه وليس لارتكاب الجريمة المنسوبة اليه ·

ويقول رئيس المحكمة : قد يجوز أنه أحرز السلاح بادىء ذى بدأ لبرد انتقاما فهل تتغير نية الاحراز عندما يقدم على ارتكاب جريمة معينة بالذات ، انى أبدى الرأى بقصد المناقشة وليس باعتباره رأى المحكمة ·

ويوضح الأستاذ على بدوى انه ثبت ان الحيازة كانت بسبب آخر أيدته ظروف التحقيق من أقوال المتهم وزملاته فلا شك انه لا يوجد هناك ارتباط بين الاحراز وجريمه القتل ، ثم ان جريمه احراز السلاح هى جريمة مستمرة ويجب أن ينظر اليها كجريمة واحدة لا كجرائم متعددة. ولذلك لا يحاكم عنها المتهم الا مرة واحدة · حتى لو استمرت عشر سنوات وذلك بخلاف الجريمة المؤقتة التى تتعدد مراتها ويحكم على المتهم فيهما بعده عقوبات ، فاذا سلمنا بهذا فانه يجب أن ينظر الى الغرض من الاحراز ليس فى اليوم الثانى أو الثالث ، أو الأخير ، وانما وقت حصوله ، فجريمة احراز السلاح فى هذه القضية ارتكبت منذ سنتين ولا يمكن القول بأن هناك ارتباطا بين هذا الاحراز وبين جريمة القتل أو الشروع فيه ·

وانتقل الأستاذ على بدوى الى التفرقة بين احراز السلاح وبين حيازته فقال انها مظاهر مختلفة لفصل واحد ، فحيازة السلاح هى أن يمتلك الشخص سلاحا ، والاحراز هو حالة الشخص غير المالك الذى

يضع يده بوجه مشروع على السلاح ، أما حالة حمل السلاح فهى حالة مادية مؤقتة تقع بالنسبة لغير الحائز ، والمحرز كالخادم الذى يحمل البندقية من منزل سيده الى حفلة · وقد يكون الحائز محرزا ، أو حاملا ولكن مجرد حمل السلاح فى هذه القضية هو مظهر من مظاهر الجريمة المستمرة التى بدأ المتهم ارتكابها منذ سنتين ، وتكلم الأستاذ على بدوى عن الاحراز والحيازة والحمل قائلا : ان الأوامر العسكرية الخاصة بالسلاح جميعها تتحدث عن الحمل ، ومعنى ذلك انها لا تهتم بمجرد الحمل لأن هذا فى نظرها تافه ·

وقال الأستاذ على بدوى ، أن المتهم كان يجب أن يحاكم أمام محكمة الجنايات العادية عن تهمتى القتل واحراز السلاح لا أن يحصل العكس فيحاكم من أجل الجناية أمام المحكمة العسكرية العليا ويحرم بذلك ما يعطيه له القضاء العادى من حقوق الطعن وغيره ·

وقال الأستاذ على بدوى انه يستأنس بالحكم الصادر فى قضية اللورد موين اذ جاء فيه ما يشير الى وجود سلسلة متصلة الحلقات من احراز السلاح وارتكاب جريمة القتل وقد ثبت من التحقيق أن المتهمين أعطيا سلاحا من الجمعية الارهابية التى ينتميان اليها بقصد ارتكاب الجريمة بل ثبت أن أحد المسدسين ارتكبت به سبع جنايات قتل ضد الانجليز قبل مقتل اللورد موين ولا وجود لشىء من ذلك فى القضية المنظورة ·

ويسأل رئيس المحكمة الدفاع عما اذا كان يعنى من بعض ما قاله أن المحاكم العسكرية هى محاكم شديدة · ويستدرك الأستاذ على بدوى قائلا : كلا ، وانما أريد أن أقول أن التشريع العسكرى يتجه فى روحه الى التشديد بدليل ان القوانين العسكرية تشدد العقوبات كما أن القضاء العسكرى قائم على هذه الفكرة بدليل ان الحاكم العسكرى جعل لنفسه حق تخفيف الحكم وهذا يفترض ان الحكم الأول كان شديدا ·

ويقول رئيس المحكمة ·· قد يكون القانون شديدا لبعض الاعتبارات ولكن المجال يسمح أمام القاضى ، والمحكمة العسكرية لم توجد للشدة ·

ويقول على بدوى بصراحة : اننى لا يمكننى أن أنزع من ذهنى طابع الشدة الذى يتميز به القانون العسكرى والمحاكم العسكرية وان المحكمة العسكرية فيها على كل حال حرمان للمتهم من كثير من الحقوق بما يوجب زيادة التدقيق لتطبيق القوانين العسكرية ·

ويقول الأستاذ على بدوى بعد جدل فقهى بينه وبين رئيس المحكمة حول وجوب عدم ادخال الشروع فى القتل من الجرائم العسكرية حيث لم يرد بشأنه نص ، ولو فرضنا جدلا أن نص الأمر العسكرى يسجل حالة الشروع فى القتل فهل حقيقة ان المتهم أطلق عيارا ناريا على الصاغ اسماعيل أبو العزم ، يريد قتله ؟ .. يجب أن يتبت أن الصاغ أبو العزم قد قصد منعه من ارتكاب الجريمة حتى يمكن أن ينطبق نص الأمر العسكرى الذى تستند اليه النيابة : ان الحادث وقع فى ثوان معدودات وفى مكان مزدحم يستحيل فيه أن يتحقق المتهم فى متل هذه الظروف التى وقع فيها الحادث من شخصية الصاغ أبو العزم كما قال: أنا مندهش ازاى الأستاذ سعد اللبان بك أصيب ، وتلا بدوى بك أقوال الصاغ اسماعيل أبو العزم فى التحقيق ، وقد جاء فيها أن الطلقات كانت مستمرة وأنه أصيب بعد أن جاء أمام على ماهر باشا ، مما يدل على أن اصابته جاءت عرضا ولم يقصده المتهم بالذات ، فهو قد أصيب خطأ وكان يجب أن يقدم المتهم بهذا الوصف . والأوامر العسكرية لا تنص على الاصابة الخطأ .
ويستمر الأسناذ على بدوى فى التدليل على وجهة نظره فى ضرورة تقديم القضية الى محكمة جنايات عادية الى محكمة عسكرية قائلا : ان النيابة أكرهت النصوص والوقائع حتى تقدم للمحكمة العسكرية ولست أحب أن أسأل النيابة عن ذلك ولا شك — على بدوى — أن القضاء لن يقرها عليه .

★★★

وبعد استراحه قصيرة ، اكمل الاستاذ على بدوى توضيح وجهة نظره ثم أكمل حديثه بقوله : ليس هناك من معنى لتحويل القضية من قضية عادية عسكرية الى قضية عسكرية خصوصا وان من القواعد الدستورية المسلم بها فى الدول الأوروبية والتى يجب العمل بها فى مصر ، انه لا يصح نزع المنهم من قضائه حتى يطمئن الى وسائل دفاعه والى رحمة القاضى وهذا الاطمئنان الذى يجب توافره لدى المتهم الذى مع ثقته فى القضاء ذاته قد يشوبه قلق بسبب ما يكتنف المحاكمات العسكرية من احتمال لتقديم الجنايات العسكرية من النيابة مباشرة الى المحكمة دون مرورها على قاضى الاحالة وعدم تمكن المتهم من المعارضة فى أوامر الحبس والقبض ولا تخفى قيمة قاضى الاحالة وحقه القانونى فى تعديل وصف التهمة كما أن العدالة تقضى بأن لا يحرم المتهم من المراحل التى تلى صدور الحكم فلا معارضة ولا نقض .. الى أن يقول أخيرا : أن من جمال القانون أن يتفق مع المعانى الخلقية بأن يزيل الحرج الذى يحيط بنا فى

تلك القضية . انى مطمئن كل الاطمئنان الى عدالة المحكمة وكل ما أريده هو أن أقرر ان المتهم فى نفسه حرج قائم بسبب ان الحاكم العسكرى كان زميلا للفقيد لازمه طول حياته وقد يكون فى ذلك حرج اذا رفع عليه تظلما من الحكم .

وقال رئيس المحكمة : ان دوله الحاكم العسكرى يفصل فى التظلم باعتباره حاكما عسكريا لا باعتباره زميلا للفقيد ونحن نفصل فى الدفع باعتباره قائما على اسس قانونية . واذا رأت المحكمة أن الأسباب القانونية كافية للحكم بعدم الاختصاص فانها تحكم به ولا شأن لها بما يحصل بعد ذلك لاننا نطبق القانون ولا يمكن للمحكمة أن تحرج أمام أية سلطة .

ويقول على بدوى : اريد ان اقول ان هذا التفسير يتفق مع العدالة ومع ازاله الحرج ، واقول ذلك لانه علامات على الحساسية فى تصريحات. ويحتفظ على بدوى بحقه فى الرد على مرافعه النيابة .

ويتولى عبد الرحمن الطوير باشا النائب العام الرد على الدفع الذى تقدم به الاستاذ على بدوى طالبا رفضه : وقال — الطوير باشا — انه يستبيح المحكمه عذرا فى أن يرد على الدفع بعدم الاختصاص خاصه وانه يرى ان الدفاع يشعر بضعف مركزه ، ولذلك أطال فى شرح نظريات لم تأخذ بها المحاكم .ويقول الطوير باشا ان جريمة احراز السلاح جريمه مرتبطة بجريمة القتل ويؤكد ان الشروع فى الجنايات يعاقب عليه دون حاجة الى نص ، والأمر ينص على الجرائم مطلقا دون تحديد للجنح أو الجنايات .

وتقرر المحكمة رفع الجلسة للمداولة فى الدفع الخاص بعدم الاختصاص ، وتقرر المحكمة بعد اعادة الجلسة — وعلى ما جاء فى كلام رئيسها — ضم الدفع للموضوع واستمرار المرافعة لجلسة باكر .

ويطلب الاستاذ على بدوى اثبات وجهة نظر الدفاع فى أن تفصل المحكمة أولا فى الدفاع والا يحقق فى الموضوع الا بالنسبة لما يلزم لتحقيق الدفع فيكتفى بسؤال الصاغ أبو العزم أفندى فقط ، ويناقش التقرير الطبى .

وتقوم مناقشة بين المحكمة والدفاع ، وتقرر المحكمة فى نهاية المناقشة . استمرار المرافعة فى الجلسة التالية .

وفى بداية الجلسة التالية جلسة ١٩٤٥/٧/١١ يؤكد رئيس المحكمة ـ محمـــود منصور بك ـ بخصـــوص قرار المحكمة ضم الدفع الفرعى الى الموضوع ، والحكم فيهما معا ، ان المحاكم جرت على ذلك ولكن المحكمة قد رأت لئلا يكون هناك قلق أو حرج على حد تعبير الدفاع ، أن ينحصر تحقيقها اليوم فى الموضـوع ، على ما يتعلق بجريمه الشروع فى القتل لنرى ما اذا كانت تعد جريمه عسكرية أم لا ، والمحكمة تقدر ما يقـوم به الأستاذ على بدوى من تنوير المحكمة من جميع الوجهات ويطلب الأستاذ على بدوى أن تســـتدعى المحكمة الدكتور عمارة لســماع أقواله . ولكن الرئيس يقول ان ذلك يمس الموضوع ونحن نتباعد عن الموضوع بقـــدر الامكان ، ولكن الأســتاذ على بدوى يصر على وجوب سماع أقوال الدكتور عمارة لأن الاقتصار على سماع الصاغ اسماعيل أبو العزم لا يكفى لايضاح وجهة نظر الدفاع ، وبعد نقاش بين رئيس المحكمة ، وعلى بدوى ، يتنازل على بدوى عن طلبه بخصوص البدء فى الدفع الفرعى .

★★★

ونودى على المتهم فوقف فى القفص وتلا كاتب الجلسه قرار الاتهـــام وقد وجهت الى المهم أربع تهم هى : قتـــل دولة ماهر باشا مع سـبق الاصرار والترصد ، والشروع فى قتل الصاغ اسماعيل أبو العزم أفندى مع سبق الاصرار . والشروع فى قتل الاســـتاذ سعد اللبان مع سـبق الاصرار والترصد ، واحراز وحمل سلاح نارى (مسدس) ومعه ذخيرة .

ويقف النائب العام مطالبا بتطبيق المواد ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، و ٤٠ ، ٤٦ والمواد ١ ، ٢ ، ٥ ، ٦ ، من القانون رقم ١٥ لسنة ١٩٢٣ الخـاص بنظام الأحكام العرفية و . و ..

ويسأل رئيس المحكمة المتهم عن التهمة الأولى ولكن المتهم يقول : أنا لى كلمة قبل نظر الموضوع ويرجو من المحكمة أن تفسح صدرهـــا لها وهى تمس الموضوع ، وتتلخص فى أنى كمحام وكمصرى أقدر القضاء المصرى الا أنى مع ذلك أطلب احالة القضـــية الى دائرة أخرى لأن هذه الهيئة أصدرت حكما فى قضية مشابهة استبعدت فيها الصفة السياسية للجريمة ، بل اعتبرت هذه الصفة ظرفا مشددا ، ويسأل رئيس المحكمة: هـــل تريد أن ترد المحكمة ؟ ويجيب المتهم قائلا : لا . أنا لا أطلب رد المحكمة ، وأعرف ان للرد أسبابا يجب توفرها واذا التمس فقط احالة القضية الى دائرة أخرى .

ويقول رئيس المحكمة : ان الهيئة قد تغيرت وليس معنى أصدار حكم فى قضية سابقة ما يلزم المحكمة باتباعه ، فلكل قضية ظروفها ٠

ويقول المتهم : أنا أفهم ذلك ولكن الحاكم العسكرى أبدى رأيا صريحا لى فى هذه القضية ٠ ويدور الحوار بين رئيس المحكمة وبين المتهم محمود العيسوى على النحو التالى :

الرئيس : لا دليل لدينا على هذا الكلام !

المتهم : ان دولة النقراشى باشا موجود ٠

الرئيس : لقد قصدنا أن نعطى الدفاع فرصة لبحث الدفع على حدة ، فلم يقبل ، وبخصوص الحكم فانه لا يمكن أن يكون سببا فى احالة القضية الى دائرة أخرى ٠

ودارت مناقشة جانبية بين رئيس المحكمة ، وبين عضو اليمين بخصوص الرد ، فقال الأستاذ على بدوى : لا حاجة لبحث الرد ٠

وعاد المتهم مرة ثالثة أو رابعة يقول : أكرر انى لا أشك مطلقا فى نزاهة هذه الدائرة ، ولكنى اريد أن أكون أكثر اطمئنانا بحيث اذا أصدرت الدائرة الأخرى حكما يتفق مع رأى هذه الدائرة ، فانى أطمئن انى أن هذا الرأى المتبع فى القضاء المصرى ، وبعد مداولة قصيرة فى طلب الاحالة بين الرئيس والأعضاء قال الرئيس ان الدائرة قد تغير أعضاؤها ، ولم يبق منهم الا ثلاثة فقط ، ولذلك فان المحكمة ترفض طلب الاحالة وتصمم على نظر القضية !

وتعود المحكمة الى سؤال المتهم عن التهمة الاولى فيقول الرئيس : هل قتلت دولة أحمد ماهر مع سبق الاصرار والترصد ؟

ويجيب المتهم : أنا أقررت ، واعترفت بأننى قتلت أحمد ماهر باشا فقط ولا ألزم ، بأن أجيب على وصف التهمة فأنا لا أعترف الا بالفعل المادى فقط ٠

ويقول على بدوى أرجو أن تفسح المحكمة صدرها للمتهم لأنه محام، ويدرك ما يقول ٠

ويقول رئيس المحكمة : ان هذه المحكمة واسعة الصدر وستفسح صدرها للدفاع كى يترافع كما يشاء ولو استمر ذلك أياما كما أن المحكمة تدرك أن المتهم محام قد درس القانون ٠ ويعيد رئيس المحكمة السؤال

السابق ، بصيغته الاولى ، ويجيب المتهم : أنا اعترفت بأننى أطلقت على (على ماهر باشا) رصاصات فمات ، وفيما عدا ذلك فاننى أحيل المحكمة الى ما جاء فى التحقيق الذى أجرته النيابة والى ما سأقوله بعد انتهاء التحقيق أمام المحكمة فى دفاعى عن نفسى ٠

ويقول رئيس المحكمة للمتهم : انت متهم بالشروع فى قتل الصاغ اسماعيل أبو العزم مع سبق الاصرار والترصد ! ٠

ويسكت المتهم ولا يجيب ٠

ويقول الاستاذ على بدوى : ارجو أن تفسح المحكمة للمتهم صدرها فى سكوته أيضا ، ويوجه رئيس المحكمة الى المتهم أسئلة بشأن باقى التهم ويكتفى المتهم بالصمت ٠

ويأمر رئيس المحكمة بفض الحرز الموجود ـ المسدس ـ وهو مسدس صغير من النوع ذى المشط ومعه جراب جلد وعرضته على المتهم طالبة أن يراه لأن العادة جرت على ذلك ، كما قال الرئيس ٠

وقال المتهم لا ضرر فى ذلك ومع كل من الضابطين اللذين يقومان على حراستى مسدس مثله ، ومع ذلك فأنا أذكر رقم المسدس ملكى وهو ٣٣٥٩٤١ ٠

ويفحص الرئيس المسدس ويتبين أنه يحمل ذات الرقم ، وتسأل المحكمة المتهم عن ماركة المسدس ، فيلوذ المتهم بالصمت ٠

ويسأل رئيس المحكمة المتهم : انك قد اعترفت بقتل ماهر باشا بالرصاصات التى أطلقتها من مسدسك ، والمحكمة تريد معرفة متى صممت على الجريمة ، وكيف ارتكبتها ؟ ٠

ويجيب المتهم : ان أقواله فى التحقيق ظاهرة وانه مصمم عليها مع احتفاظه بحق الكلام عند المرافعة ٠

ويقول على بدوى : القانون صريح فى ان المتهم لا يستجوب الا اذا رضى ذلك ٠

ويقول الرئيس : أنت لم تعترض على استجوابه الا الآن ٠

ويقول على بدوى : أنا لم ألاحظ رغبة المتهم فى هذا ، الا الآن فقط ، وأرجو أن يراعى حق المتهم فى ذلك ٠

ويرى رئيس المحكمة ان المحكمة تحافظ على حقوق الدفاع والمتهم، ما دام ذلك فى نطاق القانون ٠

★★★

وتبدأ المحكمة فى سماع الشهود يكون فى المقدمة الصاغ اسماعيل أبو العزم مساعد قومندان حرس البرلمان ، وكان من بين ما قاله : دعى البرلمان فى مساء السبت الموافق ٢٤ فبراير سنة ١٩٤٥ ، وكان المعروف ان رئيس الحكومة سيلقى بيانا فى المجلسين ، وكان المعروف أن مجلس الشيوخ يعقد بعد مجلس النواب ، وفتحت جلسة النواب علنية ثم صدر قرار بجعلها سرية ، وصدرت أوامر باخلاء الشرفات ، وكان منوطا بى حراسة المنطقة المعروفة بحرم المجلس ، التى يقوم فيها مكتب رئيس الحكومة ومكاتب الوزراء والاستراحة الملكية وغرفة رئيس المعارضة ، وهناك طرقة بها باب اعتاد الوزراء دخول القاعة منه وقد أخذت هذا الباب مركزا لوقوفى حتى أستطيع الاشراف على هذه المنطقة التى يشغلها كبار رجال الدولة ٠

الى ان يقول الصاغ أبو العزم : حوالى الساعة السابعة والنصف خرج الدكتور أحمد ماهر للمرة الثالثة ووقف أمام الباب ونادى ممدوح رياض بك وسارا سويا فى الممر ، وكنت اعتقد انه سيدخن سيجارة أشعلها ثم يعود الى القاعة ، ولذلك سرت خلفه على بعد اربعة أمتار و٠و٠ ولما اتجه الى الطرقة الموصلة للبهو الفرعونى سمعت أحد المصورين يقول : تسمح الصورة بقى يا باشا ٠

ورأيت آلة التصوير وفى اللحظة التى اختفى فيها دولته عن بصرى سمعت صوتا اعتقدت أنه صوت المغنسيوم ، وأعقب هذا الصوت صوت ثان فتقدمت الى ناحية الباشا ورأيت الجانب الأيسر من وجهه وخيل الى انه انزعج فأسرعت اليه فوقع بصرى على المتهم وهو يتقدم بخطوته الى دولة ماهر باشا ، وكان بينه وبين الباشا حوالى متر ونصف وهو على وشك اطلاق العيار الثالث ففصلت بجسمى بين الاثنين ورأيت المتهم يصوب المسدس فمددت يدى لأمسكه منه فرجع الى الخلف ولذلك لم أتمكن من الامساك به ٠ ورأيت شخصا مرتديا الملابس الملكية عرفت فيما بعد أنه هو الأستاذ سعد اللبان يضغط على كتف المتهم فنزلت يده الى أسفل وخرج العيار الرابع فأصابت رجلى ٠٠ وكنت قد وقعت على الأرض ، ودفع الأستاذ سعد اللبان ، كما دفع معه المتهم وقد رأيته جالسا ورجلاه ممدودتان على الأرض ، وحاول الموجودون ضرب المتهم فتحاشى ذلك بأن وضع ياقة معطفه على وجهه ورأيت ماهر باشا يقع

الى الأرض وشعرت باصابعى ورأيت الدم ينزف من قدمى ثم جاءت الاسعاف فاخذتنى .

★★★

ويقول الأستاذ سعد اللبان ــ عضو مجلس النواب ــ سمعت أحد المصورين يقول للباشا : من فضلك يا باشا واتجهت ناحية الصوت واذا بطلقات نارية فحصل هرج ، ومرج من ناحية البوفيه . ونظرت الى مصدر الطلق فرأيت شابا يطلق الرصاص على المرحوم ماهر باشا وكان قد أطلق عدة طلقات فحاولت القبض عليه فانحرف الى اليسار قليلا حتى أصبح فى مواجهتى تماما وكنت الى يمين الباشا فاتجهت اليه بقوة واصطدمت به بحيث أصبحت يدى اليسرى فى مقابل يده اليمنى وحاولت القبض على المسدس ، فحرك يده مرتين محاولا التخلص من يدى ولكن كانت قد وصلت الى المسدس وكان هو قد هوى على الأرض فجثمت فوقه وتفرست فى وجهه فرفع ياقة المعطف الذى يخفى وجهه. وجاء كثير من الحاضرين وهجموا عليه وتركته بين أيديهم وأخذت المسدس فى جيبى والتفت ورائى فوجدت الدكتور ماهر قتيلا .. وقد سلمت النائب العام المسدس وكان به ست طلقات واظن أنه أطلق منها خمسة فتبقى به واحدة .

وكانت شهادة الأستاذ محمد كامل الدمياطى ــ مدير مكتب وزير الداخلية ــ لا تخرج عن شهادة الصاغ أبو العزم وسعد اللبان ، وقد جاء فيها أن المتهم كان وقت اطلاق الرصاص يقول : يا خاين ، يا خاين، وأن القتيل شهق شهقة واحدة ثم مات دون أن يتكلم .

وقال الصاغ سليمان عزت ببحرية جلالة الملك أنه قبض على الذراع الأيسر للمتهم وشعر بيد تحاول انتزاع المسدس من يد المتهم وقال سليمان عزت أن المتهم كان يكرر بصوت عال ، يا مجرم يا خاين ، وان البعض قد اعتدى عليه لالتباس الأمر ، واعتقاد الحاضرين أنه هو القاتل وان دولة النقراشى باشا سأله عن اسمه ثلاث مرات لأنه يتشكك فى كونه شريكا فى الجريمة .

وسمعت أيضا شهادة الصاغ على عزت ياور وزير الدفاع ، وكذلك سمعت شهادة الأستاذ فتحى عمر وكيل ادارة الميزانية فى وزارة الداخلية ثم رأت المحكمة ــ بعد أخذ رأى الدفاع ــ الاستغناء عن سماع بقية الشهود : ممدوح رياض ، د. عمارة . ورفعت الجلسة لتعود فى اليوم التالى : ١٢ يوليو ١٩٤٥ الى الانعقاد .

وفي بداية تلك الجلسة سأل الرئيس المتهم محمود العيسوى عما اذا

كان لديه شيء يريد أن يقوله فأجاب بأنه يحتفظ بما يريد أن يقوله لما بعد سماع المرافعات ، وأضاف قائلا :

لى رجاء هو اعلان دولة النقراشي باشا رئيس الحكومة لسماع أقواله كشاهد نفى ويسأل رئيس المحكمة :

يشهد على ايه النقراشي باشا ! على وقائع خاصة بالجريمة نفسها أو بالدافع عليها ؟

المتهم - أنا استشهد بالنقراشي باشا لثلاثة أسباب :

أولا : ان دولته يعلم أن الحرب كانت ستعلن هجومية ، وترسل قوات الى الشرق الأقصى وأوربا ، وأن هذا الوضع تغير بعد ارتكاب الحادث .

ثانيا : ان اعلان الحرب كان بناء على تدخل الانجليز وكان أحمد ماهر باشا والنقراشي باشا عند السفير البريطاني في يوم الحادث ، مما يدل على أن هناك تدخلا من الانجليز في شئون مصر الداخلية .

ثالثا : ان النقراشي باشا قال لى شخصيا أن الحكم في هذه القضية سيكون رادعا ، فأنا أريد استدعاء النقراشي باشا لسماع شهادته فيما ذكرته وأنا ألح في هذا الطلب .

وهناك وقف الأستاذ على بك بدوى وقال انه يؤيد هذا الطلب ، وأنه كان خالى الذهن عنه اذ لم يخبره المتهم به ، ثم وصف الطلب بأنه وجيه وأنه لهذا لا يسعه الا أن يؤيده ويرجو المحكمة اجابته اذ يجب سماع الوقائع التى تمس القضية .

وقال المتهم انه حقيقة لم يخبر على بك بهذا الطلب اذ فكر فيه ليلة أمس في السجن .

المحكمة - للمتهم : اذن لماذا رفضت أن تستجوب مادمت تريد الاستشهاد بشاهد نفى فلماذا لم تجب المحكمة . كانت المحكمة تريد أن تعرف تفصيلات عن الجريمة وكيفية تصميمك عليها وتنفيذها فأبيت الاجابة .

المتهم - أنا اعترفت بالقتل ولكنى لم أعترف بوصف النيابة . وعلى كل حال أنا قلت هذا الكلام في التحقيق ، وأنا لا أريد الاستشهاد على أشياء لم أقلها وقد قلت الآن اننى سأتكلم بعد المرافعات .

وهنا أراد بدوي بك أن يتدخل فقال رئيس الجلسة : « والله يا علي

بك أنا محتار بين المحامى المتهم والمحامى المدافع ، أليس منطقيا يا على بك أن يسأل المتهم عن الوقائع والأسباب التى دفعته الى ارتكاب الجريمة حتى اذا كان هناك داع لسماع شهادة النقراشى باشا أجبنا هذا الطلب ٠

بدوى بك ـ أريد أن أفسر للمحكمة

المحكمة ـ لا هو اللى يفسر لنا مش حضرتك ، لأنه هو الذى طلب هذا الطلب ٠

فقال بدوى بك انه يريد أن يفسر موقف المتهم فهــو قد اعترف بالقتل وبالأسباب التى دفعته الى القتل فدعوه يتكلم ويطلب من يشاء من الشهود ٠

الرئيس ـ وهل المحكمة منعته من الكلام يا على بك ده أنا سألته عدة مرات هل قتلت مع سبق الاصرار والترصد فلم يجب ٠ ثم طلبت المحكمة من كاتب الجلسة تلاوة ما حدث عند سؤال المتهم فتلا الكاتب ما يفيد أن المتهم لاذ بالصمت ٠

وقال المتهم انه رفض الاجابة على التكييف القانونى فقط ، واعترف بأنه قتل أحمد ماهر باشا بأن أطلق عليه الرصاصات وعلل ذلك بأنه لا يعترف بالوصف ٠

والاعتراف بالوصف على كل حال لا يسمى اعترافا ٠ انما الاعتراف بالقتل هو الاعتراف ، وحتى لو اعترف بالوصف وأن القتل كان مع سبق الاصرار والترصد ثم رأت المحكمة ما ينفى هــذا الوصف فهى تضرب باعترافه عرض الحائط ٠

ومع ذلك فأى ارتباط بين طلبه سماع شهادة النقراشى باشا وكونه يجيب أو لا يجيب ٠

الرئيس ـ أيوه لأنك رفضت أن تستجوب والمحكمة كانت تريد أن تسألك عن التهم المنسوبة اليك ، فسألتك أنت منسوب اليك قتل دولة ماهر باشا مع سبق الاصرار والترصد ٠

المتهم ـ المتهم لا يسأل عن التكييف القانونى وانما يسأل عن التهمة فقط وأنا اعترفت بالقتل ٠

المتهم يقول فقط انه قتل فلانا ولكن لا يقول انه قتله مع سبق الاصرار ٠

الرئيس ـ ما الذى منعك من الكلام ، وقد افسحت لك المحكمـة صدرها ، فرفضت أن تجيب على أسئلتها ٠

وبعد مناقشة قصيرة بين المحكمة والدفاع والمتهم قررت المحكمة الفصل فى هذا الطلب بعد سماع المرافعات .

ثم وقف سعادة عبد الرحمن الطوير باشا (النائب العام ، واستهل مرافعته قائلا انه يقدم اليوم القضية الثانية فى تاريخ مصر الحديث عن قتل رئيس الوزارة المصرية فقد اعتدى ابراهيم الوردانى من قبل فى عام ١٩١٠ على المغفور له بطرس غالى باشا فقتله .

وقضية اليوم هى اعتداء محمود العيسوى عوض الله على رئيس الوزارة المصرية المغفور له أحمد ماهر باشا اذ أطلق عليه الرصاص من مسدسه فقتله .

وقضية اليوم هى قضية الشهيد والبغيض .

أما الشهيد فهو أحمد ماهر باشا وأما البغيض فهو هذا الشقى الماثل أمامكم .

واستغفر الله أن أذكر اسميهما معا فما أفعل ذلك الا اضطرارا ، غير أن التاريخ يا حضرات المستشارين سيفرق بين الاسمين ، فيرفع اسم أحمد ماهر وذكراه الى السماء لاخلاصه لوطنه وتضحياته من أيام شبابه من أجل مصر حتى جاد أخيرا بحياته ، وسيضع التاريخ هذا المعتدى القاتل يوم ولد ويوم يموت بين المجرمين الآثمين .

وذاك عليه رحمة الله أما هذا فقد استحق غضب الناس وغضب الاله .

ثم انتقل الطوير باشا الى الوقائع فأشار الى قرار مؤتمر يالتا الخاص بأن لا يدعى الى مؤتمر سان فرانسسكو الذى سينظر فى مسائل الأمن الدولى الا من أعلن الحرب على دول المحور قبل أول مارس سنة ١٩٤٥ ، وقد قال المتهم بأنه قرأ تفصيل هذا فى احدى الصحف الانجليزية ، ثم دعى مجلسا البرلمان الى جلسة غير عادية تعقد يوم ٢٤ فبراير للبحث فى موضوع اعلان مصر الحرب على دول المحور وأن دولة ماهر باشا سيلقى بيانا فى هذا الشأن فى المجلسين .

وقد خرج المتهم من منزله فى صباح ذلك اليوم ومعه مسدس حشاه برصاصات وقصد الى شارع مجلس النواب الذى يقع فيه دار مجلس الوزراء وهو طريق دولة ماهر باشا يوميا الى مقر عمله الرسمى وسار فى هذا الشارع جيئة وذهابا معينا كل نقطة فيه بدقة المحقق اليقظ لكى يتخير المكان الملائم ليرتكب فيه جريمته المنكرة .

وشهد بعض الشهود أنه ذهب قبل الظهر الى ميدان عابدين ليراقب حركات ماهر باشا ٠

ثم قابل صديقا له هو محمود مرسي محمد أفندي ورجاه أن يساعده على الحصول على تذكرة ليحضر جلسة النواب فذهب معه الى المجلس لمقابلة أحد أقربائه من النواب فلم يجد ٠ ثم ذهبا معا الى وزارة المالية للاحتماء من المطر ٠

وكان المتهم في الوقت نفسه يدرس الموقف كما اعترف بذلك ٠ وقد رآهما هناك بعض محامي قلم قضايا المالية ٠ ثم قصدوا بعد ذلك الى مكتب الأستاذ عبد المقصود متولى حيث عقد بعض أعضاء الحزب الوطني اجتماعا هناك ٠

ولما دخل المتهم على المجتمعين صرفوه بالحسنى ٠

ثم عاد المتهم وزميله الى شارع مجلس النواب ثم الى ميدان الخديوي اسماعيل وجلسا في مقهى هناك والمتهم يترقب مرور سيارة ماهر باشا ٠

وفي الساعة الرابعة والنصف دخل المتهم مجلس النواب وحده بعد أن تركه صديقه محمود مرسي ، ولم يعترضه أحد من الحراس مع الأسف ٠ وجلس بين بعض الشبان في البهو الفرعوني آمنا مطمئنا ودار بينه وبينهم حديث حول موضوع اعلان الحرب الى أن قال حسين عباس أفندي أحد الجالسين ان دولة ماهر باشا رجل واسع الصدر يرحب بكل من يناقشه ليقنعه بسداد رأيه ٠

وسوف يمر ماهر باشا بالبهو ذاهبا الى الشيوخ بعد قليل ٠

وسمع المتهم هذه العبارة فاطمأن لنجاح خطته وانتظر

وبعد قليل خرج دولة ماهر باشا قاصدا قاعة الشيوخ وما كاد يصل الى البهو الفرعوني حتى قام المتهم واتجه نحو ماهر باشا شاهرا مسدسه ، وأطلق منه عدة طلقات أصابت الفقيد ، فخر صريعا وفاضت روحه الطاهرة ٠

ثم أخذ الطوير باشا يشرح تفصيل ما حدث بعد ذلك من القبض على المتهم مشيرا الى ان المتهم عقب القبض عليه قال لمكرم باشا أن له اثنين وعشرين شريكا سيقتلون كل رئيس وزارة يجرؤ على اعلان الحرب ٠

وقد بذل سعادته مجهودا كبيرا لا يحب أن يذكره ٠ كما بذل رجال البوليس مجهودا آخر في تحرياتهم للوصول الى شركاء المتهم دون جدوى ٠

وبعد أن أخذ النائب العام يسرد ظروف التحقيق وخطواته • انتقل الى التطبيق القانونى قائلا أنه لا جدال فى توافر أركان جريمة القتل العمد ، فالركن المادى وهو فعل القتل قد تم بيد المتهم مباشرة •والركن الأدبى وهو القصد الجنائى متوفر اذ أن ارادة المتهم انصرفت الى احداث النتيجة التى سعى اليها وهى ازهاق الروح باستعمال سلاح قاتل •

أما ظرف سبق الاصرار فمتوفر أيضا من تفكير المتهم فى جريمته تفكيرا طويلا هادئا من أيام قبل الاقدام على ارتكابها وتخصيصه يوم الحادث بأكمله لارتكاب الجريمة ، ومعاينة المكان الذى يمكن تنفيذ الجريمة فيه ومن اعداده المسدس وتجهيزه بالطلقات وهو محام من حملة الأقلام لا السلاح •

وظرف الترصد متوفر كذلك من تربصه طول يوم ٢٤ فبراير فى الأماكن التى توقع أن يمر منها ماهر باشا حتى انتهى به المطاف الى انتظاره مدة ساعة فى البهو الفرعونى •

وخلص الطوير باشا من هذا الكلام عن التهم الثلاثة الأخرى ودلل على أن المتهم كان يقصد قتل الصاغ اسماعيل أبو العزم والأستاذ سعد اللبان بل كان ينوى قتل كل شخص يحاول اعتقاله كما شهد بذلك كل من الطالبين أمين محمود سامى وعبد اللطيف مصطفى المراغى •

وتكلم الطوير باشا عن التهمة الرابعة وهى احراز السلاح قائلا ان المتهم اعترف بملكية المسدس وأنه هو الذى استعمله فى القتل •

وشهد الأستاذ سعد اللبان أنه هو نفس المسدس الذى استخلصه من المتهم فالجريمة متوفرة وذكر سعادته ان الدفاع حمل عليه لأنه لم يسأل المتهم ويده لا تزال مخضبة بدم القتيل « هل عندك رخصة بحمل سلاح أم لا ؟ » أظن لو طرح هذا السؤال فى هذا الوقت لقيل انه سخيف •

وقد استنتجت أن المتهم اذا أراد أن يرتكب القتل فلا يفكر أبدا فى الذهاب الى وزارة الداخلية وادارة الأمن العام ليطلب ترخيصا بحمل سلاح •

وفوق هذا فالمتهم محام درس القانون وقد سألته فى مبدأ التحقيق من أين لك هذا المسدس فلو أن عنده رخصة لذكر لى ذلك •

ومع ذلك فاذا كان المتهم يحمل ترخيصا بحمل سلاح فليقدمه لنا الآن ، والا فأنا مصيب فى استنتاجى •

ثم عرج على اعتراف المتهم • فقال ان مجمل هذا الاعتراف أنه يرى

أن دخول مصر الحرب معناه دك مدنها وتخريب قراها وأن هذا دفعه الى التفكير فى منع دخولها الحرب بأية وسيلة فلم يهده تفكيره السقيم ، ولم يجد أمامه غير قتل أحمد ماهر باشا ٠

وقال أيضا انه كان قد فكر فى قتله فى سنة ١٩٤١ وعدل عن ذلك لموت فكرة اعلان الحرب حينئذ ٠

واستطرد سعادته قائلا : قد يقال ان الجريمة سياسية ويكفينى فى الرد على ذلك الاشارة الى ما تناوله الأستاذ على بدوى بك فى القانون الجنائى من أنه ليس فى التشريع المصرى تفريق بين الجرائم السياسية والجرائم العادية فالعقوبات والاجراءات واحدة ٠ ثم ان المتهم ارتكب جريمته دون أن يعرف اذا كان ماهر باشا على حق أو خطأ ، فلم يصبر حتى يقرأ بيانه ليعرف ان كانت حربا هجومية أم دفاعية ٠

ولم يترك الحكم فى ذلك لنواب الأمة وشيوخها كأنما حسب نفسه أكبر منهم عقلا وأوسع أفقا ٠

ثم تناول سعادته بعد ذلك أخلاق المتهم الشخصية فذكر ما قاله عنه عبد الرحمن الرافعى بك الذى قضى مدة التمرين فى مكتبه حيث قال عنه انه شاب رقيق الحال غير ناجح فى المحاماة ولا ملتفت لعمله ٠

وقال عنه عبد السلام مصطفى انه مبتعد عنه لأنه قليل الأدب ٠

وقال أخوه ابراهيم محمد العطار انه كان يضرب آمه ويسىء معاملتها وانه ما كان يتكسب شيئا من المحاماة وانما يحصل على نقوده من أخيه غصبا وأنه عقب تخرجه من الكلية رفع عن أخيه دعوى يطالبه بنفقة وكانت هذه أول قضية يستفتح بها عمله ٠

وانتقل سعادته بعد ذلك الى ذكر مناقب الفقيد وخدماته الوطنية وكيف استنكرت البلاد هذه الجريمة الدنيئة ملكا وحكومة شعبا ٠ وختم مرافعته طالبا آن لا تأخذ المحكمة رحمة فى هذا الجرم الشرير ، وأن تقضى بالاعدام لا انتقاما منه فهو أضعف وأضأل شأنا من أن يستأهل التفكير فى الانتقام منه ، ولكنه جرثومة خبيثة فى أرض مصر يجب أن تمحى من الوجود ، وليكون اعدامه عبرة لمن تسول له نفسه أن يقتدى به فى عمله الأثيم » ٠

***

وفى بداية الجلسة التى بدأت فى الســـاعة التاســـعة من صباح ١٩٤٥/٧/١٤ وبعد أن نودى على المتهم ووقف ، قال الأستاذ على بدوى : زرت أول أمس المتهم فى السجن بناء على طلبه فوجدته متأثرا شديد القلق

من جراء ما حدث أول أمس ، وقد قال لى ، ان بعض وسائل دفاعه ، لم تحقق على الوجه الذى كان يرجوه · وقد قلبت الأمر من جميع نواحيه وأنا أشعر بخطورة موقفى كمحام ، مع جسامة التهمة الموجهة الى المتهم خصوصا ·

وقد سمعت سعادة النائب العام يطلب رأسه مرتين فى مرافعته · وقد شعرت بعظم مسئوليتى كمحام ، ألقى على عاتقه الدفاع عن محام آخر ، وكأستاذ ألقى تلميذه بعنقه بين يديه ·

ولم أكن بالشخص الذى احترف السياسة يوما ما ، وما اتخذت لنفسى لونا حزبيا ، ولم أعتد التفكير فى أداء واجبى تفكيرا سطحيا ولا أنظر الى الأمانة التى فى عنقى مثل هذه النظرة فانى أعيش بشعورى وبضميرى وأخشى أن يطاردنى ضميرى فى المدة الباقية من حياتى اذا لم أؤد واجبى على ما ينبغى ولم أجد أن وسائل الدفاع عن المتهم قد استكملت تماما ، انى لا أستطيع أن أسلم عنق هذا المتهم الى حبل المشنقة الا بعد أن أبدى جميع وجوه الدفاع ، لا من حيث الدفع بعد الاختصاص ولا من حيث تقدير العقوبة فقط ، بل أيضا من حيث الظروف النفسية والاجتماعية التى لابست الجريمة ·

ولست هنا فى مقام المفاضلة بين فرد وآخر كما أننا لسنا فى مقام تقدير الفضائل الشخصية لفرد من الناس ، بل يجب علينا ــ اتهاما ، ودفاعا ــ أن نتنزه عن ذلك فلسنا أمام قضية بغيض وشهيد كما حددتها النيابة ، وانما نحن أمام قضية تتصل بحياة البلاد التاريخية فى الحاضر والمستقبل ·

نحن أمام فكرة تملكت نفس المتهم ولم يكن وحده الذى أحس بها ، بل أحس بها كثيرون ، بل فريق كبير من الأمة ، والأحزاب : انما نحن أمام حدث سياسى اعتقد المتهم كما اعتقدت أنا أن مبعثه انما كان وحى الانجليز وتدخلهم ، نحن أمام حرب لا ندرى هل قصد أن تكون دفاعية أم تكون هجومية ، ولكن يترتب عليها عقلا على كل حال تكليف البلاد برجال ومؤونة وذخيرة ، ولا ندرى ما اذا كانت ستجنى منها البلاد فى مقابل التضحيات التى تبذلها ثمارا أم لا نجنى شيئا ·

أمام هذه الأمور ، المتعددة يجد المتهم ويجد الدفاع نفسه مضطرا الى الاستعانة بالأدلة والمعلومات التى تؤدى الى تحقيق ما يدعيه ، ولذلك طلب المتهم أول أمس أن يستدعى للشهادة أمام هذه المحكمة الموقرة ليس فقط النقراشى باشا ، ولكن صاحب الرفعة مصطفى النحاس باشا وصاحب

المعالى حافظ رمضان باشا وصاحب الفضيلة الشيخ حسن البنا رئيس الاخوان المسلمين والأستاذ فتحى رضوان المحامى ، فهؤلاء يريد الدفاع أن يسألهم عن مدى حقيقة ما يذهب اليه المتهم ولا حرج على العــدالة ولا القضاء فى هذا لأن جلال العدالة فوق جلال كل شخص ، وسلطان القضاء يسمو على كل سلطان والحرج للعدالة أن لا يستوفى وجوه الدفاع · ولذا أرجو وألح فى الرجاء أن تحققوا لهذا المتهم دفاعه وتمكنوه من أن يستعمل كل وسيلة لاظهار حقيقة هذا الدفاع وأطلب من حضراتكم أن تفصلوا فى هذا الطلب قبل أن أبدأ مرافعتى ، ويلح الأستاذ على بدوى فى أن تتداول المحكمة من جديد فى هذا الطلب لأن القرار الذى صدر أول أمس ، كان خاصا بدولة النقراشى باشا وحده ، والطلب الذى أتقدم به اليوم يتعلق بأشخاص آخرين سيشهدون وقائع جديدة واجابة هذا الطلب ضرورية كى أبدأ دفاعى وأنا مطمئن وحتى يشعر المتهم نفسه بالاطمئنان وأؤكد لحضراتكم اننى مخلص فى طلبى هذا ولا أبغى الا تحقيق العدالة ·

وأبدى المتهم رغبة جديدة فى اســـتدعاء على ماهر ، ومكرم عبيد والدكتور محمد هاشم والأستاذ عبد العزيز الشوربجى المحامين للشهادة، وعن الوقائع التى سيشهد هؤلاء الشهود عليهـــا قال المتهم : رفعة على ماهر يشهد أنه تقابل مع السفير البريطانى قبل الحادث باسبوعين وتناول الغداء فى منزل حسن نشأت وتناقشنا فى اعلان مصر الحرب ، وكان السفير البريطانى ساعيا الى اعلان الحرب ، وهذه يؤيدنى فى ان الحرب أعلنت بناء على رغبــة الانجليز ولمصلحتهم ، وانهم كانوا شاعرين بأن الحكومة لا تتمتع بثقة الشعب واختاروا على ماهر باشا المعروف بعدائه القديم لفكرة الحرب ·

ويشهد معالى مكرم عبيد باشا بأنه أخبرنى ــ وهو معتقل معى بسجن الأجانب ــ أندولة أحمد ماهر باشا كانمعارضا للانجليز فىالحادث المعروف بحادث ٤ فبراير ، وفى أزمة ابريل التى أراد فيها جلالة الملك اقالة الوزارة الوفدية فأصر الانجليز وقتها على عدم حدوث تغيير ، ولكنه قد ناقض هذه المواقف السابقة التى كان يعارض فيها التدخل الانجليزى فى شئون مصر ، وأصبح لا يعارض فى هذا التدخل ما دامت مصلحة شخصية منه ·

أما الأستاذ عبد العزيز الشوربجى والدكتور محمد هاشم فانهما يشهدان بأنى قابلتهما بعد خروجى من المعتقل وذكرت للدكتور هاشم ما سمعته عن مكرم باشا دون أن أذكر مصدرى فنفاه ، فلما ذكرت له انى سمعت ذلك من مكرم عبيد باشا قال لى انه ما كان يصح لمكرم باشا

أن يذيع الأسرار على هذا النحو ، وقال المتهم محمود العيسوى : انى لا أتعرض لشخص دولة ماهر باشا ،ولا أقصد احراجه ولكن هذه الوقائع تبين صدقى حين أقول ان اعلان الحرب انما كان بناء على طلب الانجليز ولمصلحتهم دون نظرة لمصلحة مصر ·

وتدور مناقشة بين المتهم وبين رئيس المحكمة حول بيان على ماهر باشا على النحو التالى :

الرئيس : هل اطلعت على بيان ماهر باشا ·

المتهم : اطلعت عليه فى الصحف ·

الرئيس : ما قولك فيما أشار اليه هذا البيان مما يخالف ما تقوله ·

المتهم : أنا أقدم الدليل على ما ذهبت اليه من أقوال الشهود فى بيان·

وهنا لفت سعادة رئيس المحكمة نظر المتهم الى ما جاء فى بيان ماهر باشا ، وقدم له عدد الوقائع الرسمية التى نشرت البيان المذكور ، وقال ان ماهر باشا كان يستطيع أن يستصدر مرسوما باعلان الحرب الدفاعية كما فعل النقراشى باشا ، ولكن ماهر باشا لم يرد أن يستبد بالأمر فعرض الموضوع على البرلمان وألقى بيانه بمجلس النواب وترك المجلس يتناقش فيه وكان عندما ارتكبت جريمتك فى طريقه الي مجلس الشيوخ لعرض الأمر عليه أيضا ·

ويسأل رئيس المحكمة المتهم : هل تدخلت انجلترا فى اعلان تركيا الحرب ؟

ويقول المتهم : ان هذا لا يمنع من أن أبدى دفاعى وان أتقيد بما جاء فى بيان ماهر باشا وانى أريد أن أسجل طلبا آخر بسببه وهو أن تأمر المحكمة بأن يضم من مجلس الوزراء الانذار الذى وجهه الانجليز لدولة ماهر باشا عندما رشح الأستاذ على البرير لعضوية مجلس النواب فى دائرة عابدين لأن ذلك يدل على أن ماهر باشا وافق على تدخل الانجليز ·

ويسأل الرئيس المتهم : هل أنت ممن يحترمون حرية الرأى ؟
ويجيب المتهم : نعم وأنا وطنى ، وممن يؤيدون الحياة النيابية !

ويدور حوار بين المتهم ورئيس المحكمة حول رحابة صدر د · أحمد ماهر باشا وكونه ممن يحرصون على الحوار ، ويقول المتهم ان كل شىء سوف يأتى فى دفاعى وان واجب المحكمة أولا أن تمكننى من تقديم أدلتى وأنا مستعد بعد ذلك للمناقشة ·

وأخيرا قال الرئيس أن المحكمة قد قررت سماع مرافعة الدفاع أولا ، واذا رأت بعد ذلك ضرورة لسماع الشهود فانها سوف تستدعيهم ٠

ووقف الأستاذ على بدوى معلنا أسفه لأنه لن يستطيع المرافعة الا اذا قررت المحكمة استدعاء الشهود الذين طلبت سماع أقوالهم ، والا فأرجو ان تعفينى المحكمة من الدفاع عن المتهم وتثبت انسحابى ٠

وقال رئيس المحكمة :

ـ علشان المحكمة تنظر فى هذا الانسحاب يا على بك فهى تلاحظ أن المتهم لم يطلب هذه الطلبات فى التحقيق كما أن الدفاع لم يشر اليها فى الجلستين الأوليين ٠

وقد أعطيت كل حرية فى مقابلة المتهم فى السجن فى أى وقت ٠ وحتى على انفراد ، ومع ذلك لم يطلب هذه الطلبات مطلقا ٠

أما والمتهم يطلبها بعد جلسات متعددة والمحكمة مع ذلك لم ترفضها ، وانما قالت ستنظر فيها بعد سماع المرافعات تأتى اليوم وتطلب الانسحاب بعد ثلاث جلسات ٠ هذا غريب يا على بك ان المتهم تكلم عن نفسه ، أفلا تناقشه المحكمة فى هذه الأسباب التى يطلب من أجلها اعلان شهود ٠

ألا تعرض عليه بيان ماهر باشا وتسأله عن رأيه فيه ما دام يقول انه ارتكب القتل ليمنع اعلان الحرب ؟ ان المحكمة لم ترفض هذه الطلبات ولكنها رأت أن تلتزم قرارها فى أنها ستنظر فيها بعد سماع المرافعات حتى اذا رأت أن هناك ضرورة لسماع هؤلاء الشهود استدعتهم ، هل الدفاع يلزم المحكمة باصدار قرار ضد رغبتها والا فهو ينسحب ؟

المتهم ـ النيابة منعتنى منعا باتا من اتمام دفاعى ٠

الرئيس ـ وما الذى منعك من أن تطلب سماع الشهود فى أول جلسة أو فى ثانى جلسة ، لقد طلب محاميك ضم أوراق ونسخ أوراق واعادة فحص الاحراز فأجبناه الى كل طلباته ، فلماذا لم يطلب أيضا اعلان شهود ؟

المتهم ـ المحكمة سألتنى أن أقدم لها الأدلة على أقوالى ، فأنا عاوز اقدم أدلتى وأنا غير مقيد بالبيان ٠

وهنا سألت المحكمة سعادة الطوير باشا النائب العام عن رأيه فى طلبات الدفاع فذكر أن ما قاله المتهم من عدم تمكينه من استكمال دفاعه فى التحقيق فرية شنيعة ٠

وقال أن الرد على هـذه الأقوال موجود فى أقوال المتهم المفصلة تفصيلا دقيقا ٠

وقد كنا حين نسأله فى موضوع اسباب الجريمة يتهرب من الرد ٠

ويدعى إنه تعب أو مريض فتجدون حضراتكم أن سكوته كان من تلقاء نفسه كلما أحرج فى سؤال ، وكل ما طلبه المتهم أجبناه اليه ٠

أما ما يطلبه المتهم الآن من اعلان شهود فأرى أن بعضهم موظف عمومى محظور عليه إفشاء الأسرار بحكم المادة ٢٠٢ من قانون المرافعات ثم قال فاذا كانت لدى رفعة النحاس باشا أية معلومات فى هذا الصدد وصلت الى علمه بحكم مركزه السابق فهو لا يستطيع الادلاء بها ، وكذلك دولة النقراشى باشا ومعالى مكرم عبيد باشا ٠

أما عن باقى الشهود فأرى أن الدفاع يلجأ فى كل جلسة الى المفاجأة وانى أترك للمحكمة تقدير ذلك ٠

ووقف على بك بدوى قائلا أننى أود الرد على ملاحظة المحكمة الخاصة بعدم سماع الشهود فى الجلسة السابقة بأن أقرر بكل احترام ، أن الدفاع يملك أن يتقدم فى أية مرحلة من مراحل القضيـــة بما يشاء من الأدلة ولا يسعنى الا أن أصارح حضراتكم بأننى منذ أول مرة قابلت فيها المتهم طلب منى سماع هؤلاء الشهود (وقال المتهم : هذا حصل) ولكنى لم أطلبهم خشية الاحراج ومع ذلك رأيت من واجبى فى هذه المرحلة أن أطلب سماع شهادتهم ، وأرجو أن أجاب الى هذا الطلب ٠

★★★

وقد أشار سعادة النائب العام اشارة لا أعرف كيف أصفها كريمة أم غير كريمة ، فلست أنا الذى أفاجىء المحكمة كل يوم بمفاجأة جديدة ٠ وما هى هذه المفاجآت هل الدفع الفرعى بعدم الاختصاص ، وهو دفع قانونى يعد مفاجأة ؟ إنا لم افاجئك بشىء يا باشا ، ولا تتصور أننى من الأشخاص الذين يلجأون الى هذا فأنا لا أسمح أبدا بذلك لقد حافظت على شعورك فتأتى وتطلب من المحكمة أن تنظر فى سلوكى ٠ أنا رجل أقدرك وأحبك فتكلمنى بهذه اللهجة ٠

وهنا تدخلت المحكمة وقال سعادة رئيسها ان المحكمة لم تفهم من أقوال سعادة النائب العام ما فهمه الدفاع ، وان كان ما تقوله النيابة تقصد به الاعتراض على سماع الشهود الذين طلبهم المتهم ٠

ووقف النائب العام وقال انه لم يقصد ما أشار اليه على بك وانه هو أيضا يبادله التقدير والاحترام ٠

ثم عاد علي بك بدوي الى الكلام في الموضوع ورد على الناحية القانونية المتعلقة بنص المادة ٢٠٢ مرافعات ، فقال ان المشرع يقصد بها نوعا خاصا من الموظفين العموميين كالأطباء ، والصيادلة والقابلات ومن في حكمهم ، ومع ذلك فان ما سنسأل عنه الشهود لا يعد سرا من أسرار الدولة . وهذه المادة تقصد الأعمال العامة وليست الأعمال الخاصة .

ومن يدرينا أن هؤلاء الشهود عندما يحضرون لا يترددون في الادلاء بكل ما يطلب منهم ويرون الادلاء به .

وبناء على ذلك فانا متمسك بطلباتي ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

ورفعت الجلسة للمداولة في طلب الدفاع ثم أعيدت لتعلن قرارها بتأجيل النطق بالقرار فيما أثاره الدفاع الى الغد .

★★★

وفي جلسة ١٤٩٥/٧/١٥ كان المتهم محمود العيسوي - ومنذ ساعة مبكرة - جالسا في القفص وكانت مظاهر التعب بادية عليه وقد بدا كما قالت جريدة المصري - شاحب اللون ، شارد الذهن .

وأعلن رئيس المحكمة فور افتتاح الجلسة أن المحكمة عنيت بالبحث عن أول من نشر الخبر الخاص بوالد المتهم وعدد زوجاته وقد سمعته من محطة الإذاعة .

ولكن ظهر للأسف ان الخبر نشر في جريدة البلاغ ، ثم اذاعته المحطة ، ولذلك فانا أنصح حضرات مندوبي الصحف الذين يحضرون في المحاكمات الا يبتكروا أخبارا من عندهم مهما كانت أخبار مشوقة لأن ذلك قد يضر العدالة فوق مخالفته للحقيقة .

ثم قال ان المحكمة فيما يتعلق بالشهود الذين طلبهم الدفاع والمتهم بجلسة أمس ، قد قررت تأجيل القضية لجلسة الأربعاء ١٨ الجاري وعلى النيابة استدعاء دولة النقراشي باشا رئيس مجلس الوزراء .

ونوقف رئيس المحكمة قليلا ثم وجه كلامه للمتهم قائلا : قبل أن أتم النطق بالقرار أريد أن اسألك يا محمود أنت قررت الوقائع التي تريد الاستشهاد عليها فيما يتعلق بالشهود ، ولكنك لم تذكر الوقائع التي نستشهد عليها برفعة مصطفى النحاس باشا وبمعالي حافظ رمضان والأستاذ فتحي رضوان المحامي وفضيلة الشيخ حسن البنا فما هي هذه الوقائع ؟

وقال المتهم : الدفاع بين الوقائع أمسى تفصيلا ٠

وقال رئيس المحكمة : يجب بحسب القانون أن تقرر ما هى الوقائع المطلوب الاستشهاد عليها ٠

وقال الأستاذ على بدوى بك : اذا سمح لى آن أتكلم فانى أذكر أنى قلت اننا سنطلب :

أولا : معلومات بخصوص الغرض من اعلان الحرب ٠

وثانيا : معرفة الثمار التى جنتها مصر من اعلان الحرب ٠

وثالثا : اذا كان اعلان الحرب جاء بناء على وحى من الانجليز أم لا ؟ أى هل سبق أن طلبوا اعلانها أم لا ؟

ورابعا : هل كان المراد أن تكون حربا هجومية أم دفاعية ؟

وهل كان المطلوب تقديم رجال وجنود أم لا ؟

وخامسا : هل اعلان الحرب كان يتفق مع شعور الفريق الغالب من الأمة أم لا يتفق معه ؟

ويضيف المتهم سؤالا أخر : هل البرلمان الحالى فى قراره اعلان الحرب يمثل رأى الأمة أم لا ؟

وقال الرئيس : ان القضية يجب آن لا تخرج عن حدودها ويجب أن لا تتعرض لأشياء تخرج بها عن دائرتها ٠

على بدوى بك : الواقع ان هذا السؤال من المتهم تجاوز ٠

المتهم : أنا قلت لرئيس الوزارة نفسه أن هذا البرلمان لا يمثل رأى الشعب المصرى ٠

الرئيس للمتهم : يجب أن تلتزم حدود القانون ولن أسمح بتجاوز هذه الحدود ٠

ووجه رئيس المحكمة كلامه الى الأستاذ على بدوى بك قائلا : اننا نوافق على ما قلته من أن المتهم قد تجاوز بهذا السؤال الحد الذى كان يجب أن يقف عنده ٠

فقال الأستاذ على بدوى : ولكنى أرجو ألا يضيق علينا النطاق لأن من حقنا أن نسأل هؤلاء الشهود عما اذا كان شعور المتهم يتفق مع شعور الغالبية أم لا ٠

ويطلب رئيس المحكمة من المتهم أن يترك أمر الدفاع لمحاميه الذى درس ظروف القضية ورسم خطة دفاعه منها ، وأن يريح المحكمة مـن تدخلاته دون أن ينسى أنه متهم •

وأنت سيد من يعرف حقوق الدفاع وحدوده ، ثق أننا سنرحب بجميع الاسئلة التى توجه للشهود طالما أنها كانت متعلقـة بموضـوع القضية ، ويوافق الأستاذ على بدوى على ما يراه رئيس المحكمة ، ولكـن المتهم يلح فى أن يسأل النقراشى باشا عن تمثيل البرلمان للأمة ، ويعلن تصميمه على طلب ضم الانذار الانجليزى لمـاهر باشـا بشـأن ترشيح الأستاذ على البرير بدائرة عابدين •

ويرى رئيس المحكمة ، أنه لا دخل لهذا بمسألة اعلان الحرب التى كانت دافعا للمتهم على ارتكاب جريمته مؤكدا أن المتهم لم يقل شيئا فى التحقيق عن هذا الانذار •

ويقول المتهم :

أنا أرسلت احتجاجا بخصوص مسألة الأستاذ على البرير الى دولة ماهر باشا ، ولم أتمكن من أن أقول ذلك فى التحقيق لأن النيابة منعتنى وقد تكلمت النيابة فى دفاعها عن وطنية أحمد ماهر باشا وأنا أريد أن أدلل على مدى هذه الوطنية •

وتجيب المحكمة بطلب المتهم نزولا على رغبة على بدوى بك ، وحتى يتولى الدفاع عن المتهم وحتى لا تحرم المتهم من سماع مرافعته بأى شكل كان ، كما تجيب الدفاع الى ما طلبه بخصوص الشهود وسوف تستدعيهم جميعا •

وعاد المتهم يقول : لقد كان للانذار تأثير على نفسيتى ، واذا لم يضم فانه يمكننى فى دفاعى عن نفسى أن أترافع على أساس أن المحكمة تسلم بصحبته •

وعاد رئيس المحكمة يؤكد تأجيل القضية لجلسة الأربعاء ١٨ الجارى وعلى النيابة استدعاء صاحب الرفعة مصطفى النحاس باشا ، وحضرتى صاحب المعالى مكرم عبيد باشا وحافظ رمضان باشا ، ود• محمد هاشم عضو مجلس النواب ، والأسـتاذ فتحى رضوان المحامى والأسـتاذ عبد العزيز الشوربجى المحامى وفضيلة الشيخ حسن البنا •

ويسأل رئيس المحكمة الأستاذ على بدوى : هل ترى فضيلة الشيخ

حسن البنا معلومات بخصوص اعلان الحرب ويجيب الأستاذ على بدوى بأن لديه فعلا معلومات قيمة فى ذلك ٠

وشكر الأستاذ على بدوى للمحكمة هذا القرار ، ثم يضيف قائلا : أنا اذا كنت قد أعلنت أننى سأنسحب فى حالة عدم استدعاء الشهود الذين طلبت سماع شهادتهم فان ذلك لم يكن تحديا منى للمحكمة والله يعلم أننى ما قصدت ذلك مطلقا ٠

ويقول الرئيس : ان المحكمة لم يتطرق اليها شك فى نيتك ، ونحن راغبون كل الرغبة فى سماع مرافعتك وحريصون على ذلك كل الحرص ونشكرك على ماتتكبده من عناء ٠

***

وتزدحم المحكمة فى صبيحة يوم ١٨/٧/١٩٤٥ ويقول النائب العام أن النحاس باشا أرسل خطابا للمحكمة يعتذر فيه عن عدم الحضور لأن صحته لا تزال متأثرة ، ويشير النحاس فى رسالته بأنه ليس لديه أكثر من القرار الذى أصدره الوفد بخصوص طلب الحكومة برئاسة المغفور له أحمد ماهر باشا من البرلمان الموافقة على اعلان مصر الحرب ضد دول المحور وأن رأى الوفد كان مفصلا وصريحا فىعدم الموافقة علىهذا الطلب للأسباب الموضحة فى القرار الذى نشر بصحيفة البلاغ بتاريخ ٢٤ فبراير سـنة ١٩٤٥ ، وقد أرفق رفعته بالخطاب نسخة من العدد المشار اليه من جريدة البلاغ » ٠

***

ويطلب النائب العام أن تكون الجلسة سرية ، ويعارض على بدوى فى هذا الطلب خاصة وأن العلانية تفيد القضية ولا تضرها ، وبعد مداولة سريعة تقرر المحكمة سرية الجلسة مراعاة للنظام العام ٠

وبعد أن تم اخلاء قاعة الجلسة من جميع الموجودين بها ولم تترك سـوى هيئـة الدفاع عن المتهم وحضرات المحامين الذين كانوا يرتدون الأرواب الخاصة بالمحامين والجنود فيما عدا الضابطين المعينين لحراسـة المتهم وأربعة جنود ثم أغلقت أبواب قاعة الجلسة ٠

وتم سماع ــ بالترتيب ــ شهادة كل من النقراشى باشا وعلى ماهر باشا ومكرم عبيد باشا وحافظ رمضان باشا والدكتور محمد هاشم ، ثـم الأستاذ عبد العزيز الشوربجى ثم الأستاذ فتحى رضوان وأخيرا فضيلة الشيخ حسن البنا ٠

***

وفى بداية الجلسة التى عقدت بتاريخ ١٩٤٥/٧/٢٢ قال رئيس المحكمة لفت نظرى تعليق لجريدة الكتلة على عدم حضور حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا للشهادة . وكنت أرجو أن يلاحظ الصحفيون ما قلته بخصوص الاقتصار على نشر ما يقع بالفعل فى الجلسه وعدم التعليق على ما يدور فيها وقد أسفت لما جاء فى هذه الصحيفة، فقد أبدى رفعة الشاهد عذرا قبلته المحكمة واننى اكتفى فى هذه المرة بتوجيه هذه الكلمة واذا تكرر ذلك فان المحكمة ستتخذ الاجراءات القانونية ضد الصحيفة التى تقع فى مثل هذه المخالفة ، وأرجو ان يكون رجال الصحيفة عند حسن ظن المحكمة بهم وأن يبعدوا بالقضاء عن مثل هذه المساجلات الحزبية .

ووقف النائب العام يطلب نشر الوقائع التى جرت فى الجلســـة السرية ، لانه عندما طلب بأن يكون الجلسة سرية كان يخشى من احراج بعض الشهود اذا سئلوا عن تصرفات دولة المغفور له أحمد ماهر باشا وحتى يتمكنوا من الافضاء بأشياء قد تشكك فى وطنية أحمد ماهر باشا. ولأنه كان يتوقع لما يعرفه من سوء خلق المتهم أنه سيلقى على بعض الشهود أسئلة أو ملاحظات قد لا تتفق مع ما يجب لهم من الاحترام، والمتهم ممن يدينون بالقول المأثور : اذا لم تستح فاصنع ما شئت .

وأنا أطلب الآن نشر ما جاء فى الجلســـة السرية حتى لا يكون فى عدم نشرها ما يمكن أن يحمل على الشك فى وطنيـــة دولة أحمد ماهر باشا .

وأعترض الأستاذ على بدوى على الطريقة التى تكلم بها النائب العام عن المتهم وقال أنه لا يقر بها حجته على هذا النحو واذا كان للشهود حقوق يجب أن تراعى فان حق المتهم فى الدفاع عن نفسه هو حق مقدس وهو اولى بالمراعاة .

وقال على بدوى : انى ارحب بنشر ما جاء فى محضر الجلســـة السرية ولى على أقوال الشهود ملاحظات على كل حال أشير اليها فى مرافعتى دون مساس بما يتفق مع سرية الجلسة .

وقال المتهم : اذا كانت المحكمة ستامر بنشر ما جاء بمحضر الجلسة السرية فانى أطلب سماع الشهود فى جلسة علنية ، وأما ما يوجهـــه الى سعادة النائب العام ، فان هذا بعض ما كان يوجهه الى ، والى والدى فى التحقيق وهذا يدل .

ونطق المتهم بكلمات وصفها رئيس المحكمة بأنها غير لائقة ، وطلب من الصحفيين عدم نشرها ، وأبدى الأستاذ على بدوى أسفه لما بدر من المتهم .

ورأى الأستاذ على بدوى أنه كان قد وجه سؤالين أولهما خاص بدولة النقراشى باشا ، والثانى خاص بالشيخ حسن البنا ، وان هذين السؤالين لم يثبتا فى محضر الجلسة السريه .

ويدور حوار بين الأستاذ على بدوى ورئيس المحكمة حول ما يثبت فى محضر الجلسة ، وما لا يثبت ، رئيس المحكمة يرى أنه لكى يثبت السؤال فى محضر الجلسة ، يجب ان توافق عليه المحكمة ، والأستاذ على بدوى يرى أنه يجب أن تثبت أولا ثم يثبت بعد ذلك اعتراض المحكمة أو عدم الاجابة على السؤال .

***

ويرى رئيس المحكمة عدم اثبات السؤالين لأنهما بعيدان عن القضية ويرى الأستاذ على بدوى أن من حق الدفاع اثبات السؤالين .

ويعلن المتهم تصميمه على سؤال الشهود فى جلسة علنية ، ويقول رئيس المحكمة أنت محام وتفهم أنه بعد اصدار القرار لا يمكن للمحكمة أن تعدل عن اجابة لرغبة متهم ، ولكن المحكمة قد أتخذت معك بصفة خاصة اجراءات لم تحصل فى أية قضية أخرى ، بل ان المحكمة نصحتك بعدم توجه الأسئلة عندما لاحظت أنك تتناقض مع الدفاع .

وقال المتهم : أنا لم أتناقض مع الدفاع مطلقا وأنا واخد بالى .

وقال رئيس المحكمة : يا على بك : هل تعرف أن قرار المحكمة محترم أم لا .

ولكن المتهم يصر على اعادة التحقيق فى جلسة علنية وترفض المحكمة الطلب .

ويطعن المتهم فى محضر الجلسة بالتزوير وانه سأل النقراشى باشا عن المقابلة التى كانت تتم بينى وبينه فى مكتب سعادة النائب العام ، وعن المحادثة التى كانت تدور بينى وبين سعادته بخصوص الأستاذ مقصود قوسه بك رئيس النيابة ،والمحكمة منعت اثبات أسئلتى .

ويقول رئيس المحكمة : اذا منعت المحكمة اثبات سؤال فان ذلك لا يعتبر تزويرا فى محضر .

ويطلب المتهم اثبات سؤاله كما يطلب اثبات ما جاء على لسان

مكرم عبيد باشا بخصوص طلب أمريكا من مصر اعلان الحرب وهل قاله طلبت أم عرضت : اننى لم أتمكن من توجيه أسئلتى الى بقية الشهود ، واذا لم تر المحكمة اثبات طعنى بالتزوير · فأننى أرد الهيئة لأنى لا أستطيع أن أطمئن الى أن الحكم سيصدر بغير ميل منها ·

ويقول المتهم - بعد مداولة المحكمة - أنا لن أبدى دفاعى أمام هذه الهيئة ·

ويطلب رئيس المحكمة ، من الأستاذ على بدوى أن يبدأ مرافعته ولكنه يقول : عندما طلب المتهم رد المحكمة منعنى من المرافعة ·

ويطلب رئيس المحكمة من سكرتير الجلسة اثبات طلب الرد ، ولكن المحكمة تصر على أن يكتب طلب الرد فى الحال ، وأحضروا له ورقة وقلما وجلس ليكتب طلب الرد ، وبعد حوالى عشر دقائق قدم الطلب الى رئيس المحكمة ·

وبعد ساعة ونصف ساعة قضتها المحكمة فى المداولة عادت المحكمة الى الانعقاد حيث نطق رئيس المحكمة بحكم المحكمة فى طلب الرد ، والقاضى يرفض الطلب ·

وهنا قال المتهم : وأنا أعفى أستاذى على بدوى من المرافعة ·

وقال رئيس المحكمة : ان المحكمة هى التى انتدبت حضرة المحامى للدفاع بخطاب منها ·

وقال المتهم : أنا أعفى أستاذى من مهمته مع شكرى وتقديرى له·

وقال الأستاذ على بدوى : انى أعتقد أن المتهم باعتباره متهما له حقوق وان الدفاع عنه باعتباره كذلك عليه واجبات ، فاذا كان من حق المتهم أن يعفينى من واجبى فانه من واجبى أن لا أعفى نفسى ما لم يكن هناك شىء يمس ضميرى ·

أما وقد صدر قرار المحكمة فاننى أول من يحترم قرارها ولو أننى قد لا أوافق عليه واحتفظ لنفسى بحق الطعن فيه ، ولست أستطيع التنحى عن الدفاع فان المتهم اذا كان قد أعفانى من توكيله فان واجبى كمحام منتدب من المحكمة ما زال قائما ·

وقد استهل الأستاذ على بدوى بك مرافعته مشيرا الى خطورة القضية من جميع نواحيها ، وقال أنها خطيرة من حيث شخصية المجنى عليه ، وهو رجل خطير فى شأنه جمع الى كثير من الفضائل تقدير أهل وطنه

والاجانب • وهى خطيرة بالنسبة للمتهم فهو شاب بلغ من الثقافة أكثر ما يبلغه الشباب فى مصر ، وهى خطيرة بالنســبة للباعث على الجريمة فانه يعد ثالث حدث تاريخى فى مصر الحديثة : الأول حدث منذ نيف وسبعين عاما عندما بدأ الاحتلال البريطانى ، والثانى حدث منذ نيف وثلاثين عاما عندما أعلنت الحماية على مصر والحدث الحالى عندما أريد أن تعلن مصر الحرب على دول المحور والقضية خطيرة بالنســبة الى من سمعت أقوالهم من شهود وبالنسبة لنوع شــهاداتهم وهى من أسرار الدولة •

واستطرد فقال أنه نظرا لهذه الخطورة فانه يريد أن يؤدى واجبه كاملا ، ولذلك فقد دفع بعدم اختصاص المحكمة العسكرية بمحاكمة المتهم، وأتم كلامه فى هذا الموضوع فقال : ان الحكمة فى احالة القضايا العادية الى القضاء العسكرى هو ارتباطها بقضــية عسكرية هو أنه يوجد بين أعضاء المحاكم العسكرية عناصر ملمة بالشئون العسكرية ، ولكن ذلك لا يصبح الأخذ به الا حيث تكون الجريمة الأشد • أما اذا كانت الجريمة العادية هى الأشد ـ كما هو الحال فى هذه القضية ـ فان الاختصــاص يجب أن يكون للقضاء العادى ، فيجب أن تتبع جنحة احراز السلاح جناية القتل وليس العكس •

وقال انه لا يصح قياس هذه القضية على قضية مقتل اللورد موين لان جريمة احراز السلاح كانت عند نظر القضية المذكورة تعد جناية أما فى هذه القضية فان جريمة احراز السلاح أصبحت تعد جنحة • وقد وردت فى ذات الحكم الصادر فى قضية اللورد فقرة تشير الى هذه الحقيقة وقال أنه لا يؤثر على ذلك ما يحصل أحيانا من تقديم بعض الجنح التى تقدم بطريق الخيرة الى محكمة الجنايات عند وجود شك فى وصفها بنص الأمر العسكرى الجديد •

وعرض للارتباط بين الجرائم العادية والعسكرية فى ذاته ، وقال ان الذى يجب أن يفصل فى ذلك بحسب رأيه هو القضاء العادى وليس القضاء العسكرى الاســتثنائى ، وللنيــابة أن تطعن فى قراره اذا شاءت •

أما تقديم القضية الى المحكمة العسكرية ابتداء فهو اجراء غــير سليم •

وأشار الى أن النيابة قد جرت فعلا على تقديم جميع المتهمين فى جنايات القتل باستعمال السلاح غير المرخص به فى الأرياف وفى القاهرة

نفسها الى المحاكم العادية · ولم تشذ النيابة عن هذه القاعدة الا فى بعض قضايا منها قضية مقتل اللورد موين وهذه القضية ، وأشـــار الى بعض الأحكام التى أصدرتها محكمة النقض فى مصر وقررت فيها أن المحاكم الجنائية العادية هى صاحبة الاختصاص الأصيل بالفصل فى جميع الجرائم التى يعاقب عليها القانون وأنه لا يجوز لهذه المحكمة أن تتخلى من تلقاء نفسها عن اختصاصها بحجة أن المحكمة العسكرية هى المختصة (وقدم هذه الأحكام) ·

وانتقل على بك الى الكلام فى موضوع الجريمة فقال :

ان موضوع القضية من الخطورة بمكان كبير ، وليس فقط لأن المجنى عليه فيها رئيس حكومة له خطره وانما هى خطيرة من جهة أنها قضـــية المحامى والمحاماة · وأنا أريد أن أوجه نظر المحكمة ونظر سعادة النائب العام الى أن المحاماة ركن من أركان العدالة واذا مس هذا الركن مست العدالة مساسا خطيرا ·

النائب العام ــ أنا أمجد المحاماة أكثر مما يعتقد على بك ·

الرئيس ــ ان سعادة النائب العام يتكلم عن محمود العيسوى المتهم وليس المحامى ·

على بك ــ أرجو أن يكون صدر المحكمة واسعا فنحن لم ندخل فى العميق بعد ، والمحامى كمتهم والمحاماة كمنهة قد مسا فى هذه القضـــية مساسا خطيرا ، وذلك لأن المتهم حرم من لقبه ومهنته فلم ترد فى القضية اشارة واحدة الى أنه محمود العيسوى أفندى وهو الحاصل على الليسانس، وكم كان جميلا من المحكمة أن يقول سعادة الرئيس يا أستاذ محمود ويا محمود أفندى ·

واستطرد فقال ان المتهم كان فى أول الأمر كله ثقة فى ســـعادة النائب العام حتى أنه رفض أن يستجوب الا أمام سعادته ، وقد طلب حضور النقيب فى التحقيق · ولكن سعادة النائب العام خيب ظنه وجعل التحقيق سريا وعسكريا ·

واستطرد بدوى بك فقال ان سعادة النائب العـــام قد أثبت فى صحيفة ١٠ من التحقيق ملحوظة جاء فيها أن المتهم امتنع عن الاجابة فقال: « أنا مش عاوز أجـــاوب الا لما يحضر النقيب ليحفظ كرامة مهنته التى أهينت » ·

وقال : انه يؤسفنى أن سعادة النائب العام لم يثبت ما هى هـــذه الاهانة التى حصلت ، ولكننى عرفت من المتهم وهو رجـــل مثقف يدرك

ما يقول تمام الادراك انه صدرت من النائب العـــام عبارة ماسة بكرامة المحاماة ، والمحامين ، ولا أحب أن أكرر هذه العبارة الان ٠

وهنا وقف سعادة النائب العام وقال : قطعا هذا غير صحيح ولم أقل له الا أنك مجرم أمامي ولست محاميا ٠

علي بدوى علي - يا سعادة النائب العام هذه الاهانة ان كانت صدرت منك حقا فانى أشكرك لأنك كنت آبر بالمتهم فى موقفه هذا من كثير من المحامين أنفسهم فقد جاء فى ص ٨٥ من التحقيق ما يدل على ان نقـــابة المحامين أصدرت بيانا وصفت فيه عمل المتهم بأنه اعتداء دنيء ولكن النائب العام عندما وجه اليه هذا السؤال وصف الاعتداء بأنه آثيم ولم يقل انه دنيء ٠٠ ولكن يبدو أن النقابة خشيت مغبة الحادث فأرادت أن تتنصل منـــه ٠٠

ثم قال انه لن يتعرض الى ما حدث من القبض على أهل المتهم ولكنه يقتصر على لوم رجال البوليس لما عرضوه على المتهم من اعطائه عشرة الاف جنيه اذا أرشد عن شركاء آخرين له فى الجريمة ٠

وذكر أن المتهم صار يعتقد آن النيابة أصبحت خصما له واستمر اضرابه عن الطعام اثنى عشر يوما الى أن أشرف على الهلاك فنقل الى سجن الاجانب فى عربة اسعاف وقد قال سعادة النائب العام انه نقله الى سجن الاجانب لانه كان يريد أن ينتحر ولكن لو كان ذلك صحيحا لما امتنع المتهم عن الاضراب عن الطعام والصحيح أن المتهم كان يشكو سوء المعاملة وقد تغيرت هذه المعاملة بنقله الى سجن الأجانب حتى أنى رأيت رئيس السجن الانجليزى يحيى المتهم بكل احترام ويعامله بكل عطف ، ولو كان يريد أن ينتحر حقا لما أعوزته فى هذا السجن الأدوات الموصلة الى ذلك٠

★ ★ ★

وبجلسة ١٩٤٥/٧/٢٢ واصل علي بك مرافعته فأشار الى اعتراف المتهم فى التحقيق ٠ وقال ان التهم الموجهة اليه هى :

١ - قتـــل دولة رئيس الوزراء السابق مع ســـبق الاصرار والترصد ٠

٢ - الشروع فى قتل الصاغ أبو العزم مع سبق الاصرار ٠

٣ - الشروع فى قتل الأستاذ سعد اللبان مع سبق الاصرار ٠

٤ - احراز سلاح بغير ترخيص ٠

وقد اعترف المتهم بالتهمة الأولى وحدها ، ولكن اعترافا غير كامل ٠

فهو قد اعترف بأنه قتل عمدا دولة رئيس الوزراء السابق ، ولكنه لم يعترف بالوصف ، وأمام هذا الاعتراف ليس أمامي في المرافعة الا أن أعرض الاسباب التي تدعو الى معاملة المتهم بالرأفة ، وهي أسباب استخلصها من ظروف الجريمة ، ومن ظروف المتهم ، ومن ظروف المجتمع، ثم من الباعث الذي حدا به على ارتكابها .

الرئيس - ان النيابة تنسب الى المتهم أنه قتل المرحوم الدكتور ماهر باشا عمدا مع سبق الاصرار والترصد ، ويجب ان يتناول الدفاع الكلام عن الوصف أولا .

على بك - ان سعادة الرئيس يريد أن يستعجل الدفاع قليلا ولكني سأستخلص حقيقة وصف الجريمة من ظروفها المادية و لقانونية .

الرئيس - حضرتك تكلمت عن الرأفة وقد فهمت المحكمة أنك لن تتكلم عن ظرفي سبق الاصرار والترصد ، واني مطمئن الى أنك مترافع عظيم وكل ما هناك أننا نلفت النظر ..

على بك - اذن نستدرك ونقول ان الكلام سيأتي عن ظرفي سبق الاصرار والترصد عند الكلام عن الظرف الاول من ظروف القضية .

★ ★ ★

وتابع بدوي بك مرافعته قائلا : كلما زدت اطلاعا على القضية زاد يقيني بأن الحادث كان من صنع القدر : في صفحتي ٣٦ ، ٧٧ من التحقيق نجد أن المتهم تمشى طوال صباح يوم الحادث ثم بعد الظهر انتوى ان يعود الى مكتبه ثم تشاء الصدفة أن يقرأ في صحيفة البلاغ أن موضوع اعلان الحرب سينظر في جلسة سرية تنقلب علنية وأشار الدفاع الى ما جاء في الجريدة المذكورة في مساء ٢٤ فبراير سنة ١٩٤٥ مما يؤيد ذلك . ثم قال ان المتهم اعترف في صحيفة ٣٨ بأنه قرر أن يذهب الى مجلس النواب بنية حضور الجلسة وبنية الاعتداء على ماهر باشا اذا تمكن من مقابلته شخصيا على أن يكون ذلك بطبيعة الحال قبل أن يصدر القرار الذي كان يريد اصداره لاعلان الحرب ، فاذا قصدنا مع المتهم الى مجلس النواب نجد أن القدر هو الذي أدخله الى المجلس فقد ثبت في المحضر أن المتهم لم يسبق له أن دخل مطلقا قاعات البرلمان ، وانما دخل في ذلك اليوم من الباب الخلفي الموصل الى المكتبة ، وتقابل مع حارسين لم يلتفت اليه واحد منهما، والتفت اليه الثاني لحظة ثم انشغل عنه عندما تدخل حسين عباس وهو من الشبان السعديين والذي قاد المتهم الى البهو الفرعوني وجلسا معا فيه مع بعض الحاضرين وبعض الشبان . وتزعم عباس المجلس وتكلم الجميع

فى اعلان الحرب وتناقشوا فى سلامة أو عدم سلامة هذا الاجراء وعما حدث فى الجامعة من الاضراب وندد حسين عباس بحوادث الجامعة وقرر أن دولة رئيس الوزراء رجل سمح يناقش بالحجة ، وأن دولة المجنى عليه سيقدم بعد قليل مارا بالبهو الفرعونى ، ولم يكن المتهم يعرف شيئا عن ذلك من قبل ، وهنا قرر المتهم آن يبقى فى مكانه حتى يتمكن من ارتكاب فعلته. وقد أيد سعادة النائب العام ما قلت فى صفحتى ٣ ، ٤ من دفاع سعادته المطبوع ، وتلا الأستاذ بدوى بك الفقرات التى يستند اليها فى ذلك من مرافعة سعادة النائب العام .

النائب العام — أرجو أن يكمل الأستاذ بدوى بك كلامى .

بدوى بك — أنا أقرأ ما يناسب .

ثم تابع مرافعته قائلا : واذن فالمتهم ذهب الى البرلمان بعد أن أعلن أن الجلسة ستكون علنية ، وقد ذكرت هذا لأدلل لحضراتكم على أن الذى أنطق حسين عباس بما قال هو الذى أراد تنفيذ الجريمة وقد تدخل القدر مرة أخرى لذات الغرض قبل أن يمر دولة المجنى عليه . فقد أراد دولته أن يدخل الى مجلس الشيوخ فاعترضه ممدوح رياض بك وثابت هـذا مما جاء فى التحقيق . وقد قال له : ابق يا باشا وسأذهب الى مجلس الشيوخ بدلا منك ، ولكن الباشا لم يهتم بذلك بل تقدم يسير الى مجلس الشيوخ ، ونظرا الى شخصية القادم من جهة والى خطورة الظروف التى مر فيها بعد بيانه فى الجلسة السرية . نظرا الى ذلك اتجهت اليه جميع الأنظار وتقدم اليه جميع الأشخاص وانضم الى موكبه بعض الشخصيات. ونظرا لما عرف عن دولته من سعة الصدر فقد تمكن المتهم من أن يعترضه وأن يطلق النار عليه دون أن يخطئه . وقد جاء على لسان الشهود أن جمهور الحاضرين قد أزعجه صوت الطلقات فانفضوا من حول المجنى عليه ومكن هذا المتهم من أن يتم جنايته .

وتكلم بدوى بك بعد ذلك عن تطبيق الوقائع المتقدمة على النصوص القانونية فقال : ان المادة ٢٣٢ من قانون العقوبات قد وصفت الترصـد بأنه تربص الانسان لشخص فى جهـة أو جهـات كثيرة مدة من الزمن ليتوصل الى قتله ، ولكن هذا المعنى غير متوفر فى الوقائع التى سردناها، فان المتهم قد ذهب بنية حضور الجلسة وبنية الاعتداء على الباشا اذا تمكن من مقابلته وقبل أن يصدر المجلس قراره بالموافقة على اعلان الحرب فوجد نفسه عرضا فى البهـو الفرعونى انتظارا لتحويل الجلسة الى جلسة علنية فعلم بمجرد الصدفة أن الباشا سيمر ، فكل ما ورد فى ذهنه هـو تحول

فى النية وهو انتظار قدوم دولة رئيس الوزراء لقتله ، أى استمر فى جلوسه وهذا لا يعد ترصدا ، لأن الترصد ظرف مادى يجب أن يقوم المتهم فيه بعمل مادى يستطيع به أن يرصد كمينا للمجنى عليه وهو ما لم يحصل ، ولم يكن ذهاب المتهم الى القصر العينى أو المالية بقصد قتل بل — كما قرر فى التحقيق — لكى يراقب حركات ماهر باشا ويعرف هل كان يمكن قتله أم لا • ومما يقطع بذلك أنه فى ترقبه لدولة ماهر باشا فى القصر العينى أو فى وزارة المالية لم يكن يحمل معه مسدسه • أما انتظاره اياه فى البهو الفرعونى فلم يكن للتربص لقتله بل انتظارا لتحويل الجلسة الى علنية •

الرئيس — تسمح أن ألفت نظرك الى عبارة فى صحيفة ٣٨ •

على بك — (تلا أقوال المتهم الخاصة بأنه ذهب الى المجلس بعد أن علم أن الجلسة ستكون علنية) •

الرئيس — ان المتهم يقول انه ذهب الى المجلس بنية الاعتداء على ماهر باشا فهلا يكون فى ذلك معنى الترصد •

على بك — ان الترصد ركن مادى يجب أن يقوم الجانى فيه بعمل مادى ثم ان الترصد لا يمكن أن يكون ظرفا مشددا الا اذا أعقبه قتل ، فلا يمكن اعتبار الوجود فى القصر العينى ووزارة المالية تربصا ما دام لم يحصل القتل هناك واذا سلمنا جدلا بأن التربص يتوفر بتحول نية الجانى بدون عمل مادى — وهو ما لا أستطيع التسليم به ، قانونا — فانه ثابت أن ذهاب المتهم لقتل المجنى عليه معلقا على شرطين : الأول أن لا تكون الحرب قد أعلنت فعلا والثانى أن لا يرفض المجلس اعلانها • وتلا أقوال المتهم فى صفحتى ٣٩ ، ٤١٥ من التحقيقات بما يؤيد ذلك ، وقال ان تعليق القتل على مثل هذين الشرطين يجعل التربص منعدما لأن المشرع لم يسو بين التعليق على الشرط وعدمه فيما يتعلق بالترصد • ولو أراد النص عليه كما فعل بالنسبة لسبق الاصرار فى المادة ٢٣١ من قانون العقوبات حيث قال « •• سواء كان القصد معلقا على حدوث أمر أم موقوفا على شرط » وهذا هو الفرق قانونا بين سبق الاصرار وبين الترصد •

الرئيس — كل ترصد يحوى سبق اصرار ، ولذلك لم يكن هناك داع للنص فى المادة ٢٣٢ الخاصة بالترصد على توفر الشروط المنصوص عليها فى المادة ٢٣٢ بشأن سبق الاصرار ،ولما كان هناك داع للنص عليه على حدة • ان بعض الشرائع كالقانون الألمانى والبلجيكى لا تهتم الا بظرف سبق الاصرار وحده دون اهتمام بظرف الترصد • وفى القانون الفرنسى

الذى استمد منه قانوننا وجد خلاف عند وضع التشريع حول سبق الاصرار المعلق على شرط أشار اليه جرسون فى نبذة ٨١ من تعليقاته على قانون العقوبات . وقد قطع المشرع المصرى فى هذا الخلاف واعتبر أن سبق الاصرار يتوفر ولو كان معلقاً على شرط . وعندى أن سبق الاصرار المعلق على شرط يعتبر نصف سبق اصرار . بل لقد ذهب بعض شراح القانون الحديثين وعلى الاخص فى ايطاليا الى أن سبق الاصرار نفسه ليس مقياسا لنفسية المجرم ، وانما يكون مقياس هذه النفسية فى الظروف التى وقعت فيها الجريمة والبواعث التى دفعته الى ارتكابها (وأشار الى بعض المراجع الايطالية فى هذا الشأن) .

الرئيس ـ أرجو أن تقدم لنا مذكرة بذلك يا على بك .

على بك ـ اذا أعطتنى المحكمة المهلة الكافية .

وانتقل على بك الى مناقشة وصفى سبق الاصرار والترصد فى التهمتين الثانية والثالثة الخاصتين بالشروع فى قتل الصاغ ابو العزم والأستاذ سعد اللبان ، وقال انه لا يمكن أن يكون هناك دليل على أن المتهم كان ينوى قتل كل شخص يتعرض له وذلك على فرض أن هذه الوقائع شروع فى قتل وأنا أقول انها كلها اصابات خطأ . وخلص من ذلك الى القول بأن هناك عاملين يدعوان الى الرأفة بالمتهم : أولهما عامل مادى وهو تدخل القدر ، وثانيهما عامل قانونى وهو انعدام الترصد وظرف سبق الاصرار . وهذا هو أول ظرف من ظروف القضية .

ثم قال هناك ظرف آخر يمكن استخلاصه من ظروف ارتكاب الجريمة فان هذه القضية هى قضية فردية حصلت من المتهم وحده دون أن يشرك معه غيره . ويترتب على ثبوت ذلك أن المحكمة لن تقسو عليه فى تقديرها للعقوبة لأنها سترمى فقط الى زجره هو وحده . وعرض للشبهات التى أثيرت فى التحقيق حول وجود شركاء للمتهم فى جريمته وكيف أن هذه الشبهات كانت سببا فى القاء القبض على كثير من الأفراد وأعضاء الهيئات المختلفة .

النائب العام ـ من الذى صفى كل هذه الاتهامات .

على بك ـ سعادة النائب العام صفى هذا جميعه بعد أن صفى المتهم (ضحك) .

★★★

وفى جلسة ١٩٤٥/٧/٢٣ واصل الأستاذ على بدوى مرافعته قائلا ان المتهم ارسل لى أمس خطابا يبين فيه السبب فى اعفائه اياى من

المرافعة ، ويقرر فيه أن ذلك ليس معناه إعفائى من اتباع الاجراءات القانونية اللاحقة كالطعن فى الحكم ، وغير ذلك وقد وجه الى الشكر فى هذا الخطاب بما لا يصدر الا من ابن لابيه .

وقدم الأستاذ على بدوى الخطاب الى الحكم .

ووقف المتهم يقول : أنا لا أستطيع بهذه العبارات أن أعبر عن شعورى نحو أستاذى على بدوى بك .

وقال رئيس المحكمة : والمحكمة تقدر للأستاذ جهوده فى هذه القضية وسوف توفيه حقه عند نهاية المرافعة .

ثم استأنف بدوى بك مرافعته فقال : انه لفت نظره أمس سؤال وجهه النائب العام للمتهم ، اذ سأله : « الم ترسل خطابات تهديد لماهر باشا » فأجاب المتهم قائلا : « لا وأنا ما أعملش أعمال صغيرة كهذه . ويستحيل أن أكون هذا الشخص الذى يرسل خطابات تهديد » . فمع ثقتى بصدق المتهم ألفت نظركم الى سبب خطير من أسباب تحقق الجريمة فلعل فى الأوراق ما لم ينسخ وغير موجود أمامى ، خطابات تهديد أرسلت الى المجنى عليه قبيل الحادث ، وهذه الخطابات سلمت من المجنى عليه لذوى الشأن من رجال الأمن العام . ومع هذا تجد أن المجنى عليه لما تحرك فى مجلس النواب وتنقل بين ردهاته لم يكن محوطا بالحراسة التى تتفق مع خطورة مركزه ، ومع خطورة الظرف الذى وجد فيه ، ومع وصول خطابات التهديد اليه . وأنا أعتقد أن هناك مسئولية كبرى على كبار رجال الأمن ، وأنا متمسك كل التمسك باعتبار ذلك سببا من أسباب التخفيف ، اذ متى يعاقب المتهم عقابا شديدا ؟ اذا سارت الأمور سيرا طبيعيا ووقع شذوذ ايجابى أو سلبى بتقصير من رجال الأمن فى الحراسة اللازمة ، فيكون دور المتهم ثانويا وتصبح مسئوليته أقل شأنا .

ثم انتقل بدوى بك بعد ذلك إلى ما انتهى عنده فى الكلام عن نفسية المتهم باعتبارها سببا من أسباب الرأفة ، وقال انه شاب قد تثقف ثقافة سياسية ، وعالمية عالية .

وأنه كان يتتبع جميع المراحل المتصلة ببلده ، وقد وجد عند المتهم ١٤ ملفا يحوى كل ملف مقتطفات وآراء حول مسألة من المسائل السياسية والاقتصادية الهامة فهذه الثقافة وهذا الخلق سيجعلنا نستعيد كل ما قالته النيابة من أنه ارتكب الجريمة بدافع اليأس .

وانتقل الأستاذ على بدوى الى الكلام عن الباعث للمتهم على ارتكاب جريمته فقال انه بالرغم من الفزع والسخط والاعتداء الذى كان يوجه الى المتهم فانه بين هذا الباعث فى أقوال منطقية وهادفة ٠

ولست أقول ان هذا الباعث يدعو الى اباحة الجريمة ولكنه يكفى بغير شك لتخفيف المسئولية ،يقول المتهم ان قتل ماهر باشا لم يكن موجها ضد شخص معين ، بل ضد فكرة معينة هى فكرة ادخال مصر الحرب وقد عرضت فكرة الحرب أولا فى سنة ١٩٤٠ عندما أراد دولة ماهر باشا جر مصر الى الحرب فلما عدل المجنى عليه عنها عدل المتهم عن فكرة القتل ثم ماتت الفكرة ٠

وقال الأستاذ على بدوى أنه ظهر من أقوال المتهم فى التحقيق أنه ــ المتهم ــ اعتقد ان الحرب ستكون هجومية ، وقرر أن جريمته قد غيرت مجرى الامور فأعلنت الحرب دفاعية بسببها ، وهذه الفكرة التى قامت فى ذهنه سببها اللجوء الى البرلمان الذى لا يلجأ اليه الا فى حالة اعلان الحرب الهجومية وأكثر من هذا فان الحرب أعلنت على اليابان ولا معنى لذلك اذا لم تكن الحرب هجومية ، حقيقة قال المغفور له دولة ماهر باشا ان ذلك كان يشعرهم بأن الحرب ستكون هجومية ، وأكثر من ذلك فان القرار الذى اتخذه الوفد المصرى لا يحدد ما اذا كانت الحرب ستكون هجومية أو دفاعية بل بحث الغرضين ، ولم يوافق عليهما معا ، فكان لدى المتهم ما يبرر اعتقاده بأن الحرب ستكون هجومية ٠

وانتقل الأستاذ على بدوى الى الفائدة التى جنيناها من الحرب ، فقال ان المتهم كان أصح نظرا من كثير من سياسيينا ، فاننا لم نكسب من الحرب شيئا ٠

وقال الأستاذ على بدوى أن الجريمة سياسية لا شك فيها لأن دائرة السياسة هى التى تتصل بالدولة باعتبارها صاحبة السلطان فى داخل الحدود الوطنية وبجميع ما اتصل بالنظام الداخلى أو الخارجى ويدخل فى ذلك صلة الدولة بالدول الأخرى ، ولا شك أن الجريمة التى ترتكب لمنع حرب تعتبر جريمة تمت لباعث سياسى ٠

وقال الأستاذ على بدوى أنه لم يقم دليل ما على ان المسدس غير مرخص طالما أن الدليل على العكس لم يقم ٠

وكان الأستاذ على بدوى قد أفاض فى الحديث عن فكرة دخول مصر الحرب ومناهضة المتهم لها ، مشيرا الى الظروف السياسية التى واكبت تلك الفكرة ٠ وتكلم الأستاذ على بدوى عن وزارة حسين سرى

باشا وما جاء فى خطاب تأليف الوزارة من الحرص على تجنيب مصر ويلات الحرب ، وقد انقرضت هذه الفكرة عندما اندمجت الهيئة السعدية فى وزارة سرى باشا ، وقد صدر من المرحوم أحمد ماهر باشا تصريح ردا على تصريح مستر اتلى الخاص بعدم اشتراك الدول التى لم تعلن الحرب على المحور فى مؤتمر الصلح ، قال ماهر باشا فيه انه لا يمكن أن يمس مركز مصر الدولى بحال من الأحوال ، وأنها لابد داخلة مؤتمر الصلح .

ثم قال بدوى بك ان الحكومة لم تهيىء أذهان الشعب لفكرة اعلان الحرب .

وأشار الى ما جاء فى مذكرة المتهم وان كان قد منعه من تقديمها للمحكمة فهو مضطر الى الاستناد الى ما جاء فيها لابراز فكرة المتهم .

وتلا حضرته فى مكان آخر من المذكرة أن المتهم يرى أن الوقت الذى كان يصلح لاعلان الحرب هو الوقت الذى دخلت فيه الجيوش الألمانية الأراضى المصرية . واستطرد بدوى بك يقول تلك كانت فكرة المتهم ونظريته فى موضوع اعلان مصر الحرب ثم قال ان المتهم يا حضرات المستشارين كان يدين بالفكرة السياسية على هذه الصورة .

أنه لو كانت مصر اعلنت الحرب على المحور أيام أزمة العلمين لكان فى عملها هذا فخر كبير يخلده التاريخ وكنا نستطيع أن نتكلم وندافع عن حقوقنا بشجاعة فى مؤتمر سان فرانسيسكو .

وأشار الى ما قاله المتهم فى مذكرته عن اليونان وأنها لم تعلن الحرب على المحور الا بعد أن اعتدى عليها ، وكذلك روسيا حاربت ألمانيا بعد اعتدائها عليها وهى الى الآن لم تعلن الحرب على اليابان .

وعلق بدوى بك على هذا الكلام قائلا : ألا يكون المتهم معذورا فى فكرته انه كان يعتقد أن الحرب ستعلن هجومية ، وانه بارتكابه هذا الحادث تحولت الى دفاعية وليكن على خطأ فى هذا الاعتقاد أو التصور ، ولكنه على كل حال معذور ، لكل هذه الظروف والملابسات اذا تصور أنه هو الذى غير مجرى الحوادث فموضوع اعلان الحرب لا يعرض على البرلمان الا اذا كان المراد أن تكون الحرب هجومية ، أما اذا كانت دفاعية ، فلا داعى لعرض الأمر على البرلمان .

وعرض للفرق بين الحربين الهجومية والدفاعية وقال ان الحرب الهجومية تكون تحقيقا لمطمع . أما الدفاعية فتكون ذودا عن أرض الوطن

ورد الاعتداء . أما من ناحية التضحيات فى الأموال والأرواح والممتلكات فلا فرق بينهما .

ثم خلص من ذلك الى القول بأن كل هذه الآراء والاضطرابات الدولية نشأت بسبب تطور الحوادث وهى فى دلالتها أقرب الى المفاجآت .

لقد ظل الرئيس روزفلت يمهد أذهان الشعب الأمريكى للحـــرب سنتين حتى انتهى باقناع ٩٠٪ من الشعب بضرورة اعلان الحرب ، ونأتى نحن فى مصر ، لنعلن الحرب فى يوم وليلة دون أن نمهد أذهان المصريين لهـــا .

وكان رئيس المحكمة قد عقب على ذلك بقوله ان بيان ماهر باشـا صرح فى أن للحكومة المصرية ، مطلق الحرية فى اعلان الحرب أو عدم اعلانها وكل ما هنالك أنه لن يسمح للدول التى لا تعلن الحرب بأن تمثل فى مؤتمر سان فرانسيسكو .

وقال الأستاذ على بدوى :

لقد قال أحد كبار المحامين فى فرنسا مخاطبا هيئه المحكمه اننـــا نمثل أمامكم وستمثلون بدوركم أمام التاريخ ، وأنا أضيف ان التاريخ سيمثل أمامه القتيل المقدر منا جميعا ، وهذا المتهم الماثل أمامكم وسيحكم التاريخ بينهما . واذا حكم التاريخ فلا معقب لحكمه ، لا أريد أن أتعرض لوطنية المغفور له دولة أحمد ماهر باشا أضع رأيه فى كفة التاريخ .

وهناك كلمة أريد أن أقولها أنه متى تجمع روح الفقير وروح هـذا الشاب أمام الله فانه سيحكم بينهما بعدله المطلق ، دون نظر لفارق بـين هذا وذاك .

وقد تقدمت لحضراتكم بدفع شكلى ، وبدفاع موضوعى ودفاعى فى الموضوع كله ظروف تبرر انقاذ المتهم من الاعدام ، فان قضيتم على دفعى الشكلى وحكمتهم برفضه ، فاننى سأبكى المبادىء القانونية أحر بكاء ،وان نبذتم دفاعى ، وقضيتم باعدام هذا المتهم فانى سأبكى من بعده أخلاقه النبيلة وحال هذه الأمة التعسة .

***

ويتوجه رئيس المحكمة بالشكر للنائب العام على ما أبداه من مجهود كبير فى التحقيق وما أدلى به من مرافعة وافية .

وفيما أبداه من صبر ، وأناة طوال جلسات المحاكمة .

كما نتوجه الى الأستاذ الكبير على بدوى بك بالشكر الوفير ، عـلى

ما بذله من جهد ، فى المرافعة عن المتهم وفى الالمام ، الماما تاما بالقانون أو بالموضوع ، وبما تحمله من متاعب ومصـــاعب ، رغم مركز متهمـــه الدقيق ·

كما نقدر باعجاب مواقفه رغم ما قام من صعاب ، وان المحكمـــة فى سبيل تحقيق العدالة · واستيفاء كل ما يتصل بدفاع المتهم أجابت حضرة المحامى بعد اقتناع الى كل ما طلب حيث قام بواجبه خير قيـــام والمحكمة تشكر رجال الصحافة الذين كانوا عند أمر المحكمة ، وتنفيـذ طلباتها ·

★★★

ونشير قبل أن نقفل ملف القضية ــ مؤقتا ــ الى شهادة الشهود فى الجلسة السرية ·

ونبدأ بشهادة محمود فهمى النقراشى باشا الذى قال ان سنه ٥٧ سنة ، ثم أقسم اليمين ودارت الشهادة على النحو التالى :

الدفاع ــ هل طلب الانجليز اعلان الحرب من أحمد ماهر باشا قبل عرض الأمر على البرلمان ·

النقراشى ــ لا ··· لم يطلبوا وكل ما حصل هو الذى ذكره المرحوم ماهر باشا فى بيانه الذى ألقاه أمام مجلس النواب والذى نشر ·

الدفاع ــ ألا ترى دولتكم أن ما جاء فى البيان يشير الى رغبة الانجليز فى اعلان الحرب ·

ــ لم يبد الجانب الانجليزى لمصر أية رغبة فى هذا السبيل ·

ــ قبل عرض الأمر على البرلمان هل حصلت مقابلات بهذا الشأن بين جلالة الملك وبين رؤساء الدول الأخرى ·

رئيس المحكمة ــ كل شىء مبين فى البيان ، والبيان تكلم عن ذلك بافاضة ·

الدفاع ــ هل أستطيع أن أسأل دولة الباشا باعتبـــاره من أقطاب السياسة فى مصر عما اذا كنا قد استفدنا من اعلان الحرب أم لا ؟ ·

النقراشى باشا ــ (أمتنع عن الاجابة على هذا السؤال) ·

الدفاع ــ أنا متمسك بهذا السؤال وهو ليس سرا من أسرار الدولة

المحكمة ــ هذه الواقعة بالذات مذكورة فى نفس البيان ، ومع ذلك فيجد الدفاع الرد على هذا السؤال فى نفس بيان ماهر باشا ·

النقراشى باشا ـ أنا مصمم على الامتناع عن الاجابة لأنى لا أريد أن أبدى رأيا فى السياسة وانما أريد أن أجيب عما أسأل عنه من وقائع ، والا فان آرائى فى السياسة أو فى نتيجة الأعمال السياسية التى اشتركت فيها معلومة ومعلنة ٠

الدفاع ـ هل كان المقصود من اعلان الحرب الاشـــتراك فى مؤتمر سان فرانسسكو أم فى مؤتمر الصلح ٠

النقراشى ـ الاشـــتراك فى مؤتمر سان فرانسسكو وفى مؤتمرات الصلح التى تعقبه ٠

الدفاع ـ لكن تبليغ مستر ايدن لدولة الدكتور ماهر باشا قاصر على مؤتمر سان فرانسسكو كما هو ثابت فى البيان فمن أين جئنـــا بمؤتمر الصلح ٠

المحكمة ـ هذه مناقشة الحكومة فيما ترتبه من ســـياسة ، واجابة دولة الباشا صريحة ، وقد قال « تمهيدا » أو « تمكنا » من دخول مؤتمر سان فرانسسكو ٠

الدفاع ـ البيان قصر النتيجة على دخول مؤتمر سان فرانسيسكو ٠

النقراشى ـ تبين بعد ذلك أن دخول مؤتمر سان فرانسيسكو كان يخول الحق فى دخول مؤتمر الصلح الذى يعقبه ٠

الدفاع ـ من أين تبين هذا ؟

المحكمة ـ الشاهد يجيب بالشكل الذى يراه كافيا للرد على السؤال أما التمسك على رئيس الحكومة بسياسة ما ، وكونك تستفيض فى هـــذا البحث مع دولته فلا محل له ٠

الدفاع ـ ليثق سعادة الرئيس أنى لا أقصد من هذا احراجا ما والا ما الفائدة من جعل الجلسة سرية ٠

المحكمة ـ جعل الجلسة سرية لا يخرج القضية عن النطاق الواجب فى سؤال الشاهد ، والا ٠٠٠ فكأنك تريد أن تعرف السياسة العامة للحكومة فى الماضى والحاضر والمستقبل ٠

الدفاع ـ هل تخاطب فى اعلان الحرب مع المغفور له أحمد ماهر باشا أحد من رجال الدول الآخرين كأمريكا أو روسيا أو فرنسا ٠

المحكمة ـ أرجو عدم الاستفسار عن شىء ورد فى البيان يكون مفصلا وواضحا ٠

الدفاع ــ هل تأكد دولة رئيس الوزراء بأنه لن يترتب على اعلان مصر الحرب تضحيات ·

المحكمة ــ المحكمة تلفت نظر حضرة المحامي الى أن دولة الشاهد يسأل باعتباره كان وزيرا للخارجية في وزارة المغفور له أحمد ماهر باشا ·

الدفاع ــ هل يعلم دولة الشاهد أن حكومة المرحوم ماهر باشـــا تأكدت أنه لن يترتب على اعلان الحرب تضحيات كارسال جنود وعمـــال وحملات وهل صدر هذا التأكيد من دول أخرى غير دولة بريطانيا ·

النقراشي ــ تأكدت أنه لا يطلب منا ارسال جيوش أو حملات أو عمال الى ميدان القتال ·

الدفاع ــ هل كان المقصود أن تكون الحرب المراد اعلانها هجوميـــة أم دفاعية ·

النقراشي ــ كان المقصود أن تكون دفاعية ·

الدفاع ــ ما الذى دعا الى عرض الأمر على البرلمان ، ولماذا لم يتبع دولة المغفور له أحمد ماهر باشا الخطة التى اتبعتها دولتك من استصـــدار مرسوم ثم عرض الأمر على البرلمان ·

النقراشي ــ أنا اتبعت نفس الخطة التى سار فيها المرحوم ماهر باشا

الدفاع ــ هل أستطيع أن أعرف السبب فى الاحتفاظ بأمر اعلان الحرب سرا على الناس قبل يوم عرضه على البرلمان ·

النقراشي ــ كنا فى دور البحث وبعد استيفاء البحث عرض الأمر على البرلمـــان ·

الدفاع ــ زيارة مستر ايدن لدولة المغفور له ماهر باشا كانت سابقة على ميعاد أول مارس بكثير فهل أستطيع أن أفهم السبب فى عدم تمهيـــد النفوس للحرب قبل اعلانها بالدعاية والصحافة ·

النقراشي ــ اننا كنا فى دور البحث ودولة رئيس الحكومة اتصـــل برؤساء الأحزاب وزعماء المعارضة والسياسيين ليستوضح رأيهم وليستنير به ·

الدفاع ــ صدر فى الصحف بيان بريطانى يفيد أن مصر لن تتكلف شيئا فى الحرب فهل هذا البيـــــان صادر حقيقة من الجهات الرســـمية البريطانية ·

النقراشى ـ مفيش نزاع انه له صفة ٠

الدفاع ـ هل يمكن أن نعرف الحكمة فى تعطيل نشر هذا البيان الرسمى الى ما بعد قتل المغفور له ماهر باشا ٠

النقراشى ـ أنا لم أطلب نشر هذا البيان وبالتالى لا أعرف الحكمة فى نشره متأخرا ٠

الدفاع ـ هل حاولت الحكومة القضاء على الاشاعات التى سرت فى البلاد والتى أشير اليها فى بيان المغفور له ماهر باشا السرى قبل أن تفكر فى اعلان الحرب ٠

النائب العمومى ـ أية اشاعات ٠

الدفاع ـ البيان فيه هذا ٠

النقراشى ـ اعلان البيان للنواب كان محاولة جدية لتكذيب هذه الاشاعات ٠

الدفاع ـ ولكنها كانت محاولة سرية ٠

النقراشى ـ ولكن نواب البلاد يعرفون هذا ويمكنهم أن يمضوا عليها باتصالهم بناخبيهم ٠

الدفاع ـ هل قابلت دولتكم المتهم بمكتب سعادة النائب العمومى وبدار مجلس الوزراء ٠

النقراشى ـ نعم ، أنا ذهبت لحضور التحقيق فى مكتب سعادة النائب العام وكان المتهم موجودا ، وبعد ذلك فى خلال شهر يونيه طلب المتهم أن يقابلنى ، فاستشرت سعادة النائب العمومى فأذن لى بمقابلته ، وقال لى انك باعتبارك وزيرا للداخلية يجوز أن المتهم يريد أن يفضى اليك بشكوى أو باقوال ، فلا مانع من أن تقابله ٠ وقد حضر الى المتهم فى مكتبى وقلت له : انك طلبت مقابلتى فماذا تريد ؟ فبدأ يتكلم عن نفسه وعن رأيه فى السياسة ، ويتنصل من تأثير أو علاقة بعض الأشخاص الذين ذكروا فى التحقيق ٠ وقال انه صريح يقول الحق ، واستمر يدلى بهذه الأقوال مدة طويلة ، وأخيرا سألته من أين لك المسدس فلم يرد الاجابة فصرفته ٠

وبعد ذلك ببضعة أيام طلب مقابلتى مرة ثانية فاستأذنت النيابة ، وبدأ أقواله على الطريقة التى بدأ بها فى المرة السابقة فسألته هل عنده أقوال أخرى يبديها تتعلق بالتحقيق فتهرب من الاجابة فصرفته ٠

النائب العمومي ــ تحادث معى دولة النقراشي باشا وقال لى ان المتهم طلب أن يقابلنى فهل تسمح بذلك .. بهــذا اللفظ فقلت له : دولتك باعتبارك تشرف على وزارة الداخلية وبصفتك هذه يجوز أن للمتهم ما يطلبه منك .

واذا كانت له أقوال يريد أن يبديها فى التحقيق ، فأرجو من دولتك اخبارى لأحضر لأدونها . وبعد ذلك أخبرنى أن المتهم لم يذكر شيئا ، وفى المرة الثانية استأذن أيضا كما حصل فى المرة الأولى واستأذنته فى الحضور اذا أدلى المتهم بأقوال ، فقال دولته لى انه لم يقل شيئا ..

الدفاع ــ هل قدم المتهم طلبا كتابيا بمقابلة دولتكم .

النقراشى ــ لا .

الدفاع ــ المتهم يقرر أن دولتك ودولة الدكتور ماهر باشا كنتما فى السفارة البريطانية قبل انعقاد البرلمان فهل هذا صحيح .

النقراشى ــ هذا غير صحيح بالمرة .

الدفاع ــ ألم تحصل مناقشة بين دولتكم والمتهم فى هذا الأمر بالذات

النقراشى ــ أنا لم أدخل فى مناقشة مع المتهم . أنا تركته يلقى بكل ما عنده بدون مقاطعة . ولما انتهى من أقواله سألته السؤال الوحيد الذى سبق أن ذكرته ، فلما رفض الاجابة صرفته .

الدفاع ــ كم استغرقت المقابلة مع المتهم ؟ .

النقراشى ــ أول مرة يجوز أن تصل من ثلث ساعة الى نصف .

الدفاع ــ هل نفى المتهم لدولتكم فى هذه المقابلة أية صلة له بالمجور

النقراشى ــ اذا أراد أن ينفى هذا فلينف فى المحكمة .

الدفاع ــ أنا أسأل هذا السؤال لأنه نشر فى الجرائد التى صدرت فى اليوم التالى .

النقراشى ــ أنا لا أذكر أن المتهم قال لى شيئا من هذا .

وهنا وقف المتهم محمود العيسوي وسأل دولة النقراشى باشا .

المتهم ــ دولة الشاهد يقول انه بعد هذا عرف أن مصر يصــح أن تدخل مؤتمر الصلح فمن أين عرف هذا ،

المحكمة ـ المحكمة تمنع توجيه هذا السؤال لأنه من أسرار الدولة

المتهم ـ ألا تكون شهادة دولة النقراشى باشا مانعا له من التصديق على الحكم كحاكم عسكرى ٠

المحكمة ـ المحكمة تمنع هذا السؤال اذ انها قررت أن الأسئلة التى توجه لدولته انما توجه اليه بصفته وزيرا للخارجية ٠

المتهم ـ متى قابلنى دولة الشاهد فى التحقيق صباحا أم مساء ٠

المحكمة ـ دولة الباشا قال كل معلوماته ، وهذه الأسئلة لا تقدم ولا تؤخر فى القضية ٠

ثم سأل رئيس المحكمة المتهم العيسوى هل لديه أسئلة أخرى ٠

فقال : لا ٠٠ وجلس ٠٠٠

فأذن رئيس المحكمة لدولة النقراشى باشا فى الانصراف ٠

★★★

وسألت المحكمة على ماهر باشا عن عمره فقال رفعته : ٦٣ سنة ثم حلف اليمين القانونية ٠

الدفاع ـ هل حصلت مقابلة بين رفعتكم وبين السفير البريطانى قبل اعلان الحرب ؟ فان المتهم العيسوى يقول ان رفعتكم تقابلتم مع السفير البريطانى عند سعادة حسن نشأت باشا قبل اعلان الحرب بنحو أسبوعين أو ثلاثة أيام وتحادثتم فى أمرها ٠

على ماهر باشا ـ هذا الخبر غير صحيح مطلقا ٠

الدفاع ـ باعتباركم أستاذا فى القانون الدولى هل تجد فرقا بين اعلان الحرب دفاعية أو هجومية فيما عدا تاريخ اعلان الحرب وفيما عدا الباعث على اعلان الحرب ٠

على ماهر باشا ـ هذه فتوى وليست شهادة ! ٠

الدفاع ـ هل يرى رفعة الباشا أننا حصلنا على فائدة من اعلان الحرب ؟ ٠

على ماهر باشا ـ السؤال بالوضع ده أعتبره غير منتج ! ومسألة دخول الحرب ، ومسألة سياسة الحرب ، ومسألة مشروعية ، وضرورة الحرب ٠ هذه مسائل دقيقة جدا ، وتدخل فى نفس كبار الساسة شيئا

من الشك في اعلان الحرب ، وهذه مسألة رجل الشارع يرى اعلان الحرب أو عدم اعلانها فيفسر هو كل شيء ! ٠

ومسألة اعلان الحرب ووجه الحق في اعلانها تتغير بتغير الظروف ٠ وجرت العادة أن الساسة يتفادون اعلان الحرب الا اذا كانت الظروف الملحة تدفعهم الى ذلك ٠

ففي سنة ١٩٤٠ كان رأى الحكومة القائمة عدم دخول الحرب وحصل خلاف في هذا ، ولكن أثبتت الحوادث أن موقف مصر بحالتها التي كانت عليها وهي دولة غير محاربة وحليفة ، كان خيرا لمصر وللدول الديمقراطية . واذا كان فيه خلاف ففي أول الأمر ، انما في آخر الأمر كان هناك اجماع على أن موقف مصر كان فيه كل الخير لمصر وللدول المحاربة ٠ ولكن كل مرحلة لها سياسة ملائمة لها ، والظروف الجديدة توجب واجبات جديدة الجبهة أو هدد بالاستقالة من الجبهة بسبب خلافه مع المرحوم ماهر باشا فحالة سنة ١٩٤٥ تخالف تماما حالة سنة ١٩٤٠ ٠

★★★

فالحالة سنة ١٩٤٥ كان رجل السياسة يرى فيهـــا أن الطريق للدفاع عن حقوق البلد هو أن يعلن الحرب واعلان الحرب هو تصـــحيح حالة واقعة ٠ وهو الوصف الصحيح للحالة التي يقتضيها الموقف خصوصا أن الدول المنتصرة أعلنت أنه لن يشترك معها في وضع النظام الجديد الا من يشترك في دخول الحرب ، فكل رجل سياسي ما كان يتردد في اعلان الحرب ، ولذلك لم تتردد كل دول البحر الأبيض في دخـــول الحرب ٠

أما أنا شخصيا فلا يمكن أن يتدخل أحد في رأيي ليؤثر في اقناعي بدخول الحرب أو عدم دخول الحرب ، لأني اذا فكرت وتكلمت لا أتكلم الا وأمامي هدف واحد وهو مصر ٠ فلا يمكن أن تكون هناك فكرة أن أحدا أراد أن يؤثر علي أو لا يؤثر ٠

وأكرر أن واقعة مقابلتي مع السفير البريطاني التي ذكرت لا أساس لهـــا ٠

فسأل محمود منصور بك رئيس المحكمة المتهم هل لديه أسئلة يريد أن يوجهها لرفعة على ماهر باشا ٠٠ فقال : لا ٠٠٠

وأذن رئيس المحكمة لرفعة الباشا في الانصراف ٠

★★★

وبعده استدعى للشهادة مكرم عبيد باشا ٠

وسالته المحكمة عن عمره فقال : ٥٥ سنة ٠٠٠ ثم أقسم اليمين

وسأله الدفاع :

الدفاع ــ هل قابلك المتهم فى الاعتقال ٠

مكرم باشا ــ نعم قابلته فى سجن الأجانب مرة واحدة ، وكنت معتقلا ، وكان ذلك حوالى شهر مايو أو يونية سنة ١٩٤٤ وكانت مقابلتنا أثناء نزهة المعتقلين ٠

الدفاع ــ هل تذكر أنه حصل حديث بينكما فى السياسة ٠

مكرم ــ الذى أذكره لما قابلنى محمود العيسوى ، وعندما رآنى فى السجن استغرب وقال لى : أنت معتقل ليه ؟ ٠٠٠ فقلت له عن الأسباب ٠ وقال لى انه وزع منسورا ضد سياسة وزارة النحاس باشا فقبض عليه ٠ وكان كلامه عن رفعة النحاس باشا باعتبـــار أنه هو الذى اعتقلنا نحن الاثنين ! ٠

الدفاع ــ ألم يسألك المتهم عن موقف الأحزاب أثناء أزمة ابريل ، وأريد كما أشيع تغيير الوزارة وتشكيل وزارة أخرى ٠

مكرم ــ كل ما أذكره بشرفى باعتبارى عضوا فى المعارضة وقد قرأت فى الجرائد أن المتهم ادعى أنى قلت ان ماهر باشا عارض فى الجلاء ٠ وهذا غير صحيح ٠ وكيف يكون صحيحا واحنا جميعا ماضيين على القرار ؟ وقيل فى الصحف أيضا على لسان المتهم أنى قلت أن ماهر باشا أصبح رجلا انجليزيا !! وقد جرحتنى هذه الكلمة ، وآلمتنى فأنا لم أذكر هذا ٠ وبالعكس فقد قلت لعيسوى أفندى عندما قابلته بعـــد الحادث : انت يا عيسوى تقتل ماهر باشا وانت كنت معارض للنحاس ومعتقل فى سجن الأجانب ٠

الدفاع ــ المتهم يقول أنه لما سأل معاليكم عن موقف الأحزاب فى أزمة ابريل سنة ١٩٤٤ أخبرتموه أن المغفور له ماهر باشـــا تخلى عن السراى ، وأن الدستوريين ضعاف وماشيين مع السعديين ٠

مكرم ــ لا يمكن أن يكون هذا لأننا كنا فى جبهة المعارضة متضامنين كما تدل على ذلك منشوراتنا الموقع عليها منا نحن الأربعة : ماهر باعتباره رئيس الهيئة السعدية ، وهيكل باعتباره رئيس الأحرار الدستوريين ، وحافظ رمضان باعتباره رئيس الحرب الوطنى ، وأنا باعتبـارى رئيس الكتلة الوفدية ، وكل منشوراتنا ممضاة بالاتفاق ، ويصح أن المتهم حصل عنده لبس فى هذا ٠

الدفاع ـ والنقطة الثانية ـ يقـول المتهم أن معاليكم أخبرته أن المرحوم ماهر باشا كان يعارض فى طلبات الجبهة فيما يختص بالجـلاء والسودان ؟ ٠

مكرم ـ ردى على هذا هو المنشورات التى بامضاء أحمـد ماهر وهى منشورات الجبهة وغير معقـول أن أطعن له فى ماهر وأطعن له فى الجبهة وأنا عضو فيها وكنت أعلم أنه من المعارضين وأكاد أقطع أن كل حديث دار عند المقابلة الأولى فقط ٠

الدفاع ـ هل أخبر معاليكم المتهم أن حافظ رمضان باشا استقال من بشأن الجلاء ؟ ٠

مكرم ـ بشرفى لم يحصل وهذا صحيح ٠

الدفاع ـ هل حصل خلاف بينكم فى الجبهة أثناء المعارضة ٠

مكرم ـ لم يحصل أبدا ٠ بالعكس ٠ فقد علمت وأنا معتقل أنهم يدافعون عنى ويحتجون على اعتقالى ، فغير معقـــول أن أختلف مع من يدافع عنى ٠

الدفاع ـ هل جنت مصر الفائدة المرجوة من دخولها الحرب ٠

مكرم ـ فى بادىء الأمر ٠ لما عرض المرحوم ماهر باشا علينا فى مجلس الوزراء اعلان الحرب وما دار بشأنها فى مقابلات ٠

النائب العمومى ـ أريد أن أذكر المحــكمة ان أسرار الدولة محرم افشاؤها ٠

المحكمة ـ البيان الخاص بالمراحل التى اتخذتها الحكومة قبل اعلان الحرب أذيع ونشر فعلا ٠

مكرم ـ لما أخبرنا ماهر باشـا فى مجلس الوزراء بمـا دار فى المقابلات ، وأن مؤتمر يالتا قرر أن دخول مؤتمر سان فرانسيسكو لا يكون الا للدولة التى تعلن الحرب ، وقلت فى مجلس الوزراء : لا يمكن الموافقة على ذلك من غير أن أعرف ٠ فقال لى الدكتور ماهر باشا : لك حق ، ولكن لعل حسن السياسة يقضى علينا أن لا نسأل هذا السؤال ومادام أنه مطلوب من تركيا والبلاد العربية ٠ وكانت وجهة نظره أن الكلام فى هذا يعتبر مساومة ٠ فقلت له : لا أنا رأيى أن نسأل الانجليز ما هى الالتزامات المطلوبة منا قبل دخولنا فى الحرب ٠ وكثيرا ما كنا نجتمع مع بعض ونتكلم فى هذا ٠ وقد أثيرت هذه المسألة أمام اللجنـة السياسية

فأيدت هذا الرأى · وعندئذ قال ماهر باشا : أنا لا أعارض مكرم فى هذا · وانا أروح للسفير أسأله · وقام فعلا وقابل السفير البريطانى ورجع وقال ان السفير أخبره أنه لن يطلب منا أية التزامات من تقديم جنود أو حملات وبناء على ذلك قلت له أنا معك للنهاية ·

الدفاع ـ عندما ذهب ماهر باشا الى السفير هل كان بمفرده أم مع النقراشى باشا ؟ ·

مكرم ـ الذى أعرفه أنه راح بمفرده · وربما خرج النقراشى باشا وراح وياه · ولم أعنى بالسؤال بعد ذلك عمن ذهب ·

الدفاع ـ يخيل الى من هذه العبارات أن الانجليز هم الذين طلبوا اعلان الحرب ·

مكرم ـ روزفلت هو أول من طلب هذا الى جلالة الملك شخصيا ·

المحكمة ـ هل طلب روزفلت هذا من جلالة الملك ؟ أم عرضه على جلالة الملك ·

مكرم ـ عرض · أو على فرض أنه طلب فقد قال روزفلت لجلالة الملك : أنا رأيى أن مصر تدخل الحرب · فقال له جلالة الملك : أعرض الأمر على وزارتى · وأذكر أن روزفلت قال لجلالة الملك : أنا اترك لكم الحرية المطلقة · وقال له مرارا : انكم أحرار ·

ـ الدفاع ـ هل المستر تشرشل قال ان من رأيه اعلان الحرب ·

مكرم ـ أنا لا أعرف · وكل ما قيل ان مؤتمر يالتا قرر هذا فاذا رأت مصر مصلحتها فى هذا فنحن نترك الأمر لكم ونترك الحرية الكاملة لمصر تقبل أو لا تقبل ؟ ·

الدفاع ـ هل استفدنا شيئا من اعلان الحرب الى الآن ؟

مكرم ـ من غير شك · والسؤال الذى يوجه الى المتهم : ما الضرر الذى نال البلد من اعلان الحرب حتى جعله يقتل ماهر باشا وبالعكس الزمن برهن على أنه لا البلد انضرت ، ولا الحرب فيها التزامات · وها هى قد مرت سبعة شهور ولم تتعرض مصر لأى ضرر · ومن الناحية الأخرى فهناك فائدة ولا شك ، وفائدة مزدوجة أولا : من الناحية الدولية فالوزارة السابقة اتفقت مع الانجليز أن تسهل لنا حضور مؤتمر الصلح وهـــذا تحوطه ملابسات ، وقد يرفض تمثيلنا فى المؤتمر · وان مثلنا فسيكون دخولنا من الخلفى فدخولنا الحرب أباح لنا ، وأعطانا الحق فى دخول مؤتمر

سان فرانسيسكو ومن بعده مؤتمر الصلح • ومن ناحية أخرى كان يبقى من العبث من الناحية السياسية في العالم أن تلعب مصر وحدها دورا بمفردها ، وباقي دول العالم وبخاصة الدول العربية • تشترك في مؤتمر سان فرانسيسكو كان يصبح مركزنا وقتئذ مضحكا فاما نحن محوريون أو ديمقراطيون • وأظن أننا لم نكن محوريين ولا مع المحور يوما ما •

وقد يقال ان الدول الصغيرة لم تكسب شيئا بدخولها مؤتمر فرانسيسكو ، فيكفى أن صوتنا قد ارتفع وسمع • وأنا كسياسى أعرض قضيتى على كل الأمم • وأنا قلت للعيسوى : موش كنت تسأل ماهر باشا • ولماذا تقتله ؟ انتظر لباكر • وانتظر لترى نتيجة اعلان مصر الحرب ومبررات الاعلان •

الدفاع ـ هل واضح من بيان المغفور له ماهر باشا ان الدولة المصرية ستصفى كل مسائلنا مع الانجليز قبل ذهابنا الى المؤتمر بل قبل ٢٥ ابريل على الأقل • أى ان ذهابنا الى المؤتمر كان مشروطا بشروط جوهرية وهي تسوية الخلافات التى بيننا وبين انجلترا (وتلا الدفاع فقرات من البيان) •

مكرم ـ ان للبيان بقية ارجو أن تتلوها •• وهل كان المتهم اطلع على هذا البيان لما قتل المرحوم ماهر باشا •

الدفاع ـ أنا أريد أن أستخلص من هذا أن المتهم كان معذورا •

مكرم ـ هذه المسألة عرضت في اللجنة السياسية • وهل الوقت كان مناسبا أم غير مناسب ، وهل لنا أن نتقدم بطلبات أم لا وهل توجد قرارات في هذا ؟ والمغفور له ماهر باشا لم يكن كاذبا فيما قاله في بيانه ، وكل هذا على كل حال لم يكن أمام نظر المتهم •

النائب العمومي ـ باعتبار معاليكم قد زاملتم المغفور له أحمد ماهر باشا مدة طويلة هل تعتقد أن مصر خسرت أم كسبت بوفاته •

مكرم ـ أن وفاة ماهر باشا تعتبر نكبة للحركة الوطنية • ماهر باشا كانت له أسبقية على أنا شخصيا في الحركة الوطنية • دخل أحمد ماهر الحركة يجاهد ويناضل . طوال عمره دون دعاية أو خطب وله من الوطنية ما يجعله في المرتبة الأولى ، ومن غير شك فقد خسرت البلاد بفقده خسارة كبيرة • فهو من أبرز الوطنيين ولا أدرى ان كانت نمتد هذه الجسارة الى الجيل المقبل أم لا ؟ وقد اختلفت معه في وقت من الأوقات . وهذا مما يشرفه ويشرفنى • فما هى الا خلافات في الرأى •

الدفاع ـ هل طلبت كل الدول المشتركة فى مؤتمر يالتا أن تعلن مصر الحرب .

مكرم ـ قلت ان روزفلت عرض وكذا بالنسبة لانجلترا .

العيسوى ـ (يقف ويسأل مكرم باشا) ألم تطلب روسيا من مصر اعلان الحرب .

مكرم ـ لا أعرف

العيسوى ـ من صرح بأن مصر لا تلتزم بأية تضحيات ؟ الانجليز أم الأمريكيون .

مكرم ـ أظن الاثنين

العيسوى ـ هل روسيا فسرت نفس التفسير

مكرم ـ لا أعرف

وهنا جلس العيسوى . فأذنت المحكمة لمعالى مكرم باشا بالانصراف

★ ★ ★

وسألت المحكمة حافظ رمضان باشا عن عمره فقال ان سنه ٦٦ سنة ... ثم حلف اليمين ، وسأله الدفاع :

الدفاع ـ هل استقلتم معاليكم من الوزارة بمناسبة البحث فى اعلان الحرب

حافظ باشا : نعم استقلت .

الدفاع ـ وما هى سبب الاستقالة

حافظ باشا ـ موجودة فى الاستقالة وهى مسألة اعلان الحرب والفكرة نمت مرتين فى سنة ١٩٤٠ ، وفى سنة ١٩٤٥ ، ففى سنة ١٩٤٠ كنت أرى أن فيها خطرا على مصر . وكان ذلك فى اعتقادى . ولذلك قدمت مذكرة كتابية لرئيس الحكومة وقتها ـ المغفور له حسن صبرى باشا ـ وكتبت فى الجرائد بذلك مع أنى كنت وزيرا . وفى سنة ١٩٤٥ لما عادت الفكرة فى الواقع ما كنتش شايف خطر ، ولكن كنت أعتقد أن مافيش مصلحة . ومااردتش أن أتناقض مع موقفى السابق فقدمت استقالتى من الوزارة .

الدفاع ـ هل حضرت مجلس الوزراء عند بحث مسألة اعلان الحرب ؟

حافظ باشا ــ مش كله لأني امتنعت عن الحضور عندما اعتقدت نفسى مستقيلا ٠

الدفاع ــ هل استقلت بعد عرض الأمر على مجلس ادارة الحزب الوطنى ؟

حافظ باشا ــ ما اقدرش أشهد بوقائع سياسية عن الحزب بتاعى

الدفاع ــ هل عرضت مسألة الحرب على اللجنة السياسية

حافظ باشا ــ أنا كنت استقلت

الدفاع ــ هل سبق أن هددت بالاستقالة من الجبهة أثناء قيام وزارة النحاس باشا ؟

حافظ باشا ــ لم يحصل ٠ ولماذا استقيل والجبهة نفسها نادت بما أنادى به طول عمرى ٠

الدفاع ــ ألم يحصل خلاف على مسائل جوهرية مع ماهر باشا بشأن الجلاء ٠

حافظ باشا ــ الاجتماعات السياسية تدور فيها مناقشات سياسية ٠ انما أنا أقرر أن المرحوم ماهر باشا كان مؤيدا جدا للمطالب الوطنية وهى الجلاء والسودان وقنال السويس ولذلك قدمت الجبهة عريضة بامضاءاتنا بهذه المطالب : أمضيناها كلنا ، وقدمنا صورة منها للسراى ، وقدمناها بأنفسنا للدول ٠ فالاتفاق فى الجبهة كان قويا ٠

الدفاع ــ هل أعلنت استقالتك من البرلمان ٠

حافظ باشا ــ ما أعرفش لأني كنت مريضا أيامها ٠ والمرحوم ماهر باشا قال لى : استردها ، فرفضت ٠ فقال : لن تقبلها وأنت مريض ، على كل حال خليك مرتاح ٠ وبعدين حصل الحادث ، ووجدت أن من الواجب أن أبقى فى الوزارة من باب استنكار الحادث ، وخصوصا أننى مش شايف خطر من دخولنا الحرب ، ولكن أيضا مش شايف فايدة ٠

الدفاع ــ وهل استفدنا الآن من دخولنا الحرب ٠

حافظ باشا ــ هم يقولون ان لنا مصلحة فى حضور مؤتمر سان فرانسيسكو لكن أنا مش شايف مصلحة ٠ !!

المحكمة ــ هل هناك خطر أو ضرر أصاب مصر من اعلان الحرب

حافظ باشا ـ لا وكنت أعلم أنه لا يوجد ضرر وأنا أردت فقط أن أتناقض مع ماضي ولم أجد مبررا لهذا ٠

الدفاع ـ (يمسك بيده ورقة) : هل هذا هو نص الاستقالة ٠

حافظ باشا ـ نعم ٠٠٠

وهنا وقف العيسوى وسأله حافظ رمضان باشا :

العيسوى ـ ما هى الدول التى طلبت من مصر دخول الحرب ٠

حافظ باشا ـ لا أعرف !! أنا بمجرد أن وجدت نية اعلان الحرب استقلت من الوزارة ٠

والتفتت المحكمة للعيسوى تسأله هل لديه أسئلة أخرى يوجهها الى معالى رئيس الحزب الوطنى ٠٠٠ فلم يجب ٠٠

وأذنت المحكمة لمعالى حافظ رمضان فى الانصراف ٠

★★★

وبعد حافظ رمضان باشا سمعت شهادة الأساتذة : عبد العزيز الشوربجى وفتحى رضوان ومحمد هاشم وحسن البنا ٠

وقد نطقت المحكمة بالحكم فى قضية قتل أحمد ماهر باشا فى صبيحة يوم ١٩٤٥/٧/٢٤ وكان المتهم الذى جيىء به مبكرا الى القفص يبدو مبلبل الأفكار ، وكان يحمل نفسه على الحديث من حين الى آخر مع الضباط المعينين لحراسته ، كما كان يقرأ ما جاء فى الصحف وعلى الأخص ما كتب بخصوص محاكمته ، وكان المتهم قد أوصى والده بعدم الحضور فى جلسة النطق بالحكم ، وفى الساعة الحادية عشر وعشر دقائق أعلن الحاجب دخول هيئة المحكمة يتقدمها سعادة الأستاذ محمود منصور بك يتبعه المستشاران محمود حمدى بك وأحمد حمدى بك والقائمقام مصطفى حسن حافظ بك ، وعباس حلمى الغمزاوى ، ثم الأستاذ محمد توفيق رفقى بك رئيس النيابة العسكرية ٠

ولما استووا على مقاعدهم وجلس الحضور ساد سكوت رهيب نطق رئيس المحكمة قائلا :

حكمت المحكمة حضوريا برفض الدفع الفرعى واختصاص المحكمة بنظر القضية وفى الموضوع ٠

وبعد الاطلاع على المادة ٤٩ من قانون تشكيل محكمة الجنايات بأحالة أوراق القضية الى فضيلة المفتى ليبدى رأيه فيها ٠

وحددت جلسة السبت ٢٨ يوليو القادم للنطق بالحكم . ثم رفعت الجلسة ٠

وفى ١٩٤٥/٧/٢٨ جيىء بالمتهم فى ساعه مبكره الى مقص الاتهام بحراسة الملازم أول عبد المجيد العشرى ، والملازم الأول محمد أحمد المنياوى وعشرة جنود مسلحين ، وبعض المخبرين وكان المتهم يرتدى نفس الملابس التى كان يرتديها فى الجلسات السابقة ٠

جاكتة حرير بيضاء وبنطلون رمادى ــ وكان هادئا رغم ما يبدو عليه من مظاهر الانشغال وقد عاتب مندوب جريدة المصرى لأن الجريدة كانت قد كتبت ما حدث فى الجلسة السابقة تحت عنوان : الحكم بالاعدام بدلا من ان تكتب : احالة الأوراق الى المفتى ٠

وجاء الأستاذ صلاح عبد الحافظ الذى يعمل بمكتب الأستاذ علي بدوى وطلب منه المتهم القانون العسكرى وقانون تحقيق الجنايات من مكتبة نقابة المحامين ، ولكن الأستاذ صلاح عاد بعد فترة لأن موظف المكتبة غير موجود ٠

وكان المتهم يتصفح بعض الصحف .ويعبث من حين الى آخر بشعره. وبمواضع مختلفة من وجهه وكان يضع يده اليمنى تحت ذقنه ومستغرق فى القراءة لا يكاد يشعر بما حوله ٠

وقد بدأ رئيس المحكمة بأن المحكمة لا تريد أن تسمع أيه كلمة أو حركة بقاعة المحكمة لا وقت النطق بالحكم ولا بعده كما حدث بالجلسة السابقة حيث هتف البعض بذكرى أحمد ماهر باشا ٠

وبعد الاشارة الى العديد من مواد القانون والأحكام العربية . قال رئيس المحكمة حكمت المحكمة حضوريا بمعاقبة محمود عيسوى عوض الله بالاعدام ومصادرة السلاح وطلقات الرصاص المضبوطين على ذمة القضية ٠٠ ورفعت الجلسة ٠

التفاصيل كاملة فى الجزء الثانى من هذا الكتاب بمشيئة الله تعالى

فهـــرس

صفحة

مطابع الهيئة العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٢١٦٨ / ١٩٨٩

ISBN – ٩٧٧ – ٠١ – ٢٠٦٣

هذا الكتاب ــ عزيزى القارىء عزيزتى القارئة ــ هو ــ بلا جدال ــ الأول من نوعه ولعله ــ وبدون مبالغة ــ فريد فى بابه ، جديد فى موضوعه

شاب من شباب الأربعينات الذين شاركوا فى الكفاح الوطنى فى تلك المرحلة المزدهرة من تاريخ العمل الوطنى يكتب لأول مرة مذكراته فى السجن عما كان يجرى ــ وقتئذ ــ داخل السجن وعما كان يجرى وقتئذ خارجه أيضا

يزيح الستار عن كثير من الأسرار السياسية واسرار العمل الفدائى من ١٩٠٨ حتى ١٩٤٥ ــ ان عشرات من الأسئلة التى عجز الاجابة عنها البوليس والنيابة والقضاء والمباحث نصف قرن ، يجيب عليها صبرى أبو المجد فى كتابه مذكراتى فى السجن .

مطابع الهيئة المصرية

١٣٢٥ قرشــا